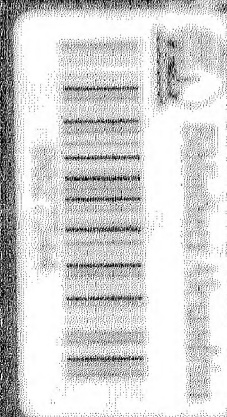


کتابخانه ابن سینا



دار کتب
بیرات



رحلة ابن بطوطة

حِصَّةُ ابْنِ بَطُّوطة



دارصادر
بيروت

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

ابن بطوطة

٧٠٤ - ٧٧٩ هـ ١٣٠٤ - ١٣٧٧ م

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ، نسبة إلى لواتة إحدى قبائل البربر ، المعروف بابن بطوطة ، والملقب بشمس الدين . ولد في طنجة ، فقل له الطنجي . ومكث فيها إلى أن بلغ الثانية والعشرين ، فاندفع بدافع التقوى ، وكان على قسط عظيم منها ، إلى الحج ، وانساق بحبه الأسفار إلى التجوال في بلدان العالم المعروف في أيامه ، فطاف في مصر وسوريا وجزيرة العرب ، وإفريقية الشرقية ، وآسية الصغرى ، وروسيا الجنوبية والهند والصين ، والأندلس والسودان .

ورحلاته ثلاث استغرقت كلها زهاء تسع وعشرين سنة ، أطولها السفرة الأولى التي لم يترك فيها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلا زارها . وأكثر ما كانت إقامته في الهند حيث تولّى القضاء سنتين ثم في الصين حيث تولّى القضاء سنة ونصفاً فوصف كل من شاهده وعرفه فيهما من سلاطين وخواتين ، وأناسي رجالاً ونساءً ، ووصف ملايسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافاتهم وترتيب مآكلهم ومشاربهم ، وما حدث في أثناء إقامته من حروب وغزوات وثورات وفتك بالسلطين والأمراء ورجال الدين . وكانت عاطفته الدينية تدفعه إلى زيارة المساجد والزوايا فلم يترك زاوية إلا زارها ونزل ضيفاً عليها حتى انه زار من جبل سرنديب المكان الذي يقال إن فيه أثر قدم آدم أبي البشر .

وهو أول من أخبر عن جماعة الهنود المعروفين بالجوكية السحرة ، وتكلّم على عاداتهم وتصرفاتهم ومكاشفاتهم ؛ وتكلّم كذلك على الأخيثة الفتيان وضيافاتهم . وعلى الاسماعيلية المعروفين بالفداوية وحصونهم وفتحهم ، وكذلك كان أول رحالة تغلغل في إفريقية وأعطى عنها معلومات قيّمة . وقد نزل بعد رحلاته في فاس وأقام في حاشية السلطان أبي عنان من أمراء بني مرّين ، يحدث الناس بما رآه وما سمعه ، فأمره السلطان بأن يكتب هذه الأخبار ؛ ولما كان الهنود قد سلبوه في بعض جولاته في الهند كلّ ما كان قد دوّنه في مذكراته ، أملى ، عن ظهر قلبه ، ما تذكّره ، على كاتب السلطان ، محمد بن جُزَيّ الكلبي ، وهذا ما يفسّر لنا ما يُرى في سياق رحلته من بعض هفوات جغرافية ، ومبالغات ، وقد سمّي مجموعة أخباره « تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ولكنها تُعرف اليوم برحلة ابن بطّوطة .

لم يكن رحالتنا عالماً ولا مفكراً ولا منشئاً بليغاً ، وإنّما كان جواب آفاق ، دقيق الملاحظة ، يرغب في الاطلاع على كلّ شيء غريب ؛ وكأن عاطفته الدينية القوية أبت عليه إلا أن يصدق ، دون تمحيص ، كلّ ما قصّ عليه من كرامات ، فدوتها كما أخبر بها فعله بما روي له عن لحية الشيخ جمال الدين ؛ وهكذا لم يكن يمتحّص ما قصّ عليه من أساطير وخرافات ، كحديث النساء ذوات الثدي الواحد ، والنفاريت التي كانت تضرب جزائر ذبّية المهمل ، فروى كلّ ذلك على علاته . على أنه كان أحياناً يقف موقف المشكّك في صحة الرواية فيقدّم لها بقوله : « يزعمون » أو يتبعها بقوله : « هذا في زعمهم » تنصلاً من تبعثها .

وأسلوبه في سرده أخباره فكّه ظريف . توخّى فيه الأمانة ، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بنفسه ، وهذا ما جعل المستشرق دوزي يلقّبه : « بالرحالة الأمين » .

ومهما كان من أمر فإن قصة رحلاته من أطرف القصص وأجزؤها نفعا

لما فيها من وصف للعادات والأخلاق ، ولما فيها من فوائد تاريخية وجغرافية ،
ومن ضبط لأسماء الرجال والنساء والمدن والأماكن .
وقد اهتمّ بها المستشرقون في انكلترا وفرنسا والبرتغال وألمانيا ، فترجموها
أو ترجموا أقساماً منها إلى لغاتهم وطبعوها . وقسمها ابن جُزَيّ إلى كتابين
وقف الأوّل منهما عند وصول صاحبها إلى نهر السند ، وأنهى الكتاب الثاني
بنهاية الرحلة الثالثة .

كرم البستاني

سورة الاحقاف

مقدمة ابن جزي

قال الشيخ الفقيه ، العالم الثقة النبيه ، الناسك الأبر ، وفدُ الله المُعتمِر شرفُ الدين المُعتمِد في سياحته على ربِّ العالمين ، أبو عبدِ الله محمدُ بن عبدِ الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثمَّ الطنجي ، المعروفُ بابن بَطَّوطة ، رحمه الله ورضي عنه بمنَّه وكرمه آمين .

الحمد لله الذي ذلَّل الأرضَ لعباده ليسلكوا منها سُبُلًا فيجاءوا . وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتاً وإعادةً وإخراجاً ، دحاهاً بقدرته ، فكانت مهاداً للعباد . وأرساها بالأعلام^٣ الراسيات والأطواد . ورفع فوقها سَمَكاً^٤ السماء بغير عِماد . وأطلع الكواكب هدايةً في ظُلُمات البرِّ والبحر . وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً ، ثمَّ أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ بعدَ المَمات . وأنبت فيها من كلِّ الثمرات ، وفطرَ أقطارها بصنوف النبات ، وفجَّرَ البحرين عذباً فُرَاتاً ، وملحاً أجاجاً^٥ . وأكملَ على

.....

١ الفجاج : الواسعة ، الواحد فج .

٢ دحاها : بسطها .

٣ الأعلام : الجبال ، الواحد علم ، وكذلك الأطواد والواحد طود .

٤ السك : السقف .

٥ فطر : شق .

٦ أجاجاً : مرأ .

خَلَقَهُ الْإِنْعَامَ بِتَذْلِيلٍ مَطَايَا الْأَنْعَامِ^١ . وَتَسْخِيرِ الْمُنْشَأَتِ^٢ كَالْأَعْلَامِ لِنَمْتَطُوا
 مِنْ صَهْوَةِ الْقَفْرِ وَمَتْنِ الْبَحْرِ أَثْبَاجاً^٣ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الَّذِي
 أَوْضَحَ لِلخَلْقِ مِنْهَاجاً . وَطَلَعَ نُورَ هِدَايَتِهِ وَهَاجاً . بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَاخْتَارَهُ
 خَاتِماً لِلنَّبِيِّينَ وَأَمَكَّنَ صَوَارِمَهُ مِنْ رِقَابِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ
 اللَّهِ أَفْوَاجاً^٤ . وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَأَنْطَقَ بِتَصْدِيقِهِ الْجَمَادَاتِ ، وَأَحْيَا
 بِدَعْوَتِهِ الرِّمَمَ الْبَالِيَاتِ ، وَفَجَّرَ مِنْ بَيْنِ أُنَامِلِهِ مَاءَ ثَجَاجاً^٥ ، وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى
 عَنِ الْمُتَشْرِفِينَ بِالْإِتِّمَاءِ إِلَيْهِ أَصْحَاباً وَآلَاً وَأَزْوَاجاً ، الْمُقِيمِينَ ثِقَاةَ الدِّينِ ،
 فَلَا تَخْشَى بَعْدَهُمْ أَعْوِجَاجاً ، فَهَمَّ الَّذِينَ آزَرُوهُ عَلَى جِهَادِ الْأَعْدَاءِ ، وَظَاهَرُوهُ
 عَلَى إظهارِ الْمِلَّةِ الْبَيْضَاءِ ، وَقَامُوا بِحَقِّهَا الْكَرِيمَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ وَالنَّصْرَةِ وَالْإِيْوَاءِ ،
 وَاقْتَحَمُوا دُونَهُ نَارَ الْبَاسِ حَامِيَةً ، وَخَاضُوا بِحَرِّ الْمَوْتِ عَجَاجاً ، وَنَسْتَوْهَبُ
 اللَّهَ تَعَالَى لِمَوْلَانَا الْإِمَامِ الْخَلِيفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكَّلِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمُجَاهِدِ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمُؤَيَّدِ بِنَصْرِ اللَّهِ ، أَبِي عَنَّانِ فَارَسِ بْنِ مَوَالِينَا الْأُئِمَّةِ الْمُتَهْتَدِينَ
 الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ نَصراً يَوْسَعُ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا ابْتِهَاجاً . وَسَعْدُكَ يَكُونُ لِرِزْمَانَةِ^٥
 الزَّمَانِ عِلَاجاً . كَمَا وَهَبَهُ اللَّهُ بِأَسَا وَجُوداً لَمْ يَدْعُ طَاغِيّاً وَلَا مُحْتَاجاً . وَجَعَلَ
 بِسَيْفِهِ وَسَيْبِهِ لِكُلِّ ضَيْقَةٍ انْفِرَاجاً .

وَبَعْدُ فَقَدْ قَضَتْ الْعُقُولُ ، وَحُكِمَ الْمَعْقُولُ وَالْمُنْقُولُ ، بِأَنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ
 الْعَلِيَّةَ ، الْمُجَاهِدَةَ الْمُتَوَكَّلَةَ الْفَارَسِيَّةَ ؛ هِيَ ظِلُّ اللَّهِ الْمُدَوَّدِ عَلَى الْأَنَامِ ، وَحَبْلُهُ
 الَّذِي بِهِ الْإِعْتَصَامُ ، وَفِي سَيْلِكَ طَاعَتِهِ يَجِبُ الْإِنْتِظَامُ ، فَهِيَ الَّتِي أَبْرَأَتِ الدِّينَ
 عِنْدَ اعْتِلَالِهِ ، وَأَغْمَدَتِ سَيْفَ الْعِدْوَانِ عِنْدَ انْسِلَالِهِ ، وَأَصْلَحَتِ الْأَيَّامَ بَعْدَ

١ الْأَنْعَامُ جَمْعُ النَّعَمِ : الْإِبِلُ .

٢ الْمُنْشَأَتُ : السُّفُنُ .

٣ الْأَثْبَاجُ ، الْوَاحِدُ ثَبِيجٌ : مَعْظَمُ الْمَاءِ .

٤ ثَجَاجاً : شَدِيدُ الْإِنْتِصَابِ .

٥ الزَّمَانَةُ : الْمَاهَةُ .

فسادها ، ونفقت سوق العلم بعد كسادها ، وأوضحت طرق البرّ عند إنهاجها^١ ، وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها ، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها ، وأمات رسوم المظالم بعد حياتها ، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، ونقضت أحكام البغي عند استقلالها ، وشادت مبانى الحق على عماد التقوى ، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى ، فلها العزّ الذي عُقِدَ تاجه على مقرّ الجوزاء ، والمجد الذي جرّ أذياله على مسجّرة السماء ، والسعد الذي ردّ على الزمان غضّ شبابه ، والعدل الذي على أهل الإيمان مدّ يد أطنا به ، والجود الذي قطر سحابه اللّجين والنّصار ، والبأس الذي فيه غمامة الدرّ الموار ، والنصر الذي تفّض كتائبه الأجل ، والتأييد الذي يعصّ غنائمه الدول ، والبطش الذي سبق سيفه العدل ، والأناة التي لا يُمَلّ عندها الأمل ، والحزم الذي يسدّ على الأعداء وجوه المسارب ، والعزم الذي يفلّ جموعها قبل قيراع الكتائب ، والحلم الذي ينجي العفو من ثمر الذنوب ، والرفق الذي جمّع على محبته بنات القلوب ، والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكيلات ، والعمل المقيّد بالإخلاص ، والأعمال بالنيات .

ولما كانت حضرته العلية ، مطمح الآمال ، ومسرّح همم الرجال ، ومحطّ رجال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ، ومُنية السائل ، توخّى الرّمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع طرّفه ، فانثال عليها العلماء انثيال جودها على العفاة^٢ ، وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العداة ، وحجّ العارفون حرّمها الشريف ، وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعزّ جنابها ، واستجارت الملوك بخدمة أبوابها ، فهي القطب الذي عليه مدار العالم . وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم ،

١ إنهاجها : إخلالها .

٢ العفاة : طالبو المعروف .

وعن مآثرها الفائقة يُسندُ صحاح الآثار كلَّ مُسلم ، وبإكمال محاسنها الرائقة يُنصّح كلَّ معلّم .

وكان ممّن وفد على بابها السامي وتعدّى أوْشال البلاد إلى بحرّها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق ، جوال الأرض ، ومُخترقُ الأقاليم بالطول والعرض ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين ، وهو الذي طاف الأرض معتبراً ، وطوى الأمصار مخبراً ، وباحتَ فِرَقَ الأسم ، وسبّر سِيرَ العرب والعجم ، ثمّ ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا تُنْيا ، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب ، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب ، اختياراً بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبةً في اللّحاق بالطائفة التي لا تزال على الحقّ ، فغمره من إحسانه الجزيل وامتنانه الحفيّ الحفيل ما أنساه الماضي بالحال ، وأغناه عن طول التّرحال ، وحقّر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهّمه ، فنسي ما كان ألفه من جّولان البلاد ، وظفّير بالمرعى الحصب ، بعد طول الارتياح .

ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملّي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علّق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيّه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخبار وأوليائها الأبرار ، فأملّى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والتواظر . من كلّ غريبة أفاد باجتماعها ، وعجبية اطرف بانتحائها . وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرّف بخدمة جنابهم . محمد بن محمد بن جُزّي الكلبي أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه شكرَ نعمتهم ، أن يضمّ أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولليل مقاصده مكتملاً ، متوخّياً تنقيح الكلام وتهذيبه

١ الدنيا : الاستثناء .

معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطُرف . ويعظم الانتفاع
 بدورها عند تجريده عن الصِّدْف . فامتثل ما أمر به مبادراً . وشرح في منهاه
 ليكون بمعونة الله عن توفية الفَرْض منه مبادراً . ونقلنا معاني كلام الشيخ
 أبي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها . موضحة للمحتاجي إلى اعتمادها .
 وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأمله ولا فرعه . وأوردت جميع
 ما أورده من الحكايات والأخبار . ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا
 اختبار . على أنه سلك في إسناد صحيحها أقوم المسالك . وخرج عن عهد
 سائر ما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال
 بالشكل والنقط . ليكون أنفع في التصحيح وال ضبط . وشرحت ما أمكنني
 شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس . ويخطئ
 في فك معتمداً معهود القياس . وأنا أرجو أن يقع ما قصده من المقام العلي .
 أياده الله . بمحل المال . وأباعد من الإغضاء عن تفسير المأمول . فعوائدهم
 في السماح حميلة . ومكارمهم بالصفوح عن الغفوات كريمة . والله تعالى يديم
 لهم عادة النصر والتمكين . ويعرفهم عوارف الأياد والفتح المسين .

الخروج من طنجة

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة^١ معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيق آتس بصحبته ، وركب أكون في جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم^٢ . فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور . وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور . وكان والدائي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً ، وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة .

قال ابن جزي : أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة^٣ .

وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الذي رويت أخبار جوده موصولة بالإسناد بالأسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد . وتحلت الأيتام بحلى فضله . وترع الأنام في ظل رفقه وعدله . الإمام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فلّ حدّ الشرك صدق عزائم . وأطفأت نار الكفر جداول صارمه . وفتكت بعباد الصليب كتائبه . وكرمت في إخلاص الجهاد مذهب . الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدّ الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم

١ سنة ١٣٢٤ م .

٢ الحيازم ، الواحد حيزوم : وسط الصدر .

٣ سنة ١٣٠٣ م .

المقدسة من صوب الحيا طلته وتهتانه^١ . وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين . وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين ؛ فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر اسن ابن زيان . ووافقت بها رسولتي ملك إفريقية السلطان أبي يحيى ، رحمه الله ، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم النفاوي ، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي — نسبة إلى قرية بساحل المهدية — وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين .

وفي يوم وصولي إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار عليّ بعض الإخوان بمرافقتهما، فاستخرت الله ، عزّ وجلّ ، في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء مأربي وخرجت أجدّ السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها ، وذلك في إبان القيظ ، فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشراً ثم ارتحلنا ، وقد اشتدّ المرض بالقاضي منهما ، فأقمنا ببعض المياه ، على مسافة أربعة أميال من مليانة ، ثلاثاً ، وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي إلى مليانة ، فقبروه بها وتركتهما هنالك ، وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، والحاج العدولي ومحمد بن الحجر . وصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياماً إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجّهنا جميعاً على منبجة^٢ إلى جبل الزان ، ثم وصلنا إلى مدينة بسجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي ، ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسّر .

وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيّد الناس الحاجب ، وكان

١ الطل : المطر الخفيف . التهتان : المطر الغزير .

٢ لم نجد لفظة منبجة ولعلها في المغرب اسم لأداة من أدوات النقل .

قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره ، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس ، فأنتهى خبره لابن سيد الناس المذكور ، فانتزعها من يده ، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدّين وولاتهم .

ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته أصابني الحمى فأشار عليّ أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكنّ البرء مني فأبيت ، وقلت : إن قضى الله ، عز وجل ، بالموت فتكون وفاتي بالطريق ، وأنا قاصد أرض الحجاز ، فقال لي : أما إن عزمت فبع دابّتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابةً وخباء ، وتصحبنا خفيفاً ، فإتّنا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق . ففعلت هذا وأعارني ما وعد به جزاءه الله خيراً . وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألفاف الإلهية في تلك الوجهة الحجازية .

وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها ، وأصابنا مطر جود ؛ فاضطّررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك ، فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة ، وهو من الشرفاء الفضلاء ، يسمّى بأبي الحسن ، فنظر إلى ثيابي وقد لوّثها المطر فأمر بغسلها في داره ، وكان الإحرام^١ منها خلقاً فبعث مكانه إحراماً بعلبكياً ، وصرّ في أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح به عليّ في وجهتي .

ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بؤنة ، ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياماً ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار لأجل الخسوف^٢ في الطريق ، وتجرّدنا للسير ، وواصلنا الجدد ، وأصابني الحمى ، فكنت أشدّ نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكنني النزول من الخوف ،

١ الإحرام : نوع من لباس الرأس كان يستعمله أهل الأندلس والمغرب .

٢ الخسوف : أراد غرق الطريق بالمياه .

إلى أن وصلنا مدينة تُونُسَ ، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ، ولقاء أبي الطيّب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوي ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم عليّ أحدٌ لعدم معرفتي بهم ، فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة ، واشتدّ بكائي ، فشعر بحالي بعض الحجاج ، فأقبل عليّ بالسلام والإيناس ، وما زال يؤنسي بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتّيبين .

قال ابن جزّي : أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات ، محمد بن محمد إبراهيم السّلمي ، هو ابن الحاج البلفيقي : أنّه جرى له مثل هذه الحكاية ؛ قال : قصدت مدينة بلّش من بلاد الأندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله بن الكمّاد ، وحضرت المصلّي مع الناس ، فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام ، وأنا في ناحية لا يسلم عليّ أحد ، فقصد إليّ شيخ من أهل المدينة المذكورة ، وأقبل عليّ بالسلام والإيناس ، وقال : نظرت إليك فرأيتك متبذراً عن الناس ، لا يسلم عليك أحد ، فعرفت أنّك غريب ، فأحببت إيناسك ، جزاه الله خيراً .

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس عند دخولي إليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان أبي زكريّا يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي زكريّا يحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص ، رحمه الله . وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد ابن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصاري الخزرجي البُلنسي الأصل ثمّ التونسي هو ابن الغمّاز ، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد

الرفيع الربيعي ، ووليّ أيضاً قضاء الجماعة في خمس دول ؛ ومنهم الفقيه أبو عليّ عمر بن عليّ بن قَدّاح الهواري ، ووليّ أيضاً قضاءها ، وكان من أعلام العلماء ، ومن عوائده أنّه يستند كلّ يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس في المسائل ، فلمّا أفتى في أربعين مسألةً انصرف عن مجلسه ذلك .

وأظنّني بتونس عيد الفطر فحضرتُ المصلّي ، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ، ووافي السلطان أبو يحيى المذكور راكباً وجميعُ أقاربه وخواصّه وخدام مملكته مشاةً على أقدامهم ، في ترتيب عجيب ، وصلّيت الصلاة وانقضت الخطبةُ وانصرف الناس إلى منازلهم ؛ وبعد مدّة تعيّن لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من بلاد إفريقية ، وأكثره المصادمة ، فقدموني قاضياً بينهم . وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل ، فوصلنا إلى بلدة سوسة ، وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلاً ، ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس ، وبخارج هذه البلدة قبر الإمام أبي الحسن اللّخمي المالكي ، مؤلّف كتاب التبصيرة في الفقه . قال ابن جزّي : في بلدة صفاقس يقول عليّ بن حبيب التنوخي :

سَقِيًّا لَأَرْضِ صَفَّاقِيسِ ذَاتِ الْمَصَانِعِ وَالْمُصَلِّي^١
مَحْمَى الْقَصِيرِ إِلَى الْخَلِيجِ ، فَتَقَصَّرُهَا السَّامِي الْمُعَلِّي^٢
بَلَدٌ يَكَادُ يَقُولُ ، حِينَ تَزُورُهُ : أَهْلًا وَسَهْلًا
وَكَأَنَّهُ ، وَالْبَحْرُ يَحْسُ رُ تَارَةً عَنْهُ وَيَمْلَأُ^٣

- ١ المصانع : القرى والحصون والقصور ؛ وما يجمع فيه ماء المطر كالخوض .
٢ محمى : أي حصى . القصير : لعله أراد به السيل القصير الذي لا ييل وادياً ، أو أنها تصغير قصر .
٣ حصر الماء : انكشف .

صَبُّ يُرِيدُ زِيَارَةً فَإِذَا رَأَى الرَّقَبَاءَ وَلَّى

وفي عكس ذلك يقول الأديبُ البارِعُ أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المجيدين المكثرين :

صَفَاقِسُ لَا صَفَا عَيْشُ لِسَاكِينِهَا وَلَا سَقَى أَرْضَهَا غَيْثُ إِذَا انْسَكَبَا
نَاهِيكَ مِنْ بَلَدَةٍ مَنْ حَلَّ سَاحَتَهَا عَانَى بِهَا الْعَادِيَيْنِ : الرُّومَ وَالْعَرَبِيَا
كَمْ ضَلَّ فِي الْبَرِّ مَسْلُوبًا بَضَاعَتَهُ وَبَاتَ فِي الْبَحْرِ يَشْكُو الْأَسْرَ وَالْعَطَشَا
قَدْ عَايَنَ الْبَحْرَ مِنْ لُثْمٍ لِقَاطِنِهَا فَتَكَلَّمَا هَمَّ أَنْ يَسْدُو لَهَا هَرَبَا
ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ قَابُسَ ، وَنَزَلْنَا بِدَاخِلِهَا وَأَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا لِتَوَالِي نَزُولِ
الْأَمْطَارِ .

قال ابن جُزَيٍّ : في ذكر قابس يقول بعضهم :

لَهْفِي عَلَى طَيْبِ لَيْتَالٍ خَلَّتْ بِيْجَانِبِ الْبَطْطَحَاءِ مِنْ قَابُسٍ
كَأَنَّ قَلْبِي ، عِنْدَ تَذَكُّرِهَا ، جُدُوَّةُ نَارٍ بِيَدِ الْقَابُسِ

ثمَّ خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلسَ ، وصحبنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس ، أو يزيدون ، وكان بالركب قومٌ رماةٌ فهابتهم العرب ، وتحامت مكانتهم ، وعصمنا الله منهم ، وأظلمنا عيدُ الأضحى في بعض تلك المراحل ، وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس ، فأقمنا بها مدةً ، وكنتُ عقدتُ بصفاقسَ على بنتٍ لبعض أمناء تونسَ ، فبنيتُ عليها بطرابلسَ ، ثمَّ خرجتُ من طرابلسَ ، أواخرَ شهرِ المحرمَ ، من عام ستَّة وعشرين وسبعمائةٍ ومعِي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة ، وقد رفعتُ العَلَمَ ، وتقدَّمتُ عليهم . وأقام الركبُ في طرابلسَ خوفاً من البرد والمطر وتجاوزنا مسَّلاتة

١ سنة ١٣٢٥ م .

ومَسْرَآتِه وقصورَ سرتَ ، وهنالك أُرادت طوائف العرب الإيقاعَ بنا ثمَّ
 صرفتهم القدرةُ ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا .
 ثمَّ توسلنا الغابة ، وتجاوزناها إلى قصر بَرصيصا العابد ، إلى قبة سلام ،
 وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ، ووقع بيني وبينَ صِهْزِي مشاجرةً
 أَوْجَبَتْ فِرَاقَ بِنْتِهِ ، وتزوَّجتُ بنتاً لبعض طلبة فاس ، وبنيتُ بها بقصر
 الزعافية ، وأولمتُ وَلِيمةً حبستُ لها الركبَ يوماً ، وأطعمتهم .
 ثمَّ وصلنا في أوّل جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية ، حرسها الله ،
 وهي الثغرُ المحروس والقطرُ المأنوس ، العجبة الشأن الأصيله البنيان ، بها ما
 شئت من تحسّين وتحصّين ، ومآثر دنيا ودين ؛ كرمتُ مغانيها ولطفتُ معانيها ،
 وجمعتُ بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهي الفريدة في تجلّي سناها ، والخريدة
 تُسجّل في حلالها ، الزاهية بجمالها المُغرِب ، الجامعة لمُفترق المحاسن ، لتوسطها
 بين المَشْرِيق والمَغْرِب ، فكلّ بدِيعه بها اجتلاؤها ، وكلّ طُرْفه فإليها انتهائها .
 وقد وصفها الناس فأطنبوا . وصنّفوا في عجائبها فأغربوا ، وحسب المشرف
 إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك .

ذكر أبوابها ومرساها

وللمدينة الإسكندرية أربعة أبواب ، باب السّدره ، وإليه يشرعُ طريق
 المَغْرِب . وباب رشيد . وباب البحر . والباب الأخضر ، وليس يُفتَحُ إلا يوم
 الجمعة ، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور . ولها المَرَسَى العظيم الشأن ،
 ولم أرَ في مَرَّاسِي الدنيا مثله ، إلا ما كان من مَرَّسَى كُولم وقاليقوط ببلاد
 الهند ، ومَرَّسَى الكفار بسُرَّادق ببلاد الأتراك ، ومَرَّسَى الزيتون ببلاد الصّين
 وسيقع ذكرها .

ذكر المنار

قصدتُ المنار في هذه الوجهة فرأيتُ أحد جوانبه متهدماً . وصفته أنه بناء مربع ذاهبٌ في الهواء ، وبابه مرتفعٌ على الأرض ، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وُضعت بينهما ألواح خشب يُعبر عليها إلى بابه ، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل . وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوتٌ كثيرة ، وعرض الممرّ بداخله تسعة أشبار ، وعرض الحائط عشرة أشبار ، وعرض المنار من كلّ جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً ، وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ^١ واحد في برّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتّصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البرّ إلا من المدينة . وفي هذا البرّ المتّصل بالمنار مقبرة الإسكندرية . وقصدتُ المنار عندَ عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمئة^٢ فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه . وكان الملك الناصر ، رحمه الله ، قد شرع في بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه .

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرّخام الهائل الذي بخارجها المسمّى عندهم بعمود السواري ، وهو متوسطٌ في غابةٍ نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموّاً وارتفاعاً ، وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أُقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدّكاكين العظيمة ، ولا تُعرف كيفيّة وضعه هنالك ، ولا يتحقق

١ الفرسخ : ثلاثة أميال عربية .

٢ سنة ١٣٤٩ م .

من وضعه .

قال ابن جُزَيّ : أخبرني بعض أشياخي الرحّالين أن أحد الرّمالة بالاسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته ، واستقرّ هنالك ، وشاع خبره ، فاجتمع الحُجّم الغفير لمشاهدته ، وطال العجبُ منه . وخفي على الناس وجه احتياله ، وأظنّه كان خائفاً أو طالبَ حاجة فأنّج له فعله الوصول إلى قصده ، لغرابة ما أتى به .

وكيفية احتياله في صعوده أنّه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطاً طويلاً ، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً ، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ، ووقعت من الجهة الموازية للرامي ، فصار الخيطُ معترضاً على أعلى العمود فجذبه حتى توسّط الحبلُ أعلى العمود مكان الخيط ، فأوسطه من إحدى الجهتين في الأرض ، وتعلّق به صاعداً من الجهة الأخرى واستقرّ بأعلاه وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله ، فلم يهتدِ الناس لحيلته وعجبوا من شأنه . وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمّى بصلاح الدين ، وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان إفريقية المخلوع ، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف بالّتحياي ، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من الاسكندرية ، وأجرى له مائة درهم في كلّ يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري وإسكندري وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية توفي اللّحياني المذكور وولده الإسكندري وبقي المصري بها إلى اليوم .

قال ابن جُزَيّ : من الغريب ما اتّفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللّحياني الإسكندري والمصري فمات الإسكندري بها وعاش المصري دهرأ طويلاً بها . وهي من بلاد مصر^١ .

وتحوّل عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وإفريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة.

١ قوله : وهي من بلاد مصر ، لعله راجع إلى الإسكندرية التي يقول إنه وصل إليها .

ذكر بعض علماء الاسكندرية

فمنهم قاضيا عماد الدين الكندي إمامٌ من أئمة علم اللسان ، وكان يعتمّ بعمامة خرقت المعتاد للعلماء لم أرَ في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ؛ رأيتُه يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ؛ ومنهم فخر الدين بن الريفي وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم .

حكاية الفأل الحسن

يذكر أن جدّ القاضي فخر الدين الريفي كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثمّ رحل إلى الحجاز فوصل الإسكندرية بالعشي ، وهو قليل ذات اليد ، فأحبّ أن لا يدخلها حتى يسمع فالاً حسناً ، ففقد قريباً من بابها إلى أن دخل جميعُ الناس ، وجاء وقتُ سدّ الباب ، ولم يبقَ هنالك سواه ، فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه ، وقال متهمّاً : ادخل يا قاضي ! فقال : قاضي إن شاء الله ! ودخل إلى بعض المدارس ، ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء ، فعظم صيته وشهرَ اسمه وعُرفَ بالزهد والورع ، واتّصلت أخباره بملك مصر . واتفق أن توفي قاضي الإسكندرية ، وبها إذ ذاك الجهمّ الغفير من الفقهاء والعلماء ، وكلّهم متشوّفٌ للولاية ، وهو من بينهم لا يتشوّف لذلك ، فبعث إليه السلطان بالتقليد ، وهو ظهير القضاء ، وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادي في الناس : من كان له خصومة فليحضر لها ، وقعد للفصل بين الناس ، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعدّاه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأنّ الناس لا يرتضونه ، وحضر لذلك أحد الخدّاق من المنجمين ، فقال لهم : لا تفعلوا ذلك ، فإنّي

عدلتُ طالعَ ولايته وحققته ، فظهرَ لي أنه يحكم أربعين سنة ؛ فأضربوا عمّا همّوا به من المراجعة في شأنه .

وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعُرف في ولايته بالعدل والنزاهة ؛ ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضائها مشتهر بالعلم والفضل ؛ ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر ؛ ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع ردّ السلام عليه إذا سلم من صلاته ؛ ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات^١ .

ذكر كرامة له

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال : رأى الشيخ خليفة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم فقال : يا خليفة زرنّا ! فرحل إلى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم ، فدخل من باب السلام، وحيّا المسجد، وسلم على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقعد مستنداً إلى بعض سوارى المسجد ، ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يُسمّى عند المتصوّفة الترفيق . فلمّا رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن، وطبقاً فيه تمرٌ ، فأكل هو وأصحابه، وانصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحجّ تلك السنة ؛ ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهّاد وأفراد العباد، لقيته أيام مقامي بالإسكندرية وأقيمتُ في ضيافته ثلاثاً .

ذكر كرامة له

دخلتُ عليه يوماً فقال لي : أراك تحبّ السياحة والجولان في البلاد . فقلتُ له : نعم إني أحبّ ذلك . ولم يكن حينئذٍ بخاطري التوغّل في البلاد القاصية .
١ المكاشفات : معرفة الأمور الغيبية بإلهام إلهي .

من الهند والصين . فقال : لا بدّ لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند ، وأخي ركن الدين زكريّا بالسند ، وأخي برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام . فعجبتُ من قوله وألقى في روعي^١ التوجّه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيتُ الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه . ولما ودّعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة ولم أحتجّ بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها مني كفتّار الهنود فيما سلبوه لي في البحر .

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من أفراد الرّجال وهو تلميذ أبي العباس المرسي وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

كرامة لأبي الحسن الشاذلي

أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن أبا الحسن كان يحجّ في كلّ سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحجّ ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده ، فلمّا كان في بعض السنين ، وهي آخر سنة خرج فيها ، قال لخديمه : استصحب فأساً وقفّة وحنوطاً ، وما يُجهّزُ به الميت ، فقال له الخديم : ولم ذا يا سيّدي ؟ فقال له : في حميئرا سوف ترى . وحميئرا في صعيد مصر في صحراء عميداب ، وبها عين ماء زعاق ، وهي كثيرة الضّباب . فلمّا بلغا حميئرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله ، عزّ وجلّ ، في آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زُرْتُ قبره وعليه تَبْرِيتٌ^٢ مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن عليّ ، رضي الله عنه .

... ..

١ الروح : الذهن ، العقل .

٢ التبرية ، نسبة إلى التبر : الذهب ، وقد تكون من النحاس أو الحديد أو الرصاص .

ذكر حزب البحر المنسوب إليه

كان يسافر في كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدّة ، فكان إذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم ، وتلامذته إلى الآن يقرؤونه في كل يوم وهو هذا : يا الله يا علي يا عظيم يا حلیم يا علیم أنت ربی وعلمك حسبي ، فنعم الرب ربی ، ونعم الحسب حسبي . تنصر من تشاء ، وأنت العزيز الرحيم . نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب ، فقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالات شديداً ليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ؛ فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى ، عليه السلام ، وسخرت النار لإبراهيم ، عليه السلام ، وسخرت الجبال والحديد لداود ، عليه السلام ، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان ، عليه السلام ، وسخر لنا كل بحر هو لك في الأرض والسماء والملك والملوك ، وبحر الدنيا ، وبحر الآخرة ؛ وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء ، كهيعص ، حم ، عسق ، انصرنا فإنك خير الناصرين ، وافتح لنا فإنك خير الفائحين ، واغفر لنا فإنك خير الغافرين ، وارحمنا فإنك خير الراحمين ، وارزقني فإنك خير الرّازقين ، واهدنا ونجنا من القوم الظالمين ، وهب لنا ريحاً طيبة كما هي في علمك ، وانشرها علينا من خزائن رحمتك ، واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية في السدين والدنيا والآخرة ؛ إنك على كل شيء قدير ، اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا ، والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا ، وكن لنا صاحباً في سفرنا ، وخليفة في أهلنا ، واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم . فلا يستطيعون المضي ولا المجيء إلينا ، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا

الحزب : ما يجعله المسلم على نفسه من قراءة وصلاة كالورد .

وقاتلهم من أعلاه ، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر ، فبعث أميراً يعرف بالبحالي ثم أتبعه أميراً يعرف بطوغان جبار قاسي القلب متهم في دينه ، يقال أنه كان يعبد الشمس ، فدخل الاسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكوبك وسواهم ، وأخذ منهم الأموال الطائلة ، وجعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد . ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً وجعلا كل رجل قطعتين ، وصلباهم صفتين ، وذلك في يوم جمعة .

وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور ، وشاهدوا مصارع القوم ، فعظمت حسرتهم ، وتضاعفت أحزانهم ، وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يُعرف بابن رواحة ، وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة ، وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها ، فزل لسانه وقال للأميرين : أنا أضمن هذه المدينة ، وكل ما يحدث فيها أطلب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال . فأنكر الأميران قوله ، وقالوا : إنما تريد الثورة على السلطان ، وقتلاه ، وإنما كان قصده ، رحمه الله ، إظهار النصيح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه .

وكنتم سمعنا أيام إقامتي بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي ، وهو من كبار الأولياء المكاشفين ، أنه منقطع بمنية بني مرشد له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ، ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام ، وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوياً ، فيأتي لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك في غير إبطائه ، ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة فيولّي ويعزل . وذلك كله من أمره مستفيض متواتر . وقد قصده الملك الناصر مرّات بموضعه ، فخرجت من مدينة

الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعا الله به ووصلتُ قرية تَرْوَجَة وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية ، قرية كبيرة بها قاضٍ ووالٍ وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة ، صحبتُ قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلاً من أهلها يسمّى بمبارك ، وينعتُ بزين الدين ، ونزلتُ بها على رجلٍ من العباد الفضلاء كبير القدر يسمّى عبد الوهّاب ، وأضافني ناظرها زين الدين بن الواغظ ، وسألني عن بلدي وعن مجاه فأخبرته أن مجباه نحو اثني عشر ألفاً من دينار الذهب ، فعجب وقال لي: رأيتَ هذه القرية ، فإنَّ مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً ، وإنما عظمت مجايي ديار مصر لأنَّ جميع أملاكها لبيت المال .

ثمَّ خرجتُ من هذه القرية فوصلتُ مدينة دَمَنْهُور ، وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها ، وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولّى قضاء الإسكندرية لما عُرِل عنها عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها . وأخبرني الثقة أنَّ ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم ، وصرفها من دنائير الذهب ألف دينار ، على ولاية القضاء بالإسكندرية .

ثمَّ رحلنا إلى مدينة فتّوّا ، وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة . بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم ، خبير تلك البلاد ، وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك ؛ فلما وصلتُ المدينة تعديتها ووصلتُ إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر ، وسلمتُ عليه ، ووجدتُ عنده الأمير سلف الدين يَكْمَلُك وهو من الخاصكية ، والعامّة تقول فيه الملك ، فيخطئون . ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية ، ولما دخلتُ على الشيخ ، رحمه الله ، قام إليّ وعانقني ، وأحضر طعاماً فواكلني ، وكانت عليه جبة صوف سوداء ، فلما حضرت صلاة العصر قدّمني للصلاة إماماً وكذلك لكلِّ

ما حضرني عنده حين إقامتي معه من الصلاة ، ولما أردتُ النومَ قال لي : اصعدْ إلى سطح الزاوية فمَ هناك ، وذلك أوان القيظ ، فقلتُ للأمير : بسم الله . فقال لي : وما منّا إلّا لَه مَقام معلوم . فصعدتُ السطحَ فوجدتُ به حصيراً ونِيطعاً وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحاً للشرب ، فنمتُ هناك .

كرامة لهذا الشيخ

رأيتُ ليلتي تلك ، وأنا نائم بسطح الزاوية ، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة ، يتيامن ثمَّ يشرق ثمَّ يذهب في ناحية الجنوب ثمَّ يُبعد الطيران في ناحية الشرق ، وينزل في أرض مظلمة خضراء ، ويتركني بها ، فعمجتُ من هذه الرؤيا ، وقلتُ في نفسي : إن كاشفني الشيخُ برؤيائي ، فهو كما يُحكى عنه . فلما غدوتُ لصلاة الصبح قدمني لإماماً لهذا ثمَّ أتاه الأمير يَلْمَسُكَ ، فوادعه وانصرف ، ووادعه من كان هناك من الزوّار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كُعيكاتٍ صغاراً .

ثمَّ سبحت سبحة الضّحى ودعاني وكاشفني برؤيائي فقصصتها عليه ، فقال : سوف تحجّ وتزور النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، وتجوّل في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك ، وتبقى بها مدّة طويلة ، وستلقى بها أخي دلشاد الهندي ، ويخلّصك من شدّة تقع فيها . ثمَّ زودني كُعيكاتٍ ودراهم ووادعته وانصرفت . ومنذُ فارقتُه لم ألقَ في أسفاري إلّا خيراً ، وظهرتُ عليّ بركاته ، ثمَّ لم ألقَ فيمن لقيته مثله إلّا الوليَّ سيّدي محمّداً المولّه بأرض الهند . ثمَّ رحلنا إلى مدينة النّحراريّة ، وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرّؤية . وأميرها كبير القدر يُعرف بالسعدي ، وولده في خدمة ملك الهند ، وسنذكره . وقاضيه صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية ، سَفَرَ عن الملك الناصر إلى العراق وولي قضاء البلاد الغربيّة ، وله هيئة جميلة

١ النطلع : بساط من الجلد .

وصورة حسنة ؛ وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصّالحين .
ورحلتُ منها إلى مدينة أبيّار ، وهي قديمة البناء ، أُرِجّة الأرجاء ، كثيرة
المساجد ، ذات حسن زائد ، وهي بمقربة من النّحرارية ، ويفصل بينهما النّيل ؛
وتُصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن
الغريب قربُ النّحرارية منها ، والثياب التي تُصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة
عند أهلها . ولقيتُ بأبيار قاضيها عزّ الدين المليجي الشافعي ، وهو كريم
الشمائل كبير القدر ، حضرتُ عنده مرّة يوم الرّكبة . وهم يسمّون ذلك
يوم ارتقاب هلال رمضان ، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها
بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ، ويقف على الباب
نقيب المتعمّمين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه
تلقّاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً : بسم الله سيدنا فلان الدين ، فيسمع
القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به ، فإذا تكاملوا
هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين ، وتبعهم جميع من بالمدينة من
الرّجال والنساء والصبيان ، ويتّهبون إلى موضع يرتفع خارج المدينة ، وهو
مرتقب الهلال عندهم ، وقد فُرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فيترل
فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ، ثمّ يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب ،
وبين أيديهم الشّمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم
الشمع ، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثمّ ينصرفون ، هكذا فعلهم في كلّ سنة .
ثمّ توجهت إلى مدينة المحلّة الكبيرة ، وهي جليّة المقدار ، حسنة الآثار ،
كثير أهلها ، جامع بالمحاسن شملها ، واسمها بيّس . ولهذا المدينة قاضي
القضاة والوالي الوّلاة ، وكان قاضي قضائها أيّام وُصُولي إليها في فراش المرض
بيستان له على مسافة فرسخين من البلد ، وهو عزّ الدين بن الأشمرين ، فقصدتُ
زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي ، وشرف الدين
الدميري قاضي محلّة منوف ، وأقمنا عنده يوماً ، وسمعتُ منه .

وقد جرى ذكر الصّالحين : ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد
البرُّلس ونسْتَرَو ، وهي بلاد الصّالحين ، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب
المكاشفات ، فقصدتُ تلك البلاد ونزلتُ بزاوية الشيخ المذكور . وتلك البلاد
كثيرة النخل والثمار والطير البحريّ والحوت المعروف بالبُوريّ، ومدينتهم
تُسمّى ملطين ، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر
المعروفة ببخيرة تِنيس ونسترو بمقربة منها ، نزلتُ هنالك بزاوية الشيخ شمس
الدين القلوي من الصّالحين ، وكانت تِنيس بلداً عظيماً شهيراً ، وهي الآن
خراب .

قال ابن جُزَيّ : يُنسب إلى تِنيس الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو
القائل في خليجها :

فَمُفَاسِقِي وَالْحَلِيجُ مُضْطَرِبٌ ، وَالرَّيْحُ تَشْنِي ذَوَائِبَ الْقَصَبِ
كَأَنَّهَا ، وَالرِّيَّاحُ تَعْطِفُهَا ، نَصْبُ قَنَا سُنْدُوسِيَةِ الْعَذَبِ
وَالْحَوُّ فِي حُلَّةٍ مُمَسَّكَةٍ قَدْ طَرَزَتْهَا الْبُرُوقُ بِالذَّهَبِ

والبرُّلس واقعٌ على البحر . ومن غريب ما اتفق به ما حكاه
أبو عبد الله الرازي عن أبيه : أن قاضي البرُّلس ، وكان رجلاً صالحاً ، خرج
ليلةً إلى النيل ، فبينما أسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلي إذ سمعَ قائلاً
يقول :

لَوْلَا رِجَالُ هُمْ سَرَدٌ يَصُومُونَا ، وَآخَرُونَ لَهُمْ وَرَدٌ يَقُومُونَا
لَنَزَلْنَا أَرْضَكُمْ مِنْ تَحْتِكُمْ سَحَرًا لَأَنكُمُ قَوْمٌ سَوَاءٌ لَا تَبَالُونَا

قال : فتجوزتُ في صلاقي وأدرتُ طرفي فما رأيتُ أحداً ولا سمعتُ

١ السرد : القراءة ، الورد : النصيب من القرآن .

حسّاً فعلمتُ أن ذلك زاجر من الله تعالى .

ثمّ سافرتُ في أرض رملة إلى مدينة دِمياط ، وهي مدينة فسيحة الأقطار ، متنوّعة الثّمار ، عجبية التّرتيب ، آخذة من كلّ حسن بنصيب ، والناس يضبطون اسمها بإعجام الدال ، وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن عليّ الرّشاطي ، وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدميّاطي إمام المحدثين يضبطها بإهمال الدال ، ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرّشاطي وغيره ، وهو أعرف بضبط اسم بلده .

ومدينة دِمياط على شاطئ النّيل ، وأهل الدّور الموالية له يَسْتَقُونَ منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دَرَكَات يُتَزَل فيها إلى النّيل ، وشجر الموز بها كثير يُحْمَل ثمره إلى مصر في المراكب ، وغنمها سائمةٌ هملًا بالنّيل والنّهار ، ولهذا يُقال في دِمياط : سورُها حَلَوَى ، وكلابها غَنَسَمٌ ، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس مُعْتَبَرًا طبع له في قطعة كاغد يستظهر به الحراسُ بابَها ، وغيرهم يطبع على ذراعه ، فيستظهرُ به . والطيرُ البحريّ بهذه المدينة كثير مُتَنَاهِي السمن ، وبها الألبانُ الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق ، وبها الحوتُ البوري يُحْمَلُ منها إلى الشام وبلاد الرّوم ومصر ، وبخارجها جزيرة بين البحرين والنّيل تسمّى البرزخ بها مسجد وزاوية ، لقيتُ بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرتُ عنده ليلة جمعة ، ومعه جماعة من الفقهاء الفضلاء المُتَعَبِّدِينَ الأخيار ، قطعوا ليلتهم صلاةً وقراءةً وذكرًا .

ودميّاط هذه حديثة البناء ، والمدينة القديمة هي التي خربها الإفرنج على عهد الملك الصّالح ، وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة

١ الكاغد : الورق . يستظهر به الحراس بابها : لعله يريد أن الحراس يستعملون هذا الكاغد ليخبروه من بابها .

بالقرندرية ، وهم الذين يخلقون لحاهم وحواجبهم . ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري .

حكاية لحيه الشيخ جمال الدين

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى خلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة ، حسن الوجه ، فعلقت به امرأة من أهل ساوة ، وكانت تراسله وتعارضه في الطرق ، وتدعوه لنفسها ، وهو يمتنع ويتهاون ، فلما أعيها أمره دسّت له عجوزاً تصدّت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد ، وببدها كتاباً مختوماً ، فلما مرّ بها قالت له : يا سيدي أتحسنُ القراءة ؟ قال : نعم ! قالت له : هذا الكتاب وجهه إليّ ولدي ، وأحب أن تقرأه عليّ . فقال لها : نعم ! فلما فتح الكتاب قالت له : يا سيدي ! إن لولدي زوجة ، وهي بأسطوان الدار ، فلو تفضّلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها . فأجابها لذلك ، فلما توسّط بين البابين أغلقت العجوز الباب ، وأخرجت المرأة جواربها فتعلّقن به ، وأدخلته إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسه . فلما رأى أن لا خلاص له قال لها : إني حيث تريدن ، فأرّيني بيت الخلاء ! فأرّته إيّاه ، فأدخل معه الماء ، وكانت عنده موسى جديدة فخلق لحيته وحاجبيه ، وخرج عليها فاستقبحت هيئته ، واستنكرت فعله ، وأمرت بإخراجه ، وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد . وصار كلّ من يسلك طريقته يخلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

كرامة لهذا الشيخ

يُذكر أنه لما قصد مدينة دميّاط لزم مقبرتها ، وكان بها قاضٍ يُعرف بابن العميد ، فخرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين

١ لعله أراد أسطوانة الدار : عبودها وساريتها ، أي ان هذه المرأة تنتظر عند سارية الدار .

بالمقبرة ، فقال له : أنتَ الشيخ المبتدع ؟
فقال له : وأنتَ القاضي الجاهل تمرّ بدابتكَ بين القبور وتعلمُ أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمة حيّاً !

فقال له القاضي : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك ، فقال له : لِمَ يَبي تعني ؟
وزعق الشيخ ثمّ رفع رأسه ، فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة ، فعجبَ القاضي ومن معه ونزل إليه عن بغلته ، ثمّ زعق ثانياً ، فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ، ثمّ زعق ثالثاً ورفع رأسه فإذا هو بلا لحية كهيشته الأولى . فقبّل القاضي يده وتلمذَ له وبنى له زاوية حسنة ، وصحبه أيام حياته ، ثمّ ماتَ الشيخ فدفن بزاويته . ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كلّ داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره . وبخارج دمياط المزار المعروف بشطّا ، وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية ، وله أيام في السنة معلومة لذلك . وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يُعرَفُ بالمِنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدتُ زاويته ، وبتّ عنده .

وكان بدمياط أيام إقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوي الإحسان والفضل ، بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نُزولي في تلك الأيام ، وتأكدتُ ببني وبينه مودة .

ثمّ سافرتُ إلى مدينة فارسكُور ، وهي مدينة على ساحل النيل ، ونزلتُ بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه إليّ الأمير المحسني فقال لي : إنّ الأميرَ سأل عنك ، وعرفَ بسيرتكَ ، فبعثَ إليك بهذه النفقة . ودفعَ إليّ جملةَ دراهم ، جزاء الله خيراً .

ثمّ سافرتُ إلى مدينة أشمُون الرمان ، ونُسِبتُ إلى الرمان لكثرة بها ، ومنها يُحمل إلى مصر ، وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ، ولها قنطرة خشب ترسو المراكبُ عندها ، فإذا كان العصرُ رُفعتْ تلك الخشب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة . وبهذه البلدة قاضي القضاة والي الولاية .

ثمّ سافرت عنها إلى مدينة سَمَنُود وهي على شاطئ النيل كثيرةُ المراكب
حسنةُ الأسواق ، وبينها وبين المحلّة الكبيرة ثلاثة فراسخ ، ومن هذه المدينة
ركبتُ النيل مُصعداً إلى مصر ما بين مدائنَ وقُرى منتظمةٍ مُتّصِل بعضها
ببعض ، ولا يفتقرُ راكبُ النيل إلى استصحاب الزاد لأنّه مهما أراد النزول
بالشاطيء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، والأسواق متّصلة
من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصّعيد .

ثمّ وصلت إلى مدينة مصر ، هي أمّ البلاد وقَرارة فرعون ذي الأوتاد ،
ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارات المتباهية بالحسن
والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحطّ رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئتَ
من عالم وجاهل ، وجادّ وهازل ، وحليمٍ وسفيه ، ووضعٍ ونبيه ، وشريفٍ
ومشروّف ، ومُنكرٍ ومعروف ، تموجُ مَوج البحر بسكانها ، وتكاد تضيقُ
بهم على سعة مكانها وامكانها ؛ شبابها يجتدّ على طول العهد ، وكوكب تعديّلها
لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرته الأمم ، وتمكّنت ملوكها نواصي
العرب والعجم . ولها خصوصية النيل الذي أجلّ خطرُها وأغناها عن أن يستمدّ
القطرَ قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السير ، كريمةُ التربة مؤنسة لذوي
الغربة .

قال ابن جرّي : وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مِصرٌ بمِصرٍ ، ولأنما هي الجنّة الدنّيا لمن يتبسّرُ
فأولادُها الولدانُ ، والخورُ عينها وروضتها الفردوسُ ، والنيلُ كوثرُ

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطيء مِصرٍ جنةٌ ، ما مثلهما من بلدٍ
لا سيّما منذُ زُخرفتْ بنيلها المطرِدِ
وللرياحِ فسوقه سوايحٌ من زردِ

مَسْرُودَةٌ مِمَّا مَسَّهَا دَاوُدُهَا بِمِيزِدٍ
سَائِلَةٌ ، هَوَاؤُهَا يُرْعِدُ عَارِي الْجَسَدِ
وَالْفَلَكُ كَالْأَفْلَاقِ بَيْتِ نَحَادِيرٍ وَمُصْعِدِ

ويقال انّ بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء ، وان
بها ثلاثين ألف مكارٍ ، وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان ،
والرعية تمرّ صاعدة إلى الصّعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع
الخيرات والمرافق ، وعلى ضفة النيل ممّا يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ،
وهو مكان النزهة والتفرّج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة .
وأهل مصر ذوو طربٍ وسرورٍ ولهوٍ ، شاهدتُ بها مرّة فرجة بسبب بُرء
الملك الناصر من كسر أصابَ يده فزيّنَ كلّ أهل سوق سوقهم وعلّقوا
بجوانيتهم الحُللَ والحُلِيَّ وثيابَ الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر ، تقام
فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية حيثُ كان
يدرّس الإمام أبو عبد الله الشافعي .
وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحدٌ بحصرها لكثرتها ، وأما المارستان الذي
بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسبته ،
وقد أعدت فيه من المرافق والأدوية ما لا يُحصر ، يُذكر أن مجابه ألف دينار
كلّ يوم .
وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق^١ ، واحداً خائفة . والأمراء
١ الخوانق : كالأديار عند النصارى .

بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معيّنة لطائفة من الفقراء^١ ، وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوّف . ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيبُ أمورهم عجيب .

ومن عوائدهم في الطعام أنّه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كلّ واحد ما يشتهي من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكلّ إنسان خبزته ومرفقه في إناء على حدة ، لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان في اليوم . ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين ، ولهم الحلاوة من السكر في كلّ ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . وهم أعزّاب ، وللمتزوّجين زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية .

ومن عوائدهم أن يجلس كلّ واحد منهم على سجادة مختصة به ، وإذا صلّوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملّك وسورة عمّ ، ثمّ يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كلّ فقير جزءاً ويختمون القرآن ، ويذكرون ، ثمّ يقرأ القراء على عادة أهل المشرق . ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

ومن عوائدهم مع القادم أنّه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وييمناه العكّاز ويسراه الإبريق ، فيعلمُ البوّاب خديم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ، ويسأله من أيّ البلاد أتى وبأيّ الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه ، فإذا عرف صحته قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدّد الوضوء ، ويأتي إلى سجادته ، فيحلّ وسطه ، ويصلّي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم .

ومن عوائدهم أنّهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك . ويخرجون مجتمعين ، ومعهم

١ الفقراء ، الواحد الفقير : المتعبد لله الذي يعيش من حسنات المؤمنين .

شيخهم ، فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته ، فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

ذكر قرافة مصر ومزاراتها^١

ولمصر القَرافة العظيمة الشأن في التبرك بها ، وقد جاء في فضلها أثرٌ أخرجه القرطبي وغيره لأنها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة ، وهم يبنون بالقرافة القبابَ الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان ، فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان . ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة^٢ ، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف المأكّل .

ومن المزارات الشريفة المشهدُ المقدّسُ العظيم الشأن حيث رأسُ الحسين ابن عليّ ، عليهما السلام ، وعليه رباط ضخّم عجيب البناء على أبواب حلق الفضّة وصفائحها أيضاً كذلك ، وهو مَوْفي الحقّ من الإجلال والتعظيم ، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ ، عليهم السلام ، وكانت مجابة الدعوة ، مجتهدة في العبادة ، وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود .

ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، رضي الله عنه . وعليها رباط كبير ، ولها جراية ضخمة وبها القبّة الشهيرة البديعة الاتقان ، العجيبة البناء ، المتناهية الإحكام ، المفرطة السموّ ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً .

١ القرافة : المقبرة المعروفة في مصر .

٢ التربة : القبر .

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر ، وبها عدد جمّ من الصحابة وصدور السلف والخلف ، رضي الله تعالى عنهم ، مثل : عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأصبغ بن الفرج ، وأبي عبد الحكيم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهّاب ، لكن ليس لهم بها اشتهاً ، ولا يعرفهم إلا من له بهم عناية . والشافعي ، رضي الله عنه ، ساعده الجسد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته ، فظهر من أمره مصداق قوله :

الجسد يندفى كل أمرٍ شائعٍ والجسد يفتح كل بابٍ مغلقٍ^١

ذكر نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عدوثةً مّداق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بصفته منتظمة ليس في المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يُزرعُ عليه ما يُزرعُ على النيل وليس في الأرض نهرٌ يُسمّى بجرّاً غيره . قال الله تعالى : فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمّ ، فسمّاه يَمّاً ، وهو البحر . وفي الحديث الصحيح : أن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى ، فإذا في أصلها أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فسأل عنها جبريل . عليه السلام ، فقال : أما الباطنان ففي الجنة . وأما الظاهران فالنيل والفرات .

وفي الحديث أيضاً : أن النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة . ويجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحرّ عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره .

١ يندفى : يجمع .

وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه ، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً تمّ خراج السلطان ، فإن زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضرّ بالضياح ، وأعقبَ الوَباء ، وإن نقصَ ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس ، وكان الضررُ الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي : النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون ، وتمثلها أنها خمسة أيضاً : نهر السند ويسمى ينج اب ؛ ونهر الهند ويسمى الكنك ، وإليه تحجّ الهنود ، وإذا حرقوا أمواتهم رمّوا برّمادهم فيه ، ويقولون : هو من الجنة ؛ ونهر الجون بالهند أيضاً ، ونهر أتل بصحراء قفجق ، وعلى ساحله مدينة السرا ؛ ونهر السرو بأرض الخطا . وعلى ضفته مدينة خان بالق ، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثمّ إلى مدينة الزيتون بأرض الصّين ، وسيذكر ذلك كلّه في مواضعه إن شاء الله .

والنيل يفرق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يُعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وصيفاً ، وأهل كلّ بلد لهم خلجان تخرج من النيل ، فإذا مدّت أترعها ففاضت على المزارع .

ذكر الأهرام والبرابي^١

وهي من العجائب المذكورة على مرّ الدهور ، وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها . ويزعمون أنّ جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هُرْمُس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أخنوخ ، وهو إدريس ، عليه السلام ، وإنّه أول من تكلم في الحركات الفلكيّة والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجدّد الله تعالى فيها ،

١ البرابي ، واحداً البربا : المعبد المصري القديم .

وانّه أُنذِرَ الناس بالطوفان ، وخافَ ذهابَ العلم ودروسَ الصنّاع ، فبنى الأهرام والبرابي وصوّرَ فيها جميع الصنّاع والآلات ، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة .

ويقال إن دار العلم والملك بمصر مدينةٌ منف ، وهي على بريد من القسطنطينية ، فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام ، فاخترتْ عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، مدينة القسطنطينية ، فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد .

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو ، مستدير ، متسع الأسفل ضيق الأعلى ، كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها .

ومما يذكر في شأنها أن ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعاً للعلوم والحيثية الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي ، وعينوا له الموضع الذي تفتح منه ، ومبلغ الاتفاق في فتحه ، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه ، واشتدّ في البناء فأتمّه في ستين سنة ، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فإنّ الهدمَ أيسرُ من البناء .

فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها . فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل ، فلجّ في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي . فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالحلّ ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلثة التي بها إلى اليوم ، ووجدوا بإزاء النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه ، فحُصِرَ ما أنفق في النقب ، فوجدوا سواء ، فطال عجبهم من ذلك ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالح ، وكان قلاوون يُعرف بالألفي لأنّ الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً ، وأصله من قفجق . وللملك الناصر رحمه الله السيرةُ الكريمة والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفاً انتماءه لخدمة الحرمين الشريفين . وما يفعله في كل سنة من أفعال البرّ التي تُعين الحجاج من الجبال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي ، وبني زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة .

لكنّ الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنقله وفرضه أبو عنان أيّد الله أمره وأظهره وسنّى له الفتح المبين ، ويسرّه ، بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء ، حرسها الله ، لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله . وسيأتي ذكر ما عمّره ، أيّد الله ، من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده ، حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

ذكر بعض امراء مصر

منهم ساقى الملك الناصر ، وهو الأمير بُكْتُمُور ، وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم ، وسيذكر ذلك .

ومنهم نائب الملك الناصر أرغُون الدودار ، وهو الذي يلي بكتمور في المتّزلة .

ومنهم طُشْطُ المعروف بِحَمَّص أخضر ، وكان من خيار الأمراء ، وله

الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، وله الإحسان العظيم للخرافيش ، وهم طائفة كبيرة أهل صلالة وجاه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الخرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس ، يعنون الملك الناصر ، أخرجه ، فأخرجه من محبسه . وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه .

ومنهم وزير الملك الناصر يُعرف بالحمّالي ، ومنهم بدر الدين بن البابه ؛ ومنهم جمال الدين نائب الكرك ؛ ومنهم تُقَزْدُمُور ، ودُمُور بالتركية الحديد ؛ ومنهم بهادر الحجازي ؛ ومنهم قَوْصُون ؛ ومنهم بَشْتَمَك ؛ وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا .

ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي ، وكان نصرانياً من القبط . فأسلم وحسن إسلامه ، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل . ومن عاداته أن يجلس عشيّ النهار في مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجد ، فإذا حضر المغرب صلتى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأتى بالطعام ولا يمنع حينئذٍ أحداً من الدخول كائناً من كان ، فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ؛ ومن كان طالب صدقة أمر مملوكاً له يدعى بدر الدين ، واسمه لؤلؤ ، يصحبه إلى خارج الدار وهناك خازنه معه صرّ الدراهم ، فيُعطيه ما قُدّر له ، ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويُقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فإذا صلتى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي إليها

فمنهم قاضي القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ، وهو القاضي الإمام العالم بدر الدين بن

جماعة ، وابنه عزّ الدين هو الآن متولّي ذلك ؛ ومنهم قاضي القضاة المالكية الإمام الصّالح تقي الدين الاخنائي ؛ ومنهم قاضي القضاة الحنفيّة الإمام العالم شمس الدين الحريري ، وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذُكر لي أنّ الملك الناصر قال يوماً لجلسائه : إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري ؛ ومنهم قاضي القضاة الحنبليّة . ولا أعرفه الآن إلا أنّه كان يُدعى بعزّ الدين .

حكاية الملك الناصر يقعد للمظالم

كان الملك الناصر ، رحمه الله ، يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المتشكّين كلّ يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره ، وتُقرأ القصص بين يديه ، ويُعيّن من يسأل صاحب القصّة عنها . وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين ، أيّده الله ، في ذلك مسلكاً لم يُسبق إليه ، ولا مزيد في العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكلّ متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة ، أبى الله أن يحضرها سواه ، أدام الله أيامه .

وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثمّ قاضي الحنفيّة ثمّ قاضي المالكية ثمّ قاضي الحنبليّة ، فلمّا توفي شمس الدين الحريري وولي مكانه برهان الدين عبد الحقّ الحنفي أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه . وذكروا أنّ العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد ، فأمر الملك الناصر بذلك ، فلمّا علم به قاضي الحنفيّة غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك ، فأنكر الملك الناصر مغيبته ، وعلم ما قصده ، فأمر بإحضاره ، فلمّا مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيثُ نفّذ أمر السلطان ممّا يلي قاضي المالكية واستمرّ حاله على ذلك .

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات ؛ ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي ؛ ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ؛ ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسي من الأئمة في المعقولات ؛ ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ؛ ومنهم بهاء الدين ابن عقيل فقيه كبير ؛ ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي ، وهو أعلمهم بالنحو ؛ ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ؛ ومنهم برهان الدين الصفاقسي ؛ ومنهم قوام الدين الكرّماني ، وكان سكناه على سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرسون فنون العلم . ويُقَيّ في المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنّة ، وعمامة صوف سوداء . ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والنزاهات منفرداً عن أصحابه ؛ ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصّاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الأقصري نسبة إلى أقصر من بلاد الرّوم ، ومسكنه سرياقص ؛ ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي ، والحويزا على مسيرة ثلاثة أيّام من البصرة ؛ ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصّالحين ؛ ومنهم وكيل بيت المال المدرّس بقبة الإمام الشافعي مجد الدين بن حرّمي ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتي من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران الحمل ، يوم مشهود ، وكيفية ترتيبهم فيه أنّه يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ، وقد ذكرنا جميعهم ، ويركب

معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً بابَ القلعة ، دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاؤون على جماهم ، ويجتمعُ لذلك أصنافُ الناس من رجال ونساء ثمَّ يطوفون بالمحمل ، وجميعُ من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر ، والحدادة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك في رجب ، فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعثُ الأشواق ، وتتحركُ البواعث ، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحجِّ في قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد .

ثمَّ كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف ، فبت ليلة خروجي في الرباط الذي بناه الصَّاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين ، وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه ، وهي قطعة من قصعة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والميلُ الذي كان يكتحلُ به ، والدَّرْقشُ ، وهو الإشفاء الذي كان يخصف به نَعْلُه ، ومصحفُ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي بخطَّ يده ، رضي الله عنه ؛ ويقال انَّ الصَّاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم ، وبني الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصَّادر والحراية لخدّام تلك الآثار الشريفة ، نفعه الله تعالى بقصده المبارك .

ثمَّ خرجتُ من الرباط المذكور ومررتُ بمنية القائد ، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثمَّ سرتُ منها إلى مدينة بُوش ، وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتّاناً ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية ، وإلى إفريقية ، ثمَّ سافرتُ منها فوصلتُ إلى مدينة دلاص ، وهذه المدينة كثيرة الكتّان أيضاً كمثل التي ذكرنا قبلها ويُحْمَلُ أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية ، ثمَّ سافرتُ منها إلى مدينة ببا . ثمَّ سافرتُ منها إلى مدينة البهنسّا ، وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة ، وتُصنع بهذه المدينة ثياب الصّوف الجيدة .

وممن لقينته بها قاضيه العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس فاضل . ولقيتُ بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلتُ عنده وأضافني ، ثم سافرتُ منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل ، وحقّ حقيق لها على بلاد الصعيد التّفضيل ؛ وبها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد ، وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب .

حكاية خصيب

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس . رضي الله عنهم ، غضبَ على أهل مصر فألّى أن يولي عليهم أحقرَ عبيده وأصغرهم شأنًا قصدًا لإرذالهم والتّنكيل بهم ، وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولّى تسخين الحمام ، فخلع عليه وأمره على مصر . وظنّه أنّه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالإذابة حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعزّ . فلما استقرّ خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهرَ بالكرم والإيثار ، فكان أقاربُ الخلفاء وسواهم يقصدونه فيُجزل العطاء لهم ، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم . وإنّ الخليفة افتقد بعض العباسيّين وغاب عنه مدّة ثمّ أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره أنّه قصد خصيباً ، وذكرَ له ما أعطاه خصيب ، وكان عطاء جزيلًا ، فغضبَ الخليفة وأمرَ بسمل عيني خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد ، وأن يُطرح في أسواقها . فلما وردَ الأمرُ بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله . وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلاً . وسُملت عيناه وطُرح في أسواق بغداد ، فمرّ به بعضُ الشعراء ، فقال له : يا خصيب ، إني كنتُ قصّدتُك من بغداد إلى مصرَ مادِحاً لك بقصيدة ، فوافقتُ انصرافك عنها ، وأحبّ أن تسمعها . فقال : كيف بسماعها وأنا على

ما تراه ؟ فقال : إنما قصدي سماعك لها ، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيراً . قال : فافعل . فأنشده :

أنتَ الحَصِيبُ وهَذِهِ مَصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكَلَاكُمَا بَحْرًا

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الحياطة ، ففعل ذلك ، فقال له : خذ الياقوتة ، فأبى ، فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين ، فلما عرضها عليهم قالوا له : إن هذه لا تصلح إلا للخليفة ، فرفعوا أمرها إلى الخليفة ، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة ، فأخبره بخبرها ، فتأسف على ما فعله بخصيب ، وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه المنية ، ففعل ذلك وسكنها خصيب إلى أن توفي ، وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا .

وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي إليها فخر الدين النويري المالكي ، ووالها شمس الدين ، أمير خير كريم ، دخلت يوماً الحمام بهذه البلدة ، فرأيت الناس بها لا يستترون ، فعظم ذلك عليّ وأتيتُ فأعلمته بذلك ، فأمرني أن لا أبرح ، وأمر بإحضار المكثرين للحمامات ، وكتبت عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر ، فإنهم يؤاخذون على ذلك ، واشتدّ عليهم أعظم الاشتداد . ثم انصرفت عنه .

وسافرت من منية ابن خصيب إلى مدينة منسلوي ، وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ، وقاضياها الفقيه شرف الدين الدميري الشافعي ، وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل ، بنى أحدهم جامعاً أنفق فيه صميم ماله .

وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر ، ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها ، فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرًا ، فيصرفُ بها .

هذا البيت مطلع قصيدة لأبي نواس قالها في الخصيب حينما ذهب إليه وهو أمير مصر .

وسافرتُ من مَنَلَوِي المذكورة إلى مدينة مَنَفَلُوط ، وهي مدينة حسن رواؤها ، مؤنق بناؤها على ضفة النيل ، شهيرة البركة .

حكاية منبر الملك الناصر

أخبرني أهل هذه المدينة أنَّ الملك النَّاصر ، رحمه الله ، أمر بعمل منبر عظيم يحكم الصنعة ، بديع الإنشاء ، برسم المسجد الحرام ، زاده الله شرفاً وتعظيماً ، فلمّا تمَّ عمله أمر أن يُصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جُدَّة ثمَّ إلى مكة شرفها الله ، فلمّا وصل المركبُ الذي احتملته إلى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجري مع مساعدة الرِّيح ، فعجب الناس من شأنه أشدَّ العجب ، وأقاموا أيتاماً لا ينهض بهم المركب ، فكتبوا بخبره إلى الملك النَّاصر ، رحمه الله ، فأمر أن يُجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ، ففعلَ ذلك ، وقد عاينته بها .

ويُصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع بأسواق مصر .

وسافرتُ من هذه المدينة إلى مدينة أَسِيُوط ، وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة ، وقاضيتها شرف الدين بن عبد الرَّحيم الملقَّب (بحاصل ما ثمَّ) لقب شهر به ، وأصله أنَّ القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقاتُ لأبناء السبيل ، فإذا أتى فقيرٌ لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قُدِّرَ له ، فكان هذا القاضي إذا أتاهُ الفقير يقولُ له : حاصل ما ثمَّ أي لم يبقَ من المال الحاصل شيء ، فللقب بذلك ولزمه .

وبها من المشايخ الفضلاء الصَّالح شهاب الدين بن الصَّبَّاح أضافي بزوايته وسافرتُ منها إلى مدينة إخميم ، وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشان بها البربا المعروف باسمه ، وهو مبني بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة

للأوائل لا تفهم^١ في هذا العهد ، وصُورُ الأفلاك والكواكب . ويزعمون
أنّها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صُورُ الحيوانات وسواها ، وعند
الناس في هذه الصّور أكاذيب لا يُعرّجُ عليها .

وكان بإخميم رجل يعرفُ بالخطيب أمرَ بهدم بعض هذه البرابي وابتنى
بمحاربتها مدرسة ، وهو رجل موسرٌ معروف باليسار ، ويزعمُ حُسّادهُ
أنّه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي ، ونزلتُ من هذه المدينة
بزاوية الشيخ أبي العبّاس بن عبد الظاهر وبها تربة جدّه عبد الظاهر ، وله من
الإخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ؛ ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعاً
بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضي المدينة
الفقيه مخلص وسائر وجّوه أهلها ، فيجتمعون للقرآن ، ويذكرون الله إلى صلاة
العصر ، فإذا صلّوها قرأوا سورة الكهف ثمّ انصرفوا .

وسافرتُ من إخميم إلى مدينة هُو ، مدينة كبيرة بساحل النيل ، نزلتُ
منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرأون بها في كلّ يوم بعد
صلاة الصّبح حزباً من القرآن ثمّ يقرأون أوراद الشيخ أبي الحسن الشاذلي
وحزب البحر . وبهذه المدينة السيّد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من
كبار الصّالحين .

ذكر كرامة له

دخلتُ إلى هذا الشريف متبرّكاً برويته والسلام عليه ، فسألني عن قصدي ،
فأخبرته أنّي أريد حجّ البيت الحرام على طريق جدّة ، فقال لي : لا يحصل
لك هذا في هذا الوقت ، فارجع ، وإنّما تحجّ أولَ حجة على الدرب الشامي ،
فانصرفتُ عنه ، ولم أعمل على كلامه ، ومضيتُ في طريق حتى وصلتُ إلى
عينداب ، فلم يتمكن لي السفر ، فعدتُ راجعاً إلى مصر ثمّ إلى الشام ، وكان
١ هي الكتابة الميروغليقية ، ولم تكن في أيام المؤلف قد عرفت قراءتها .

طريقي في أوّل حَجَّاتي على الدرب الشامي حسبما أخبرني الشريف ، نَفَعَ الله به .

ثمّ سافرتُ إلى مدينة قِنَا ، وهي صغيرة حسنة الأسواق ، وبها قبرُ الشريف الصّالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرّحيم القناوي ، رحمة الله عليه ، ورأيتُ بالمدرسة السيّفية حفيدَه شهاب الدين أحمد . وسافرتُ من هذا البلد إلى مدينة قُوص ، مدينة عظيمة لها خيراتٌ عَمِيمة ، بساينها مَورقة ، وأسواقها موقنة ، ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة ، وهي منزل ولاة الصّعيد ، وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ، وزاوية الأفرم ، وبها اجتماع الفقراء المتجرّدين في شهر رمضان من كلّ سنة . ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد ، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصلَ لهم السبق في ذلك لم أرَ من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطي ، وسيتع ذكرهما ؛ ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرّس بمدرسة المالكية ؛ ومنهم الفقيه برهان الدين لإبراهيم الأندلسي له زاوية عالية . ثمّ سافرتُ إلى مدينة الأقصر ، وهي صغيرة حسنة ، وبها قبر الصّالح العابد أبي الحجّاج الأقصري ، وعليه زاوية ؛ وسافرتُ منها إلى مدينة أرمَنت ، وهي صغيرة ذات بساين مبنية على ساحل النيل ، أضافني قاضيها ، وأنسيتُ اسمه .

ثمّ سافرتُ منها إلى مدينة أسنَا ، مدينة عظيمة متّسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجموع لها أسواق حسان وبساين ذات أفنان ، قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني وأكرمني ، وكتبَ إلى نوابه بإكرامي ؛ وبها من الفضلاء الشيخ الصّالح نور الدين عليّ والشيخ الصّالح عبد الواحد المكناسي ، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقُوص . ثمّ سافرتُ منها إلى مدينة أدفُو وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة

في صحراء ، ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العطواني ، ومنها أكثرنا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تُعرف بدغيم ، في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبل . وفي بعض منازلها نزلنا حُمَيْثراً حيث قَبْر وليّ الله أبي الحسن الشاذلي ، وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها ، وأرضها كثيرة الضَّبَاع ، ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضَّبَاع ، ولقد قصَدَت رحلي ضبعٌ منها فمزقت عدلاً كان به واجترت منه جِرَابَ تمرٍ وذهبت به ، فوجدناه لما أصبحنا ممزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه .

ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عَيْذاب ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت والدَّيْن ، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، وأهلها البجاة ، وهم سُود الألوان يلتحفون ملاحف صفراً ، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصاية منها لإصبعاً ، وهم لا يورثون البنات ، وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهاري ويسمونهم الصهب ، وثلاث المدينة للملك الناصر وثلاثها للملك البجاة ، وهو يُعرفُ بالحَدْرَبِي . وبمدينة عَيْذاب مسجد ينسب للقسطلاني ، شهير البركة ، رأيتُه وتبركتُ به ، وبها الشيخ الصّالحُ موسى ، والشيخ المُسن محمد المراكشي ، زعم أنه ابن المرتضي ملك مراکش وان سنه خمس وتسعون سنة .

ولما وصلنا إلى عَيْذاب وجدنا الحَدْرَبِي سلطان البجاة يحاربُ الأتراك ، وقد خرق المراكبَ وهربَ التركُ أمامه ، فتعدّرَ سفرُنا في البحر ، فبعنا ما كنا أعدناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين أكثرنا الجمال منهم إلى صعيد مصر ، فوصلنا إلى مدينة قُوص التي تقدّم ذكرها وانحدرنا منها في النيل وكان أوان مدّه فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر فبت بمصر ليلة واحدة . وقصَدتُ بلاد الشام ، وذلك في منتصفِ شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة فوصلتُ إلى مدينة بلييس وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألقَ بها

من يجب ذكره .

ثم وصلتُ إلى الصّاحية ، ومنها دخلنا الرّمال ، ونزلنا منازلها مثل السّوادة والورادة والمطينب والعريش والخروبة ، وبكلّ منزل منها فندق ، وهم يسمّونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابّهم ، وبخارج كلّ خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابّته .

ومن منازلها قَطْطاً المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث ، وبها تؤخذ الزّكاة من التجار ، وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عمّا لديهم أشدّ البحث ؛ وفيها الدواوين والعمّال والكتّاب والشهود ، وجباها في كلّ يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا براءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا براءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين ، وطريقها في ضمان العرب قد وُكِّلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرّمل لا يبقى به أثر ، ثمّ يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرّمل ، فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه ، فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير ، فيعاقبه بما شاء .

وكان بها في عهد وُصُولي إليها عزّ الدين أستاذ الدار أقماري من خيار الأمراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي ؛ وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقّاف ، وهو يعرف المغاربة وبلادهم ، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم ، فإنّ المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا . ثمّ سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزّة ، وهي أوّل بلاد الشام ممّا يلي مصر ، متّسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامعٌ حسنٌ ، والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجوالي ، وهو أنيق البناء ، بحكم الصّنع ، ومنبره من الرّخام الأبيض . وقاضي غزّة بدر الدين السلخيتي الحوراني ، ومدرّسها علم الدين بن سالم ، وبنو سالم كبراء هذه المدينة ، ومنهم شمس الدين قاضي القدس .

ثمّ سافرتُ من غزّة إلى مدينة الخليل ، صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلّم تسليماً ، وهي مدينة صغيرة الساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، في بطن واد ، ومسجدها أُنِيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامي الارتفاع ، مبنيّ بالصّخر المنحوت ، في أحد أركانه صخرة ، أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً ، ويقال : إنّ سليمان ، عليه السلام ، أمرَ الجنّ ببنائه ؛ وفي داخل المسجد الغارُ المكرمُ المقدسُ ، فيه قبرُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، صلوات الله على نبيّتنا وعليهم ، ويقابلها قبورُ ثلاثة هي قبور أزواجهم ؛ وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يُهبطُ منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيّق يُفضي إلى ساحة مفروشة بالرخام ، فيها صُورُ القبورِ الثلاثة ؛ ويقال : إنّها مُحاذية لها ؛ وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك ، وهو الآن مسدود ؛ وقد نزلتُ بهذا الموضع مرّات ، وممّا ذكره أهل العلم دليلاً على صحّة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب عليّ بن جعفر الرّازي الذي سمّاه « المُسفر للقلوب » عن صحّة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب أسندَ فيه إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : لما أُسريَ بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل على قبر إبراهيم فقال : انزل فصلّ ركعتين ، فإنّ هنا قبر أبليك إبراهيم ؛ ثمّ مرّ بي على بيت لحم وقال : انزل فصلّ ركعتين ، فإنّ هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ؛ ثمّ أتى بي إلى الصّخرة ، وذكر بقيّة الحديث . ولما لقيتُ بهذه المدينة المدرّس الصّالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبري أحد الصّلحاء المرضيّين والأئمّة المشهورين ، سألتُه عن صحّة كون قبر الخليل ، عليه السلام ، هنالك ، فقال لي : كلّ من لقيته من أهل العلم يصحّحون أنّ هذه القبورَ قبورُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبيّتنا وعليهم السلام ، وقبورُ زوجاتهم ، ولا يطعنُ في ذلك إلا أهلُ البدعِ ، وهو نقلُ الخلفِ عن السلف ، لا يُشكّ فيه .

ويُذكرُ أنَّ بعضَ الأئمّة دخل إلى هذا الغار ووقفَ عند قبرِ سارةَ ،
فدخلَ شيخٌ فقال له : أيّ هذه القبور هو قبرُ إبراهيم ؟ فأشار له إلى قبره
المعروف ؛ ثمّ دخل شابٌ فسأله كذلك ، فأشار له إليه ؛ ثمّ دخل صبيّ فسأله
أيضاً ، فأشار له إليه ، فقال الفقيه : أشهدُ أنّ هذا قبرُ إبراهيم ، عليه السلام ،
لا شك ؛ ثمّ دخل إلى المسجد فصلّى به . وارتحل من الغد .

وبدأخل هذا المسجد أيضاً قبرُ يوسف ، عليه السلام . وبشرقيّ حرَمِ
الخليلِ تربة لوط ، عليه السلام ، وهي على تلّ مرتفع يُشرفُ منه غور الشام ،
وعلى قبره أبنيةٌ حسنةٌ ، وهو في بيت منها حسن البناء مبيضٌ ، ولا ستورَ عليه .
وهناك بحيرةُ لوط ، وهي أجاج^١ ، يقال : إنّها موضع ديار قوم لوط ؛
وبمقربةٍ من تربة لوط مسجدُ اليقين ، وهو على تلّ مرتفعٍ له نورٌ وإشراقٌ
ليس لسواه ، ولا يُجاوره إلا دارٌ واحدةٌ يسكنها قيّمه ، وفي المسجد بمقربة
من بابه موضع منخفض في حجر صائد قد هبّ فيهِ صورة شرابٍ لا يسعُ
إلا مصلياً واحداً ، ويقال : إنّ إبراهيم سجدَ في ذلك الموضع شكراً لله تعالى
عند هلاك قوم لوط ، فتحرّك موضعُ سجوده ، وساخَ^٢ في الأرض قليلاً .

وبالقربِ من هذا المسجد مغارةٌ فيها قبرُ فاطمة بنتِ الحسين بن عليّ ،
عليهما السلام ؛ وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرّخام في أحدهما مكتوبٌ
منقوشٌ بخطّ بديع : بسم الله الرحمن الرحيم ، لله العزة والبقاء ، وله ما
ذراً^٣ وبرأ وعلى خلقه كُتِبَ الفناء ، وفي رسول الله أسوة . هذا قبرُ أمّ
سلمة فاطمة بنت الحسين ، رضي الله عنه ؛ وفي اللوح الآخر منقوش : صنعه
محمد بن أبي سهل النقّاش بمصر ، وتحت ذلك هذه الأبيات :

أُسكنتُ منْ كانَ في الأحشاء مسكنهُ بالرّغمِ منيَ بينَ التّربِ والحجّري

١ الأجاج : الماء المالح المر .

٢ ساخ : غاص .

٣ ذراً : خلق وكذلك برأ .

يا قبرَ فاطمةٍ بنتِ ابنِ فاطمةٍ بنتِ الأئمةِ بنتِ الأنجمِ الزُّهرِ
يا قبرُ ما فيكَ من دينٍ ومن ورعٍ ومن عفافٍ ومن صونٍ ومن خُفٍّ

ثمَّ سافرتُ من هذه المدينة إلى القدس فزرتُ في طريقي إليه تربةَ يونسَ ،
عليه السلام ، وعليها بنيةٌ كبيرةٌ ، ومسجدٌ ، وزرتُ أيضاً بيتَ لحمَ موضعَ
ميلادِ عيسى ، عليه السلام ، وبه أثرُ جِدْعِ النخلةِ ، وعليه عمارةٌ كثيرةٌ
والنصارى يعظّمونه أشدَّ التعظيمِ ، ويُضيفونَ من نزلَ به .

ثمَّ وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله ثالثَ المسجدين الشريفين في رتبة
الفضل ، ومصعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً ، ومعرّجه إلى
السماء ؛ والبلدة كبيرة منيفة بالصّخر المنحوت ، وكان الملك الصّالح الفاضل
صلاحُ الدين بن أيّوب ، جزاه الله عن الإسلام خيراً ، لما فتحَ هذه المدينة
هدم بعض سورها ، ثمَّ استنقض^١ الملك الظّاهر هدمه خوفاً من أن يقصدها
الرّومُ فيتمنّعوا بها ، ولم يكن بهذه المدينة نهرٌ فيما تقدّم وجلبَ لها الماء في
هذا العهد الأميرُ سيفُ الدين تنكيز أمير دمشق .

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن ، يقال : إنّه ليس على وجه
الأرض مسجدٌ أكبر منه ، وإنّ طولَه من شرق إلى غرب سبعمائة وثنتان
وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية ، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة
ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً ؛ وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث ، وأما
الجهة القبليّة منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً ، وهو الذي يدخل منه الإمامُ ؛
والمسجد كلّهُ فضاء وغير مسقّفٍ إلا المسجد الأقصى ، فهو مسقّفٌ في

١ استنقضه : طلب نقضه أي هدمه .

النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة ، مموّة بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفي المسجد مواضعٌ سواء مسقّفة .

ذكر قبة الصخرة

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً ، قد توفّر حظّها من المحاسن ، وأخذت من كلّ بديعة بطرف ، وهي قائمة على نشزٍ في وسط المسجد ، يُصعدُ إليها في درج رُخام ، ولها أربعة أبواب والدائرُ بها مفروش بالرخام أيضاً محكمُ الصنعة ، وكذلك داخلُها ، وفي ظاهرها وباطنُها من أنواع الزواقة^٢ ورائق الصنعة ما يُعجزُ الواصف ، وأكثر ذلك مغشّى بالذهب ، فهي تتلألُ نوراً وتلمع لمعان البرق ، يحار بصرُ متأملها في محاسنها ، ويقصرُ لسان رائيها عن تمثيلها .

وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار ، فإنّ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، عرّجَ منها إلى السماء ، وهي صخرة صمّاء ارتفاعُها نحوُ قامة ، وتحتها مغارة في مقدار بيتٍ صغير ارتفاعُها نحوُ قامة أيضاً يُنزلُ إليها على درج ، وهناك شكل محراب ، وعلى الصخرة شُبّا كان اثنان مُحكما العمل يُغلّقان عليها ، أحدهما ، وهو الذي يلي الصخرة ، من حديدٍ بديع الصنعة ، والثاني من خشب ، وفي القبة درّقة كبيرة من حديد معلقة هنالك ، والناس يزعمون أنّها درّقة حمزة بن عبد المطّاب ، رضي الله عنه .

١ اللّشز : المكان المرتفع .

٢ الزواقة : أراد الزينة .

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد على تل مرتفع هنالك بنية يُقال إنها مصعد عيسى ، عليه السلام ، إلى السماء ؛ ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية ، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة . وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، ويقولون : إن قبر مريم ، عليها السلام ، بها ، وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى ، وهي التي يكذبون عليها ، ويعتقدون أن قبر عيسى ، عليه السلام ، بها ، وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين ، وضروب من الإهانة يتحملها على رغم انفه . وهنالك موضع مهد عيسى ، عليه السلام ، يُتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزي ، وهو من أهل غزة وكبرائها ؛ ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي ؛ ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري ؛ ومنهم مدرّس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس ؛ ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ؛ ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي ، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف .

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان ، وهو خراب قد عاد رسوماً طامسة وأطلالاً دارة ، وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته

١ الخانقاه : الزاوية ، والتكية .

عسقلان إتقاناً وحسنَ وضع وأصالة مكان وجمعاً بين مرافق البر والبحر .
وبها المشهد الشهيرُ حيثُ كان رأسُ الحسين بن عليّ ، عليه السلام ، قبل أن
يُنقل إلى القاهرة ، وهو مسجد عظيم سامي العلوّ فيه جبّ للماء أمرَ ببنائه
بعضُ العبيد ، وكتبَ ذلك على بابه .

وفي قبة هذا المزار مسجدٌ كبيرٌ يُعرفُ بمسجد عمر لم يبقَ منه إلا حيطانه ،
وفيه أساطينُ رخام لا مثلاً لها في الحسن ، وهي ما بين قائم وحصيد^١ ، ومن
جملتها أسطوانة^٢ حمراء عجبية يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم
ثم فقدوها ، فوجدت في موضعها بعسقلان .

وفي القبلة من هذا المسجد بئرٌ تُعرفُ ببئر إبراهيم ، عليه السلام ، يُنزلُ
إليها في درجٍ مُتسعة ، ويدخلُ منها إلى بُيوت ، وفي كل ناحيةٍ من
جهاثها الأربع عينٌ تخرجُ من أسرابٍ^٣ مطوية بالحجارة ، وماؤها عذب ،
وليس بالغزير ، ويذكر الناس من فضائلها كثيراً .

وبظاهر عسقلان وادي النمل ، ويقال : إنه المذكور في الكتاب العزيز .
ويجبّانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يُحصر لكثرة أوقفنا عليهم
قيسُ المزار المذكور ، وله جراية يُجريها له ملكٌ مصر مع ما يصل إليه من
صدقات الزوّار .

ثم سافرتُ منها إلى مدينة الرملة ، وهي فلسطين ، مدينة كبيرة كثيرة
الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامعُ الأبيض ، ويقال : إن في قبلته ثلاثمائة
من الأنبياء مدفونين ، عليهم السلام ، وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي .
ثم خرجتُ منها إلى مدينة نابلس ، وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار
مطرّدة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق ،

١ أراد بالحصيد المهتم .

٢ الأسطوانة : العمود .

٣ الأسراب ، الواحد سرب : القناة يدخل منها الماء .

وبها تُصنعُ حلواءُ الخَرْوَبِ ، وتُجلبَبُ إلى دمشق وغيرها ، وكيفية عملها : أن يُطبخَ الخَرْوَبُ ثمَّ يُعصر ويؤخذ ما يَخْرُجُ منه من الرِّبِّ فتُصنعُ منه الحلواءُ ، ويُجلبَبُ ذلك الرِّبُّ أيضاً إلى مصر والشام ؛ وبها البَطِيخُ المنسوب إليها ، وهو طيبٌ عجيب ؛ والمسجد الجامع في نهاية من الإِنْتِقَانِ والحسن ، وفي وسطه بركة ماء عذب .

ثمَّ سافرتُ منها إلى مدينة عَمَّجَلُون ، وهي مدينة حسنة ، لها أسواقٌ كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقُّها نهرٌ مأوّه عذب .
ثمَّ سافرتُ منها بقصد اللاذقية فمررتُ بالغُور ، وهو وادٍ بين تلال به قبرُ أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح أمين هذه الأرض ، رضي الله عنه ، زرناه وعليه زاوية فيها الطعامُ لأبناء السبيل ، وبتنا هنالك ليلة .
ثمَّ وصلنا إلى القصير وبه قبرُ مُعَاذِ بن جبل ، رضي الله عنه ، تبرَّكتُ أيضاً بزيارته .

ثمَّ سافرتُ على الساحل فوصلتُ إلى مدينة عكَّة ، وهي خراب ، وكانت عكَّة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ومرسى سفنهم ، وتُشبه قسطنطينية العُظمى ؛ وبشرقيتها عينُ ماء تُعرفُ بعينِ البقر ، يقال : إنَّ الله تعالى أخرجَ منها البقر لآدم ، هليه السلام ، ويُنزَلُ إليها في درج ؛ وكان عليها مسجد بقي منه محرابه . وبهذه المدينة قبرُ صالح ، عليه السلام .

ثمَّ سافرتُ منها إلى مدينة صور ، وهي خراب وبخارجها قريةٌ معمورة ، وأكثرُ أهلها أرفاضٌ ، ولقد نزلتُ بها مرَّةً على بعض المياه أريدُ الوُضوءَ ، فأقَى بعضُ أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسلِ رجله ثمَّ غسل وجهه ، ولم يتمضمضْ ولا استنشقْ ، ثمَّ مسحَ بعضَ رأسه ، فأخذتُ عليه في فعله ، فقال لي : إنَّ البناءَ إنَّما يكون ابتداءً من الأساس .

ومدينةُ صور هي التي يُضربُ بها المثل في الحصانة والمتعة لأنَّ البحرَ مُحيطٌ بها من ثلاث جهاتها ، ولها بابان أحدهما للبرِّ ، والثاني للبحر ، ولبابها

الذي يُشرِّعُ للبرِّ أربعةَ فصلاّتٍ كلّها في ستائرٍ مُحيطَة بالبَاب ، وأمّا الباب الذي للبحر فهو بين بُرجين عظيمين .

وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجبُ ولا أغربُ شأنًا منه لأنَّ البحرَ مُحيطٌ بها من ثلاث جهاتٍها ، وعلى الجهة الرابعة سورٌ ، تدخل السفنُ تحت السور وترسو هنالك . وكان فيما تقدّم بين البرجين سلسلةٌ حديدٌ معترضةٌ لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطّها ، وكان عليها الحراسُ والأمناء ، فلا يدخلُ داخلٌ ولا يخرجُ خارجٌ إلا على علم منهم .

وكان لعكّة أيضاً ميناءٌ مثلها ، ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار . ثمّ سافرتُ منها إلى مدينة صيدا ، وهي على ساحل البحر حسنةٌ كثيرةُ الفواكه يُحمَلُ منها التينُ والزَّبيبُ والزَّيتُ إلى بلاد مصر ، نزلتُ عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري وهو حسن الأخلاق كريمُ النفس .

ثمّ سافرتُ منها إلى مدينة طَبَرِيَّةَ ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ، ولم يبقَ منها إلا رسومٌ تُنبئُ عن ضخامتها وعِظَمِ شأنها ؛ وبها الحمّامات العجيبة ، لها بيتان أحدهما للرّجال والثاني للنساء ، وماؤها شديد الحرارة ، ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستّة فراسخ ، وعرضها أزيدُ من ثلاثة فراسخ .

وبطبرية مسجدٌ يُعرفُ بمسجد الأنبياء فيه قبرُ شعيب ، عليه السلام ، وبنته زوج موسى الكليم ، عليه السلام ، وقبرُ سليمان ، عليه السلام ، وقبرُ يهوذا وقبرُ روبيل ، صلوات الله وسلامه على نبيّنا وعليهم .

وقصدنا منها زيارة الحبّ الذي ألقي فيه يوسفُ ، عليه السلام ، وهو في صحن مسجد صغير ، وعليه زاويةٌ ؛ والحبّ كبيرٌ عميقٌ شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر . وأخبرنا قيّمُه أنّ الماء ينبع منه أيضاً .

ثمّ سرنا إلى مدينة بيروت ، وهي صغيرة حسنةُ الأسواق ، وجامعُها بديعُ الحُسن ، ويُجلَسُ منها إلى ديارِ مصرَ الفواكهُ والحديد .

وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب ، وهو بموضع يُعرف بكرّك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يُطعمُ بها الواردُ والصادِرُ ، ويقال : إنّ السلطان صلاح الدين وقفَ عليها الأوقاف ؛ وقيل السلطان نور الدين ، وكانوا من الصّالحين ، ويذكرُ أنه كان ينسجُ الحُصَرَ ويقتاتُ بثمرها .

حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور

يُحكى أنّه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضاً شديداً ، وأقام مطروحاً بالأسواق ، فلما برىء من مرضه خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستاناً يكون حارساً له ، فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين ، وأقام في حراسته ستة أشهر ، فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتي برمّان يأكل منه السلطان ، فأتاه برمّان فوجده حامضاً فأمره أن يأتي بغيره ، ففعل ذلك ، فوجده أيضاً حامضاً ، فقال له الوكيل : أتكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ، ولا تعرف الحلو من الحامض ؟ فقال : إنّما استأجرتني على الحراسة لا على الأكل . فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك ، فبعث إليه الملك وكان قد رأى في المنام أنّه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة ، فتفرّس أنّه هو ، فقال له : أنت أبو يعقوب ؟ قال : نعم ! فقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه ثمّ احتمله إلى مجلسه ، فأضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكدّ يمينه وأقام عنده أياماً .

ثمّ خرج من دمشق فارّاً بنفسه في أوان البرد الشديد فأتى قرية من قراها ، وكان بها رجل من الضّعفاء ، فعرض عليه النزول عنده ، ففعل وصنع له مرقّة وذبح دجاجة فأتاه بها ونخبز شعير ، فأكل من ذلك ودعا للرجل . وكان عنده جملة أولاد منهم بنتٌ قد آن بناء زوجها عليها ، ومن عوائدهم في تلك البلاد

أن البنت يُجهّزها أبوها ، ويكون مُعظم الجهاز أواني النحاس ، وبه يتفاخرون وبه يتبايعون ، فقال أبو يعقوبَ للرجل : هل عندك شيء من النحاس ؟ قال : نعم ، قد اشتريتُ منه لتجهيز هذه البنت . قال : اثّني به ! فأتاه به ، فقال له : استعر من جيرائك ما أمكنتك منه ؛ ففعل وأحضرَ ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران ، وأخرجَ صرّةً كانت عنده فيها الإكسيرا فطرحَ منه على النحاس فصار كله ذهباً ، وتركه في بيتٍ مُقفّلٍ ، وكتبَ كتاباً إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك ، وينبّهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ، ويوقف عليه الأوقاف ، ويبني الزوايا بالطرق ، ويرضي أصحاب النحاس ، ويعطي صاحب البيت كفايته .

وقال له في آخر الكتاب : وإن كان لإبراهيم بن أدهم قد خرجَ عن مُلك خراسان ، فأنا قد خرجتُ عن مُلك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام .

وفرّ من حينه ، وذهب صاحبُ البيتِ بالكتابِ إلى الملك نور الدين ، فوصلَ الملك إلى تلك القرية ، واحتمل الذهبَ بعد أن أَرْضى أصحاب النحاس وصاحب البيت ، وطلبَ أبا يعقوبَ فلم يجد له أثراً ولا وقعَ له على خبر ، فعاد إلى دمشق وبني المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله .

ثمّ وصلتُ إلى مدينة طرابلسَ ، وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام ، تخرقها الأنهارُ وتحفّها البساتينُ والأشجارُ ، ويكنفُها البحرُ بمرافقه العميمة والبرّ بخيراته المقيمة . ولها الأسواقُ العجيبة ، والمسارحُ الحصيبة ، والبحرُ على ميلين منها ، وهي حديثة البناء .

وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر ، وتملكها الرّوم زماناً ، فلمّا استرجعها الملك الظاهر خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرُها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ،

١ الإكسيرا : هو ما كانوا يسمونه بالحجر الفلسفي الذي يحول المعادن إلى ذهب .

ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة ، ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج إلى ظاهر المدينة ، فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله ، ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله ، وينصرفون . وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل .

وممن كان بها من الأعلام كاتب السرباء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء ، معروف بالسخاء والكرم ، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف . وقد ذكرناه ، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق .

ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مسكين من أكابر الرجال ، ومنهم قاضي قضائها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام .

وبهذه المدينة حمامات حسان منها : حمام القاضي القرمي ، وحمام سندمور . وكان سندمور أمير هذه المدينة ؛ ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات منها : أن امرأة شكت إليه أن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها في لبن كانت تبعة فشربه ، ولم تكن لها بيته ، فأمر به فوسطاً ، فخرج اللبن من مصرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب ؛ واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان .

ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد ، وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل . وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة إلى بعض كبراء الأمراء ؛ ونزلت عند قاضيها ، ولا أحقق الآن اسمه .

ثم سافرت إلى مدينة حمص ، وهي مدينة مليحة أرجاؤها موقنة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفي وسطه بركة ماء . وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم .

١ وسط : قطع نصفين .

وبخارج هذه المدينة قبرُ خالد بن الوليد سيفِ الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد ، وعلى القبر كُسوة سوداء . وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة .

ثم سافرتُ منها إلى مدينة حماة إحدى أمتهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجنات ، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ، ولها ربض سُمي بالمنصورية أعظمُ من المدينة فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان . وبحماة الفواكه الكثيرة ، ومنها المشمش اللوزي ، إذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة .

قال ابن جرّي : وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال ، نور الدين أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد العبسي العمّاري الغرناطي نسبةً لعمّار بن ياسر ، رضي الله عنه :

حَمَى اللهُ مِنْ شَطِي حِمَاةَ مَنَظَرًا وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفِكَرَ وَالطَّرْفَا
تَغْنَى حِمَامٌ أَوْ تَمِيلُ حِمَائِلُ وَتَزْهَى مَبَانِي تَمْنَعُ الْوَاصِفَ الْوَصْفَا
يَكْلُمُونَنِي أَنْ أَعْصِيَ الصَّوْنَ وَالنَّهْيَ بِهَا وَأَطِيعَ الْكَأْسَ وَاللَّهْوَ وَالْقَصْفَا
إِذَا كَانَ فِيهَا النَّهْرُ عَاصٍ فَكَيْفَ لَا أَحَاكِيهِ عِصْيَانًا وَأَشْرَبُهَا صِرْفَا
وَأَشْدُو لَدَى تِلْكَ النَّوَاعِيرِ شِدْوَهَا وَأَغْلِبُهَا رَقْصًا وَأَشْبِهُهَا غَرْفَا
تَشِينُ وَتُذْزِرِي دَمْعَهَا ، فَكَيْفَ أَتَاهَا تَهَيِّمُ بِمَرَاةَا وَتَسْأَلُهَا الْعَطْفَا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهباً مذهب التورية :

وَنَاعُورَةٌ رَقَتْ لِعِظْمِ خَطِيبَتِي وَقَدْ عَايَنْتُ قَصْدِي مِنَ الْمُنْزِلِ الْقَاصِي
بَكَتْ رَحْمَةً لِي ثُمَّ بَلَّحَتْ بِشَجْوِهَا وَحَسْبُكَ أَنْ الْحُشْبَ تَبْكِي عَلَى الْعَاصِي

١ قوله : عاص ، هكذا في الأصل والصواب عاصياً لأنه خبر لكان .

ولبعض المتأخرين فيها أيضاً من التورية :

يَا سَادَةَ سَكَنُوا حِمَاةَ وَحَقِّكُمْ مَا حُلْتُ عَنْ تَقْوَى وَعَنْ إِخْلَاصِ
وَالطَّرْفُ بَعْدَكُمْ إِذَا ذُكِرَ اللَّقَا يُجْرِي المَدَامَعَ طَائِعاً كَالْعَاصِي
ثمَّ سافرتُ إلى مدينة المعرّة التي يُنسبُ إليها الشاعر أبو العلاء المعرّي وكثيرٌ
سواه من الشعراء .

قال ابن جُزَيّ : وإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِمَعْرَةِ النعمان لأنَّ النعمان بن بشير
الأنصاري صاحبَ رسول الله ، صالَى الله عليه وسلّم ، تُوُفِّيَ له وَلَدٌ أَيْتَامَ
إِمَارَتِهِ عَلَى حِمَصٍ ، فَدَفَنَتْهُ بِالْمَعْرَةِ ، فَعُرِفَتْ بِهِ ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تَسْمَى
ذَاتَ الْقَصُورِ ؛ وَقِيلَ : إِنَّ النعمان جَبَلَ "مَطْل" عَلَيْهَا سُمِّيَتْ بِهِ .

والمعرّة مدينة كبيرة ، حسنة ، أكثرُ شجرها التين والفُسْتُقُ ، ومنها
يُسْحَلُ إلى مصر والشام ؛ وبخارجها على فرسخٍ منها قَبْرُ أمير المؤمنين عُمَرَ
ابن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ، ولا خديم له . وسبب ذلك أَنَّهُ وَقَعَ فِي
بِلَادِ صَنْفٍ مِنَ الرَّافِضَةِ أَرْجَاسٍ يُبْغَضُونَ الْعَشْرَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَلَعَنَ مَبْغُضَهُمْ ، وَيُبْغَضُونَ كُلَّ مَنْ اسْمُهُ عُمَرُ ، وَخُصُوصاً عُمَرَ
ابن عبد العزيز ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لَمَّا كَانَ مِنْ فَعْلِهِ فِي تَعْظِيمِ عَلِيٍّ ، رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ .

ثمَّ سَرْنَا مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ سَرْمِينٍ ، وَهِيَ حَسَنَةٌ . كَثِيرَةُ الْبَسَاتِينِ ، وَأَكْثَرُ
شَجَرِهَا الزَّيْتُونُ . وَبِهَا يُصْنَعُ الصَّابُونُ الْآجُرِّيُّ وَيُجْلَبُ إِلَى مِصْرَ وَالشَّامِ ،
وَيُصْنَعُ بِهَا أَيْضاً الصَّابُونُ الْمَطِيبُ لَغَسْلِ الْأَيْدِي ، وَيَصْبَغُونَهُ بِالْحُمْرَةِ وَالصَّفْرِ .
وَيُصْنَعُ بِهَا ثِيَابُ قُطْنٍ حَسَنٌ تُنْسَبُ إِلَيْهَا . وَأَهْلُهَا سَبَّابُونَ يُبْغَضُونَ الْعَشْرَةَ .
وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ لَفْظَ الْعَشْرَةِ ، وَيُنَادِي سَمَاسَرْتُهُمُ بِالْأَسْوَاقِ
عَلَى السَّلْعِ ، فَإِذَا بَلَغُوا إِلَى الْعَشْرَةِ قَالُوا : تِسْعَةٌ وَوَاحِدٌ .

١ الآجُرِّي : لعله يريد أنه مقطع بقدر قطع الآجر .

وحضرَ بها بعضُ الأتراك يوماً فسمعَ سمساراً يُنادي : تسعةٌ واحدٌ ،
فضربه بالدبّوس على رأسه ، وقال قل : عشرة بالدبّوس .
وبها مسجد جامع فيه تسعُ قباب ، ولم يجعلوها عشرةً قِياماً بمذهبهم
القبّيح .

ثمَّ سرنا إلى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى .
قال أبو الحسين بن جُبَيْر في وصفها : قدزُّها خطيرٌ ، وذكرُها في كلِّ
زمانٍ يطيرُ ؛ خُطَّابُها من الملوك كثيرٌ ، ومحلُّها من النفوس أثيرٌ ، فكم هاجت
من كفاح ، وسُئلَ عليها من بيض الصِّفاح . لها قلعةٌ شهيرة الامتناع بائنةُ
الارتفاع تنزَّهت حصانةً من أن تُرامَ أو تُستطاع ، مَنحوتةُ الأجزاء ، موضوعة
على نسبة اعتدال واستواء ، قد طاولت الأيّام والأعوام ، ووسعت الخواصَّ
والعوام . أينَ أمراؤها الحمدانيُّون وشعراؤها ؟ فتنيَّ جميعُهُم ولم يبقَ إلا
بناؤها ، فيا عجبا لبلاد تَبْقَى ويذهبُ مُلاكُها ، ويهلكون ، ولا يُقضى
هلاكُها ، وتُخطَبُ بعدهم ، فلا يتعدَّرُ إِملاكُها ، وتُرامُ فيتيسرُ بأهونِ
شيءٍ إدراكُها .

هذه حَلَبُ كم أَدْخَلَتْ ملوكَها في خبرٍ كان ، ونسختْ صرفَ الزمان
بالمكان ، أنثَ اسمُها ، فتَحَلَّت بحليةِ الغوان ، وأتت بالعدر فيمن دان ،
وانجَلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهاتَ سيهرمُ شبابُها ،
ويُعدَمُ خُطَّابُها ، ويُسرَعُ فيها ، بعدَ حينٍ ، خرابُها .

وقلعة حلب تُسمَّى الشَّهَاء ، وبداخلها جبلانٍ يَنْبُعُ منهما الماء ، فلا
تُخافُ الظمأ ، ويُطيفُ بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبعُ منه الماء ، وسورها
متداني الأبراج ؛ وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان ، وكلُّ
بُرجٍ منها مسكونٌ ، والطعامُ لا يتغيَّرُ بهذه القلعة على طول العهد ، وبها
مَشْهُدٌ يقصده بعضُ الناس ، يقال : إنَّ الخليلَ ، عليه السلام ، كان
يتعبَّدُ به .

وهذه القلعة تُشبه قلعة رَحْبَة مالك بن طوق التي على الفُرات بين الشام والعراق . ولما قصد قازانُ طاغيةُ التتر مدينة حلب حاصرَ هذه القلعة أياماً ، ونكص عنها خائباً .

قال ابن جُزَيّ : وفي هذه القلعة يقولُ الخالدي شاعر سيف الدولة :

وَحَرَفَاءُ قَدِ قَامَتْ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِمَرْقَبِهَا الْعَالِي وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ
يَسْجُرُ عَلَيْهَا الْجَوُّ جَيْبَ غَمَامَةٍ وَيُلْبِسُهَا عِقْدًا بِأَنْجُمِهِ الشُّبِّ
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ كَمَا لَاحَتْ الْعِدْرَاءُ مِنْ خَلَلِ الشُّجْبِ
فَكَمْ مِنْ جُنُودٍ قَدِ أَمَاتَتْ بَغْصَةً وَذِي سَطَوَاتٍ قَدْ أَبَانَتْ عَلَى عَقْبِ

وفيهما يقول أيضاً ، وهو من بديع النظم :

وَقَلْعَةٌ عَانَتْ الْعَنْقَاءَ سَافِلُهَا ، وَجَنَازَ مَنْطِقَةَ الْجُوزَاءِ عَالِيهَا
لَا تَعْرِفُ الْقَطْرُ إِذْ كَانَ الْغَمَامُ لَهَا أَرْضًا تَوَطَّأَ قُطْرِيهِ مَوَاشِيهَا
إِذَا الْغَمَامَةُ رَاحَتْ غَاضَ سَاكِنُهَا حَيَاضُهَا قَبْلَ أَنْ تَهْمِي عَوَالِيهَا
يُعَدُّ مِنْ أَنْجُمِ الْأَفْسَلِكِ مَرْقَبُهَا لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَجْرِي فِي مَجَارِيهَا
رَدَّتْ مَكَايِدُ أَقْوَامٍ مَكَايِدُهَا ، وَنَصَبَتْ لِدَوَاهِيهِمْ دَوَاهِيهَا

وفيهما يقول جمال الدين عليّ بن أبي المنصور :

كَادَتْ لِبَوْنٍ سُمُوهَا وَعُلُوهَا تَسْتَوْقِفُ الْفَلَكَ الْمُحِيطَ الدَّائِرَا
وَرَدَّتْ قَوَاطِنُهَا الْمَجْرَةَ مِنْهَا ، وَرَعَتْ سَوَابِقُهَا النَّجُومَ زَوَاهِرَا
وَيَظَلُّ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْهَا خَائِفًا ، وَجِلًّا ، فَمَا يُمَسِّي لَدَيْهَا حَاضِرَا

ويقال في مدينة حلب جلبُ إبراهيم ، لأنَّ الخليل ، صلوات الله وسلامه

١ منطقة الجوزاء : ثلاثة كواكب في برج الجوزاء .

٢ نصبت : وضعت ، جعلت .

على نبينا وعليه ، كان يسكنها ، وكانت له الغنم الكثيرة ، فكان يَسقي الفقراء
والمساكين والوارد والصادر من ألبانها ، فكانوا يجتمعون ويسألون : حلب
إبراهيم؟ فسُميت بذلك . وهي من أعزّ البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع ،
وإتقان الترتيب ، واتساع الأسواق ، وانتظام بعضها ببعض . وأسواقها مسقّفة
بالخشب ، فأهلها دائماً في ظلّ ممدود ، وقيساريّتها لا تُماثلُ حسناً وكبراً ،
وهي تحيطُ بمسجدها . وكلّ سباط منها محاذ لبابٍ من أبواب المسجد ؛
ومسجدُها الجامع من أجمل المساجد ، في صحنه بركة ماء ، ويُطيفُ به بتلاطٍ
عظيمٍ الاتساع ، ومنبرُها بديعُ العمل مُرصّعٌ بالعاج والآبنوس ؛ وبقرب
جامعها مدرسة مناسبةٌ له في حسن الوضع وإتقان الصنعة ، يُنسب لأمرأ بني
حمدان ؛ وبالبلد سواها ثلاث مدارس . وبها مارستانٌ .

وأما خارج المدينة فهو بسيط أبيض عريضٌ به المزارعُ العظيمةُ وشجراتُ
الأعنابِ منتظمة به ، والبساتينُ على شاطئِ نهرها ، وهو النهر الذي يمرّ بحماة ،
ويسمّى العاصي . وقيل : إنّه سُمي بذلك لأنّه يُخيّلُ لناظره أن جريانه من
أسفل إلى علو . والنفس تجدُ في خارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطاً
لا يكون في سواها . وهي من المدن التي تصلح للخلافة .

قال ابن جرّيّ : أطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب ، وذكر داخلها
وخارجها . وفيها يقول أبو عبادة البحرّي :

يا بَرَقُ أسفيرٍ عن قَوَيْقَ فطَرَّتِي حَلَبٍ فأعلى القَصْرِ من بطيَّاسٍ
عن مَنبِتِ الوَرْدِ المُعَصِّفِ صبغهُ في كُلِّ ضاحِيَةٍ وَمَجْنَى الآسِ
أَرْضٌ إذا استَوْحَشْتُكُمْ بَتَدَكُّرٍ حَشَدَتْ عَلَيَّ فَأَكْثَرْتُ إِنْسَانِي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري :

١ قَوَيْقَ : نهر حلب . الطرة : شفير النهر . بطيَّاس : موضع من حلب .

سَقَى حَلَبُ الْمُزْنِ مَغَى حَلَبُ
وَكَمْ مُسْتَطَابٍ مِنَ الْعَيْشِ لَدَّ
إِذَا نَشَرَ الزَّهْرُ أَعْلَامَهُ
غَادَا وَحَوَاشِيهِ مِنْ فِضَّةٍ
فَكَمُ وَصَلَتْ طَرَبًا بِالطَّرَبِ
بَهَا إِذْ بَهَا الْعَيْشُ لَمْ يُسْتَطَبْ
بَهَا وَمَطَارِفُهُ وَالْعَذَبُ
تَرُوقُ ، وَأَوْسَاطُهُ مِنْ ذَهَبٍ
وَقَالَ فِيهَا أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِي :

حَلَبُ الْوُرَادِ جَنَّةٌ عَدْنٌ ،
وَالْعَظِيمُ الْعَظِيمُ يَكْبُرُ فِي عِيٍّ
فَقُوتٌ فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ بِحَرْ ،
وَهِيَ لِلْغَسَادِرِ نَارٌ سَعِيرٍ
نَسِيَهُ مِنْهَا قَدْرُ الصَّغِيرِ الصَّغِيرِ
وَحَصَاةٌ مِنْهُ مَكَانَ ثَبِيرٍ
وَقَالَ فِيهَا أَبُو الْفَتَيَانِ بْنِ جَبُوسَ :

يَا صَاحِبِي إِذَا أَعْيَا كَمَا سَقَمِي ،
مِنْ الْبِلَادِ الَّتِي كَانَ الصَّبَا سَكَنًا
وَقَالَ فِيهَا أَبُو الْفَتْحِ كَشَاجِمَ :

وَمَا أُمْتَعَتْ جَارَهَا بِلْدَةً
بَهَا قَدْ تَجَمَّعَ مَا تَشْتَهِي ،
كَمَا أُمْتَعَتْ حَلَبُ جَارَهَا
فَزُرُّهَا فَطُوبَى لِمَنْ زَارَهَا

وَقَالَ فِيهَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيٌّ بْنُ مُوسَى بْنِ سَعِيدِ الْغُرْنَاطِيِّ الْعَنَسِيِّ :

حَادِي الْعَيْسِ كَمْ تُنِيخُ الْمَطَايَا
حَلَبُ إِنَّهَا مَقَرُّ غَرَامِي
سُقُ فُرُوحِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي سِيَاقٍ^٢
وَمَرَامِي وَقِبْلَةُ الْأَشْوَاقِ

١ ثبير : جبل .

٢ في سياق : أي سياق الموت ، أي مدرجته .

لا خَلا جَوْشَنُ وَبَطْيَاسُ وَالْعَبْدُ مِنْ كُلِّ وَابِلٍ غِيْدَاقُ^١
 كَمْ بِهَا مَرَّتَعٌ لَطَرْفٍ وَقَلْبٍ فِيهِ سَقْيُ الْمُنَى بِكَأْسٍ دِهَاقِ^٢
 وَتَغْنِي طُيُورُهَا لَارْتِيَا حِ ، وَتَشْنِي غُصُونُهَا لِلْعِنَاقِ
 وَعُلُوُّ الشَّهْبَاءِ حَيْثُ اسْتَدَارَتْ أَنْجُمُ الْأَفْقِ حَوْلَهَا كَالنَّطَاقِ

وبجلب ملك الأمراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر ، وهو
 من الفقهاء ، موصوف بالعدل ، لكنه بخيل .

والقضاة بجلب أربعة للمذاهب الأربعة ، فمنهم : القاضي كمال الدين
 ابن الزملكاني شافعي المذهب ، عالي الهمة ، كبير القدر ، كريم النفس ،
 حسن الأخلاق ، متفطن بالعلوم ، وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليؤليه قضاء
 القضاة بحضرة ملكه فلم يُقْبَضَ له ذلك ، وتوفي ببليس ، وهو متوجه إليها .
 ولما ولي قضاء حلب قصده الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده
 شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبي
 عبد الله محمد بن نباتة القرشي الأموي الفارقي ، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها :

أَسِفَّتْ لِفَقْدِكَ جَلَّتْ الْفَيْحَاءُ وَتَبَاشَرَتْ لِقُدُومِكَ الشَّهْبَاءُ
 وَعَمَلَا دِمَشْقَ وَقَدِ رَحِلَتْ كَأَبَّةٌ وَعَمَلَا رَبِي حَلَبَ سَنًا وَسَنَاءُ
 قَدْ أَشْرَقَتْ دَارُ سَكَنَتِ فِئَاءُهَا حَتَّى غَدَتْ وَلِنُورِهَا لَأَلَاءُ
 يَا سَائِرًا ، سَقْيُ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى مِمَّنْ يُبَحِّلُ عِنْدَهُ الْكُرَمَاءُ
 هَذَا كَمَالُ الدِّينِ لُدُّ بِجَنَابِهِ تَنْعَمُ فَتَشْمُ الْفَضْلُ وَالنَّعْمَاءُ
 قَاضِي الْقَضَاةِ أَجَلُ مَنْ أَيْامُهُ تَغْنِي بِهَا الْإِيْتَامُ وَالْفُقَرَاءُ
 قَاضٍ زَكَا أَصْلًا وَقَرَعَا فَمَاعَتَلَى شَرُفَتْ بِهِ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ

١ جوشن وبطياس والمبد : أمكنة في حلب . النيداق : الغزير القطر .

٢ كأس دهاق : ملأى .

مَنْ إِلَهِهُ عَلَى بَنِي حَلَبٍ بِهِ ؛ اللَّهُ وَضَعُ الْفَضْلِ حَيْثُ يَشَاءُ
كَشَفَ الْمُعَمَّى فَهَمُّهُ وَبَيَانُهُ فَكَأَنَّمَا ذَاكَ الذِّكَاءُ ذُكَاءُ^١
يَا حَاكِمَ الْحُكَّامِ قَدْرُكَ سَابِقٌ عَنْ أَنْ تَسُورَكَ رُتْبَةُ سَمَاءِ
إِنَّ الْمَنَاصِبَ دُونَ هِمَّتِكَ الَّتِي فِي الْفَضْلِ دُونَ مَحَلِّهَا الْجَوَازِ
لَكَ فِي الْعُلُومِ فَضَائِلٌ مَشْهُورَةٌ كَالصَّبْحِ شَقٌّ لَهُ الظَّلَامُ ضِيَاءُ
وَمَنَاقِبٌ شَهِدَ الْعَدُوُّ بِفَضْلِهَا وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ

وهي أزيد من خمسين بيتاً وأجازه عليها بكسوةٍ ودراهم . وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت .

قال ابن جزّي : وليس كلامه في هذه القصيدة بذاك ، وهو في المقطعات أجود منه في القصائد ، وإليه انتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق ، وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نُبَاته منشىء الخطب الشهيرة ، ومن بديع مقطعاته في التورية قوله :

عَلَّقْتُهَا غَيْدَاءَ حَالِيَةِ الْعُلَى ، تَجَنِّي عَلَى عَقْلِ الْمُحِبِّ وَقَلْبِهِ
بَخَلْتُ بِلَوْلٍ ثَغَرَهَا عَنْ لَاسِمٍ فَغَدَتْ مُطَوَّقَةً بِمَا بَخَلْتُ بِهِ^٢

ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الإمام المدرّس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة ، أصيل مدينة حلب :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ^٣

ومنهم قاضي قضاة المالكية لا أذكره ، كان من الموثقين بمصر ، وأخذ

١ الذكاء بفتح الدال : حدة الذهن ، وبالضم : الشمس .

٢ ورى بلؤلؤ الثغر أي أسنانها عن عقد اللؤلؤ في عنقها .

٣ هذا البيت مأخوذ من قصيدة لزهير بن أبي سلمى .

الخطّة عن غير استحقاق ؛ ومنهم قاضي قضاة الخنابلة لا أذكر اسمه ، وهو من أهل صالحية دمشق ، ونقيبُ الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ؛ ومن فقهاؤها شرف الدين بن العجمي ، وأقاربُهُ هم كبراء مدينة حلب .
ثمّ سافرتُ منها إلى مدينة تَبْرَين ، وهي على طريق قنّسرين ، وهي حديثة اتخذها التركمان ، وأسواقها حسان ، ومساجدها في نهاية من الاتقان ، وقاضيتها بدر الدين العسقلاني . وكانت مدينة قنّسرين قديمةً كبيرةً ، ثمّ خربت ، ولم يبقَ إلّا رسومها .

ثمّ سافرتُ إلى مدينة أنطاكية ، وهي مدينة عظيمة أصيلة ، وكان عليها سور مُحكم لا نظيرَ له في أسوار بلاد الشام ، فلمّا فتحها الملك الظاهرُ هدمَ سورها . وأنطاكية كثيرة العمارة ، ودورها حسنةُ البناء ، كثيرة الأشجار والمياه ، وبخارجها نهر العاصي . وبها قبرُ حبيب النجار ، رضي الله عنه ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، شيخُها الصّالحُ المعمارُ محمد بن عليّ . سنّه يُنصف على المائة ، وهو ممتّع بقوّته . دخلتُ عليه مرّةً في بستان له وقد جمعَ حطباً ورفعهُ على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة ، ورأيتُ ابنه قد أنافَ على الثمانين ، إلّا أنّه محدودبُ الظهر لا يستطيعُ النهوض . ومن يراها يظنّ الوالدَ منهما ولدًا والولدَ والدًا .

ثمّ سافرتُ إلى حصن بُغْراس ، وهو حصن منيع لا يُرام ، عليه البساتين والمزارع ، ومنه يُدخل إلى بلاد سِيس ، وهي بلاد كفّار الأرمن ، وهم رعيّةٌ للملك الناصر ، يؤدّون إليه مالاً ودراهمهم فضّةً خالصةً تُعرفُ بالبغلية ، وبها تُصنعُ الثياب الديبزية . وأميرُ هذا الحصن صارمُ الدين بن الشيباني ، وله ولدٌ فاضلُ اسمُهُ علاء الدين ، وابنُ أخٍ اسمه حسام الدين ، فاضلٌ كريمٌ يسكنُ الموضع المعروف بالرُّصص ويحفظُ الطريق إلى بلاد الأرمن .

حكاية حسام الدين والتزوير عليه

شكا الأرمنُ مرةً إلى الملك الناصر من الأميرِ حُسام الدين ، وزوَّروا عليه أموراً لا تليق ، فنفذ أمره لأمر الأُمراء بحلب أن يخنقه . فلما توجه الأميرُ بلغ ذلك صديقاً له من كبار الأُمراء ، فدخل على الملك الناصر وقال : يا خَوَندَان ! الأميرُ حُسامُ الدين هو من خيار الأُمراء ينصحُ للمسلمين ، ويحفظ الطريق ، وهو من الشجعان ، والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين ، فيمنعهم ويقرهم ، وإنما أرادوا لإضعاف شوكة المسلمين بقتله . ولم يزل به حتى أنفذ أمراً ثانياً بسراحه ، والخلع عليه ، وردّه لموضعه . ودعا الملك الناصر بريدياً يُعرف بالأنفوش ، وكان لا يُبعثُ إلا في مُهِمٍّ ، أمره بالإسراع والجد في السير ، فسار من مصرَ إلى حلب في خمسٍ ، وهي مسيرة شهر ، فوجدَ أمير حلب قد أحضرَ حُسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يُخنقُ به الناس ، فخلّصه الله تعالى ، وعاد إلى موضعه .

ولقيتُ هذا الأمير ومعه قاضي بُغراس شرف الدين الحموي بموضع يُقال له العمق متوسّط بين أنطاكية وتيزين وبُغراس ، ينزله التركمانُ بمواشيهم لخصبه وسعته .

ثمّ سافرتُ إلى حصن القُصَير ، تصغير قصر ، وهو حصن حسنٌ ، أميره علاء الدين الكردي ، وقاضيه شهاب الدين الأرمني من أهل الديار المصرية . ثمّ سافرتُ إلى حصن الشُغْرُبْكَاس ، وهو منيع في رأس شاهق ، أميره سيفُ الدين الطنطاش ، فاضل ، وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن تَيْمِيَّة .

ثمّ سافرتُ إلى مدينة صهيون ، وهي مدينة حسنة بها الأنهار المُطرودة والأشجار المورقة ، ولها قلعة جيّدة ، وأميرُها يُعرف بالابراهيميّ ، وقاضيه محيي الدين الحمصي ، وبخارجها زاويةٌ في وسط بستان فيها الطعام للوارد

والصادر ، وهي على قبر الصّالح العابد عيسى البدوي ، رحمه الله . وقد زرتُ قبره .

ثمّ سافرتُ منها فمررتُ بحصن القَدْموس ، ثمّ بحصن المَيْسَنَّة ، ثمّ بحصن العَلِيَّة ، واسمه على لفظ واحدة العَلِيق ، ثمّ بحصن مصياف ، ثمّ بحصن الكهف ، وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يُضَيَّب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوّ له أعطاه دِيَّنتَه ، فإن سلمَ بعد تأتّي ما يُراد منه ، فهي له ، وإن أصيب ، فهي لولده . ولهم سكاكين مسمومة يَضْرِبُونَ بها من بُعثوا إلى قتله ، وربّما لم تَصِحَّ حيلُهم ، فقتلوا كما جرى لهم مع الأمير قَراسُنْقور ، فإنّه لما هَرَبَ إلى العراق بعثَ إليه الملك الناصر جملةً منهم فقتلوا ولم يَقْدروا عليه لأخذه بالحزم .

حكاية الملك الناصر وقاتل أخيه

كان قَراسُنْقور من كبار الأمراء وممّن حضرَ قتل الملك الأشرف أخي الملك الناصر ، وشارك فيه ، ولما تَمَهَّدَ الملكُ الناصر وقرّرَ به القَرَارُ واشتدّت أواخِي سلطانه جعل يتتبعُ قتلة أخيه فيقتلهم واحداً واحداً لإظهاراً للأخذ بثأر أخيه ، وخوفاً من أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه . وكان قَراسُنْقور أميرَ الأمراء بحلب ، فكتب الملك الناصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم ، وجعل لهم ميعاداً يكون فيه اجتماعُهم بحلب ونزولُهم عليها حتى يقبضوا عليه ، فلمّا فعلوا ذلك خافَ قَراسُنْقور على نفسه ، وكان له ثمانمائة مملوك فركبَ فيهم وخرج على العساكر صباحاً ، فاخترقهم وأعجزهم سبقاً . وكانوا في عشرين ألفاً ، وقصد منزل أمير العرب مُهَسَّن بن عيسى ، وهو على

مسيرة يومين من حلب ، وكان مُهَنَّا في قَنَصْ له ، فقصد بيته ونزل عن فرسه ، وألقى العمامة في عُنُق نفسه، ونادى: الجوار يا أمير العرب ! وكانت هنالك أمّ الفضل زوجُ مُهَنَّا وبنت عمّه ، فقالت له : قد أجرناك وأجرنا من معك ، فقال : إنّما أطلبُ أولادي ومالي . فقالت له : لك ما تُحبّ ، فانزِلْ في جوارنا ، ففعل ذلك وأتى مهناً فأحسن نُزُلَه وحكّمه في ماله ، فقال: إنّما أحبّ أهلي ومالي الذي تركته بحلب. فدعا مهناً بإخوته وبني عمّه ، فشاورهم في أمره ، فمنهم من أجابه إلى ما أراد ؛ ومنهم من قال : كيف نحاربُ الملك الناصر ، ونحن في بلاده بالشام ؟ فقال لهم مهناً : أمّا أنا فأفعلُ لهذا الرجل ما يُريدُه وأذهبُ معه إلى سلطان العراق .

وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأنّ أولاد قراسنقور سيّروا على البريد إلى مصر ، فقال مهناً لقراسنقور : أمّا أولادك فلا حيلةَ فيهم وأمّا مالك فنجتهد في خلاصه. فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسةٍ وعشرين ألفاً وقصدوا حلب فأحرقوا بابَ قلعتها وتغلّبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقي من أهله ، ولم يَتَّعِدُوا إلى سوى ذلك ، وقصدوا ملك العراق ، وصحبهم أميرُ حمص الأفرمُ ووصلوا إلى الملك محمد خُدا بَندَه سلطان العراق ، وهو بموضع مَصِيفه المُسمّى قَراباغ ، وهو ما بين السلطانية وتبريز ، فأكرمَ نُزُلهم وأعطى مهناً عراق العرب ، وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراقِ العجم ، وتسمّى دمشق الصغيرة ، وأعطى الأفرم هَمْدانَ ، وأقاموا عنده مدّة مات فيها الأفرم ، وعاد مهناً إلى الملك الناصر بعد موافقٍ وعهودٍ أخذها منه ، وبقي قراسنقور على حاله .

وكان الملك الناصر يبعثُ له الفداويةَ مرّةً بعد مرّةٍ، فمنهم من يدخل عليه داره فيُقتلُ دونَه ؛ ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه ، ويُقتلُ بسببه من الفداوية جماعةٌ ، وكان لا يُفارقُ الدرعَ أبداً ، ولا ينامُ إلّا في بيت العود والحديد ، فلمّا مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع

ما سنذكره من أمر الجُوبانِ كبير أمرائه وفرار ولده الدميرطاش إلى الملك الناصر ، ووقعت المراسلةُ بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور ، ويبيع إليه الملك الناصر برأس الدميرطاش ، فبعث الملك الناصر برأس الدميرطاش إلى أبي سعيد ، فلما وصله أمرٌ بحمل قراسنقور إليه ، فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتماً كان له مخوفاً في داخله سُمّ نافعٌ فنزعَ فصّصه وامتنصّ ذلك السمّ فمات حينه ، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ، ولم يبعث له برأسه .

ثم سافرتُ من حصون الغداوية إلى مدينة جبّلة ، وهي ذات أنهار مطردة وأشجار البحر على نحو ميل منها ، وبها قبرُ الولي الصّالح الشهير إبراهيم بن أدهم ، رضي الله عنه ، وهو الذي نبذَ الملك وانقطعَ إلى الله تعالى حسبما شهّرَ ذلك ، ولم يكن إبراهيم من بيت ملك ، كما يظنه الناس ، إنّما ورثَ الملك عن جدّه أبي أمه ، وأمّا أبوه أدهم فكان من الفقراء الصّالحين السّائحين المتعبّدين الّورعين المنقطعين .

حكاية ادهم الزاهد

يذكر أنّه مرّ ذات يومٍ ببساتين مدينة بُخارى وتوضّأ من بعض الأنهار التي تتخلّلها ، فإذا بتفّاحة يحملها ماء النهر ، فقال : هذه لا خطر لها ، فأكلها ، ثم وقعَ في خاطره من ذلك وسواس ، فعزمَ على أن يستحلّ من صاحب البستان ، ففرعَ باب البستان فخرجت إليه جاريةٌ فقال لها : ادعي لي صاحب المنزل ، فقالت : إنّهُ لامرأة ، فقال : استأذني لي عليها ، ففعلت ، فأخبرَ المرأةَ بخبر التفّاحة ، فقالت له : إنّ هذا البستان نصفهُ لي ونصفهُ للسلطان ؛ والسلطان يومئذٍ يبلغ ، وهي مسيرةُ عشرة من بُخارى ، وأحلّته المرأةُ من نصفها ، وذهب إلى بلخ ، فاعترض السلطان في موكبه ، فأخبره الخبر واستحلّه

فأمره أن يعودَ إليه من الغد .

وكان للسلطان بنتٌ بارعةٌ الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحُببت إليها العبادة وحُبَّ الصالحين ، وهي تُحب أن تتزوجَ من ورع زاهدٍ في الدنيا ، فلما عادَ السلطان إلى منزله أخبرَ بنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أروعَ من هذا ، يأتي من بُخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة ؛ فرغبت في تزوجه ، فلما أتاه من الغد قال : لا أحلكَ إلا أن تتزوجَ ببنتي ، فانقادَ لذلك بعد استعصاء وتمتع ، فترجَّ منها ، فلما دخل عليها وجدها متزينة ، والبيت مزينٌ بالفرش وسواها ، فعمد إلى ناحية من البيت ، وأقبل على صلاته حتى أصبح ، ولم يزل كذلك سبع ليال .

وكان السلطان ما أحله قبل ، فبعثَ إليه أن يُحله فقال : لا أحلكَ حتى يقعَ اجتماعُكُ بزوجتك ، فلما كان الليل واقعها ، ثم اغتسلَ وقام إلى الصلاة ، فصاحَ صبيحةً وسجدَ في مُصَلَّاه فوجدَ مَيِّتاً ، رحمه الله . وحملت منه فولدت إبراهيم ، ولم يكن لحدّه ولدٌ فأُسندَ الملكُ إليه .

وكان من تَحْلِيهِ عن الملك ما اشتهر . وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعامُ للصَّادِر والوارد ، وخادمها إبراهيمُ الجُمحي من كبار الصالحين ، والناسُ يقصدونَ هذه الزاوية ليلة النصف من شعبانَ من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثاً . ويقوم بها خارج المدينة سوقٌ عظيمٌ فيه من كلِّ شيءٍ ويُقدِّمُ الفقراء المتجرِّدون من الآفاق لحضور هذا الموسم ، وكلٌّ من يأتي من الزَّوَار لهذه التربة يُعطي لخادمها شِمْعةً فيجتمعُ من ذلك قناطرٌ كثيرة .

وأكثرُ أهل هذه السواحل هم الطائفة النَّصيرية الذين يعتقدون أن عليَّ ابن أبي طالب إلهٌ ، وهم لا يُصَلُّون ولا يتطهَّرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقُراهم ، فبنوا بكلِّ قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه ، وربما أوتَ إليه مواشيهم ودوابهم ، وربما

وصل الغريبُ إليهم ، فينزلُ بالمسجد ويؤذُنُ للصلاة ، فيقولونَ له : لا تنهق !
علفك يأتيك ، وعددهم كثير .

حكاية المهدي الكاذب

ذُكرَ لي أنّ رجلاً مجهولاً وقعَ ببلاد هذه الطائفة فادّعى الهداية ، وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام ، وكان يُعيّن لهم البلاد ويأمرهم بالخروج إليها ، ويُعطيه من ورق الزيتون ، ويقول لهم : استظهروا بها فإنّها كالأوامر لكم . فإذا خرجَ أحدهم إلى بلد أحضره أميرُها فيقولُ له : إنّ الإمامَ المهدي أعطاني هذا البلد ، فيقولُ له : أين الأمر ؟ فيخرجُ ورقَ الزيتون فيضربُ ويحبسُ ، ثمّ إنّه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يبدؤا بمدينة جبلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوضَ السيوف قُضبان الآس ، ووعدهم أنّها تصيرُ في أيديهم سيوفاً عند القتال ، فغدروا مدينة جبلة ، وأهلها في صلاة الجمعة ، فدخلوا الدّورَ وهتكوا الحريم . وثار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا . واتصل الخبر باللاذقية فأقبل أميرُها بهادير عبدُ الله بعسكره وطُيّرت الحمامُ إلى طرابلس ، فأتى أميرُ الأمراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفاً ، وتحصّن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يُعطوه ديناراً عن كلّ رأس إن هو حاول إبقاءهم .

وكان الخبر قد طُيّرَ به الحمامُ إلى الملك الناصر وصدر جوابُهُ أن يُحمّلَ عليهم السيف ، فراجعته ملك الأمراء وألقى له أنّهم عمّالُ المسلمين في حراثة الأرض ، وأنهم إن قُتلوا ضَعُفَ المسلمون لذلك ، فأمرَ بالإبقاء عليهم . ثمّ سافرتُ إلى مدينة اللاذقية ، وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون أنّها مدينة الملك الذي كان يأخذ كلّ سفينة غصباً ، وكنت إنّما قصدتها

لزيرة الولي الصالح عبد المحسن الإسكندري ، فلمّا وصلتُها وجدته غائباً بالحجاز الشريف ، فلقيتُ من أصحابه الشيخين الصالحين سعيداً البجائي ويحيى السلاوي ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم ، وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر ؛ وقاضيهما الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلّق بطيلان ملك الأمراء فولّاه قضاءها .

حكاية ابن المؤيد الهجاء

كان باللاذقية رجلٌ يُعرفُ بابن المؤيد هجاء لا يسلمُ أحدٌ من لسانه متهمٌ في دينه مُستخفٌ ، يتكلّمُ بالقباح من الإلحاد ، فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء ، فلم يقضها له ، فقصد مصرَ وتقولَ عليه أموراً شنيعة ، وعاد إلى اللاذقية ، فكتب طيلان إلى القاضي جلال الدين أن يتحصّل في قتله بوجه شرعي ، فدعاه القاضي إلى منزله وباحثه ، واستخرجَ كامن إلحاده ، فتكلّم بعظائم أيسرها يوجبُ القتلَ ، وقد أعدّ القاضي الشهود خائفَ الحجاب ، فكتبوا عقداً بمقاله ، وثبّت عند القاضي ، وسُجن وأعلم ملك الأمراء بقضيته ، ثمّ أخرج من السجن وخنقَ على بابه .

ثمّ لم يلبث ملك الأمراء طيلان أن عُزلَ عن طرابلس ووليها الحاج قرطية ، من كبار الأمراء وممن تقدّمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه إخوة ابن المؤيد شاكين القاضي جلال الدين ، فأمر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا ، وأمرَ بخنقهم ، وأخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يُخنقُ الناس ، وأجلسَ كل واحدٍ منهم تحت مُختنقه ، ونزّعت عمامتهم .

ومن عادة أمراء تلك البلاد أنّه متى أمرَ أحدهم بقتل أحد من الناس يَمُرّ

الحاكم من مجلس الأمير سبقاً على فرسه إلى حيث المأمور بقتله ، ثم يعود إلى الأمير ، فيكرر استئذانه ، يفعل ذلك ثلاثاً ، فإذا كان بعد الثلاث أنفذ الأمر ، فلما فعل الحاكم ذلك قامت الأمراء في المرة الثالثة وكشفوا رؤوسهم ، وقالوا: أيها الأمير هذه سبّة في الإسلام! يقتل القاضي والشهود؛ فقبل الأمير شفاعتهم وخلّى سبيلهم .

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص ، وهو أعظم دير بالشام ومصر ، يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والخبز والزيتون والخل البكر . وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تُحطّ له السلسلة ، وهي من أحسن المراسي بالشام .

ثم سافرت إلى حصن المرقب ، وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ، ومبناه على جبل شامخ ، وخارجة رُبض يسترله الغرباء ، ولا يدخلون قلعته ، وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قتلاوون ، وعليه ولد ابنه الملك الناصر . وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفاضل القضاة وكرمائهم . ثم سافرت إلى الجبل الأقرع ، وهو أعلى جبل بالشام ، وأول ما يظهر منها من البحر ، وسكانه التركمان ، وفيه العيون والأنهار .

وسافرت منه إلى جبل لبنان ، وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

حكاية الصالحين اللبنانيين وحمار الوحش

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال : كنّا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد ، فأوقدنا ناراً عظيمة ، وأحدقنا بها . فقال بعض

الحاضرين : يصلحُ لهذه النار ما يُشوى فيها ، فقال أحد الفقراء ممن تزدرية الأعين ولا يعابُ به : إني كنتُ عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم ، فرأيتُ بمقربة منه حماراً وحشٍ قد أهدقَ الثلجُ به من كلِّ جانب ، وأظنه لا يتقدرُ على الحراك ، فلو ذهبتمُ إليه لقدرتُمُ عليه ، وشويتُم لحمه في هذه النار . قال : فقمنا إليه في خمسة رجال فلقيناه كما وُصِفَ لنا فقبضناه وأتيناه به أصحابنا وذبحناه وشويتنا لحمه في تلك النار ، وطلبنا الفقير الذي نبه عليه ، فلم نجده ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه .

ثمَّ وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك ، وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تُحدقُ بها البساتين الشريفة والجناتُ المسيفة ، وتتحرقُ أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية . وبها من حبَّ الملوك ما ليس في سواها ، وبها يُصنعُ الدبسُ المنسوبُ إليها ، وهو نوعٌ من الربِّ يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه ، فيجمدُ وتكسرُ القلَّة التي يكونُ بها فيبقى قطعةً واحدةً ، وتُصنعُ منه الحلواء ، ويُجعلُ فيها الفستقُ واللوزُ ويسمونها حلواء بالملبس ، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس ، وهي كثيرة الألبان ، وتجلبُ منها إلى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمسجد ، وأمَّا الرقاقُ فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة . تُعرفُ بالزبداني ، كثيرة الفواكه ، ويغدون منها إلى دمشق .

ويُصنعُ بعلبك الثيابُ المنسوبة إليها من الإحرام وغيره ، ويُصنعُ بها أواني الخشب وملاعقُ التي لا نظيرَ لها في البلاد ، وهم يسمون الصحف بالدسوت ، وربما صنعوا الصحف ، وصنعوا صحفةً أخرى تسعُ في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشر ، يُخَيَّلُ لرائيها أنها صحفة واحدة ، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً ، واحدة في جوف واحدة ، يصنعون لها غشاء من جلد ويُمسكها الرجل في حزامه ، وإذا حضرَ طعاماً مع أصحابه

١ تسع : هكذا في الأصل ولعلها توضع .

أَخْرَجَ ذَلِكَ ، فَيُظَنُّ رَأْيُهُ أَنَّهَا مُلْعَقَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْ جَوْفِهَا تَسْعًا .
وَكَانَ دُخُولِي لِبَعْلِكَ عَشِيَّةَ النَّهَارِ ، وَخَرَجْتُ مِنْهَا بِالْغَدُو لِفَرَطِ اسْتِثْنَائِي إِلَى
دِمَشْقٍ وَوَصَلْتُ يَوْمَ الْخَمِيسِ التَّاسِعِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ عَامَ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ
إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقِ الشَّامِ فَتَزَلْتُ مِنْهَا بِمَدْرَسَةِ الْمَالِكِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالشَّرَابِييَةِ .

وَدِمَشْقُ هِيَ الَّتِي تَفْضِلُ جَمِيعَ الْبِلَادِ حَسَنًا وَتَتَقَدَّمُهَا جَمَالًا ، وَكُلَّ وَصْفٍ ،
وَإِنْ طَالَ ، فَهُوَ قَاصِرٌ عَنْ مَحَاسِنِهَا وَلَا أَبْدَعُ مِمَّا قَالَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ جُبَيْرٍ ،
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فِي ذِكْرِهَا قَالَ : وَأَمَّا دِمَشْقُ ، فَهِيَ جَنَّةُ الْمَشْرِقِ وَمَطْلَعُ
نُورِهَا الْمَشْرِقِ وَخَاتَمَةُ بِلَادِ الْإِسْلَامِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْهَا ، وَعُرُوسُ الْمَدَنِ الَّتِي
اجْتَلَسَتْهَا . قَدْ تَحَلَّتْ بِأَزَاهِيرِ الرِّيَّاحِينَ . وَتَجَلَّتْ فِي حُلِّ سِنْدِسِيَّةٍ مِنَ الْبَسَاتِينِ .
وَحَلَّتْ مَوْضِعَ الْحَسَنِ بِالْمَكَانِ الْمَكِينِ . وَتَزَيَّنَتْ فِي مَنْصَبِهَا أَجْمَلَ تَزْيِينٍ .
وَتَشَرَّفَتْ بِأَنْ أَوَى الْمَسِيحُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأُمَّتُهُ مِنْهَا إِلَى رُبُوعِ ذَاتِ قَرَارٍ مَعِينٍ .
ظَلَّ ظَلِيلٍ . وَمَاءٌ سَلْسِيلٍ . تَنَسَّبُ مَذَانِبُهُ انْسِيَابَ الْأَرَاقِمِ بِكُلِّ سَبِيلٍ . وَرِيَاضُ
يُحْيِي النُّفُوسَ نَسِيمُهَا الْعَلِيلِ . تَتَبَرَّجُ لِنَظَرِهَا بِمَجْتَلَى صَقِيلٍ وَتَنَادِيهِمْ هَلَمُّوا
إِلَى مَعْرَسٍ لِلْحَسَنِ وَمَقِيلٍ . وَقَدْ سَمَتْ أَرْضُهَا كَثْرَةَ الْمَاءِ . حَتَّى اسْتَاثَتْ إِلَى
الظَّمَاءِ . فَتَكَادُ تَنَادِيكَ بِهَا الصَّمِّ الصَّلَابِ : اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسِلٌ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَقَدْ أَحْدَقَتْ الْبَسَاتِينُ بِهَا إِحْدَاقَ أَهَالَةِ الْقَمَرِ . وَالْأَكَامُ بِالْثَمَرِ .
وَامْتَدَّتْ بِشَرْقِيَّهَا غُوطَتُهَا الْخَضِرَاءُ امْتِدَادَ الْبَصْرِ . وَكُلَّ مَوْضِعٍ لُحِظَتْ
بِجَهَاتِهَا الْأَرْبَعُ نَضْرَتُهُ الْيَانِعَةُ قَيْدَ الْبَصْرِ . وَلِلَّهِ صَدَقُ الْقَائِلِينَ عَنْهَا : إِنْ كَانَتْ الْجَنَّةُ
فِي الْأَرْضِ فَدِمَشْقُ لَا شَكَّ فِيهَا . وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ تَسَامِيهَا وَتُحَازِيهَا .
قَالَ ابْنُ جُرْزِي : وَقَدْ نَظُمَ بَعْضُ شُعْرَائِهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ الْخُلُودِ بِأَرْضٍ فَدِمَشْقُ ، وَلَا تَكُنْ سِوَاهَا
أَوْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ عَلَيْهَا قَدْ أَبَدَتْ هَوَاهَا وَهَوَاهَا

١ أَبَدَتْ : أَعْلَتْ .

بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَاعْبَثْنِمَهَا عَشِيَّةً وَضُحَاهَا

وذكرها شيخنا المحدث الرَّحَّالُ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر ابن حسان القيسي الوادي آشي نزيل تونس ، ونص كلام ابن جبير ثم قال : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد . وتَوَقَّ الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد . هذا وإن لم تكن له بها إقامة . فيُعرب عنها بحقيقة علامة . ولا وصف ذهبيات أصيلها ، وقد حان من الشمس غروبها ، ولا أزمان جفولها المنوعات ، ولا أوقات سرورها المنبّهات . وقد اختص من قال ألغيتها كما تصيفُ الألسن . وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين .

قال ابن جُزي : والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة ، وكان والذي ، رحمه الله ، كثيراً ما ينشد في وصفها هذه الأبيات ، وهي لشرف الدين بن محسن ، رحمه الله تعالى :

دِمَشْقُ بِنَا شَوْقٌ لِمَيْهَا مُبَرَّحٌ وَإِنْ لَجَّ وَاشْ أَوْ أَلَحَّ عَدُولُ
بِلَادُهَا بِهَا الْحُصْبَاءُ دُرٌّ وَتُرْبُهَا عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شَمُولُ
تَسْلَسَلُ فِيهَا مَأْوَاهَا وَهُوَ مُطْلَقٌ وَصَحَّ نَسِيمُ الرُّوْضِ وَهُوَ عَلِيلُ

وهذا من النمط العالي من الشعر ، وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي :

الشَّامُ شَامَةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا كَمَا إِنْسَانُ مُقْلَسَتِهَا الْغَضِيضَةُ جَلَقُ
مِنْ أَسْهَى لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقَضِي وَمَنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمُ لَا تُحْرِقُ

وقال أيضاً فيها :

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّتَاتُ مُعَجَّلَةٍ لِلطَّالِبِينَ ، بِهَا الْوِلْدَانُ وَالْحُورُ
مَا صَاحَ فِيهَا عَلَى أَوْتَارِهِ قَمَرٌ إِلَّا يُغْنِيهِ قُمْرِيٌّ وَشُحْرُورُ

الجُفُولُ : الشُّرُودُ وَالنُّفُورُ ، ولا يدرى ماذا أراد به .

يا حَبَبْنَا وَدُرُوعُ الْمَاءِ تَنْسَجُهَا أَنَامِلُ الرِّيحِ إِلَّا أَنَّهَا زُورُ
وله فيها أشعارٌ كثيرةٌ سوى ذلك . وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف
الأسدي :

سَقَى دِمَشْقَ اللَّهِ غَيْثًا مُحَسَّنًا مِنْ مُسْتَهْلٍ دِيْمَةٍ دَهَاqِهَا^١
مَدِيْنَةً لَيْسَ يُضَاهِي حُسْنُهَا فِي سَائِرِ الدُّنْيَا وَلَا آفَاقِهَا
تَوَدَّ زَوْرَاءُ الْعِرَاقِ أَتَهَا مِنْهَا ، وَلَا تُعْزَى إِلَى عِرَاقِهَا
فَأَرَضُهَا مِثْلُ السَّمَاءِ بِهَجَّةٍ ، وَزَهْرُهَا كَالزَّهْرِ فِي إِشْرَاقِهَا
نَسِيْمُ رَوْضِهَا مَتَى مَا قَدَّ سَرَى افْتَكَّ أَخَا الْهُمُومِ مِنْ وَثَاقِهَا
قَدَّ رَتَعَ الرَّبِيعُ فِي رُبُوعِهَا وَسَيَقَتِ الدُّنْيَا إِلَى أَسْوَاقِهَا
لَا تَسَامُ الْعُيُونُ وَالْأَنْوْفُ مِنْ رُؤَيْتِهَا يَوْمًا وَلَا اسْتِنْشَاقِهَا

ومما يناسب هذا للقاضي الفاضل عبد الرحمن البيسانى فيها من قصيدة
وقد نُسبت أيضاً لابن المنير :

يَا بَرَقُ هَلْ لَكَ فِي احْتِمَالِ تَحِيَّةٍ عَذُبَتْ فَصَارَتْ مِثْلَ مَائِكَ سَلْسَلَا
بَاكِرُ دِمَشْقَ بِمَشْقِ الْحَيَا زَهَرَ الرِّيَاضِ مُرْصَعًا وَمُكَلَّلًا^٢
وَأَجْرُرُ بِجَيْرِ ذِيُولِكَ وَاحْتَصِصْ مَعْنَى تَأَزَّرَ بِالْعُلَا وَتَسَرَّبَلَا
حَيْثُ الْحَيَا الرَّبْعِيَّ مَحْلُولُ الْحَيَا ، وَالْوَابِلُ الرَّبْعِيَّ مَفْرِيَّ الْكَلَا^٣

وقال فيها أبو الحسن عليّ بن موسى سعد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين :

١ الدهاق : كثرة الماء .

٢ قوله : بِمَشْقِ الْحَيَا ، غامض وشرط البيت مختل الوزن .

٣ الحيا الربعي : أراد به مطر الربيع . وأراد بمحلل الحيا : الغزارة .

دِمَشْقُ مَنْزِلُنَا حَيْثُ النِّعِيمُ بَدَا ، وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مُخْتَصِرُ
الْقُصْبِ رَاقِصَةٌ ، وَالطَّيْرُ صَادِحَةٌ
وَقَدْ تَجَلَّتْ مِنَ اللَّذَاتِ أَوْجُهَا
وَكُلُّ وَادٍ بِهِ مُوسَى يُفَجِّرُهُ ؛
مُكَمَّلًا ، وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مُخْتَصِرُ
وَالزَّهْرُ مُرْتَفِعٌ ، وَالْمَاءُ مُنْحَدِرُ
لَكِنَّهَا بِظِلَالِ الدَّوْحِ تَسْتَتِرُ
وَكُلُّ رَوْضٍ عَلَى حَافَاتِهِ الْخَضِيرُ

وقال أيضاً فيها :

خَيْمٌ بِجَلْقَ بَيْنَ الْكَاسِ وَالْوَتْرِ
وَمَتَعَ الطَّرْفَ فِي مَرَأَى مَحَاسِنِهَا ،
وَأَنْظَرُ إِلَى ذَهَبِيَّاتِ الْأَصِيلِ بِهَا ،
وَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِي لَذَاتِهِ بَشَرًا
فِي جَنَّةٍ هِيَ مِلُّ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ
وَرَوْضِ الْفِكْرِ بَيْنَ الرُّوضِ وَالنَّهْرِ
وَأَسْمَعُ إِلَى نَغَمَاتِ الطَّيْرِ فِي الشَّجَرِ
دَعْنِي فَلِإِنَّكَ عِنْدِي سُوقَةُ الْبَشَرِ

وقال أيضاً فيها :

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّةٌ
لِللَّهِ أَيَّامُ السُّبُوتِ
أَنْظَرُ بَعَيْنَكَ هَلْ تَرَى
فِي مَوْطِنٍ غَنَى الْحَمَامِ
يَنْسَى بِهَا الْوَطْنَ الْغَرِيبُ
بِهَا ، وَمَنْظَرُهَا الْعَجِيبُ
إِلَّا مُحِبًّا أَوْ حَبِيبُ
بِهِ عَلَى رَقْصِ الْقَضِيبِ
وَعَدَّتْ أَزَاهِيرُ رَوْضِهِ
تَخْتَالُ فِي فَرْحٍ وَطِيبِ

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً إنما يخرجون إلى المتنزهات
وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النظرة والمياه الجارية فيكونون
بها يومهم إلى الليل . وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فليرجع إلى كلام
الشيخ أبي عبد الله .

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً ، ولا يُعلم له نظير ولا يوجد له شبيه . وكان الذي تولّى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ووجهه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصنّاع فبعث إليه اثني عشر ألف صانع ، وكان موضع المسجد كنيسة فلمّا افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، من إحدى جهاتها بالسيف ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ؛ ودخل أبو عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، من الجهة الغربية صلحاً ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عتوةً مسجداً ، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة . فلمّا عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض ، فأبوا عليه ، فانترعها من أيديهم ، وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يُجَنّ . فذكروا ذلك للوليد فقال : أنا أوّل من يُجَنّ في سبيل الله . وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه ؛ فلمّا رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الروم .

وزيّنَ هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفيسفساء تخالطها أنواعُ الأصبغة الغربية الحسن . وذرعُ المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة ، وهي ثلاثمائة ذراع ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمسة وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع . وعدد شمسيات الزجاج الملوّنة التي فيه أربع وسبعون ، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب . سعةُ كلِّ بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين ساريةً وثمانية أرجل حصيةً تتخلّلها ، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون ، قد صوّرت فيها أشكالُ محاريب وسواها ، وهي ثقل قُبّة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النسر كانتهم

١ حصية : كثيرة الحصا .

شبهوا المسجد نسرّاً طائراً والقبة رأسه ، وهي من أعجب مباني الدنيا ، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبةً في الهواء مُنيقة على جميع مباني البلد .

وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية سعة كل بلاط منها عشرُ خطاً ، وبها من السواري ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة ، وسعة الصحن مائة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسناً وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة ، وإذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباً له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحطّ رأسه .

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها في غربيّه ، وهي أكبرها ، وتسمّى قبة عائشة أمّ المؤمنين ، وهي قائمة على ثمان سواري من الرّخام مزخرفة بالفصوص والأصבע الملوّنة ، مسقفة بالرصاص ، يقال : إن مال الجامع كان يختزن بها .

وذكر لي أنّ فوائده مستغلّات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كلّ سنة ؛ والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى إلا أنّها أصغر منها ، قائمة على ثمان من سواري الرّخام ، وتسمّى قبة زين العابدين ؛ والقبة الثالثة في وسط الصحن ، وهي صغيرة مثمّنة من رخام عجيب محكم الإلصاق قائمة على أربع سواري من الرّخام الناصع ، وتحتها شبّاك حديد في وسطه أنبوب نحاس يمجّ الماء إلى علو فيرتفع ثمّ ينثني كأنّه قضيب لجّين ، وهم يُسمّونه قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب ؛ وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يُفضي إلى مسجد بديع الوضع يسمّى مشهد عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجنوبي موضعٌ يقال إنّ عائشة ، رضي الله عنها ، سمعت الحديث هنالك .

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية ، وفي الركن الشرقي منها ازاء المِحْرَابِ خِزَانَةٌ كَبِيرَةٌ فيها المَصْحَفُ الكَرِيمُ الَّذِي وَجَّهَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِلَى الشَّامِ . وَنَفْتَحُ تِلْكَ الْخِزَانَةَ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَيَزِدُّهُمْ النَّاسُ عَلَى لُثْمِ ذَلِكَ الْمَصْحَفِ الْكَرِيمِ ، وَهَنَالِكَ يَحْلِفُ النَّاسُ غَرْمَاءَهُمْ وَمَنْ ادَّعَا عَلَيْهِ شَيْئًا . وَعَنْ يَسَارِ الْمَقْصُورَةِ مِحْرَابُ الصَّحَابَةِ ، وَيَذْكُرُ أَهْلُ التَّارِيخِ أَنَّهُ أَوَّلُ مِحْرَابٍ وُضِعَ فِي الْإِسْلَامِ . وَفِيهِ يَوْمٌ لِإِمَامِ الْمَالِكِيَّةِ ؛ وَعَنْ يَمِينِ الْمَقْصُورَةِ مِحْرَابُ الْحَنْفِيَّةِ ، وَفِيهِ يَوْمٌ لِإِمَامِهِمْ ، وَبِلِيهِ مِحْرَابُ الْحَنَابِلَةِ ، وَفِيهِ يَوْمٌ لِإِمَامِهِمْ .

ولهذا المسجد ثلاثُ صوامعٍ ١ : إحداهما بَشْرَقِيَّةٌ ، وَهِيَ مِنْ بِنَاءِ الرُّومِ . وَبَابُهَا دَاخِلُ الْمَسْجِدِ ، وَبِأَسْفَلِهَا مَطْهَرَةٌ ، وَبُيُوتٌ لِلْوُضُوءِ يَغْتَسِلُ فِيهَا الْمُعْتَكِفُونَ وَالْمُتَزَمِّمُونَ لِلْمَسْجِدِ ، وَيَتَوَضَّأُونَ ؛ وَالصَّوْمَعَةُ الثَّانِيَّةُ بِغَرْبِيَّةٍ ، وَهِيَ أَيْضًا مِنْ بِنَاءِ الرُّومِ ؛ وَالصَّوْمَعَةُ الثَّالِثَةُ بِشَمَالِهِ ، وَهِيَ مِنْ بِنَاءِ الْمُسْلِمِينَ . وَعَدَدُ الْمُؤَذِّنِينَ بِهِ سَبْعُونَ مُؤَذِّنًا ؛ وَفِي شَرْقِيِّ الْمَسْجِدِ مَقْصُورَةٌ كَبِيرَةٌ فِيهَا صِيَهْرِيحُ مَاءٍ ، وَهِيَ لَطَائِفَةُ الزِّيَالَةِ السُّودَانِ ، وَفِي وَسْطِ الْمَسْجِدِ قَبْرُ زَكَرِيَّا ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَعَلَيْهِ تَابُوتٌ مُعْتَرِضٌ بَيْنَ أُسْطُوَانَتَيْنِ مَكْسُوتٍ بِثَوْبٍ حَرِيرٍ أَسْوَدَ مُسْلَمٍ ، فِيهِ مَكْتُوبٌ بِالْأَبْيَضِ « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى » .

وهذا المسجد شهيرُ الْفَضْلِ ؛ وَقُرَأَتْ فِي فُضَائِلِ دِمَشْقَ عَنْ سَفِيَّانِ الثَّوْرِيِّ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ صَلَاةٍ ، وَفِي الْأَثَرِ عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ بَعْدَ خُرَابِ الدُّنْيَا أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَيُقَالُ إِنَّ الْجِدَارَ الْقِبْلِيَّ مِنْهُ وَضَعَهُ نَبِيُّ اللَّهِ هُودٌ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّ قَبْرَهُ بِهِ . وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ ظَلْفَارِ الْيَمَنِ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الْأَحْقَافُ بَنِيَّةً فِيهَا قَبْرٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ : هَذَا قَبْرُ هُودَ بْنِ عَابِرَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَمِنْ فُضَائِلِ هَذَا الْمَسْجِدِ أَنَّهُ لَا يَخْلُو عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالصَّلَاةِ إِلَّا قَلِيلًا

١ الصوامع : المآذن ، الواحدة صومعة .

من الزمان ، كما سنذكره ، والناس يجتمعون به كلَّ يوم إثر صلاة الصبح فيقرأون سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تُسمَّى الكَوُثْرِيَّةَ يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . وللمجتمعين على هذه القراءة مرتباتٌ تُجرى لهم ، وهم نحو ستمائة إنسان ، ويدورُ عليهم كاتبُ الغيبة فمن غاب منهم قُطِعَ له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفي هذا المسجد جماعةٌ كبيرةٌ من المجاورين لا يخرجون منه مُقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ، ويتوضؤون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها ؛ وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك .

وفي هذا المسجد أربعة أبوابٍ : باب قبلي يُعرفُ باب الزيادة ، وبأعلاه قطعة من الرَّمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ؛ ولهذا الباب دِهْلِيز كبير متسع فيه حوائث السقَّاطين وغيرهم ، ومنه يُذهب إلى دار الخيل ؛ وعن يسار الخارج منه سماطُ الصَفَّارين ، وهي سوقٌ عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق ؛ وبموضع هذه السوق كانت دارُ معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، ودورُ قومه ، وكانت تسمَّى الخضراء ، فهدمها بنو العباس ، رضي الله عنهم ، وصار مكانها سوقاً ؛ وباب شرقي ، وهو أعظمُ أبوابِ المسجد ، ويُسمَّى باب جَسِيرُون ، وله دِهْلِيز عظيمٌ يُخرجُ منه إلى بلاطٍ عظيمٍ طويلٍ أمامه خمسةُ أبوابٍ لها ستةُ أعمدة طِوال ؛ وفي جهة اليسار منه مشهدٌ عظيمٌ كان فيه رأسُ الحسين ، رضي الله عنه ، وإلزائه مسجد صغير يُنسبُ إلى عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وبه ماء جار .

وقد انتظمت أمامَ البلاط درجٌ يُنحدر فيها إلى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم يتصل باب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالخدوع طوالٌ ، وبجانب هذا الدهليز أعمدةٌ قد قامت عليها شوارع مستديرةٌ فيها دكاكين البزازين

وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكُتُيبَتين وصُنّاع
أواني الرّجاج العجيبة .

وفي الرحبة المتصلة بالباب الأوّل دكاكين لكبار الشهود منها دكانان
للشّافعية ، وسائرهما لأصحاب المذاهب ، يكون في الدكان منها الخمسة والستّة
من العدول ، والعائدُ للأنكحة من قبل القاضي ، وسائر الشهود مفترقون في
المدينة ، وبمقربة من هذه الدكاكين سوقُ الوراقين الذين يبيعون الكاغدَ
والأفلامَ والمدادَ ؛ وفي وسط الدهليز المذكور حوضٌ من الرّخام كبير مستدير
عليه قبة لا سقفَ لها تطلّها أعمدة رخام ، وفي وسط الحوض أنبوبٌ نحاس
يزعج الماء بقوة فيرتفعُ في الهواء أزيدَ من قامة الإنسان يُسمّونه الفوّارة ،
منظرُهُ عجيب .

وعن يمين الخارج من باب جيرون ، وهو باب الساعات ، غرفةٌ لها هيئة
طاقٍ كبير فيه طيقان صغار مفتحةٌ لها أبواب على عدد ساعات النهار ، والأبواب
مصبوغٌ باطنها بالخضرة ، وظاهرها بالصفرة ، فإذا ذهبَت ساعة من النهار ،
انقلبَ الباطنُ الأخضرُ ظاهراً والظاهرُ الأصفرُ باطناً ، ويقال : إن بداخل الغرفة
من يتولّى قلبها بيده عند مضي الساعات .

والبابُ الغربيّ يُعرفُ بباب البريد ، وعن يمين الخارج منه مدرسةُ الشافعية ،
وله دهليز فيه حوانيت للشّمّاعين وسماطٌ لبيع الفواكه ، وبأعلاه بابٌ يُصعدُ
إليه في درج له أعمدةٌ سامية في الهواء ، وتحت الدرج سقائتان عن يمين
وشمال مستديرتان .

والبابُ الجنوبيّ يُعرفُ بباب التطفانيين ، وله دهليز عظيم ، وعن يمين
الخارج منه خانقاه تُعرفُ بالشّمّيعانية في وسطها صهريج ماء ، ولها مطاهر
يجري فيها الماء ، ويقال : إنّها كانت دار عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ؛
وعلى كلّ باب من أبواب المسجد الأربعة دارٌ وضوء يكون فيها نحو مائة بيت
تجري فيها المياه الكثيرة .

ذكر الائمة بهذا المسجد

وأثمتته ثلاثة عشر إماماً : أولّهم إمامُ الشافعية ، وكان في عهد دخولي إليها إمامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء ، وهو الخطيب بالمسجد ، وسكنه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة ، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية ، رضي الله عنه ؛ وقد تولّى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدّى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت ديناً عليه بدمشق . وإذا سلم إمام الشافعية من صلاته قام للصلاة أمام مشهد عليّ ثمّ أمام مشهد الحسين ثمّ أمام مشهد الكلاسة ثمّ أمام مشهد أبي بكر ثمّ أمام مشهد عمر ثمّ أمام مشهد عثمان ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثمّ إمام المالكية ، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه أبو عمر بن الوليد ابن الحاج التجيبي القرطبي الأصل الغرناطي المولد نزيل دمشق ، وهو يتناوب الإمامة مع أخيه ، رحمهما الله .

ثمّ إمام الحنفية ، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ، وهو من كبار الصوفية ، وله شياخة خانقاه الخاتونية ، وله أيضاً خانقاه بالشرف الأعلى .

ثمّ إمام الحنابلة وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق .

ثمّ بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفرائث فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك.

ذكر المدرسين والمعلمين به

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً

ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم ، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً .
ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره .
ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي ، ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ، ولما ولي القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه إلى أبي اليسر الخلة والأمر بقضاء دمشق ، فامتنع من ذلك ، ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جُهَيْل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفاً من أن يُقْلَد القضاء ، فاتصل ذلك بالملك الناصر فولّى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين ، لسان المتكلمين ، علاء الدين القنوي وهو من كبار الفقهاء ، ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين علي السخاوي المالكي ، رحمة الله عليهم أجمعين .

ذكر قضاة دمشق

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين خطيب القيوم ، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء ، وهو شيخ شيوخ الصوفية ، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي . ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية .
وأما قاضي القضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني ، وكان شديد السطوة ، وإليه يتحاكم النساء وأزواجهن ، وكان الرجل إذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول إليه .

وأما قاضي الحنابلة فهو الإمام الصّالح عزّ الدين بن مسلم من خيار القضاة
ينصرفُ على حمار له ، ومات بمدينة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ،
لما توجه للحجاز الشريف .

حكاية الفقيه ذي اللوثة

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقيّ الدين بن تيميةَ كبيرُ الشام
يتكلّم في الفنون إلّا أن في عقله شيئاً ، وكان أهل دمشق يعظّمونه أشدّ التعظيم ،
ويعيظهم على المنبر ، وتكلّم مرّة بأمرٍ أنكره الفقهاء ، ورفعوه إلى الملك
النّاصر ، فأمرَ بإشخاصه إلى القاهرة ، وجُمعَ القضاةُ والفقهاء بمجلس الملك
النّاصر ، وتكلّم شرف الدين الزواوي المالكي وقال : إنّ هذا الرجل قال
كذا وكذا ، وعدّد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها
بين يدي قاضي القضاة .

وقال قاضي القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟ قال : لا إله إلّا الله . فأعادَ
عليه ، فأجابَ بمثلِ قوله ، فأمرَ الملك النّاصر بسجّنه فسُجنَ أعواماً ،
وصنّفَ في السجن كتاباً في تفسير القرآن سمّاه بالبحر المُحيط في نحو أربعين
مُجلّداً .

ثمّ إنّ أمّه تعرّضت للملك النّاصر ، وشكت إليه ، فأمرَ بإطلاقه إلى أن
وقعَ منه مثل ذلك ثانية ، وكنتُ إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة . وهو
يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إنّ
الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجةً من درج المنبر ، فعارضه
فقيهٌ مالكي يُعرفُ بابن الزهراء ، وأنكرَ ما تكلّم به ، فقامت العامة إلى هذا
الفقيه ، وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته . وظهرَ
على رأسه شاشيّة حرير ، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عزّ الدين

ابن مسلم قاضي الحنابلة ، فأمرَ بسجنه وعزّره بعد ذلك ، فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتبَ إلى الملك الناصر بذلك ، وكتبَ عقداً شرعياً على ابن يمية بأمر منكرة منها أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلاّ طلاقاً واحدة ، ومنها المسافر الذي ينوي سفره زيارة القبر الشريف ، زاده الله طيباً ، لا يقصّر الصلاة ، وسوى ذلك ممّا يشبهه ، وبعث العقد إلى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن يمية بالقلعة فسُجن بها حتى مات في السجن .

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملةً من المدارس ، أعظمها العادليةُ ، وبها يحكم قاضي القضاة ، وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبرُ الملك الظاهر ، وبها جلوسُ نواب القاضي ؛ ومن نوابه فخر الدين القسبي ، وكان والده من كتاب القبط ، وأسلم ؛ ومنهم جمال الدين بن جُملة وقد تولّى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعُزل لأمرٍ أوجب عزله .

حكاية الشيخ ظهير الدين وقاضي القضاة

كان بدمشق الشيخُ الصالح ظهيرُ الدين العجمي ، وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتلمذ له ويعظمه ، فحضر يوماً بدار العدل عند ملك الأمراء ، وحضرَ القضاة الأربعة فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية ، فقال له ظهير الدين : كذبت ! فأنفَ القاضي من ذلك وامتنعَ له ، فقال للأمير : كيف يكذبُني بحضرتك ؟ فقال له الأمير : احكم عليه ، وسلمه إليه ، وظنّه أنّه يرضى بذلك ، فلا يناله بسوء ، فأحضره القاضي بالمدرسة

العادلةية وضربه مائتي سوط ، وطيفَ به على حمار في مدينة دمشق ، ومنادٍ ينادي عليه ، فمضى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربةً ، وهكذا العادة عندهم . فبلغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشدَّ الإنكار ، وأحضرَ القضاةَ والفقهاء ، فأجمعوا على خطإ القاضي وحكمه بغير مذهبه ، فإنَّ التعزيرَ عند الشافعي لا يبلغ به الحدَّ ، وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين : قد حكمت بتفسيقه ، فكتبَ إلى الملك الناصر بذلك فعزله .

وللحنفية مدارس كثيرة ، وأكبرُها مدرسة السلطان نور الدين ، وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية .

وللمالكية بدمشق ثلاثُ مدارس إحداها الصمصاميَّة ، وبها سكن قاضي القضاة المالكية وعوده للأحكام ؛ والمدرسة النورية عمرَّها السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، والمدرسة الشراشبية عمرَّها شهاب الدين الشراشبي التاجر ، وللحنابلة مدارس كثيرة ، أعظمها النجيميَّة .

ذكر أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ؛ ومنها باب الجابية ؛ ومنها الباب الصغير ، وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجَمُّ من الصحابة والشهداء فمن بعدهم .

قال محمد بن جُزي : لقد أحسن بعض المتأخِّرين من أهل دمشق في قوله :

دِمَشْقُ في أوصافها جَنَّةٌ خُلِدَ راضِيَّةٌ
أَمَّا تَرى أَبْوابَها قَدْ جُعِلَتْ ثَمَانِيَّةٌ

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التي بين باب الجابية والباب الصغير قبرُ أمِّ حنيفة بنت أبي سفيان أمِّ المؤمنين ، وقبرُ أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبرُ بلالٍ مؤذن رسول

الله ، صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم أجمعين ، وقبرُ أُوَيْسَ القَرَني ، وقبرُ كعبِ الأحبار ، رضي الله عنهما .

ووجدتُ في كتاب المعلم في شرح صحيح مُسلم للقُرطُبي : أنَّ جماعةً من الصحابة صحبهم أُوَيْسَ القَرَني من المدينة إلى الشام ، فتوفي في أثناء الطريق في برية لا عمارة فيها ولا ماء ، فتحيروا في أمره فترلوا فوجدوا حنوطاً وكفناً وماء . فعجبوا من ذلك ، وغسلوه وكفّنوه ، وصلّوا عليه ودفنوه ثمّ ركبوا ، فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامة ؟ فعادوا للموضع ، فلم يجدوا للقبر من أثر .

قال ابن جرّي : ويقال إنّ أُوَيْساً قُتِلَ بصيفين مع عليّ ، عليه السلام ، وهو الأصحّ ، إن شاء الله . وبلي باب الحايية باب شرقيّ عنده جبانة فيها قبرُ أبيّ بن كعب صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفيها قبرُ العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب .

حكاية في سبب تسميته بذلك

يُحكى أنّ الشيخ الوالي أحمد الرفاعي ، رضي الله عنه ، كان مسكنه بأُمّ عُبَيْدة بمقربة من مدينة واسط ، وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب ابن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ، ويقال : إنّ كلّ واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساءً ، فيردّ عليه الآخر . وكانت للشيخ أحمد نُسخيّلاتٌ عند زاويته ، فلمّا كان في إحدى السنين جدّها على عادته ، وترك عِدْقاً منها ، وقال : هذا برسم أخي شعيب ، فحجّ الشيخ أبو مدين تلك السنة ، واجتمعوا بالموقف الكريم بعرفة . ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان ، فتفاوضا الكلام ، وحكى الشيخُ حكاية العِدْق . فقال له أرسلان : عن أمرك يا سيدي

.....

١ العِدْق من النخل كالمنقود من العنب .

آتيه به ، فأذن له ، فذهب من حينه وأتاه به ، ووضعه بين أيديهما ، فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشيّة يوم عرفة بازاً أشهب قد انقضّ على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء

وبغري دمشق جبّانة تُعرفُ بقبور الشهداء ، فيها قبر أبي الدرداء وزوجته أمّ الدرداء ، وقبر فضالة بن عبيد ، وقبر وائلة بن الأسقع ، وقبر سهل ابن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة ، رضي الله عنهم أجمعين .

وبقرية تُعرفُ بالمنيحة شرقي دمشق ، وعلى أربعة أميال منها قبر سعد ابن عبادة ، رضي الله عنه ، وعليه مسجد صغير حسن البناء ، وعلى رأسه حجرٌ مكتوبٌ : هذا قبر سعد بن عبادة رأس الحزرج صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليمًا ؛ وبقرية قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب من فاطمة ، عليهم السلام ؛ ويقال : إن اسمها زينب وكنّاها النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، أمّ كلثوم لشبهها بخالتها أمّ كلثوم بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ وعليه مسجد كبير ، وحوله مساكن ، وله أوقاف ، ويسمّيه أهل دمشق قبر الست أمّ كلثوم ؛ وقبر آخر يقال إنّه قبر سكينة بنت الحسين بن عليّ ، عليه السلام .

وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشريّه قبر يُقالُ إنّه قبر أمّ مريم ، عليها السلام ؛ وبقرية تُعرفُ بداريّاً غرب البلد ، وعلى أربعة أميالٍ منها قبر أبي مسلم الخولاني ، وقبر أبي سليمان الداراني ، رضي الله عنهما .

ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام ، وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم ، الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر ، وهو مسجد عظيم كثير البركة ، وله أوقاف كثيرة ، ويعظمه أهل دمشق تعظيماً شديداً . والأقدام التي يُنسبُ إليها هي أقدام مصورة في حجر هناك ، يقال إنّه أثر قدم موسى ، عليه السلام ؛ وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجرٌ مكتوب عليه : كان بعض الصالحين يرى المصطفى ،

صلّى الله عليه وسلّم ، في النوم ، فيقول له : هاهنا قبر أخي موسى ، عليه السلام ؛ وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يُعرف بالكثيب الأخضر ؛ وبمقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يُعرف بالكثيب الأحمر تُعظمه اليهود .

حكاية الطاعون الأعظم في دمشق

شاهدتُ أيامَ الطّاعونِ الأعظمِ بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وسبعمائة من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يُعجّبُ منه ، وهو : أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمرَ منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ، ولا يطبخوا بالسوق ، فصام الناس ثلاثة أيام متوالية ، كان آخرها يوم الخميس ، ثمّ اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غصّ بهم ، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلّ وذاكرٍ وداعٍ ، ثمّ صلّوا الصبحَ وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حُفاةً ، وخرجَ جميعُ أهل البلد ذكوراً وإناثاً ، صغاراً وكباراً ، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرّعون إلى الله بكُتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام ، وأقاموا به في تضرّعهم ودُعائهم إلى قرب الزوال . وعادوا إلى البلد ، فصلّوا الجمعة . وخفّف الله تعالى عنهم ما انتهى عددُ الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد ؛ وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفاً في يومٍ واحد .

وبالباب الشرقي من دمشق منارةٌ بيضاء يقال إنّها التي ينزل عيسى ، عليه السلام ، عندها حسبما ورد في صحيح مُسلم .

ذكر أرباض دمشق

وتدورُ بدمشق من جهاتها ، ما عدا الشرقيّة ، أرباضٌ فسيحةُ السّاحات ، دواخلُها أملحٌ من داخل دمشق لأجل الضيق الذي في سكّتها ؛ وبالجبهة الشماليّة منها ربضُ الصّاحيّة ، وهي مدينةٌ عظيمة لها سوقٌ لا نظيرَ لحسنه ، وفيها مسجدٌ جامع ومارستان . وبها مدرسة تُعرفُ بمدرسة ابن عمر موقوفةٌ على من أراد أن يتعلّم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتُجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس .

وبداخل البلد أيضاً مدرسةٌ مثل هذه تُعرفُ بمدرسة ابن منجا ، وأهل الصّاحيّة كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه .

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون جبل في شمال دمشق ، والصّاحيّة في سفحه . وهو شهير البركة لأنّه مَصْعَدُ الأنبياء . عليهم السلام ؛ ومن مشاهده الكريمة الغارُ الذي وُلد فيه إبراهيمُ ، عليه السلام ، وهو غارٌ مستطيلٌ ضيقٌ عليه مسجدٌ كبير ، وله صومعةٌ عالية . ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمرَ والشمسَ حسبما ورَدَ في الكتاب العزيز . وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرجُ إليه .

وقد رأيتُ ببلاد العراق قريةً تُعرفُ ببُرسُ ، ما بين الحلة وبغداد ، يقال إنّ مولدَ إبراهيم ، عليه السلام ، كان بها ، وهي بمقربة من بلد ذي الكفل ، عليه السلام ، وبها قبره .

ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم ، وفوقها بالجبل دمُ هابيل بن آدم ، عليه السلام ، وقد أبقي الله منه في الحجارة أثراً حمراً ، وهو الموضع الذي قتله أخوه به ، واجترأه إلى المغارة ؛ ويذكر أنّ تلك المغارة صلّى فيها إبراهيمُ وموسى وعيسى وأيوب ولوط ، صلّى الله عليهم أجمعين ؛ وعليها مسجد

متقن البناء يُصعدُ إليه على درج ، وفيه بيوتٌ ومرافق للسكنى ، ويفتح في كل يوم اثنين وخميس ، والشَّمْعُ والسَّرْجُ توقدُ في المغارة .

ومنها كهفٌ بأعلى الجبل يُنسبُ لآدم ، عليه السلام ، وعليه بناء ، وأسفل منه مغارةٌ تُعرفُ بمغارة الجوع . يُذكرُ أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء ، عليهم السلام ، وكان عندهم رغيْفٌ ، فلم يزل يدورُ عليهم وكلٌ منهم يؤثرُ صاحبه به حتى ماتوا جميعاً ، صلى الله عليهم . وعلى هذه المغارة مسجدٌ مَسْبِيٌّ والسَّرْجُ توقدُ به لَيْلاً ونهاراً .

ولكل مسجد من هذه المساجد أوقافٌ كثيرةٌ معيّنة ، ويُذكرُ أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعائة نبيٍّ ، وبعضهم يقول سبعين ألفاً ؛ وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهي مدفنُ الأنبياء والصالحين ، وفي طَرَفِهَا ممّا يلي البساتين أرضٌ مُنخفضةٌ غلبَ عليها الماء يقال إنَّها مدفن سبعين نبياً ، وقد عادت قراراً للماء ، ونزّهت من أن يُدفنَ فيها أحد .

ذكر الربوة والقرى التي تواليها

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه ، عليهما السلام ، وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها ، وبها القصورُ المشيّدة ، والمباني الشريفة ، والبساتين البديعة .

والمأوى المبارك مغارةٌ صغيرةٌ في وسطها كالبيت الصغير ، وإزاءها بيتٌ يقال إنَّه مُصَلَّى الخضر ، عليه السلام ، يبادر الناسُ إلى الصلاة فيه . وللمأوى بابٌ حديدٌ صغيرٌ والمسجدُ يدورُ به ، وله شوارع دائرة وسقايةٌ حسنةٌ ينزل لها الماء من علٍّ ، وينصبّ في شاذروانٍ في الجدار يتصلُّ بحوضٍ من رخام ، ويقعُ فيه الماء ولا نظيرَ له في الحسن وغرابة الشكل .

وبقرب ذلك مطاهرٌ للوضوء يجري فيها الماء . وهذه الربوة المباركة هي

١ الشاذروان : حائط صغير بجوار الجدار الأسفل لتقريته .

رأس بساتين دمشق ، وبها منابعُ مياهها ؛ وينقسمُ الماء الخارجُ منها على سبعة أنهارٍ ، كلٌّ نهرٍ آخذٍ في جهةٍ ، ويُعرفُ ذلك الموضع بالمقاسم . وأكبرُ هذه الأنهار النهرُ المسمَّى بثُورَة ، وهو يشقُّ تحت الربوة ، وقد نُحِتَ له مجرى في الحجر الصلِّد كالغار الكبير ، وربّما انغمسَ ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة ، واندفعَ في الماء حتى يشقَّ مجراه ويخرجَ من أسفل الربوة ، وهي مخاطرة عظيمة .

وهذه الربوةُ تشرفُ على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها ؛ وتلك الأنهارُ السبعة تذهبُ في طرقٍ شتى فتحارُّ الأعينُ في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمالُ الربوة وحسنُها التامُّ أعظمُ من أن يحيطَ به الوصفُ ، ولها الأوقافُ الكثيرة من المزارع والبساتين والرِّباع ، تقامُ منها وظائفُ للإمام والمؤذّن والصادر والوارد . وبأسفل الربوة قريةُ النَّيرَبِ ، وقد تكاثرت بساتينُها وتكاثفت ظلالُها وتدانت أشجارُها فلا يظهرُ من بنائها إلا ما سَمّا ارتفاعُها ، ولها حمامٌ مليح ، ولها جامعٌ بديعٌ مفروشٌ صحنُه بفصوص الرِّخام ، وفيه سقاية ماء راقية الحسن . ومُطْهَرة فيها بيوتٌ عدّةٌ يجري فيها الماء .

وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة ، وتُعرفُ بِمَزّة كَتَلَب نسبةً إلى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكانت إقطاعاً لهم ، وإليها يُنسبُ الإمامُ حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزني ، وكثيرٌ سواه من العلماء ، وهي من أعظم قرى دمشق ، بها جامع كبير عجيب ، وسقاية معيّنة .

وأكثرُ قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق ، وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم .

وفي شرقي البلد قريةٌ تُعرفُ ببيت لاهية ، وكانت فيها كنيسة يقال إن آزرَ كان يجلب فيها الأصنام فيكسرُها الخليل ، عليه السلام ، وهي الآن

مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التثام .

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم

والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يُعطى لمن يحجّ عن الرجل منهم كفايته ؛ ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهنّ اللواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ ؛ ومنها أوقاف لفكك الأسارى ؛ ومنها أوقاف لأبناء السبيل يُعطون منها ما يأكلون ويتكسبون ويتزوّدون لبلادهم ؛ ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأنّ أزقة دمشق لكلّ واحدٍ منها رصيفان في جنبه يمرّ عليهما المترجلون ، ويمرّ الرّكبان بين ذلك ؛ ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

حكاية المملوك الصغير والصحفة

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيتُ به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، وهم يُسمونها الصحن ، فتكسّرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقّتها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ؛ فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إيّاها ، فدفع لها ما اشترى به مثل ذلك الصحن ، وهذا من أحسن الأعمال ، فإنّ سيّد الغلام لا بُدّ له أن يضربته على كسر الصحن ، أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد ، وهم يُحسنون الظنّ بالمغاربة ويطمئنّون إليهم بالأموال والأهالي والأولاد ،

وكلّ من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بدّ أن يتأتّى له وجهٌ من المعاش من إمامة مسجدٍ ، أو قراءة بمدرسة ، أو ملازمة مسجدٍ يجيء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تُجرى له النفقة والكسوة ، فمن كان بها غريباً على خيرٍ لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوفاً عما يُزري بالمروءة ؛ ومن كان من أهل المهنة والخدمة ، فله أسبابٌ آخر من حراسة بستان ، أو أمانة طاحونة ، أو كنفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ؛ ومن أراد طلب العلم أو التفرّغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك .

ومن فضائل أهل دمشق أنّه لا يُفطر أحدٌ منهم في ليالي رمضان وحده البتّة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فإنّه يدعو أصحابه والفقراء يُفطرون عنده ؛ ومن كان من التجّار وكبار السوقة صنّع مثل ذلك ؛ ومن كان من الضعفاء والبادية ، فإنّهم يجتمعون كلّ ليلة في دار أحدهم ، أو في مسجد ، ويأتي كلّ أحد بما عنده فيُفطرون جميعاً .

ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرّس المالكية صحبة ، فرغب مني أن أفطر عنده في ليالي رمضان ، فحضرت عنده أربع ليالٍ ثمّ أصابني الحمّى ، فغبت عنه ، فبعث في طلبي ، فاعتذرت بالمرض ، فلم يسعني عذراً ، فرجعت إليه وبتّ عنده . فلما أردت الانصراف بالغد منعني من ذلك . وقال لي : احسب داري كأنّها دارك أو دار أهلك أو أخيك ، وأمر بإحضار طبيبٍ ، وأن يُصنّع لي بداره كلّ ما يشتهي الطبيب من دواء أو غذاء ، وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرت المصلّى وشفاني الله تعالى ممّا أصابني . وقد كان ما عندي من النفقة نفد ، فعلم بذلك فاكثر لي جمالاً وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي : تكون لما عسى أن يعتريك من أمرٍ مهمّ . جزاه الله خيراً .

وكان بدمشق فاضلٌ من كتّاب الملك الناصر يُسمّى عماد الدين القيصراني

من عادته أنه متى سمع أن مغربيّاً وصل إلى دمشق بحث عنه ، وأضافه وأحسن إليه . فإن عرّف منه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلزمه منهم جماعة ؛ وعلى هذه الطريقة أيضاً كاتب السرّ الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره . وكان بها فاضلٌ من كبرائها وهو الصّاحب عزّ الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفصائل وإيثار . وهو ذو مال عريض . وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجسيع أهل دولته ومماليكه وخواصّه ثلاثة أيّام . فسمّاه إذ ذاك بالصّاحب .

ومما يؤثّر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السّالفين لما نزل به الموت أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرّم ويُسقى قبره ، وعيّن أوقافاً عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم في كلّ يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة ، رضي الله عنهم . حيث قبره ، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبداً ، وبقي ذلك الرّسم الجميل بعده مخلداً .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرّفه ، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواهما ، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتزمين البركة ، ويتوخّون الساعة التي يقف فيها وفدُ الله تعالى وحجّاج بيته بعرفات ، ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهاال وتوسّل إلى الله تعالى بحجّاج بيته إلى أن تغيب الشمس ، فينفرون كما ينفّر الحاجّ باكين على ما حرّموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ، ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه .

ولهم أيضاً في اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز والقراء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبهكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة . وهم يصلّون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة ، فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع

الصلاة عليه ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة ؛ وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرأون فيها ، ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصلح للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون : بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك ، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : فكثروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه .

ولأهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضاً زائدة على ذلك : وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتُفرش الروضة بالثياب الرفيعة ، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرياحين من الورد والتسرين والياسمين . وذلك النوار لا ينقطع عندهم . ويأتون بأشجار الليمون والأترج^١ ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ويجعلون صيواناً^٢ يظل الناس نحوه ، ويأتي القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتي بالربعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءاً فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي ، ويقوم قائماً ويخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويثرثه بأبيات شعر ، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ، ويذكر السلطان داعياً له . وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحيطون رؤوسهم إلى سمت^٣ الجهة التي بها السلطان ، ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صباً . يبدأ القاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعصم الناس أجمعين ، ثم يؤتي بأواني السكر . وهو الحلاب محلولا بالماء ، فيسقون الناس منه ويبدأون بالقاضي ومن يليه ثم يؤتي بالتنبول ، وهم يعظمونه ويكرمونه من يأتي لهم به ، فإذا

١ الأترج : الليمون المسمى بالكباد .

٢ الصيوان : السراق .

٣ سمت : الطريق .

أعطى السلطان أحداً منه ، فهو أعظمُ من إعطاء الذهب والخلع . وإذا مات الميِّتُ لم يأْكُلْ أهله التنبولَ إلاّ في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقومُ مقامه أوراقاً منه فيعطئها لوليّ الميِّت . فيأْكُلها وينصرفون حينئذ . وسيأتي ذكر التنبول ، إن شاء الله تعالى .

ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها

سمعتُ بجامع بني أميّة عمّره الله بذكره جميعَ صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي للبخاري . رضي الله عنه . على الشيخ المعمرّ رحلة الآفاق مسأحق الأصغر بالأكابر شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم ابن حسن بن عليّ بن بيان الدين مقرئ الصالحيّ المعروف بابن الشّحنة الحجازي في أربعة عشر مجلساً ، أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ستّ وعشرين وسبعمائة . وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الإمام الحافظ مؤرّخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الأصل ، الدمشقي ، في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل ابن عبد الله بن الغزال الصيرفي بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي لجميع الكتاب من الشيخ الإمام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن عليّ بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي ، الزبيدي الحنبلي ، في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفرّي بسفح جبل قاسيون ، ظاهر دمشق ، وبإجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الحلف القطيعي المؤرّخ ، وعليّ بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطّار البغدادي . ومن باب غيرة النساء ووجدهن إلى آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن عليّ بن زيد بن اللّقي

١ سنة ١٢٢٢ م .

الحجازي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ شديد الدين أبي الوقت عبد الأول ابن عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجزي الهروي الصوفي ، في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة^١ ببغداد ، قال :

أخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ابن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدؤادي قراءة^٢ عليه ، وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة^٣ ، قال :

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أيمن السرخسي قراءة^٤ عليه ، وأنا أسمع في صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة^٥ ، قال :

أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفربري قراءة^٦ عليه ، وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة^٧ بفربر ، قال :

أخبرنا الإمام أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري ، رضي الله عنه ، سنة ثمان وأربعين ومائتين^٨ بفربر ، ومرة ثانية وبعدها سنة ثلاث وخمسين^٩ . وممن أجازني من أهل دمشق لإجازة^{١٠} عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور سبق إلى ذلك وتلفظ لي به .

ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ، ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة^{١١} .

ومنهم الشيخ الإمام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي .

- ١ سنة ١١٥٨ م .
- ٢ سنة ١٠٧٢ م .
- ٣ سنة ٩٩١ م .
- ٤ سنة ٩٢٨ م .
- ٥ سنة ٨٦٢ م .
- ٦ سنة ٨٦٧ م .
- ٧ سنة ١٢٥٥ م .

ومنهم إمامُ الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن ابن يوسف المزني الكلي حافظ الحفاظ .

ومنهم الإمام علاء الدين عليّ بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي ، والشيخُ الإمامُ الشريف محيي الدين بن يحيى بن عليّ العلوي .

ومنهم الشيخُ الإمامُ المحدثُ مجدُّ الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله ابن المُعتلّيّ الدمشقي ، ومولده سنة أربع وخمسين وستمئة^١ .

ومنهم الشيخُ الإمامُ العالمُ شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن محمد الإسكندري .

ومنهم الشيخُ الإمامُ ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام ، والشيخان الأخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي ، والشيخُ العابدُ شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري ، والشيخةُ الصالحةُ أمّ محمد عائشة بنتُ محمد بن مسلم بن سلامة الحراfi ، والشيخة الصالحة رَحْلَةُ الدنيا زينبُ بنتُ كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد ابن أحمد المقدسي . كلّ هؤلاء أجازني لإجازة عامة في سنة ستّ وعشرين بدمشق.

ولمّا استهلّ شَوَّالُ من السنة المذكورة خرج الركبُ الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة ، فأخذتُ في الحركة معهم ، وكان أميرَ الركب سيفُ الدين الجوبان من كبار الأمراء . وقاضيه شرف الدين الأذرعي الحوراني ، وحيّج في تلك السنة مدرّس المالكية صدرُ الدين الغماري ؛ وكان سفري مع طائفة من العرب تُدعى العجارمة . أميرهم محمد بن رافع كبيرُ القدر في الأمراء ؛ وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تُعرفُ بالصنّمين عظيمة ثمّ ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة . وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ، ثمّ ارتحلنا إلى مدينة بُصْرى وهي صغيرة . ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعاً ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه . وإلى بُصْرى وصل رسول الله ،

١ سنة ١٢٥٦ م .

صلى الله عليه وسلم ، قبل البعث في تجارة خديجة ، وبها مبركُ ناقته قد بُني عليه مسجد عظيم ، ويجتمع أهلُ حوران لهذه المدينة ويتزوّد الحاج منها ثمّ يرحلون إلى بركة زيرة (زيرا) ويقيمون عليها يوماً ثمّ يرحلون إلى اللّجون وبها الماء الجاري ، ثمّ يرحلون إلى حصن الكرك ، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ، ويسمى بحصن الغراب ، والوادي يُطيفُ به من جميع جهاته ، وله باب واحد قد نُحِتَ المدخلُ إليه في الحجر الصلد ، ومدخل دِهليزه كذلك ، وبهذا الحصن يتحصّن الملوك وإليه يلجأون في النوائب وله لجأ الملك الناصر لأنّه ولي الملك وهو صغير السنّ ، فاستولى على التدبير مملوكه سَلار النائبُ عنه ، فأظهرَ الملك الناصر أنّه يريد الحجّ ، ووافقه الأمراء على ذلك ، فتوجّه إلى الحجّ ، فلما وصل عقبة أيلة لجأ إلى الحصن وأقامَ به أعواماً إلى أن قصده أمراء الشام ، واجتمعت عليه المماليك .

وكان الملك في تلك المدة بَيْبَرْس الشَّشَنَكِير ، وهو أميرُ الطعام ، وتسمّى بالملك المظفر ، وهو الذي بنى الخانقاه البَيْبَرْسيّة بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن أيّوب ، فقصده الملك الناصر بالعساكر ففرّ بيبرس إلى الصحراء فتبعته العساكر وقبضَ عليه ، وأُتي به إلى الملك الناصر فأمرَ بقتله ، فقتل ، وقبض على سَلار وحُبسَ في جُبّ حتى مات جوعاً ، ويقال : إنّهُ أكلَ جيفةً من الجوع ، نعوذُ بالله من ذلك .

وأقام الرّكبُ بخارج الكرك أربعةَ أيّامٍ بموضعٍ يقالُ له الثنيةُ وتجهّزوا لدخول البرية . ثمّ ارتحلنا إلى معان ، وهو آخرُ بلاد الشام ، ونزلنا من عقبة الصّوّان إلى الصحراء التي يقال فيها : داخلها مفقودٌ وخارجها مولودٌ ، وبعد مسيرة يومين نزلنا ذاتَ حجّ وهي حسيان لا عمارة بها . ثمّ إلى وادي بلدح ولا ماء به ، ثمّ إلى تبوك ، وهو الموضع الذي غزاه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وفيها عينُ ماء كانت تبضُ بشيء من الماء ، فلما نزلها رسول

١ الحسيان ، الواحد حسي : السهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتوضأ منها جادت بالماء المعين ، ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .
ومن عادة حُجَّاج الشام ، إذا وصلوا منزلَ تبوك أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل ، وضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقولون :
هكذا دخلها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وينزلُ الركبُ العظيم على هذه العين فيترَوَى منها جميعهم ، وقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال ، واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العُلا وتبوك .

ومن عادة السقَّاتين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ، ويملأ رواياهم ، وسواهم من الناس يتفق مع السقَّاتين على سقي جماله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ، ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية ، وفي وسطها الوادي الأخضر كأنه وادي جهنم ، أعادنا الله منها ، وأصاب الحُجَّاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب ، فانتشفت المياه ، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ، ومات مشتريها وبائعها ، وكُتِبَ ذلك في بعض صخر الوادي .

ومن هنالك ينزلون بركة المعظم ، وهي ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب ، ويجمع بها ماء المطر في بعض السنين ، وربما جف في بعضها . وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحَجَر ، حجر ثمود ، وهي كثيرة الماء ولكن لا يردُّها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين مرَّ بها في غزوة تبوك ، فأسرَّع براجلته وأمر أن لا يسقى منها أحد ومن عَجَنَ به أطعمته الجمال .
وهناك ديارُ ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة لها عَتَبٌ منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة ، وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ، إن

في ذلك لعبرة . ومَبْرَك ناقةٍ صالحٍ ، عليه السلام ، بين جبَلَيْنِ هنالك ، وبينهما أثر مسجد يُصَلِّي الناس فيه ، وبين الحجر والعُلا نصفُ يومٍ أو دونَه ؛ والعُلا قريةٌ كبيرةٌ حسنةٌ لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاجُ أربعاً يتزوّدونَ ويغسلون ثيابهم ، ويدعونَ بها ما يكون عندهم من فضل زاد ، ويستصحبونَ قدرَ الكفاية .

وأهلُ هذه القرية أصحابُ أمانةٍ ، وإليها ينتهي تجّارُ نَصارى الشام ، لا يتعدّونها ، ويباعون الحجاجَ بها الزّادَ وسواه ، ثمَّ يرحلُ الركبُ من العُلا فينزّلون في غدٍ رحيلهم الوادي المعروف بالعُطاس ، وهو شديدُ الحرِّ تهبّ فيه السّحومُ المهلكة ؛ هبّت بعضَ السنين على الركب ، فلم يخلص منهم إلّا السيّرُ ؛ وتُعرفُ تلك السنة : سنة الأميرِ الجالقي ، ومنه ينزلون هديّةً ، وهي حسيانُ ماءٍ بوايٍ يحفرونَ به ، فيخرجُ الماء ، وهو زُعاق^١ ، وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

طيبة مدينة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم

وفي عشيّ ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف ، وانتهينا إلى المسجد الكريم ، فوقفنا بباب السلام مُستلمين ، وصلّينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم ، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حنّ إلى رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وهي مُلصقة بعمودٍ قائم بين القبر والمنبر عن يمينِ مستقبل القبلة ، وأدبنا حق السلام على سيّد الأولين والآخرين ، وشفيعِ العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الأبطحي محمد ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، وشرفَ وكرمَ ، وحقّ السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي

١ الزعاق : الماء المر .

حفص عمر الفاروق ، رضي الله عنهما ، وانصرفنا إلى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنّة الكبرى حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيّفة داعين أن لا يُجعل ذلك آخرَ عهدنا بها ، وأن يجعلنا ممن قبّلت زيارته وكُتبت في سبيل الله سفرته .

ذكر مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وروضته الشريفة

المسجد المُعظّم مستطيلٌ تحفه من جهاته الأربع بلاطاتٌ دائرةٌ به ، ووسطه صحنٌ مفروشٌ بالحصي والرمل ، ويدورُ بالمسجد الشريف شارعٌ مبلّطٌ بالحجر المنحوت . والروضة المقدّسة ، صلواتُ الله وسلامه على ساكنها ، في الجهة القبليّة ممّا يلي الشرق من المسجد الكريم ، وشكلها عجيب لا يتأتّى تمثيله ، وهي مدوّرةٌ بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تَضْمِيحُ المسك والطيب مع طول الأزمان ، وفي الصفحة القبليّة منها مسمارٌ فضة هو قبالةُ الوجه الكريم ، وهنالك يقفُ الناسُ للسلام مستقبلين الوجهَ الكريم مُستدبرين القبلة ، فيسلمون وينصرفون يميناً إلى وجه أبي بكر الصديق . ورأسُ أبي بكر ، رضي الله عنه ، عند قدمي رسول الله ، صلتى الله عليه وسلّم ، ثمّ ينصرفون إلى عمرَ ابن الخطّاب ، ورأسُ عمرَ عند كتفي أبي بكر ، رضي الله عنهما .

وفي الجَنُوبِ من الروضة المقدّسة ، زادها الله طيباً ، حوضٌ صغيرٌ مرخّم ، في قبلته شكلٌ مِحْرَاب ، يقال إنّه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ، صلتى الله عليه وسلّم تسليماً ، ويقال أيضاً : هو قبرُها ، والله أعلم .

وفي وسط المسجد الكريم دفةٌ مطبقة على وجه الأرض مُقفلة على سِرداب له مَدْرَجٌ يُفضي إلى دار أبي بكر ، رضي الله عنه ، خارج المسجد ، وعلى ذلك السرداب كان طريقُ بنته عائشةَ أمّ المؤمنين ، رضي الله عنها ، إلى داره ،

ولا شكّ أنّه هو الخَوَوخة التي ورد ذكرُها في الحديث وأمرَ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، بإبقائها وسدّ ما سواها . وبإزاء دار أبي بكر ، رضي الله عنه ، دارُ عمرَ ودارُ ابنه عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، وبشرقيّ المسجد الكريم دارُ إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، وبمقربة من باب السلام سقايةٌ يُنزلُ إليها على درَج ، مأوها معيّنٌ، وتُعرفُ بالعين الزرقاء .

ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم

قدّم رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، المدينة الشريفة دارَ الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأوّل ، فنزل على بني عمرو بن عوف ، وأقام عندهم اثنتي عشرة ليلة ، وقيل : أربع عشرة ليلة ، وقيل : أربع ليالٍ ، ثمّ توجه إلى المدينة فنزل على بني النجّار بدار أبي أيّوب الأنصاري ، رضي الله عنه ، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده .

وكان موضع المسجد مِرْبَدًا السَّهْلِ وسُهَيْلِ ابني رافع بن أبي عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجّار ، وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة ، رضي الله عنهم أجمعين ، وقيل : كانا في حجر أبي أيّوب ، رضي الله عنه ، فابتاع رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، ذلك المِرْبَدَ ، وقيل : بل أراضاهما أبو أيّوب عنه ، وقيل : إنهما وهباه لرسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، فبنى رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، المسجدَ ، وعمل فيه مع أصحابه ، وجعل عليه حائطًا ، ولم يجعل له سقفاً ولا أساطيناً^١ ، وجعله مُرَبَّعًا ، طولُه مائة ذراع ، وعرضُه مثلُ ذلك . وقيل : إنّ عرضه كان دون ذلك ، وجعل ارتفاعَ حائطه قدرَ القامة ، فلمّا اشتدّ الحرّ تكلم أصحابه

١ المريد : بحسب الإبل وما شاكلها ، وفناء وراء البيوت .

٢ الأساطين ، الواحدة أسطوانة : العمود .

في تسقيفه ، فأقام له أساطين من جذوع النخل ، وجعل سقفه من جريدها ، فلما أمطرت السماء وكف المسجد ، فكلم أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في عمله بالطين ، فقال : كلاً ! عريش كعريش موسى ، أو ظليته كظليته موسى ، والأمر أقرب من ذلك . قيل : وما ظليته موسى ؟ قال ، صلى الله عليه وسلم : كان إذا قام أصاب السقف رأسه . وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حوت القبلة وبقي المسجد على ذلك حياة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، وحياة أبي بكر ، رضي الله عنه .

فلما كانت أيام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، زاد في مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، وقال : لولا أني سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، يقول : ينبغي أن نزيد في المسجد ما زدت فيه ، فأنزل أساطين الخشب ، وجعل مكانها أساطين اللبن ، وجعل الأساس حجارة إلى القامة ، وجعل الأبواب ستة منها في كل جهة ، ما عدا القبلة ، بابان ، وقال في باب منها : ينبغي أن يترك هذا للنساء . فما ريء فيه حتى لقي الله ، عز وجل ، وقال : لو زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة ، لم يزل مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وأراد عمر أن يدخل في المسجد موضعاً للعباس عم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، ورضي عنهما ، فمنعه منه ، وكان فيه ميزاب يصب في المسجد فنزعه عمر ، وقال : إنه يؤذي الناس ، فنازعه العباس ، وحكما بينهما أبي بن كعب ، رضي الله عنهما ، فأتيا داره ، فلم يأذن لهما إلا بعد ساعة ثم دخلا إليه ، فقال : كانت جاريتي تغسل رأسي ، فذهب عمر ليتكلم ، فقال له أبي : دَعْ أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله ، صلى

١ ركف : قطر ماء .

٢ ريه مجهول راء مقلوب رأى .

الله عليه وسلّم تسليمًا . فقال العباس : خطّتها لي رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، وبنيتها معه ، وما وضعت الميزاب إلاّ ورجلاي على عاتقي رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فجاء عمر فطرّحه ، وأراد إدخالها في المسجد .

فقال أبيّ : إنّ عندي من هذا علماً ؛ سمعتُ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، يقول : أرادَ داود ، عليه السلام ، أن يَبني بيت الله المقدس ، وكان فيه بيت ليتيمين ، فراودهما على البيع فأبيا ، ثمّ راودهما فباعاه ، ثمّ قاما بالغبن ، فردّ البيع واشتراه منهما ، ثمّ ردها كذلك ، فاستعظم داود الثمن فأوحى اللهُ إليه : إنّ كنتَ تُعطي من شيء هو لك ، فأنتَ أعلمُ ؛ وإن كنتَ تُعطيها من رزقنا ، فأعطهما حتى يرضيا ؛ وإنّ أغنى البيوت عن مَظْلَمَة بيتٍ هو لي ، وقد حرّمتُ عليك بناءه . قال : يا ربّ فأعطه سليمان ، فأعطاه سليمان ، عليه السلام .

فقال عمر : من يَشْهَدُ لي بأنّ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، قاله ؟ فخرج أبيّ إلى قومٍ من الأنصار ، فأثبتوا له ذلك ، فقال عمر ، رضي الله عنه : أمّا إني لو لم أجد غيرَكَ أخذتُ قولك ، ولكنّي أحببتُ أن أثبت . ثمّ قال للعبّاس ، رضي الله عنه ، والله لا تردّ الميزابَ إلاّ وقدماك على عاتقي ، ففعل العبّاس ذلك . ثمّ قال : أمّا إذا أثبتت لي ، فهي صدقةُ الله . فهدمها عمر ، وأدخلها في المسجد . ثمّ زادَ فيه عثمان ، رضي الله عنه ، وبناه بقوة وبأشره بنفسه ، فكان يظلّ فيه نهاره . ويتّضّعه وأنقن محله بالحجارة المنقوشة ، ووسّعه من جهاته إلاّ جهة الشرق منها ، وجعل له سوارى حجارة مُثبتة بأعمدة الحديد والرصاص . وسقّفه بالساج . وصنّع له محراباً . وقيل : إنّ مروان هو أوّل من بنى المحراب ، وقيل : عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد .

ثمّ زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، تولّى ذلك عمرُ بن عبد العزيز ، فوسّعه وحسّنه وبالغ في إتقانه . وعمله بالرّخام والساج المذهب .

وكان الوليد بعث إلى ملك الروم : أني أريد أن أبني مسجداً نبينا ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، فأعنتني فيه . فبعث إليه الفعلة وثمانين ألف ميثقال من الذهب ، وأمر الوليد بإدخال حُجَرِ أزواج النبي ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، فيه ، فاشترى عمر من الدور ما زاد في ثلاث جهات من المسجد ؛ فلما صار إلى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة ، وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن له ما بقي منها ، وعلى أن يُخرجوا من باقيةا طريقاً إلى المسجد ، وهي الخوخة التي في المسجد .

وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه ، وكانت إحداها مُطلة على دار مروان ، فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها ، فأطل عليه المؤذن حين الأذان ، فأمر بهدمها .

وجعل عمر للمسجد محراباً ، ويقال : هو أول من أحدث المحراب ثم زاد فيه المهدي بن أبي جعفر المنصور ، وكان أمرهم بذلك ، ولم يُقْضَ له . وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق ، ويقول : إنه إن زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم . فاتهمه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان ، رضي الله عنه . فكتب إليه : إني قد عرفت الذي أردت ، فاكف عن دار عثمان . وأمر أبو جعفر أن يُظْلَل الصحن أيام القيظ يستور تُنشر على حبال ممدودة على خُشْب تكون في الصحن لتكن المصلين من الحر .

وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع فبلغه المهدي إلى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالأرض ، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين . وكتب اسمه على مواضع من المسجد .

ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام ، فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر . وأقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت وأجرى إليها الماء ، وأراد أن يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك .

فلم يتم له ، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة ، وسيذكر إن شاء الله ،
قبلة مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، قبلة قطع لأنه ، صلى
الله عليه وسلم تسليماً ، أقامها ، وقيل : أقامها جبريل ، عليه السلام ؛ وقيل :
كان يشير جبريل له إلى سمتها ، وهو يقيمها ، ورؤي أن جبريل ، عليه
السلام ، أشار إلى الجبال فتواضعت ، فتنحّت حتى بدت الكعبة ، فكان ، صلى
الله عليه وسلم تسليماً ، يبني وهو ينظر إليها عياناً ، وبكل اعتبار فهي قبلة
قطع ، وكانت القبلة أوّل ورود النبي ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، المدينة
إلى بيت المقدس ، ثم حوّلت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً ، وقيل : بعد
سبعة عشر شهراً .

ذكر المنبر الكريم

وفي الحديث أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، كان يخطب
إلى جذع نخلة بالمسجد ، فلما صنع له المنبر وتحول إليه حنّ الجذع حنين الناقة
إلى حوارها ، ورؤي : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، نزل
إليه فالتزمه ، فسكن ، وقال : لو لم ألزمه لحنّ إلى يوم القيامة .
واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم . فرؤي أن تميم الداري ،
رضي الله عنه ، هو الذي صنعه . وقيل : إن غلاماً للعبّاس . رضي الله عنه ،
صنعه ؛ وقيل : غلام لامرأة من الأنصار . وورد ذلك في الحديث الصحيح ؛
وصنع من طرفاء الغابة . وقيل : من الأثل^٢ وكان له ثلاث درجات ، فكان
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقعد على عليّاهن . ويضع رجله الكريمتين
في وسطاهن^١ ، فلما ولي أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، قعد على وسطاهن^٢

١ حوارها : ولدها .

٢ الطرفاء والأثل : نوعان من الشجر .

وجعل رجله على أولاهنّ ، فلمّا ولي عمر ، رضي الله عنه ، جلس على أولاهنّ ، وجعل رجله على الأرض وفعل ذلك عثمان ، رضي الله عنه ، صدرأ من خلافته ثمّ ترقى إلى الثالثة .

ولمّا أن صار الأمر إلى معاوية ، رضي الله عنه ، أراد نقل المنبر إلى الشام فضجّ المسلمون ، وعصفت ريحٌ شديدة وكُسفتِ الشمس ، وبدت النجومُ نهاراً وأظلمت الأرض . فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتيسّنُ مسلكه ، فلمّا رأى ذلك معاوية تركه . وزاد فيه ستّ درجات من أسفله فبلغ تسع درجات .

ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم

وكان الإمامُ بالمسجد الشريف في عهد دخولي إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ عزّ الدين الواسطي نفع الله به وكان يخطب قبله . ويقضي بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري .

حكاية سراج الدين وحلمه

يُذكر أن سراج الدين هذا أقام في خطّة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة . ثمّ إنّه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر ، فرأى رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، في النوم ثلاث مرّات ، في كلّ مرّة ينهّاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله . فلم ينتهِ عن ذلك وخرج . فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل أن يصل إليها . نعوذ بالله من سوء الخاتمة . وكان ينوبُ عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون ، رحمه الله ، وأبنؤه

الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ، ونائب الحكم ، وأبو عبد الله محمد ، وأصلهم من مدينة تونس ، ولهم بها حسب وأصالة . وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطي من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضياً بحصن الكرك .

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخذّامُ هذا المسجد الشريف وسدّنتهُ فتیانٌ من الأحابيش ، وسواهم ، وهم على هيئاتٍ حسان وصور نظاف وملابسَ ظرافٍ ، وكبيرُهم يُعرفُ بشيخ الخدّام ، وهو في هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى ليلهم بها في كلّ سنة .

ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمامُ المحدثُ الفاضل جمال الدين المطريّ من مطريةً ، قرية بمصر . وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله ، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس^١ قديم المجاورة ، وهو الذي جبّ نفسه^٢ خوفاً من الفتنة .

حكاية الشيخ الذي جبّ نفسه

يذكر أنّ أبا عبد الله الغرناطي كان خديماً لشيخ يسمّى عبد الحميد العجمي ، وكان الشيخُ حسن الظنّ به يطمئنّ إليه بأهله وماله ، ويتركه متى سافر بداره . فسافر مرّةً وتركه على عادته بمنزله فعلمت به زوجةُ الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه ، فقال : إني أخافُ الله ، ولا أخونُ من اتّمسّني على أهله وماله ،

١ التراس : صانع التروس .

٢ جبّ نفسه : خصى نفسه .

فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفِتنَةَ فجبَّ نفسه وغشِّيَ عليه ،
ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برىء وصار من خدّام المسجد الكريم
ومؤدّنًا به . ورأس الطائفتين ، وهو باقٍ بقيد الحياة إلى هذا العهد .

ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

منهم الشيخُ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق ، كثيرُ
العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ،
صابراً محتسباً ، وكان ربّما جاور بمكّة المعظّمة . رأيته بها في سنة ثمان وعشرين ،
وهو أكثرُ الناس طوافاً ، وكنتُ أعجبُ من ملازمته الطواف مع شدّة الحرِّ
بالمطاف ، والمطافُ معروشٌ بالحجارة السود ، وتصيرُ بحرُ الشمس كأنّها
الصفائحُ المَحْمّاة ، ولقد رأيْتُ السّقّاتين يصبّون الماء عليها فما يجاوز الموضع
الذي يُصبّ فيه إلّا ويلتهبُ الموضعُ من حينه .

وأكثرُ الطائفتين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب ، وكان أبو العباس بن
مرزوق يطوف حافي القدمين . ورأيته يوماً يطوف فأحببتُ أن أطوفَ معه ،
فوصلتُ المطافَ وأردتُ استلامَ الحجر الأسود ، فلحقني لَهَبُ تلك الحجارة ،
وأردتُ الرجوعَ بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته إلّا بعد جُهدٍ عظيم ، ورجعتُ
فلم أطُف . وكنتُ أجعلُ بجادي على الأرض وأمشي عليه حتى بلغتُ الرواق .
وكان في ذلك العهد بمكّة وزيرُ غرناطة وكبيرُها أبو القاسم محمد بن محمد
ابن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي ، وكان يطوف كلَّ يوم سبعين
أسبوعاً^٢ ، ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدّة الحرِّ ، وكان ابن مرزوق يطوفُ
في شدّة القائلة زيادةً عليه .

.....

١ البجاد : ثوب مخمط .

٢ الأسبوع من الطواف : سبعة أطواف . يقال : طاف بالبيت أسبوعاً ، أي سبع مرات .

ومن المجاورين بالمدينة ، كرمها الله ، الشيخُ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيفُ ؛ ومنهم أبو مهدي بمكة عيسى بن حزرون المكناسي .

حكاية شيخ ضاع في الجبال

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين ، وخرج إلى جبل حراء مع جماعة من المجاورين ، فلما صعدوا الجبل ، ووصلوا للمتعبّد النبيّ ، صلتى الله عليه وسلّم تسليمًا ، ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة . ورأى طريقًا في الجبل فظنّه قاصراً ، فسلّك عليه ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل ، فانتظروه فلم يأت فتطلّعوا فيما حولهم ، فلم يروا له أثراً ، فظنّوا أنّه سبقهم . فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى .

ومرّ عيسى^١ على طريقه فأفضى به إلى جبل آخر وتاه عن الطريق ، وأجهده العطش والحرّ وتمزّقت نعله ، فكان يقطعُ من ثيابه ويلفّ على رجليه إلى أن ضَعُفَ عن المشي ، واستظلّ بشجرة أمّ غيلان ، فبعث الله أعرابياً على جمل حتى وقفَ عليه فأعلمه بحاله فأركبه وأوصله إلى مكة ، وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه إليه ، وأقامَ نحو شهرٍ لا يستطيعُ القيام على قدميه ، وذهبت جلدتُهما ، ونبتت لهما جلدة أخرى . وقد جرى مثلُ ذلك لصاحبٍ لي أذكره إن شاء الله .

ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروي من القراء المحسنين ؛ وجاور بمكة في السنة المذكورة ، وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر ، وأمّ في التراويح ؛ وبها من المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرّس المالكية بها ، وتزوَّج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي .

١ عيسى : أي أبو مهدي .

حكاية المرتكب العظيمة

يُذكرُ أنّ أبا العباس الفاسي تكلم يوماً مع بعض الناس ، فأنتهى به الكلامُ إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها ، بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه ، مركباً صعباً ، عفا الله عنه ، فقال : إنّ الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، عليهما السلام ، لم يُعقِبْ ، فبلغ كلامه إلى أمير المدينة طُفيل بن منصور بن جَمّاز الحسيني ، فأُنكرَ كلامه ، وبحقّ إنكاره ، وأراد قتله ، فكُلِّمَ فيه فنفاه عن المدينة ، ويُذكر أنّه بعث من اغتاله ، وإلى الآن لم يظهر له أثر ، نعوذُ بالله من عثرات اللسان وزله .

ذكر أمير المدينة الشريفة

كان أميرُ المدينة كُبَيْش بن منصور بن جَمّاز ، وكان قد قتل عمّه مُقبلاً ، ويقال : إنّهُ توضأ بدمه . ثمّ إن كُبَيْشاً خرج سنة سبع وعشرين^١ إلى الفلاة في شدة الحرّ ، ومعه أصحابه ، فأدركتهم القائلة في بعض الأيام فتفرّقوا تحت ظلال الأشجار . فما راعهم إلّا وأبناء مُقبِل في جماعة من عبيدهم ينادون : يا لثارات مُقبِل ، فقتلوا كُبَيْش بن منصور صبراً ولَعَنُوا دمه ، وتولّى بعده أخوه طُفيل بن منصور الذي ذكرنا أنّه نفى أبا العباس الفاسي .

ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقيعُ الغرقد^٢ وهو بشرقي المدينة المكرّمة ، ويُخرجُ إليه على باب يُعرفُ بباب البقيع ، فأولُ ما يلقي الخارجُ إليه ، على يساره عند خروجه من

١ سنة ١٣٢٦ م .

٢ البقيع : المكان فيه أروم الشجر من أنواع شتى . النرقد : شجر عظام أو هي الموسج .

الباب ، قبرُ صفية بنت عبد المطلب ، رضي الله عنهما ، وهي عمّة رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، وأمّ الزبير بن العوّام ، رضي الله عنه ، وأمامها قبرُ إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء ، وأمامه قبرُ السّلالة الطاهرة المقدّسة النبوية الكريم إبراهيم بن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، وعليه قبة بيضاء ، وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنهما ، وهو المعروف بأبي شحمة ، وبإزائه قبرُ عقيل بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وقبرُ عبد الله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وبإزائهم روضةٌ يُذكر أن قبور أمّهات المؤمنين بها ، رضي الله عنهنّ ، ويلها روضةٌ فيها قبرُ العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وقبرُ الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، عليهم السلام ، وهي قبةٌ ذاهبةٌ في الهواء بديعة الإحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ، ورأسُ الحسن إلى رجلي العبّاس ، عليهما السلام ، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متّسعين مُغشّيان بألواحٍ بديعة اللصاق ، مرصّعة بصفائح الصفر البديعة العمل .

وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة ، رضي الله عنهم ، إلّا أنّها لا يُعرفُ أكثرُها ؛ وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان ابن عفّان ، رضي الله عنه ، وعليه قبةٌ كبيرة ، وعلى مقربةٍ منه قبرُ فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنها وعن ابنها .

ومن المشاهد الكريمة قُبَاء ، وهو قبلي المدينة على نحو ميلين منها ، والطريقُ بينهما في حدائق النخل ، وبه المسجد الذي أُسّسَ على التقوى والرضوان ، وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة ، تظهرُ على البُعد ، وفي وسطه مَبْرَكُ النّاقة بالنبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ؛ وفي الجهة القبليّة من صحنه مِحْرَابٌ على مَسْطَبة ، هو أوّل موضع ركع فيه النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، وفي قبلي المسجد دارٌ كانت لأبي أيّوب

الأنصاري ، رضي الله عنه ، ويليها دورٌ تُنسبُ لأبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة ، رضي الله عنهم ، وبإزائه بئرُ أريس . وهي التي عاد ماؤها عذبا لما تفلّ فيه النبيّ ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً . بعد أن كان أجاجاً ، وفيها وقع الخاتمُ الكريمُ من عثمان ، رضي الله عنه .

ومن المشاهد فيه قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة ، يقال : إنّ الزيت رشحَ من حجر هنالك للنبيّ ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً . وإلى جهة الشمال منه بئرُ بضاعة ، وبإزائها جبلُ الشيطان حيثُ صرخَ يومَ أُحُدٍ وقال : قد قُتلَ نبيّكم . وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً ، عندَ تحزّبِ الأحزاب حصنٌ "خرب" ، يُعرفُ بحصن العزّاب ، يقال إنّ عُمَرَ بنه لعزّاب المدينة ، وأمامه إلى جهة الغرب بئرُ رومة التي اشترى أميرُ المؤمنين عثمان ، رضي الله عنه ، نصفها بعشرين ألفاً .

ومن المشاهد الكريمة أُحُد . وهو الجبلُ المبارك الذي قال فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً : إنّ أُحُداً جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه . وهو بجوار المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها ، وبإزائه الشهداء المكرّمون . رضي الله عنهم . وهنالك قبرُ حمزة عمّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً . ورضي الله عنه ، وحوله الشهداء المستشهدون في أُحُد . رضي الله عنهم . وقبورهم لقبلي أُحُد . وفي طريق أُحُد مسجدٌ يُنسبُ لعليّ بن أبي طالب . رضي الله عنه ، ومسجدٌ يُنسبُ إلى سلّمان الفارسي . رضي الله عنه . ومسجدُ الفتح حيثُ أنزلت سورةُ الفتح على رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً . وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيّام . وفي كلّ ليلة نبيتُ بالمسجد الكريم ، والناسُ قد حلقوا في صحنه حلقاً . وأوقدوا الشمعَ الكثير . وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونّه . وبعضهم يذكرون الله . وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيباً . والحُداة بكلّ جانب يترنمون بمدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً . وهكذا دأبُ الناس في تلك الليالي

المباركة ، ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين .
 وكان في صُحْبتي في هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجلٌ من
 أهلها فاضلٌ يُعرفُ بمنصور بن شَكل ؛ وأُضافني بها ، واجتمعنا بعد ذلك
 بجلبَ وبُخارى ، وكان في صُحْبتي أيضاً قاضي الزيدية شرفُ الدين قاسم بن
 سنان ؛ وصحبني أيضاً أحدُ الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمّى بعليّ بن
 حجر الأموي .

حكاية الهاتف بالليل

لَمَّا وصلنا إلى المدينة ، كرّمها الله ، على ساكنها أفضلُ الصلاة وأزكى
 السلام ، ذكرَ لي عليّ بن حجر المذكور أنه رأى تلك اللّيلة في النوم قائلاً
 يقولُ له : اسمع مِنِّي واحفظ عَنِّي :

هَسَيْتُمْ لَكُمْ يَا زَائِرِينَ ضَرْيَحَهُ ، أَمِينْتُمْ بِهِ يَوْمَ الْمَعَادِ مِنَ الرَّجْسِ
 وَصَلَّيْتُمْ إِلَى قَبْرِ الْحَبِيبِ بِطَيْبَةِ فَطَوِي لِمَنْ يُضْجِي بِطَيْبَةٍ أَوْ يُسْمِي

وجاورَ هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثمّ رحلَ إلى مدينة دَهلي قاعدة بلاد
 الهند في سنة ثلاث وأربعين^١ ، فنزلَ في جوارِي ، وذكرتُ حكاية رؤياه بين
 يدي ملك الهند ، فأمرَ بإحضاره ، فحضرَ بينَ يديه ، وحكى له ذلك فأعجبته
 واستحسنه ، وقال له كلاماً جميلاً بالفارسية ، وأمرَ بإنزاله ، وأعطاه ثلاثمائة
 تنكة من ذهب ، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار ،
 وأعطاه فرساً محلّى السرج واللجام ، وخلعة^٢ ، وعيّنَ له مرتباً في كلِّ يوم .
 وكان هنالك فقيهٌ طيّبٌ من أهل غرناطة ، ومولده ببجاية ، يُعرفُ هنالك
 بجمال الدين المغربي ، فصحبه عليّ بن حجر المذكور ، وواعده على أن يزوجه

بينته ، وأنزله بدويرة خارج داره ، واشترى جارية وغلماً ، وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ، ولا يطمئن بها لأحد ، فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذه وهربا ، فلما أتى الدار لم يجد لهما أثراً ولا للذهب ، فامتنع من الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفاً على ما جرى عليه ، فعرضت قضيتُهُ بين يدي الملك فأمر أن يُخْلَفَ له ذلك ، فيُبْعَثَ إليه من يُعلمه بذلك ، فوجده قد مات ، رحمه الله تعالى .

وكان رحيلنا من المدينة نريدُ مكة شرفهما الله تعالى ، فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرمَ منه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، وبالمدينة منه على خمسة أميال ، وهو مُستَهْي حرم المدينة ، وبالقرب منه وادي العقيق ، وهناك تجردت من مَخيَطِ الثياب ، واغتسلت ولبست ثوباً إحرامياً ، وصليت ركعتين ، وأحرمتُ بالحج مفرداً ، ولم أزل ملبياً في كل سهل وجبل وصعودٍ وحُذورٍ إلى أن أتيتُ شِعْبَ عليّ ، عليه السلام ، وبه نزلت تلك الليلة . ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء ، وبها بشرُ تُعرفُ ببئرِ ذاتِ العلم . ويقال : إنَّ عليّاً ، عليه السلام ، قاتل بها الجُنَّ ، ثم رحلنا ونزلنا بالصقراء ، وهو وادٍ معمورٌ فيه ماءٌ ونخلٌ وبنيانٌ وقصرٌ يسكنه الشرفاء الحسَنِيُّونَ وسواهم ، وفيها حصنٌ كبيرٌ ، وتواليه حصونٌ كثيرةٌ وقُرى متصلة ، ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيثُ نصرَ اللهُ رسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، وأنجزَ وعده الكريم ، واستأصلَ صنديدَ المشركين ، وهي قريةٌ فيها حدائقُ نخلٍ متصلة ، وبها حصنٌ منيعٌ يُدْخَلُ إليه من بطن وادٍ بين جبال . وببدر عينُ فوارةٍ يجري ماؤها ، وموضعُ القليبِ الذي سُحِبَ به أعداءُ الله المشركون ، هو اليوم بستان ، وموضعُ الشهداء ، رضي الله عنهم . خلفه : وجبلُ الرَّحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصقراء ، وبإزائه جبلُ الطبول ، وهو شبه كتيب الرَّمَلِ ممتد . ويزعمُ أهلُ تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثلَ أصوات الطبول في كل ليلة جمعة . وموضعُ عريش رسول الله ، صلى

الله عليه وسلّم ، الذي كان به يوم بدر يناشدُ ربّه ، جلّ وتعالى ، متّصلٌ بسفح جبل الطّبول . وموضع الوقعة وأمامه ، وعند نخل القلب مسجدٌ يقال له مبرك ناقة النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، وبين بدر والصفراء نحو بريرة في وادي بين جبالٍ تطرد فيه العيون وتتّصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء ، وهي برية يضلّ بها الدليل ، ويدهلّ عن خليله الخليل ، مسيرة ثلاث ، وفي منتهى وادي رابع يتكوّن فيه بالمطر غدرانٌ يبقى بها الماء زمانًا طويلاً ، ومنه يُحرّم حُجّاجٌ مصرَ والمغرب ، وهو دون الححققة .

وسرنا من رابعٍ ثلاثًا إلى خليصٍ ، ومررنا بعقبة السوق ، وهي على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل ، والحجّاجُ يقصدون شرب السوق بها ، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ، ويسقونه الناس مخلوطاً بالسكر ، والأمراء يملأون منه الأحواض ويسقونها الناس . ويذكرون أن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، مرّ بها ، ولم يكن مع أصحابه طعامٌ ، فأخذ من رملها فأعطاهم إياه فشرّبوه سويقاً . ثمّ نزلنا بركة خليف ، وهي في بسيط من الأرض ، كثيرة حدائق النخل لها حصن مُشَيّدٌ في قنّة جبل ، وفي البسيط حصنٌ خربٌ ، وبها عينٌ فوّارة قد صُنعت لها أخاديدٌ في الأرض ، وسُرّبت إلى الضّبياع ، وصاحب خليص شريفٌ حسني النسب . وعربُ تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام .

ثمّ رحلنا إلى عُسفانَ ، وهي في بسيط من الأرض بين جبالٍ ، وبها آبارٌ ماء معين تُنسبُ إحداها إلى عثمان بن عفّان ، رضي الله عنه ، والمدرجُ المنسوبُ إلى عثمان أيضاً على مسافة نصف يوم من خليص ، وهو مَضِيق بين جبليْن ، وفي موضع منه بلاط على صورة درج ، وأثر عمارة قديمة ؛ وهنالك بئرٌ تُنسبُ إلى عليّ ، عليه السلام ، ويقال : إنّه أحدثها .

وبعُسفان حصنٌ عتيقٌ وبُرجٌ مُشَيّدٌ قد أوهنته الخراب ، وبه من

شَجَرِ الْمُقْلِ كَثِيرٌ ؛ ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْ عُسْفَانَ وَنَزَلْنَا بَطْنَ مَرْ وَيَسْمَى أَيْضاً مَرْ
الظَّهْرَانِ ، وَهُوَ وَادٍ مُخْصَبٌ كَثِيرُ النَّخْلِ ، ذُو عَيْنٍ فَوَّارَةٍ سَيَّالَةٍ تَسْقِي تِلْكَ
النَّاحِيَةَ ؛ وَمِنْ هَذَا الْوَادِي تُجْلِبُ الْفَوَاكِهُ وَالْخُضْرُ إِلَى مَكَّةَ . شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى .
ثُمَّ أَدْلَجْنَا مِنْ هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ ، وَالنَّفُوسُ مُسْتَبْشِرَةٌ بِبُلُوغِ آمَالِهَا
مَسْرُورَةٌ بِحَالِهَا وَمَآلِهَا ، فَوَصَلْنَا عِنْدَ الصَّبَاحِ إِلَى الْبَلَدِ الْأَمِينِ مَكَّةَ ، شَرَفَهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، فَوَرَدْنَا مِنْهَا عَلَى حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُبَوَّأِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَبْعَثِ صَفِيَّةِ
مُحَمَّدٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَخَلْنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ الشَّرِيفَ الَّذِي مِنْ دَخْلِهِ
كَانَ آمناً مِنْ بَنِي شَيْبَةَ . وَشَاهَدْنَا الْكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَهِيَ
كَالْعُرُوسِ تُجْلِي عَلَى مَنْصَةِ الْجَلَالِ ، وَتَرْفُلُ فِي بَرْدِ الْجَمَالِ ، مُحْفُوفَةٌ
بِوَفُودِ الرَّحْمَنِ ، مُوصِلَةٌ إِلَى جَنَّةِ الرِّضْوَانِ ، وَطُفْنَا بِهَا طَوَافَ الْقُدُومِ ،
وَاسْتَلَمْنَا الْحَجَرَ الْكَرِيمَ ، وَصَلَّيْنَا رَكَعَتَيْنِ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، وَتَعَلَّقْنَا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ
عِنْدَ الْمُتَرْتَمِ بَيْنَ الْبَابِ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ، حَيْثُ يُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ ، وَشَرَبْنَا مِنْ
مَاءِ زَمْزَمَ ، وَهُوَ لَمَّا شُرِبَ لَهُ حَسْبُهُ وَرَدَّ عَنْ النَّبِيِّ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تَسْلِيماً ؛ ثُمَّ سَعَيْنَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ . وَنَزَلْنَا هُنَاكَ بَدَارَ بِمَقَرَّةٍ مِنْ بَابِ
إِبْرَاهِيمَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنَا بِالْوَفَادَةِ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ ، وَجَعَلَنَا مِمَّنْ
يَتَلَخَّثُهُ دَعْوَةُ الْخَلِيلِ . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ . وَنُتَمِّعُ أَعْيُنُنَا بِشَاهِدَةِ الْكَعْبَةِ
الشَّرِيفَةِ وَالْمَسْجِدِ الْعَظِيمِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَزَمْزَمَ وَالْحَطِيمِ .

وَمِنْ عَجَائِبِ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ طَبَعَ الْقُلُوبَ عَلَى النَّزْوَعِ إِلَى هَذِهِ الْمَشَاهِدِ
الْمُسْنِيفَةِ وَالشُّوقِ إِلَى الْمُثُولِ بِمَعَاهِدِهَا الشَّرِيفَةِ ، وَجَعَلَ حُبَّهَا مَتَمَكِّناً فِي الْقُلُوبِ ،
فَلَا يَحِلُّهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ . وَلَا يَفْارِقُهَا إِلَّا آسَفاً لِفَرَاغِهَا مُتَوَلِّهاً
لِبِعَادِهِ عَنْهَا . شَدِيدُ الْحَنِينِ إِلَيْهَا نَاقِياً لِتَكَرُّرِ الْوَفَادَةِ عَلَيْهَا . فَأَرْضُهَا الْمُبَارَكَةُ
نُصِبَ الْأَعْيُنِ . وَحُبَّتْهَا حَشَوُ الْقُلُوبِ . حِكْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِالْعَةِ وَتَصْدِيقاً لِدَعْوَةِ
خَلِيلِهِ . عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَالشُّوقُ يُحْضِرُهَا وَهِيَ نَائِيَةٌ ، وَيُمَثِّلُهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ ،
وَيَهْوَنُ عَلَى قَاصِدِهَا مَا يَلْقَاهُ مِنَ الْمَشَاقِّ وَيَعَانِيهِ مِنَ الْعَنَاءِ . وَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ يَرَى

الموتَ عياناً دونَها ، وبشاهدُ التَّلَفِ في طريقها ، فإذا جمعَ الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً ، كأنَّه لم يذُق لها مرارةً ، ولا كابِدَ محنةً ولا نَصَباً ؛ إنَّه لأمرٌ إلهي وصُنْعٌ ربَّاني ، ودَلالةٌ لا يَشوبُها لَبْسٌ ، ولا تغشاها شُبُهَةٌ ، ولا يطرُقُها تَمويهٌ ، وتعزُّ في بصيرة المستبصرين ، وتبدو في فكرة المتفكرين ، ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء والمثول بذلك الفناء ، فقد أنعمَ الله عليه النعمة الكبرى ، وخوَّله خيرَ الدارين الدنيا والأخرى ، فحقَّ عليه أن يُكثَرَ الشكرَ على ما خوَّله ، وبديمَ الحمدَ على ما أولاه ، جعلنا الله تعالى ممَّنْ قُبِلَت زيارته ، ورَبِحَت في قصدها تجارتُهُ ، وكُتِبَت في سبيل الله آثارُهُ ، ومُحِيت بالقبول أوزارُهُ بمنَّه وكرمه .

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان ، مستطيلة في بطن واد تحفَّ به الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها ؛ وتلك الجبالُ المُطلَّة عليها ليست بمُفرطة الشَّمُوخ ؛ والأخَشَبان من جبالها ، هما جبلُ أبي قُبَيْس ، وهو في جهة الجنوب منها ، وجبل قُعَيْقَعان ، وهو في جهة الغرب منها ، وفي الشمال منها الجبلُ الأحمر . ومن جهة أبي قُبَيْس أجيادُ الأكبر وأجيادُ الأصغر ، وهما شعبان ، والحُندمة وهي جبل وستُذكر ، والمناسك كلها منى وعَرَفة والمُزدَلِفة بشرقي مكة شرفها الله .

ولمكة من الأبواب ثلاثة : بابُ المُعلَى بأعلاها ، وبابُ الشَّيْكة من أسفلها ويُعرفُ أيضاً بباب العُمرة ، وهو إلى جهة المغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصرَ والشام وجُدَّة ، ومنه يُتوجَّه إلى التَّنْعيم ، وسيُذكرُ ذلك . وبابُ المسفل ، وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخلَ خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، يومَ الفتح .

ومكّة شرفها الله ، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكياً عن نبيّه الخليل ،
 بوادٍ غير ذي زرع ، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكلّ طُرْفَةٍ تجلب
 إليها وثمرات كلّ شيء تُجَبِّي لها ، ولقد أكلتُ بها من الفواكه العنب والتين
 والخوخ والرطب ما لا نظيرَ له في الدّنيا ، وكذلك البطيخُ المتجلوبُ إليها
 لا يُمائلُهُ سواه طيباً وحلاوة ، واللّحوم بها سمان للذيذات الطعوم ، وكلّ
 ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتُجلب لها الفواكه والخضر من
 الطائف ووادي نخلة وبطن مرّ لطفاً من الله بسكّانِ حرمة الأيمن ومجاوري
 بيته العتيق .

ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد ، وهو مُتَّسِعُ الساحة طوله من شرق إلى
 غرب أزيد من أربعمئة ذراع ، حكى ذلك الأزرقى ، وعرضه يُقْرَبُ من
 ذلك ، والكعبة العظمى في وسطه . ومنظره بديع ، ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان
 وصفَ بدائعِهِ ، ولا يُحيطُ الواصفُ بحسن كماله . وارتفاع حيطانه نحو عشرين
 ذراعاً ، وسقفُهُ على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأقن صناعة وأجملها ،
 وقد انتظمت بلاطاتُهُ انتظاماً عجيباً ، كأنّها بلاطٌ واحدٌ ، وعددُ سواريه
 الرخاميّة أربعمئة وإحدى وتسعون سارية ، ما عدا الحصّة التي في دار الندوة
 الزيدة في الحرم ، وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ؛ ويقابلها المقامُ مع
 الركن العراقي ، وفضاؤها متّصلٌ يُدخَلُ من هذا البلاط إليه ، ويتّصل
 بجدار هذا البلاط مساطبٌ تحت قسيّ حنايا يجلس بها المقرّئون والنساخون
 والحيّاطون ؛ وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطبٌ تماثلُها ، وسائر البلاطات
 تحت جدرانها مساطبٌ بدون حنايا ، وعند باب إبراهيم مدخلٌ من البلاط
 الغربي فيه سوارٍ حصيّة ؛ وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور ،

رضي الله عنهما ، آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه ؛ وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب : أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة .

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيماً وتكريماً

والكعبة ماثلة في وسط المسجد ، وهي بنيت مربعة ، ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً ، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً ، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي ، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي . وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً . والطواف إنما هو خارج الحجر ، وبناءها بالحجارة الصمّ السمر قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشدّه . فلا تغيّرُها الأيام ، ولا تؤثر فيها الأزمان .

وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمّى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء ؛ وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر . وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار ، وهو مصفّح بصفائح الفضة بديع الصنعة ، وعُضاداته وعَتَبَتُهُ العليا مصفّحات بالفضة . وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل . ويُفتح الباب الكريم في كلّ يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح في يوم مولد

١ سنة ٧٨٣ م .

ومكّة شرفها الله ، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكياً عن نبيه الخليل ،
 بوادٍ غير ذي زرع . ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكلّ طُرفة تجلب
 إليها وثمرات كلّ شيء تُجبي لها ، ولقد أكلتُ بها من الفواكه العنبَ والتينَ
 والخوخَ والرّطبَ ما لا نظيرَ له في الدّنيا ، وكذلك البطيخُ المَجْلُوبُ إليها
 لا يُماثلُهُ سواه طيباً وحلاوةً ، واللّحومُ بها سمانٌ للذيذاتِ الطعومِ . وكلّ
 ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتُجلب لها الفواكهُ والخضرُ من
 الطائف ووادي نخلة وبطن مرّ لطفاً من الله بسكّانِ حرمة الأمين ومجاوري
 بيته العتيق .

ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد . وهو مُتَّسِعُ الساحة طوله من شرق إلى
 غرب أزيدُ من أربعمائة ذراع ، حكى ذلك الأزرقى ، وعرضه يُقربُ من
 ذلك . والكعبةُ العظمى في وسطه . ومنظرهُ بديعٌ ، ومرآه جميل لا يتعاطى اللسانُ
 وصفَ بدائعِهِ ، ولا يُحيطُ الواصفُ بحسن كماله . وارتفاعُ حيطانه نحو عشرين
 ذراعاً . وسقفُهُ على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأثقف صناعة وأجملها ،
 وقد انتظمت بلاطانهُ انتظاماً عجيباً ، كأنّها بلاطٌ واحدٌ ، وعددُ سواريه
 الرخاميّة أربعمائةٍ وإحدى وتسعون سارية ، ما عدا الحصية التي في دار الندوة
 المزیدة في الحرم . وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ؛ ويقابلها المقامُ مع
 الركن العراقي ، وفضاؤها متّصلٌ بِمدخلٍ من هذا البلاط إليه ، ويتّصل
 بجدار هذا البلاط مساطبٌ تحت قسيّ حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون
 والخطاطون ؛ وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطبٌ تماثلُها ، وسائر البتلات
 تحت جدرانها مساطبٌ بدون حنايا ، وعند باب إبراهيم مدخلٌ من البلاط
 الغربي فيه سوارٍ حصيّة ؛ وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور ،

ذكر الميزاب المبارك

والميزابُ في أعلى الصفح الذي على الحجر ، وهو من الذهب وسعته شبرٌ واحد ، وهو بارز بمقدار ذراعين . والموضع الذي تحت الميزاب مظنةٌ استجابة الدعاء . وتحت الميزاب في الحجر هو قبرُ إسماعيل ، عليه السلام ، وعليه رخامةٌ خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاها سعتها مقدارُ شبر . وكلتاها غريبة الشكل رائقة المنظر ؛ وإلى جانبه ممّا يلي الركن العراقي قبرُ أمّه هاجر . عليها السلام ، وعلامته رخامةٌ خضراء مستديرة . سعتها مقدارُ شبر ونصف . وبين القبرين سبعة أشبار .

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجرُ الأسود فارتفاعه عن الأرض ستّة أشبار . فالطويلُ من الناس يتطامن لتقبيله والصغيرُ يتناولُ إليه . وهو مُلصقٌ في الركن الذي إلى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر . وطوله شبر وعقد . ولا يُعلم قدرُ ما دخلَ منه في الركن . وفيه أربع قطع مُلصقة ، ويقال : إن القرمطيّ لعنه الله كسره ؛ وقيل : إنّ الذي كسره سواه ، ضربه بدبّوس فكسره . وتبادر الناسُ إلى قتله ، وقُتل بسببه جماعةٌ من المغاربة .

وجوانبُ الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوحُ بياضُها على سواد الحجر الكريم . فتنجلي منه العيون حسناً باهراً ؛ ولتقبيله للذةٌ بتنعّمٍ بها الفم ويودّ لائمُه أن لا يُفارقَ لئمه . خاصيةٌ مودعةٌ فيه وعنايةٌ ربّانيةٌ به ، وكفى قولُ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، إنّهُ يمينُ الله في أرضه ؛ نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفدَ عليه كلَّ شَيْقٍ إليه .

١ مظنة الشيء : موضعه .

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليمًا . ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسيًا شبه المنبر له درَجٌ وقوائمُ خشبٌ لها أربعُ بكراتٍ يجري الكرسي عليها ، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة فيكون درَجُهُ الأعلى متصلًا بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشَّيْبِيِّين وييده المفتاحُ الكريم ومعه السِّدَّة . فيمسكون السِّتْرَ المُسْتَبَلَّ على باب الكعبة المسمَّى بالبرْقُع ، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب ، فإذا فتحه قَبَّلَ العتبة الشريفة ، ودخلَ البيتَ وحده وسدَّ الباب ، وأقام قدر ما يركع ركعتين . ثم يدخلُ سائرُ الشَّيْبِيِّين ويسوون الباب أيضاً ، ويركعون ثم يفتِّحُ البابُ ويبادرُ الناس بالدخول . وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيدي مبسوطة إلى الله ، فإذا فُتِحَ كَبَّرُوا ونادوا : اللَّهُمَّ افتحْ لنا أبوابَ رحمتك ومَغْفِرَتِكَ ، يا أرحمَ الرَّاحِمِينَ .

وداخلُ الكعبة الشريفة مفروشٌ بالرخام المجزَّع وحيطانُهُ كذلك ، وله أعمدةٌ ثلاثةٌ طوال مُفَرِطَةُ الطول من خشب الساج بين كلِّ عمود منها وبين الآخر أربعُ خُطَأَ . وهي متوسطة في الفضاء ، داخلَ الكعبة الشريفة ، يقابلُ الأوسطُ منها نصفَ عرض الصَّفْح الذي بين الركنين العراقي والشامي .

وستورُ الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوبٌ فيها بالأبيض وهي تتلأأ عليها نوراً وإشراقاً ، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض . ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يُفْتَحُ والحرمُ غاصٌّ بأَمَمٍ لا يُحصيها إلاَّ الله الذي خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ، ولا تضيقُ عنهم . ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً ، ولم يذكُر أحد أنه رآها قط دون طائف . ومن عجائبها أن حَمَامَ مكة وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران ، وتجذبُ الحمامَ يطيرُ على أعلى الحرم كله ، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرَّجَ عنها إلى إحدى الجهات ، ولم يعلُها ، ويقال : لأنه لا ينزل عليها طائر إلاَّ إذا كان به مرض . فلمَّا أن يموتَ لحينه أو يبرأ من مرضه . فسبحان الذي خصَّها بالتشريف والتكريم وجعلَ لها المهابة والتعظيم .

ذكر الميزاب المبارك

والميزابُ في أعلى الصفح الذي على الحجر ، وهو من الذهب وسعته شبرٌ واحد ، وهو بارز بمقدار ذراعين . والموضع الذي تحت الميزاب مظنةٌ استجابة الدعاء ، وتحت الميزاب في الحجر هو قبرُ إسماعيل ، عليه السلام ، وعليه رخامةٌ خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاها سعتُها مقدارُ شبر ، وكلتاها غريبة الشكل راقعة المنظر ؛ وإلى جانبه ممّا يلي الركن العراقي قبرُ أمّه هاجر ، عليها السلام ، وعلامته رخامةٌ خضراء مستديرة ، سعتُها مقدارُ شبر ونصف ، وبين القبرين سبعة أشبار .

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجرُ الأسود فارتفاعة عن الأرض ستة أشبار ، فالطولُ من الناس يتطامن لتقبيله والصغيرُ يتناولُ إليه . وهو مُلصقٌ في الركن الذي إلى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر . وطولُه شبر وعقد ، ولا يُعلم قدرُ ما دخلَ منه في الركن . وفيه أربع قطع مُلصقة ، ويقال : إن القرمطيّ لعنه الله كسره ؛ وقيل : إنّ الذي كسره سواه ، ضربه بدبّوس فكسره ، وتبادر الناسُ إلى قتله ، وقتل بسببه جماعةٌ من المغاربة .

وجوانبُ الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوحُ بياضُها على سواد الحجر الكريم . فتنجلي منه العيون حسناً باهراً ؛ ولتقبيله للذةٌ يتنعمُ بها الفم ويودّ لائمه أن لا يفارقَ لثمه ، خاصيةٌ مودعةٌ فيه وعنايةٌ ربّانيةٌ به ، وكفى قولُ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إنّه يمينُ الله في أرضه ؛ نفَعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفدَ عليه كلَّ شَيْقٍ إليه .

١ مقلنة الشيء : موضعه .

وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ممّا يلي جانبه الموالي ليمين مُستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنّها خالٌ في تلك الصحيفة البهية ؛ وترى الناس ، إذا طافوا بها ، يتساقطُ بعضهم على بعض ازدحاماً على تقبيله ، فقلّما يتمكّن أحدٌ من ذلك إلّا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم . ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف ، وهو أوّل الأركان التي يلقيها الطائف . فإذا استلمه تقهقر عنه قليلاً ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى في طوافه ثمّ يلقي بعده الركن العراقي ، وهو إلى جهة الشمال ، ثمّ يلقي الركن الشامي ، وهو إلى جهة الغرب . ثمّ يلقي الركن اليماني ، وهو إلى جهة الجنوب ، ثمّ يعود إلى الحجر الأسود ، وهو إلى جهة الشرق .

ذكر المقام الكريم

اعلم أنّ بينَ باب الكعبة ، شرفها الله ، وبين الركن العراقي موضعاً طوله اثنا عشر شهراً ، وعرضه نحو النصف من ذلك ، وارتفاعه نحو شبرين ، وهو موضع المقام في مسدّة إبراهيم ، عليه السلام ، ثمّ صرفه النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الموضع الذي هو الآن مُصَلّي ، وبقي ذلك الموضع شبه الحوض ، وإليه ينصبّ ماء البيت الكريم إذا غُسل ، وهو موضع مبارك يزدهمُ الناس للصلاة فيه .

وموضع المقام الكريم يُقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم ، وهو إلى الباب أميل ، وعليه قبةٌ تحتها شُبّاكٌ حديد متجافٍ عن المقام الكريم قدر ما تصلُ أصابعُ الإنسان إذا أدخلَ يده من ذلك الشّبّاك إلى الصندوق ؛ والشّبّاكُ مُقفّل ، ومن ورائه موضع محوّرٌ قد جعل مُصَلّي لركعتي الطواف . وفي الصحيح أنّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليمًا ، لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعةً ثمّ أتى المقامَ فقرأ : واتخذ من مقام إبراهيم مُصَلّي ، وركع خلفه ركعتين . وخلف المقام مُصلى إمام الشافعية في الخطيم الذي هنالك .

ذكر الحجر والمطاف

ودورُ جِدارِ الحجر تسعٌ وعشرون خطوة ، وهي أربعة وتسعون شبراً من داخل الدائرة ، وهو بالرّخام البديع المجزّع المحكم الإلصاق ، وارتفاعه خمسةُ أشبارٍ ونصفُ شبرٍ ، وسعته أربعةُ أشبارٍ ونصفُ شبرٍ ، وداخلُ الحجر بلاطٌ واسعٌ مفروشٌ بالرّخام المنظّم المعجز الصنعة البديع الاتقان ، وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خطّ استواء أربعون شبراً .

وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي ، وسعته ستة أذرع ، وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح ؛ والمدخل الآخر عند الركن الشامي ، وسعته أيضاً ستة أذرع ، وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبراً .

وموضع الطواف مفروشٌ بالحجارة السود محكمة الإلصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطاً إلاّ في الجهة التي تُقابلُ المقام الكريم ، فإنّها امتدّت إليه حتى أحاطت به . وسائرُ الحرم مع البلاطات مفروشٌ برمل أبيض ؛ وطوافُ النساء في آخر الحجارة المفروشة .

ذكر زمزم

وقبةُ بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، وبينهما أربعٌ وعشرون خطوة ؛ والمقامُ الكريم عن يمين القبّة ومن ركنها إليه عشرُ خطاً ؛ وداخلُ القبّة مفروشٌ بالرّخام الأبيض وتَنَوَّرُ البئر المباركة في وسط القبّة ، مائلاً إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة ، وهو من الرّخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص ، ودوره أربعون شبراً . وارتفاعه أربعة أشبارٍ ونصفُ شبرٍ ، وعمقُ البئر إحدى عشرة قامة . وهم يذكرون أنّ ماءها يتزايدُ في كلّ ليلة جمعة ؛ وبابُ القبّة إلى جهة

الشرق ، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء ، وحولها مسطبة يقعدُ الناسُ عليها للوضوء .

ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس ، رضي الله عنه ، وبابها إلى جهة الشمال ، وهي الآن يشعلُ بها ماء زمزم في قلال يُسمونها الدوارق ، وكل دوارق له مقبض واحد . وتترك بها ليبرد فيها الماء ، فيشربه الناس ؛ وبها اختزانُ المصحف الكريم والكتب التي للحرم الشريف ، وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، مُستسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليمًا ، وأهل مكة ، إذا أصابهم قحط أو شدة ، أخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه في مقام إبراهيم ، عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم ، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه . ويلى قبة العباس ، رضي الله تعالى عنه ، على انحراف منها ، القبة المعروفة بقبة اليهودية .

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبوابُ المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابًا ، وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة ، فمنها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وكان قديماً يُعرفُ بباب بني مخزوم ، وهو أكبرُ أبواب المسجد ، ومنه يُخرجُ إلى المسعى ، ويستحبُّ لاؤاقد على مكة أن يدخل المسجد الحرام ، شرفه الله ، من باب بني شيبه ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلاً طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي . رحمه الله ، علماً على طريق رسول الله ،

صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، إلى الصّفا .

ومنها بابُ أجياد الأصغر مفتّحٌ على بابين ، ومنها بابُ الحَيّاطين مفتّحٌ على بابين ، ومنها بابُ العباس ، رضي الله عنه ، مفتّحٌ على ثلاثة أبواب ، ومنها بابُ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، مفتّحٌ على بابين ؛ ومنها بابُ بني شَيْبَةَ ، وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسراً ، وهو مفتّحٌ على ثلاثة أبواب ، وهو بابُ بني عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء ؛ ومنها بابُ صغيرٍ لآراء باب بني شَيْبَةَ لا اسم له ، وقيل : يسمّى باب الرباط لأنّه يُدخَلُ منه لرباطِ السّدرَةِ ؛ ومنها بابُ الندوة ويسمّى بذلك ثلاثة أبواب : اثنان منتظمان ، والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ؛ ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعاً في الحرم مضافاً إليه ، وهي تقابل الميزاب ؛ ومنها بابُ صغيرٌ لدار العجلة مُحَدَّث . ومنها بابُ السّدرَةِ واحدٌ ، ومنها بابُ العُمرَةِ واحدٌ ، وهو من أجمل أبواب الحرم . ومنها بابُ إبراهيم واحدٌ ، والناسُ مختلفون في نسبته ، فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، والصحيحُ أنّه منسوب إلى إبراهيم الخوزي من الأعاجم ، ومنها بابُ الحَزْوَرة مفتّحٌ على بابين ؛ ومنها بابُ أجياد الأكبر مفتّحٌ على بابين ، ومنها بابُ يُنسب إلى أجيادٍ أيضاً ، مفتّحٌ على بابين ، وبابٌ ثالث يُنسبُ إليه مفتّحٌ على بابين ، ويتّصل بهاب الصّفا . ومن الناس من ينسبُ البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجيادٍ إلى الدقاقين .

وصوامعُ المسجد الحرام خمسٌ إحداهنّ على ركن أبي قُبَيْسٍ عند باب الصّفا ، والأخرى على ركن باب بني شَيْبَةَ ، والثالثة على باب دار الندوة ، والرابعة على ركن باب السّدرَةِ ، والخامسة على ركن أجياد . وبمقربة من باب العُمرَةِ مدرسةٌ عمّرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تُنسبُ إليه الدراهم المظفرية باليمن ، وهو كان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون . وبخارج باب إبراهيم زاوية

كبيرة" فيها دارُ إمام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بنخيل ، وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في داخلها من غرائب صنع الحصن ما يعجز عنه الوصف ، وبإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهرني . وبخارج باب إبراهيم بئرٌ تُنسبُ كنسبته ؛ وعنده أيضاً دارُ الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صداقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتي على يديه ، وبمقربة منه رباط الموفق ، وهو من أحسن الرباطات ، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة ، وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوي المغربي ، وسكن به أيضاً الشيخ الصالح الطيَّار سعادة الجرائي ، ودخل يوماً إلى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجداً مستقبلاً الكعبة الشريفة ميتاً من غير مرض كان به ، رضي الله عنه ، وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحواً من أربعين سنة ، وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين ؛ دخلت عليه يوماً فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير ، فقلتُ له في ذلك ، فقال لي : استر عليّ ما رأيت . وحول الحرم الشريف دورٌ كثيرة لها مناظر وسطوحٌ يخرجُ منها إلى سطح الحرم ، وأهلُها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام ؛ ودورٌ لها أبوابٌ تُفضي إلى الحرم منها دارُ زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ، ومنها دارُ العجلة ودارُ الشرايين وسواها . ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبةُ الوحي ، وهي في دار خديجة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، بمقربة من باب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وفي البيت قبةٌ صغيرة حيث وُلدت فاطمة ، عليها السلام ، وبمقربة منها دارُ أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ويقابلُها جدارٌ مباركٌ فيه حجر مباركٌ بارزٌ طرفُهُ من الحائط يستلمه الناس ، ويقال : إنّه كان يسلم على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ويذكر أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تسليماً ، أتى إلى دار أبي بكر . رضي الله عنه ، فنأدى به ولم يكن حاضراً ، فنطق ذلك الحجر وقال : يا رسول الله إنّه ليس بحاضر .

ذكر الصفا والمروة

ومن باب الصفا الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ستّ وسبعون خُطوة وسَعَةً الصفا سبع عشرة خُطوة ، وله أربع عشرة درجة عليها هن كَأَنَّهَا مسطبة ؛ وبين الصفا والمروة أربعمئة وثلاث وتسعون خُطوة . منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خُطوة . ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خُطوة . ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمئة وخمس وعشرون خُطوة . وللمروة خمس درجات ، وهي ذات قوس واحد كبير . وسعة المروة سبع عشرة خُطوة . والميل الأخضر هو سارية خضراء مشبهة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة ؛ والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علي من أبواب الحرم . إحداهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب . والأخرى تقابلها ، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً . وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يُباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه ؛ والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لآزدحام الناس على حوانيت الباعة ، وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة .

وبين الصفا والمروة دار العباس . رضي الله عنه . وهي الآن رباط يسكنه المجاورون ، عمره الملك الناصر ، رحمه الله ، وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين ، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور . والآخر في العطارين ، وعليها رُبْع يسكنه خدامُها ، وتولّى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال ؛ وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نسي ، وسنذكره .

ذكر الجبانة المباركة

وجبّانةُ مَكَّةَ خارجَ بابِ المعلّى ويُعرفُ ذلكَ الموضعُ أيضاً بالحجّون
ولمّا أتاه عنى الحارث بن مُضاض الجُرهمي بقوله :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجَّونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَسَى ! نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا ، فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُسُودُ الْعَوَاثِرُ

وبهذه الجبّانة مدفن الجُمّ الغفير من الصّحابة والتابعين والعلماء والصّالحين
والأولياء ، إلّا أنّ مشاهدَهم دثرت وذُهبَ عن أهلِ مَكَّةَ علمُها فلا يُعرفُ
منها إلّا القليلُ ، فمن المعروف منها قبرُ أمّ المؤمنين ووزير سيّد المرسلين
خديجة بنت خويلد أمّ أولاد النبيّ ، صلتى الله عليه وسلّم تسليمًا ، كلّهم
ما عدا إبراهيم ، وجَدّة السّبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبيّ ،
صلى الله عليه وسلّم تسليمًا ، وعليهم أجمعين ، وبمقربة منه قبرُ الخليفة أمير
المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ،
رضي الله عنهم أجمعين ، وفيها الموضع الذي صُلبَ فيه عبد الله بن الزبير ، رضي
الله عنهما ، وكان به بَنِيَّةٌ هَدَمَهَا أَهْلُ الطّائِفِ غَيْرَةً مِنْهُمْ لما كان يلحقُ
حُجَّاجَهُمُ الْمُبِيرَ مِنَ اللَّعْنِ ؛ وعن يمين مستقبل الجبّانة مسجدٌ خراب ، يقال إنّه
المسجد الذي بايعت الجنّ فيه رسول الله ، صلتى الله عليه وسلّم تسليمًا ، وعلى
هذه الجبّانة طريقُ الصّاعِدِ إلى عَرَافَاتٍ وطريقُ الذّاهِبِ إلى الطّائِفِ وإلى العراق .

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحجّون وقد ذكرناه ، ويقال أيضاً إنّ الحجّون هو الجبل المُطلّ على
الجبّانة ؛ ومنها المُحَصَّب ، وهو أيضاً الأبطحُ ، وهو يلي الجبّانة المذكورة ،
.....
١ أراد الحجاج بن يوسف .

وفيه خيفُ بني كنانة الذي نزلَ به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً .
ومنها ذو طُوى ، وهو واد يَهْبِطُ على قبور المهاجرين التي بالخصاحص
دونَ ثنية كداء ، ويُخرجُ منه إلى الأعلام الموضوعة حجراً بين الحل والحرم .
وكان عبد الله بن عمر ، رضي الله عنه ، إذا قدمَ مكة ، شرفها الله تعالى ،
بيتُ بذِي طُوى ثم يغتسلُ منه ويغدو إلى مكة . ويُذكرُ أن رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم تسليماً ، فعل ذلك ؛ ومنها ثنية كُدَى ، وهي بأعلى
مكة ، ومنها دخلَ رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم ، في حجة الوداع
إلى مكة ؛ ومنها ثنية كداء ، ويقال لها الثنية البيضاء . وهي بأسفل مكة .
ومنها خرجَ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، عامَ الوداع . وهي
بين جبلين وفي مضيقها كَوْمٌ حجارةٍ موضوعٌ على الطريق . وكلٌّ من يسرَّ
به يرحمه بحجر ، ويقال إنَّه قبرُ أبي لهب وزوجه حمالة الحطب .

وبين هذه الثنية وبين مكة بسيطٌ سهل ينزله الركب إذا صعدوا عن منى ؛
وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة . شرفها الله ، مسجدٌ بإزائه
حجرٌ موضوعٌ على الطريق كأنَّه مسطبة . يعلوه حجرٌ آخر كان فيه نقش فُدَّحِر
رسمه ، يقال : إنَّ النبي ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، قعد بذلك الموضع
مستريحاً عند مجيئه من عُمرته ، فيُبْرِكُ الناس بتقبيله ويستندون إليه .

ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة . وهو أدنى
الحلِّ إلى الحرم ، ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها . حين
بعثها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، في حجة الوداع مع
أخيها عبد الرحمن ، رضي الله عنه ، وأمره أن يعمرها من التنعيم . وبُنيت
هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تُنسب كلها إلى عائشة . رضي الله عنها .
وطريقُ التنعيم طريقٌ فسيح ، والناس يتحرّون كنسَه في كلِّ يوم رغبةً في
الأجر والثواب لأنَّ من المعتمرين من يمشي فيه حافياً . وفي هذا الطريق الآبار

١ الكوم : التل .

العذبة التي تُسمّى الشَّبِيكَة .

ومنها الزاهر ، وهو على نحو ميلين من مكّة على طريق التنعيم ، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق ، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تُصَفّ عليه كيزانُ الشرْبِ وأواني الوضوء يملؤها خديمٌ ذلك الموضع من آبار الزاهر ، وهي بعيدة القعر جدّاً ، والخديمُ من الفقراء المجاورين وأهل الخير يُعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمُعتمرين من الغسل والشرْب والوضوء . وذو طوى يتصل بالزاهر .

ذكر الجبال المطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قُبَيْس ، وهو في جهة الجنوب والشرق من مكّة ، حرسها الله ، وهو أحد الأخشبين وأدنى الجبال من مكّة ، شرفها الله ، ويُقابل رُكن الحجر الأسود ، وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة ، وكان الملك الظاهر ، رحمه الله ، أراد أن يَعمُرَ ؛ وهو مُطلٌّ على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسنُ مكّة ، شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظّمة ؛ ويذكر أنَّ جبل أبي قُبَيْس هو أوّل جبل خلقه الله تعالى ، وفيه استودعَ الحجر زمان الطوفان ، وكانت قُريش تُسمّيه الأمين لأنّه أدنى الحجر الذي استودع فيه الخليلُ إبراهيم ، عليه السلام ؛ ويقال إنّ قبرَ آدم ، عليه السلام ، به . وفي جبل أبي قُبَيْس موضع موقف النبيّ ، صلى الله عليه وسلّم ، حين انشقّ له القمر .

ومنها قُعَيْقَعان وهو أحد الأخشبين ، ومنها الجبل الأحمر وهو في جهة الشمال من مكّة ، شرفها الله ، ومنها الحنْدَمَة ، وهو جبل عند الشّعبين المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر .

ومنها جبل الطير ، وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم يقال : إنّها

الجبال التي وضعَ عليها الخليل ، عليه السلام ، أجزاء الطير ثمّ دعاها حسبما نصّ الله في كتابه العزيز عليه أعلام من حجارة .

ومنها جبل حراء وهو في الشمال من مكّة ، شرفها الله تعالى ، على نحو فرسخ منها ، وهو مشرف على منى ذاهبٌ في الهواء عالي القنّة ، وكان رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، يتعبّد فيه كثيراً قبل المبعث ، وفيه أتاه الحقّ من ربّه وبدا الوحي ، وهو الذي اهتزّ تحت رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا . فقال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : اثبتّ فما عليك إلّا نبيّ وصدّيق وشهيد . واختلّف فيمن كان معه يومئذ ، وروي أنّ العشرة كانوا معه ، وقد روي أيضاً أن جبل ثبير اهتزّ تحته أيضاً .

ومنها جبل ثور ، وهو على قدر فرسخ من مكّة ، شرفها الله تعالى ، على طريق اليمن ، وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، حين خروجه مهاجراً من مكّة ، شرفها الله ، ومعه الصدّيق ، رضي الله عنه ، حسبما ورد في الكتاب العزيز . ذكر الأزرق في كتابه : أنّ الجبل المذكور نادى رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، وقال : إليّ يا محمد ، إليّ ، إليّ ، فقد آويتُ قبلك سبعين نبياً ، فلمّا دخل رسول الله الغار واطمأنّ به وصاحبه الصدّيق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عُشّاً ، وفرّخت فيه بإذن الله تعالى ، فأنتهى المشركون ، ومعهم قُصّاصُ الأثر ، إلى الغار ، فقالوا : ها هنا انقطع الأثر ، ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرّخة ، فقالوا : ما دخل أحدٌ هنا ، وانصرفوا ، فقال الصدّيق : يا رسول الله لو ولجوا علينا منه ؟ قال : كنّا نخرجُ من هنا ، وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه بابٌ للحين بقُدرة الملك الوهاب .

والناسُ يقصدون زيارةَ هذا الغار المبارك ، فيرومون دخوله من الباب الذي دخل منه النبيّ . صلّى الله عليه وسلّم ، تبرّكاً بذلك ، فمنهم من يتأتّى

له ، ومنهم من لا يتأتى له وينشَبُ فيه حتى يُتناوَل بالجنب العنيف ؛ ومن الناس من يصلّي أمامه ولا يدخله . وأهلُ تلك البلاد يقولون : إنّه من كان لرشدة دخله ، ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ، ولهذا يتحاماها كثيرٌ من الناس لأنّه مُخجِلٌ فاضحٌ .

قال ابن جرّزي : أخبرني بعضُ أسيّاخنا الحجّاج الأكياس أن سبب صعوبة الدخول إليه هو أن بداخله ممّا يلي هذا الشقّ الذي يُدخلُ منه حجراً كبيراً معترضاً ، فمن دخل من ذلك الشقّ منبطحاً على وجهه وصل رأسه إلى ذلك الحجر ، فلم يمكنه التولّج ولا يُمكنه أن ينطوي إلى العلو ، ووجهه وصدره يليان الأرض ، فذلك هو الذي ينشَبُ ولا يخلُص إلا بعد الجُهد والجهد إلى خارج ، ومن دخل منه مستلقياً على ظهره أمكنه لأنّه إذا وصل رأسه إلى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعداً فكان ظهره مستنداً إلى الحجر المعترض وأوسطه في الشقّ ورجلاه من خارج الغار ثمّ يقوم قائماً بداخل الغار .

حكاية شيخ ضلّ طريقه

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي : أحدهما الفقيه المكرّم أبو محمد عبد الله بن فرحان الإفريقي التوزري ، والآخر أبو العبّاس أحمد الأندلسي الوادي آشي ، أنهما قصدا الغار في حين مجاورتهما بمكة ، شرفها الله تعالى ، في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة^٢ وذهبا منفردين لم يستصحبها دليلاً عارفاً بطريقه ، فتأما وضلاً طريقَ الغار ، وسلكا طريقاً سواها منقطعة ، وذلك في أوّان اشتداد الحرّ وحسني القيظ ، فلمّا تقدّما وكان قد نفد ما عندهما من الماء ، وهما لم يصلّا إلى الغار ، أخذنا في الرجوع إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، فوجدا طريقاً

١ الجبل والجذب واحد .

٢ سنة ١٣٢٧ م .

فاتبعاه وكان يفضي إلى جبل آخر ، واشتدّ بهما الحرّ وأجهدهما العطش ، وعابنا الهلاك ، وعجزَ الفقيه أبو محمد فرحان عن المشي جملة ، وألقى بنفسه إلى الأرض ، ونجا الأندلسي بنفسه ، وكان فيه فضل قوّة ، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياذ فدخلَ إلى مكّة ، شرفها الله تعالى ، وقصدني وأعلمني بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التوزري وانقطاعه في الجبل ، وكان ذلك في آخر النهار .

ولعبد الله المذكور ابن عمّ اسمه حسن ، وهو من سكّان وادي نخلة ، وكان إذ ذاك بمكّة ، فأعلمته بما جرى على ابن عمّه ، وقصدتُ الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفعَ الله به ، فأعلمته بخبره ، فبعثَ جماعةً من أهل مكّة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه .

وكان من أمر عبد الله التوزري أنّه لما فارقه رفيقه لجأ إلى حجر كبير فاستظلّ بظله ، وأقامَ على هذه الحالة من الجهد والعطش ، والغربانُ تطيرُ فوقَ رأسه وتتنظّرُ موته ، فلما انصرَمَ النهار وأتى الدليل وجد في نفسه قوّةً ونعّشه بردُ الليل ، فقامَ عند الصباح على قدميه ونزلَ من الجبل إلى بطن وادٍ حجبَت الجبال عنه الشمس ، فلم يزل ماشياً إلى أن بدت له دابةٌ ، فقصدها فوجد خيمةً للعرب ، فلما رآها وقعَ إلى الأرض ولم يستطع النهوض ، فرأته صاحبةُ الخيمة ، وكان زوجها قد ذهب إلى وِرد الماء ، فسقته ما كان عندها من الماء ، فلم يُرَوَّ وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يُرَوَّ وأرْكَبَه حماراً له وقدم به مكّة ، فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثاني متغيّراً كأنّه قام من قبر .

ذكر أميرِ مكة

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفيْن الأجلّين الأخوين أسدِ الدين رُمَيْثَة وسيف الدين عَطِيفَة ابني الأمير أبي نُمَيٍّ بن أبي سعد بن عليّ بن قَتَادَة الحسنيّين ، ورُمَيْثَة أكبرهُما سنّاً ، ولكنّه كان يُقدِّم اسمُ عَطِيفَة في الدعاء له بمكة لعدله . ولرُمَيْثَة من الأولاد أحمدٌ وعَجَلان ، وهو أميرُ مكة في هذا العهد ، وتَقِيَّةٌ وسَنَدٌ ، وأمُّ قاسم ؛ ولعطيفة من الأولاد محمدٌ ومباركٌ ومسعود ؛ ودارُ عطيفة عن يمين المروة ، ودارُ أخيه رُمَيْثَة برباط الشراي عند باب بني شَيْبَة ، وتضرب الطبول على باب كلّ واحد منهما عند صلاة المغرب من كلّ يوم .

ذكر أهل مكة وفصائلهم

ولأهل مكة الأفعالُ الحميلةُ والمكارمُ التامةُ والأخلاقُ الحسنةُ والإيثارُ إلى الضّعفاء والمنقطعين وحسنُ الجوار للغرباء ؛ ومن مكارمهم أنهم متى صنعَ أحدهم وليمةً يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ، ويستدعيهم بتلطفٍ ورفقٍ وحُسنِ خُلُقٍ ثمّ يطعمهم ، وأكثرُ المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيثُ يطبخُ الناسُ أخبازهم ، فإذا طبخَ أحدهم خبزَه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطي لكلّ واحد منهم ما قُسِمَ له ، ولا يردّهم خائبين ، ولو كانت له خُبْزَة واحدة فإنه يُعطي ثلثها أو نصفَها طيِّبَ النفس بذلك من غير ضجر .

ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصّغار يقعدون بالسوق ، ومع كلّ واحد منهم قُفَّتَان كبرى وصغرى ، وهم يُسمّون القُفَّة مَكْتَلًا فيأتي الرجلُ من أهل مكة إلى السوق ، فيشتري الحبوب واللّحم والخضر ويعطي ذلك

للصبيّ ، فيجعل الحبوب في إحدى قفّتيه واللّحم والخضر في الأخرى ، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيئاً له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته ، فلا يذكّر أنّ أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قطّ ، بل يؤدي ما حمل على أتمّ الوجوه ، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس .

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس ، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرّون السّواك بعيدان الأراك الأخضر ؛ ونساء مكة فائحات الحسن بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهنّ يكثرن التطيب حتى إنّ إحداهنّ لتتبيت طافية وتشتري بقوتها طيباً ، وهنّ يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة ، فيأتين في أحسن زيّ ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهنّ وتذهب المرأة منهنّ فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبثاً ؛ ولأهل مكة عوائد حسنة وغيرها سندكرها إن شاء الله تعالى ، إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها .

ذكر قاضي مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها وصلحاتها

قاضي مكة العالم الصّالح العابد نجم الدين محمد ابن الإمام العالم محيي الدين الطيّري ؛ وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين ، حسن الأخلاق كثير الطواف والمُشاهدة للكعبة الشريفة ، يُطعم الطعام الكثير في المواسم المعظّمة . وخصوصاً في مولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم تسليماً ، فإنّه يُطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخُدّام الحرم الشريف وجميع المجاورين . وكان سلطان مصر الملك الناصر ، رحمه الله ، يعظّمه كثيراً ، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجري على يديه .

وولده شهاب الدين فاضل . وهو الآن قاضي مكة ، شرفها الله ؛ وخطيب مكة الإمام بمقام إبراهيم . عليه السلام ، الفصيح المصقّع ، وحيد عصره

المصنع : البليغ ، العالي الصوت .

بهاء الدين الطبري ، وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغةً وحسن بيان ، وذكر لي أنه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد .
ولإمام الموسم وإمام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن ، وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه ، وأهله من تِلَاد الجريد من إفريقية ، ويُعرفون بها ببني حيتون ، وهم من كبارها ، ومولده ومولد أبيه بمكة ، شرفها الله ، وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدُها وقُطبها بإجماع الطوائف على ذلك ، مستغرقُ العبادة في جميع أوقاته ، حسيي كريم النفس ، حسن الأخلاق كثيرُ الشفقة لا يرد من سأله خائباً .

حكاية مباركة

رأيت أيتامَ مجاورتي بمكة . شرفها الله ، وأنا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، في النوم ، وهو قاعدٌ بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تُشاهدُ منه الكعبةُ الشريفة ، والناسُ يُبايعونه ، فكنتُ أرى الشيخَ أبا عبد الله المدعوَّ بخليل قد دخلَ وقعدَ القُرْفُصَاء بين يدي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، وجعل يده في يد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقال : أبايعنك على كذا وكذا ، وعدّدَ أشياء منها ، وأن لا أردّ من بيتي مسكيناً خائباً ، وكان ذلك آخر كلامه . فكنتُ أعجبُ من قوله ، وأقولُ في نفسي : كيف يقولُ هذا ويقدرُ عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزبالة والعراق والعجم ومصر والشام ، وكنتُ أراه حين ذلك لابساً جبّةً بيضاء قصيرةً من ثياب القطن المدعّوة بالقُفطان كان يلبّسها في بعض الأوقات ، فلما صليتُ الصبحَ غدوتُ عليه وأعلمته برؤيائي فسرّ بها وبكى . وقال لي : تلك الجبّة أهداها بعض الصالحين لحدّي ،

فأنا ألبسها تبرّكاً ؛ وما رأيته بعد ذلك يردّ سائلاً خائباً ، وكان يأمرُ خدامه
يخبزونَ الخبزَ ويطبخونَ الطعامَ ويأتونَ به إلى بعد صلاة العصر من كلِّ يوم .
وأهلُ مكة لا يأكلونَ في اليوم إلاّ مرّةً واحدة بعد العصر ويقتصرون
عليها إلى مثل ذلك الوقت ، ومن أرادَ الأكلَ في سائر النهار أكلَ التمر ،
ولذلك صحّت أبدانهم ، وقبّلت فيهم الأمراضُ والعاهات .

وكان الشيخ خليل متزوّجاً بنت القاضي نجم الدين الطبري ، فشكّ في
طلاقها وفارقها وتزوّجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من كبار المجاورين ،
وهو من صعيد مصر ، وأقامت عنده أعواماً وسافر بها إلى المدينة الشريفة ،
ومعها أخوها شهاب الدين ، فحنث في يمين بالطلاق ففارقها على ضمانته بها .
وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدّة .

ومن أعلام مكة إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ، ومنهم إمام الحنفية
شهاب الدين أحمد بن عليّ من كبار أئمة مكة وفضلائها يُطعمُ المجاورين
وأبناء السبيل ، وهو أكرم فقهاء مكة ، ويُدان في كلّ سنة أربعين ألف درهم
وخمسين ألفاً فيؤدّيها الله عنه ، وأمراء الأتراك يعظّمونه ويُحسنون الظنّ به
لأنّه إمامهم ، ومنهم إمامُ الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي
الأصل المكيّ المولد ، وهو نائبُ القاضي نجم الدين ، والمحتسب بعد قتل تقي
الدين المصري ، والناسُ يهابونه لسطوته .

حكاية قطع يد السارق

كان تقي الدين المصري محتسباً بمكة ، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما
لا يعنيه ، فاتفقَ في بعض السنين أن أتى أميرُ الحاج بصبيّ من ذوي الدّعارة
بمكة قد سرقَ بعضَ الحاجّ ، فأمرَ بقطع يده ، فقال له تقي الدين : إن
لم نقطعها بحضرتك ، وإلاّ غلبَ أهلُ مكة خُدّامكَ عليه ، فاستنقذوه منهم

وخلّصوه ، فأمرَ بقطع يده في حضرته . ففُطعت ، وحقّقدها لتقي الدين ، ولم يزل يتربّص به الدوائر . ولا قُدرةَ له عليه لأن له حَسَباً من الأميرين رُمَيْتةً وعُطيفةً . والحسبُ عندهم أن يُعطى أحدهم هديّةً من عمامة أو شاشيّةً بمحضر الناس تكون جواراً لمن أُعْطِيَتْهُ . ولا تزول حرمتُها معه حتى يُريد الرّحلة والتحوّلَ عن مكّة . فأقام تقيّ الدين بمكّة أعواماً ثمّ عزم على الرّحلة وودّعَ الأميرين . وطافَ طوافَ الوداع ، وخرجَ من باب الصّفا ، فلقيه صاحبه الأقطع وتشكّى له ضعفَ حاله ، وطلبَ منه ما يستعينُ به على حاجته ، فأنهّره تقيّ الدين وزجره . فاستلّ خنجراً له يُعرفُ عندهم بالحنسيّة وضربه ضربةً واحدةً كان فيها حتفُهُ .

ومنهم الفقيه الصّالح زين الدين الطبري شقيقُ نجم الدين المذكور من أهل الفضل والإحسان للمجاورين ؛ ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكّة . وكان ينوبُ عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي .

ومنهم العدلُ الصّالح محمد بن البرهان ، زاهدٌ ورِعٌ مُبْتَلَى بالوسّواس ، رأيتُهُ يوماً يتوضّأ من بركة المدرسة المظفريّة ، فيغسل ويكرّر ، ولما مسحَ رأسه أعادَ مسحَه مرّاتٍ ثمّ لم يُقنعه ذلك فغطّسَ رأسه في البركة . وكان إذا أراد الصلاة ربّما صلتى الإمامُ الشافعي ، وهو يقول : نَوَيْتُ نَوَيْتُ ، فيصليّ مع غيره ، وكان كثيرَ الطّواف والاعتمار والذكر .

ذكر المجاورين بمكة

فمنهم الإمامُ العالم الصّالح الصّوفي المحقّقُ العابدُ عفيفُ الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهيرُ بالياضي ، كثيرُ الطّواف آناء الليل وأطرافَ النهار ؛ وكان إذا طافَ من الليل يصعدُ إلى سطح المدرسة المظفرية ، فيقعدُ مشاهداً

للكعبة الشريفة إلى أن يغلبه النوم ، فيجعل تحت رأسه حجراً وينام يسيراً ثمَّ يُجَدِّدُ الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يُصَلِّيَ الصبح . وكان متزوّجاً ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان ، وكانت صغيرة السنّ ، فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر ، فأقامت معه على ذلك سنين ثمَّ فارقت . ومنهم الصّالح العابد نجمُ الدين الأصفهاني كان قاضياً ببلاد الصعيد ؛ فانقطع إلى الله تعالى وجاورَ بالحرم الشريف ، وكان يعتمر في كلّ يوم من التمتع ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتماداً على ما في الخبر عن النبيّ ، صَلَّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، أنه قال : عُمْرة في رمضان تعدل حجة معي .

ومنهم الشيخُ الصّالح العابد شمسُ الدين محمد الحلبي ، كثيرُ الطّواف والتّلاوة ، من قدماء المجاورين ، مات بمكة ، شرفها الله ، ومنهم الصّالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصّامت ، كثيرُ الطّواف ، أقامَ بمكة أعواماً لا يتكلّم فيها ؛ ومنهم الصّالح خضر العجمي ، كثيرُ الصّوم والتّلاوة والطّواف ، ومنهم الشيخُ الصّالح برهانُ الدين العجمي الواعظُ ، كان يُنصَّبُ له كرسيّ تجاه الكعبة الشريفة ، فيعظُّ الناس ، ويذكّرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب .

ومنهم الصّالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرئٌ مُجيد ، ساكنٌ رباطَ السّدارة ، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى ، ويقوم بمؤنهم ، ويكسوهم .

ومنهم الصّالح العابد عزّ الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة يُحمَلُ إليه من بلده المالُ الكثير في كلّ سنة فيبتاعُ الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ، ويتولّى حملها إلى بيوتهم بنفسه ، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن تُوفّي . ومنهم الفقيه الصّالح الزّاهد أبو الحسن عليّ بن رزق الله الأنجري من أهل قُطر طنجة من كبار الصّالحين ، جاورَ بمكة أعواماً وبها وفاته . كانت بينه وبين والدي صحبةٌ قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا ؛ وكان له بيتٌ

بالمدرسة المظفرية يعلّم العلم فيها نهاراً ، ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع ، وهو من أحسن الرباطات بمكة بداخله بئرٌ عذبةٌ لا تُمائلُها بئرٌ بمكة ، وسكانه الصالحون وأهلُ ديار الحجاز يعظّمون هذا الرّباط تعظيماً شديداً ويندرون له النذور ، وأهلُ الطّائف يأتونه بالفواكه ؛ ومن عادتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسيك ، وهو الخوخ والتين ، وهم يسمّونه الحمط ، يُخرجُ منه العشر لهذا الرّباط ، ويوصلون ذلك إليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان . ومن لم يفِ بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابها الجوائح .

حكاية في فضيلة

أتى يوماً غلمانُ الأمير أبي نُمَيٍّ صاحب مكة إلى هذا الرّباط ، ودخلوا بخيل الأمير وسقّوها من تلك البئر ، فلمّا عادوا بالخيّل إلى مراتبها أصابها الأوجاع ، وضربت بأنفسها الأرض وبرؤوسها وأرجلها ، واتصل الخبر بالأمير أبي نُمَيٍّ فأتى باب الرّباط بنفسه ، واعتذر إلى المساكين الساكنين به ، واستصحب واحداً منهم فمسح على بطون الدّواب بيده ، فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء ، وبرئت ممّا أصابها ، ولم يترعّضوا بعدها للرّباط إلّا بالخير .

ومنهم الصّالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ، ووفاته بمكة ، شرفها الله ؛ ومنهم الصّالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديماً للشيخين المذكورين ، فلمّا توفّي صار شيخ الرّباط بعدهما ، ومنهم الصّالح السابح السالك أبو الحسن عليّ بن فرغوس التلمساني ؛ ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلاله .

حكاية الشيخ سعيد الهندي

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه ، فأعطاه مالا عظيماً قدم به مكة ، فسجنه الأمير عطيفة ، وطالبه بأداء المال ، فامتنع فعُذِّبَ بعصر رجله ، فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نُقْرَةً ، وعادَ إلى بلاد الهند ، ورأيتُه بها ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مُهنّا ، أمير عرب الشام ، وكان غدا ساكناً ببلاد الهند متزوجاً بأخت ملكها ، وسيدُكرُ امرُءه ، فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جُمْلَةَ مال ، وتوجّه صُحْبَةَ حاجٍ يُعرف بوشل من ناس الأمير غدا وجهه الأمير المذكورُ ليأتيه ببعض ناسه ، ووجه معه أموالاً وتُحْفاً منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته ، وهي من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب ، ومرصعة بالجوهر ، بحيث لا يظهر لَوْنُهَا لَغَاسِبَةِ الجواهر عليها . وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق ، فسافر الشيخ سعيد صُحْبَةَ وشل ، واشترى سلعاً بما عندهما من الأموال ، فلما وصلا جزيرة سُفُطْرَةَ المنسوب إليها الصبر السقَطْرِي خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً مات فيه من الفريقين جملة ، وكان وشل رامياً فقتل منهم جماعة ثم تغلب السراقُ عليهم ، وطعنوا وشلاً طعنةً مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا إلى عدن ، ومات بها وشل .

وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحداً إلا حين القتال ، ولا يُغرِقونه ، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهبُ بمركبه حيثُ شاء ، ولا يأخذون الممالك لأنهم من جنسهم . وكان الشيخ سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدّمه مثلُ السلطان شمس الدين لُقْمِش ، وولده ناصر الدين . ومثلُ السلطان جلال الدين فيروز شاه ، والسلطان غياث الدين بلين ، وكانت الخلع تأتي إليهم من بغداد .

فلما توفيّ وشل قصيد الشيخ سعيد^١ إلى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالأمر ، فكتب له كتاباً بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند ، فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سوداً ، وركب البحر إلى الهند ، فلما وصل كنبات ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من دهلي حضرة^٢ ملك الهند ، كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه ، فورد الأمرُ ببعثه إلى الحضرة مكرماً ، فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلّقاه وعانقه ودفع له الأمرَ قبّله ووضع على رأسه ، ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ، ولبس إحدى الخلع ، وكسا الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المنتصر العباسي ، وكان مقيماً عنده ، وسيذكر خبره ، وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير ، وهو الذي يقوم على رأسه ويُشردُّ عنه الذباب ، وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ، ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه ، وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعين العباسيتين . والمدينة قد زينت بأنواع الزينة ، وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب ، كل قبة منها أربع طبقات ، في كل طبقة طائفة من المغنّين رجالاً ونساء ، والراقصات ، وكلّهم مماليك السلطان ، والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها ، وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الخواميس مملوءة ماء قد حلّ فيه الجلابُ يشربه كلّ وارد وصادر ، لا يُمنع منه أحدٌ وكلّ من يشرب منه يُعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوقل والنّورة فيأكلها فتطيبُ نكهته ، وتزيد في حمرة وجهه ولثاته ، وتقمع عنه الصفراء . وتهضم ما أكل من الطعام .

١ أراد بالحضرة : الخاضرة .

ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فُرِشَتْ له ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان ، وأنزلَ بدار تقرب من دار الملك ، وبَعَثَ له أموالاً طائلة ؛ وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب ، والموضوعة بين يدي الفيل ، لا تعود إلى السلطان بل يأخذها أهلُ الطرب وأهلُ الصناعات الذين يصنعون القباب وخدامُ الأحواض وغيرهم ، وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفره . وأمرَ الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة ، وأقام الشيخ سعيد شهراً ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة ، فوصل كنبات ، وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر . وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولا إلى الخليفة ، وهو الشيخ رجب البُرقي أحد شيوخ الصوفية ، وأصله من مدينة القرم من صحراء قسطنطين ، وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار ، وكتب له يطلب منه أن يعقده له النيابة عنه ببلاد الهند والسند ، وبعث له سواه من يظهر هكذا ما نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة وحسن نية .

وكان للشيخ رجب أخٌ بديار مصر يدعى بالأمر سيف الدين الكاشف ، فلمّا وصل رجب إلى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بمحضر الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر ، فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر ، فباعه واشترى بثمنه . وهو ثلاثمائة ألف درهم ، أربعة أحجار ، وحضر بين يدي الملك الصالح ، ودفع له الكتاب وأحد الأحجار ، ودفع سائرها لأمرائه ، واتفقوا على أن يكتبَ الملك الهند بما طلب ، فوجهوا الشهود إلى الخليفة ، وأشهد على نفسه أنه قدّمه نائباً عنه ببلاد الهند وما يليها . وبعث الملك الصالح رسولا من قبيله . وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية . وركبوا بحر فارس من الأبلة إلى هرمز ، وسلطانها يومئذ قُطِبُ الدين تَمَتَّهَن طوران شاه ، فأكرمَ مثواهم وجهزَ لهم مركباً إلى بلاد الهند . فوصلوا مدينة كنبات ، والشيخ سعيد بها

وأمرها يومئذٍ مقبول التلثكي أحد خواصّ ملك الهند ، فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير ، وقال له : إنّ الشيخ سعيداً إنّما جاءكم بالتزوير ، والخلع التي ساقها إنّما اشتراها بعدنّ فينبغي أن تتفقوه^١ وتبعثوه لخوندد عالم ، وهو السلطان . فقال له الأمير : الشيخ سعيد معظم عند السلطان ، فما يفعلُ به هذا إلاّ بأمره ، ولكنّي أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه .

وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان ، وكتب به أيضاً صاحب الأخبار ، فوقع في نفس السلطان تغيير ، وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الاشهاد ، بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صدر ، فمُنِعَ رجب من الدخول عليه وزاد لإكرام الشيخ سعيد ، ولما دخل شيخُ الشيوخ على السلطان قام إليه وعانقه وأكرمه ، وكان متى دخل إليه يقوم إليه ، وبقي الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظماً مكرماً ، وبها تركته سنة ثمان وأربعين .

وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشأنه عجيب ، وكان قبل ذلك صحيح العقل خديماً لوليّ الله تعالى نجم الدين الأصهباني أيام حياته .

حكاية حسن المجنون

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل ، وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً يُكثرُ الطواف ، ولا يراه بالنهار ، فلقيه ذلك الفقير ليلةً وسأله عن حاله ، وقال : يا حسن ! إنّ أمّك تبكي عليك ، وهي مشتاقةٌ إلى رؤيتك ، وكانت من إماء الله الصالحات ، أفترحب أن تراها؟ قال له : نعم ! ولكنّي لا قدرة لي على ذلك ، فقال له : نجتمع هاهنا في الليلة المقبلة ، إن شاء الله تعالى . فلمّا كانت

١ تتفقوه : تظفروا به ، أي تمسكوه .

الليلة المقبلة ، وهي ليلة الجمعة ، وجده حيث واعدته ، فطافا بالبيت ما شاء الله ، ثم خرج وهو في أثره إلى باب المعلقة فأمره أن يسد عينيه ، ويسد فميه ، ففعل ذلك ، ثم قال بعد ساعة : أتعرف بلدك ؟ قال : نعم . قال : ها هو هذا ! ففتح عينيه فإذا به على دار أمه ، فدخل عليها ، ولم يعلمها بشيء مما جرى ، وأقام عندها نصف شهر ، وأظن أن بلده مدينة أسفى ، ثم خرج إلى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له : كيف أنت ؟ فقال : يا سيدي إني اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين ، وكنت خرجت على عادي ، وغيب عنه هذه الأيام ، وأحب أن تردني إليه ، فقال له : نعم ! وواعد الجبانة ليلاً ، فلما وافاه بها أمره أن يفعل كفعله في مكة ، شرفها الله ، من تغميض عينيه والإمساك بذيله ، ففعل ذلك ، فإذا به في مكة ، شرفها الله ، وأوصاه أن لا يتحدث نجم الدين بشيء مما جرى ولا يحدث به غيره .

فلما دخل على نجم الدين قال له : أين كنت يا حسن في غيبتك ؟ فأبى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية ، فقال : أرني الرجل ! فأتي معه ليلاً وأتى الرجل على عادته ، فلما مرّ بهما قال له : يا سيدي ! هو هذا ! فسمعه الرجل فصرّب بيده على فمه ، وقال : اسكت أسكتك الله ، فخرس لسانه ، وذهب عقله ، وبقي بالحرم مولماً يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة ، والناس يتبركون به ، ويكسونه ، وإذا جاع خرج إلى السوق التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتاً من الحوانيت فيأكل منها ما أحب لا يصدّه أحد ، ولا يمنعه بل يسرّ كل من أكل له شيئاً ، وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ، ومتى أتى السوق تناول أهلها بأعناقهم إليه كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده لما جرّبوه من بركته ؛ وكذلك فعله مع السقّاتين متى أحب أن يشرب ، ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين ، فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك ، فاستصحبه معه إلى ديار مصر ، فانقطع خبره ، نفع الله تعالى به .

ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلّي أولُ الأئمةِ لإمامُ الشافعيّة ، وهو المقدّمُ من قبلِ أولي الأمر ، وصلّاته خلفَ المقامِ الكريمِ مقامِ إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، في حطيم له هناك بديع ، وجمهور الناس بمكة على مذهبه .
والخطيمُ خشبتان موصولٌ ما بينهما بأذرع شبه السّلم تقابلهما خشبتان على صفتها ، وقد عُقِدَت على أرجل مجصّصة ، وعُرضَ على أعلى الخشب خشبةٌ أخرى فيها خطاطيف حديدٌ يعلّقُ منها قناديلُ زجاج ، فإذا صلّي الإمامُ الشافعي صلّي بعده الإمامُ المالكية في محراب قُبالةِ الركن اليماني ، ويصلّي الإمام الحنبليّة معه في وقت واحدٍ مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ، ثمّ يصلّي الإمامُ الحنفيّة قبلَ الميزاب المكرّم تحت حطيم له هناك ، ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمعُ وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع .
وأما صلاة المغرب فلاّتهم يصلّونها في وقت واحدٍ كلّ إمام يصلّي بطائفته ويدخلُ على الناس من ذلك سهوً وتخليط فربّما ركعَ المالكي بركوع الشافعي وسجدَ الحنفي بسجود الحنبلي ، وتراهم مُصيّخين كلّ واحدٍ إلى صوت المؤذن الذي يُسمِعُ طائفتَه ثلاثاً يدخلُ عليه السهوُ .

ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم في يوم الجمعة أن يُلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ، ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم ، فإذا خرج الخطيبُ أقبلَ لابساً ثوبَ سوادٍ معتماً بعمامة سوداء ، وعليه طيلسان أسود ، كلّ ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحدُ

القَوَمَة في يده الفَرْقعةُ ، وهي عودٌ في طرفه جلدٌ رقيقٌ مفتولٌ يُنْقَضُها في الهواء فيسمعُ له صوتٌ عالٍ ، يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون إعلالاً بمخرج الخطيب .

ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر ، فيقبل الحجر الأسود ، ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي ، وهو رئيس المؤذنين ، بين يديه ، لابساً السواد ، وعلى عاتقه السيف ممسكاً له بيده ، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر ، فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف ، فيضرب بنصل السيف ضربةً في الدرج يُسمعُ بها الحاضرين ثم يضربُ في الدرج الثاني ضربةً ثم في الثالث أخرى ، فإذا استوى في علوا الدرجات ضربَ ضربةً رابعةً ، ووقف داعياً بدعاء خفيّ مستقبل الكعبة ثم يُقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ، ويردّ عليه الناس ، ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد ، فإذا فرغ الأذان خطبَ الخطيب خطبةً يكثرُ بها من الصلاة على النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، ويقول في أثنائها : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ؛ ويشير بإصبعه إلى البيت الكريم : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة ؛ ويطرّض عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، وسبطينيه وأمهات وخديجة جدّتهما على جميعهم السلام ، ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين عليّ ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن عليّ بن رسول ثم للسيّدين الشريفين الحسينين أمير مكنة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الأخوين ، ويقدم اسمه لعدله ، وأسد الدين رُمَيْثة ابني أبي نمي بن أبي سعد بن عليّ بن قتادة ، وقد دعا لسلطان العراق مرّةً ثم قطع ذلك ، فلما فرغ من خطبته انصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكريم .

١ ينقذه : يضرب به ليصوت .

ذكر عاداتهم في استهلال الشهور

وعاداتهم في ذلك أن يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر ، وقوادّه يحفّون به ، وهو لابس "البياض معتم" ، متقلّد سيفاً ، وعليه السكينة والوقار ، فيصلّي عند المقام الكبير ركعتين ثمّ يقبل الحجر ، ويشرع في طواف أسبوع ، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم ، فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعاً بذلك صوته ثمّ يذكر شعراً في مدحه ومدح سلفه الكريم ، ويفعل به هكذا في السبعة أشواط ، فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثمّ ركع خلف المقام أيضاً ركعتين ثمّ انصرف ، ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفرّاً وإذا قدم من سفر أيضاً .

ذكر عاداتهم في شهر رجب

وإذا هلّ هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعاراً بدخول الشهر ، ثمّ يخرج في أول يوم منه راكباً ، ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب ، وكلّهم بالأسلحة يلعبون بين يديه ، والفرسان يجولون ويجرون ، والرجال يتواثبون ويرمون بحراهم إلى الهواء ، ويلقّفونها ، والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن إبراهيم وعليّ وأحمد ابني صبيح وعليّ بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور ابن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد ، وبين أيديهم الرايات والطبول والدفادب^١ وعليهم السكينة والوقار ، ويصيرون حتى ينتهوا إلى الميقات ثمّ يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام ،

.....

١ الدبادب ، الواحد دبداب : نوع من الطبول .

فيطوفُ الأميرُ بالبيتِ والمؤذُنُ الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كلِّ شوط على ما ذكرناه من عادته ، فإذا طافَ صلَّى ركعتين عند الملتزم وصلَّى عند المقام وتمسَّحَ به ، وخرجَ إلى المسعى فسعى راكباً والقوَاد يحفُّون به ، والحراة بين يديه ثمَّ يسير إلى منزله .

وهذا اليوم عندهم عيدٌ من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك .

ذكرُ عمرة رجب

وأهلُ مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يُعهد مثله ، وهي متصلة ليلاً ونهاراً ، وأوقاتُ الشهر كلّهُ معمورة بالعبادة ، وخصوصاً أوّل يومٍ منه ، ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين . فإنَّهم يستعدُّون لها قبل ذلك بأيّام .

شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصّت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع ، كلُّ أحد يفعل بقدر استطاعته ، والجسمال مزيّنة مقلّدة بقلائد الحرير ، وأستارُ الهوادج ضافية تكاد تمسّ الأرض ، فهي كالقباب المضروبة ، ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيلُ أباطحُ مكة بتلك الهوادج ، والنيران مشعّلة بجنبتي الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الهوادج ، والجبال تُجيبُ بصداها إلهالَ المُهتَلِّين ، فترقّ النفوس وتنهل الدموع ، فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السجن بين الصفا والمروة ، بعد مضي شيء من الليل ؛ والمسعى متقدُّ السُرُج غاصّ بالناس ، والساعات على هواجسهم ، والمسجدُ الحرام يتلألُ نوراً ، وهم يسمّون هذه العمرة بالأكميّة لأنَّهم يُحرِّمون بها من أكمة مسجد عائشة ، رضي الله عنها . بمقدار غلوة على

١ الحراة : حاملو الحراب ، وهم حرس أمير البلد .

مقربة من المسجد المنسوب إلى عليّ ، رضي الله عنه .

والأصلُ في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنهما ، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً ، ومعه أهل مكة ، وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب ، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها ، وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلقة من حيث دخل المسلمون يوم الفتح ، فبقيت تلك العمرة سنةً عند أهل مكة إلى هذا العهد .

وكان عهدُ عبد الله مذكوراً أهدى فيه بُدناً كثيرة ، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم ، وأقاموا أياماً يطعمون ويطنعمون شكراً لله على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كانوا عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه .

ثم لما قُتل ابن الزبير نقضَ الحجاج الكعبة وردّها إلى بنائها في عهد قريش ، وكانوا قد انتصروا في أبنائها ، وأبقاها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ذلك لحديثان عهدهم بالكفر ، ثم رأى الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير فنهاه مالك ، رحمه الله ، عن ذلك ، وقال : يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت متلعباً للملوك متى أراد أحدهم أن يغيّره فعل ، فتركه على حاله سداً للذريعة .

وأهل البلاد الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويحلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز ، فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها ، وتعمتهم المرافق ، ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجذبت بلادهم ووقع الموت في مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم ، وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم ، فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسلٌ عنها اجتمعت نساؤهم فأخرجتهم ، وهذا

الذريعة : الوسيلة ، أراد الوسيلة إلى التغيير في بناء البيت .

من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين .
 وبلاد السَّرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة
 كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن ، لهم صدقُ نيّة ،
 وحسن اعتقاد ، وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لاثنين بجوارها ،
 متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصعد لرقبتها القلوب ، وتدمع العيون
 بالحمادة ، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يتمكن
 لغيرهم الطواف معهم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك ، وهم شجعان
 أنجاد ، ولباسهم الجلود ، وإذا وردوا مكّة هابت أعرابُ الطريق مقدمهم ،
 وتجنّبوا اعتراضهم ؛ ومن صحبهم من الزوّار حميد صحبتهم ، وذكر أنّ
 النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، ذكرهم وأنّى عليهم خيراً ، وقال : علموهم
 الصلاة يعلموكم الدعاء ، وكفاهم شرفاً دخولهم في عموم قوله ، صلّى الله
 عليه وسلّم : الإيمان يمان والحكمة يمانية . وذكر أنّ عبد الله بن عمر ، رضي
 الله عنهما ، كان يتحرّى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبرّكاً بدعائهم ،
 وشأنهم عجيبٌ كلّّه ، وقد جاء في أثر : زاحموهم في الطواف ، فإنّ الرحمة
 تنصبّ عليهم صبّاً .

ذكر عاداتهم في ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالي المعظّمة عند أهل مكّة يبادرون فيها إلى أعمال البرّ
 من الطّواف والصلاة جماعات وأفراداً والاعتمار ، ويجمعون في المسجد الحرام
 جماعةً ، لكلّ جماعة إمام ، ويوقدون السّرج والمصابيح والمشاغل ، ويقابل ذلك
 ضوء القمر يتلألأ في الأرض والسماء نوراً ويصلّون مائة ركعة يقرأون في كلّ ركعة
 بأمّ القرآن وسورة الإخلاص يكرّرونها عشراً ، وبعض الناس يصلّون في الحجر
 منفردين ، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف ، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار .

ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم

وإذا أهلّ هلال رمضان تُضربُ الطُّبُولُ والدُّبَادِبُ عند أمير مكة ، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحُصْر وتكثير الشمع والمشاغل حتى يتألأل الحرمُ نوراً ، ويسطع بهجةً وإشراقاً ، وتتفرقُ الأئمةُ فرقاً ، وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية ، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعته ، فيرتج المسجد لأصوات القراء ، وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين .

ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفرداً ، والشافعية أكثرُ الأئمة اجتهاداً ، وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة ، وهي عشرون ركعة ، يطوفُ إمامهم وجماعته ، فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة وكان ذلك إعلماً بالعودة إلى الصلاة ، ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعاً ، هكذا إلى أن يتمّ عشرين ركعة أخرى ، ثم يصلون الشفع والوتر ، وينصرفون .

وسائرُ الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً ، وإذا كان وقت السحور يتولّى المؤذنُ الزمزمي التسخير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم ، فيقومُ داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور ، والمؤذنون في سائر الصوامع ، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه ، وقد نُصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عودٌ معترض قد عُلّق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان ، فإذا قرب الفجر ، ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حُطّ القنديلان ، وابتدأ المؤذنون بالأذان ، وأجاب بعضهم بعضاً .

ولديار مكة ، شرفها الله ، سطوحٌ فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان

١ تحضر القلوب : هكذا في الأصل ، ولعله أراد حسن الانتباه إلى الصلاة بنشوع وشوق .

يُبَصِّرُ القنديلين المذكورين فيتمسحتر حتى إذا لم يُبصرهما ألقع عن الأكل . وفي ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ، ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء ، ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة ، فإذا ختم نُصِبَ له منبر مزيّن بالحريز ، وأوقد الشمع ، وخطب ، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات .

وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر ، وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين ، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ، ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم ، وتقام لإزاء حطيم الشافعية خُشُبُ عظام توصّل بالحطيم ، وتُعرضُ بينها ألواحٌ طيول ، وتُجعلُ ثلاث طبقات ، وعليها الشمعُ وقنديلُ الزجاج ، فيكاد يُغشّي الأبصار شعاعُ الأنوار ، ويتقدّم الإمام فيصلُ فريضة العشاء الآخرة . ثمّ يبتدىء قراءة سورة القدر ، وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها ، وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمه المقام ، ويحضرونها متبركين ، فيختم الإمام في تسليمين ثمّ يقومُ خطيباً مستقبل المقام فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم وانفضّ الجمع . ثمّ يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر ، وعن المباهاة منزّه موقر ، فيختم ويخطب .

ذكر عاداتهم في شوال

وعاداتهم في شوال ، وهو مفتتح أشهر الحجّ المعلومات ، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ، ويسرجوا المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السّرج في الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح الحرم كله ، وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قُبَيْس . ويقوم المؤذّنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح . والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودُعَاء ، فإذا

صلّوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد ، ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف به يصلّون صلاة العيد لأنّه لا موضع أفضل منه .
ويكون أوّل من يبكر إلى المسجد الشّيبانيون ، فيفتحون باب الكعبة المقدّسة ، ويقعد كبيرهم في عتبتها ، وسائرهم بين يديه إلى أن يأتي أميرُ مكّة فيتلقّونه ويطوفُ بالبيت أسبوعاً ، والمؤذّن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدّعاء له ولأخيه كما ذكر ، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقة أمامه ، وهو لابسُ السواد ، فيصلّي خلفَ القام الكريم ، ثمّ يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ، ثمّ إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثمّ يخرجون إلى مقبرة باب المعلّى تبرّكاً بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ، ثمّ ينصرفون .

ذكر إحرام الكعبة

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تُسمّرُ أستارُ الكعبة ، زادها الله تعظيماً ، إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع صوتاً لها من الأيدي أن تنتهبها ، ويسمّون ذلك إحرامَ الكعبة ، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ، ولا تُفتَحُ الكعبة المقدّسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة .

ذكر شعائر الحج وأعماله

وإذا كان أوّل يوم شهر ذي الحجة تُضربُ الطبول والدفادب ، في أوقات الصلوات ، بكرةً وعشيّةً لإشعاراً بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات ، فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطبَ الخطيب

لأثر صلاة الظهر خطبةً بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ، ويُعلمهم بيوم الوقفة ، فإذا كان اليوم الثامن بكرّ الناس بالصعود إلى منى ، وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى ، وتقعُ المُباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع ، ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائماً ، فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة فيمرون في طريقهم بوادي مُحَسَّر ، ويهرولون ، وذلك سنة .

ووادي مُحَسَّر هو الحدّ ما بين مزدلفة ومنى ، ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء ممّا بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، وبين منى وعرفة خمسة أميال ، وكذلك بين منى ومكة أيضاً خمسة أميال .

ولعرفة ثلاثة أسماء ، وهي : عرفة وجَمْعُ والمشعر الحرام ، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفصح تُحْدَقُ به جبال كثيرة ، وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف ، وفيما حوله ، والعلمان قبله بنحو ميل ، وهما الحدّ ما بين الحل والحرم ، وبمقربة منهما ممّا يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بالارتفاع عنه ، ويجب التحفظ منه ، ويجب أيضاً الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس ، فإن الجمالين ربّما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في النفّر ، واستدرجهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجّهم .

وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمّع منقطع عن الجبال ، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض ، وفي أعلاه قبة تُنسب إلى أم سلمة ، رضي الله عنها ، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحوله سطح فسيح يُشرف على بسيط عرفات ، وفي قُبْلِيَّته جدار فيه محاريب منصوبة يُصلي فيها الناس ، وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تُنسب إلى آدم ، عليه السلام . وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي ، صلى

الله عليه وسلم ، عندها ، وحول ذلك صَهَارِيحُ وجِبَابُ للماء ، وبمقربة منه
الموضع الذي يقفُ فيه الإمام ويخطبُ ، ويجمعُ بين الظهر والعصر .
وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الأراك ، وبه أراك أخضر يمتدُّ
في الأرض امتداداً طويلاً .

وإذا حان وقت النحر أشار الإمامُ المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفعَ الناسُ
بالنفر دفعة ترتجُّ لها الأرض وترجفُ الجبال ، فيا له موقفاً كريماً ومشهداً
عظيماً ترجو النفوس حُسْنَ عقباه ، وتطمحُ الآمال إلى نفحات رُحماه ، جعلنا
الله ممّن خصّه فيه برضاه .

وكانت وقفتي الأولى يومَ الخميس سنة ستّ وعشرين^١ ، وأميرُ الركب
المصري يومئذٍ أرغون الدوادار ، نائب الملك الناصر ، وحجّت في تلك السنة
ابنةُ الملك الناصر ، وهي زوجةُ أبي بكر بن أرغون المذكور ، وحجّت فيها
زوجةُ الملك الناصر المسماة بالخوتدة ، وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك
ملك السرا وخوارزم ، وأميرُ الركب الشامي سيف الدين الجوبان .

ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة ،
فصلّينا بها المغرب والعشاء جمعاً بينهما حسبما جرّت سنة رسول الله ، صلّى
الله عليه وسلم ، ولما صلّينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى بعد الوقوف
والدعاء بالمشعر الحرام ، ومزدلفة كلّها موقف إلاّ وادي مُحَسَّر ففيه تقعُ
الهرولة حتى يُسخرَجَ عنه .

ومن مزدلفة يستصحب أكثرُ الناس حصيات الجمار ، وذلك مستحبٌ ،
ومنهم من يلقطها حول مسجد الحَيْف ، والأمرُ في ذلك واسع . ولما انتهى
الناس إلى منى بادروا لرمي جمرة العقبة ، ثمّ نحروا وذبحوا ، ثمّ حلقوا وحلّوا
من كلّ شيء إلاّ النساء والطيب ، حتى يطوفوا طواف الإفاضة . ورميُ هذه
الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . ولما رموها توجهَ أكثرُ الناس بعد

١ سنة ١٣٢٥ م .

أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة ، ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني ، وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة ، شرفها الله ، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاةً ، وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاةً .

ذكر كسوة الكعبة

وفي يوم النحر بُعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم ، فوضعت في سطحه ، فلمّا كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبون في إسبائها على الكعبة الشريفة ، وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطّنة بالكتان وفي أعلاها طرازٌ مكتوبٌ فيه بالبياض : جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً . الآية ؛ وفي سائر جهاتها طرازٌ مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نورٌ لائح مشرقٌ من سوادها .

ولما كُسيَت شُمُرت أذبالها صوناً من أيدي الناس . والملك الناصر هو الذي يتولّى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفرّاشين والقنّومة ، وما يحتاجُ له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة .

وفي هذه الأيام تُفتّح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممّن يصل مع الركب العراقي ، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام ، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ، ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً ، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكّين أعطوه الفضة والثياب ، وكذلك يُعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة ،

وربّما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يُفريق . ولما قدمتُ معهم من العراق سنة ثمان وعشرين^١ فعلوا من ذلك كثيراً وأكثروا الصدقة حتى رخص سومُ الذهب بمكة ، وانتهى صرفُ المِثقال إلى ثمانية عشر درهماً نُقْرة لكثرة ما تصدّقوا به من الذهب . وفي هذه السنة ذُكر اسمُ السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبّة زمزم .

ذكر الانفصال عن مكة ، شرفها الله تعالى

وفي الموفى عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الخويج ، بجّامين مهملين ، وهو من أهل الموصل ، وكان يلي إمارة الحاجّ بعد موت الشيخ شهاب الدين قَلْبَندَر ؛ وكان شهاب الدين سخيّاً فاضلاً عظيمَ الحرمة عند سلطانه ، يحلّي لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ؛ ولما خرجتُ من مكة ، شرفها الله تعالى ، في صحبة الأمير البهلوان المذكور اُكترى لي شقّة مسخرة^٢ إلى بغداد ، ودفع إجارته من ماله وأنزلني في جواره .

وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مرّ في جمع من العراقيّين والخُرّاسانيين والفارسيّين والأعاجم لا يُحصى عديدُهم تموجُ بهم الأرض موجاً ، ويسبّرون سيرَ السحاب المتراكم ، فمن خرج عن الركب لحاجة ، ولم تكن له علامة يستدلّ بها على موضعه ، ضلّ عنه لكثرة الناس .

وفي هذا الركب نواضحُ كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمالُ لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يُصيبه مرض ، وإذا نزل الركب طُبِخَ الطعام في قُدُور نحاس عظيمة تسمّى الدسّوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ، ومن لا زاد معه .

١ سنة ١٣٢٧ م .

٢ المحارة : شبه الهودج .

وفي الركب جملة من الجمال يُحْمَل عليها من لا قدرة له على المشي ،
كلّ ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه .

قال ابن جرّي : كَرَّمَ الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمرها في
الكرم ، وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في الندى
والفضل ، أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قانع الكفار والآخذ للإسلام بالثار
أمير المسلمين أبي يوسف ، قدس الله أرواحهم الكريمة ، وأبقى الملك في
عقبهم الطاهر إلى يوم الدين .

وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه ،
وهم يسرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار ، والمحارات ، فترى الأرض
تتلاّ نورا ، والليل قد عاد نهراً ساطعاً . ثمّ رحلنا من بطن مرّ إلى عسفان ،
ثمّ إلى خليص ، ثمّ رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادي السمك ، ثمّ رحلنا خمسا
ونزلنا في بدر ، وهذه المراحل ثنتان في اليوم : إحدهما بعد الصبح والأخرى
بالعشيّ ، ثمّ رحلنا من بدر فترلنا الصفراء ، وأقمنا بها يوماً مستريحين ، ومنها
إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ، ثمّ رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله ،
صلّى الله عليه وسلّم ، وحصلت لنا زيارة رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ،
ثانياً ، وأقمنا بالمدينة ، كرّمها الله تعالى ، ستّة أيّام ، واستصبحنا منها الماء
لمسيرة ثلاث ، ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس ، فتزودنا منه الماء
من حسيات يحفرون عليها في الأرض ، فيُنبتون ماء عذباً معيناً .

ثمّ رحلنا من وادي العروس ، ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض
مدّ البصر ، فتنسّمنا نسيمه الطيب الأرج ، ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء
يُعرف بالعُسَيْلَة ، ثمّ رحلنا عنه ، ونزلنا ماء يُعرف بالثقرة ، فيه آثارُ مصانع
كالصهاريج العظيمة ، ثمّ رحلنا إلى ماء يُعرف بالقارورة ، وهي مصانع مملوءة
بماء المطر ممّا صنعتته زُبَيْدَة ابنة جعفر ، رحمها الله ونفعها ، وهذا الموضع
هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيحُ الهواء نقيّ التربة معتدلٌ في كلّ

فصل ، ثمّ رحلنا من القارورة ، ونزلنا بالحاجر ، وفيه مصانع للماء ، وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار^١ .

ثمّ رحلنا ونزلنا سميرة ، وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون ، وماؤها كثير في آبار إلاّ أنّه زُعاق ، ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحُجّاج بالثياب الخام ، ولا يبيعون بسوى ذلك . ثمّ رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق ، وهو في بيدا من الأرض وفي أعلاه ثقب نافذ تحرقه الريح ؛ ثمّ رحلنا منه إلى وادي الكروش ، ولا ماء به ، ثمّ أسرينا ليلاً ، وصَبَحْنَا حصن فيد ، وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض ، وساكنوه عرب يتعيّشون مع الحاج في البيع والتجارة ، وهناك يترك الحُجّاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكّة ، شرفها الله تعالى ، فإذا عادوا وجدوه ، وهو نصف الطريق من مكّة إلى بغداد ، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثني عشر يوماً في طريق سهل به المياه في المصانع .

ومن عادة الرّكب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب إرهاباً للعرب المجتمعين هناك وقطعاً لأطماعهم عن الركب ، وهناك لقينا أمير العرب ، وهما فياض وحيار ، وهما ابنا الأمير مُهَسَّن بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يُحصون كثرة ، فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم ، وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه .

ثمّ رحلنا ونزلنا الموضع الأجر ، ويشتهر باسم عاشقين جميل وبشينة ؛ ثمّ رحلنا ونزلنا بالبيداء ؛ ثمّ أسرينا ونزلنا زَوْد ، وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة ، وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ، وهناك آبار ماء ليست بالعذبة ، ثمّ رحلنا ونزلنا الثعلبية ، ولها حصن خرب بإزائه مصنع هائل يُنزل إليه في درج ، وبه من ماء المطر ما يعم الرّكب ، ويجتمع من العرب بهذا الموضع

١ الجفار ، الواحدة الجفرة : الأرض المتسعة .

جمعٌ عظيمٌ فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ، ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاثٌ مراحل ؛ ثمّ رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم ، وهو مشهد على الطريق عليه كَـتَومٌ عظيم من حجارة ، وكلّ من مرّ به رجمه ، ويُذكر أنّ هذا المرجوم كان رافضياً ، فسافر مع الرّكب يريد الحجّ فوَقعت بينه وبين أهل السنّة من الأتراك مشاجرة فسبّ بعض الصحابة ، فقتلوه بالحجارة ، وبهذا الموضع بيوتٌ كثيرة للعرب ، ويقصدون الرّكب بالسمن واللبن وسوى ذلك ، وبه مصنع كبير يعمّ جميع الركب ممّا بنته زبيدة ، رحمة الله عليها ، وكلّ مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكّة وبغداد فهي من كريم آثارها ، جزاها الله خيراً ووفى لها أجرها ، ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد .

ثمّ رحلنا ونزلنا موضعاً يُعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي ، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزوّدوا منهما ؛ ثمّ رحلنا ونزلنا موضعاً يُعرف بالتناير^١ ، وفيه مصنع ممتلئ بالماء ، ثمّ أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزماله ، وهي قرية معمورة بها قصرٌ للعرب ومصنعان للماء وآبارٌ كثيرة ، وهي من مناهل هذا الطريق ؛ ثمّ رحلنا فنزلنا الهَيْثَمين ، وفيه مصنعان للماء ؛ ثمّ رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ، وصعدنا العقبة في اليوم الثاني ، وليس بهذا الطريق وعراً سواها ، على أنّها ليست بصعبة ولا طائلة ؛ ثمّ نزلنا موضعاً يسمّى واقصة فيه قصرٌ كبير ومصانع للماء معمورٌ بالعرب ، وهو آخر مناهل هذا الطريق .

وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور إلاّ مشاريع ماء الفرات ، وبه يتلقّى كثيرٌ من أهل الكوفة الحاجّ ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويبيّء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة ، ثمّ نزلنا موضعاً يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء، ثمّ نزلنا موضعاً يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ، ثمّ نزلنا موضعاً يعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بيداء من الأرض بانه ارتفاع مجلّة بقرون

١ التناير ، الواحد تنور : مفرج الماء .

الغزلان ولا عمارة حولها ؛ ثم نزلنا موضعاً يُعرف بالعُذيب ، وهو واد مخصب عليه عمارة ، وحوله فلاة خصبية ، فيها مسرح للبصر .

ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام وأذلّ المجوس عبدة النار ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم ، وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد ، رضي الله عنه ، وخربت ، فلم يبقَ منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة ، وفيها حدائق النخل ، وبها مشارع من ماء الفرات .

ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، بالنجف ، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق ، وأكثرها ناساً ، وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنة نظيفة ، دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقّالين والطبّاخين والحبّازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخبّاطين والقَصَصّارية ، ثم سوق العطّارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي ، عليه السلام ، وبلازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشاني ، وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشّه أحسن .

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويُدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيّام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ، ومن تلك المدرسة يُدخل إلى باب القبّة ، وعلى بابها الحُجّاب والنقّباء والطواشيّة^٢ ، فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر

١ الخوانق ، الواحدة خانقة : كالأديار عند النصارى .

٢ الطواشيّة : الخميّان .

الزائر ، فيقفون معه على العتبة ، ويستأذنون له ، ويقولون : عن أمركم يا أمير المؤمنين ! هذا العبدُ الضعيفُ يستأذن على دخوله للروضة العلية ، فإن أذنتم له ، وإلا رجع ، وإن لم يكن أهلاً لذلك فأنتم أهلُ المكارم والستر . ثم يأمرونه بتقبيل العتبة ، وهي من الفضة ، وكذلك العضادتان ، ثم يدخل القبة ، وهي مفروشة بأنواع البُسُط من الحرير وسواه ، وبها قناديل الذهب والفضة ، منها الكبارُ والصغارُ ، وفي وسط القبة مسطبةٌ مربعةٌ مكسوةٌ بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المُحكمة العمل ، مسمرةٌ بمسامير الفضة ، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء ، وارتفاعُها دون القامة ، وفوقها ثلاثةٌ من القبور يزعمون أن أحدها قبرُ آدم ، عليه الصلاة والسلام ، والثاني قبرُ نوح ، عليه الصلاة والسلام ، والثالث قبرُ عليّ ، رضي الله تعالى عنه . وبين القبور طُسُوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبرّكاً .

وللقبة بابٌ آخر عتبه أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يُفضي إلى مسجد مفروش بالبُسُط الحسان مستورةٌ حيطانُهُ وسقفُهُ بستور الحرير ، وله أربعةُ أبوابٍ عتباتُها فضةٌ ، وعليها ستورُ الحرير . وأهلُ هذه المدينة كلُّهم رافضيةٌ .

وهذه الروضة ظهرت لها كراماتٌ ثبتت بها عندهم أن بها قبرَ عليّ ، رضي الله عنه ، فمنها أن في ليلة السابع والعشرين من رجب ، وتسمّى عندهم ليلة المحيا ، يؤتى إلى تلك الروضة بكلّ مُقعد من العراقيين وخُرَّاسان وبلاد فارس والروم ، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك ، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جُعِلوا فوق الضريح المقدّس ، والناسُ ينتظرون قيامهم ، وهم بين مُصلٍّ وذاكِرٍ وتالٍ ومشاهدٍ للروضة ، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قامَ الجميعُ أصحاباً من غير سوء ، وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، عليّ وليّ الله .

وهذا أمرٌ مستفيضٌ عندهم سمعته من الثقات ، ولم أحضر تلك الليلة لكنني رأيتُ بمدرسة الضياف ثلاثةً من الرجال ، أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان ، وهم مُقعدون ، فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبروني أنهم لم يدركوا ليلة المحيا ، وأنهم منتظرون أوانها من عام آخر .

وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويُقيمون سوقاً عظيمة مدّة عشرة أيّام ، وليس بهذه المدينة مُغرّم ولا مَكّاسٌ ولا والٍ ، وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف ؛ وأهلها تجارٌ يسافرون في الأقطار ، وهم أهلٌ شجاعة وكرم ، ولا يُضامُ جارُهم . صَحبتُهم في الأسفار ، فحمدتُ صُحبَتهم ، لكنّهم غلّوا في عليّ ، رضي الله عنه .

ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذرُ للروضة نَذراً إذا برىء ؛ ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأساً من ذهب أو فضّة ويأتي به إلى الروضة فيجعله النقيبُ في الخزانة ، وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء . وخزانة الروضة عظيمةٌ فيها من الأموال ما لا يُضبط لكثرة .

ذكر نقيب الأشراف

ونقيبُ الأشراف مقدّم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكينٌ ، ومنزله رفيعة ، وله ترتيبُ الأمراء الكبار في سفره ، وله الأعلامُ والأطبال ، وتضرب الطبليخانة عندَ بابه مساءً وصباحاً ، وإليه حكم هذه المدينة ، ولا واليَ بها سواه ولا مَغْرَم فيها للسلطان ولا لغيره .

وكان النقيب في عهد دخولي إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي ، نسبة إلى بلده آوة من عراق العجم . أهلّها رافضة ، وكان قبله جماعة يلي كلّ واحد منهم بعد صاحبه ، منهم جلال الدين بن الفقيه ؛ ومنهم قيوام الدين بن طاووس ؛ ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد

الأوهري من عراق العجم ، وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها ؛ ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جمّاز بن شيحة الحسيني المدني .

حكاية الشريف أبي غرة

كان الشريف أبو غرة قد غلبَ عليه ، في أوّل أمره ، العبادة ، وتعلّم العلم ، واشتهر بذلك ، وكان ساكناً بالمدينة الشريفة ، كرّمها الله ، في جوار ابن عمّه منصور بن جمّاز أمير المدينة ، ثمّ إنّه خرج عن المدينة واستوطن العراق ، وسكن منها بالحلة ، فمات النقيب قوام الدين بن طاووس فاتفق أهلُ العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف ، وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد ، فأضاه ونفّذَ له اليرليغ ، وهو الظهير^١ بذلك ، وبُعِثت له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق ، فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد ، وتصرّف في الأموال تصرّفاً قبيحاً ، فرُفِعَ أمره إلى السلطان ، فلمّا علم بذلك أعمل السفر مُظهِراً أنّه يريد خراسان قاصداً زيارة قبر عليّ بن موسى الرضا بطوس ، وكان قصده الفرار .

فلمّا زارَ قبرَ عليّ بن موسى قدم هراة ، وهي آخر بلاد خراسان ، وأعلم أصحابه أنّه يريد بلاد الهند ، فرجعَ أكثرُهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان إلى السند ، فلمّا جاوز وادي السند ، المعروف ببنج آب ، ضربَ طوبله وأنفاره ، فراعَ ذلك أهلُ القرى ، وظنّوا أنّ التّراتيل للإغارة عليهم ، وأجفلوا إلى المدينة المسمّاة بأوجا ، وأعلموا أميرَها بما سمعوه ، فركب في عساكره ، واستعدّ للحرب ، وبعثَ الطلائع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرّجال والتجّار ممّن صحب الشريف في طريقه ، معهم الأبطالُ والأعلام ، فسألوهم عن شأنهم ، فأخبروهم أنّ الشريف نقيبَ العراق أتى وافداً على ملك

١ اليرليغ : لفظة غير عربية ولعلها تعني جواز. مرور ، أو صك مرور . الظهير : الممين .

الهند ، فرجع الطلائع إلى الأمير ، وأخبروه بكيفية الحال ، فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده .

ودخل الشريف مدينة أوجا ، وأقام بها مدة تُضربُ الأبطال على باب داره غدوة وعشيّاً وكان مولعاً بذلك .

ويذكر أنّه كان في أيام نقابته بالعراق تُضربُ الأبطالُ على رأسه ، فإذا أمسك النّقارُ عن الضرب يقول له : زد نقرةً يا نقّار ، حتى تُقَبّ بذلك .

وكتب صاحب مدينة أوجا إلى ملك الهند بحبر الشريف وضربه الأبطال بالطريق ، وعلى باب داره غدوة وعشيّاً ، ورفع الأعلام ، وعادة أهل الهند أن لا يرفع علماً ولا يتضرب طبلًا إلّا من أعطاه الملك ذلك ، ولا يفعله إلّا في السفر ، وأمّا في حال الإقامة ، فلا يُضربُ الطبلُ إلّا على باب الملك خاصّة بخلاف مصر والشام والعراق ، فإنّ الطبول تُضرب على أبواب الأمراء . فلمّا بلغ خبره ملك الهند كره فعله ، وأنكره وفعل في نفسه .

ثمّ خرج الأميرُ إلى حضرة الملك ، وكان الأميرُ كشلي خان ، والخان عندهم أعظمُ الأمراء وهو السّاكن بملتان كرسيّ بلاد السند ، وهو عظيمُ القدر عند ملك الهند يدعوه بالعمّ لأنّه كان ممّن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه ، قد قدم على حضرة ملك الهند ، فخرج الملك إلى لقائه ، فاتّفقَ أن كان وصول الشريف في ذلك اليوم ، وكان الشريفُ قد سبقَ الأميرَ بأميال ، وهو على حاله من ضرب الأبطال ، فلم يسرّعهُ إلّا السلطان في موكبهِ ، فتقدّمَ الشريفُ إلى السلطان ، فسلم عليه ، وسأله السلطان عن حاله ، وما الذي جاء به ، فأخبره ، ومضى السلطان حتّى لقي الأميرَ كشلي خان ، وعاد إلى حضرته . ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمرَ له بإنزال ولا غيره .

وكان الملك عازماً على السفر إلى مدينة دولة آباد ، وتسمّى أيضاً بالكِتْكَة ، وتسمّى أيضاً بالدّونجر (دوكير) وهي على مسيرة أربعين يوماً من مدينة دهلي

حضرة الملك ، فلما شرع في السفر بعث إلى الشريف بخمسمائة دينار دراهم ، وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً ، وقال لرسوله إليه : قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده ، فهذا زادُه ، وإن أراد السفر معنا ، فهي نفقته في الطريق ، وإن أراد الإقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع . فاغتم الشريف لذلك ، وكان قصده أن يُجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله ، واختار السفر صُحبة السلطان ، وتعلّق بالوزير أحمد بن إياس المدعو بخواجة جُهان وبذلك سمّاه الملك ، وبه يدعوه هو ، وبه يدعوه سائر الناس ، فإن من عادتهم أنه متى سمّى الملك أحداً باسم مضاف إلى الملك من عمادٍ أو ثقة أو قُطب ، أو باسم مضاف إلى الجُهان من صدر وغيره ، فبذلك يخاطبه الملك وجميعُ الناس ، ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة ، فأكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن إليه ورفع قدره ، ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه ، وأمر له بقريتين من قرى دور اباد ، وأمره أن تكون إقامته بها .

وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء والإحسان إليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعمارة الزوايا ، فأقام الشريف يستغلّ القريتين ثمانية أعوام ، وحصل من ذلك مالا عظيماً ، ثم أراد الخروج ، فلم يُمكنه فإنه من خدم السلطان لا يُمكنه الخروج إلا بإذنه ، وهو مُحبّ في الغرباء ، فقليلاً ما يأذن لأحدهم في السراح ، فأراد الفرار من طريق الساحل ، فردّ منه ، وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يُحاول قضية انصرافه ، فنلطف الوزير في ذلك ، حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند ، وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ، فأتى بها في بدرة ، فجعلها تحت فراشه ، ونام عليها لمحبتها في الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شيء منها ، فإنه كان بخيلاً ، فأصابه وجع في جنبه بسبب رُقاذه عليها ، ولم يزل يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره إلى أن توفّي بعد عشرين يوماً من وصول البدره إليه ، وأوصى بذلك

المال للشريف حسن الجعفري ، فتصدّق بحُملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدّهلي من أهل الحجاز والعراق .

وأهل الهند لا يورثون بيت المال ، ولا يتعرّضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ، ولو بلغ ما عسى أن يبلغ ، وكذلك السودان لا يتعرّضون لمال الأبيض ، ولا يأخذونه ، إنَّما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقّه . وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدّة ، وبها تزوّج بنت الشريف أبي عبد الله بن إبراهيم الشهير بالمكي ، ثمّ انتقل إلى جبل طارق ، فسكنه إلى أن استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء ، وكان بهيمة^١ من البهيم لا يُصطلى بناره خرق المعتاد في الشجاعة ، وله فيها أخبار شهيرة عند الناس ، وترك ولدين هما في كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي الشهير ببلاد المغرب وبالعراق ، وكان تزوّج أمّهما بعد موت أبيهما ، وهو محسن لهما جزاه الله خيراً .

ولما تحصّلت لنا زيارة أمير المؤمنين عليّ ، عليه السلام ، سافر الركب إلى بغداد . وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجّة ، وهم أهل تلك البلاد ، ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار إلّا في صُحبتهُم ، فاكثرْتُ جملاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن درّاج الخفاجي . وخرجنا من مشهد عليّ ، عليه السلام ، فنزلنا الحورنّوق موضع سكّى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء ، وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة . في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفُرات ، ثمّ رحلنا عنه فنزلنا موضعاً يُعرف بقائم الواثق ، وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب ، لم يبقَ منه إلّا صومعته .

ثمّ رحلنا عنه آخذين مع جانب الفُرات بالموضع المعروف بالعذار ، وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها أعراب يُعرفون بالمعادي ، وهم قطع الطريق

١ البهية : الشجاع الذي يستبهم مأثاه على أقرانه .

رافضيّة المذهب ، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخّروا عن رفقتنا فسلبواهم حتى النّعال والكشاكل^١ وهم يتحصّنون بتلك الغابة ، ويمتنعون بها ممّن يريدهم ، والسّباعُ بها كثيرة . ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل ثمّ وصلنا مدينة واسط .

مدينة واسط

وهي حسنة الأقطار ، كثيرة البساتين والأشجار ، بها أعلام يهْدَى الخير شاهدهم ، وتُهدى الاعتبار مشاهدهم ، وأهلُها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الإطلاق ، أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ، ويحيدون تجويده بالقراءة الصحيحة ، وإليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلّم ذلك .

وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ ، وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلّم القرآن ، عمّرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي ، وهو من كبار أهلها وفقهاها ، ويُعطي لكل متعلّم بها كسوة في السنة ، ويُجري له نفقته في كلّ يوم ، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة . وقد لقيته وأصافني وزودني تمرّاً ودراهم .

ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثاً بخارجها للتجارة ، فسُح لي زيارة قبر الولي أبي العبّاس أحمد الرفاعي ، وهو بقرية تُعرف بأُمّ عبيدة على مسيرة يوم من واسط ، فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني إليها ، فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد ، وهم قُطّان تلك الجهة ، وأركبني فرساً له ، وخرجتُ ظُهراً ، فبتُ تلك الدّيلة بحوش بني أسد ، ووصلنا في ظهر اليوم الثاني إلى الرّواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء ، وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبي العبّاس الرفاعي الذي قصدنا زيارته ،

١ لعل المراد بالكشاكل السراويلات .

وقد قدم من موضع سكنه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جدّه ، وإليه انتهت
السياحة بالرواق .

ولما انقضت صلاةُ العصر ضُربت الطبول والدقوف وأخذ الفقراء في
الرقص ثمّ صلوا المغرب ، وقدّموا السّمات ، وهو خبز الأرزّ والسمك واللّبن
والتمر ، فأكل الناس ثمّ صلّوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذّكر ، والشيخ أحمد
قاعد على سجادة جدّه المذكور ، ثمّ أخذوا في السّماع ، وقد أعدوا أحمالاً
من الحطب ، فأجّجوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرّع
فيها ، ومنهم من يأكلها بضمه حتى أطفأوها جميعها ، وهذا دأبهم ، وهذه الطائفة
الأحمدية مخصّصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعضّ بأسنانه على
رأسها حتى يقطعه .

حكاية الرقص في النار

كنتُ مررتُ بموضع يُقال له افقانبور من عمالة هَزار أمروها ، وبينها
وبين دهلي حضرة الهند مسيرةُ خمسٍ . وقد نزلنا بها على نهر يُعرفُ بنهر
السُرور ، وذلك في أوّان الشكّال ، والشكّال عندهم هو المطر وينزل في إبان
القيظ ، وكان السيلُ ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل ، فكلّ من يشرب
منه من إنسان أو بهيمة يموت لتزول المطر على الحشائش المسمومة ، فأقمنا على
النهر أربعة أيّام لا يقربه أحد ، ووصل إلى هنالك جماعةٌ من الفقراء في أعناقهم
أطواق الحديد وفي أيديهم ، وكبيرُهم رجلٌ أسود حالك اللون ، وهم من
الطائفة المعروفة بالحيدرية ، فباتوا عندنا ليلة وطلب منّي كبيرهم أن آتيه بالحطب
ليوقدوه عند رقصهم ، فكلفت والي تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالحمّار
(وسيّاتي ذكره) أن يأتي بالحطب فوجّه منه نحو عشرة أحمال ، فأضرموا فيه
النار بعد صلاة العشاء الآخرة ، حتى صارت جمرآ ، وأخذوا في السّماع ثمّ

دخلوا في تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها ؛ وطلب مني كبيرهم قميصاً فأعطيته قميصاً في النهاية من الرقة ، فلبسه وجعلَ يتمرغُ به في النار ويضربها بأكامه حتى طفئت تلك النار وخمدت ، وجاء إليّ بالقميص ، والنار لم تؤثر فيه شيئاً البتة ، فطال عجبي منه .

ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي ، نفع الله به ، عدتُ إلى مدينة واسط فوجدتُ الرفقة التي كنتُ فيها قد رحلت فلحققتها في الطريق ، ونزلنا ماء يُعرف بالهَضِيب ، ثمَّ رحلنا ونزلنا بوادي الكيراع ، وليس به ماء ، ثمَّ رحلنا ونزلنا موضعاً يُعرف بالْمُشِيرِب ، ثمَّ رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ، ثمَّ رحلنا فدخلنا ضحوة النهار إلى مدينة البصرة .

مدينة البصرة

فنزّلنا بها رباط مالك بن دينار ، وكنتُ رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناءً عالياً ، مثل الحصن ، فسألتُ عنه ف قيل لي هو مسجد عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وكانت البصرة من اتساع الحطة والفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها ؛ وبينه الآن وبينها ميلان ، وكذلك بينه وبين السور الأوّل المحيط بها نحو ذلك ، فهو متوسط بينهما .

ومدينة البصرة إحدى أمّهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الأرجاء المونقة الأفناء ذات البساتين الكثيرة ، والفواكه الأثيرة ، توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب ، وليس في الدنيا أكثر نخلاً منها فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة^١ ، ولقد بعثَ إليّ قاضيها حجة الدين بقوَصرة تمر يحملها الرجل على تكلف ، فأردتُ بيعها فبيعت بتسعة دراهم ، أخذ الحمّال

١ النقرة : ضرب من العملة الفضية .

منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل إلى السوق ، ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان ، وهو طيب كآته الجلاب .

والبصرة ثلاث محلات : إحداها محلة هُذيل ، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير من الكرماء الفضلاء ، أضافني وبعث إليّ بثياب ودرهم ؛ والمحلة الثانية محلة بني حرام ، كبيرها السيّد الشريف مجد الدين موسى الحسني ، ذو مكارم وفواضل ، أضافني وبعث إليّ التمر والسيلان والدرهم ، والمحلة الثالثة محلة العجم ، كبيرها جمال الدين بن اللوكي .

وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيما بينهم غريب . وهم يصلّون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين عليّ ، رضي الله عنه ، الذي ذكرته ثمّ يُسَدّ فلا يأتونه إلّا في الجمعة .

وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السّباع ، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان ، رضي الله عنه ، يقرأ فيه لما قُتل ، وأثر تغييره الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى « فسيفكيكهم الله وهو السميع العليم » .

حكاية اعتبار

شهدت مرّة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلمّا قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها لحن فيها لحناً كثيراً جليّاً ، فعجبتُ من أمره ، وذكرتُ ذلك للقاضي حجة الدين ، فقال لي : إن هذا البلد لم يبقَ به من يعرف شيئاً من علم النحو ؛ وهذه عبرة لمن تفكّر فيها ، سبحان مغير الأشياء ، ومقلّب الأمور ؛ هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رئاسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامه الذي لا يُنكرُ سبقه ، لا يُقيم خطبتيها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها .

ولهذا المسجد سبع صوامع إحداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر

عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، صعدت إليها من أعلى سطح المسجد ومعها بعض أهل البصرة ، فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مُسَجَّرٌ فيها كأنه مقبض مُمَلَّس البناء ، فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال : بحقّ رأس أمير المؤمنين عليّ ، رضي الله عنه ، تحركي ! وهزّ المقبض فتحرّكت الصومعة ، فجعلتُ أنا يدي في المقبض ، وقلتُ له وأنا أقول : بحقّ رأس أبي بكر خليفة رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، تحركي ، وهزّزت المقبض ، فتحرّكت الصومعة ، فعجبوا من ذلك .

وأهل البصرة على مذهب السّنة والجماعة ، ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ، ولو جرى مثل هذا بمشهد الحسين أو بالحلّة أو بالبحرين أو قمّ أو قاشان أو ساوة أو آوة أو طوس لهلك فاعله لأنّهم رافضةٌ غالية .

قال ابن جزّي : قد عاينتُ بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله صومعة تهتزّ من غير أن يُذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم ؛ وفي صومعة المسجد الأعظم بها ، وبنائها ليس بالقديم . وهي كأحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدالاً وارتفاعاً لا ميلَ فيها ولا زيغ ، صعدت إليها مرّة ، ومعها جماعة من الناس ، فأخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزّوها ، فاهتزّت حتى أشرتُ إليهم أن يكفّوا فكفّوا عن هزّها .

ذكر المشاهد المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة ، رضي الله عنهم ، وهو بداخل المدينة . وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ؛ وأهل البصرة يعظّمونه تعظيماً شديداً وحقّ له .

ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ،

١ جامورها : رأسها .

وابن عمته ، رضي الله عنهما ، وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه ، وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل .

ومنها قبر حليلة السعدية أم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من الرضاة ، رضي الله عنها ، وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ومنها قبر أبي بكر صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وعليه قبة . وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا سبيل لزيارته إلا في جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران .

ومنها قبر الحسن بن أبي الحسن البصري سيد التابعين ، رضي الله عنه ؛ ومنها قبر محمد بن سيرين ، رضي الله عنه ؛ ومنها قبر محمد بن واسع ، رضي الله عنه ؛ ومنها قبر عتبة الغلام ، رضي الله عنه ؛ ومنها قبر مالك بن دينار ، رضي الله عنه ؛ ومنها قبر حبيب العجمي ، رضي الله عنه ؛ ومنها قبر سهل بن عبد الله التستري ، رضي الله عنه .

وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم ، وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال . وبها سوى ذلك قبور الجحيم الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل .

وكان أمير البصرة حين ورودي عليها يسمي بركن الدين العجمي التوريزي أضافني فأحسن إلي .

وبالبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه ، والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها ، فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب ، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح ، فيستسقي أهل البصرة الماء لدورهم ، ولذلك يقال : إن ماءهم زُعاق .

قال ابن جُزَي : وبسبب ذلك كان هواء البصرة غيرَ جيّد وألوانُ أهلها مصفرةً كاسفة حتى ضُرب بهم المثل . وقال بعض الشعراء ، وقد أحضرت بين يدي الصاحب^١ أترجة :
 لله أترجٌ غَسداً بَيْنَنَا مُعَبِّراً عَن حالِ ذِي عِبرَةٍ
 لما كَسا اللهُ ثِيابَ الضَّنَا أهلَ الهوى وساكِنِي البَصْرَةِ

ثمَّ ركبْتُ من ساحل البصرة في صُنُوق ، وهو القارب الصغير ، إلى الأُبُلَّة ، وبينها وبين البصرة عشرةُ أميال ، في بساتين متصلة ونخيل مُظَلَّة عن اليمين واليسار ، والبيّاعة في ظلال الأشجار يبيعونَ الخبزَ والسّمكَ والتمرَ واللّبنَ والفواكه .

وفيما بين البصرة والأُبُلَّة متعبّد سهل بن عبد الله التستري ، فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء ممّا يحاذيه من الوادي ، ويدعون عند ذلك تبرّكاً بهذا الولي ، رضي الله عنه ، والنواتية يحرفون في هذه البلاد وهم قيام . وكانت الأُبلة مدينة عظيمة يقصدها تجّار الهند وفارس فخرت ، وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالّة على عِظَمها ، ثمَّ ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الأُبلة يسمّى بمغامس ، وذلك فيما بعد المغرب ، فصبحنا عبّادان ، وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها ، وفيها مساجد كثيرة ومتعبّدات ورباطات للصّالحين ، وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال .

قال ابن جُزَي : عبّادان كانت بلدًا فيما تقدّم ، وهي مُجْدبة لا زرع بها وإنّما يجلب إليها ، والماء أيضاً بها قليل ، وقد قال فيها بعض الشعراء :

مَنْ مُهْلِغٌ أُنْدَلُساً أَنْتِي حَلَلْتُ عِبَّادَانَ أَقْصَى الثَّرَى

١ لعل المراد الصاحب بن عباد ، الوزير والأديب .

أَوْحَشُ مَا أَبْصَرْتُ لَكِنِّي قَصَدْتُ فِيهَا ذِكْرَهَا فِي الْوَرَى
الْحُبْزُ فِيهَا يَتَهَادَوْنَهُ وَشُرْبَةُ الْمَاءِ بِهَا تُشْتَرَى

وعلى ساحل البحر منها رابطة تُعرف بالنسبة إلى الخضر والياس ، عليهما السلام ، وبإزائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ، ويتعيّشون من فتوحات الناس ، وكلّ من يمرّ بهم يتصدّق عليهم . وذكر لي أهل هذه الزاوية أن بعبادان عابداً كبير القدر ، ولا أنيس له ، يأتي هذا البحر مرّة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهراً ثمّ لا يرى إلّا بعد تمام شهر ، وهو على ذلك منذ أعوام ؛ فلمّا وصلنا بعبادان لم يكن لي شأن إلّا طلبه ، فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبّدات ، وانطلقت طالباً له ، فجئت مسجداً خرباً ، فوجدته يصلي فيه ، فجلستُ في جانبه فأوجز في صلاته ، ولما سلّم أخذ بيدي وقال لي : بَلَغَكَ اللهُ مرادك في الدّنيا والآخرة ؛ فقد بلغتُ بحمد الله مرادي في الدّنيا ، وهو السياحة في الأرض ، وبلغتُ من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه ، وبقيت الأخرى ، والرّجاء قويّ في رحمة الله ، وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة .

ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه ، فذهبوا إليه فلم يجدوه ، ولا وقعوا له على خبر ، فعجبوا من شأنه .

وعدنا بالعشي إلى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء الآخرة . ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي بعبادان كلّ ليلة فيُسرّج السُّرُج بمساجدها ثمّ يعود إلى زاويته ، فلمّا وصل إلى بعبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية ، وقال له : أوصل هذه إلى الضيف الذي قدم اليوم . فقال لنا الفقير عند دخوله علينا : من رأى منكم الشيخ اليوم ؟ فقلتُ له : أنا رأيته . فقال : يقول لك هذه ضيفتك . فشكرتُ الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فأكلنا منها أجمعون ، وما أكلتُ قطّ سمكاً أطيب منها ، وهجس

في خاطري الإقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفني النفس للّجوج عن ذلك .

ثمّ ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ، ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك ، وكنتُ أحبّ قصد بغداد العراق . فأشار عليّ بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللّور ثمّ إلى عراف العجم ثمّ إلى عراق العرب ، فعملتُ بمقتضى إشارته ، ووصلنا بعد أربعة أيّام إلى بلدة ماجول ، على وزن فاعول وجيمها معقودة^١ . وهي صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا أنّه يخرج من بحر فارس ، وأرضها سبّخة لا شجر فيها ولا نبات ، ولها سوقٌ عظيمة من أكبر الأسواق ، وأقمتُ بها يوماً واحداً ثمّ اكترتُ دابةً لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز إلى ماجول ، وسرنا ثلاثاً في صحراء يسكنها الأكراذ في بيوت الشعر ، ويقال : ان أصلهم من العرب . ثمّ وصلنا إلى مدينة رامز ، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ، ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ، ولقيتُ عنده رجلاً من أهل العلم والدين والورع هندي الأصل يدعى بهاء الدين ويسمّى إسماعيل ، وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريّا الملتاني ، وقرأ على مشايخ توريز وغيرها .

وأقمتُ بمدينة رامز ليلة واحدة ثمّ رحلنا منها ثلاثاً في بسيط فيه قرى يسكنها الأكراذ وفي كلّ مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللّحم والحلواء . وحلواؤهم من ربّ العنب مخلوط بالدقيق والسمن ، وفي كلّ زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخدام للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ، ثمّ وصلت مدينة تُسَمَّى ، وهي آخر البسيط من بلاد أتابك وأوّلُ الجبال ، مدينة كبيرة رائقة نظرة ، وبها البساتين الشريفة والرياضُ المُنيّفة ، ولها المحاسنُ البارعة والأسواقُ الجامعة ، وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد ؛ ووالي هذه

١ قوله : وجيمها معقودة ، هكذا في الأصل ولم نجد لهذه اللفظة معنى موافقاً ، ولعل المراد أنها تلفظ كالجيم المصرية .

المدينة ينسب إلى سهل بن عبد الله ، ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيتام الحر ، ولم أرَ كزرقته إلا نهر بلخشان ، ولها باب واحد للمسافرين يسمى درّوازة دَسْبُول ، والدروازة عندهم الباب . ولها أبوابٌ غيره شارعة إلى النهر ، وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب ، والنهر عميق ، وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلّة .

قال ابن جُزي : وفي هذا النهر يقول بعضهم .

أَنْظُرْ لَشَاذِرِوَانِ تَسْتَرِ وَأَعْجَبِ مِنْ جَمْعِهِ مَاءِ لِرِيّ بِلَادِهِ
كَكَمِّي قَوْمٍ جُمِعَتْ أَمْوَالُهُ ، فَغَدَا يُفَرَّقُهَا عَلَى أَجْنَادِهِ ١

والفواكه بتستر كثيرة ، والخيرات متيسرة ولا مثل لأسواقها في الحسن ، وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ويندرون لها الندور ، ولها زاوية بها جماعة من الفقراء ، وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب .

وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الإمام الصالح المتفّن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الإمام العالم صدر الدين سليمان ، وهو من ذرية سهل بن عبد الله ، وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل ، جامع بين العلم والدين والصلاح والإيثار ، وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان ، له أربعة أولاد : سُنْبُل وكافور وجوهر وسرور ، أحدهم موكل بأوقاف الزاوية ، والثاني متصرف فيما يحتاج إليه من النفقات في كل يوم ، والثالث خديم السّماط بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسقّائين والفرّاشين ، فأقمت عنده ستة عشر يوماً فلم أرَ أعجب من ترتيبه ولا أرغد

١ الكمي : الفارس الشجاع المتكفي بالسلاح .

من طعامه ، يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الأربعة من الأرزّ المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء .

وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ، ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغرُ لديّ كلّ واعظٍ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ، ولم ألقَ فيمن لقيتهم مثله . حضرت يوماً عنده ببستانٍ له على شاطئ النهر ، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبرائها وأتى الفقهاء من كلّ ناحية فأطعم الجميع ثمّ صلّى بهم صلاة الظهر ، وقام خطيباً وواعظاً ، بعد أن قرأ القرآن أمامه بالثلاحين المبكية والتغيمات المحركة المهيّجة ، وخطب خطبةً بسكينة ووقار ، وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثمّ ترامت عليه الرقاع من كلّ ناحية . ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرموها إلى الواعظ فيجيب عنها ، فلمّا رمي إليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدةً بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه ، وحان وقت صلاة العصر فصلّى بالقوم ، وانصرفوا ، وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة ، وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجزّ نواصيهم ، وكانوا خمسة عشر رجلاً من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك ، وعشرة رجال من عوام تستر .

حكاية الشيخ السخي

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى ، وهذه البلاد يُحَمّ داخلها في زمان الحرّ كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه ، وأصابني الحمى أصحابي أيضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني ، وقام الشيخ بتجهيزه من كلّ ما يحتاج إليه الميت ، وصلّى عليه ، وتركت بها صاحباً لي يُدعى بهاء الدين الخثي فمات بعد سفري .

وكنْتُ حين مرضي لا أشتهي الأطعمة التي تُصنعُ لي بمدرسته ، فذكر لي الفقيه شمس الدين السَّندي من طلبتها طعاماً فاشتهيته ، ودفعتُ له دراهم ، وطبخَ لي ذلك الطعام بالسوق ، وأتى به إليّ فأكلتُ منه ، وبلغَ ذلك الشيخ فشقَّ عليه ، وأتى إليّ وقال لي : كيفَ تفعلُ هذا وتطبخ الطعام في السوق ؟ وهلاًّ أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما اشتهيته ! ثمّ أحضر جميعهم وقال لهم : جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فأتوا إليه به واطبخوا له ما يشاؤه ، وأكد عليهم في ذلك أشدّ التأكيد ، جزاه الله خيراً .

ثمّ سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً في جبال شائخة ، وبكل منزل زاوية كما تقدّم ذكرُ ذلك ، ووصلنا إلى مدينة إيندج ، وتسمّى أيضاً مال الأمير ، وهي حضرة السلطان أتابك ، وعند وصولي إليها اجتمعتُ بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى ، وله النظر في جميع الزوايا ، وهم يسمونها المدرسة ، والسلطان يعظّمه ويقصد زيارته ، وكذلك أربابُ الدّولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوّاً وعشياً ، فأكرمّني وأضافني وأنزلني بزاوية تُعرف باسم الدّينوري ، وأقمتُ بها أياماً ، وكان وصولي في أيّام القيظ ، وكنا نصلي صلاة الليل ثمّ ننام بأعلى سطحها ثمّ ننزل إلى الزاوية ضحوة ، وكان في صحتي اثنا عشر فقيراً منهم إمامٌ وقارئان مُجيدان وخادمٌ ونحنُ على أحسن ترتيب .

ذكر ملك إيندج وتستر

وملك إيندج في عهد دخولي إليها السلطان أتابك أفراسيات ابن السلطان أتابك أحمد ، وأتابك عندهم سِمّةٌ لكلّ من يلي هذه البلاد من ملك ، وتسمّى هذه البلاد بلاد اللّور ؛ وولي هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف ، وولي يوسف بعد أبيه أتابك أحمد ، وكان أحمد المذكور ملكاً صالحاً سمعتُ من الثقات ببلاده أنّه عمّر أربعمائة وستين زاوية ببلاده ، منها بحضرة إيندج أربعٌ وأربعون ،

وقسم خراج بلاده أثلاثاً : فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس ، والثلث منه لمرتّب العساكر ، والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ، ويبيعُ منه هديةً لملك العراق في كلّ سنة ، وربّما وفد عليه بنفسه .

وشاهدتُ من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها في جبال شاذحة ، وقد نُحِتَت الطرق في الصخور والحجارة وسُوّيت ووسّعت بحيث تصعدُها الدوابّ بأحمالها ، وطولُ هذه الجبال مسيرةُ سبعةَ عشر في عرض عشرة ، وهي شاهقة متّصل بعضها ببعض تشقّقها الأنهارُ ، وشجرُها البَلُوط ، وهم يصنعون من دقيقه الخبز ، وفي كلّ منزل من منازلها زاوية يسمّونها المدرسة ، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابّته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه ، فإنّ عاداتهم أن يأتي خادمُ المدرسة فيعدّ من نزل بها من الناس ويُعطي كلّ واحد منهم قرصين من الخبز ولحماً وحلواء ، وكلّ ذلك من أوقاف السلطان عليها . وكان السلطان أتابك أحمد زاهداً صالحاً ، كما ذكرناه ، يلبّس تحت ثيابه ممّا يلي جسده ثوب شعر .

حكاية عادة أهل ليندج في مآتم امرائهم

قدم السلطان أتابك أحمدُ مرّةً على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصّه : إنّ أتابك يدخل عليك وعليه الدّرع ، وطنّ ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعاً ، فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقة ، فدخلَ عليه يوماً ، فقامَ إليه الأمير الجوبانُ عظيمُ أمراء العراق والأمير سويته أميرُ ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق ، وأمسكوا بثيابه كأنّهم يمازحونه ويضاحكونه ، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ، ورآه السلطان أبو سعيد ، وقامَ إليه وعانقه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقال له : سنّ أطباً ، ومعناه بالتركية أنت أبي ، وعوّضه عن هديته بأضعافها ، وكتبَ له اليرليغ ،

وهو الظهير ، أن لا يُطالبه بهديّة بعدها هو ولا أولاده .

وفي تلك السنة توفي ، وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ، ثمّ ولي أخوه افراسياب ، ولما دخلتُ مدينة إيدج أردتُ رؤية السلطان افراسياب المذكور ، فلم يأت لي ذلك بسبب الله لا يخرج إلاّ يوم الجمعة لإدماحه الحمر ، وكان له ابنٌ هو ولي عهده ، وليس له سواه ، فمرض في تلك الأيام ، ولما كان في إحدى الليالي أتاني أحد خُدّامه وسألني عن حالي ، فعرفته ، وذهب عني ، ثمّ جاء بعد صلاة المغرب ، ومعه طيفوران^١ كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة ، وخريطة فيها دراهم ، ومعه أهلُ السّماع بآلاتهم ، فقال : اعملوا السّماع حتّى يرهج^٢ الفقراء ويدعوا لابن السلطان ، فقلتُ له : إنّ أصحابي لا يدرون بالسّماع ولا بالرقص ، ودعونا للسلطان ولولده ، وقسمت الدراهم على الفقراء . ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض المذكور .

ولما كان من الغد دخلَ عليّ شيخُ الزاوية وأهل البلد وقالوا : إن كهراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعرض ، فينبغي لك أن تذهب في جملتهم ، فأبيتُ عن ذلك ، فعزموا عليّ ، فلم يكن لي بدٌّ من المسير . فسرتُ معهم ، فوجدتُ مشور^٣ دار السلطان ممثلاً رجلاً وصبياناً من المماليك وأبنساء الملوك والوزراء والأجناد ، وقد لبسوا التلابيس وجلال الدواب ، وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جرّ ناصيته ، وانقسموا فرقتين فرقةً بأعلى المشور ، وفرقةً بأسفله ، وتزحف كل فرقة إلى الأخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلين : خوتند كارما ، ومعناه مولاي أنا (مولانا) ، فرأيت من ذلك أمراً هائلاً ومنظراً فظيماً لم أعهد مثله .

١ الطيفور : ضرب من السلال ، أو من الآنية .

٢ يرهج : يهيج بعضهم بمضاً .

٣ مشور : محل الاجتماع للشورى كالردمة والساحة وما شاكل .

حكاية ماتم ابن السلطان

ومن غريب ما اتفق لي يومئذٍ أني دخلتُ فرأيتُ القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا إلى حيطان المشور وهو غاصّ بهم من جميع جهاته ، وهم بين بك ومتباك ومُطرق ، وقد لبسوا فوق ثيابهم ثياباً خامةً من غليظ القطن غير محكمة الخياطة ، بطائنها إلى أعلى ووجوها ممّا يلي أجسادهم ، وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خريقة أو مِثْرَر أسود ، وهكذا يكون فعلهم إلى تمام أربعين يوماً ، وهي نهاية الحزن عندهم . وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة . فلما رأيتُ جهات المشور غاصّة بالناس نظرتُ يميناً وشمالاً أرتادُ موضعاً لجلوسي فرأيتُ هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر ، وفي إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الأسفار ، فتقدّمتُ إلى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا إقدامي نحوه ، وعمجوا مني ، وأنا لا علم عندي بشيء من حاله ، فصعدتُ السقيفة ، وسلمتُ على الرجل فردّ عليّ السلام ، وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام ، وهم يسمّون ذلك نصف القيام . وقعدتُ في الركن المقابل له ثمّ نظرتُ إلى الناس ، وقد رموني بأبصارهم جميعاً ، فعجبتُ منهم . ورأيتُ الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة ، وأشار إليّ أحدُ القضاة أن أنحطّ إلى جانبه . فلم أفعل ، وحينئذٍ استشعرتُ أنه السلطان .

فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذي ذكرناه قبل ، فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل ، فقام إليه وجلس فيما بيني وبينه ، فحينئذٍ علمتُ أن الرجل هو السلطان . ثمّ جيء بالحنّازة ، وهي بين أشجار الاترج والليمون والنارنج^١ وقد ملأوا أغصانها بشمارها . والأشجار بأيدي الرجال

١ النارنج : ما يسمى بليمون « بوصفير » .

فكأنّ الجنّازة تمشي في بستان ، والمشاعل في رماح طوال بين يديها ، والشمع كذلك ، فصلّتي عليها . وذهبت الناس معها إلى مدفن الملوك ، وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة ، وهناك مدرسة عظيمة يشقّها النهر ، وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ، ويحفّ بها بستان عظيم ، وبها الطعام للوارد والصادر .

ولم أستطع أن أذهب معهم إلى مدفن الجنّازة لبعد الموضع فعدت إلى المدرسة . فلمّا كان بعد أيام بعث إليّ السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولاً يدعوني إليه ، فذهبت معه إلى باب يُعرف بباب السرّ وصعدنا في درج كثيرة إلى أن انتهينا إلى موضع لا فرش به لأجل ما هم فيه من الحزن ، والسلطان جالس فوق ميخدة وبين يديه آيتان قد غطّيتا ؛ إحداهما من الذهب ، والأخرى من الفضة ؛ وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه ، وقعدت عليها ، وليس بالمجلس إلّا حاجبه الفقيه محمود ، ونديم له لا أعرف اسمه ، فسألني عن حالي وبلادي وسألني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز ، فأجبتُه عن ذلك ، ثمّ جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لي السلطان : هذا مولانا فضيل ؛ والفقيه ببلاد الأعاجم كلّها إنّما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ، ثمّ أخذ في الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لي أن السكر غالب عليه وكنت قد عرفت إدمانه الخمر ، ثمّ قال لي باللسان العربي ، وكان يحسنه :
تكلّم !

فقلت له : إن كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتأبك أحمد المشهور بالصلاح والزهد ، وليس فيك ما يقدر في سلطنتك غير هذا ، وأشرت إلى الآيتين ، فحجل من كلامي وسكت ، وأردت الانصراف ، فأمرني بالجلوس ، وقال لي : الاجتماع مع أمثالك رحمة ، ثمّ رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت . وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده ، فنزل الفقيه محمود في طلبه . وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس ، فوجده في طاق هنالك

فأتى إليّ به فأخجلني برّه ، واعتذرتُ إليه ، فقبّلَ نعلي حينئذ ، ووضعه على رأسه وقال لي : باركَ الله فيك ! هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك ، والله إليّ لأرجو أن يؤثر ذلك فيه .

ثمّ كان رحيلي من حضرة لايدج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم . وأقيمتُ بها أياماً ، وبعث إليّ السلطان بجملة دنانير ، وبعث بمثلها لأصحابي ، وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة ، وفي كلّ ليلة نزل بمدرسة فيها الطعام ، فمنها ما هو في العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ، ولكن يُجلبُ إليها جميع ما تحتاجُ إليه .

وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تُعرفُ بمدرسة كريبو الرخّ ، وهي آخر بلاد هذا الملك ، وسافرنا منها في بسيط من الأرض كثير المياه من عُمالة مدينة أصفهان، ثمّ وصلنا إلى بلدة أُشترُكان ، وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ، ثمّ رحلنا منها إلى مدينة فيروزان ، واسمها كأنه تثنية فيروز ، وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر ، فرأينا أهلها قد خرجوا لتشيع جنازة ، وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل ، واتبعوها بالزماير والمغنين بأنواع الأغاني المطربة ، فعجبنا من شأنهم ، وبتنا بها ليلة .

ومررنا بالغد بقرية يُقالُ لها نبلان وهي كبيرة على نهر عظيم ، وإلى جانبه مسجد في النهاية من الحسن تصعدُ إليه في درج وتحفّه البساتين ، وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقُرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ، ووصلنا بعد العصر إلى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخّمة^١) .

ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها إلّا أنّها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بين أهل السنّة والروافض ، وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا

١ لعل المراد بالفاء المعقودة أنّها تلفظ كحرف الفاء الذي يوضع عليه اليوم ثلاث نقط .

يزالون في قتال ، وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين ، وهم يوبسونه ويدّخرونه ، ونواه ينكسر عن لوز حلو ، ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم ، والأعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله إلا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم ، وقشره أخضر ، وداخله أحمر ويدّخر كما تدّخر الشريحة بالمغرب ، وله حلاوة شديدة ، ومن لم يكن أليف أكله فإنه في أول أمره يُسهله ، وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان .

وأهل أصفهان حسان الصور ، وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة . وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة ، وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له : اذهب معي لتأكل نانّ وماس ، والنانّ بلسانهم الخبز ، والماس اللبن ، فإذا ذهب معه أطعمته أنواع الطعام العجيب مباحياً له بذلك . وأهل كل صناعة يقدّمون على أنفسهم كبيراً منهم يسمونه الكلو ، وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات ، وتكون الجماعة من الشبان الأعزاب ، وتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضاً مظهرين لما قدروا عليه من الإمكان ، محتفلين في الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم .

ولقد ذكر لي أنّ طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحريز .

وكان نزولي بأصفهان في زاوية تُنسب للشيخ عليّ بن سهل تلميذ الجنيّد ، وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ، ويتبركون بزيارتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر . وبها حمام عجيب مفروش بالرخام ، وحيطانه بالقاشاني ، وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحداً في دخوله شيء . وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح وليّ الله شمس الدين محمد ابن محمود بن علي المعروف بالرجاء . وأخوه العالم المقتي شهاب الدين أحمد ؛

أَقَمْتُ عِنْدَ الشَّيْخِ قُطْبِ الدِّينِ هَذِهِ الزَّوَايَةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَرَأَيْتُ مِنْ اجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَحُبِّهِ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَتَوَاضُعِهِ لَهُمْ مَا قَضَيْتُ مِنْهُ الْعَجَبَ . وَبَالِغٍ فِي إِكْرَامِي ، وَأَحْسَنَ ضِيَافَتِي وَكَسَانِي كَسَوَةَ حَسَنَةً ، وَسَاعَةً وَصُولِي الزَّوَايَةَ بَعَثَ إِلَيَّ بِالطَّعَامِ وَبِثَلَاثِ بَطِيخَاتٍ مِنَ الْبَطِيخِ الَّذِي وَصَفَنَاهُ آنَفًا وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتَهُ قَبْلَ وَلَا أَكَلْتَهُ .

كِرَامَةُ لِهَذَا الشَّيْخِ

دَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا بِمَوْضِعِ نَزُولِي مِنَ الزَّوَايَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ يُشْرِفُ عَلَى بَسْتَانٍ لِلشَّيْخِ ، وَكَانَتْ ثِيَابُهُ قَدْ غُسِلَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَنُشِرَتْ فِي الْبَسْتَانِ ، وَرَأَيْتُ فِي جَمَلَتِهَا جَبَّةً بَيْضَاءَ مَبْطُنَةً تَدْعِي عَنْدهُمْ هَزْرَمِيخِي ، فَأَعْجَبْتَنِي ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مِثْلُ هَذِهِ كُنْتُ أُرِيدُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ الشَّيْخُ نَظَرَ فِي نَاحِيَةِ الْبَسْتَانِ ، وَقَالَ لِبَعْضِ خُدَّامِهِ : ائْتِنِي بِذَلِكَ الثَّوبِ الْهَزْرَمِيخِي ! فَأَتَوْا بِهِ . فَكَسَانِي إِيَّاهُ ، فَأَهْوَيْتُ إِلَى قَدَمَيْهِ أَقْبَلْتُهُمَا ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَلْبَسَنِي طَاقِيَةً مِنْ رَأْسِهِ ، وَيَجِيزَنِي فِي ذَلِكَ بِمَا أَجَازَهُ وَالِدُهُ عَنْ شَيْوَحِهِ ، فَأَلْبَسَنِي إِيَّاهَا فِي الرَّابِعِ عَشَرَ لِحَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ بِزَاوَيْتِهِ الْمَذْكُورَةِ كَمَا لَبَسَ مِنْ وَالِدِهِ شَمْسَ الدِّينِ ، وَلَبَسَ وَالِدُهُ مِنْ أَبِيهِ تَاجَ الدِّينِ مُحَمَّدٍ ، وَلَبَسَ مُحَمَّدٌ مِنْ أَبِيهِ شَهَابَ الدِّينِ عَلِيَّ الرَّجَاءِ ، وَلَبَسَ عَلِيٌّ مِنَ الْإِمَامِ شَهَابِ الدِّينِ أَبِي حَفْصِ عَمْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ، وَلَبَسَ عَمْرٌ مِنَ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ ضِيَاءَ الدِّينِ أَبِي النَّجِيبِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ، وَلَبَسَ أَبُو النَّجِيبِ مِنْ عَمِّهِ الْإِمَامِ وَحِيدِ الدِّينِ عَمْرٌ ، وَلَبَسَ عَمْرٌ مِنَ وَالِدِهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَعْرُوفِ بِعَمَّوِيَّةٍ ، وَلَبَسَ مُحَمَّدٌ مِنَ الشَّيْخِ أَخِي فَرَجِ الزَّنْجَانِيِّ ، وَلَبَسَ أَخُو فَرَجٍ مِنَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الدِّيْنَوَريِّ ، وَلَبَسَ أَحْمَدُ مِنَ الْإِمَامِ مِمَّشَادِ الدِّيْنَوَريِّ ، وَلَبَسَ مِمَّشَادُ مِنَ الشَّيْخِ الْمُحَقِّقِ عَلِيِّ بْنِ سَهْلٍ الصُّوفِيِّ ، وَلَبَسَ عَلِيٌّ مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِيِّ ، وَلَبَسَ الْحُسَيْنِيُّ مِنَ

١ سَنَةِ ١٣٢٦ م .

سَرِيّ السَّقَطِيّ ، ولبس سري السقطي من داود الطائي ، ولبس داود من الحسن ابن أبي الحسن البصري ، ولبس الحسن بن أبي الحسن البصري من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب .

قال ابن جزّي : هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند ، والمعروف فيه أنّ سَرِيّ السَّقَطِيّ صحب معروفاً الكَرْنِيّ ، وصحب معروف داود الطائي . وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي ، وأخوه فرج الزنجاني . إنّما المعروف أنّه صحب أبا العباس النّهاونديّ ، وصحب النّهاونديّ أبا عبد الله بن خفيف ، وصحب ابن خفيف أبا محمد ، وربّما صحب روبرم أبا القاسم الجنيد ، وأمّا محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينوري الأسود ، وليس بينهما أحد ، والله أعلم ، والذي صحب أخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبي النعيب .

ثمّ سافرنا من أصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيّام . فوصلنا إلى بلدة كَلِيل وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة ، وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه ؛ رأيتُ التّفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلاً عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة ، ونزلنا منها بزاوية عمرّها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي ، وله مال عريض قد أعانه الله على إنفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لأبناء السبيل ، ثمّ سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور ، ثمّ سرنا منها إلى يَزْدُخاص ، بلدة صغيرة متينة العمارة حسنة السوق ، والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها ، والبلدة على صفة خندق فيه بساتينها ومياها ، وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد ، وهو في النهاية من الحصانة والمنعة ، وبدخله حوانيت يباع فيها كلّ ما يحتاجه المسافرون .

وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي إسحاق ملك

شيراز . وفي يَزْدُخاص يُصنع الجبن اليزدخاسي ، ولا نظير له في طيبه ، وزن الجبنة منه من أوقيتين إلى أربع ، ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الأتراك ، ثم سافرنا إلى مايين ، وهي بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق ، وأكثر أشجارها الجوز .

ثم سافرنا منها إلى مدينة شيراز ، وهي مدينة أصلية البناء ، فسيحة الأرجاء ، شهيرة الذكر ، منيفة القدر ، لها البساتين المونقة ، والأنهار المتدفقة ، والأسواق البديعة ، والشوارع الرفيعة ، وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب ، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم ، حسان الصور ، نظاف الملابس ، وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز ؛ وهي في بساط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات ، وتشقها خمسة أنهار : أحدها النهر المعروف برُكن آباد ، وهو عذب الماء ، شديد البرودة في الصيف ، سخن في الشتاء ، فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القُلَيْسِيَّة ، ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق ، وهو أكبر المساجد ساحة ، وأحسنها بناء ، وصحنه متسع مفروش بالمرمر ، ويغسل في أوان الحر كل ليلة ، ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشيّة ، ويصلّون به المغرب والعشاء ؛ وبشماله باب يعرف بباب حسن يُفضي إلى سوق الفاكهة ، وهي من أبدع الأسواق ، وأنا أقول بتفضيلها على باب البريد من دمشق .

وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصاً نساءها ، وهنّ يلبسن الخفاف ، ويخرجن ملتحفات متبرعات ، فلا يظهر منهن شيء ، ولهنّ الصدقات والايتار . ومن غريب حالن أنهنّ يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم ، فربّما اجتمع منهنّ الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر . ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد .

وعند دخولي إلى مدينة شيراز لم يكن لي همّ إلاّ قصد الشيخ القاضي الإمام قطب الأولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين إسماعيل بن محمد ابن خُداد ، ومعنى خُداد عطية الله ، فوصلت إلى المدرسة المتجدية المنسوبة إليه ، وبها سكناء ، وهي من عمارته ، فدخلت إليه رابع أربعة من أصحابي ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره ، فخرج إلى صلاة العصر ، ومعه محبّ الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه روح الدين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنّه ، فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي إلى أن وصل إلى مُصلّاه ، فأرسل يدي وأوماً إليّ أن أصليّ إلى جانبه ، ففعلتُ وصلّيّ العصر ثمّ قرّئ بين يديه من كتاب المصاييح وشوارق الأنوار للصاغاني ، وطالعه نائباه بما جرى لدهما من القضايا ، وتقدم كبار المدينة للسلام عليه ، وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساءً . ثمّ سألتني عن حالي وكيفيّة قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز ، فأخبرته بذلك وأمر خدامه بأنزلوني بدويّة صغيرة بالمدرسة .

وفي غد ذلك اليوم وصل إليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد ، وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الأمراء ، خراساني الأصل . فعند وصوله إليه نزع شاشيته عن رأسه ، وهم يسمونها الكتلا ، وقبّل رجل القاضي ، وقعد بين يديه ممسكاً اذن نفسه بيده ، وهكذا فعّل أمراء التتر عند ملوكهم ، وكان هذا الأمير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ، ونزل خارج المدينة . ودخل إلى القاضي في خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدباً .

حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خُدابندّه قد صحبه في حال كُفره فقيه من الروافض الإماميّة يسمّى جمال الدين بن مطهر . فلما أسلم السلطان المذكور ،

وأسلمت بإسلامه التتر ، زاد في تعظيم هذا الفقيه فزيّن له مذهب الروافض ، وفضّله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخِلافة ، وقرّر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن عليّاً ابن عمّه وصهره ، فهو وارث الخلافة ، ومثّل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذي بيده إنتما هو إرث عن أجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين ، فأمر السلطان بحمل الناس على الرّفْض ، وكتب بذلك إلى العراقيين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخُراسان ، وبعث الرسل إلى البلاد . فكان أوّل بلاد وصل إليها بغدادُ وشيرازُ وأصفهانُ ، فأما أهلُ بغداد ، فامتنع أهل باب الأزج منهم ، وهم أهل الستّة ، وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وقالوا : لا سمع ولا طاعة ، وأتوا المسجد الجامع في يوم الجمعة بالسلاح ، وبه رسول السلطان ، فلمّا صعد الخطيب المنبر قاموا إليه ، وهم اثنا عشر ألفاً في سلاحهم ، وهم حُماة بغداد والمشار إليهم فيها ، فحلقوا له أنّه إنْ غيّر الخطبة المعتادة ، إن زاد فيها أو نقص منها ، فإنّهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله .

وكان السلطان أمر بأن تُسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يُذكر إلا اسم عليّ ومن تبعه كعمّار ، رضي الله عنهم ، فخاف الخطيب من القتل ، وخطب الخطبة المعتادة ، وفعل أهلُ شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد ، فرجعت الرسل إلى الملك ، فأخبروه بما جرى في ذلك ، فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث ، فكان أوّل من أتى به منهم القاضي مجدّ الدين قاضي شيراز ، والسلطان إذ ذاك في موضع يعرف بِقَراباغ ، وهو موضع مصيفه ، فلمّا وصل القاضي أمر أن يُرمى به إلى الكلاب التي عنده ، وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسلُ مُعدّةٌ لأكل بني آدم ، فإذا أتى بمن يُستلّط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقاً غير مقيد ، ثمّ بُعثت تلك الكلاب عليه ، فيفرّ أمامها ، ولا مفرّ له ، فتدركه فتمزّقه وتأكلُ لحمه . فلمّا أرسلت الكلاب على

القاضي مجد الدين ، ووصلت إليه ، بَصَبَصَتْ^١ إليه وحرّكت أذنابها بين يديه ، ولم تهجم عليه بشيء ، فبلغ ذلك السلطان ، فخرج من داره حافي القدمين ، فأكبّ على رجلي القاضي يقبلهما ، وأخذ بيده ، وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب ، وهي أعظم كرامات السلطان عندهم ، وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفاً له ولبنيه وأعقابيه يتوارثونه ما دامت تلك الثياب أو شيء منها ، وأعظمها في ذلك السراويل . ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره ، وأمر نساءه بتعظيمه والتبرّك به ، ورجع السلطان عن مذهب الرفض ، وكتب إلى بلاده أن يقرّ الناس على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء للقاضي وصرفه إلى بلاده مكرماً معظماً ، وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جَمَّكان ، وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخاً ، يشقه نهرٌ عظيم ، القرى منتظمة بجانبيه ، وهو أحسن موضع بشيراز ، ومن قرأه العظيمة التي تضاهي المدن قرية مَسَمَن ، وهي للقاضي المذكور .

ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجَمَّكان أن نصفه ممّا يلي شيراز ، وذلك مسافة اثني عشر فرسخاً ، شديدُ البرد وينزل فيه الثلج ، وأكثرُ شجره الجوز ، والنصف الآخر ، ممّا في بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هُرْمُز ، شديدُ الحرّ ، وفيه شجر النخيل .

وقد تكرّر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند ، قصدته من هرمز متبرّكاً ببقائه ، وذلك سنة ثمان وأربعين^٢ ، وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوماً ، فدخلت عليه ، وهو قد ضعف عن الحركة ، فسلمت عليه فعرفني ، وقام إليّ فعانقني ، ووقعت يدي على مرفقه ، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما ، وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أوّل مرّة . وزرته يوماً فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق ، وسيقع ذكره ، قاعداً بين يديه

١ بصصت : حرّكت أذنابها .

٢ سنة ١٣٤٧ م .

ممسكاً باذن نفسه ، وذلك هو غاية الأدب عندهم ، ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدي الملك ، وأتيته مرة أخرى إلى المدرسة ، فوجدت بابها مسدوداً ، فسألت عن سبب ذلك ، فأخبرت أن أمّ السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصرفهما إلى القاضي مجد الدين فوصلتا إليه إلى المدرسة وتحاكمتا عنده ، وفصل بينهما بواجب الشرع .

وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي وإنما يقولون له مولانا أعظم ، وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر إلى ذكر اسمه فيها ، وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، ولاحت عليّ أنواره ، وظهرت لي بركاته ، نفع الله به وبأمثاله .

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها ، الملك الفاضل أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو ، سمّاه أبوه باسم الشيخ أبي إسحاق الكازروني ، نفع الله به ، وهو من خيار السلاطين ، حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس ، جميل الأخلاق ، متواضع ، صاحب قوة وملك كبير ، وعسكره يُنِيف على خمسين ألفاً من الترك والأعاجم ، وبطانته الأدنون إليه أهلُ أصفهان ، وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ، ولا يستخدمهم ولا يقربهم ، ولا يُبيح لأحد منهم حمل السلاح ، لأنهم أهلُ نجدة وبأس شديد ، وجراءة على الملوك ، ومن وُجد بيده السلاح منهم عُوِّق .

ولقد شاهدت مرة رجلاً تجرّه الجنادرة ، وهم الشرط ، إلى الحاكم ، وقد ربطوه في عنقه ، فسألت عن شأنه ، فأخبرت أنه وجدت في يده قوس بالليل ، فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفهانيين عليهم لأنه يخافهم على نفسه .

وكان أبوه محمد شاه ينجو والياً على شیراز من قبل ملك العراق ، وكان حسن السيرة محبباً إلى أهلها ، فلما توفي ولّى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا ، وهو ابن الجويان أمير الأمراء ، وسيأتي ذكره . وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل إلى شیراز وملكها وضبط مجاييها ، وهي من أعظم بلاد الله مسجى . ذكر لي الحاج قوام الدين الطمنجي ، وهو والي المعجى بها ، أنه ضمّنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كلّ يوم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ذهباً . وأقام بها الأمير حسين مدّة ثمّ أراد القدوم على ملك العراق ، فقبض على أبي إسحاق بن محمد شاه ينجو ، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك ، وعلى والدته طاش خاتون ، وأراد حملهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم ، فلما توسّطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها ، وكانت متبرقة حياء ان ترى في تلك الحال ، فإن عادة نساء الأتراك أن لا يغطّين وجوههن ، واستغاثت بأهل شیراز ، وقالت : أهكذا يا أهل شیراز أخرج من بينكم ، وأنا فلانة زوجة فلان ؟ فقام رجل من النجّارين يسمّى بـهـلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شیراز ، فقال : لا تركها تخرج من بلدنا ، ولا نرضى بذلك ، فتابعه الناس على قوله . وثارت عامتهم ، ودخلوا في السلاح ، وقتلوا كثيراً من العسكر ، وأخذوا الأموال وختلصوا المرأة وأولادها ، وفرّ الأمير حسين ومن معه . وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوماً . فأعطاه العساكر الكثيفة ، وأمره بالعود إلى شیراز والتحكّم في أهلها بما شاء .

فلما بلغ أهلها ذلك علموا أنّهم لا طاقة لهم به ، فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه أن يحقن دماء الفريقين ، ويوقع الصلح ، فخرج إلى الأمير حسين ، فترجّل له الأمير عن فرسه ، وسلّم عليه ، ووقع الصلح ، ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة .

فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في أجمل ترتيب وزيّنوا البلد ، وأوقدوا الشمع الكثير ، ودخل الأمير حسين في أبته وحفل عظيم ، وسار فيهم بأحسن

سيرة . فلمّا مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه ، وتغلّب كلّ أمير على ما بيده ، خافهم الأمير حسين على نفسه ، وخرج عنهم ، وتغلّب السلطان أبو إسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس ، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر . واشتدّت شوكته ، وطمحت همته إلى تملك ما يليه من البلاد ، فبدأ بالأقرب منها ، وهي مدينة بَزْد ، مدينة "حسنة" نظيفة ، عجيبة الأسواق ، ذات أنهار مطّردة ، وأشجار نضيرة ، وأهلها تجّار شافعيّة المذهب ، فحاصرها وتغلّب عليها ، وتحصّن الأمير مظفر شاه ابنُ الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة أميال منها ، منيعة تُحديق بها الرمال ، فحاصره بها ، فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرّق المعتاد ، ولم يسمع بمثله ، فكان يضرب على عسكر السلطان أبي إسحاق ليلاً ، ويقتل ما شاء ، ويخرق المضارب والفساطيط ، ويعود إلى قلعته ، فلا يقدر على النيل منه . وضرب ليلةً على دوار السلطان ، وقتل هنالك جماعة . وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد إلى قلعته ، فأمر السلطان أن تتركب في كلّ ليلة خمسة آلاف فارس ، ويصنعوا له الكمان ، وتلاحقت العساكر ، فقاتلهم وخلص إلى قلعته ، ولم يُصب من أصحابه إلّا واحدٌ أتى به إلى السلطان أبي إسحاق ، فخلع عليه وأطلقه ، وبعث معه أماناً لمظفر ليتزل إليه ، فأبى ذلك . ثمّ وقعت بينهما المراسلة ، ووقعت له حجة في قلب السلطان أبي إسحاق لما رأى من شجاعته ، فقال : أريد أن أراه ، فإذا رأيته انصرفت عنه ، فوقف السلطان في خارج القلعة ، ووقف هو ببابها وسلّم عليه ، فقال له السلطان : انزل على الأمان ، فقال له مظفر : إني عاهدت الله أن لا أنزل إليك ، حتى تدخل أنت قلعتي ، وحينئذ أنزل إليك . فقال له : أفعُلْ ذلك ، فدخل إليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص ، فلمّا وصل باب القلعة ترجّل مظفر وقبل ركابه ، ومشى بين يديه مترجلاً ، فأدخله داره ، وأكل من طعامه ، ونزل معه إلى المحلّة راكباً ، فأجلسه السلطان إلى جانبه ، وخلع عليه ثيابه ، وأعطاه مالا عظيماً ، ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبي

إسحاق ، وتكون البلاد لمظفر وأبيه ، وعاد السلطان إلى بلاده .

وكان السلطان أبو إسحاق طمَحَ ذات مرّة إلى بناء إيوان كليوان كسرى ، وأمر أهل شيراز أن يتولّوا حفر أساسه ، فأخذوا في ذلك ، وكان أهل كلّ صناعة يباهون كلّ من عداهم ، فأنتهوا في المباهاة إلى أن صنعوا القفاف لنقل التراب من الجبل ، وكسوها ثياب الحرير المزركش ، وفعلوا نحو ذلك في براذع الدوابّ وأخرأجها ، وصنع بعضهم الفؤوس من الفضة ، وأوقدوا الشمع الكثير . وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فُوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرٍ له ؛ وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع . ولما بُني أساسه رُفع عن أهل المدينة التخديم فيه ، وصارت الفعلة تخدم فيه بالأجرة ، ويُحشَر لذلك آلاف منهم .

وسمعتُ والي المدينة يقول : إن مُعظَمَ مجباها يُنفقُ في ذلك البناء ، وقد كانَ الموكلّ به الأميرُ جلال الدين بن الفلكي التوريزي ، وهو من الكبار ، كان أبوه نائباً عن وزير السلطان أبي سعيد المسمّى علي شاه جيلان ؛ ولهذا الأمير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ، ويلقّب بهاء الملك ، وفد على ملك الهند حين وفودي عليه ، ووفد معنا شرف الملك أميرُ يَسَخْت ، فخلع ملك الهند علينا جميعاً ، وقَدّم كلّ واحد في شغل يليق به ، وعيّن لنا المرتب والإحسان ، وسندكر ذلك ، وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التشبّه بملك الهند المذكور في الإيثار وإجزال العطايا ، ولكن أين الثريّا من الثرى ! وأعظم ما تعارفنا من إعطيات أبي إسحاق أنّه أعطى الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولاً عن ملك هَراة سبعين ألف دينار ، وأمّا ملك الهند ، فلم يزل يعطي أضعاف ذلك لمن لا يُحصى كثرة من أهل خُراسان وغيرهم .

حكاية ملك الهند وكرمه

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين أنه قدم عليه رجلٌ من فقهاء خراسان هَرَوِيّ الدار من سكّان خوارزم يسمّى بالأمر عبد الله ، بعثته الخاتون ترابك زوجُ الأمير قَطْلودَ مورَ صاحب خوارزم ، بهديّة إلى ملك الهند المذكور ، فقبلها وكافاً عنها بأضعافها ، وبعث ذلك إليها . واختار رسولها المذكور الإقامة عنده ، فصيّره في ندمائه . فلمّا كان ذات يوم قال له : ادخل إلى الخزانة ، فارفع منها قدرَ ما تستطيع أن تحمله من الذهب . فذهب إلى داره فأثني بثلاث عشرة خريطة ، وجعل في كلّ خريطة قدرَ ما وسعته ، وربط كلّ خريطة بعُضو من أعضائه ، وكان صاحب قوّة ، وقام بها فلمّا خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض . فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر مثلاً بمنان دهلي ، والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصريّة ، فأمره أن يأخذ جميع ذلك ، فأخذه وذهب به .

حكاية تناسبها

اشتكى مرّة أميرٌ يُخت الملقب بشرف الملك الخراساني ، وهو الذي تقدّم ذكره آنفاً بحضرة ملك الهند ، فأتاه الملك عائداً ، ولمّا دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كتفه ، والكتّ هو السرير ، ووضع للسلطان مُتَكَاةً يسمونها المورة ، فقعد عليها ثمّ دعا بالذهب والميزان فجاء بذلك ، وأمر المريض أن يقعد في إحدى كفتي الميزان ، فقال : يا خَوْنَدَ عالم! لو علمت أنّك تفعل هذا للبست عليّ ثياباً كثيرة ، فقال له : البس الآن جميع ما عندك من الثياب ، فلبس ثيابه المعدّة للبرد المحشوة بالقطن ، وقعد في كفة الميزان ، ووضع الذهب في الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب ، وقال له : خذ هذا فتصدّق به على رأسك ، وخرج منه .

١ أي أيها الملك .

حكاية تناسبهما

وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردوبي ، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق ، فتفقته فيه ، فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم ، وصرف ذلك خمسة وعشرون ديناراً ذهباً ، وحضر مجلسه يوماً فسأله السلطان عن حديث ، فسرده له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى ، فأعجبه حفظه ، وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه . ثم نزل الملك عن مجلسه ، فقبل قدميه وأمر بإحضار صينية من ذهب ، وهي مثل الطيفور الصغير ، وأمر أن يأتي فيها ألف دينار من الذهب ، وأخذها السلطان بيده فصبتها عليه ، وقال : هي لك مع الصينية .

ووفد عليه مرة رجل خراساني يُعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفراييني ، وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم ، ونخيلاً وعبيداً وخلعاً . وسندكر كثيراً من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند ، وإنما ذكرنا هذا لما قدّمناه من أن السلطان أبا إسحاق يريد التشبه به في العطايا ، وهو وإن كان كريماً فاضلاً ، فلا يلحق بطبقة ملك الهند في الكرم والسخاء .

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فمنها مشهد ابن موسى أخي علي الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنهم ، وهو مشهد معظم عند أهل شیراز يتبركون به ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله . وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبي إسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، والقراء يقرأون القرآن على التربة دائماً . ومن عادة الخاتون أنها تأتي إلى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ، ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء .

وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء ، سمعت من الثقات أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألفٌ وأربعمائة ونيفٌ بين صغير وكبير ، ونقيبهم عضد الدين الحسيني ، فإذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة ، وأتى بالطعام والفواكه والحلواء ، فإذا أكل القوم وعظ الواعظ ، ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر إلى العشي ، والحاتون في غرفة مُطلّة على المسجد لها شُبّاك ، ثم تُضرب الطبولُ والانفارُ والبوقات على باب التربة ، كما يُفعل عند أبواب الملوك .

ومن المشاهد بها مشهد الإمام القُطب الولي أبي عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ ، وهو قدوة بلاد فارس كلّها ، ومشهده معظم عندهم يأتون إليه بكرة وعشيّاً ، فيتمسّحون به . وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاه زائراً واستلمه . وتأتي الحاتون إلى هذا المسجد في كلّ ليلة جمعة ، وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ، ويفعلون به كفعالهم في مشهد أحمد بن موسى ، وقد حضرت الموضوعين جميعاً . وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي إسحاق متصلة بهذه التربة ، والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الأولياء شهير الذكر ، وهو الذي أظهر طريق جبل سرّنديب بجزيرة سيّلان من أرض الهند .

كرامة لهذا الشيخ

يُحكى أنه قصد مرّة جبل سرّنديب ، ومعه نحو ثلاثين من الفقراء ، فأصابتهم مجاعة في طريق الجبل حيث لا عمارة ، وناهوا عن الطريق ، وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار ، وهي في ذلك المحل كثيرة جدّاً ، ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند ، فنهاهم الشيخ عن ذلك ، فغلب عليهم الجوع ، فتعدّوا قول الشيخ ، وقبضوا على فيل صغير منها ،

١ الأنفار هنا جمع نغير : البوق ينفع فيه .

وذكّوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ من أكله ، فلمّا ناموا تلك الليلة اجتمعت
 القيلة من كلّ ناحية ، وأنت إليهم ، فكانت تشمّ الرجل منهم وتقتله حتى أتت
 على جميعهم ، وشمّت الشيخ ، ولم تتعرّض له ، وأخذته فيلّ منها ولفّ عليه
 خرطوميه ، ورمى به على ظهره ، وأتى به الموضع الذي فيه العبارة ، فلمّا
 رآه أهلُ تلك الناحية عجبوا منه ، واستقبلوه ليتعرفوا أمره ، فلمّا قرب منهم
 أمسكه الفيل بخُرطوميه ، ووضعته عن ظهره إلى الأرض بحيث يروّنه فجاءوا
 إليه وتمسّحوا به ، وذهبوا به إلى ملكهم ، فعرفوه خبره ، وهم كفّار ،
 وأقام عندهم أيّاماً .

وذلك الموضع على خَوْرٍ يسمّى خَوْر الخيزران ، والخور هو النهر ،
 وبذلك الموضع مغاصُ الجواهر ، ويُذكر أن الشيخ غاص في بعض الأيام
 بمحضّر ملكهم ، وخرج وقد ضمّ يديه معاً ، وقال للملك : اختر ما في إحداهما ،
 فاختر ما في اليمنى ، فرمى إليه بما فيها ، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت
 لا مثلَ لها ، وهي عند ملوكهم في التاج يتوارثونها .

وقد دخلت جزيرة سيّلان هذه ، وهم مقيمون على الكفر إلّا أنّهم يعظّمون
 فقراء المسلمين ويؤوّنهم إلى دورهم ، ويطعمونهم الطعام ، ويكونون في بيوتهم
 بين أهليهم وأولادهم خلافاً لسائر كفّار الهند ، فإنهم لا يقربون المسلمين
 ولا يطعمونهم في آنيّتهم ، ولا يسقونهم فيها مع أنّهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم .
 ولقد كنّا نضطرّ إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم ، فيأتون به في قدورهم ويقعدون
 على بعد منّا ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرزّ ، وهو طعامهم ، ويصبّون
 عليه الكوْشان وهو الإدام ويذهبون ، فنأكل منه وما فضل علينا تأكله الكلاب
 والطير ، وإن أكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربه وأطعموه روث
 البقر ، وهو الذي يُطهّر ذلك في زعمهم .

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روز جّهان القبلي من كبار

١ ذكره : ذبحوه .

الأولياء ، وقبره في مسجد جامع يُخْطَب فيه ؛ وبذلك المسجد يصلّي القاضي
مجد الدين الذي تقدم ذكره ، رضي الله عنه ، وبهذا سمعت عليه كتاب مُسنَد
الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قال :

أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت : أخبرنا أبو عبد الله الحسين
ابن أبي بكر بن المبارك الزبيدي قال : أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر
المقدسي قال : أخبرنا أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور بن علان العرضي
قال : أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي عن أبي عباس بن يعقوب
الأصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الإمام أبي عبد الله الشافعي ؛ وسمعت
أيضاً عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الأنوار للإمام
رضي الدين أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من
الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن
الإمام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروي عن المصنف .

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب ، وعليه زاوية لإطعام الطعام ،
وهذه المشاهد كلّها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فإن الرجل منهم
يموت ولده أو زوجته ، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ، ويدفنه هناك ،
ويفرش البيت بالحصر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ،
ويصنع للبيت باباً إلى ناحية الزقاق وشباك حديد ، فيدخل منه القراء يقرأون
بالأصوات الحسان . وليس في معمر الأرض أحسن أصواتاً بالقرآن من أهل
شيراز ، ويقوم أهل الدار بالتربة ، ويفرشونها ويوقدون السرج بها ، فكأن
الميت لم يبرح . وذكر لي أنهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام
ويتصدّقون به عنه .

حكاية الفقيه الجوّاد

مررتُ يوماً ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجداً متقن البناء جميل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي ، وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتّح إلى جهة السوق ، وهناك شيخٌ جميل الهيئة واللباس ، وبين يديه مصحف يقرأ فيه ، فسلمت عليه وجلست إليه ، فسألني عن مقدمي ، فأخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد ، فأخبرني أنّه هو الذي عمره ، ووقف عليه أوقافاً كثيرة للقراء وسواهم ، وان تلك الزاوية التي جلست إليه فيها هي موضع قبره إن قضى الله موته بتلك المدينة ، ثمّ رفع بساطاً كان تحته . والقبرُ مغطّى ، عليه ألواح خشب ، وأراني صندوقاً كان بإزائه ، فقال : في هذا الصندوق كفني وحنوطي ودراهم كنتُ استأجرتُ بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح ، فدفعت لي هذه الدراهم ، فتركتها لتكون نفقة مواردني ، وما فضل منها يُتصدّقُ به ، فعجبت من شأنه ، وأردت الانصراف ، فحلف عليّ وأضافني بذلك الموضع .

ومن المشاهد بخارج شيراز قبرُ الشيخ الصالح المعروف بالسعدي ، وكان أشعرَ أهل زمانه باللسان الفارسي ، وربما ألمع في كلامه بالعربي ، وله زاوية كان قد عمرّها بذلك الموضع حسنةً ، بداخلها بستان مليح ، وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن أباد . وقد صنع الشيخ هنالك أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سِماطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر ، وينصرفون . وكذلك فعلت عنده رحمه الله . وبمقربة من هذه الزاوية زاويةٌ أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السمناني ، وكان من الأمراء الفقهاء ، ودفن هنالك بوصية منه بذلك .

وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيدُ الدين ، وأمره في الكرم عجيبٌ ، وربما جاد بكلّ ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعةً ،

فيدخل عليه كبراء المدينة ، فيجدونه على تلك الحال ، فيكسونه ، ومرتبّه في كلّ يوم من السلطان خمسون ديناراً دراهم .
ثمّ كان خروجي من شیراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي إسحاق الكازروني بكازرون ، وهي على مسيرة يومين من شیراز ، فنزلنا أوّل يوم ببلاد الشّول ، وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البريّة ؛ وفيهم الصالحون .

كرامة لبعضهم

كنت يوماً ببعض المساجد بشيراز ، وقد قعدت أتلو كتاب الله ، عزّ وجل ، إثر صلاة الظهر ، فخطر بخاطري أنّه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه ، فدخل عليّ في أثناء ذلك شابّ ، وقال لي بكلام قويّ : خذ ! فرفعت رأسي إليه ، فألقى في حجري مصحفاً كريماً ، وذهب عني ، فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأردّه له فلم يعد إليّ ، فسألت عنه ف قيل لي : ذلك بُهلُول الشولي ، ولم أره بعد .

ووصلنا في عشيّ اليوم الثاني إلى كازرون ، فقصدنا زاوية الشيخ أبي إسحاق نفع الله به ، وبتنا بها تلك الليلة . ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائناً من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن ، وتؤكل بالرقاق ، ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتّى يقيم في الضيافة ثلاثة ، ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ، ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية ، وهم يزيدون على مائة ، منهم المتزوّجون ، ومنهم الاعزاب المتجرّدون ، فيختمون القرآن ، ويذكرون الذكر ، ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي إسحاق فتُقبض حاجته بإذن الله .

وهذا الشيخ أبو إسحاق معظّم عند أهل الهند والصين ، ومن عادة ركّاب بحر الصين أنّهم إذا تغيّر عليهم الهواء ، وخافوا للصوم ، نذروا لأبي إسحاق نذراً وكتب كلّ منهم على نفسه ما نذره ، فإذا وصلوا برّ السلامة صعد خدّام الزاوية إلى المركب ، وأخذوا الزمام ، وقبضوا من كلّ ناذر نذره . وما من

مركب يأتي من الصين أو الهند إلّا وفيه آلاف من الدنانير ، فيأتي الوكلاء من جهة خادِم الزاوية ، فيقبضون ذلك . ومن الفقراء من يأتي طالباً صدقة الشيوخ فيُكتب له أمرٌ بها ، وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة ، فيضعون القالب في صبغ أحمر ، ويلصقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ، ويكون مضمّنهُ : أن من عنده نذر للشيخ أبي إسحاق فليعط منه لفلان كذا ، فيكون الأمر بالآلف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير . فإذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه ، وكتب له رسماً في ظهر الأمر بما قبضه .

ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي إسحاق بعشرة آلاف دينار ، فبلغ خبرها إلى فقراء الزاوية ، فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية .

ثمّ سافرنّا من كازرون إلى مدينة الزيدّين ، وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريّين صاحبي رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا ، ورضي الله عنهما ، وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه ، مليحة الأسواق ، عجيب المساجد ، ولأهلها صلاح وأمانة وديانة ، ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني ، وكان ورد على أهل الهند فولّي القضاء منها بديبة المهل ، وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح ، وتزوج بأخت هذا الملك ، وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولّت الملك بعده بهذه الجزائر ، وبها توفي القاضي نور الدين المذكور .

ثمّ سافرنّا منها إلى الحويزاء ، وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ، ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزاني شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة . ثمّ سافرنّا منها قاصدين الكوفة في برية لا ماء بها إلّا في موضع واحد يسمّى الطرفاوي وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ، ثمّ وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة .

مدينة الكوفة

وهي إحدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية ، مثوى الصحابة والتابعين ، ومنزل العلماء والصالحين ، وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت إليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها ، فإنهم يقطعون طريقها ؛ ولا سور عليها ، وبناءها بالآجر ، وأسواقها حسان ، وأكثر ما يباع فيها التمر والسّمك ، وجامعها الأعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنّعت قطعاً ، ووضع بعضها على بعض ، وأفرغت بالرصاص ، وهي مفرطة الطول .

وبهذا المسجد آثارٌ كريمة ، فمنها بيت لزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل ، صلوات الله عليه ، كان له مُصلّى بذلك الموضع ، وعلى مقربة منه محراب مَحَلَّق عليه بأعواد الساج مرتفع ، وهو محراب عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وهناك ضربه الشقيّ ابن مُلْجَم ، والناس يقصدون الصلاة به ، وفي الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير مَحَلَّق عليه أيضاً بأعواد الساج يذكر أنه الموضع الذي فار منه التّنور حين طوفان نوح ، عليه السلام ، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيتُ نوح ، عليه السلام ، ولإزاءه بيت يزعمون أنه متعبّد لإدريس ، عليه السلام ، ويتّصل بذلك فضاء ، ويتصل بالحدار القبلي من المسجد موضع يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح ، عليه السلام ، وفي آخر هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، والبيت الذي غُسل فيه ، ويتّصل به بيت يقال أيضاً إنه بيت نوح ، عليه السلام ، والله أعلم بصحة ذلك كلّه .

وفي الجهة الشرقيّة من الجامع بيت مرتفع يُصعد إليه ، قبرُ مسلم بن عقيل ابن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وبمقربة منه خارج المسجد قبرُ عاتكة وسُكينة

بني الحسين ، عليه السلام .
وأما قصرُ الإمارة بالكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ،
فلم يبقَ إلّا أساسه .

والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها ، وهو
منتظم بحدائق النخل الملتفة ، المتصل بعضها ببعض . ورأيت بغربي جبّانة الكوفة
موضعاً مسوداً شديداً السواد في بسيط أبيض . فأخبرت أنّه قبر الشقيّ ابن ملجم ،
وان أهل الكوفة يأتون في كلّ سنة بالحطب الكثير ، فيوقدون النار على موضع
قبره سبعة أيام ، وعلى قرب منه قبّة رُفِعَت على قبر المختار بن أبي عبيد .
ثمّ رحلنا ونزلنا بئر ملاحّة ، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ، ونزلت
بخارجها وكرهت دخولها لأن أهلها روافض ، ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة
الحِلّة ، وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات ، وهو بشرقيّها ، ولها أسواق
حسنة جامعة للرافق والصناعات . وهي كثيرة العمارة ، وحدائق النخل منتظمة
بها داخلاً وخارجاً ، ودورها بين الحدائق ، ولها جسر عظيم معقود على مراكب
متّصلة منتظمة فيما بين الشطين ، تحفّ بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة
في كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل .

وأهل هذه المدينة كلّها إماميّة اثنا عشرية ، وهم طائفتان إحداهما تعرف
بالأكرد والأخرى تعرف بأهل الجامعين ، والفتنة بينهم متصلة ، والقتال قائم
أبداً . وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابهِ ستر حرير مسدول ،
وهم يسمّونه مشهد صاحب الزمان ، ومن عاداتهم أن يخرج في كلّ ليلة مائة
رجل من أهل المدينة عليهم السلاح ، وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة ،
بعد صلاة العصر ، يأخذون منه فرساً مُسرّجاً مُلجماً أو بغلة كذلك ، ويضربون
الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابّة ، ويتقدّمها خمسون منهم ويتبعها
مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان ،
فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله يا صاحب الزمان ! باسم الله اخرج ، قد ظهر

الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحقّ والباطل ، ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار ، إلى صلاة المغرب ، وهم يقولون إن محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وأنه سيخرج ، وهو الإمام المنتظر عندهم .

وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير محمد ابن رُمَيْثَة بن أبي نُسَيم أمير مَكَّة وحكمها أعواماً ، وكان حسن السيرة يحمده أهلُ العراق إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق ، فعذّبه وقتله وأخذ الأموال والدخائر التي كانت عنده .

ثمّ سافرنا منها إلى مدينة كَرْبَلاء مشهد الحسين بن عليّ ، عليهما السلام ، وهي مدينة صغيرة تحفّها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات ، والروضة المقدّسة داخلها ، وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر . وعلى باب الروضة الحُجَّاب والقوّة لا يدخل أحدٌ إلّا عن إذنهم ، فيقبّل العتبة الشريفة ، وهي من الفضة ؛ وعلى الضريح المقدّس قناديلُ الذهب والفضة . وعلى الأبواب أستار الحرير . وأهل هذه المدينة طائفتان : أولاد رَحِيك وأولاد فائز ، وبينهما القتال أبداً ، وهم جميعاً إمامية يرجعون إلى أبٍ واحد ، ولأجل فتنهم تحرّيتُ^١ هذه المدينة . ثمّ سافرنا منها إلى بغداد .

مدينة بغداد

مدينةُ دار السلام . وحضرةُ الإسلام . ذات القدر الشريف . والفضل المنيف . مثوى الخلفاء . ومقرّ العلماء . قال أبو الحسين بن جُبَيْر ، رضي الله عنه : وهذه المدينة العتيقة ، وإن لم تزل حضرة الخلافة العبّاسيّة ، ومثابة الدعوة الإماميّة القرشيّة ، فقد ذهب رسمُها ، ولم يبقَ إلّا اسمُها . وهي بالإضافة

١ تحرى الشيء : قصده .

إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النواذب إليها كالطلل الدارس ، أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسنَ فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر ، إلاّ دجلتها التي هي بين شريقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبّتين ، فهي تردها ولا تظلم . وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ . والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ . قال ابن جرّي : وكأنّ أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لَقَدْ أَقَامَ عَلَى بَغْدَادَ نَاعِيَهَا ، فَلَيْسَ بِكِهَا لِحَرَابِ الدَّهْرِ بَاكِهَا
كَانَتْ عَلَى مَائِهَا وَالْحَرْبُ مَوْقِدَةً وَالنَّارُ تُطْفِئُ حُسْنًا فِي نَوَاحِيهَا
تُرْجَى لَهَا عَوْدَةٌ فِي الدَّهْرِ صَالِحَةً فَتَالَانَ أَضْمَرَ مِنْهَا الْيَأْسَ رَاجِيَهَا
مِثْلُ الْعَجُوزِ الَّتِي وَلَّتْ شَبِيبَتُهَا وَبَانَ عَنْهَا جَمَالُهَا كَانَ يَحْظِيهَا

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا . ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا . وفيها قال الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن عليّ ابن نصر المالكي البغدادي وأنشدني والدي ، رحمه الله ، مرّات :

طِيبُ الْهَوَاءِ بِبَغْدَادٍ يُشَوِّقُنِي قُرْبًا إِلَيْهَا ، وَإِنْ عَاقَتْ مَقَادِيرُ
وَكَيْفَ أَرْحَلُ عَنْهَا الْيَوْمَ إِذْ جَمَعْتُ طِيبَ الْهَوَاءِ مِنْ : مَمْدُودٍ وَمَقْصُورُ

وفيها يقول أيضاً ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

سَلَامٌ عَلَى بَغْدَادَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ، وَحَقٌّ لَهَا مِنِّْي السَّلَامُ الْمُضَاعَفُ
فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتُهَا عَنْ قَلِي لَهَا ، وَإِنِّي بِشَطْطِي جَانِبَيْهَا لَعَارِفُ
وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرَحْبِهَا ، وَلَمْ تَكُنِ الْأَقْدَارُ فِيهَا تُسَاعِفُ
وَكَانَتْ كَخَيْلٍ كُنْتُ أَهْوَى دَنَوَهُ وَأَخْلَافُهُ تَسْنَأُ بِهِ وَتُخَالِفُ

وفيه يقول أيضاً مغاضباً لها ، وأنشدني والدي ، رحمه الله ، غير ما مرّة :
 بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ وَاسِعَةٌ ، وَلِلصَّعَالِيكِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضِّيقِ
 ظَلَلْتُ أَمْشِي مُضَافاً فِي أَرْقَتِهَا ، كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ
 وفيها يقول القاضي أبو الحسن عليّ بن النّبيه من قصيدة :

آتَسْتُ بِالْعِرَاقِ بَدْرًا مُنِيرًا ، فَطَوْتُ غَيْهَبًا وَخَاضْتُ هَجِيرًا^١
 وَاسْتَطَابْتُ رِيًّا نَسَائِمٍ بَغْدَادَ دَ فَكَادَتْ لَوْلَا الْبُرَى أَنْ تَطِيرَ^٢
 ذَكَرْتُ مِنْ مَسَارِحِ الْكَرْخِ رَوْضًا لَمْ يَزَلْ نَاضِرًا وَمَاءَ نَمِيرَ^٣
 وَاجْتَسَنْتُ مِنْ رُبَى الْمُحَوَّلِ نَوْرًا وَاجْتَلَيْتُ مِنْ مَطَالِعِ التَّاجِ نُورًا^٤
 ولبعض نساء بغداد في ذكرها :

آهًا عَلَى بَغْدَادِهَا وَعِرَاقِهَا وَظَبَائِهَا وَالسَّحْرِ فِي أَحْدَاقِهَا
 وَمَجَالِهَا عِنْدَ الْفُرَاتِ بِأَوْجُهُ تَبْدُو أَهْلُهَا عَلَى أَطْوَاقِهَا
 مُتَبَخِّخَاتٍ فِي النِّعِيمِ كَأَنَّمَا خَلِقَ الْهَوَى الْعُدْرِيَّ مِنْ أَخْلَاقِهَا
 نَفْسِي الْفِدَاءَ لَهَا ، فَأَيَّ مَحَاسِنٍ فِي الدَّهْرِ تُشْرِقُ مِنْ سَنَائِ إِشْرَاقِهَا

ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصّفة التي ذكرناها في جسر مدينة
 الحِلّة ، والناس يعبرونهما ليلاً ونهاراً رجالاً ونساء ، فهم في ذلك في نزهة
 متّصلة . وبيّغداد من المساجد التي يُخطب فيها وتُقام فيها الجمعة أحد عشر
 مسجداً ، منها بالجانب الغربي ثمانية ، وبالجانب الشرقي ثلاثة ، والمساجد سواها

١ الضمير في طوت : للنيق .

٢ البرى ، الواحدة برة : حلقة توضع في أنف الناقة ، يقول : لولا أنها نياق لطارت إلى بغداد من
 شوقها إليها .

٣ النير : الزاكي من الماء .

٤ المحول : لعل موضع . النور بفتح النون : الزهر الأبيض .

كثيرة جداً ، وكذلك المدارس إلا أنها خربت . وحمّامات بغداد كثيرة ، وهي من أبدع الحمامات ، وأكثرها مطلية بالقار ، مسطّحة به ، فيخيّل لرائيه أنّه رخام أسود .

وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبداً به ، ويصير في جوانبها كالصلصال ، فيُجرف منها ، ويُجلب إلى بغداد . وفي كلّ حمام منها خلوات كثيرة كلّ خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلي نصف حائطها ممّا يلي الأرض به ، والنصف الأعلى مطلي بالحيصّ الأبيض النَّاصع ، فالضدّان بها مجتمعان متقابلان حسنهما .

وفي داخل كلّ خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجري بالماء الحارّ والآخر بالماء البارد ، فيدخل الإنسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه أحدٌ إلاّ إن أراد ذلك . وفي زاوية كلّ خلوة أيضاً حوضٌ آخر للاغتسال ، فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحارّ والبارد ، وكلّ داخل يُعطى ثلاثاً من الفوط : إحداها يتزرّ بها عند دخوله ، والأخرى يتزرّ بها عند خروجه ، والأخرى ينشّف بها الماء عن جسده ؛ ولم أرَ هذا الاتقان كلّّه في مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها في ذلك .

ذكر الجانب الغربي من بغداد

الجانب الغربي منها هو الذي عُمرَ أولاً ، وهو الآن خراب أكثره ، وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كلّ محلة كأنّها مدينة بها الحمامان والثلاثة ، وفي ثمانٍ منها المساجد الجامعة .

ومن هذه المحلات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور ، رحمه الله ، والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة ، وهو قصرٌ كبيرٌ خربٌ بقيت منه الآثار .

وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي ، رضي الله عنه ،

وهو في محلة باب البصرة . وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام ، عليه مكتوب : هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب ، وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا ، وإلى جانبه قبر الجواد ، والقبران داخل الروضة عليهما دُكَّانة ملبَّسة بالخشب عليه ألواح الفضة .

ذكر الجانب الشرقي منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق ، عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء ، كل صناعة فيه على حدة ، وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تُضرب بحُسنها . وفي آخره المدرسة المستنصرية ، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر ، وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان في المسجد ، وموضع التدريس ، وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البُسط . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السواد معتماً ، وعلى يمينه ويساره مُعيدان يُعيدان كل ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ، وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء .

وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة : أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل ؛ لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مُسنَد العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني ، وسمعت عليه فيه جميع مُسنَد أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام

١ الدكَّانة : شيء كالمصطبة يقعد عليه .

الدارمي ، وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة^١ قال :
 أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنتُ الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين
 أبي الحسن عليّ بن عليّ بن أبي البدر قالت : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود
 ابن بهروز الطبيب المارستاني قال : أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب
 السنجري الصوفي قال : أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر
 الداودي قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي عن أبي
 عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي عن أبي محمد عبد الله بن عبد
 الرحمن بن الفضل الدارمي .

والجامع الثاني جامع السلطان ، وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب
 للسلطان ، والجامع الثالث جامع الرصافة ، وبينه وبين جامع السلطان نحو الميّل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين ، رضي الله عنهم ، بالرصافة ، وعلى كلّ قبر
 منها اسم صاحبه ، فمنها قبرُ المهدي وقبرُ الهادي وقبرُ الأمين وقبرُ المعتصم وقبرُ
 الواثق وقبرُ المتوكل وقبرُ المنتصر وقبرُ المستعين وقبرُ المعتز وقبرُ المهدي وقبرُ
 المعتمد وقبرُ المعتضد وقبرُ المكتفي وقبرُ المقتدر وقبرُ القاهر وقبرُ الرازي وقبرُ
 المتقي وقبرُ المستكفي وقبرُ المطيع لله وقبرُ الطائع وقبرُ القائم وقبرُ القادر وقبرُ
 المستظهر وقبرُ المسترشد وقبرُ الراشد وقبرُ المقتفي وقبرُ المستنجد وقبرُ المستضيء
 وقبرُ الناصر وقبرُ الظاهر وقبرُ المستنصر وقبرُ المستعصم ، وهو آخرهم ، وعليه
 دخل التبرُ ببغداد بالسيف ، وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد
 اسمُ الخلافة العباسية وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة^٢ .

وبقرب الرصافة قبرُ الإمام أبي حنيفة ، رضي الله عنه ، وعليه قبّة عظيمة

١ سنة ١٣٢٦ م .

٢ سنة ١٢٥٦ م .

وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يُطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية ، فسبحان مبيد الأشياء ومُغيّرِها ؛ وبالقرب منها قبرُ الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه ، ولا قبّة عليه ، ويذكر أنها بُنيت على قبره مراراً فتهدّمت بقدرة الله تعالى ؛ وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثرهم على مذهبه ، وبالقرب منه قبر أبي بكر الشبلي من أئمة المتصوفة ، رحمه الله ، وقبر سريّ السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد ، رضي الله عنهم أجمعين .

وأهل بغداد لهم يومٌ في كلّ جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويومٌ لشيخ آخر يليه ، هكذا إلى آخر الأسبوع . وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء ، رضي الله تعالى عنهم . وهذه الجهة الشرقيّة من بغداد ليس بها فواكه وإنّما تجلب إليها من الجهة الغربيّة لأن فيها البساتين والحدائق . ووافق وصولي إلى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره هاهنا .

ذكر سلطان العراقيين وخراسان

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادرخان ، وخان عندهم الملك ، ابن السلطان الجليل محمد خُدا بَسَدَه ، وهو الذي أسلم من ملوك التتر ، وضبط اسمه مختلفٌ فيه ، فمنهم من قال ان اسمه خُدا بَنَدَه ، وبندَه لم يختلف فيه ، وتفسيره على هذا القول عبد الله لأن خُدا بالفارسيّة اسم الله ، عزّ وجلّ ، وبندَه غلام أو عبد أو ما في معناهما ، وقيل : إنّما هو خُدرُ بَنَدَه ، وتفسير خُدرُ بالفارسيّة الحمار ، فمعناه على هذا غلام الحمار ، فشُدّ ما بين القولين من الخلاف ، على أن هذا الأخير هو المشهور وكان الأوّل غيّرَه من تعصب عليه ؛ وقيل : إن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمّون المولود باسم أوّل داخل على البيت عند ولادته ، فلمّا وُلِدَ هذا السلطان كان أوّل داخل الزُمال^١ ، وهم

١ الزُمال : الضميف الجبان ، ولعلهم يعنون بها الحمار ، يدل على ذلك ما تقدم من معنى الاسم .

يسمونه خربنده ، فسمي به ، وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه الناس :
قازان ، وقازغان هو القدر ، وقيل سمي بذلك لأنه لما ولد دخلت الحارية
ومعها القدر .

وخداينده هو الذي أسلم وقدّنا قصّته ، وكيف أراد أن يحمل الناس لما
أسلم على الرفض ، وقصة القاضي محمد الدين معه . ولما مات ولي الملك ولده أبو
سعيد بهادرخان ، وكان ملكاً فاضلاً كريماً ملك وهو صغير السن ، ورأته
ببغداد ، وهو شامل أجمل خلق الله صورة لا نبت بعرضيه ، ووزيره إذ ذاك
الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد ، وكان أبوه من مهاجرة اليهود ،
واستوزره السلطان محمد خداينده والد أبي سعيد ؛ رأيتهما يوماً بحرقاة في
الدجلة . وتسمي عندهم الشبارة ، وهي شبه سلورة ، وبين يديه دمشق خواجه
ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد ، وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما
أهل الطرب والغناء ، ورأيت من مكارمه ، في ذلك اليوم ، أنه تعرض له جماعة
من العميان فشكوا ضعف حالهم ، فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلّام يقوده
ونفقة تسجى عليه .

ولما ولي السلطان أبو سعيد ، وهو صغير كما ذكرناه ، استولى على أمره
أمير الأمراء الجوبان ، وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك إلا
الاسم ؛ ويذكر أنه احتاج في بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها ، فلم يكن له سبيل
إليها ، فبعث إلى أحد التجّار فأعطاه من المال ما أحب . ولم يزل كذلك إلى أن
دخلت عليه يوماً زوجة أبيه دنيا خاتون ، فقالت له : لو كنّا نحن الرجال ما
تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه . فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام ،
فقالت له : لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك ، وأنه
بات البارحة عند طغى خاتون ، وقد بعث إليّ وقال لي : الليلة أبيت عندك ،
وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر ، فإذا صعد إلى القلعة مخفياً برسم المبيت

١ الحرقاة : ضرب من السفن .

أممكنك القبض عليه ، وأبوه يكفي الله أمره .

وكان الجوبان إذ ذاك غائباً بخراسان ؛ فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره ، فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية ، فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري ، فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج راكباً فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجاً معاً ، فأحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفي يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه ، وأتيا الملك أبا سعيد برأسه ، فرميا به بين يدي فرسه ، وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم ، وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه .

واتصل الخبر بأبيه الجوبان ، وهو بخراسان ومعه أولاده : حسن ، وهو الأكبر ، وطالش ، وجلوخان ، وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد من أمه ساطي بك بنت السلطان خدابنده ، ومعه عساكر التتر وحاميتها ، فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا إليه ، فلما التقى الجمعان هرب التتر إلى سلطانهم وأفردوا الجوبان ، فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر إلى صحراء سجستان وأوغل فيها ، وأجمع على اللحاق بملك هرة غياث الدين مستجبراً به ومتحصناً بمدينته ، وكانت له عليه أباد سابقة ، فلم يوافق ولده حسن وطالش على ذلك وقالوا له : إنه لا يفي بالعهد ، وقد غدر بفيروز شاه بعد أن لحا إليه وقتله . فأبى الجوبان إلا أن يلحق به ، ففارقه ولده ، وتوجه معه ابنه الصغير جلوخان ، فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الأمان ثم غدره بعد أيام ، وقتله وقتل ولده ، وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي سعيد .

وأما حسن وطالش فإنتهما قصدا خوارزم وتوجها إلى السلطان محمد أوزبك فأكرم مثناهما وأنزلهما إلى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلهما .

وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمراطاش ، فهرب إلى ديار مصر فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الإسكندرية فأبى قبولها ، وقال : إنما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد ، وكان متى بعث إليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها إليه أحسن منها ليزراء على الملك الناصر ، وأظهر أموراً أوجبت قتله فقتله ، وبعث برأسه إلى أبي سعيد ، وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم . ولما قُتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوُفِّفَ بهما على عرفات وحُمِلَا إلى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فمنع من ذلك ودفن بالبقيع . والجوبان هو الذي جلب الماء إلى مكة ، شرفها الله تعالى .

ولما استقلَّ السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان ، وكانت تسمى بغداد خاتون ، وهي من أجمل النساء ، وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك ، وهو ابن عمته ، فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد وكانت أحظى النساء لديه . والنساء لدى الأتراك والترك هنَّ حظّ عظيم . وهم إذا كتبوا أمراً يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ، ولكلّ خاتون من البلاد والولايات المجاي العظيمة ، وإذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة .

وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها ، وأقامت على ذلك مدة أيام ، ثمّ لأنه تزوّج امرأة تسمى بدّشاد فأحبّها حبّاً شديداً وهجر بغداد خاتون ، فغارت لذلك ، وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع ، فمات وانقرض عقبه ؛ وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره . ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هي التي سمته أجمعوا على قتلها ، وبدّرَ لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ ، وهو من كبار الأمراء وقدمائهم ، فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها ، وطُرحت هنالك أياماً مستورة العورة بقطعة تليس^١ واستقلَّ

١ تليس : نوع من القماش كاللباد .

الشيخ حسن بملك عراق العرب ، وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبي سعيد كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته .

ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفاً تغلب على عراق العرب جميعاً ؛ ومنهم إبراهيم شاه ابن الأمير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ؛ ومنهم الأمير أرتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضاً ببلاد الروم ؛ ومنهم حسن خواجه بن الدمراطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقسم وقاشان والري ورامين وفرغان والكرج ، ومنهم الأمير طغتمور تغلب على بعض بلاد خراسان . ومنهم الأمير حسين ابن الأمير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ، ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كنج . ومنهم محمد شاه بن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ، ومنهم الملك قطب الدين تمهن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ، ومنهم السلطان أبو إسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس . وذلك مسيرة خمس وأربعين ؛ ومنهم السلطان افراسياب اتابك تغلب على إيدج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره .

ولنعد إلى ما كنا بسبيله : ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره . وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى ، وترتيبهم أنه يأتي كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له إما في الميمنة أو الميسرة . فإذا توافوا جميعاً وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره . وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه . ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم

يليهـم أهل الطرب ، وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان ، وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلّدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم صرنايات^١ . وهي تسمى عندنا بالغيطات ، فيضربون تلك الأبطال والصرنايات ثمّ امسكوا ، وغنّى عشرة آخرون نوبتهم هكذا إلى أن تمّ عشر نوبات ، فعند ذلك يكون النزول ؛ ويكون عن يمين السلطان وشماله ، حين سيره ، كبار الأمراء ، وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأبطال والأنفار والبوقات ثمّ مماليك السلطان ثمّ الأمراء على مراتبهم ، وكلّ أمير له أعلام وطبول وبوقات . ويتولّى ترتيب ذلك كلّ أمير جنده ، وله جماعة كبيرة . وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته أن يؤخذ تماقه فيملاً رملاً^٢ ويعلق في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل ، فيؤتى به إلى الأمير فيبسط على الأرض ويضرب خمساً وعشرين متّعة على ظهره سواء كان رفيعاً أو وضيعاً لا يحاشون من ذلك أحداً ، وإذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة ، وتنزل كلّ خاتون من خواتينه في محلة على حدة ، ولكلّ واحدة منهن الإمام والمؤذنون والقراء والسوّاق ، وينزل الوزراء والكتّاب وأهل الأشغال على حدة وينزل كلّ أمير على حدة ، ويأتون جميعاً إلى الخدمة بعد العصر ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة ، والمشاعل بين أيديهم ؛ فإذا كان الرحيل ضربُ الطبل الكبير ، ثمّ يضرب طبلُ الخاتون الكبرى التي هي الملكة ، ثمّ أبطال سائر الخواتين ، ثمّ طبلُ الوزير ، ثمّ أبطال الوزراء دفعةً واحدة ، ثمّ يركب أمير المقدّمة في عسكره ثمّ يتبعه الخواتين ، ثمّ أثقال السلطان وزاملته ، وأثقال الخواتين ، ثمّ أمير ثانٍ في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الأثقال والخواتين ، ثمّ سائر الناس .

وسافرت في هذه المحلة عشرة أيّام صحبة الأمير علاء الدين محمد إلى بلدة

١ الصرنايات : شيء كالطبول .

تبريز ، وكان من الأمراء الكبار الفضلاء ، فوصلنا بعد عشرة أيّام إلى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام ، وهناك قبر قازان ملك العراق ، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء ؛ وأنزلني الأمير بتلك الزاوية ، وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة . وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يُعرف بباب بغداد ووصلنا إلى سوق عظيمة تُعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيته في بلاد الدنيا ، كلّ صناعة فيها على حدة لا تخلطها أخرى ، واجتزت بسوق الجوهريّين فحار بصري ممّا رأيته من أنواع الجواهر ، وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدي التجّار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك ، وهن يشترينها كثيراً ويتنافسن فيها ، فرأيت من ذلك كلّ فتنة يُستعاذ بالله منها .

ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم ، ثمّ وصلنا إلى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف بجيلان ، وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة ، وعن يساره زاوية ، وصحنه مفروش بالمرمر ، وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج^١ ويشقه نهر ماء ، وبه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر ياسمين ، ومن عاداتهم أنّهم يقرأون به كلّ يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عمّ بعد صلاة العصر في صحن المسجد ، ويجتمع لذلك أهل المدينة . وبتنا ليلة بتبريز ، ثمّ وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد إلى الأمير علاء الدين بأن يصل إليه ، فعدت معه ولم ألق بتبريز أحداً من العلماء . ثمّ سافرنا إلى أن وصلنا محلّة السلطان فأعلمه الأمير المذكور بمكاني وأدخلني عليه فسألني عن بلادتي وكساني وأركبني ، وأعلمه الأمير أنّي أريد السفر إلى الحجاز الشريف ، فأمر لي بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل ، وكتب لي بذلك إلى أمير بغداد خووجه معروف ، فعدت إلى مدينة بغداد ، واستوفيت ما أمر لي به السلطان .

١ القاشاني والزليج : نوعان من الخزف الملون .

وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لي أن أسافر إلى الموصل وديار بكر لأشاهد تلك البلاد وأعود إلى بغداد في حين سفر الركب فأتوجّه إلى الحجاز الشريف ، فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دُجَيْل ، وهو يتفرّع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة ، ثمّ نزانا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخضبة فسيحة ، ثمّ رحلنا فنزلنا موضعاً على شطّ دجلة بالقرب من حصن يسمّى المعشوق ، وهو مبني على الدجلة ، وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سُرّ من رأى ، وتسمّى أيضاً سامراً ، ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق ، وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبقَ منها إلا القليل ، وهي معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلائها ودروس معالمها ، وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان كما بالحليّة ؛ ثمّ سرنا منها مرحلة ووصلنا إلى مدينة تكريت ، وهي مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة المساجد ، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق ، والدجلة في الجهة الشماليّة منها ، ولها قلعة حصينة على شطّ الدجلة ، والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ، ثمّ رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى قرية تعرف بالعقّر على شطّ الدجلة ، وبأعلاها ربوة كان بها حصن ، وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج ، وبناؤه حافل ، والقرى والعمارة متصلة من هنالك إلى الموصل ؛ ثمّ رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيّارة بمقربة من دجلة ، وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ، ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطباً ، وله رائحة طيّبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق ، فتقدفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً ، وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتتشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثمّ يقطعونه قطعاً ، وينقلونه ، وقد تقدّم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو . ثمّ سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما إلى الموصل .

مدينة الموصل

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب ، وقلعتها المعروفة بالحدياء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البناء مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينها وبين البلد شارعٌ متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله ؛ وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة ، وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ، ولم أرَ في أسوار البلاد مثله إلاّ السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند .

وللموصل ربضٌ كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق . وبه مسجد جامع على شطّ الدجلة تدور به شبابيك حديد ، وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والاتقان ، وأمامه مارستان ، وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث ، وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصّة رخام مئنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج ، فيرتفع مقدار القامة ثمّ ينعكس فيكون له مرأى حسن .

وقيساريّة الموصل مليحة لها أبواب حديد ، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض ، متقنة البناء .

وهذه المدينة مشهد جرجيس النبيّ ، عليه السلام ، وعليه مسجد ، والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل إليه ، وهو فيما بين الجامع الحديد وباب الجسر ، وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى .

وهناك تل يونس ، عليه السلام ، وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة إليه ، يقال أنّه أمر قومه بالتطهير فيها ثمّ صعدوا التل ودعا ودعوا ، فكشف الله عنهم العذاب ؛ وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال أنّه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس ، عليه السلام ؛ وأثر السور المحيط بها ظاهر ،

١ الخصة : البركة .

ومواضع الأبواب التي كانت لها متبينة .

وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومظاهر وسقايات يضمّ الجميع باباً واحداً ، وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير ، وله باب مرصّع يقال إنّه الموضع الذي به موقف يونس ، عليه السلام . ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال إنّه كان بيت متعبّده ، عليه السلام ، وأهل الموصل يخرجون في كلّ ليلة جمعة إلى هذا الرباط يتعبّدون فيه .

وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ، ولين كلام ، وفضيلة ، ومحبة في الغريب ، وإقبال عليه . وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين عليّ بن شمس الدين محمد الملقب بجيدر . وهو من الكرماء الفضلاء أنزلي بداره وأجرى عليّ الاتفاق مدّة مقامي عنده . وله الصدقات والإيثار المعروف ، وكان السلطان أبو سعيد يعظّمه ، وفوّض إليه أمر هذه المدينة وما يليها ، ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ، ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوّاً وعشيّاً ، وله شجاعة ومهابة ، وولده ، في حين كُتِبَ هذا ، في حضرة فاس مستقرّ الغرباء ومأوى الفرق ، ومحطّ رحال الوفود ، زادها الله بسعادة أيتام مولانا أمير المؤمنين بهجة وإشراقاً ، وحرس أرجاءها ونواحيها .

ثمّ رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تُعرف بعين الرصد ، وهي على نهر عليه جسر مبني ، وبها خان كبير ، ثمّ رحلنا ونزلنا قرية تُعرف بالمُوَيْلَحَة ، ثمّ رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ، ولذلك سمّيت جزيرة ، أكثرها خراب ، ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل ، وسورها مبني بالحجارة أيضاً ، وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ، ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله ، عزّ وجل ، الذي استوت عليه سفينة نوح ، عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل .

ثمّ رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيبين ، وهي مدينة عتيقة

متوسطة قد خرب أكثرها ، وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية ،
والبساتين الملتفة ، والأشجار المنتظمة ، والفواكه الكثيرة ، وبها يُصنع ماء الورد
الذي لا نظير له في العطار ، الطيب ، ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف
السوار ، منبعه من عيون في جبل قريب منها ، وينقسم انقساماً فيتخلل بساتينها ،
ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ، ويحترق صحن مسجدها
الاعظم ، وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب
الشرقي .

وبهذه المدينة مارستان ومدرستان ، وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ،
ولقد صدق أبو نواس في قوله :

طابَتْ نصيبينُ لي يوماً وطِيبَتْ لها ، يا لَيْتَ حَظِّي مِنَ الدُّنْيَا نصيبينُ

قال ابن جزيّ : والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوَخامة ،
وفيها يقول بعض الشعراء :

لنصيبينَ قَدَ عَجِبْتُ ، وَمَا فِي دَارِهَا لي دَعَا إلى الْعِلَاتِ
يُعَدُّمُ الْوَرْدَ أَحْمَرًا فِي ذُرَاهَا لِسْقَامِ حَتَّى مِنَ الْوَجَنَاتِ

ثمّ رحلنا إلى مدينة سنجار ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار
والعيون المطردة والأنهار ، مبنية في سفح جبل ، تشبه بدمشق في كثرة أنهارها
وبساتينها ، ومسجدها الجامع مشهور البركة يذكر ان الدعاء به مستجاب ،
ويدور به نهر ماء ويشقه ، وأهل سنجار أكراد ولهم شجاعة وكرم ، ممتن
لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب
كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر إلاّ بعد أربعين يوماً ، ويكون إفطاره على نصف
قرص من الشعير ، لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعا لي وزودني بدراهم
لم تزل عندي إلى أن سلّمني كفّار الهنود .

ثمّ سافرنا إلى مدينة دارا ، وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة ،
وهي الآن خراب لا عمارة بها ، وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا .
ثمّ رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة ماردين ، وهي عظيمة في سطح جبل من
أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقاً ، وبها تُصنع الثياب المنسوبة
إليها من الصوف المعروف بالمرعز ، ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في
قنّة جبلها .

قال ابن جزي : قلعة ماردين هذه تسمّى الشهباء ، وإيّاها غنى شاعر
العراق صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلّي بقوله في سمطه :

فَدَعَ رُبُوعَ الحَلَّةِ الفَيْحَاءِ ، وَازْوَرَ بِالْعَيْسِ عَنِ الزُّورَاءِ
وَلَا تَقِفْ بِالمَوْصِلِ الحَدْبَاءِ . إِنَّ شِهَابَ القَلْعَةِ الشَّهْبَاءِ
مَحْرَقُ شَيْطَانِ صُرُوفِ السَّهَرِ

وقلعة حلب تسمّى الشهباء أيضاً ، وهذه المسمّطة بديعة مدح بها الملك
المنصور سلطان ماردين ، وكان كريماً شهيراً الصيت ، ولي الملك بها نحو
خمسین سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر ، وصاهر السلطان خدابنده بابنته
دنیا خاتون .

ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي إليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفاً ، ورث الملك عن
أبيه ، وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه ،
يقصده الشعراء والفقراء فيُجزل لهم العطايا جرياً على سنن أبيه . قصده أبو عبد
الله محمد بن جابر الأندلسي المروي الكفيف مادحاً فأعطاه عشرين ألف درهم ،
وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام ، وله وزير كبير القدر ، وهو

الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاري ، قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار ، وقاضي قضاته الإمام الكامل برهان الدين الموصلية ، وهو ينتسب إلى الشيخ الولي فتح الموصلية . وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ، ويعتم بنحو ذلك ، وكثيراً ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه ، فإذا رآه من لا يعرفه ظنّه بعض خدام القاضي وأعوانه .

حكاية صالح بين زوجين

ذكر لي أن امرأة أتت هذا القاضي ، وهو خارج من المسجد ، ولم تكن تعرفه فقالت له : يا شيخ أين يجلس القاضي ؟ فقال لها : وما تريد مني ؟ فقالت : إن زوجي ضربني ، وله زوجة ثانية ، وهو لا يعدل بيننا في القسم ، وقد دعوته إلى القاضي فأبى ، وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه . فقال لها : وأين منزل زوجك ؟ فقالت : بقرية الملاحين خارج المدينة . فقال لها : أنا أذهب معك إليه . فقالت : والله ما عندي شيء أعطيك إياه . فقال لها : لا آخذ منك شيئاً .

ثم قال لها : اذهبي إلى القرية وانتظريني خارجها فإني على أثرك . فذهبت كما أمرها وانتظرته ، فوصل إليها وليس معه أحد ، وكانت عادته أن لا يدع أحداً يتبعه ، فجاءت به إلى منزل زوجها ، فلما رآه قال : ما هذا الشيخ النحس الذي معك ؟ فقال لها : نعم والله أنا كذلك ، ولكن أرض زوجتك .

فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه . وخاف ذلك الرجل وخجل . فقال له القاضي : لا عليك ، أصلح ما بينك وبين زوجتك . فأرضها الرجل من نفسه ، وأعطاهما القاضي نفقة ذلك اليوم ، وانصرف .

لقيت هذا القاضي وأصافني بداره ، ثم رحلت عائداً إلى بغداد ، فوصلت

إلى مدينة الموصل التي ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد ، وفيهم امرأة صالحة عابدة تُسمّى بالسّمت زاهدة ، وهي من ذرية الخلفاء ، حجّت مراراً ، وهي ملازمة الصوم ؛ سلمت عليها وكنت في جوارها ، ومعها جملة من الفقراء يخدمونها . وفي هذه الوجهة توفّيت ، رحمة الله عليها ، وكانت وفاتها بزُرُود ودفنت هنالك .

ثمّ وصلنا إلى مدينة بغداد فوجدت الحاج في اهبة الرحيل ، فقصدت أميرها معروف خواجه ، فطلبت منه ما أمر لي به السلطان . فعين لي شقّة مسحارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم ، وكتب لي بذلك ووجه إلى أمير الركب البهلوان محمد الخويج ، فأوصاه بي . وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيداً ، ولم أزل في جواره ، وهو يحسن ليّ ويزيدني على ما أمر به .

وأصابني عند خروجنا من الكوفة إسهال فكانوا ينزلوني من أعلى المحمل مرّات كثيرة في اليوم ، والأمير يتفقّد حالي ويوصي بي ، ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكّة حرم الله تعالى ، زادها الله شرفاً وتعظيماً ، وطفت بالبيت الحرام ، كرمه الله تعالى ، طواف القدوم ، وكنت ضعيفاً بحيث أؤدي المكتوبة قاعداً . فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس الأمير الخويج المذكور .

ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين ، فلمّا نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي . ولمّا انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكّة تلك السنة ، وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال مشيّد الدواوين مقيماً لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب ابن شيبه ، وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الأصيل وابن الحليلي وناصر الدين الأسيوطي . وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش ، وتفرّغت للطواف والعبادة والاعتماد .

وأتمى في أثناء تلك السنة حُجّاج الصعيد ، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم

١ الاستقلال منه : أي وجوده إياه قليلاً .

الدين الأصفهوني ، وهي أول حجة حجّها ، والأخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين الباسي قاضي مصر ، وجماعة غيرهم . وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك ، وهو من الفضلاء ، ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي ، حرسها الله ، فمنهم : الفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسي وأبو العباس ابن الفقيه أبي علي البلنسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن نافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامه ؛ ومن أهل القصر المجاز : الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس ابن خلوف ، ومن أهل القصر الكبير : الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى وولده .

ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تغزدمور من الخاصكية والأمير موسى بن قرمان والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب الممالك والتاج أبو إسحاق والست حدّق مربية الملك الناصر ، وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف ، وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين .

وكانت وقتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من سنة ثمان وعشرين^١ . ولما انقضى الحجّ أقيمت مجاوراً بمكة ، حرسها الله ، سنة تسع وعشرين ؛ وفي هذه السنة وصل أحمد ابن الأمير رميثة ومبارك ابن الأمير عطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال ، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق ، وفي تلك السنة ذكروا اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم ، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين . ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك ، فأمر رميثة برده فرد ، فبعثه ثانية على طريق جدّة حتى أعلم الملك الناصر بذلك .

١ سنة ١٣٢٧ م .

ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ، ولما انقضى الحج أقمتُ مجاوراً بمكة ، حرسها الله ، سنة ثلاثين^١ ، وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصري ، وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سُرِقوا ، فتشكوا إلى أيدمور بذلك ، فقال أيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة : ائتِ بهؤلاء السراق ! فقال : لا أعرفهم ، فكيف تأتي بهم ؟ وبعدُ فأهل اليمن تحت حكمنا ، ولا حكم عليهم لك . ان سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبي به . فشتمه أيدمور وقال له : يا قوّاد ! تقول لي هكذا ! وضربه على صدره ، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه ، وغضب له عبيده ، وركب أيدمور يريد عسكره ، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ، ووقعت الفتنة بالحرم ، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر .

ورمى التركُ بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرّض أهل مكة على القتال ، وركب ركب من الأتراك وأميرُهم خاص ترك ، فخرج إليهم القاضي والأئمة والمجاورون ، وفوق رؤوسهم المصاحف ، وحاولوا الصلح ، ودخل الحجاج مكة ، فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر .

وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشقّ عليه ، وبعث العساكر إلى مكة ، ففرّ الأمير عطيفة وابنه مبارك ، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة ، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده ، فأمنوا وأتت رميثة وكفّنه في يده إلى الأمير ، فخلع عليه وسلّمت إليه مكة ، وعاد العسكر إلى مصر .

وكان الملك الناصر ، رحمه الله ، حليماً فاضلاً ، فخرجت في تلك الأيام من مكة ، شرفها الله تعالى ، قاصداً بلاد اليمن ، فوصلت إلى حدّة ، وهي نصف الطريق ما بين مكة وجُدّة ، ثمّ وصلت إلى جُدّة ، وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال لإنّها من عمارة الفرس ، وبخارجها مصانع قديمة ،

.....
١ سنة ١٣٢٩ م .

وبها جِباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء
كثرة ، وكانت هذه السنة قليلة المطر ، وكان الماء يجلب إلى جُدّة على مسيرة
يوم ، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت .

حكاية الأعمى والخاتم

ومن غريب ما اتفق لي ببجدة أنّه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء ،
يقوده غلام ، فسلم عليّ وسَمّاني باسمي ، وأخذ بيدي ، ولم أكن عرفته قط ،
ولا عرفني ، فعجبت من شأنه ، ثمّ أمسك إصبعي بيده ، وقال : أين الفتحة ؟
وهي الخاتم ، وكنت حين خروجي من مكّة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ،
ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء ، فدفعت له خاتمي ، فلما سألني عنه هذا
الأعمى قلت له : أعطيته لفقير ! فقال : ارجع في طلبه ، فإنّ فيه أسماء مكتوبة
فيها سرّ من الأسرار ، فطال تعجّبي منه ، ومن معرفته بذلك كلّه ، والله
أعلم بحاله .

وبجدة جامع يُعرف بجامع الآبنوس، معروف البركة يستجاب فيه الدعاء ،
وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق ، وقاضيهما وخطيبها الفقيه عبد الله
من أهل مكّة شافعي المذهب ، وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة
أتى المؤذن وعدّ أهل جُدّة المقيمين بها ، فإن كملوا أربعين خطب وصلّى بهم
الجمعة ، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلّى ظُهوراً أربعاً . ولا يعتبر من ليس
من أهلها ، وإن كانوا عدداً كثيراً .

ثمّ ركبنا البحر من جدّة في مركب يسمّونه الجلبة ، وكان لرشيد الدين
الألفي اليمني الحبشي الأصل ، وركب الشريف منصور بن أبي نُثمي في جلبة
أخرى ، ورغب مني أن أكون معه ، فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال ،
فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . وكان هنالك جملة من أهل
اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلب ، وهم متأهبون للسفر .

حكاية الدراهم المخبوءة بالعديلة

ولمّا ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه 'بعديلة' دقيق ، وهي نصف حمل ، وبطّة^١ سمن يأخذهما من جلب أهل اليمن ؛ فأخذهما وأتى بهما إليه فأتاني التجار باكين وذكروا لي أن في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نُقِرَ ، ورغبوا مني أن أكلمه في ردها ، وإن يأخذ سواها ، فأتيته وكلمته في ذلك ، وقلت له : إنَّ للتجّار في جوف هذه العديلة شيئاً . فقال : إن كان سكرّاً^٢ ، فلا أردّه إليهم ؛ وإن كان سوى ذلك ، فهو لهم . ففتحوها فوجدوا الدراهم ، فردّها عليهم ، وقال لي : لو كان عجلان ما ردّها . وعجلان هو ابن أخيه رميثة ؛ وكان قد دخل في تلك الأيتام دار تاجر من أهل دمشق قاصداً لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها . وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل .

ثمّ سافرنا في هذا البحر بالريح الطيّبة يومين ، وتغيّرت الريح بعد ذلك وصدّتنا عن السبيل التي قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب ، واشتدّ الميّدُ بالناس ، ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يُعرف برأس دوائر ، فيما بين عيذاب وسواكن ، فنزلنا به ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء ، فشربنا منه وطبخنا .

ورأيت بذلك المرسى عجبا ، وهو خورٌ مثل الوادي يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكاً كلّ سمكة منها قدر الذراع ، ويعرفونه بالبورى ، فطبخ منه الناس كثيراً واشتوا . وقصدت إلينا طائفة من البُجاة ، وهم سكّان تلك الأرض سود

١ البطّة : النعي ، أي الظرف .

٢ السكر : الخمر .

الألوان ، لباسهم الملاحف الصفرة ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراء في عرض الإصبع . وهم أهل نجدة وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمالٌ يسمونها الصَّهْبَ يركبونها بالسروج ، فأكثرتنا منهم الجمال وسافرنا معهم في بريّة كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه .

وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حي من العرب يُعرفون بأولاد كاهل مختطين بالبجاة ، عارفين بلسانهم ، وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن ، وهي على نحو ستة أميال من البر ، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر ، والماء يجلب إليها في القوارب ، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر ، وهي جزيرة كبيرة ، وبها لحوم النعام والغزلان وحُمُرُ الوحش ، والمعزى عندهم كثيرٌ والألبان والسمن ، ومنها يُجلب إلى مكّة . وجوبهم الجرجور ، وهو نوع من الدرة كبيرٌ الحبّ يُجلب منها أيضاً إلى مكّة .

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي نعي ، وأبوه أميرُ مكّة ، وأخواه أميرها بعده ، وهما عطيفة ورُميثة اللذان تقدّم ذكرهما ، وصارت إليه من قبل البجاة ، فلنّتهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاة ، وأولاده كاهلٌ وعربٌ جهينة .

وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن ، وهذا البحر لا يُسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنّما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويُرسون وينزلون إلى البر ، فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب . وهم يسمون رئيس المركب الرّبّان ، ولا يزال أبداً في مقدّم المركب يُنبّه صاحب السكّان

.....
١ السكان : دقة المركب .

على الأحجار ، وهم يسمونها النبات .
وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن ، وصلنا إلى مدينة حليبي ،
وتعرف باسم ابن يعقوب ، وكان من سلاطين اليمن ساكناً بها قديماً . وهي
كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب ، وهم بنو حرام ، وبنو كينانة .
وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع ، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى
العبادة ، منهم : الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين ،
لباسه مرقعة وقلنسوة لبند ، وله خلوة متصلة بالمسجد ، فرشها الرمل ،
لا حصير بها ولا بساط ، ولم أرَ بها حين لقائي له شيئاً إلا إبريق الوضوء
وسفرة من خوص النخيل فيها كيسر شعير يابسة ، وصحيفة فيها ملح
وسعتر . فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك . ويسمع به أصحابه فيأتي لكل
واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء ، وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر
بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب ، وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم
موقفه للتنقل فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة ، فإذا صلوا العشاء
الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثلث
الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة
الإشراق ، فينصرفون بعد صلاتها ، ومنهم من يقيم إلى أن يصلّي صلاة
الضحى بالمسجد ، وهذا دأبهم أبداً ، ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقي
عمري ، فلم أوفق لذلك ، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

١ السفر : ما يبسط عليه الطعام . الخوص : ورق النخل ، الواحدة خوصة .

ذكر سلطان حلي

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بني كِنانة ، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء ، صحبته من مكّة إلى جدّة ، وكان قد حجّ في سنة ثلاثين . ولما قدّمت مدينته أنزلني وأكرمني ، وأقامت في ضيافته أياماً . وركبت البحر في مركب له ، فوصلت إلى بلدة السَّرْجَة ، بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهلبي ، وهم طائفة من تجّار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ، ولهم فضل وكرم وإطعام لأبناء السبيل ، ويُعينون الحجاج ، ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم ، وقد عُرِفوا بذلك واشتهروا به ، وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير .

وليس بالأرض من يماثلهم في ذلك إلاّ الشيخ بدر الدين النقّاش الساكن ببلدة القسّحة ، فله مثل ذلك من المآثر والإيثار .

وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين ثمّ رحلنا إلى مرسى الحادث ، ولم ننزل به ، ثمّ إلى مرسى الأبواب ، ثمّ إلى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً ، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره ، وهي بريّة لا شطيّة ، إحدى قواعد بلاد اليمن ، مدينةٌ كبيرةٌ كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه ، أملحُ بلاد اليمن وأجملُها . ولأهلها لطافة السمائل وحسنُ الأخلاق وجمالُ الصور ، ولنسائها الحسنُ الفائق الفائق ، وهي وادي الحصب الذي يُذكر في بعض الآثار أن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، قال لمعاذ في وصيته : يا معاذ ، إذا جئت وادي الحصب فهِرّول .

ولأهل هذه المدينة سبوتُ النخل المشهورة : وذلك أنّهم يخرجون في أيّام البسر والرطب في كلّ سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحدٌ من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات ،

وتخرج النساء ممتطيات الجمال ، في المحامل ؛ ولهن ، مع ما ذكرناه من الجمال الفات ، الأخلاق الحسنة والمكارم ؛ وللغريب عندهنّ مزية . ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودّعته ، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ؛ وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا تخرجن عن بلدن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل .

وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهلُ صلاح ودين وأمانة ومكارم وحُسن خلق ، لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني والفقير الصوفي المحقق أبا العباس الأبياني والفقير المحدث أبا علي الزبيدي ، ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ، ودخلت حدائقهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن ، ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العُجَيل اليمسّي ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامة للشيخ أحمد بن العجيل

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرةً إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل ، فجلس لهم خارج الزاوية ، واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه ، فسلموا عليه ، وصافحهم ، ورحّب بهم ، ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر ، وكانوا يقولون : أن لا قَدَرَ ، وإن المكلف يخلق أفعاله ؛ فقال لهم الشيخ : فإن كان الأمر على ما تقولون ، فقوموا عن مكانكم هذا ! فأرادوا القيام ، فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية . وأقاموا كذلك واشتدّ بهم الحرّ ولحقهم وهجُ الشمس وضجوا ممّا نزل بهم ، فدخل أصحاب الشيخ

إليه ، وقالوا له : إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد . فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيئ ، وأدخلهم زاويته ، فأقاموا في ضيافته ثلاثاً وانصرفوا إلى بلادهم . وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقريّة يقال لها غَسَّانة خارجَ زبيد ، ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل فأضافني وبِيتَ عنده وزُرتَ ضريح الشيخ ، وأقمت معه ثلاثاً ، وسافرت في صحبته إلى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي ، وهو من كبار الصالحين ، ويقدم حُجَّاجَ اليمن إذا توجَّهوا للحجّ ، وأهل تلك البلاد وأعرابُها يعظّمونه ويحترّمونه ، فوصلنا إلى جبّة ، وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ، فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته ، وسلّمت عليه معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيّام في خير مقام ، ثمّ انصرفنا ، وبعث معنا أحد الفقراء ، فتوجَّهنا إلى مدينة تَعِيزَ حضرة ملك اليمن ، وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها ، وأهلها ذوو تجرّ وتكبّر وفظاظة ، وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك ، وهي ثلاث محلات : إحداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته ، وتسمّى باسم لا أذكره ؛ والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمّى عُدَيْنة ؛ والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى ، وتسمّى المَحَالِب .

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيّد هِزْبَرُ الدين داود ابن السلطان المظفّر يوسف بن علي بن رسول ، شهِرَ جَدُّهُ برسول لأن أحد خلفاء بني العبّاس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميراً ، ثمّ استقلّ أولاده بالملك . وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه ، وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصد بي إلى قاضي القضاة

الإمام المحدث صفى الدين الطبري المكي ، فسلمنا عليه ورحب بنا ، وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثاً ، فلمّا كان في اليوم الرابع ، وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس ، دخل بي عليه ، فسلمت عليه . وكيفية السلام عليه أن يمسّس الإنسان الأرض بسبّابته ثمّ يرفعها إلى رأسه ويقول : أدام الله عزك . ففعلت كمثله ما فعله القاضي ، وقعد القاضي عن يمين الملك ، وأمرني فقعدت بين يديه ، فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد ، رضي الله عنه ، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللّور ، فأجبته عمّا سأل من أحوالهم ، وكان وزيره بين يديه ، فأمره بأكرامى وإنزالى .

وترتيب قعود هذا الملك أنّه يجلس فوق دُكّانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليهم منهم أصحاب السيوف والدق ويليهم أصحاب القسي ، وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السرّ وأمير جندار على رأسه ، والشاوشية ، وهم من الجنادرة ، وقوف على بعد ، فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : بسم الله ، فإذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده ، فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يسلم عليه ، فسلم ووقف حيث رُسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدّى أحد موضع ولا يقعد إلاّ من أمر بالقعود . يقول السلطان للأمير جندار : مر فلاناً يقعد ، فيتقدّم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلاً ، ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ، ثمّ يؤتى بالطعام ، وهو طعامان : طعام العامة وطعام الخاصة ، فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف ، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايع والأمراء ووجوه الأجناد . ويجلس كل إنسان للطعام معيّن لا يتعداه ، ولا يتزاحم أحد منهم أحداً . وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه ، فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه

عن سلاطين الهند .

وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أيّاماً وأحسن إليّ وأركبني ، وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء ، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى ، مدينة كبيرة حسنة العمارة ، بناؤها بالآجر والجصّ ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيّبة الماء ؛ ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنّما ينزل في أيّام القَيْظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كلّ يوم في ذلك الأوان ، فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلّة متدفقة .

ومدينة صنعاء مفروشة كلّها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . وجامع صنعاء من أحسن الجوامع ، وفيه قبر نبيّ من الأنبياء ، عليهم السلام . ثمّ سافرت منها إلى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم ، والجبال تحفّ بها ، ولا مدخل إليها إلاّ من جانب واحد ، وهي مدينة كبيرة ، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيّام المطر ، والماء على بعد منها ، فربّما منعت العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب . وهي شديدة الحرّ ، وهي مرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة من كُنابات وتانّة وكولم وقالقوت وفندراينه والشاليات ومنجورور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها ؛ وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضاً .

وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيّادين للسّمك ؛ وللتجّار منهم أموال عريضة ، وربّما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة .

١ مفروشة : أيّ بالهلاط .

حكاية كبش يعتق عبداً

ذكر أن بعضهم بعث غلاماً له ليشتري له كبشاً ، وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك أيضاً ، فاتفق الله لم يكن بالسوق في ذلك اليوم إلا كبش واحد ، ف وقعت المزايدة فيه بين الغلامين ، فأنتهي ثمنه إلى أربعمئة دينار ، فأخذه أحدهما وقال : إن رأس مالي أربعمئة دينار ، فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن ، وإلا دفعت فيه رأس مالي ، ونصرت نفسي وغلبت صاحبي . وذهب بالكبش إلى سيده ، فلمّا عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر إلى سيده خائباً ، فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه .

ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفاري ، فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجّار ، وله غلمان وخدام أكثر من ذلك ، ومع هذا كلّه ، فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق ، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون على الفقير ، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي ، وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وصاد ، وهو من خيار القضاة وفضلائهم ، أقمت في ضيافته أياماً .

وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت إلى مدينة زيلع ، وهي مدينة البربرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب ، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مققدشو ، ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن .

وأهل زيلع سود الألوان وأكثرهم رافضة ، وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقدر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً ؛ وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا

١ يؤثرون على الفقير : أراد يكرمونه .

المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقدرها ، ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مَقْدَشَوَ ، وهي مدينة متناهية في الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ، ولهم أغنام كثيرة ، وأهلها تجار أقوياء ، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها ، ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها .

ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق ، وهي القوارب الصغار ، إليه ، ويكون في كل صنبوق جماعة من شبّان أهلها ، فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجّار المركب ، ويقول : هذا نزيلي ، وكذلك يفعل كل واحد منهم ، ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد ، وحصلت له معرفة أهلها ، فإنه ينزل حيث شاء ، فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ، ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله ، فذلك البيع مردود عندهم ، ولهم منفعة في ذلك .

ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إليّ بعضهم فقال له أصحابي : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه ، وقال لهم : هذا نزيل القاضي ، وكان فيها أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة ، وبعث إليّ أحدهم فنزلت أنا وأصحابي وسلّمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ، فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال : السلطان ، وعادتهم أن يقولوا للسلطان : الشيخ ، فقلت له : إذا نزلت توجهت إليه ، فقال لي : إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان ، فذهبت معهم إليه كما طلبوا .

ذكر سلطان مقلشو

وسلطان مقلشو ، كما ذكرناه ، إنما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر ، وهو في الأصل من البربرة ، وكلامه بالمقدشي ، ويعرف اللسان العربي ، ومن عوائده أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربّاه ، وهو الرئيس ، وما وسقته ، ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ، فيعرف بذلك كله ويعرضه على السلطان ، فمن استحق أن ينزل عنده أنزله .

ولما وصلت مع القاضي المذكور ، وهو يُعرف بابن البرهان ، المصري الأصل ، إلى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي ، فقال له : بلغ الأمانة ، وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل ، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطى للقاضي كذلك ، وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق ، وجاء بقسمتهم من ماء الورد الدمشقي فسكب عليّ وعلى القاضي ، وقال : إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة ، وهي دار معدة لضيافة الطلبة ، فأخذ القاضي بيدي وجئنا إلى تلك الدار ، وهي بمقربة من دار الشيخ ، مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه ، ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ، ومعه أحد وزرائه ، وهو الموكل بالضيوف ، فقال : مولانا يسلم عليكم ويقول لكم : قدمتم خير مقدم . ثم وضع الطعام فأكلنا . وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن ، يجعلونه في صحيفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان ، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، ويطبخون المتوز قبل نضجه في اللبن الحليب ، ويجعلونه في صحيفة ، ويجعلون اللبن المروّب في صحيفة ويجعلون عليه الليمون المصبر ، وعناقيد الفلفل المصبر ، المخمل والمملوح ، والزنجبيل

١ المصبر : الشديد الحموضة .

الأخضر ، والعنبا ، وهي مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل ؛ وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات ، والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منّا عادةً ، وهم في نهاية من ضخامة الجسوم ، وسمنها ، ثمّ لما طعمنا انصرف عنا القاضي ، وأقمنا ثلاثة أيّام يؤتّى إلينا بالطعام ثلاث مرّات في اليوم ، وتلك عادتهم ، فلمّا كان في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة ، وكسوتهم فوطة خزّ يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل ، فإنّهم لا يعرفونها ، ودُرّاعة من المقطع المصري^٢ مُعلّمة ، وفرّجية^٣ من القدسي مبطّنة وعمامة مصريّة مُعلّمة ، وأتوا لأصحابي بكُسى تناسبهم ، وأتينا الجامع ، فصلّينا خلف المقصورة ، فلمّا خرج الشيخ من باب المقصورة سلّمت عليه مع القاضي ، فرحّب وتكلّم بلسانهم مع القاضي ثمّ قال باللسان العربي : قدمت خيرَ مقدّم ، وشرفّت بلادنا وأنستنا . وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده ، وهو مدفون هناك ، فقرأ ودعا ، ثمّ جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلّموا ، وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبّابته في الأرض ثمّ يجعلها على رأسه ويقول : أدام الله عزّك . ثمّ خرج الشيخ من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضي أن يتعل وأمرني أن أتعل ، وتوجّه إلى منزله ماشياً ، وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلّهم حفاةً ورُفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملوّن ، وعلى أعلى كلّ قبة صورة طائر من ذهب .

وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها^٤

١ الدراعة : جبة مشقوقة المقدم .

٢ المقطع المصري : ضرب من النسيج .

٣ الفرجية : ضرب من الأتية .

٤ الطروحات : ما يطرح على الأكتاف .

الحسان ، وهو مثقلد بفوطة حرير ، وهو معتمّ بعمامة كبيرة ، وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار ، وأمراء الأجناد أمامه ، وخلفه ، والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ، ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة ، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك ، وفرش للقاضي بساطاً لا يجلس معه غيره عليه ، والفقهاء والشرفاء معه ، ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر ، فلما صلّوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ، ثمّ ضربت الأبطال والأنفار والأبواق والصرنايات ، وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشياً وقف ، فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام ، فإذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلّموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا .

وتلك عادة لهم في كلّ يوم جمعة ، وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجّاج إلى المشور الثاني ، فيقعدون على دكاكين خشب متعدّدة لذلك ، ويكون القاضي على دكانة وحده ، وكل صنف على دكانة تخصّصهم لا يشاركهم فيها سواهم ، ثمّ يجلس الشيخ بمجلسه ، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره ، ثمّ يدخل الفقهاء فيقعد كبارؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ، ثمّ يدخل الشرفاء فيقعد كبارؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون ، وإن كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه ، ثمّ يدخل المشايخ والحجّاج فيجلس كبارؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ، ثمّ يدخل الوزراء ثمّ الأمراء ثمّ وجوه الأجناد طائفةً بعد طائفة أخرى ، فيسلمون وينصرفون ، ويؤتّى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم ، وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم ، ويأكل سائر الناس بدار الطعام ، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في

١ الطبلخانة : الموسيقى العسكرية .

الدخول على الشيخ ، ثمّ يدخل الشيخ إلى داره ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات ، فما كان متعلّقاً بالأحكام الشرعيّة حكم فيه القاضي ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى ، وهم الوزراء والأمراء ، وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه ، فيُخرج لهم الجواب من حينه ، على ظهر البطاقة ، بما يقتضيه نظره ، وتلك عادتهم دائماً .

ثمّ ركب البحر من مدينة مقدشو متوجّهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة كُئُلُوا من بلاد الزوج ، فوصلنا إلى جزيرة مَنَسَبَسَى ، وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ، ولا برّ لها ، وأشجارها الموز والليمون والاترج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون ، وهي شبه الزيتون ، ولها نوى كنواها إلاّ أنّها شديدة الحلاوة ؛ ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنّما يُجلب إليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسّمك ، وهم شافعيّة المذهب أهلُ دين وعفاف وصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وعلى كلّ باب من أبواب المساجد البئرُ والثّنّتان ، وعمقُ آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع ، والأرض حول البئر والمسجد مسطّحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجله ودخل ، ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجله ، ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذه ، وصبّ على يديه ويتوضّأ ، وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام .

وبتنا بهذه الجزيرة ليلةً وركبنا البحر إلى مدينة كُئُلُوا ، وهي مدينة عظيمة ساحليّة أكثر أهلها الزوج المستحكمو السواد ، ولهم شرّطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جنّادة ، وذكر لي بعض التجار أنّ مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كُئُلُوا وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة .

ومدينة كُنُونَا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلّها بالخشب ، وسقف بيوتها الدّيس^١ ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنّهم في برّ واحد متّصل مع كفّار الزّنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعيّة المذهب .

ذكر سلطان كلوا

وكان سلطانتها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن ، ويكنى أيضاً أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، وكان كثير الغزو إلى أرض الزّنوج يُغِير عليهم ويأخذ الغنائم ، فيُخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوي القُرْبَى في خزانة على حِدة فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم .

وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواهما ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جَمَّاز ، ومنصور بن لُبيّدة بن أبي نُسمي ، ومحمد بن شُميّلة بن أبي نُسمي ، ولقيت بمقدشو أئيل بن كيش بن جمّاز ، وهو يريد القدوم عليه ، وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف .

حكاية من مكارمه

حضرته يوم جمعة ، وقد خرج من الصلاة قاصداً إلى داره ، فتعرّض له أحد الفقراء اليحميّين فقال له : أبا المواهب ! فقال : لبيك يا فقير ما حاجتك ؟ قال : أعطني هذه الثياب التي عليك ! فقال له : نعم أعطيكها . قال : الساعة . قال : نعم الساعة . فرجع إلى المسجد ، ودخل بيت الخطيب ، فلبس ثياباً سواها ،

١ الدّيس : نوع من القصب .

وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخذها ! فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل ، وجعلها فوق رأسه ، وانصرف ، فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ، وأخذ ابنه وليّ عهده تلك الكسوة من الفقير ، وعوّضه عنها بعشرة من العبيد ، وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ، فأمر للفقير أيضاً بعشرة رؤوس من الرقيق وحملين من العاج ، ومعظم عطاياهم العاج ، وقلّمًا يعطون الذهب .

ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم ، رحمة الله عليه ، ولي أخوه داود فكان على الصدّة من ذلك ، إذا أتاه سائل يقول له : مات الذي كان يعطي ، ولم يترك من بعده ما يُعطى . وقيم الوفودُ عنده الشهورَ الكثيرةَ وحينئذٍ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه .

وركبنا البحر من كُتْلُوا إلى مدينة ظَنَقَارِ الحموضِ وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند ، ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل ، قد قطعتة مرّة من قَالْقُوطَ من بلاد الهند إلى ظَنَقَارِ في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيّبة ، لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار .

وبين ظَنَقَارِ وعدن ، في البرّ ، مسيرة شهر في صحراء ، وبينها وبين حَضْرَمَوْتِ ستّة عشر يوماً ، وبينها وبين عُمانَ عشرون يوماً . ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها ، والسوق خارج المدينة برَبَضٍ يُعرف بالخرجاء ، وهي من أقلد الأسواق ، وأشدّها نِتْنًا ، وأكثرها دُبَابًا لكثرة ما يُباع بها من الثمرات والسّمك ، وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها في النهاية من السمن ، ومن العجائب أن دوابهم إنّما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ، ولم أرَ ذلك في سواها .

١ الرّبض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

وأكثر باعتهما الخدم ، وهنّ يلبسن السواد ؛ وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء ، وكيفية سقيهم أنّهم يصنعون دلوّاً كبيرة ، ويجعلون لها حبلاً كثيرة ، ويتحزّم بكلّ حبل عبدٌ أو خادم ، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبّونها في صهريج يسقون منه ؛ ولهم قمح يستونونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلّت^١ ، والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند ، وهو أكثر طعامهم ؛ ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ، ولا تنفق في سواها ، وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلاّ منها .

ومن عاداتهم أنّه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيدُ السلطان إلى الساحل وصعدوا في صنبوق إلى المركب ، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب ، أو وكيله ، وللبتان ، وهو الرئيس ، وللكراني ، وهو كاتب المركب ، ويؤتّى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها ، وتضرب أمامهم الأطباء والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان ، فيسلمون على الوزير وأمير جندار ، وتُبعث الضيافة لكلّ من بالمركب ثلاثاً ، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان ، وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب ، وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ، ولباسهم القطن ، وهو يجلب إليهم من بلاد الهند ، ويشدّون القوط في أوساطهم عوض السروال ، وأكثرهم يشدّ فوطة في وسطه ، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحرّ ، ويغتسلون مرّات في اليوم ، وهي كثيرة المساجد ، ولهم في كلّ مسجد مطاهر كثيرة معدّة للاغتسال ، ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حساناً جداً . والغالب على أهلها رجالاً ونساء المرض المعروف بداء القيل ، وهو انتفاخ القدمين ، وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر^٢ ، والعياذ بالله !

ومن عوايدهم الحسنة التصافح في المسجد إثر صلاة الصبح والعصر ، يستند

١ السلّت : الشعر .

٢ الأدر : الفتق في صفاق البطن أو في الخصيتين .

أهل الصف الأوّل إلى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم ، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون .

ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنّه لا يقصدها أحد بسوء إلاّ عاد عليه مكروهٌ وحيل بينه وبينها . وذكر لي أن السلطان قطب الدين تيمهشتن بن طوران شاه صاحب هُرمُز نازلها مرّة من البرّ والبحر ، فأرسل الله سبحانه عليه ريحاً عاصفاً كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها . وكذلك ذكر لي أن الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها ، وهو أيضاً ابن عمّه ، فلمّا خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعاً ، ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها .

ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبهُ الناس بأهل المغرب في شؤونهم . نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم ، وهو عيسى بن عليّ ، كبيرُ القدر ، كريمُ النفس ، فكان له جوارٍ مسمّياتُ بأسماء خدّام المغرب : إحداهن اسمُها بُخَيْيْتَة والأخرى زاد المال . ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها . وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمام ، وفي كلّ دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلّي عليها صاحبُ البيت كما يفعل أهل المغرب ، وأكلهم الذرة ، وهذا التشابه كلّهُ ممّا يقوّي القول بأنّ صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حِمْيَر .

ويقربُ من هذه المدينة ، بين بساتينها ، زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد ابن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار ، وهذه الزاوية معظّمة عندهم يأتون إليها غدوّاً وعشيّاً ، ويستجيرون بها ، فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه . رأيتُ بها شخصاً ذُكِرَ لي أن له بها مدة سنين مستجيراً لم يتعرّض له السلطان . وفي الأيام التي كنتُ بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح .

أتيت هذه الزاوية فبتّ بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور ، وشاهدت لهما فضلاً عظيماً ، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه ، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربوه ، وكذلك يفعلون بمن يتوسّمون فيه الخير من الواردين عليهم . وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي ، وكان يتولّى خدمتي وغسل يديّ بنفسه ، ولا يتكلم ذلك إلى غيره .

وبمقربة من هذه الزاوية تُربة سلف السلطان الملك المنغث ، وهي معظمة عندهم ، ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له . ومن عادة الجند أنّه إذا تمّ الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة ، وأقاموا في جوارها إلى أن يُعطوا أرزاقهم ؛ وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقافُ ، وهي منازل عادٍ ، وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيّادي السمك ، وفي الزاوية قبرٌ مكتوب عليه : هذا قبر هُودَ بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام . وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعاً ، عليه مكتوب : هذا قبر هود بن عابر ، والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنّها بلادُهُ ، والله أعلم .

ولهذه المدينة بسايتين فيها موز كثير كبيرُ الجرم وُزِنَتْ بمحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية ؛ وهو طيبُ المطعم شديد الحلاوة ؛ وبها أيضاً التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ، ولا يكونان إلاّ ببلاد الهند ، وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقُربها منه ، اللهمّ إلاّ أن في مدينة زَبِيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل ، وإذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما .

ذكر التنبول

والتنبُولُ شجر يُغرس كما تُغرس دوالي العنب ، ويصنع له معرّشاتٌ من القصب كما تصنع لدوالي العنب . أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل ؛ ولا ثمر للتنبول وإنّما المقصود منه ورقه ، وهو يُشبه ورق العليّيق ، وأطيه الأصفر ، وتُجتنى أوراقه في كلّ يوم .

وأهل الهند يعظّمون التنبول تعظيماً شديداً، وإذا أتى الرجلُ دارَ صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه ، فكأنّما أعطاه الدنيا وما فيها ، لا سيّما إن كان أميراً أو كبيراً ، وإعطاؤه عندهم أعظمُ شأنًا وأدلّ على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب .

وكيفيّة استعماله أن يؤخذ قبله الفوفيل ، وهو شبهُ جَوْز الطيب ، فيُكسر حتى يصيرَ أطرافاً صغاراً ، ويجعله الإنسان في فمه ، ويلكه ثمّ يأخذ ورق التنبول فيجعلُ عليها شيئاً من النّورة ويمضغها مع الفوفل . وخاصيته أنّه يطيبُ النكهة ويذهب بروائح الفم ، ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويُفرّج آكله ، ويُعين على الجماع ، ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهبُ بما في فمه من رائحة كريهة ؛ ولقد ذكر لي أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلنَ غيره ، وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

ذكر النارجيل

وهو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنًا وأعجبها أمراً ، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلّا أن هذه تُثمر تمرّاً وتلك تُثمرُ

جوزاً ؛ وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبهة العينين والفم ، وداخلها شبهة الدماغ ، إذا كانت خضراء ، وعليها ليف شبهة الشعر ، وهم يصنعون به حبالات يخيطنون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ، ويصنعون منه الحبال للمراكب ، والجوزة منها ، وخصوصاً التي بجزائر ذيبة الميهل ، تكون بمقدار رأس الآدمي .

ويزعمون أن حكيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك ، ومعظماً لديه ، وكان للملك وزيرٌ بينه وبين هذا الحكيم معاداةٌ ، فقال الحكيم للملك : إن رأس هذا الوزير ، إذا قطع ودفن ، تخرج منه نخلةٌ تُثمر ثمراً عظيماً يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا ، فقال له الملك : فإن لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته ؟ قال : إن لم يظهر ، فاصنع برأسي كما صنعت برأسه . فأمر الملك برأس الوزير فقصطع وأخذ الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه ، وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت هذا الجوز . وهذه الحكاية من الأكاذيب ، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراعُ السمن والزيادة في حُمرة الوجه ؛ وأما الإعانة على الباءة ففعله فيها عجيب . ومن عجائبه أنه يكون في ابتداء أمره أخضر ، فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة . ومزاجه حارٌ مُعين على الباءة ، فإذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبهة المِلْعَقَة ، وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم . فيكون طعمه كطعم البيضة إذا شُرِبَتْ ولم يتم نضجها كلّ التمام . ويستغذى به ، ومنه كان غذائي أيتام لإقامتي بجزائر ذيبة الميهل مدة من عام ونصف عام .

وعجائبه أنه يُصنع منه الزيت والحليبُ والعسل ؛ فأما كيفية صناعة العسل منه فإن خدّام النخل منه ، ويسمّون الفازانية ، يصعدون إلى النخلة غدوّاً وعشيّاً . إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل ، وهم يسمّونه الأطواق ،

فيقطعون العِذْقَ الذي يخرج منه الثمر ، ويتركون منه مقدار اصبعين ، ويربطون عليه قدرًا صغيرة ، فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العِذْق ، فإذا ربطها غدوةً صعد إليها عشيًّا معه قلدحان من قشر الجوز المذكور ، أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العِذْق في أحد القدحين ، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر ، وينجر من العِذْق قليلًا ، ويربط عليه القدر ثانية ، ثم يفعل غُدوةً كفعله عشيًّا ، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبَّخه كما يطبخ ماء العنب ، إذا صُنع منه الرَبِّ ، فيصير عسلًا عظيم النفع طيبًا فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ، ويحملونه إلى بلادهم ، ويصنعون منه الحلواء .

وأما كيفية صنع الحليب منه ، فإنَّ بكلِّ دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ، ويكون بيدها عصا في أحد طرفيها حديدة مشرفة . فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويحرشون ما في باطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجتمع في صحيفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يُسْرَسُ ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضاً ، ويكون طعمه كطعم الحليب ، ويأتدُمُ به الناس .

وأما كيفية صنع الزيت ، فإنَّهم يأخذون الجوز بعد نَضِجِه وسقوطه عن شَجَرِه ، فيزيلون قشره ويقطعون قطعاً ، ويَجْعَل في الشمس ، فإذا ذبل طبَّخوه في القدور ، واستخرجوا زيتَه ، وبه يستصَبِّحون^٢ ، ويأتدُمون به ، ويجعله الناس في شعورهم ، وهو عظيم النفع .

ذكر سلطان ظفار

وهو السلطان الملك المُعَيْث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن ، وكان أبوه أميراً على ظفار من قبَل صاحب اليمن ، وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة .

١ يمرس : ينقع بالماء ويمرت باليد حتى تحلل أجزاؤه .

٢ يستصَبِّحون : يوقدون المصابيح .

ثمّ استبدّ الملك المغيث بمُلكها ، وامتنع من إرسال الهدية ، وكان من عزم ملك اليمن على محاربته ، وتعيين ابن عمّه لذلك ، ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفاً .

وللسلطان قصرٌ بداخل المدينة ، يسمّى الحصن ، عظيمٌ فسيح ، والجامعُ بلائذه ؛ ومن عادته أن تُضربَ الطبولُ والبوقاتُ والأنفَارُ والصرناياتُ على بابه كلّ يوم بعد صلاة العصر ، وفي كلّ يوم اثنين وخميس تأتي العساكر إلى بابه ، فيقفون خارج المَشُورِ ساعة وينصرفون ، والسلطان لا يخرج ولا يراه أحدٌ إلّا في يوم الجمعة ، فيخرج للصلاة ثمّ يعود إلى داره ، ولا يمنع أحدٌ من دخول المَشُور ، وأمير جندار قاعدٌ على بابه وإليه ينتهي كلّ صاحب حاجة أو شكاية ، وهو يطالع السلطان ، ويأتيه الجواب للحين .

وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبُه من القصر وسلاحُه ومماليكُه إلى خارج المدينة وأُتيَ بجمل عليه مَحْمَلٌ مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركبُ السلطان ونديمُه في المحمل ، بحيث لا يُرى ، وإذا خرج إلى بستانه وأحبّ ركوب الفرس ركبهُ ونزل عن الجمل .

وعادته أن لا يعارضه أحدٌ في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكايته ، ولا غيرها ، ومن تعرّض لذلك ضُربَ أشدّ الضرب ، فتجد الناس ، إذا سمعوا بخروج السلطان فرّوا عن الطريق وتحمّسوها .

ووزيرُ هذا السلطان الفقيه محمد العدني ، وكان معلّم صبيان فعلّم هذا السلطان القراءة والكتابة ، وعاهده على أن يستوزره إن ملك ، فلمّا ملك استوزره ، فلم يكن يَحْسِنُها ، فكان الاسم له والحكمُ لغيره .

ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريدُ عُمانَ في مركب صغير لرجل يعرف بعليّ بن إدريس المصيري ، من أهل جزيرة مَصيرة ، وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك ، وبه ناسٌ من العرب صيّادون للسماك ، ساكنون هنالك ،

١ المشور : مكان الاجتماع للشورى .

وعندهم شجر الكُنْدُر ، وهو رقيق الورق ، وإذا شُرطت الورقة منه قطرَ منها ماء شبه اللبن ، ثمّ عاد صمغاً ، وذلك الصمغ هو اللّبانُ ، وهو كثيرٌ جدّاً هنالك ، ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلّا من صيد السمك ، وسمكُهم يُعرف باللّخَم ، وهو شبيه كلب البحر ، يُشَرَّحُ ويُقَدَّدُ ويُقَتَّتْ به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال .

وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيّام ووصلنا إلى جبل لُمعان ، وهو في وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

ذكر وليّ لقيناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة ، فوجدنا بها شيخاً نائماً ، فسلمنا عليه ، فاستيقظ ، وأشار بردّ السلام ، فكلّمناه فلم يكلّمنا ، وكان يحرك رأسه ، فأتاه أهلُ المركب بطعام فأبى أن يقبله ، فطلبنا منه الدّعاء فكان يحرك شفتيه ، ولا نعلم ما يقول ، وعليه مرقعة وقلنسوة لبد ، وليس معه ركوة ولا إبريق ولا عُكّاز ولا نعل . وقال أهل المركب إنهم ما رأوه قطّ بهذا الجبل .

وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل ، وصلّينا معه العصر والمغرب ، وجئنا بطعام فردّه وأقام يصلّي إلى العشاء الآخرة ثمّ أذن وصلّينا معه ، وكان حسن الصوت بالقراءة ، مُجيداً لها ، ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أوماً إلينا بالانصراف ، فودّعناه وانصرفنا ، ونحنُ نعجبُ من أمره . ثمّ إنني أردتُ الرجوع إليه لما انصرفنا ، فلمّا دنوت منه غلبَ عليّ الخوف ورجعت إلى أصحابي وانصرفتُ معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير ، وليست بها عمارة ، فأرسينا وصعدنا إليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشّقائق

١ الشّقائق ، لعله تحريف شقارق ، واحدها شقراق : طائر أعظم من الحمام .

إلاّ أنّها أعظم منها . وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملةً من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة ، وأكلوها .
وكان يجالسني تاجرٌ من أهل جزيرة مصيرة ساكنٌ بظفار اسمه مُسليم ، فرأيتُه يأكل معهم تلك الطيور ، فأُنكرت ذلك عليه ، فاشتدّ خجله ، وقال لي : ظننتُ أنّهم ذبحوها ، وانقطع عني بعد ذلك من الخجل ، فكان لا يقربني حتى أدعوه .

وكان طعامي في تلك الأيام بذلك المركب التمر والسّمك ، وكانوا يصطادون بالعدوّ والعشيّ سمكاً يسمّى بالفارسيّة شيرماهي ، ومعناه أسد السمك ، لأنّ شير هو الأسد وماهي السمك ، وهو يشبه الحوت المسمّى عندنا بتازرّت ، وهم يقطّعون قطعاً ويشوونه ويعطون كلّ من في المركب قطعة لا يُفصلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه ، ويأكلونه بالتمر . وكان عندي خبزٌ وكعك استصحبتهما من ظفار ، فلمّا نفدا كنتُ أقتات من ذلك السمك في جملةً . وعيّدنا عيدَ الأضحى على ظهر البحر ، وهبّت علينا في يومه ريحٌ عاصفٌ بعد طلوع الفجر ، ودامت إلى طلوع الشمس وكادت تُغرّقنا .

كرامة للحاج خضر

وكان معنا في المركب حاجٌّ من أهل الهند يسمّى بخضر ، ويدعى بمولانا لأنّه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة ، فلمّا رأى هول البحر لفّ رأسه بعباءة كانت له ، وتناوم ، فلمّا فرج الله ما نزل بنا قلت له : يا مولانا خضر كيف رأيت ؟ قال : قد كنتُ عند الهول أفتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاؤوا فلا أراهم ، فأقول : الحمد لله ! لو كان الفرق لأنوا لقبض الأرواح ، ثمّ أغلق عيني ، ثمّ أفتحها ، فانظر كذلك إلى أن فرج الله عنا .
وكان قد تقدّمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينبجُ منه إلاّ رجل واحد

خرج عوماً بعد جهدٍ شديد ، وأكلتُ في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكله قبله ولا بعده ، صنعه بعض تجّار عُمان ، وهو من الدرة طبخها من غير طحن ، وصبّ عليها السيلان ، وهو عسل التمر ، وأكلناه .

ثمّ وصلنا إلى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنّا فيه ، ومرّ على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث ، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلّا من السمك ، ولم ينزل إليها لبعدها عن السّاحل ، وكنتُ قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة ، وأقمنا بها يوماً وتوجّه صاحب المركب فيه إلى داره ، وعاد إلينا . ثمّ سرنا يوماً وليلة فوصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصُور ، ورأينا منها مدينة قلّهات في سفح جبل فخيّل لنا أنّها قرية . وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله ، فلمّا ظهرت لنا المدينة أحببت المشي إليها والمبيت بها ، وكنتُ قد كرهتُ صحبة أهل المركب ، فسألْتُ عن طريقها فأخبرت أنّي أصل إليها عند العصر ، فاكترت أحد البحرّيين ليدلّني على طريقها ، وصحبني خضر الهندي الذي تقدّم ذكره وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم ، وأخذتُ أثواباً كانت لي ، فدفعْتُها لذلك الدليل ليكفيّني مئونة حملها ، وحملتُ في يدي رُحماً ، فإذا ذلك الدليل يحبّ أن يستولي على أثوابي ، فأتّى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المدّ والجزر ، فأراد عبوره بالثياب ، فقلتُ له : إنّما تعبر وحدك ، وترك الثياب عندنا ، فإن قدرنا على الجواز جزنا وإلّا صعدنا نطلب المجاز ، فرجع . ثمّ رأينا رجالاً جازوه عوماً فتحققنا أنّه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب ، فحينئذٍ أظهرتُ النشاط ، وأخذتُ بالحزم وشدّدتُ وسطي ، وكنتُ أهرّ الرّمح فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتّى وجدنا مجازاً ، ثمّ خرجنا إلى صحراء لا ماء بها ، وعطشنا واشتدّ بنا الأمر ، فبعث الله لنا فارساً في جماعة من أصحابه . وبید أحدهم ركوة ماء ، فسقاني وسقى صاحبي ، وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا ، وبيننا وبينها خنادقٌ نمشي فيها الأميال الكثيرة .

فلما كان العشي أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر ، وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة ، فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب ، فقلت له : إنما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها ، وبينها وبين البحر نحو ميل . فلما أظلم الليل قال لنا : إن المدينة قريبة منا ، فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها إلى الصباح . فخفت أن يتعرض لنا أحد في طريقنا ، ولم أحقق مقدار ما بقي إليها ، فقلت له : إنما الحق أن نخرج عن الطريق فننام ، فإذا أصبحنا أتينا المدينة إن شاء الله .

وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك ، فخفت أن يكونوا لصوصاً ، وقلت التستر أولى ، وغلب العطش على صاحبي ، فلم يوافق على ذلك ، فخرجت عن الطريق ، وقصدت شجرة من شجر أم غيلان ، وقد أعييت وأدركني الجهد ، لكنني أظهرت قوةً وتجلدتُ خوف الدليل . وأما صاحبي فمريض لا قوة له ، فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي ، وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي ، وأمسكتُ الرمح بيدي ، ورقد صاحبي ورقد الدليل ، وبقيتُ ساهراً ، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أني مستيقظ ؛ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا إلى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة ، فبعثتُ الدليل ليأتينا بماء ، وأخذ صاحبي الثياب .

وكان بيننا وبين المدينة مهاوٍ وخنادق ، فأتانا بالماء فشربنا ، وذلك أوان الحر ، ثم وصلنا إلى مدينة قلّتهات ، فأتيناها ونحن في جهد عظيم ، وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها ، فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب : لا بد لك أن تذهب معي إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك ، ومن أين قدمت . فذهبت معه إليه فرأيتُه فضلاً حسن الأخلاق ، وسألني عن حالي وأنزلي وأقستُ عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام .

ومدينة قلّتهات على الساحل ، وهي حسنة الأسواق ، ولها مسجد من أحسن

المساجد حيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج ، وهو مرتفع يُنظر منه إلى البحر والمرسى ، وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ، ومعنى بيبي عندهم الحرّة . وأكلتُ بهذه المدينة سمكاً لم أكل مثله في إقليم من الأقاليم ، وكنت أفضّله على جميع اللحوم ، فلا أكل سواه ، وهم يشوونه على ورق الشجر . ويجعلونه على الأرز ويأكلونه .

والأرز يُجلب إليهم من أرض الهند ، وهم أهل تجارة ومعيشتهم ممّا يأتي إليهم في البحر الهندي ، وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشدّ الفرح ؛ وكلامهم ليس بالفصيح مع أنّهم عرب ، وكلّ كلمة يتكلّمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً : تأكل لا ! تمشي لا ! تفعل كذا لا ! وأكثرهم خوارج لكنّهم لا يقادرون على إظهار مذهبهم لأنّهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهّن ملك هرمز ، وهو من أهل السنّة .

وبمقرّبة من قلّعات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيّب إذا أضافه المتكلّم لنفسه ، وهي من أجمل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارية ، وأشجار ناضرة ، وبساتين كثيرة ، ومنها تُجلب الفواكه إلى قلّعات ، وبها الموز المعروف بالمروراري ، والمروراري بالفارسيّة هو الجوهر (المرور الجوهري) وهو كثير بها ، ويُجلب منها إلى هرمز وسواها ؛ وبها أيضاً التنبول لكن ورقته صغيرة ؛ والتمر يُجلب إلى هذه الجهات من عُمان .

ثمّ قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيّام في صحراء . ثمّ وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع . وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس . ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد ، وهي مدينة نزّوا ، مدينة في سفح جبل تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقيّة ؛ وعادة أهلها أنّهم يأكلون في صحن المساجد ، يأتي كلّ إنسان بما عنده ويجتمعون للأكل في صحن المسجد ، ويأكل معهم الوارد والصادر ،

١ الصحنون ، الواحد صحن : ساحة الدار أو وسطها .

ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبداً ، وهم اباضية المذهب ، ويصلّون الجمعة ظهراً أربعاً ، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلاماً شبيه الخطبة يُرضي^٢ فيه عن أبي بكر وعمر ، ويسكت عن عثمان وعلي ، وهم إذا أرادوا ذكر علي ، رضي الله عنه ، كنوا عنه فقالوا : ذكر عن الرجل ، أو قال الرجل ، ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ، ونساؤهم يكثرن الفساد ، ولا غيره عندهم ، ولا انكار لذلك ، وسنذكر حكاية أثر هذا ممّا يشهد بذلك .

ذكر سلطان عُمان

وسلطانها عربي من قبيلة الأزد بن الغوث ، ويعرف بأبي محمد بن نبهان ، وأبو محمد عندهم سِمَة لكل سلطان يلي عمان ، كما هي أتابك عند ملوك اللور ، وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ، ولا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب أو غيره ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويُعيّن له الضيافة ، ويُعطيه على قدره . وله أخلاق حسنة ، ويؤكل على مائدته لحم الحمار الإنسي ، ويُباع بالسوق لأنّهم قائلون بتحليله ، ولكنّهم يُسخفون ذلك عن الوارد عليهم ، ولا يظهرونه بمحضره .

ومن مُدن عُمان مدينة زَكِي لم أدخلها ، وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة منها القُريّات وشبا وكلبا وخُورفكان ، وصحار ، وكلّها ذات أنهار وحدائق واشجار ونخل ، وأكثر هذه البلاد في عُمالة هُرْمُز .

١ الاباضية : فرقة من الخوارج تبعوا عبد الله بن أباض المري .

٢ يرضي : يقول رضي الله عنه .

حكاية السلطان حامي الفساد

كنتُ يوماً عند هذا السلطان أبي محمد بن نَبهان ، فأنته امرأة صغيرة السن ،
 حسنة الصورة ، باديةُ الوجه . فوقفت بين يديه وقالت له : يا أبا محمد طغى
 الشيطان في رأسي ، فقال لها : اذهبي واطردي الشيطان ! فقالت له : لا أستطيع ،
 وأنا في جوارك يا أبا محمد ! فقال لها : اذهبي فافعلي ما شئت . فذكر لي لما
 انصرفْتُ عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب
 للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يُغيروا عليها ، وإن قتلوها قُتلوا بها
 لأنّها في جوار السلطان .

ثمّ سافرتُ من بلاد عُمان إلى بلاد هُرْمُز ، وهُرْمُزُ مدينة على ساحل
 البحر ، وتسمّى أيضاً مُوغُ أستان ، وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينهما
 في البحر ثلاثة فراسخ .

ووصلنا إلى هرمز الجديدة ، وهي جزيرةٌ مدينتها تسمّى جَرَوْن ، وهي
 مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة ، وهي مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل
 سلع الهند إلى العراقيين وفارس وخراسان ، وهذه المدينة سكّنى السلطان ،
 والجزيرةُ التي فيها المدينة مسيرةٌ يوم ، وأكثرها سِيّاخٌ وجبال ملح ، وهو
 الملح الداراني ، ومنه يصنعون الأواني المزيّنة والمنارات التي يضعون السّرّج عليها.
 وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان ، ويقولون
 بلسانهم خَرَمًا وماهي لُوت باد شاهي ، معناه بالعربي : التمر والسمك طعام
 الملوك .

والماء في هذه الجزيرة له قيمة ، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع
 فيها ماء المطر ، وهي على بعد من المدينة ، ويأتون إليها بالقرَب فيملأونها
 ويرفعونها على ظهورهم إلى البحر يوسقونها في القوارب ، ويأتون بها إلى المدينة .

١ السباخ ، الواحدة سبخة : أرض ذات نر وملح .

ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان ، فترى الناس يدخلون من إحدهما ويخرجون من الأخرى .

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الاقصاباني ، وأصله من بلاد الروم ، فأضافني وزارني وألبسني ثوباً وأعطاني كَمَرًا صَحْبَةً ، وهو يُحْتَبَى به فيُعِين الجالس فيكون كأنه مستندٌ ، وأكثر فقراء العجم يتقلّدونه .

وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزارٌ يُنسب إلى الخضر وإلياس ، عليهما السلام ، يُذكر أنهما يصلّيان فيه ، وظهرت له بركات وبراهين ، وهناك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر . وأقمنا عنده يوماً وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت غاراً لسكناه فيه زاويةً ومجلساً وداراً صغيراً ، له فيها جارية ، وله عبيدٌ خارج الغار يرفعون بقرأً له وغنماً ؛ وكان هذا الرجل من كبار التجار فحجّ البيت ، وقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة ، ودفع ماله لرجل من إخوانه يتجرّ له به . وبتنا عنده ليلةً فأحسن القيرى وأجمل ، رضي الله تعالى عنه ، وسميّة الخير والعبادة لائحة عليه .

ذكر سلطان هرمز

وهو السلطان قطب الدين تَمَهْتَن بن طوران شاه ، وهو من كرماء السلاطين كثيرُ التواضع ، حسنُ الأخلاق ، وعادته أن يأتي لزيارة كلٍّ من يقدمُ عليه من فقيهٍ أو صالحٍ أو شريف ، ويقوم بحقه .

ولمّا دخلنا جزيرته وجدناه مهيباً للحرب مشغولاً بها مع ابني أخيه نظام

١ الكمر : ضرب من الرناير .

الدين ، فكان في كل ليلة يتيسر للقتال ، والغلاء مستولٍ على الجزيرة ، فأتى إلينا وزيره شمسُ الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب .

وأقمنا عندهم ستة عشر يوماً ، فلما أردنا الانصراف قلتُ لبعض الأصحاب: كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان؟ فجئنا على الوزير وكان في جوار الزاوية التي نزلت بها ، فقلتُ له : إني أريد السلام على الملك . فقال : بسم الله ، وأخذ بيدي ، فذهب بي إلى داره ، وهي على ساحل البحر والأجفان^١ مجلسة عندها ، فإذا شيخ عليه أقبية ضيقة دسيسة ، وعلى رأسه عمامة ، وهو مشدودُ الوسط بمنديل ، فسلم عليه الوزير ، وسلمتُ عليه ، ولم أعرف أنه الملك . وكان إلى جانبه ابنُ أخته ، وهو عليّ شاه بن جلال الدين الكيجي ، وكانت بيني وبينه معرفة^٢ ، فأنشأتُ أحادثه ، وأنا لا أعرف الملك ، فعرفني الوزير بذلك ، فخرجتُ منه لإقبالي بالحديث على ابن أخته دونه ، واعتذرت ، ثمّ قام فدخل داره ، وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، ودخلتُ مع الوزير ، فوجدناه قاعداً على سرير ملكه ، وثيابه عليه لم يبدلها ، وفي يده سبحة جواهر لم ترَ العيون مثلاً لها لأنّ مغاصات الجواهر تحت حكمه ، فجلس أحد الأمراء إلى جانبه ، وجلستُ إلى جانب ذلك الأمير ، وسألني عن حالي ومقدمي وعمّن لقيته من الملوك ، فأخبرته بذلك . وحضرَ الطعامُ فأكلَ الحاضرون ، ولم يأكل معهم ، ثمّ قام فودعته وانصرفت .

وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرةً من مدينته الجديدة برسم التزهة في هُرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ، كما قدّمناه ، فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعا لنفسه ، وبايعه أهلُ الجزيرة ، وبايعته العساكر ، فخاف قطبُ الدين على نفسه ، وركب البحر إلى مدينة قتلّهات التي تقدّم ذكرها ، وهي من جملة بلادها ، فأقام بها شهوراً وجهزَ المراكب

١ الأجفان : نوع من السفن موقوفة عند الدار لحمايتها .

وأَتى الجزيرة ، فقاتله أهلُها مع أخيه وهزموه ، وعاد إلى قَلْهات ، وفعل ذلك مراراً ، فلم تكن له حيلةٌ إلاّ أن يرأسل بعض نساء أخيه ، فسمّته ومات ، وأتى هو إلى الجزيرة ، فدخلها وفرّ ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قيس ، حيث مغاص الجواهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ، ويغيرون على بلاده البحريّة حتى تخرب معظمُها . ثمّ سافرنا من مدينة جرّون برسم لقاء رجل صالح ببلد خُنْج بال ، فلمّا عدّينا البحر اكترينا دوابّ من التركمان ، وهم سكّان تلك البلاد ، ولا يُسافِرُ فيها إلاّ معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق ؛ وفيها صحراء مسيرة أربع يقطعُ بها الطريق لصووس الأعراب ، وتهبّ فيها ريحُ السّموم في شهري تمّوز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ؛ ولقد ذُكر لي أنّ الرجل إذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كلّ عضو منه عن سائر الأعضاء ؛ وبها قبورٌ كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح ؛ وكنا نساfer فيها بالليل ، فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أمّ غيلان ، ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس . وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطعُ الطريق بها جمالُ الملك اللُّكُ الشهير الاسم هنالك .

حكاية فقراء مدينة لار

كان جمال اللُّكُ من أهل سيجستان ، أعجميّ الأصل ، واللُّكُ معناه الأقطع ، وكانت يدهُ قُطعت في بعض حروبه ، وكانت له جماعةٌ كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق ، وكان يبني الزوايا ويطعمُ الوارد والصادر من الأموال التي يسلبها من الناس . ويقال إنّه كان يدعو ان لا يُسلّط إلاّ على من لا يزكّي ماله ؛ وأقام على ذلك دهرأ ، وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفُها سواهم ، ويدفنون بها قيرَب الماء ورواياه ،

فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، ويرجع العسكر عنهم خوفاً من الهلاك .

وأقام على هذه الحالة مدّة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ، ثمّ تاب وتعبّد حتى مات ، وقبره يُزار بببلده .

وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كَوْرَاسْتان ، وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين ، وهو شديد الحرّ ، ثمّ سرنا منه ثلاثة أيّام في صحراء مثل التي تقدّمت ، ووصلنا إلى مدينة لار ، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ، ولها أسواقٌ حسان ، ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دُلُف محمد ، وهو الذي قصدنا زيارته بِخُشْنَج بال ، وبهذه الزاوية ولدّه أبو زيد عبد الرحمن ، ومعه جماعة من الفقراء ، ومن عادتهم أنّهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كلّ يوم ، ثمّ يطوفون على دور المدينة فيُعْطاهم من كلّ دار الرغيفُ والرغيفان فيُطعمون منها الوارد والصادر .

وأهلُ الدور قد ألفوا ذلك ، فهم يجعلونه في جملة قوتهم ويعدّونه لهم إعانةً على إطعام الطعام ؛ وفي كلّ ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاءها ويأتي كلّ منهم بما تيسّر له من الدراهم ، فيجمعونها ويُنفقونها تلك الليلة ، ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة ، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطانٌ يسمّى بجلال الدين تُركماني الأصل ، بعث إلينا بضيافة ، ولم نجتمع به ، ولا رأيناه ، ثمّ سافرنا إلى مدينة خُشْنَج بال ، وبها سكّنى الشيخ أبي دُلُف الذي قصدنا زيارته ، وبزاويته نزلنا ، ولما دخلتُ الزاوية رأيته قاعداً بناحية منها على التراب ، وعليه جبةٌ صوف خضراء بالية ، وعلى رأسه

عِمامة صوف سوداء ، فسَلِّمْتُ عليه ، فأحسن الردَّ وسألني عن مقدمي وبلادي ، وأنزَلني ، وكان يبعث إليَّ الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع ، صائم الدهر ، كثير الصلاة .

ولهذا الشيخ أبي دُلْف شأنٌ عَجِيبٌ وأمرٌ غريب ، فإن نفقته في هذه الزاوية عظيمة ، وهو يُعطي العطاء الجزيل ، ويكسو الناس ويُرْكِبهم الخيل ، ويحسن لكلَّ وارد وصادر ، ولم أرَ في تلك البلاد مثله ، ولا يُعلِّم له جهةٌ إلاَّ ما يتَّصله من الإخوان والأصحاب ، حتى زعم كثيرٌ من الناس أنَّه يُنفق من الكون^١ .

وفي زاويته المذكورة قبرُ الشيخ الولي الصالح القطب دانيال ، وله اسم بتلك البلاد شهير ، وشأن في الولاية كبير ، وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تَمَهَشَن بن طُوران شاه .

وأقمتُ عند الشيخ أبي دلف يوماً واحداً لاستعجال الرفقة التي كنتُ في صحبتها، وسمعتُ أنَّ بالمدينة خُسُج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين، فرحتُ إليها بالعشي، وسلِّمْتُ على شيخهم وعليهم ، ورأيتُ جماعةً مباركة قد أَثَّرت فيهم العبادة ، فهم صفرُ الألوان ، نَحَاف الجسوم ، كثيرو البُكاء ، غزيرو الدموع ، وعند وصولي إليهم أتوا بالطعام ، فقال كبيرهم : ادعوا إليَّ ولدي محمداً ، وكان معتزلاً في بعض نواحي الزاوية ، فجاء إلينا الولدُ ، وهو كأنما خرج من قبر ممّا نهكته العبادة، فسَلِّم وقعد، فقال له أبوه : يا بُنَيَّ ! شارك هؤلاء الواردين في الأكل تَنَل من بركاتهم. وكان صائماً ، فأفطر معنا . وهم شافعيَّة المذهب . فلمّا فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا .

ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمّى أيضاً بِسِيراف ، وهي على ساحل بحر الهند المتَّصل ببحر اليمن وفارس ، وعِدادُها في كُور^٢ فارس ، مدينة لها

١ الكون : عالم الوجود ؛ ومصدر كان عليه : أي تكفل به ، ولعل المراد أنه ينفق ويتكفل السلطان بنفقته .

٢ الكور ، الواحدة كورة : البقعة التي تجتمع فيها القرى والمساكن .

انفساحٌ وسعةٌ ، طيبة البقعة ، في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والأشجار
الناضرة ، وشربُ أهلها من عيون منبعثة من جبالها . وهم عجمٌ من الفرس ،
أشرافٌ ، وفيهم طائفةٌ من عرب بني سفافٍ ، وهم الذين يغوصون على الجوهر .

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سیراف والبحرين في خَور راکد مثل الوادي
العظيم ، فإذا كان شهر إبريل وشهر مايه^١ تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون
وتجّار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن
يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم ، وهي السلحفاة ، يصنع من هذا العظم
أيضاً شكلاً شبه المقرض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلًا في وسطه ، ويغوص .
ويتفاوتون في الصبر في الماء ، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك ،
فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدَف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مُشبّهة
في الرمل ، فيقتلعه بيده ، أو يقطعه بحديدة عنده مُعدّة لذلك ، ويجعلها في
مِخلّة جلد مَنوطة بعنقه ، فإذا ضاق نفسُه حرّك الحبل ، فيحسّ به الرجل
الممسك بالحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب ، فتؤخذ منه المِخلّة ويُفتح
الصدف ، فيوجد في أجوافها قطعٌ لحم تُقطع بحديدة ، فإذا باشرت الهواء
جمدت فصارت جواهر ، فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان
خمسَه والباقي يشتريه التجّار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له
الدّين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه .

ثمّ سافرنا من سیراف إلى مدينة البحرين ، وهي مدينة كبيرة حسنة ، ذات
بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قريب المؤنّة يُحضّر عليه بالأيدي فيوجد ،

.....

١ إبريل : نيسان . مايه : أيار .

وبها حدائق النخل والرمّان والأترج ، ويزرع بها القطن ، وهي شديدة الحر كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها ، وكان فيما بينها وبين عُمان طريق استولت عليه الرمال ، وانقطع فلا يوصل من عُمان إليها إلا في البحر . وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمّى أحدهما بكُسيّر ، وهو في غربيّها ، ويسمّى الآخر بعُوير ، وهو في شرقيّها ، وبهما ضرب المثل فقليل : كُسيّر وعُوير وكل غير خير .

ثم سافرنا إلى مدينة القُطَيْف ، كأنّه تصغير قطف ، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير . يسكنها طوائف العرب ، وهم رافضيّة غلاة يُظهرون الرفض جهاراً لا يُبْقون أحداً ، ويقول مؤذّنهم في أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن عليّاً ولي الله ، ويزيد بعد الحيعليّتين^١ حيّ على خير العمل ، ويزيد بعد التكبير الأخير : محمد وعلي خير البشر من خالفهما فقد كفر .

ثم سافرنا منها إلى مدينة هَجَر ، وتسمّى الآن بالحَسَا ، وهي التي يُضربُ المثلُ بها ، فيقال : كجالب التمر إلى هجر ، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ، ومنه يعلفون دوابّهم ، وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفضى . ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة وتسمّى أيضاً بحَجَر ، مدينة حسنة خصبة ، ذات أنهار وأشجار ، يسكنها طوائف من العرب ، أكثرهم من بني حنيفة ، وهي بلدهم قديماً ، وأميرُهم طُفَيْل بن غانم . ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج ، وذلك في سنة ثنتين وثلاثين^٢ ، فوصلتُ إلى مكّة ، شرفها الله تعالى ، وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر ، رحمه الله ، وجملة من أمرائه ، وهي آخر حجة حجّها وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين ؛ وفيها قُتِلَ الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنّه ولده ، وقُتِلَ أيضاً كبير أمرائه بكتُمور السّاقِي .

١ أي حي على الصلاة حي على الفلاح .

٢ سنة ١٣٣١ م .

حكاية مقتل أمير أحمد

ذُكرَ أن الملك الناصر وهبَ لبكتمور الساقى جارية ، فلمّا أراد الدنو منها قالت له : إني حاملٌ من الملك الناصر ، فاعتزّ لها ، وولدت ولدًا سمّاه بأمير أحمد ، ونشأ في حجره ، فظهرت نجايتُهُ واشتهر بابن الملك الناصر ، فلمّا كان في هذه الحجة تعاها على الفتك بالملك الناصر وأن يتولّى أميرُ أحمد الملك ، وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكُسوات والأموال ، فتمى الخبر إلى الملك الناصر فبعث إلى أمير أحمد في يوم شديد الحر ، فدخل عليه وبين يديه أقداح الشراب ، فشرب الملك الناصر قدحاً وناول أمير أحمد قدحاً ثانياً فيه السم ، فشربه وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشغل الوقت ، فرحلَ الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أميرُ أحمد ، فاكثر بكتمور لموته ، وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب ، وبلغ خبره إلى الملك الناصر فأثابه بنفسه ولطفه وسلاّه وأخذ قدحاً فيه السم فناوله إيّاه وقال له : بحياتي عليك إلا شربت فبردت نارَ قلبك ! فشربه ومات من حينه ، ووُجدَ عنده خلع السلطنة والأموال فتحقّق ما نُسبَ إليه من الفتك بالملك الناصر .

ولمّا انقضى الحج توجّهتُ إلى جُدّة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند ، فلم يُقضَ لي ذلك ولا تأتّى لي رفيق ، وأقمتُ بجُدّة نحو أربعين يوماً ، وكان بها مركب لرجل يُعرف بعبد الله التونسي يروم السفر إلى القصير من عمالة قوص ، فصعدتُ إليه لأنظرَ حاله فلم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه ، وكان ذلك لطفاً من الله تعالى ، فإنّه سافر فلمّا توسّطَ البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد ، فخرج صاحبه وبعضُ التجّار في العُشاري بعد جهد عظيم ، وأشرفوا على الهلاك . وهلك بعضهم وغرق سائر الناس ، وكان فيه نحو سبعين من الحجاج .

١ المشاري : ضرب من القوارب .

ثم ركبْتُ البحر بعد ذلك في صُنْبُوق برسم عيذاب ، فردّتنا الريح إلى جبل يُعرف برأس دواير ، وسافرنا منه في البر مع البُجاة فسلطنا صحراء كثيرة النعام والغزلان ، فيها عربٌ جُهَيْنَة وبني كاهل ، وطاعتهم للبجاة ؛ ووردنا ماء يُعرف بمفرور وماء يُعرف بالجديد ، ونفدَ زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناماً ، وتزودنا لحومها .

ورأيتُ بهذه الفلاة صبيّاً من العرب كلّمني باللسان العربي وأخبرني أن البجاة أسروه ، وزعم أنّه منذ عام لم يأكل طعاماً إلّما يقتاتُ بلبن الإبل . ونفد منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ولم يبقَ لنا زاد ، وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني^١ برسم الهدية لأصحابي ، ففرّقته على الرفقة ، وتزودناه ثلاثاً . وبعد مسيرة تسعة أيّام من رأس دواير وصلنا إلى عيذاب ، وكان قد تقدم إليها بعض الرفقة ، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء ، وأقمنا بها أيّاماً ، واكترينا الجمال ، وخرجنا صحبة طائفة من عرب دُغَيْم ووردنا ماء يُعرف بالخبيب ولعلّه (الخبيب) وحللنا بِحُمَيْثْرَا حيثُ قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي ، وحصلت لنا زيارته ثانية^٢ ، وبتنا في جواره ، ثم وصلنا إلى قرية العطواني ، وهي على ضفّة النيل مقابلة لمدينة لادفو من الصعيد الأعلى ، وأجزنا النيل إلى مدينة أسنا ، ثم إلى مدينة أرمنت ، ثم إلى الأقصر ، وزرنا الشيخ أبا الحجّاج الأقصري ثانية^٣ ، ثم إلى مدينة قُوص ، ثم إلى مدينة قَنَا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية^٤ ، ثم إلى مدينة هو ، ثم إلى مدينة إخميم ، ثم إلى مدينة أسيوط ، ثم إلى مدينة منفلوط ، ثم إلى مدينة مَسَلَوِي ، ثم إلى مدينة الأشمونين ، ثم إلى مدينة منية أبي الخُصَّيب ، ثم إلى مدينة البهنسة ، ثم إلى مدينة بوش ، ثم إلى مدينة مَسْنِيّة القائد ، وقد تقدّم لنا ذكر هذه البلاد ، ثمّ إلى مصر ، وأقمتُ بها أيّاماً وسافرتُ على طريق بلييس إلى الشام ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرخان التوزري ، ولم يزل في صحبتي سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهند فتوفي بسندابور

١ الصيحاني : من تمر المدينة . البرني : معرب أصله برنيك ، أي الحمل الجديد .

وسنذكر ذلك ، فوصلنا إلى مدينة غزة ، ثمّ إلى مدينة الخليل ، عليه السلام ، وتكرّرت لنا زيارته ، ثمّ إلى بيت المقدس ، ثمّ إلى مدينة الرملة ، ثمّ إلى مدينة عكا ، ثمّ إلى مدينة طرابلس ، ثمّ إلى مدينة جبلة وزرنا إبراهيم بن أدهم ، رضي الله عنه ، ثانية ، ثمّ إلى مدينة اللاذقية ، وقد تقدّم لنا ذكر هذه البلاد كلّها ، ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة^١ كبيرة للجنوبيين يسمّى صاحبها بمرّتلمين ، وقصدنا برّ التركيّة المعروف ببلاد الروم ، وإنّما نسبت إلى الروم لأنّها كانت بلادهم في القديم ، ومنها الروم الأقدمون واليونانيّة ثمّ استفتحها المسلمون ، وبها الآن كثيرٌ من النصاريّ تحت ذمّة المسلمين من التركمان ، وسرنا في البحر عشراً بريح طيّبة وأكرمنا النصرانيّ ولم يأخذ منا نولاً^٢ ، وفي العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا ، وهي أوّل بلاد الروم .

وهذا الإقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا ، وقد جمع الله فيه ما تفرّق من المحاسن في البلاد : فأهله أجمل الناس صوراً وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثرُ خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة في الشام والشفقة في الروم ، وإنّما عني به أهل هذه البلاد . وكنتما متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو داراً يتفقّد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهنّ لا يحتجبن ، فإذا سافرنا عنهن ودّعونا كأنّهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقنا متأسّفات . ومن عادتهنّ بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدّون فيه ما يقوتهم سائرهما ، فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحارّ في يوم خبزه ، ومعه الإدام الطيّب لإطرافاً لنا بذلك ، ويقولون لنا : إن النساء بعثن هذا إليكم ، وهنّ يطلبنّ منكم الدعاء .

وجميعُ أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله عنه ، متّبعين على السّنّة لا قدّريّ فيهم ولا رافضي ولا مُعترلي ولا خارجي ولا

١ قرقورة : مركب كبير .

٢ النول : ما نسيه الناولون ، أجرة السفر .

مُبتدع ، وتلك فضيلة خصّهم الله تعالى بها ، إلاّ أنّهم يأكلون الحشيش ولا يعيرون ذلك .

ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التّركان وينزلها تجّار مصر وإسكندريّة والشام ، وهي كثيرة الخشب ، ومنها يحمل إلى اسكندريّة ودمياط ، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي . ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الأرزنجاني ، وصعد معي إلى القلعة يوم الجمعة ، فصلّينا بها وأضافني وأكرمني ، وأضافني أيضاً بها شمس الدين بن الرجيجاني الذي توفي أبوه علاء الدين بمالي من بلاد السودان .

ذكر سلطان العلايا

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين وتوجّهنا إلى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك ، ومعنى بك الملك ، ابن قرّمان ، ومسكنه على عشرة أميال من المدينة ، فوجدناه قاعداً على الساحل وحده فوق رابية هنالك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخضوب الشعر بالسواد ، فسلمتُ عليه وسألني عن مقدمي ، فأخبرته عمّا سأل ، وانصرف عنه ، وبعث إليّ إحساناً .

وسافرتُ من هنالك إلى مدينة أنطاليّة ، وأمّا التي بالشام فهي أنطاكية على وزنها إلاّ أن الكاف عوض عن اللام ، وهي من أحسن المدن متناهية في اتّساع الساحة والضخامة ، أجملُ ما يُرى من البلاد وأكثره عمارةً وأحسنه ترتيباً ، وكلّ فرقة من سكّانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى ، فتجار النصارى ماكنون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سورٌ تُسدّ أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة ؛ والروم الذين كانوا أهلها قديماً ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضاً سورٌ ؛ واليهود في موضع آخر ، وعليهم سور ؛ والملك

وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضاً سورٌ يحيطُ بها ويفرقُ بينها وبين ما ذكرناه من الفرق ؛ وسائرُ الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى ، وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بأبدع ترتيب ، وعليها سورٌ عظيم يحيط بها ويجمع المواضع التي ذكرناها ، وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمّر الدين ، وفي نواته لوز حلو ، وهو يُيسَّبس ويُحمل إلى ديار مصر ، وهو بها مستظرف ؛ وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف .

نزلنا من هذه المدينة بمدرستها ، وشيخها شهاب الدين الحموي ، ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع ، وفي المدرسة أيضاً ، سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم .

ذكر الأخية الفتيان

واحد الأخية أخِيّ على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشدّ احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدي الظلمة ، وقتل الشرّط ومن لحق بهم من أهل الشرّ . والأخِيّ عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزّاب والمتجرّدين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضاً ، وبين زواية ويجعل فيها الفرش والسرّج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترّون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك ممّا ينفق في الزاوية ، فإن ورد في ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يتردّ واردٌ اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدّمهم بما اجتمع لهم .

وَيُسَمَّوْنَ بِالْفَتِيَانِ وَيُسَمَّى مُقَدِّمُهُمْ كَمَا ذَكَرْنَا الْأَخِي . وَلَمْ أَرِ فِي الدُّنْيَا أَجْمَلَ أَفْعَالًا مِنْهُمْ ، وَيَشْبَهُهُمْ فِي أَفْعَالِهِمْ أَهْلُ شِيرَازٍ وَأَصْفَهَانِ ، إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ أَحَبُّ فِي الْوَارِدِ وَالصَّادِرِ ، وَأَعْظَمُ لِإِكْرَامِهِ لَهُ وَشَفَقَةٍ عَلَيْهِ .

وَفِي الثَّانِي مِنْ يَوْمٍ وَصَلْنَا إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَتَى أَحَدَ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَانِ إِلَى الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ الْحَمَوِيِّ ، وَتَكَلَّمَ مَعَهُ بِاللِّسَانِ التَّرْكِيِّ ، وَلَمْ أَكُنْ يَوْمَئِذٍ أَفْهَمُهُ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَثَوَابٌ خَلَقَتْهُ ، وَعَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوءَةٌ لَبِيدٌ ، فَقَالَ لِي الشَّيْخُ: أَتَعْلَمُ مَا يَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَقُلْتُ : لَا أَعْلَمُ مَا قَالَ ، فَقَالَ لِي : إِنَّهُ يَدْعُوكَ إِلَى ضِيَاغَتِهِ أَنْتَ وَأَصْحَابِكَ . فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ : نَعَمْ ! فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ لِلشَّيْخِ : هَذَا رَجُلٌ ضَعِيفٌ ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى تَضْيِيفِنَا ، وَلَا نَزِيدَ أَنْ نَكْلِفَهُ . فَضَحِكَ الشَّيْخُ وَقَالَ لِي : هَذَا أَحَدُ شِيُوخِ الْفَتِيَانِ الْأَخْيَةِ ، وَهُوَ مِنَ الْخَرَازِينِ^١ وَفِيهِ كَرَمٌ نَفْسٍ ، وَأَصْحَابُهُ نَحْوُ مَائَتَيْنِ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ قَدْ قَدَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَبَنُوا زَاوِيَةً وَمَا يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِالنَّهَارِ أَنْفَقُوهُ بِاللَّيْلِ .

فَلَمَّا صَلَّيْتُ الْمَغْرِبَ ، عَادَ إِلَيْنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ وَذَهَبْنَا مَعَهُ إِلَى زَاوِيَتِهِ ، فَوَجَدْنَاهَا زَاوِيَةً حَسَنَةً ، مَفْرُوشَةً بِالْبُسْطِ الرُّومِيَّةِ الْحَسَنِ ، وَبِهَا الْكَثِيرُ مِنْ ثُرَيَّاتِ الزَّجَاجِ الْعِرَاقِيِّ .

وَفِي الْمَجْلِسِ خَمْسَةٌ مِنَ الْبَيَاسِيسِ ، وَالْبَيْسُوسُ^٢ شِبْهُ الْمَنَارَةِ مِنَ النَّحَاسِ ، لَهُ أَرْجُلٌ ثَلَاثٌ ، وَعَلَى رَأْسِهِ شِبْهُ جِلَاسٍ^٣ مِنَ النَّحَاسِ ، وَفِي وَسْطِهِ أَنْبُوبٌ لِلْفَتِيلَةِ ، وَيُسَمَّى مِنَ الشَّحْمِ الْمُنْدَابِ . وَإِلَى جَانِبِهِ آتِيَةٌ نَحَاسٌ مَلَانَةٌ^٤ بِالشَّحْمِ ، وَفِيهَا مِقْرَاضٌ^٥ لِإِصْلَاحِ الْفَتِيلِ ، وَأَحَدُهُمْ مُوَكَّلٌ^٦ بِهَا ، وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ الْجُرَاجِيُّ (الْجُرَاجِيُّ)^٧ .

وَقَدْ اصْطَلَفَ فِي الْمَجْلِسِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَّانِ ، وَلِبَاسُهُمُ الْأَقْبِيَّةُ^٨ ، وَفِي

١ الْخَرَازِينُ ، وَاحِدُهَا خَرَازٌ : الْإِسْكَافُ .

٢ الْجِلَاسُ : أَرَادَ بِهِ الْمَرْجَبَةَ .

٣ الْجُرَاجِيُّ : الْمُوَكَّلُ بِالْقَنْدِيلِ .

٤ الْأَقْبِيَّةُ ، الْوَاحِدُ قَبَاءٌ : مَا يُسَمَّى بِالْقَنْبَازِ .

أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، على وسطيه سكين في طول ذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، يأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها في طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه ، حسنة المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين .

ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء . ثم أخذوا في الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزوايتهم .

ذكر سلطان انطالية

وسلطانها خضر بك ابن يونس بك وجدناه عند وصولنا إليها عليلاً ، فدخلنا عليه بداره ، وهو في فراش المرض ، فكلّمنا بالطف كلام وأحسنه ، وودعناه ، وبعث إلينا بإحسان ، وسافرنا إلى بلدة برّدور ، وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ، ولها قلعة في رأس جبل شاهق . نزلنا بدار خطيبها ، واجتمعت الأخيّة وأرادوا نزولنا عندهم ، فأبى عليهم الخطيب ، فصنعوا لنا ضيافة في بستان لأحدهم ، وذهبوا بنا إليها . فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح .

وهم لا يعرفون لساننا ، ونحن لا نعرف لسانهم ، ولا ترجمان فيما بيننا ، وأقمنا عندهم يوماً ، وانصرفنا .

ثم سافرنا من هذه البلدة إلى بلدة سبّرتّا ، وهي بلدة حسنة العمارة والأسواق كثيرة البساتين والأنهار ، لها قلعة في جبل شامخ ، وصلنا إليها بالعشي ونزلنا

١ الزردخاني : ضرب من الحرير الشفاف .

عند قاضيها ، وسافرنا منها إلى مدينة أكرِيدُور ، مدينة عظيمة ، كثيرة العمارة ،
حسنة الأسواق ، ذات أنهار وبساتين ، ولها بُحيرة عذبة الماء يسافر المركب
فيها يومين إلى أَقْشَهَر وبَقْشَهَر وغيرهما من البلاد والقرى ، ونزلنا منها
بمدرسة تقابل الجامع الأعظم ، بها المدرّس العالم الحاجّ المجاور الفاضل مصلح
الدين ، قرأ بالديار المصريّة والشام ، وسكن بالعراق ، وهو فصيح اللسان
حسنُ البيان أطروفةٌ من طُرْفِ الزمان ، أكرمنا غاية الإكرام ، وقام بحقنا
أحسنَ قيام .

ذكر سلطان أكرِيدُور

وسلطانها أبو إسحاق بك ابن الدّندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد .
سكن ديار مصر أيّام أبيه وحجّ ، وله سيرةٌ حسنةٌ . ومن عاداته أنّه يأتي كلَّ
يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع ، فإذا قُضيت صلاة العصر استند إلى جدار
القبلة ، وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية ، فقرأوا سورة الفتح
والملك وعمّ بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشعُ لها القلوبُ وتتشعرُ بالجلود
وتدمعُ العيون ، ثمّ ينصرف إلى داره ، وأظننا عنده شهر رمضان ، فكان يقعد
في كلّ ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ، ويستند إلى مِخْدَة
كبيرة ، ويجلسُ الفقيه مصلح الدين إلى جانبه ، وأجلس إلى جانب الفقيه ،
ويلينا أرباب دولته وأمراء حضرته ، ثمّ يؤتّى بالطعام ، فيكون أوّل ما يُفطر
عليه ثريدٌ في قحفة صغيرة ، عليه العدس مُسقى بالسمن والسكر ، ويقدمون
الثريد تبرّكاً ، ويقولون ، إنّ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، فضّله على سائر
الطعام ، فنحن نبدأ به لتفضيل النبيّ له ، ثمّ يؤتّى بسائر الأطعمة ، وهكذا
فعلهم في جميع ليالي رمضان .

١ أظننا : أدخلنا في ظله ، أي كنفه ، أبقانا عنده .

وتوفي في بعض تلك الأيام ولدُ السلطان ، فلم يزدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام ، خلافاً لما قدّمناه من فعل أهل اللّور حين مات ولدُ سلطانهم . فلما دُفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره ، بعد صلاة الصبح ، وفي ثاني يوم من دفنه خرجتُ مع الناس فرآني السلطان ماشياً على رجليّ ، فبعث لي بفرس ، واعتذر ، فلما وصلتُ المدرسة بعثتُ الفرس فردّه وقال : إنّما أعطيتُهُ عطيةً لا عارية ، وبعث إليّ بكسوة ودراهم ، فأنصرفنا إلى مدينة قُلّ حصار ، مدينة صغيرة بها المياهُ من كلّ جانب ، قد نبت فيها القصب ، فلا طريق لها إلاّ طريق كالجسر مهيباً ما بين القصب والمياه لا يسعُ إلاّ فارساً واحداً . والمدينةُ على تل في وسط المياه ، منيعة لا يُقدر عليها ، ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخيّة بها .

ذكر سلطان قل حصار

وسلطانها محمد جَلّبي ، وجَلّبي ، وتفسيره بلسان الروم سيّدي ، هو أخو السلطان أبي إسحاق ملك أكريدور ، ولما وصلنا إلى مدينته كان غائباً عنها ، فأقمنا بها أياماً ، ثمّ قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا وأنصرفنا على طريق قَرّا أغاج ، وقَرّا تفسيره أسود ، وأغاج تفسيره الخشب ، وهي صحراء خَصِيرةٌ يسكنها التركمان ، وبعث معنا السلطان فرساناً يبلّغوننا إلى مدينة لاذق بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفةٌ يقال لها الحرميان ، يُذكر أنّهم من ذُرّية يزيد بن معاوية ، ولهم مدينة يقال لها كُوتاهية ، فعصمنا الله منهم .

ووصلنا إلى مدينة لاذق ، وتُسمّى أيضاً دُون غَزَله ، وتفسيره بلد الخنازير ، وهي من أبدع المدن وأضخمها ، وفيها سبعةٌ من المساجد لإقامة الجمعة ، ولها البساتين الرائقة ، والأنهار المطّردة ، والعُيون المنبّعة ، وأسواقها حِسان ، وتُصنّعُ بها ثياب قطن مُعلّمة بالذهب لا مثلاً لها ، تطولُ أعمارُها لصحة قُطنها وقوّة غَزَلها ؛ وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها ، وأكثر الصنّاع

بها نساء الروم ، وبها من الروم كثيرٌ تحت الذمة ، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها .

وعلاوة الروم بها القلائس الطوال ، منها الحمر والبيض ، ونساء الروم هنَّ عمائمٌ كبارٌ . وأهلُ هذه المدينة لا يُغيّرون المنكر بل كذلك أهلُ هذا الإقليم كلّهم ، وهم يشترّون الجوّاري الروميّات الحسان ، ويتركونهنّ للفساد ، وكلّ واحدةٍ عليها وظيفٌ مالمكها تؤدّيه له .

وسمعتُ هنالك أن الجوّاري يدخلن الحمام مع الرجال ، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه . وذُكر لي أن القاضي بها له جوارٍ على هذه الصورة .

وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجالٌ من حوانيتهم ، وأخذوا بأعينة خيلنا ، ونازعهم في ذلك رجالٌ آخرون ، وطال بينهم النزاع حتّى سلّ بعضُ السكاكين على بعضٍ ، ونحن لا نعلم ما يقولون ، فحفنّا منهم ، وظننّا أنّهم الجرميان الذين يقطعون الطرق ، وأنّ تلك مدينتهم ، وحسبنا أنّهم يريدون نهينا ، ثمّ بعث الله لنا رجلاً حاجّاً يعرف اللسان العربي ، فسألته عن مُرادهم ممّا فقال : إنّهم من الفتيان ، وإن الذين سبقوا إلينا أولادُهم أصحاب الفتي أخي سنان ، والآخرون أصحاب الفتى أخي طومان ، وكلّ طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم ، فعجبنا من كرم نفوسهم ، ثمّ وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولاً ، فوقع قرعة أخي سنان ، وبلغه ذلك ، فأتى إلينا في جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام ، ثمّ ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا وتولّى خدمتي بنفسه ، وتولّى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم ، ثمّ خرجنا من الحمام ، فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة ، وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آياتٍ من الكتاب العزيز ، ثمّ أخذوا في السماع والرّقص . وأعلموا السلطان بخبرنا ، فلمّا كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي فتوجّهنا إليه وإلى ولده

كما نذكره ، ثم عدنا إلى الزاوية فألفينا الأخي طومان وأصحابه في انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ، ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبوا علينا ماء الورد صباً بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضاً من الاحتفال في الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ، ثم السماع والرقص ، كمثل ما فعله أصحابهم ، أو أحسن ، وأقمنا عندهم بالزاوية أياماً .

ذكر سلطان لاذق

وهو السلطان يَنْسَج بك ، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ، ولما نزلنا بزاوية أخيه سنان ، كما قدمناه ، بعث إلينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطنطيني ، واستصحب معه خيلاً بعددنا ، وذلك في شهر رمضان ، فتوجهنا إليه وسلمنا عليه .

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلّة العطاء ، فصلينا معه المغرب ، وحضر طعامه ، فأفطرنّا عنده وانصرفنا ، وبعث إلينا بدراهم . ثم بعث إلينا ولده مراد بك ، وكان ساكناً في بستان خارج المدينة ، وذلك في إبان الفاكهة ، وبعث أيضاً خيلاً على عددنا ، كما فعله أبوه ، فأتينّا مُستأنه وأقمنا عنده تلك الليلة ، وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ، ثم انصرفنا غُدوة .

وأظننا عيد الفطر بهذه البلدة ، فخرّجنا إلى المصلى ، وخرج السلطان في عساكره ، والفتيان الأخيّة كلهم بالأسلحة ، ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار ، وبعضهم يُفأخِرُ بعضاً ، ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشكّة ، ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز ، فيذبجون البهائم بالمقابر ، ويتصدقون بها بالخبز ، ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ، ومنها إلى المصلى .

ولمّا صلّينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان إلى منزله ، وحضر الطعام ، فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سِماطاً على حِدة ، وجعل للفقراء والمساكين سِماطاً على حِدة ، ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقيرٌ ولا غنيٌّ . وأقمنا بهذه البلدة مدّةً بسبب مخاوف الطريق ، ثمّ تهيّأت رفقةً فسافرنا معهم يوماً وبعض ليلةٍ ، ووصلنا إلى حصن طوّاس ، وهو حصنٌ كبيرٌ ، ويُذكر أنّ صُهيّباً صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ورضي الله عنه ، من أهل هذا الحصن ، وكان مبيتنا بخارجه ، ووصلنا بالغد إلى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدّمنا ، فأخبرناهم ، وحينئذٍ خرج أميرُ الحصن ميناَسُ بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفاً من إغارة السّراق على الماشية ، فلمّا طافوا بجبهاته خرجت مواشيهم . وهكذا فعلهم أبداً .

ونزلنا من هذا الحصن برېضه في زاوية رجل فقير ، وبعث إلينا أميرُ الحصن بضيافة وزاد ، وسافرنا منه إلى مُغلّة ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها ، وكان من الكرماء الفضلاء يُكثر الدخول علينا بزاويته ، ولا يدخلُ إلّا بطعام أو فاكهة أو حلواء ، ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس ، وسنذكره ، فأكرمنا وكسانا ، ثمّ سافرنا إلى مدينة ميلاس ، وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرةُ الفواكه والبساتين والمياه ، نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الأخيّة ، ففعلَ أضعاف ما فعله من قبله من الكرماء والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال وجميل الأعمال .

ولقينا بمدينة ميلاس رجلاً صالحاً معسراً يسمّى بأبي الششتري ، ذكروا أنّ عمره يزيدُ على مائة وخمسين سنة ، وله قوّة وحركة وعقله ثابت ، وذنه جيّد ، دعا لنا وحصلت لنا بركته .

ذكر سلطان ميلاس

وهو السلطان المكرّم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا ، وهو من خيار الملوك ، حسنُ الصورة والسيرة ، جلساؤه الفقهاء ، وهم معظّمون لديه ، وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارفٌ بالفنون فاضلٌ ، وكان السلطان في أيّام لقائي له واجداً عليه بسبب رحلته إلى مدينة أياسلوق ووصوله إلى سلطانها وقبول ما أعطاه ، فسألني هذا الفقيه أن أتكلّم عند الملك في شأنه بما يُذهب ما في خاطره ، فأثّنتُ عليه عند السلطان ، وذكرتُ ما علمتُه من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه ، وأحسن إلينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا .

وسكناه في مدينة برّجين ، وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان ، وهي جديدةٌ على تلّ هنالك بها العمارات الحسان والمساجد ، وكان قد بنى بها مسجداً جاهلاً لم يتمّ بناؤه بعد ؛ وبهذه البلدة لقيناه ، ونزلنا منها بزواية الفتى أخي عليّ ، ثمّ انصرفنا بعدما أحسن إلينا كما قدمناه إلى مدينة قونية ، وهي مدينة عظيمة ، حسنة العمار ، كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه ، وبها المشمش المسمّى بقمّر الدين ، وقد تقدّم ذكره ، ويحملُ منه أيضاً إلى ديار مصر والشام . وشوارعها متّسعة جداً ، وأسواقها بديعة الترتيب ، وأهلُ كلّ صناعة على حدة . ويقال إنّ هذه المدينة من بناء الاسكندر ، وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان ، وسنذكره ، وقد تغلّب عليها صاحبُ العراق في بعض الأوقات لقربها من بلاده التي بهذا الإقليم . نزلنا منها بزواية قاضيها ، ويعرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتيان ، وزاويته من أعظم الزوايا ، وله طائفةٌ كبيرةٌ من التلاميذ ، ولهم في الفتوة سنَدٌ يتّصل إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، عليه السلام ، ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفيةُ الحريقة . وكان صنيع هذا القاضي في إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله

وأجمل ، وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا .
وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين^١ المعروف
بمولانا ، وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة^٢ ينتمون ويُعرفون باسمه ،
فيقال لهم الجلالية ، كما تُعرف الأحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان ؛ وعلى
تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر .

حكاية الشيخ الشاعر

يُذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيهاً مدرساً يجتمع إليه الطلبة بمدرسته
بقونية ، فدخل يوماً إلى المدرسة رجلٌ يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق^٣ منها ،
وهي مقطعة قطعاً ، يبيع القطعة منها بفلس ، فلما أتى مجلس التدريس قال له
الشيخ : هات طبقك ! فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاه للشيخ ، فأخذها الشيخُ
بيده وأكلها ، فخرج الحلواني ولم يُطعم أحداً سوى الشيخ ، فخرج الشيخ
في اتباعه ، وترك التدريس ، فأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا
في طلبه ، فلم يعرفوا له مستقراً .

ثم لأنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسي المتعلق^٤
الذي لا يفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ، ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ،
وألّفوا منه كتاباً سموه المثنوي ، وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب
ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرأونه بزواياهم في ليالي الجمعات .
وفي هذه المدينة أيضاً قبرُ الفقيه أحمد الذي يُذكر أنه كان معلّم جلال
الدين المذكور .

ثم سافرنا إلى مدينة اللارندة وهي مدينة حسنة ، كثيرة المياه والبساتين .

١ هو جلال الدين الرومي أعظم شعراء الإسلام الصوفيين ومؤسس طريقة الجلالين أو المولويين ،
ولد في بلخ وتوفي في قونية (١٢٠٧ - ١٢٧٣) .
٢ المتعلق : أي ذو القافية الواحدة في الشطرين من البيت .

ذكر سلطان اللارندة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قمرمان . وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها للملك الناصر ، وعوضه عنها بعيوض ، وبعث إليها أميراً وعسكراً ، ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبني بها دار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة ، وهو عائد من تصيده ، فنزلت له عن دابتي ، فنزل هو عن دابته ، وسلمت عليه ، وأقبل عليّ . ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له ، وأعجبهم فعله وزادوا في إكرامه ، وإن سلم عليهم ركباً ساءهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سبباً لحرمان الوارد . وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره ؛ ولما سلمت عليه وركب وركبت سألني عن حالي وعن مقدي ، ودخلت معه المدينة ، فأمر بإنزالي أحسن نزل ، وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة والشمع وكؤسا ؛ وأركبت وأحسن . ولم يطل مقامنا عنده . وانصرفنا إلى مدينة أقصراً ، وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها ، تحف بها العيون البخارية والبساتين من كل ناحية ، ويشق المدينة ثلاثة أنهار ، ويجري الماء بدورها ، وفيها الأشجار ودوالي العنب . وداخلها بساتين كثيرة ، وتُصنع بها البُسْطُ المنسوبة إليها من صوف الغنم لا مثل لها في بلد من البلاد ، ومنها تُحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك . وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ، ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الأمير أرتنا ؛ وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم ، وهذا الشريف من الفتيان ، وله طائفة كثيرة ، وأكرمنا إكراماً متناهياً ، وفعل أفعال من تقدّمه . ثم رحلنا إلى مدينة نكدة ، وهي من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة

١ الطيافير ، الواحد طيفور ؛ ضرب من الأطباق .

كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ، ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار ، عليه ثلاث قناطر : إحداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها ، وعليه النواير بالداخل والخارج منها تُسقى البساتين ، والفواكه بها كثيرة . ونزلنا منها بزواية الفتى أخي جاروق ، وهو الأمير بها ، فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثاً . وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قيسارية . وهي من بلاد صاحب العراق ، وهي إحدى المدن العظام بهذا الإقليم . بها عسكر أهل العراق . وإحدى خواتين الأمير علاء الدين أرتنا المذكور ، من أكرم الخواتين وأفضلهن ، ولها نسبة من ملك العراق ، وتدعى أغما ، ومعنى أغما الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يُدعى بذلك ، واسمها طغى خاتون ، ودخلنا إليها ، فقامت لنا وأحسنّت السلام والكلام ، وأمرت بإحضار الطعام ، فأكلنا ، ولما انصرفنا بعثت لنا بفرسٍ مُسرَّجٍ مُلجَمٍ وخلعةٍ ودراهم مع أحد غلمانها ، واعتذرت .

ونزلنا من هذه المدينة بزواية الفتى الأخي أمير عليّ ، وهو أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها ، وزاويته من أحسن الزوايا فرشاً وقناديل وطعاماً كثيراً وإتقاناً ، والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ، ويفعلون في إكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم .

ومن عوائد هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان فالأخي هو الحاكم به ، وهو يُركب الوارد ويكسوه ويحسن إليه على قدره ، وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

ثم سافرنا إلى مدينة سيواس ، وهي من بلاد ملك العراق وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد ، وبها منزل أمراءه وعمّاله ، مدينة حسنة العمارة ، واسعة الشوارع ، أسواقها غاصّة بالناس ، وبها دارٌ مثل المدرسة تسمى دار

الخواتين : الأميرات ، الواحدة خاتون .

السيادة لا ينزلها إلا الشرفاء . ونقيبههم ساكن بها وتُجرى لهم فيها مدّة مقامهم
 الفرش والطعام والشمع وغيره . فيزودون إذا انصرفوا .
 ولما قدمنا إلى هذه المدينة خرج إلى لقائنا أصحابُ الفتى أحمد بجحجي ،
 ويحق بالتركية السكّين . وهذا منسوب إليه ، والجيمان منه معقودان بينهما قاف
 وباؤها مكسورة . وكانوا جماعة منهم الركبانُ والمشاة . ثمّ لقينا بعدهم أصحاب
 الفتى أخى جلابي . وهو من كبار الأخيّة . وطبقته أعلى من طبقة أخى بجحجي .
 فطلبوا أن يُنزل عندهم . فلم يمكن لي ذلك لسبق الأولين . ودخلنا المدينة معهم
 جميعاً . وهم يتفاخرون . والذين سبقوا إلينا قد فرحوا أشدّ الفرح بنزولنا
 عندهم . ثمّ كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثلُ صنيع من تقدّم .
 وأقمنا عندهم ثلاثة في أحسن ضيافة . ثمّ أتانا القاضي وجماعة من الطلبة ، ومعهم
 خيلُ الأمير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم ، فركبنا معه واستقبلنا
 الأمير إلى دهليز داره . فسلم علينا ورحّب ، وكان فصيح اللسان بالعربيّة .
 وسألني عن العراقيين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك وبلاد الشام
 ومصر وسلاطين التركمان . وكان مراده أن أشكرَ الكريم منهم وأذمّ البخيل .
 فلم أفلعل ذلك بل شكرتُ الجميع . فسرّ بذلك مني وشكرني عليه ؛ ثمّ أحضر
 الطعام فأكلنا . وقال : تكونون في ضيافتي . فقال له الفتى أخى جلابي : لأنهم
 لم ينزلوا بعد بزوايتي . فليكونوا عندي . وضيافتك تصلهم . فقال : افعل .
 فانتقلنا إلى زاويته . وأقمنا بها ستّاً في ضيافته وفي ضيافة الأمير . ثمّ بعث الأمير
 بفرس وكسوة ودراهم . وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا .
 وسافرنا إلى مدينة أمّاصيّة . مدينة كبيرة ، حسنة ذات أنهار وبساتين
 وأشجار وفواكه . وعلى أنهارها النواعير تسقي جنانها ودورها ، وهي فسيحة
 الشوارع والأسواق . وملكها صاحب العراق . ويقرب منها بلدة سُوسَى ،
 وهي لصاحب العراق أيضاً . وبها سُكنى أولاد وليّ الله تعالى أبي العباس أحمد
 الرفاعي . منهم الشيخ عزّ الدين . وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة

الرفاعي ، وإخوته الشيخ عليّ والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كُوجُك ، ومعناه الصغير ، ابن تاج الدين الرفاعي ، ونزلنا بزوايتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم .

ثمّ سافرنا إلى مدينة كُمش ، وهي من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام ، وبها معادن الفضة ، وعلى مسيرة يومين منها جبالٌ شامخةٌ وعرةٌ لم أصل إليها . ونزلنا منها بزاوية الأخي مجد الدين ، وأقمنا بها ثلاثاً في ضيافته وفعل أفعال من قبله ، وجاء إلينا نائب الأمير أرتنا ، وبعث بضيافة وزاد .

وانصرفنا من تلك البلاد فوصلنا إلى أرزنجان ، وهي من بلاد صاحب العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، وأكثر سكانها الأرمن ، والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ، ولها أسواق حسنة الترتيب ، ويصنع بها ثياب حسان تُنسب إليها ، وفيها معادن النحاس ، ويصنعون منه الأواني والبياسيس التي ذكرناها ، وهي شبه المنار عندنا . ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى نظام الدين ، وهي من أحسن الزوايا ، وهو أيضاً من خيار الفتيان وكبارهم ، أضافنا أحسن ضيافة .

وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم ، وهي من بلاد ملك العراق ، كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ، ويشقها ثلاثة أنهار ، وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي ، ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى طومان ، وهو كبير السن ، يقال إنه أناف على مائة وثلاثين سنة ، ورأيت أنه ينصرف على قدميه متوكئاً على عصا ثابت الذهن مواظباً للصلاة في أوقاتها ، لم ينكر من نفسه شيئاً إلا أنه لا يستطيع الصوم . وخدمنا بنفسه في الطعام ، وخدمنا أولاده في الحمام ، وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا ، فشقّ عليه ذلك وأبى منه ، وقال : إن فعلتم نقصتم حرمتي ، وإن أقلّ الضيافة ثلاث ، فأقمنا لديه ثلاثاً .

ثمّ انصرفنا إلى مدينة بركيي ، ووصلنا إليها بعد العصر ، فلقينا رجلاً من

أهلها ، فسألناه عن زاوية الأخي بها ، فقال : أنا أدلكم عليها ، فاتّبعناه ، فذهب بنا إلى منزل نفسه في بستان له ، فأنزلنا بأعلى سطح بيته ؛ والأشجار مظلمة ، وذلك أوان الحرّ الشديد ، وأتت إلينا بأنواع الفاكهة ، وأحسن في ضيافته ، وعلف دوابنا ، وبتنا عنده تلك الليلة . وكنت قد تعرّفنا أن هذه المدينة مدرّساً فاضلاً يسمّى بمحيي الدين ، فاتّى بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده ، وكان من الطلبة ، إلى المدرسة ، وإذا بالمدرّس قد أقبل راكباً على بغلة فارهة ، ومماليكته وخدمته عن جانبيه ، والطلبة بين يديه ، وعليه ثياب مفرّجة حسان ، مطرّزة بالذهب ، فسلمنا عليه فرحب بنا ، وأحسن السلام والكلام ، وأمّسك بيدي وأجلسني إلى جانبه .

ثمّ جاء القاضي عزّ الدين فرشتي ، ومعنى فرشتي الملك ، لقّب بذلك لدينه وعفافه وفضله ، فقعد عن يمين المدرّس وأخذ في تدريس العلوم الأصلية والفرعية . ثمّ لما فرغ من ذلك أتت دويّرة بالمدرسة ، فأمر بفرشها وأنزلي فيها وبعث ضيافة حافلة ، ثمّ وجّه إلينا بعد المغرب ، فمضيت إليه فوجدته في مجلس ببستان له ، وهناك صهريج ماء ينحدر إليه الماء من خُصّة رخام أبيض يدور بها القاشاني ، وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكته وخدمته وقوف من جانبيه . وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة ، فخلته لما شاهدته ملكاً من الملوك ، فقام إليّ واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني إلى جانبه على مرتبته ، وأتت بالطعام ، فأكلنا وانصرفنا إلى المدرسة .

وذكر لي بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرّس ، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة . وكتب هذا المدرّس إلى السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه ، والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لأجل شدة الحرّ ، وذلك الجبل بارد ، وعادته أن يصيف فيه .

ذكر سلطان بركي

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ،
ولما بعث إليه المدرّس يُعلمه بخبري وجهه نائبه إليّ لآتيه ، فأشار عليّ المدرّس
أن أقيم حتى يبعث في طلبي ثانية . وكان المدرّس ، إذ ذاك ، قد خرجت برجله
قرحة لا يستطيع الركوب بسببها ، وانقطع عن المدرسة ، ثمّ إنّ السلطان بعث
في طلبي ثانية ، فشقّ ذلك على المدرّس فقال : أنا لا أستطيع الركوب ، ومن
غرضي التوجّه معك لأقرر لدى السلطان ما يجب لك ، ثمّ إنّته تحامل ولفّ على
رجله خيراً ، وركب ، ولم يضع رجله في الركاب . وركبتُ أنا وأصحابي ،
وصعدنا إلى الجبل في طريق قد نُحِتَتْ وسُوِّيت ، فوصلنا إلى موضع السلطان
عند الزوال ، فنزلنا على نهر ماء تحت ظِلّال شجر الجوز ، وصادفنا السلطان في
قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه إلى صهره السلطان أرشطان
بك ، فلمّا بلغه خبر وصولنا بعث إلينا ولداه خضر بك وعمر بك ، فسَلَّمَا
على الفقيه ، وأمرهما بالسلام عليّ ، ففعلّا ذلك ، وسألاني عن حالي ومقدمي
وانصرفا ، وبعث إليّ ببيت يسمّى عندهم الخِرقة (خَرَكَاه)^١ وهو عصي من
الخشب تُجمع شبه القبة ، وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء
والرياح مثل البادهنج ويُسدّ متى احتيج إلى سدّه ، وأتوا بالفرش ففرشوه ،
وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز ،
وذلك الموضع شديد البرد ، ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد .

ولما كان من الغد ركب المدرّس إلى السلطان وتكلّم في شأني بما اقتضته
فضائله ، ثمّ عاد إليّ وأعلمني بذلك ، وبعد ساعة وجّه السلطان في طلبنا معاً
فجئنا إلى منزله ، ووجدناه قائماً فسَلَّمَا عليه ، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا ممّا

١ الخَرَكَاه : لفظة فارسية معناها القبة .

٢ البادهنج : المنفذ الذي تهبّ منه الرياح وسماه بعضهم راووق النسيم ، وهي لفظة فارسية .

يلي الفقيه ، فسألني عن حالي ومقدمي ، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقيين وبلاد الأعاجم ، ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا ، وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام ، وكذلك فعل الترك ، وأقمنا على تلك الحال أياماً يبعث إلينا في كل يوم ، فنحضر طعامه .

وأتى يوماً إلينا بعد الظهر ، وقعد الفقيه في صدر المجلس ، وأنا عن يساره ، وقعد السلطان عن يمين الفقيه ، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك ، وطلب مني أن أكتب له أحاديث من حديث رسول الله ، صلي الله عليه وسلم ، فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة ، فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي ، ثم قام فخرج ، ورأى الخدم يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير إدام ولا خضّر ، فأمر بعقاب صاحب خزانته ، وبعث بالأبزار والسمن .

وطالت إقامتنا بذلك الجبل فأدركني الملل ، وأردت الانصراف ، وكان الفقيه أيضاً قد ملّ من المقام هنالك ، فبعث إلى السلطان يخبره أنني أريد السفر ، فلمّا كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلّم مع المدرّس بالتركية ، ولم أكن إذ ذاك أفهمها . فأجابه عن كلامه وانصرف ، فقال لي المدرّس : أتدري ماذا قال ؟ قلت : لا أعرف ما قال ! قال : إن السلطان بعث إليّ ليسألني ماذا يُعطيك ، فقلت له : عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحبّ من ذلك ، فذهب إلى السلطان ثمّ عاد إلينا فقال : إن السلطان يأمر أن تقيما هنا اليوم ، وتنزلا معه غداً إلى داره بالمدينة .

فلمّا كان من الغد بعث فرساً جيّداً من مراكبه ، ونزل ونحن معه إلى المدينة . فخرج الناس لاستقباله ، وفيهم القاضي المذكور آنفاً وسواه ، ودخل السلطان ، ونحن معه ، فلمّا نزل بباب داره ذهبت مع المدرّس إلى ناحية المدرسة ، فدعانا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره ، فلمّا وصلنا إلى دهليز الدار وجدنا من خدّامه نحو عشرين صُورهم فائقة الحسن ، وعليهم ثياب الحرير ، وشعورهم مفروقة مُرسّلةٌ وألوانهم ساطعة البياض ، مشربةٌ بحمرة ، فقلت للفقيه :

ما هذه الصور الحسان ؟ فقال : هؤلاء فتیان رومیّون . وصعدنا مع السلطان درجاً كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء ، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع نحاس يمجّ ماء من فيه ، وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة ، وفوق إحداها مرتبة السلطان ، فلما انتهينا إليها نَحَى السلطان مرتبته بيده ، وقعد معنا على الاقطاع ، وقعد الفقيه عن يمينه والقاضي ممّا يلي الفقيه ، وأنا ممّا يلي القاضي ، وقعد القراء أسفل المصطبة ، والقراء لا يُفارقونه حيث كان من مجالسه ، ثمّ جاؤوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالخلّاب المحلول قد عُصر فيه ماء الليمون وجُعِل فيه كمكّات صغار مقسومة ، وفيها ملاعق ذهب وفضة ، وجاؤوا معها بصحاف الصيني فيها مثل ذلك ، وفيها ملاعق خشب ، فمن تورّع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب . وتكلّمت بشكر السلطان وأثّنت على الفقيه وبالغت في ذلك فأعجب ذلك السلطان وسرّه .

حكاية الطبيب اليهودي

وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة ، فسلم عليه ، وقام له القاضي والفقيه ، وقعد أمام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه ، فقلت للفقيه : من هذا الشيخ ؟ فضحك وسكت ، ثمّ أعدت السؤال ، فقال لي : هذا يهودي طبيب ، وكلّنا محتاجٌ إليه ، فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له . فأخذي ما حدث وقدم من الامتعاض ، فقلت لليهودي : يا ملعون ابن ملعون ! كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودي ؟ وشتّمته ورفعته صوتي ، فعجب السلطان ، وسأل عن معنى كلامي ، فأخبره الفقيه به ، وغضب اليهودي ، فخرج عن المجلس في أسوأ حال . ولما انصرفنا قال لي الفقيه : أحسنت ، بارك الله فيك ! إنّ أحداً سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ، ولقد عرفته بنفسه .

حكاية أخرى : الحجر النازل من السماء

وسألني السلطان في هذا المجلس فقال لي : هل رأيت قطّ حجراً نزل من السماء ؟ فقلت : ما رأيت ذلك ولا سمعتُ به . فقال لي : إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء . ثمّ دعا رجلاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصمّ شديد الصلابة ، له بريق ، قدّرتُ أن زنته تبلغ قنطاراً ؛ وأمر السلطان بإحضار القطّاعين ، فحضر أربعة منهم ، فأمرهم أن يضربوه ، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرّات بمطارق الحديد ، فلم يؤثرُوا فيه شيئاً ، فعجبت من أمره ، وأمر برده إلى حيث كان .

وفي ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان صنع صنيعاً عظيماً ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة ، فطعموا ، وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان ، وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة ، وكان يوجّه الطعام والفاكهة والخلواء والشمع في كلّ ليلة ، ثمّ بعث إليّ مائة مثقال ذهباً وألف درهم وكسوة كاملة وفرساً ومملوكاً رومياً يسمّى ميخائيل ، وبعث لكلّ من أصحابي كسوة ودراهم ، كلّ هذا بمشاركة المدرّس محيي الدين ، جزاه الله تعالى خيراً . وودعنا وانصرفنا ، وكانت مدّة مقامنا عنده بالجليل والمدينة أربعة عشر يوماً . ثمّ قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان ، مدينةٌ حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه ؛ ونزلنا منها بزاوية الفتى محمد ، وهو من كبار الصالحين صائم الدهر ، وله أصحاب على طريقته ، فأضافنا ودعا لنا . وسرنا إلى مدينة أياسلُوق ، مدينة كبيرة قديمة معظّمة عند الروم ، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها ، منحوتة أبدع نحت . والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن ، وكان كنيسة للروم معظّمة عندهم ، يقصدونها من البلاد ، فلمّا فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجداً جامعاً ، وحيطانه من الرخام الملّون ، وفرشه

الرخام الأبيض ، وهو مسقف بالرصاص ، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة ، في وسط كل قبة صهريج ماء ، والنهر يشقه ؛ وعن جانبي النهر الأشجار المختلفة الأجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين ، وله خمسة عشر باباً ، وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين ، وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ، ثم لقيت به هذه المدينة خارجها ، فسلمت عليه وأنا راكب فكره ذلك مني ، وكان سبب حرمانه لديه ، فإن عادتهم إذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ؛ ولم يبعث إليّ إلاّ ثوباً واحداً من الحرير المذهب يسمونه النخ ، واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرّاً بأربعين ديناراً ذهباً .

ثم سرنا إلى مدينة يزّمير ، مدينة كبيرة على ساحل البحر ، معظمها خراب ، ولها قلعة متصلة بأعلاها ، نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب ، وهو من الأحمديّة صالح فاضل ، ولقينا بخارجها الشيخ عزّ الدين بن أحمد الرفاعي ، ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ، ومعه مائة فقير من المولّيين ، وقد ضرب لهم الأمير الأخبية ، وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها . واجتمعت بهم . وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفاً ، وسكنه بقلعتها . وكان حين قدومنا عليها عند أبيه . ثمّ قدم بعد خمس من نزلنا بها ، فكان من مكارمه أن أتى إليّ بالزاوية فسلم عليّ واعتذر ، وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكاً رومياً خُماشياً اسمه نقوله ، وثوبين من الكمخا ، وهي ثياب حرير تُصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين ؛ وذكر لي الفقيه الذي يؤمّ به أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه ، رحمه الله ، وأعطى أيضاً للشيخ عزّ الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم ، وثياباً من الملفّ والمرعز والقسي والكمخا وجواري وغلماً .

وكان هذا الأمير كريماً صالحاً كثيرَ الجهاد له أجفان^١ غزويّة يضرب بها

١ الأجفان : المراكب الكبيرة .

على نواحي القسطنطينية العظمى فيسبي ويغتم ويُنْفِي ذلك كرمًا وجوداً ، ثمَّ
يعود إلى الجهاد ، إلى أن اشتدَّت على الروم وطأته ، فرفعوا أمرهم إلى البابا ،
فأمر نصارى جنوة وفرنسة بغزوه فغزوه وجهزَ جيشاً من رومية وطرقوا مدينته
ليلاً في عدد كثير من الأجفان ، وملكوا المرسى والمدينة ، ونزل إليهم الأميرُ
عمر من القلعة ، فقاتلهم ، فاستشهدَ هو وجماعةٌ من ناسه ، واستقرَّ النصارى
بالبلد ولم يقدرُوا على القلعة لضعفها .

ثمَّ سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة مَغْنِيسِيَّة ، نزلنا بها عشي يوم عرفة
بزاوية رجل من الفتيان ، وهي مدينةٌ كبيرةٌ حسنةٌ في سفح جبل ، وبسيطها
كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه .

ذكر سلطان مغنيسية

وسلطانها يسمَّى صاروخان ، ولما وصلنا إلى هذه البلدة وجدناه بترية ولده ،
وكان قد توفي منذ أشهر ، فكان هو وأمُّ الولد ليلة العيد وصبيحتها بتريته ،
والولدُ قد صُبِّر وجُعِل في تابوت خشبٍ مَغْشَى بالحديد المَقْرَدَرَا وعُلِّق
في قبة لا سقف لها لتذهب رائحته ، وحينئذٍ تُسْقَف القبة ويُجعلُ تابوتهُ
ظاهراً على وجه الأرض ، وتُجعلُ ثيابه عليه . وهكذا رأيتُ غيره أيضاً من
الملوك فعل .

وسلَّمنا عليه بذلك الموضع وصلَّينا معه صلاة العيد ، وعدنا إلى الزاوية ،
فأخذ الغلام الذي كان لي أفراسنا ، وتوجَّه مع غلام لبعض الأصحاب برسم
سقيها ، فأبطأ ، ثمَّ لما كان العشيَّ لم يظهر لهما أثر ، وكان بهذه المدينة الفقيه
المدرِّس الفاضل مُصلح الدين ، فركب معي إلى السلطان وأعلمناه بذلك ، فبعث
في طلبهما ، فلم يوجداه ، واشتغل الناس في عيدهم ، وقصدوا مدينة الكفَّار على
ساحل البحر تسمَّى فُوجة على مسيرة يوم من مغنيسية ، وهؤلاء الكفَّار في بلد

١ المقزدر : أي المثنى بالقصدير .

حصين ، وهم يبعثون هديةً في كل سنة إلى سلطان مغنيسية ، فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم ، فلمّا كان بعد الظهر أتى بهما بعض الأتراك وبالأفراس ، وذكروا أنّهما اجتازا بهم عشية النهار ، فأنكروا أمرهما واشتدّوا عليهما حتى أقرا بما عرّضا عليه من الفرار .

ثمّ سافرنا من مغنيسية وبتنا ليلةً عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم ، ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة ، وبات أصحابنا يحترسون مداولةً بينهم خوف السرقة ، فأدت نوبة الفقيه عفيف الدين التّوزري ، فسمعه يقرأ سورة البقرة ، فقلت له : إذا أردت النوم فاعلمني لأنظر من يحرس . ثمّ نمت فما أيقظني إلّا الصباح ، وقد ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه ، وكان من جياذ الخيل اشتريته بأياسلوق .

ثمّ رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة برغمة ، مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ، ويقال إنّ أفلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة ، وداره تشتهر باسمه إلى الآن ، ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمديّة ، ثمّ جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره وأكرمنا إكراماً كثيراً .

ذكر سلطان برغمة

وسلطانها يسمّى ينجشبي خان ، وخان عندهم هو السلطان ، وىنجشبي معناه جيّد . صادفناه في مصيف له فأعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ، ثمّ اكترينا من يدلّنا على الطريق . وسرنا في جبال شاخة وعرة إلى أن وصلنا إلى مدينة بكي كسري ، مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق ، ولا جامع لها يجتمع فيه ، وأرادوا بناء جامع خارجها متّصل بها فبنوا حيطانّه ولم يجعلوا له سقفاً وصاروا يصلّون به ويجتمعون تحت ظلال الأشجار . ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان ، وهو من أفاضلهم ، وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى .

ذكر سلطان بلي كسري

ويسمى دمورخان ، ولا خيرَ فيه ، وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لا خيرَ فيه في مدّة ابنه هذا ، والناس على دين الملك . ورأيتُه وبعث إليّ ثوب حرير ، واشتريتُ بهذه المدينة جاريةً رومية تسمى مرغليطة . ثمّ سرنا إلى مدينة بُرُصّا ، مدينة كبيرةٌ عظيمةٌ حسنة الأسواق فسيحة الشوارع تحفّها البساتين من جميع جهاتها ، والعيون الجارية ، وبخارجها نهر شديد الحرارة يصبّ في بركة عظيمة ، وقد بُني عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء ، والمرضى يستشفون بهذه الحمة^١ ويأتون إليها من أقاصي البلاد . وهناك زاوية للواردين ينزلون بها ويُطعمون مدّة مقامهم ، وهي ثلاثة أيّام . عمّر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان ، ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتي أخي شمس الدين من كبار الفتيان ، ووافقنا عنده يوم عاشوراء ، فصنع طعاماً كثيراً ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلاً ، وأفطروا عنده ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة ، وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ، ووعظ وذكر وأحسن ، ثمّ أخذوا في السماع والرقص ، وكانت ليلة عظيمة الشأن . وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يُفطِرُ إلاّ في كلّ ثلاثة أيّام ، ولا يأكل إلاّ من كدّ يمينه ، ويقال إنّّه لم يأكل طعام أحد قطّ ، ولا منزلَ له ولا متاع إلاّ ما يستتر به ، ولا ينام إلاّ في المقبرة ، ويعظ في المجالس ويذكر ، فيتوب على يديه في كلّ مجلس الجماعة من الناس . وطلبتُه بعد هذه الليلة فلم أجده ، وأتيتُ الجبّانة فلم أجده ، ويقال إنّّه يأتيها بعد هجوع الناس .

١ الحمة : العين الحارة الماء يستشفى بها الأعلاء .

حكاية الفقير الذي مات

لمّا حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظّ بها مجدّ الدين آخرَ الليل ، فصاح أحد الفقراء صيحةً غشي عليه منها ، فصبوا عليه ماء الورد فلم يُفِقْ ، فأعادوا عليه ذلك فلم يفق . واختلفت الناس فيه فمن قائل إنّه ميت ، ومن قائل إنّه مَغشيّ عليه ، وأنتمّ الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلّيْنَا الصبح ، وطلعت الشمس فاخبروا حال الرجل ، فوجدوه فارق الدنيا ، رحمه الله ، فاشتغلوا بغسله وتكفينه ، وكنتُ فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه .

وكان هذا الفقير يسمّى الصيّاخ ، وذكروا أنّه كان يتعبّد بغار هنالك في جبل . فمتى علم أن الواعظ مجدّ الدين يعظُّ قصده ، وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد ، فإذا وعظ مجدّ الدين يصيح ويغشى عليه ثمّ يفيق فيتوضأ ويصليّ ركعتين ، ثمّ إذا سمع الواعظ صباح ، يفعل ذلك مراراً في الليلة ، وسمي الصيّاخ لأجل ذلك . وكان أعذر اليد والرجل لا قدرة له على الخدمة ، وكانت له والدّة تقوته من غزها فلَمّا توفيت اقتات من نبات الأرض .

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين جال الأرض إلّا أنّه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديد ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم .

ذكر سلطان برصا

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك ، وأرخان ابن السلطان عثمان جُوق ، وتفسير جُوق بالتركية الصغير ، وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثر مالاً وبلاداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقاربُ مائة حصن ، وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها . ويقوم بكلّ حصن منها أيتاماً لإصلاح شؤونهم وتفقد حاله . ويقال إنّه لم يقدّر قطّ شهراً كاملاً ببلا ، ويقال الكفّار ويحاصروهم ، ووالده

هو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم ، وقبره بمسجدها . وكان مسجدها كنيسة لانصارى .

ويذكر أنه حاصر مدينة برتيك نحو عشرين سنة ، ومات قبل فتحها ، فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه اثني عشرة سنة وافتتحها ، وبها كان لقائي له . وبعث إليّ بدراهم كثيرة .

ثم سافرنا إلى مدينة يزننيك ، وبتنا قبل الوصول إليها ليلةً بقريةٍ تُدعى كَرَله ، بزاوية فتي من الأخيصة . ثم سرنا من هذه القرية يوماً كاملاً في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ؛ ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تُسببت القصب على ثمانية أميال من يزننيك لا يستطيع دخولها إلا على طريق واحدة مثل البحر ، لا يسلك عليها إلا فارس واحد ، وبذلك امتنعت هذه المدينة .

والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات ، وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان ، وبها زوجته بيون خاتون ، وهي الحاكمة عليهم ؛ امرأةٌ صالحة فاضلة . وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ، ويدخل إليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها . وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع ، فكل إنسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة ، وشرابها من آبارها قريبة ، وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز ، والقسطل^١ عندهم كثير جداً رخيص الثمن ، ويسمّون القسطل قسطنطيناً بالنون ، والجوز القسوز بالقاف ، وبها العنب العذاري لم أر مثله في سواها ، متناهي الخلاوة عظيم الجرم صافي اللون رقيق القشر ، للحبة منه نواة واحدة . أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكي ، وهو شيخ الفضلاء الكرماء ما جئت قط إلى زيارته إلا أحضر الطعام ؛ وصورتُه حسنة ، وسيرته أحسن ، وتوجه معي إلى الخاتون المذكورة ، فأكرمت وأضافت وأحسنّت .

١ القسطل : الكستنا .

وبعد قدومنا بأيّام وصل إلى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذي ذكرناه ، وأقامتُ بهذه المدينة نحو أربعين يوماً بسبب مرض فرسٍ لي ، فلمّا طال عليّ المُكث تركته وانصرفت ، ومعي ثلاثة من أصحابي وجارية وغلّامان ، وليس معنا من يُحسن اللسان التركي ويترجم عنّا ، وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة .

ثمّ خرجنا منها فبتنا بقريةٍ يقال لها مَكَجَا ، بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا ، وسافرنا من عنده ، وتقدّمنا امرأةً من الترك على فرس ، ومعها خديم لها ، وهي قاصدةٌ مدينة يَسْجَا ، ونحن في اتباع أثرها ، فوصلت إلى واد كبير يقال له سَقَرِي كأنّه نُسب إلى سَقَر ، أعادنا الله منها ، فذهبتْ تجوزُ الوادي ، فلمّا توسّطته كادت الدابة تغرق بها ، ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخديم الذي كان معها استخلاصها ، فذهب الوادي بهما معاً . وكان في عدوّة الوادي قوم رَمَوْا بأنفسهم في أثرهما سباحةً ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمقاً ، ووجدوا الرجل قد قضى نحبه ، رحمه الله .

وأخبرنا أولئك الناس أن المَعْدِيَّة^١ أسفلُ من ذلك الموضع ، فتوجّهنا إليها ، وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدوابّ والمتاع ، ويجذبها الرجالُ من العدوّة الأخرى ، ويركب عليها الناس وتُجاز الدوابّ سباحةً ؛ وكذلك فعلنا ، ووصلنا تلك الليلة إلى كاوية ، واسمها على مثال فاعلة من الكي ، نزلنا منها بزاوية أحد الأخية فكلمناه بالعريّة فلم يفهم عنّا ، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه ، فإنّه يعرف العريّة ، فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعريّة فلم يفهمها منّا ، فقال للفتى : ايشان عربي كهنا ميقوان ميكو يندو من عربي نو ميدانم ؛ وايشان معناه هؤلاء ، وكهنا قديم ، وميقوان يقولون ، ومن أنا ، ونو جديد ، وميدانم تعرف ، وإنّما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنّوا أنّه يعرف اللسان العربي

١ المدينة : المكان الذي يقطع منه الوادي .

وهو لا يعرفه ، فقال لهم : هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القديم ، وأنا لا أعرف إلاّ العربي الجديد . فظنّ الفتى أنّ الأمر على ما قاله الفقيه ، ونفعنا ذلك عنده وبالغ في إكرامنا ، وقال : هؤلاء تجب كرامتهم لأنّهم يتكلمون باللسان العربي القديم ، وهو لسان النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً وأصحابه ، ولم نفهم كلام الفقيه إذ ذاك لكنني حفظتُ لفظه ، فلمّا تعلّمتُ اللسان الفارسي فهمت مراده ، وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلاً إلى يسنجا وهي بلدة كبيرة حسنة بمحنا بها عن زاوية الأخي ، فوجدنا بها أحد الفقراء المولّتين ، فقلت له : هذه زاوية الأخي ؟ فقال لي : نعم ، فسررتُ عند ذلك إذ وجدتُ من يفهم اللسان العربي ، فلمّا اختبرته أبرز الغيب أنّه لا يعرف من اللسان العربي إلا كلمة نعم خاصة .

ونزلنا بالزاوية وجاء إلينا أحد الطلبة بطعام ، ولم يكن الأخي حاضراً ، وحصل الأنسُ بهذا الطالب ، ولم يكن يعرف اللسان العربي لكنّه تفضّل وتكلّم مع نائب البلدة فأعطاني فارساً من أصحابه وتوجّه معنا إلى كبشوك ، وهي بلدة صغيرة يسكنها كفّار الروم تحت ذمّة المسلمين ، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين . وهم الحكام عليهم ، وهي من بلاد السلطان أرخان بك ، فنزلنا بدار عجوز كافرة ، وذلك لبّان الثلج والشتاء ، فأحسنّا إليها وبتنا عندها تلك الليلة .

وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب ، ولا يزرع بها إلاّ الزعفران . وأتتنا هذه العجوز بزعفرانٍ كثير ، وظنّت أنّنا تجارٌ نشتره منها . ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارسُ الذي بعثه الفتى معنا من كاوية ، فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا إلى مدينة مطرني ، وقد وقع في تلك الليلة ثلجٌ كثير عفى الطرق ، فتقدمنا ذلك الفارسُ فاتّبعنا أثره إلى أن وصلنا في نصف النهار إلى قريةٍ للتركان ، فأتوا بطعام ، فأكلنا منه ، وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعاراً وجبالاً ومجرى ماء تكرر لنا جوازه

أزيد من الثلاثين مرة ، فلما خلصنا من ذلك قال لنا الفارس : اعطوني شيئاً من الدراهم ، فقلنا له : إذا وصلنا إلى المدينة نُعطيك ونُرضيك ، فلم يرضَ ذلك منا ، أو لم يفهم عنا ، فأخذ قوساً لبعض أصحابي ومضى غير بعيد ، ثم رجع فردّ إلينا القوس ، فأعطيتُه شيئاً من الدراهم ، فأخذها وهرب عنا ، وتركنا لا نعرف أين نقصد ، ولا طريق يظهر لنا ، فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريقُ به لكثرة الحجارة ، فخفضتُ الهلاك على نفسي ومن معي ، وتوقعتُ نزول الثلج ليلاً ، ولا عمارة هنالك ، فإن نزلنا عن الدوابّ هلكنا ، وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه . وكان لي فرسٌ من الجياد فعلت على الخلاص ، وقلتُ في نفسي : إذا سلمت لعلّي أحتال في سلامة أصحابي . فكان كذلك ، واستودعهم الله تعالى ، وسرتُ .

وأهلُ تلك البلاد يبنون على القبور بيوتاً من الخشب يظنّ رائيتها أنها عمارة فيجدوها قبوراً ، فظهرَ لي منها كثيرٌ . فلما كان بعد العشاء وصلتُ إلى البيوت فقلت : اللهم اجعلها عمارة . فوجدتها عمارة ، ووفقني الله تعالى إلى باب دار ، فرأيتُ عليها شيخاً فكلّمته بالعربي فكلّمني بالتركي ، وأشار إليّ بالدخول ، فأخبرته بشأن أصحابي . فلم يفهم عني . وكان من لطف الله أن تلك الدار زاويةٌ للفقراء ، والواقف بالباب شيخها ، فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم ، وكانت بيني وبينه معرفة ، فسلم عليّ وأخبرته خبرَ أصحابي وأشرتُ إليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ، ففعلوا ذلك ، وتوجهوا معي إلى أصحابي وجئنا جميعاً إلى الزاوية ، وحمدنا الله تعالى على السلامة .

وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى ، وأتى كلّ منهم بما تيسّر له من الطعام ، وارتفعت المشقة ، ورحلنا عند الصباح ، فوصلنا إلى مدينة مُطَرْنِي عند صلاة الجمعة ، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية ،

وبها جماعة من المسافرين ، ولم نجد مربطاً للدواب ، فصلّينا الجمعة ، ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط ، فلقينا أحد الحجاج من أهلها ، فسلم علينا ، وكان يعرف اللسان العربي ، فسُرتُ برؤيته ، وطلبتُ منه أن يدلّنا على مربط للدوابّ بالكبراء ، فقال : أما ربطها في منزل فلا يتأتّى لأنّ أبواب دور هذه البلدة صغار ، لا تدخل منها الدوابّ ، ولكنّي أدلّكم على سقيفة بالسوق يربطُ فيها المسافرون دوابّهم ، والذين يأتون لحضور السوق . فدلّنا عليها وربطنا بها دوابّنا ونزل أحد الأصحاب بمحانوتٍ خالٍ إزاءها ليحرس الدوابّ .

حكاية الحاج السارق

وكان من غريب ما اتّفق لنا أني بعثت أحد الخدّام ليشتري التبن للدوابّ ، وبعثتُ أحدهم يشتري السمن ، فأتّى أحدهما بالتبن والآخر دون شيء ، وهو يضحك ، فسألناه عن سبب ضحكك فقال : إنّنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن ، فأشار إلينا بالوقوف ، وكلمّ ولدًا له فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعةً وأتّى بالتبن ، فأخذناه منه وقلنا له : إنّنا نريد السمن ، فقال : هذا السمن . وأبرز الغيب أنّهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك ، وأمّا السمن فيسمّى عندهم رباغ .

ولما اجتمعنا بهذا الحاجّ الذي يعرف اللسان العربي رغبتنا منه أن يسافر معنا إلى قسطنطينية ، وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر ، وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابي ، وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينتُ له دابةً لركوبه ، ووعدته الخير ، وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنّه صاحب مال كثير ، وله ديونٌ على الناس ، غير أنّه ساقط الهمة خسيس الطبع سيّء الأفعال ، وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشترى به الأرز والخضر والملح ، ويمسك ثمن ذلك لنفسه ، وذكر لي أنّه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك ، وكنا نختمله لما كنّا نكابه من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله إلى أن فضحناه ،

وكنّا نقولُ له في آخر النهار : يا حاجّ كم سرقتَ اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا ، فنضحك منه ونرضى بذلك .

ومن أفعاله الخسيسة أنّه مات لنا فرس في بعض المنازل ، فتولّى سلخَ جلده بيده ، وباعه ، ومنها أنّا نزلنا ليلةً عند أخت له في بعض القرى ، فجاءت بطعام وفاكهة من الإجاص والتفاح والمشمش والخوخ كلّها مبيسةً ، وتُجعلُ في الماء حتى ترطب ، فتؤكل ويُشربُ ماؤها ، فأردنا أن نُحسنَ إليها فعلم بذلك ، فقال : لا تُعطوها شيئاً ، واعطوا ذلك لي . فأعطيناها ارضاءً له ، وأعطيناها إحساناً في خفيةٍ بحيثُ لم يعلم بذلك .

ثمّ وصلنا إلى مدينة بُولي ، ولما انتهينا إلى قريب منها وجدنا وادياً يظهر في رأي العين صغيراً ، فلما دخله بعضُ أصحابنا وجدوه شديدَ الحرّية والانزعاج فجازوه جميعاً ، وبقيت جاريةٌ صغيرة خافوا من تجويزها ، وكان فرسي خيرةً من أفراسهم ، فأردفتُها ، وأخذتُ في جواز الوادي ، فلما توسطته وقع بي الفرس ، ووقعت الجارية فأخرجها أصحابي وبها رمقٌ ، وخلصتُ أنا .

ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الأخيّة ، ومن عوائلهم أنّه لا تزال النار موقدةً في زواياهم أيام الشتاء أبداً ، يجعلون في كلّ ركن من أركان الزاوية موقد النار ، ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذي الزاوية ، ويسمونها البُخاري ، واحدها بُخيري .

قال ابن جرّي : وقد أحسن صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلّي في قوله في التورية ، وتذكرته بذكر البخيري :

لإنّ البخيريّ مدّ فارقتموه غداً يحشّو الرّماد على كانونيه التّربِ
لو شئتم أنّه يُسمّي أبّا لهبٍ ، جاءتْ ببالكمُ حمالةُ الخطبِ

قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقدة ، فترعتُ ثيابي ولبستُ ثياباً سواها ، واصطليتُ بالنار ، وأتى الأخي بالطعام والفاكهة وأكثرَ من ذلك ، فلهـ

درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشدّ إيثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب ،
والطفهم بالوارد ، وأحبهم فيه وأجملهم احتفالاً بأمره ، فليس قدوم الإنسان
الغريب عليهم إلاّ كقدومه على أحبّ أهله إليه .

وبتنا تلك الليلة بـحالٍ مرضيّة ، ثمّ رحلنا بالغداة فوصلنا إلى مدينة كَرْدِيّ
بُولِي . وهي مدينة كبيرة في بساط من الأرض ، حسنة متسعة الشوارع والأسواق
من أشدّ البلاد برداً ، وهي محلات مفترقة ، كلّ محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم
غيرهم .

ذكر سلطان كردي بولي

وهو السلطان شاه بك من متوسطي سلاطين هذه البلاد ، حسن الصورة
والسيرة . جميل الخلق قليل العطاء . صليّنا بهذه المدينة صلاة الجمعة ، ونزلنا
منها ، ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي ، وهو من مستوطنها
مندسين ، وله بها أولاد ، وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده .
ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فأعلمنا أنّ السلطان قد جاء لزيارتنا ، فشكرته على
فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه ، وجلس فسألني عن حالي وعن مقدمي
وعمن لقيته من السلاطين . فأخبرته بذلك كلّهُ ، وأقام ساعة ثمّ انصرف ،
وبعث بدابةً مُسرّجة وكُسوة .

وانصرفنا إلى مدينة بُرْلُو . وهي مدينة صغيرة على تلّ ، تحتهّا خندق ،
ولها قلعة بأعلى شاق . نزلنا منها بمدرسة ، وكان الحاجّ الذي سافر معنا يعرف
مدرّسها وطلبتها ويخضر معهم الدرس . وهو ، على علاته ، من الطلبة ، حنفيّ
المذهب . ودعانا أميرُ هذه البلدة ، وهو عليّ بك ابن السلطان المكرم سليمان
بادشاه ملك قسطنطينية . وسنذكره . فصعدنا إليه إلى القلعة فسلمنا عليه ،
فرحّب بنا وأكرمنا وسألني عن أسفاري وحالي . فأجبتُه عن ذلك وأجلستني
إلى جانبه . وحضر قاضيه وكتابه الحاجّ علاء الدين محمد ، وهو من كبار الكتّاب ،

وحضر الطعام فأكلنا ، ثم قرأ القراء بأصواتٍ مُبْكِيَةٍ وألحانٍ عَجِيْبَةٍ وانصرفنا . وسافرنا بالغد إلى مدينة قَصْطَمُونِيَّة ، وهي من أعظم المدن وأحسنها ، كثيرةُ الخيرات رخيصةُ الأسعار ، نزلنا منها بزاوية شيخ يُعرف بالأُطروش لثقل سمعه ، ورأيتُ منه عَجَباً ، وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارةً في الأرض بإصبعه ، فيفهم عنه ويحييه ، ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها . وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً فكُنّا نشترى طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ، ونشترى خبزاً بدرهمين ، فيكفينا ليومنا ، ونحن عشرة ، ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ، ونشترى جوزاً بدرهم وقشطلاً بمثله ، فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ، ونشترى حِمْلَ الحطب بدرهم واحد ، وذلك أوان البرد الشديد ، ولم أرَ في البلاد مدينة أرخصَ أسعاراً منها . ولقيتُ بها الشيخ الإمام العالم المفتي المدرّس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء ، قرأ بالعراقيين وتبريز واستوطنها مدةً ، وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديماً .

ولقيتُ بها العالم المدرّس صدر الدين سليمان الفنيكي من أهل فنيكة من بلاد الروم ، وأضافني بمدرسته التي بسوق الخيل . ولقيتُ بها الشيخ المعمّر الصالح دادا أمير عليّ ، دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ملقى على ظهره ، فأجلسه بعضُ خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما ، وكلمني بالعربيّ الفصيح ، وقال : قدمت خيرَ متّقدم ، وسألته عن عمره ، فقال : كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله ، وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة ، وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة ، فطلبت منه الدعاء فدعا لي وانصرفت .

ذكر سلطان قصطمونية

وهو السلطان المكرّم سليمان بادشاه ، وهو كبير السنّ يُنِيف على سبعين سنة ، حسن الوجه ، طويل اللحية ، صاحب وقار وهيبة ، يجالسه الفقهاء والصلحاء . دخلتُ عليه بمجلسه فأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام ، فأجبتّه ، وأمر بإنزالي على قرب منه ، وأعطاني ذلك اليوم فرساً عتيقاً قرطاسيّ اللّون وكسوةً ، وعيّن لي نفقة وعلفاً ، وأمرَ لي بعد ذلك بقمح وشعير نفذ لي في قرية من قرى المدينة على مسيرة نصف يوم منها ، فلم أجسد من يشتره لرخص الأسعار ، فأعطيته للحاج الذي كان في صحبتنا .

ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كلّ يوم بمجلسه ، بعد صلاة العصر ، ويؤتّى بالطعام فتفتّح الأبوابُ ، ولا يُمنع أحدٌ من حضري أو بدوي أو غريب أو مسافر من الأكل ؛ ويجلس في أوّل النهار جلوساً خاصّاً ، ويأتي ابنه فيقبل يديه ، وينصرف إلى مجلس له ، ويأتي أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون .

ومن عاداته في يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد ، وهو بعيد عن داره ، والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب ، فيصليّ السلطان وأرباب دولته والقاضي والفقهاء ووجوه الأجناد في الطبقة السفلى ، ويصليّ الأفندي ، وهو أخو السلطان ، وأصحابه وخدامه وبعضُ أهل المدينة في الطبقة الوسطى ، ويصليّ ابن السلطان وليّ عهده ، وهو أصغر أولاده ، ويسمّى الجواد ، وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس في الطبقة العليا ، ويجتمع القراء فيقعدون حلقة أمام المحراب ، ويقعد معهم الخطيب والقاضي ، ويكون السلطان بإزاء المحراب ، ويقرأون سورة الكهف بأصوات حسان ، ويكرّرون الآيات بترتيب عجيب ، فإذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيبُ المنبر فخطبَ ثمّ صلى ،

التحصين والتحسين ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة ، وهي جهة الشرق ، ولذا هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها ، وأميرها إبراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه .

ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخي جلبي ، وهي خارج من باب البحر . ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل في البحر كميناء سبئية ، فيه البساتين والمزارع والمياه ، وأكثر فواكهه التين والعنب ، وهو جبل مانع لا يستطيع الصعود إليه ، وفيه إحدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين ، وبأعلاه رابطة تنسب للخضر وإلياس ، عليهما السلام ، لا تخلو من متعبّد ، وعندها عين ماء ، والدعاء فيها مستجاب .

وبسفح هذا الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر . والمسجد بمدينة صنوب من أحسن المساجد ، وفي وسطه بركة ماء عليها قبة ثقلها أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب ، وذلك من عمارة السلطان بروانة ابن السلطان علاء الدين الرومي ، وكان يصابي الجمعة بأعلى تلك القبة ، وملك بعده ابنه غازي جلبي ، فلمّا مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور . وكان غازي جلبي المذكور شجاعاً مقداماً ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء ، وفي قوة السباحة ، وكان يسافر في الأجفان الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء ، وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو ، فلا يشعرون بما حلّ بهم حتى يدهمهم الغرق . وطوّقت مرسى بلده مرة أجفان العدو فخرقها وأسر من كان فيها .

وكانت فيه كفاية لا كفاء لها إلا أنهم يذكرون أنّه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات . فإنّه خرج يوماً للتصيّد ، وكان مولعاً به ، فاتبع غزاله ، ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه ، فعارضته شجرة فضربت رأسه فشده خيته فمات ، وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه

إبراهيم ، ويقال إنّه أيضاً يأكل ما كان يأكله صاحبه ، على أن أهل بلاد الروم كلّهم لا ينكرون أكله ، ولقد مررتُ يوماً على باب الجامع بصنوب ، وبخارجة دكاكين يقعد الناس عليها ، فرأيتُ نفرّاً من كبار الأجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكاراة مملوءة بشيء يشبه الحنّاء ، وأحدهم يأخذ منها بمعلقة ويأكل ، وأنا أنظر إليه ولا أعلمُ بما في الشكاراة ، فسألت من كان معي فأخبرني أنّه الحشيش . وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائبُ الأمير بها ومعلّمه ، ويُعرف بابن عبد الرزّاق .

حكاية الروافض وأكل الأرنب

لما دخلنا هذه المدينة رأنا أهلها ونحن نُصلّي مُسبلي أيدينا ، وهم حنفيّة لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفيّة صلاته ، والمختار من مذهبه هو إسبال اليدين ، وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلّون مسبلي أيديهم ، فاتّهمونا بمذهبهم ، وسألونا عن ذلك ، فأخبرناهم أنّنا على مذهب مالك ، فلم يقنعوا بذلك منّا ، واستقرّت التهمة في نفوسهم حتى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب وأوصى بعض خدّامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل بها ، فذبّحناها وطبخناها وأكلناها ، وانصرف الخديم إليه وأعلمه بذلك ، فحيثُ زالت عنا التهمة ، وبعثوا لنا بالضيافة . والروافض لا يأكلون الأرنب .

وبعد أربعة أيّام من وصولنا إلى صنوب توفّيت أمّ الأمير إبراهيم بها ، فخرجتُ في جنازتها وخرج ابنها على قدميّه كاشفاً شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك وثيابُهم مقلوبة ، وأمّا القاضي والخطيب والفقهاء فإنّهم قلبوا ثيابهم ، ولم يكشفوا رؤوسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود عوضاً عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوماً وهي مدّة العزاء عندهم .

١ الشكاراة : إناء كالقصة .

وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً ننتظر تيسير السفر في البحر إلى مدينة القرم ، فاكترينا مركباً للروم ، وأقمنا أحد عشر يوماً ننتظر مساعدة الريح . ثم ركبنا البحر^١ ، فلما توسّطناه بعد ثلاث^٢ هال علينا واشتدّ بنا الأمر ورأينا الهلاك عياناً ، وكنت بالطارمة^٣ ، ومعى رجل من أهل المغرب يسمّى أبا بكر ، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر . ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي : استودعكم الله . ودهمنا من الهول ما لم يُعهد مثله . ثم تغيّرت الريحُ وردّتنا إلى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها . وأراد بعضُ التجّار النزول إلى مرساها ، فمنعت صاحب المركب من إنزاله .

ثم استقامت الريح وسافرنا ، فلما توسّطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرّة الأولى ، ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البرّ وقصدنا مرسى يسمّى الكرّش^٤ . فأردنا دخوله ، فأشار إلينا أناس^٥ كانوا بالجبل أن لا تدخلوا ، فحفظنا على أنفسنا وظننا أن هنالك أجفاناً للعدو . فرجعنا مع البرّ ، فلما قربناه قلت لصاحب المركب : أريد أن أنزل هاهنا ، فأنزّلني بالساحل . ورأيتُ كنيسة فقصدتها ، فوجدتُ بها راهباً ورأيتُ في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي . عليه عمامة^٦ ، متقلّد سيفاً وبيده رمح وبين يديه سراج يوقّد ، فقلتُ للراهب : ما هذه الصورة ؟ فقال : هذه صورة النبيّ عليّ^٧ ؛ فعجبتُ من قوله .

وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجاً ، فلم نستطع أكلها إذ كانت ممّا استصحبناه في المركب . ورائحةُ البحر قد غلبت على كلّ ما كان فيه . وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق ، والدشت بلسان الترك هو الصحراء ، وهذه الصحراء خضرة نضيرة لا شجر بها ولا جبل ولا تلّ

١ البحر : أراد البحر الأسود .

٢ هال : عظم ، هاج .

٣ الطارمة : مخدع في مؤخر المركب نافذ إلى الماء .

٤ الكرّش : هو البوسفور .

ولا أبنية ولا حطب ، وإنّما يوقدون الأرواث ويسمّونها التزك ، فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ، ولا يسافر في هذه الصحراء إلّا في العجل ، وهي مسيرة ستّة أشهر : ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك ، وثلاثة في بلاد غيره .

ولمّا كان الغدّ من وصولنا إلى هذا المرسى توجه بعض التجّار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقنفجق ، وهم على دين النصرانيّة ، فاكترى منهم عَجَلَة يجرّها الفرس ، فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكفّ ، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى ، وأكثرهم الجنويّون ، ولهم أميرٌ يُعرف بالدندير ، ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

حكاية أصوات النواقيس

ولمّا نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثمّ سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعتها قطّ ، فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذّنوا ، ففعلوا ذلك ، فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع وال سلاح ، فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنّه قاضي المسلمين هنالك ، وقال : لمّا سمعتُ القراءة والأذان خفت عليكم . فجتّ كما ترون . ثمّ انصرف عنّا وما رأينا إلّا خيراً . ولمّا كان من الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاماً ، فأكلنا عنده ، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق ، وكلّهم كفار ، ونزلنا إلى المرسى فرأينا مرسى عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيراً وكبيراً ، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ، ثمّ اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القيرم ، وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك ن ، وعليها أميرٌ من قبله اسمه تُلُكْتُمُور ، وكان أحد خدام هذا الأمير صحبنا في طريقنا فعرفه بقدمنا ، فبعث إليّ مع إمامه سعد الدين بفرس . لنا بزاية شيخها زاده الخراساني ، فأكرمنا هذا الشيخ ورحّب بنا وأحسن

إلينا . وهو معظم عندهم رأيتُ الناس يأتون للسلام عليه من قاضي وخطيب وفقهه وسواهم .

وأخبرني هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهباً من النصارى في دير يتعبد به ويكثر الصوم ، وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يوماً ثم ينفطر على حبة فول . وأنه يكشفُ بالأمور^١ ، ورغب مني أن أصحبه في التوجه إليه ، فأبيت ، ثم ندمتُ بعد ذلك على أن لم أكن رأيتُه وعرفت حقيقة أمره .

ولقيتُ بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائل قاضي الحنفية ؛ ولقيتُ بها قاضي الشافعية ، وهو يسمّى بخضر ، والفقيه المدرّس علاء الدين الاصي ، وخطيب الشافعية أبا بكر ، وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر ، رحمه الله ، بهذه المدينة ، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين ، وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه ، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين ، وهو من الفقهاء المعظمين .

وكان الأمير تلكتمور مريضاً فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن إلينا ، وكان على التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك ، فعملت في السير في صحبته ، واشتريتُ العجلات برسم ذلك .

ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمّون العَجَلَة عَرَبَة ، وهي عجلات تكون للواحدة منهنّ أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره فرسان ؛ ومنها ما يجره أكثر من ذلك ؛ وتجريها أيضاً البقر والجمالُ على حال العرب في ثقلها أو خفتها ، والذي يخدم العرب يركب إحدى الأفراس التي تجريها ، ويكون عليها سرج ، وفي يده سوط يجرّكها به للمشي ، وعودٌ كبيرٌ يصوّبها به إذا عاجت عن القصد ، ويُجعل على العرب شبةُ قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة

١ يكشف بالأمور : أي يلهم كشف المنيات .

الحَمَل ، وتُكسى باللَّبَدِ أو بالْمَلَسَفِ^١ ، ويكون فيها طَبِيقَانُ مُشَبَّكَ ، ويرى الذي بداخلها الناسَ ولا يرونه ، ويتقلَّب فيها كما يحبُّ وينامُ ويأكلُ ويقرأُ ويكتبُ ، وهو في حال سيره ؛ والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبهُ البيت كما ذكرنا ، وعليها قِفْل .

وجُهَزَتْ لما أردتُ السفرَ عربة لركوبي مغطاة باللَّبَد ، ومعها جارية لي ، وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرُّها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادِمُ العربة . وسرنا في صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قَطْلودَمور وصارر بك ، وسافر أيضاً معه في هذه الوجهة إمامه سعدُ الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى والمعروف علاء الدين ؛ وخطَّة هذا المعروف أن يكون بين يدي الأمير في مجلسه ، فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعروف ، ويقول بصوت عال : بسم الله ، سيِّدُنَا ومولانا قاضي القضاة والحكَّام مبینُ الفتاوى والأحكام ، بسم الله ؛ وإذا أتى فقيهٌ معظَّم أو رجلٌ مشارٌ إليه قال : بسم الله ، سيِّدُنَا فلانُ الدين ، بسم الله ، فيتهيأ من كان حاضراً لدخول الداخل ، ويقومُ إليه ، ويفسحُ له في المجلس .

وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيراً كسير الحجاج في درب الحجاز ، يرحلون بعد صلاة الصبح ، وينزلون ضُحًى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون عشيّاً ، وإذا نزلوا حلّوا الخيل والإبل والبقر عن العربات وسرّحوها للرعي ليلاً ونهاراً ، ولا يعلفُ أحدٌ دابةً لا السلطان ولا غيره .

وخاصية هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب ، وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ، ولذلك كثرت الدوابُّ بها ، ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم في السرقة . وحكمتهم فيها أنه من وجِدَ عنده فرسٌ مسروقٌ كُتِّفَ أن يردّه إلى صاحبه ويُعطيه معه تسعة مثله ، فإن

.....
١ الملف : الجوخ .

لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك ، فإن لم يكن له أولاد ذُبِحَ كما تُذَبِّحُ الشاةُ .
وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاماً
من شيءٍ شبه الآلي يسمّونه الدّوقي . يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبّوا
عليه شيئاً من الدّوقي ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صغاراً وطبخوه معه ،
ثمّ يُسجّل لكلّ رجل نصيبه في صحفة ، ويصبّون عليه اللبن الرائب ، ويشربونه
ويشربون عليه لبن الخلل ، وهم يسمّونه القمير ، وهم أهل قوة وشدة
وحسن مزاج .

ويستعملون في بعض الأوقات طعاماً يسمّونه البورخاني ، وهو عجينة
يقطّعونها قطعاً صغاراً ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدر ، فإذا طبخت
صبّوا عليها اللبن الرائب وشربوها . ولهم نبيذ يصنعونه من حبّ الدّوقي الذي
تقدّم ذكره ، وهم يرون أكل الحلواء عيباً .

ولقد حضرت يوماً عند السلطان أوزبك في رمضان ، فأحضرت لحوم الخيل ،
وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ، ولحوم الأغنام والرشا ، وهو شبه الأظربة
يطبخ ويشرب باللبن . وأتيت تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي ،
فقدّمته بين يديه ، فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك ،
وأخبرني الأمير تليكمور أن أحد الكبار من ممالك هذا السلطان ، وله من أولاده
وأولاد أولاده نحو أربعين ولداً ، قال له السلطان يوماً : كل الحلواء واعتقكم
جميعاً ! فأبى ، وقال : لو قتلني ما أكلتها .

ولما خرجنا من مدينة القيرم نزلنا بزاوية الأمير تليكمور في موضع يعرف
بسجّان ، فبعث إليّ أن أحضر عنده . فركبتُ إليه وكان لي فرس معدّ لركوبي
يقوده خديم العرب . فإذا أردتُ ركوبه ركبته . وأتيت الزاوية فوجدتُ الأمير
قد صنع بها طعاماً كثيراً فيه الخبز ، ثمّ أتوا بماء أبيض في صحاف صغار ،
فشرب القوم منه . وكان الشيخ مظفر الدين يلي الأمير في مجلسه ، وأنا أليه ،
فقلتُ له : ما هذا ؟ فقال : هذا ماء الدّهْن ، فلم أفهم ما قال . فذقته فوجدت

له حموضة، فتركته . فلما خرجتُ سألتُ عنه ، فقال : هو نبيذ يصنعونه من حبّ الدوقي ، وهم حنفيّة المذهب والنيبذ عندهم حلال ، ويسمّون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البُوْزَه ، وإنّما قال لي الشيخ مظفر الدين : ماء الدّخْن ، ولسانه فيه اللّكنة الأعجميّة ، فظننتُ أنّه يقول : ماء الدهن .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلاً من مدينة القيرَم وصلنا إلى ماء كثير نخوضه يوماً كاملاً ، وإذا كثر خوضُ الدوابّ والعربات في هذا الماء اشتدّ وحله ، وزاد صعوبةً ، فذهب الأميرُ إلى راحتي وقدّمني أمامه مع بعض خدّامه ، وكتب لي كتاباً إلى أمير أزاقي يُعلمه اني أريد القدوم على الملك ، ويخصّه على اكرامي . وسرنا حتّى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصفَ يوم ، ثمّ سرنا بعده ثلاثاً ووصلنا إلى مدينة أزاقي ، وهي على ساحل البحر ، حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات ، وبها من الفتيان أخى بحقجي ، وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر .

ولما وصل كتاب القاضي تليكتمور إلى أمير أزاقي ، وهو محمد خواجه الخوارزمي ، خرج إلى استقبالي معه القاضي والطلبة ، وأخرج الطعام ، فلما سلّمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ، ووصلنا إلى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر وإلياس ، عليهما السلام ، وخرج شيخ من أهل أزاقي يسمّى بـرجب النهر ملكي نسبةً إلى قرية بالعراق ، فأضافنا بزاوية له ضيافةً حسنة . وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تليكتمور ، وخرج الأمير محمد للقائه ، ومعه الأميرُ والطلبة ، وأعدّوا له الضيافة ، وضربوا ثلاث قباب متّصلاً بعضها ببعض : لإحداها من الحرير الملوّن عجيبه ، والثنتان من الكتّان ، وأداروا عليها سِراجةً^١ ، وهي المسماة عندنا أفراجاً ، وخارجها الدهليز ، وهو على هيئة البرج عندنا .

١ قوله : سراجة ، لعله أراد شيئاً مسرجاً أي مغطياً بخياطة متباعدة ، أو ربما كان لها وللافراج معنى آخر في عرفهم .

ولما نَزَلَ الأميرُ بَسِطَتْ بين يديه شِقاقُ الحريرِ يمشي عليها ، فكان من مكارمه وفضله أن قدَّمَنِي أمامه ليُري ذلك الأميرَ منزليَّ عنده ، ثمَّ وصلنا إلى الخباءِ الأولى ، وهي المعدَّة لجلوسه ، وفي صدرها كرسيٌّ من الخشب لجلوسه ، كبيرٌ مرصعٌ وعليه مرتبةٌ حسنةٌ ، فقدمني الأميرُ أمامه ، وقدم الشيخَ مظفر الدين ، وصعد هو فجلس فيما بيننا ، ونحن جميعاً على المرتبة ، وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبُها عن يسار الكرسي على فُرْش فاخرة ، ووقف ولدا الأمير تلكنمور وأخوه والأمير محمد وأولاده في الخدمة ، ثمَّ أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها ، وأتوا باللبان الخيل ثمَّ أتوا بالبوزه ، وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثمَّ نُصِبَ مِنبَرٌ وصَّده الواعظ وجلس القراء بين يديه ، وخطب خطبةً بليغةً ، ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين ، يقول ذلك بالعربي ، ثمَّ يفسره لهم بالتركي ، وفي أثناء ذلك يكرِّرُ القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ، ثمَّ أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ، ويسمونه القول ، ثمَّ بالفارسي والتركي ، ويسمونه الملتَمَّع ، ثمَّ أتوا بطعام آخر ، ولم يزلوا على ذلك إلى العشي ، وكلَّما أردتُ الخروجَ منعني الأمير ، ثمَّ جاؤوا بكسوة للأمير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي ، وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة أفراس ، ولكلٍّ كبيرٍ من أصحابه بفرس ، ولي بفرس . والخيول بهذه البلاد كثيرةٌ جدًّا ، وثمنها نزر قيمةُ الجيِّد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه . وهذه الخيل هي التي تُعرف بمصر بالأكاديش ، ومنها معاشهم ، وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر ، فيكون للتركي منهم آلافٌ منها .

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل أتهم يضعون في العربات التي تركبُ فيها نساؤهم قطعةً لِبَدٍ في طول الشَّبرٍ مربوطةٌ إلى عودٍ رقيقٍ في طول الذراع في ركن العربَة ، ويُجعل لكلِّ ألف فرس قطعةٌ ،

١ الخباء : الخيمة ، مذكر ، أنه مشاكلة للخيمة .

ورأيتُ منهم من يكون له عشرُ قطع ومن له دون ذلك ، وتُحملُ هذه الخيلُ إلى بلاد الهند ، فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها ، لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ، ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغنم ، ويسمى عندهم القشي ، ويركب أحدها وييده عصا طويلة فيها جبلٌ ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الجبل في عنقه وجذبه ، فيركبه ويترك الآخر للرعي ، وإذا وصلوا بها إلى أرض السند أطعموها العلف لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ، ويموت لهم منها الكثير ويُسرق ويُغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششبقار ، ويُغرمون عليها بمثلتان قاعدة بلاد السند ، وكانوا فيما تقدم يُغرمون ربع ما يجلبونه ، فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ، ومن تجار الكفار العشر ، ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضلٌ كبيرٌ لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون ديناراً ، وربما باعوها بضعف ذلك ، وضعفه وضعفيه .

والجباد منها تساوي خمسمائة دينار وأكثر من ذلك ، وأهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق لأنهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل ، وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها . والخيل التي يبتغونها للسبق تُجلبُ إليهم من اليمن وعمان وفارس ، ويبيع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف . ولما سافر الأمير تليكنمور عن هذه المدينة أقمتُ بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الأمير محمد خواجه آلات سفري ، وسافرت إلى مدينة المآجر ، وهي مدينة كبرى من أحسن مدن الترك ، على نهر كبير ، وبها البساتين والفواكه الكثيرة ، نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطاحي من بطائح العراق ، وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي ، رضي الله عنه ، وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعزب . وعيشهم

من الفتوح .

ولأهل تلك البلاد اعتقادٌ حسن في الفقراء ، وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيول والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرّك به ، ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير ، وخصوصاً النساء فإنّهنّ يكثرن الصدقة ويتحرّين أفعال الخير .

وصلينا بمدينة المآجر صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عزّ الدين المنبر ، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها ، وله جماعة من الطلبة والقرّاء يقرأون بين يديه ، ووعظ وذكر ، وأمير المدينة حاضرٌ وكبراؤها ، فقام الشيخ محمد البطاحي فقال : إن الفقيه الواعظ يريد السفر ، ونريد له زوادة ، ثمّ خلّع فرجيّة ميرعز كانت عليه وقال : هذه مني إليه ، فكان الحاضرون يبنّ من خلّع ثوبه ومن أعطى فرساً ومن أعطى دراهم ، واجتمع له كثيرٌ من ذلك كلّهُ .

ورأيتُ بقيسارية هذه المدينة يهودياً سلّم عليّ وكلمني بالعربي ، فسألته عن بلاده ، فذكر أنّه من بلاد الأندلس ، وإنّه قدم منها في البرّ ولم يسلك بحراً ، وأتى على طريق القسطنطينيّة العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس ، وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر . وأخبرني التجّار المسافرين الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله .

ورأيتُ بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم . وهنّ أعلى شأنًا من الرجال . فأما نساء الأمراء فكانت أولّ رؤيتي لهنّ عند خروجي من القيّم ، رؤية الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها . وكلّها مجلّة بالملف الأزرق الطيّب ، وطبقان البيت مفتوحة وأبوابه ، وبين يديها أربع جوارٍ فانتات الحسن بديعات اللباس . وخلفها جملة من العربات فيها جوارٍ يتبعنها ، ولما قربت من منزل الأمير نزّلت عن العربة إلى الأرض . ونزل معها نحو ثلاثين من الجوّاري

١ الفرجية : مطف فرو .

يرفعن أذيالها ، ولأثوابها عُرِّي تأخذ كل جارية بعروة ، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب ؛ ومشت كذلك متبخرة ، فلمّا وصلت إلى الأمير قام إليها وسلّم عليها ، وأجلسها إلى جانبه ، ودار بها جواربها . وجاؤوا بروايا القِيمِزْ فصَبَّت منه في قدح وجلست على ركبتها قدّام الأمير وناولته القدح فشرب ، ثم سقت أخاه ، وسقاها الأمير ، وحضر الطعام فأكلت معه . وأعطاها كسوة وانصرفت . وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء ، وسنذكر نساء الملك فيما بعد .

وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتُهن ، واحداهن تكون في العربة والحيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوّاري يرفعن أذيالها وعلى رأسها البَغَطاق وهو أقروف^١ مرصع بالجوهر ، وفي أعلاه ريش الطواويس ، وتكون طيقان البيت مفتحة ، وهي بادية الوجه لأن نساء الأتراك لا يَحْتَجِبْنَ ، وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ، ومعها عبيدُها ، بالغنم واللبن فتبيعهُ من الناس بالسِّلَع العطريّة ، وربّما كان مع المرأة منهنّ زوجُها فيظنّه من يراه بعضُ خدّامها ، ولا يكون عليه من الثياب إلّا فروة^٢ من جلد الغنم ، وفي رأسه قَلَنْسُوءة تُناسب ذلك ، يسمّونها الكلا .

وتجهزنا من مدينة المَاجَرِ نقصد معسكر السلطان ، وكان على أربعة أيّام من المَاجَرِ بموضع يقال له بِشْ دَغْ ، ومعنى بِشْ عندهم خمسة^٣ ، ومعنى دَغْ الجبل ، وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حارّ يغتسل منها الأتراك ، ويزعمون أنّه من اغتسل منها لم تُصِبه عاهة مرض .

وارتحلنا إلى موضع المحلّة^٤ فوصلناه أوّل يومٍ من رمضان ، فوجدنا المحلّة قد خَلَّت ، فعدنا إلى الموضع الذي رحلنا منه لأنّ المحلّة تنزل بالقرب منه ، فضربتُ بيّتي على ثلّة هنالك . وركزتُ العلم أمام البيت ، وجعلتُ الحيل والعربات وراء ذلك . وأقبلت المحلّة ، وهم يسمّونها الأُرْدَ ، بضمّ الهمزة ،

١ الأقروف : قبة مستطيلة مخروطية الشكل .

٢ المحلّة : أراد القوم الحاليين ، أي النازلين بالمكان .

فرأينا مدينةً عظيمةً تسيرُ بأهلها ، فيها المساجدُ والأسواق ، ودُخانُ المطبخ صاعدٌ في الهواء، وهم يطبخون في حال رحيلهم ، والعربات تجرّها الخيلُ بهم ، فإذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض ، وهي خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والخوانيت . واجتاز بنا خواتينُ السلطان كلّ واحدةٍ بناسها على حدة ، ولما اجتازت الرابعةُ منهنّ ، وهي بنت الأمير عيسى بك ، وسندكرها ، رأيت البيت بأعلى التلّ والعلم أمامه ، وهو علامة الوارد ، فبعثت الفتيان والحواري ، فسلّموا عليّ وبلغوا سلامها إليّ ، وهي واقفةٌ تنتظرهم ، فبعثت إليها هديّة مع بعض أصحابي ومع معرف الأمير تلكتمور ، فقبلتها تبرّكاً ، وأمرت أن أنزل في جوارها ، وانصرفت وأقبل السلطان فنزل في محلّته على حدة .

ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان

واسمه محمد أوزبك ، ومعنى خان عندهم السلطان ، وهذا السلطان عظيم المملكة ، شديد القوة ، كبير الشأن ، رفيع المكان ، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينيّة العظمى ، مجتهد في جهادهم ، وبلادهم متسعة ومدنها عظيمة ، منها التكفار والقيرم والماجر وأزاق وسرداق (سوداق) وخوارزم ، وحضرته السرا ، وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظمائها ، وهم مولانا أمير المؤمنين ظلّ الله في أرضه إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحقّ إلى قيام الساعة ، أيّد الله أمره وأعزّ نصره ؛ وسلطان مصر والشام ؛ وسلطان العراق ؛ والسلطان أوزبك هذا ؛ وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر ؛ وسلطان الهند ؛ وسلطان الصين .

ويكون هذا السلطان ، إذا سافر في محلّة ، على حدة معه مماليكه وأرباب دولته ، وتكون كلّ خاتون من خواتينه على حدة في محلّتها ، وإذا أرادوا أن يكون عند واحدة منهنّ بعث إليها يُعلمها بذلك فتنهياً له . وله في قعوده وسفره

وأمره ترتيب عجيب بديع .

ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة ، في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهي من قضبان خشب مكسوّة بصفائح الذهب ، وفي وسطها سرير من خشب مكسوّ بصفائح الفضة المذهبة ، وقوائمه فضّة خالصة ، ورؤوسها مرصّعة بالجوهر . ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيِّطُغلي وتليها الخاتون كَبِك . وعلى يساره الخاتون بَيْسَلُون وتليها الخاتون أَرْدُوجا ، ويقف أسفل السرير على اليمين ولدُ السلطان تَبَن بك ، وعن الشمال ولدُه الثاني جَنان بك ، وتجلس بين يديه ابنته إيت كَجُجُك . وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير . وأمّا طيِّطُغلي ، وهي الملكة واحظاها عنده ، فإنّه يستقبلها إلى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها ، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذٍ يجلس السلطان ، وهذا كلّه على أعين الناس دون احتجاب .

ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال ، وكلّ إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ، ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمّه وإخوته وأقاربه ، ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ، ثمّ يدخل الناس للسلام بالأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون ، فيجلسون على بعدٍ ، فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثمّ ينصرف سائرهنّ فيتبعها إلى محلّتها ، فإذا دخلت إليها انصرفت كلّ واحدة إلى محلّتها راكبة عربتها ومع كلّ واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل ، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركباناً ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهم بين الفرسان والفتيان ، وهكذا ترتيب

كلّ خاتون منهن في انصرافها ومجيئها .

وكان نزولي من الجنة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد . وفي الغد من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر ، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء ، وقد صنع طعاماً كثيراً ، وأفطرنا بمحضره ، وتكلّم السيّد الشريف نقيبُ الشرفاء ابنُ عبد الحميد والقاضي حمزةُ في شأنَي بالخير ، وأشاروا على السلطان بإكرامي .

وهؤلاء الأتراك لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة ، وإنّما يبعثون له الغنم والحيل للذبح وروايا القمز . وتلك كرامتهم . وبعد هذا بأيّام صليت صلاة العصر مع السلطان ، فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود ، وجاؤوا بالطعام من المشروبات كما يُصنع من الدوق ثمّ باللحوم المسلوقة من الغنم والحيل ، وفي تلك الليلة أتيتُ السلطان بطبق حلواء فجعل إصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك .

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكلّ خاتون منهنّ تركب في عربة ، وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضّة المموّهة بالذهب ، أو من الخشب المرصّع ، وتكون الحيل التي تجرّ عربتها مُجلّلةً بأثواب الحرير المذهب . وخديم العربة الذي يركب أحد الحيل فتى يدعى القشي ، والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأةٌ من القواعد تسمّى أوّلُ خاتون ، ومعنى ذلك الوزيرة ، وعن شمالها امرأةٌ من القواعد أيضاً تسمّى كُجُكُ خاتون ، ومعنى ذلك الحاجة ، وبين يديها ستّ من الجوّاري الصغار يقال لهم البنات ، فائقاتُ الجمال ، متناهياتُ الكمال ، ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهما ، وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلّل بالجواهر ، وبأعلاها ريش الطواويس . وعليها ثياب حرير مرصّعة بالجواهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم ، وعلى رأس الوزيرة والحاجة مَقْسَعَة حرير

مزر كشة الحواشي بالذهب والجواهر وعلى رأس كلّ واحدة من البنات الكلا ، وهو شبه الاقروف ، وفي أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجواهر . وریش الطواويس من فوقها ، وعلى كلّ واحدة ثوب حرير مذهب يسمّى النخ . ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين ، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر ، ويبد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة ، أو يكون من عود ملبس بهما ، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة ، في كلّ عربة الثلاث والأربع من الجوّاري الكبار والصغار ، ثيابهن الحرير وعلى رؤوسهن الكلا ، وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرّها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ، ومع كلّ عربة غلام موكل بها ، متزوج بجارية من الجوّاري التي ذكرنا ، فإن العادة عندهم أنّه لا يدخل بين الجوّاري من الغلمان إلّا من كان له بينهن زوجة . وكلّ خاتون فهي على هذا الترتيب ولندكرهن على الانفراد .

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى هي الملكة أمّ ولدي السلطان جان بك وتين بك ، وسندكرهما ، وليست أمّ ابنته إيت كججك ، وأمّها كانت الملكة قبل هذه ، واسم هذه الخاتون طييطغلي ، وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده ، وعندها بيت أكثر لياليه ، ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها ، إلّا أنّها أبخل الخواتين . وحدثني من اعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة أن السلطان يحبّها للخاصية التي فيها ، وهي أنّه يجدها كلّ ليلة كأنّها بكر ، وذكر لي غيره أنّها من سلالة المرأة التي يُذكر أن المثلث زال عن سليمان ، عليه السلام ، بسببها ، ولمّا عاد إليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها ، فوضعت بصحراء قفصجق ، وإن رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة ، وكذلك كلّ من هو من نسل المرأة

المذكورة . ولم أرَ بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلاّ هذه الخاتون ، اللهمّ إلاّ أن بعض أهل الصين أخبرني أنّ بالصين صنفاً من نساها على هذه الصورة ، ولا يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة .

وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون ، وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنّهن خديمات لها ، وبين يديها نحو خمسين جارية صغاراً يسمّون البنات ، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضّة مملوءة بحسب الملوك ، وهن ينقيّنه ، وبين يدي الخاتون صينيّة ذهب مملوءة منه ، وهي تنقيه ، فسلمنا عليها ، وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيّب ، فقرأ ثمّ أمرت أن يؤتّى بالقمر فأتيّ به في أقداح خشب لطاف خفاف ، فأخذت القدح بيدها وناولني إيّاه ، وتلك نهاية الكرامة عندهم ، ولم أكن شربت القمر قبلها ولكن لم يمكنني إلاّ قبوله ، وذقته ولا خيرَ فيه ، ودفعته لأحد أصحابي ، وسألني عن كثير من حال سفرنا ، فأجبناها ثمّ انصرفنا عنها ، وكان ابتداءنا بها لأجل عظمتها عند الملك .

ذكر الخاتون التي تلي الملكة

واسمها كسبك خاتون ، ومعناها بالتركية النخالة ، وهي بنت الأمير نغططي ، وأبوها حيّ مُبتلى بعلّة النقرس ، وقد رأيته في غد دخولنا على الملكة ؛ دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم ، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ، ونحو عشرين من البنات يطرّزن ثياباً ، فسلمنا عليها وأحسنّت في السلام والكلام ، وقرأ قارئنا فاستحسنه وأمرت بالقمر فأحضر ، وناولني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة ، وانصرفنا عنها .

ذكر الخاتون الثالثة

واسمها بَيْسَلُون ، وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تَكْفُور ، ودخلنا على هذه الخاتون ، وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة ، وبين يديها نحو مائة جارية روميّات وتركيات ونوبيّات ، منهنّ قائمات وقاعدات ، والفتيان على رأسها ، والحجاب بين يديها من رجال الروم . فسألست عن حالنا ومقدمنا وبُعدِ أوطاننا ، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقةً منها وشفقةً ، وأمرت بالطعام فأحضر ، وأكلنا بين يديها ، وهي تنظر إلينا . ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنّا وتردّدوا إلينا وطالبونا بحوائجكم ، وأظهرت مكارم الأخلاق ، وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيّدة وثلاثة من جياذ الخيل وعشرة من سائرها . ومع هذه الخاتون كان سفري إلى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد .

ذكر الخاتون الرابعة

واسمها أُرْدُوجا ، وأردو بلسانهم المحلّة ، وسميت بذلك لولادتها في المحلّة ، وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألّوس ، ومعناه أمير الأمراء ، وأدركته حياً ، وهو متزوّج ببنت السلطان إيت كججك . وهذه الخاتون من أفضل الخواتين والطفهنّ شمائل وأشفقهنّ ، وهي التي بعثت إليّ لما رأت بيّتي على التلّ عند جواز المحلّة كما قدمناه ، ودخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه ، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ، ودعت بالقمر فشرّب أصحابنا ، وسألست عن حالنا فأجبتنا ، ودخلنا أيضاً إلى أختها زوجة الأمير عليّ بن أرزق .

ذكر بنت السلطان المعظم اوزبك

واسمها إيت كُجُجُكُ، ومعنى اسمها الكلب الصغير ، فإن إيت هو الكلب وكُجُجُكُ هو الصغير ، وقد قدّمنا ان الترك يسمّون بالفأل كما تفعل العرب . وتوجّهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك ، وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها ، فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد ، وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء ، وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان ، فقعدها على فراش واحد ، وهو معتلّ بالنقرس ، فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس ، وإنّما يركب العربة ، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدّامه وأدخلوه إلى المجلس محمولاً . وعلى هذه الصورة رأيتُ أيضاً الأمير نغطي وهو أبو الخاتون الثانية ، وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك .

ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها ، وأجزلت الإحسان وأفضلت ، جزاها الله خيراً .

ذكر ولدي السلطان

وهما شقيقان وأمّهما جميعاً الملكة طيَيطُغُلي التي قدّمنا ذكرها ، والأكبر منهما اسمه تين بك ، وبك معناه الأمير ، وتين معناه الجسد ، فكأنّ اسمه أمير الجسد ، واسمُ أخيه جَكان بك ، ومعنى جان الروح ، فكأنّه يسمّى أمير الروح . وكلّ واحد منهما له محلة على حدة . وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك ، وكانت له الحظوة والتشريف عنده ، ولم يرد الله ذلك ، فإنّه لما مات أبوه ولي يسيراً ، ثمّ قُتل لأمر قبيحة جرت له ، وولي أخوه جان بك ، وهو خير منه وأفضل .

وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولّى تربية جان بك ، وأشار

عليّ هو والقاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقرّي حسام الدين البخاري وسواهم ، حين قدومي ، أن يكون نزولي بمحلة جان بك المذكور لفضله ، ففعلت ذلك .

ذكر سفري إلى مدينة بلغار

وكنْتُ سمعتُ بمدينة بلغار فأردتُ التوجّه إليها لأرى ما ذُكرَ عنها من انتهاء قِصر الليل بها وقصر النهار أيضاً في عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشرين ، فطلبتُ منه من يوصلني إليها ، فبعثَ معي من أوصلني إليها وردّني إليه ، ووصلتُها في رمضان ، فلما صليتنا المغرب أفرطنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا ، فصلّيناها وصلّينا التراويح والشّفع والوتر ، وطلّع الفجر إثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً ، وأقامتُ بها ثلاثاً .

ذكر أرض الظلمة

وكنْتُ أردتُ الدخول إلى أرض الظلمة ، والدخول إليها من بلغار ، وبينهما أربعون يوماً ، ثمّ أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . والسفر إليها لا يكون إلّا في عجالات صغار تجرّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد ، ولا يدخلها إلّا الأقوياء من التجّار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبته ، فإنّها لا شجر فيها ، ولا حجر ولا مدر .

والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة ، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها ، وتربط العربّة إلى عنقه ويُقرن معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدّم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فإذا وقف وقفت ، وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم

الكلابَ أولاً قبلَ بني آدم ، وإلا غضبَ الكلبُ وفرَّ وترك صاحبه للتلف .
 فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك
 كلَّ واحدٍ منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا إلى منزلهم المعتاد ؛ فإذا
 كان من الغد عادوا لتفقّد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السمّور والسّنجاب
 والقاقم^١ ، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجدته إزاء متاعه أخذه ، وإن لم يرضه
 تركه ، فيزيدونه ، وربما رفعوا متاعهم ، أعني أهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار .
 وهكذا يبيعهم وشرأهم ، ولا يعلم الذين يتوجّهون إلى هنالك من يبيعهم
 ويشاريهم أمّ الجنّ هو أم من الإنس ، ولا يرون أحداً .
 والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار ،
 وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون ، وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير
 في طول الشبر ، وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله ، والسمّور دون ذلك
 تساوي الفروة منه أربعمئة دينار فما دونها .
 ومن خاصية هذه الجلود أنّه لا يدخلها القمل ، وأمرأ الصين وكبارها
 يجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق ، وكذلك تجار فارس
 والعراقيين .
 وعدتُ من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان في صحبتي ، فوجدتُ
 محلاً السلطان على الموضع المعروف ببیش دَغ ، وذلك في الثامن والعشرين من
 رمضان ، وحضرتُ معه صلاة العيد ، وصادف يوم العيد يوم الجمعة .

.....

١ السمور : حيوان بري يشبه ابن عرس لون جلده أحمر مائل إلى السواد يتخذ من جلده فراء
 ثمينة . السنجاب : حيوان أكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر يرفعه صعداً يتخذ منه
 الفراء . القاقم : حيوان على شكل ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر قائم في الصيف وأبيض
 يقق في الشتاء ، فروه جميل .

ذكر ترتيبهم في العيد

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة ، وركبت كل خاتون عربتها ، ومعها عساكرها ، وركبت بنت السلطان ، والتاج على رأسها ، إذ هي الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها ، وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره .

وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايي ، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ، فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والشریف ابن عبد الحميد ، وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان ، ومعهم الأبطال والأعلام ، فصلّى بهم القاضي شهاب الدين ، وخطب أحسن خطبة ، وركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمّى عندهم الكشك ، فجلس فيه ، ومعه خواتينه ، ونُصب برج ثان دونه فجلس فيه وليّ عهده وابنته صاحبة التاج ، ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه ، ونصبت الكراسي للأمرأ وأبناء الملوك ، وتسمّى الصندليات ، عن يمين البرج وشماله ، فجلس كل واحد على كرسیه .

ثم نصبت طبسات للرمي ، لكل أمير طومان طبلّة مختصّة به ، وأمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف ، فكان الحاضرون من أمرأ طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفاً ، وعسكره أكثر من ذلك ، ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه ، وأصحابه يلعبون بين يديه ، فكانوا على ذلك ساعة . ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة ، وعندما يلبسها يأتي إلى أسفل برج السلطان ، فيخدم ، وخدمته أن يمسّ الأرض بركبته اليمنى ويمدّ رجله تحتها والأخرى قائمة ، ثم يؤتى بفرس مُسرّج مُلجَم فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ، ويقوده بنفسه إلى كرسیه ، وهنالك يرتبه ، ويقف مع عسكره ، ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم ، ثم ينزل السلطان من على البرج ويركب الفرس ،

وعن يمينه ابنه ولي العهد ، وتليه بنته الملكة إيت كججك ، وعن يساره ابنه الثاني ، وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوّة بأثواب الحرير المذهب ، والخيل التي تجرّها مجلّة بالحرير المذهب ، وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجّاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوطاق ، والوطاق هو افراج ، وقد نُصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة ، والباركة عندهم بيتٌ عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوّة بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وفي أعلى كلّ عمود جامورا من الفضة المذهبة له بريق وشعاع ، وتظهر هذه الباركة على البعد كأنّها ثنية ، ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتّان ، ويفرش ذلك كلّه بفرش الحرير ، وينصب في وسط الباركة السرير الأعظم ، وهم يسمّونه التخت ، وهو من خشب مرصّع وأعواده مكسوّة بصفائح فضّة مذهبة ، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة ، وفوقه فرش عظيم .

وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى ، وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كججك ، ومعها الخاتون أردووجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيّسلُون ، ومعها الخاتون كَبِيك ، ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ، ونُصب عن شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ، ونصبت كراسي عن اليمين والشمال جلس فوقها أبناء الملوك والأمراء الكبار ، ثمّ الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة ، وهم الذين يقودون ألفاً ، ثمّ أتّي بالطعام على موائد الذهب والفضة ، وكلّ مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك .

وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة ، وتوضع بين يدي كلّ أمير مائدة ، ويأتي الباروجي ، وهو مقطّع اللحم ، وعليه ثياب حرير ، وقد ربط عليها فوطة حرير ، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها ، ويكون لكلّ أمير باروجي ،

١ الجامور : أي رأس على هيئة مخصوصة كالكرة مثلاً .

فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء، فيقطع الباروجي اللحم قطعاً صغيراً، ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم، فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم، ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب، وأكثر شربهم نبيذ العسل، وهم حنيفة المذهب يحلون شرب النبيذ، فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها، وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب، ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه، ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن، ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب، ثم تناول الخواتين ثم أخته، ويخدم جميعهن، ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد، ويخدم له، ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني، ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك.

ويغنون أثناء ذلك بالموالية، وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضاً إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايع، وأنا معهم، فأتيينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك، ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي السلطان إلا الكبار، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد، فكان من الفقهاء من أكل، ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب.

ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز، فأمر السلطان بتفريقها على الناس، فأتوا إليّ بعربة منها فأعطيتها لخيراني من الأتراك، ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة، فأبطأ السلطان، فمن قائل إنّه لا يأتي لأن السكر قد غلب عليه، ومن قائل إنّه لا يترك الجمعة. فلمّا كان بعد تمكّن الوقت أتى وهو يتمايل، فسلم على السيّد الشريف وتبسم له، وكان يخاطبه بأطا، وهو الاب بلسان التركية، ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس إلى

منازلهم ، وانصرف السلطان إلى الباركة فبقي على حاله إلى صلاة العصر ، ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته .

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان ، ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرّر من المغارم ، والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاجّ من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرّر له السلطان ذلك الموضع ، فصار قرية عظمت وتمدّت ، وهي من أحسن المدن ، عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل ، وهو من أنهار الدنيا الكبار ، وهناك يقيم السلطان حتى يشتدّ البرد ويحمد هذا النهر وتحمّد المياه المتصلة به ، ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التين ، فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر ، والتين هنالك لا تأكله الدوابّ لأنّه يضرّها ، وكذلك ببلاد الهند ، وإنّما أكلها الحشيش الأخضر لخصب البلاد ، ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر ، والمياه المتصلة به ثلاث مراحل ، وربّما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون .

ولما وصلنا مدينة الحاجّ ترخان رَغِبَت الخاتون بَيْسَلُون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود إليه ، فأذن لها ، ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينيّة العظمى ، فمِنَعَنِي خوفاً عليّ ، فلاطفته وقلتُ له : إنّما أدخلها في حرمتك وجوارك ، فلا أخاف من أحد ، فأذن لي ، وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة ، وأعطني كلّ خاتون منهن سبائك الفضة ، وهم يسمونها الصّوم ، واحدتها صومة ، وأعطت بنته أكثر منهن وكستني وأركبني ، واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة .

ذكر سفري إلى القسطنطينية

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بَيْسَلُون ، وتحت حرمتها ، ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ، ورجع هو والملكة ووليّ عهده ، وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثمّ رجعن ، وسافر صحبتها الأمير بيدره في خمسة آلاف من عسكره .

وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس ، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين ، والباقيون من الترك ، وكان معها من الجوّاري نحو مائتين وأكثرهن روميّات ، وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربية ونحو ألفي فرس لجرّها وللركوب ، ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرّها ، وكان معها من الفتيان الروميّين عشرة ومن الهنديّين مثلهم ، وقائدهم الأكبر يسمّى بسُنْبُل الهندي ، وقائد الروميّين يسمّى بميخائيل ، ويقول له الأتراك لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار ، وتركت أكثر جواريتها وأثقالها بمحلة السلطان ، إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل .

وتوجهنا إلى مدينة أكَكْ ، وهي مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد ، وبينها وبين السّرا ، حضرة السلطان ، مسيرة عشر ، وعلى يوم من هذه المدينة جبال الروس ، وهم نصارى شقّر الشعور زُرَق العيون قباح الصور ، أهل غدر ، وعندهم معادن الفضة ، ومن بلادهم يُؤتّى بالصوم ، وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ، ووزن الصوم منها خمس أواقي .

ثمّ وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرادق ، وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ، ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها ، وبخارجها البساتين والمياه ، وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم ، وهم أهل الصنائع ، وأكثر بيوتها خشب ، وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب مُعظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك ، وكانت الغلبة للروم ، فانتصر للترك أصحابهم

وقتلوا الروم شرّ قتلة ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمّة إلى الآن .
وكانت الضيافة تُحمّل إلى الخاتون في كلّ منزل من تلك البلاد من الخيل
والغنم والبقر والدوقي والقمز وألبان البقر والغنم ، والسفر في هذه البلاد مّضحى
ومعشى ، وكلّ أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حدّ بلاده
تعظيماً لها لا خوفاً عليها لأن تلك البلاد آمنة .

ثمّ وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سَلْطُوق ، وبابا عندهم بمعناه عند البربر
سواء إلّا أنّهم يفخّمون الباء ، ويذكرون أنّ سَلْطُوق هذا كان مكاشفاً لكن
يُذكر عنه أشياء يُنكرها الشرع ، وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك ، بينها وبين
أوّل عُمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة منها ثمانية أيّام لا ماء
بها يُتزوّد لها الماء ، ويُحمّل في الروايا والقرب على العربات . وكان دخولنا
إليها في أيّام البرد فلم نحتاج إلى كثير من الماء . والأتراك يرفعون الألبان في القرب
ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها ، فلا يعطشون .

وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية ، واحتجّت إلى زيادة أفراس ،
فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك ، وكنتُ أسلم عليها صباحاً ومساءً ، ومتى أتتها
ضيافةً تبعث إليّ بالفرسين والثلاثة وبالغنم ، فكنتُ أترك الخيل لأذبحها ، وكان
من معي من الغلمان والحدّام يأكلون مع أصحابنا الأتراك ، فاجتمع لي نحو
خمسین فرساً ، وأمرت لي الخاتون بخمسة عشر فرساً ، وأمرت وكيلها ساروجة
الرومي أن يختارها سِمَاناً من خيل للمطبخ ، وقالت : لا تخف ، فإن احتجت إلى
غيرها زدناك .

ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة ، فكان سيرُنا من يوم فارقنا السلطان
إلى أوّل البرية تسعة عشر يوماً ، وإقامتنا خمسةً ، ورحلنا من هذه البرية ثمانية
عشر يوماً مّضحى ومعشى ، وما رأينا إلّا خيراً ، والحمد لله .
ثمّ وصلنا بعد ذلك إلى حصن مّهتولي ، وهو أوّل عُمالة الروم ، وكانت
الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها ، فوصلنا إلى هذا الحصن فاستقبلنا

كفالي نقوله الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة ، وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية .

وبين متهولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوماً ، منها ستة عشر يوماً إلى الخليج وستة منه إلى القسطنطينية ، ولا يسافر من هذا الحصن إلا بالخيول والبغال ، وتترك العربات به لأجل الوعر والجبال . وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة ، وبعثت إلي الخاتون بستة منها ، وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماي مع العربات والأثقال ، فأمر لهم بدار ، ورجع الأمير ببكرة بعساكره ، ولم يسافر مع الخاتون إلا ناسها ، وتركت مسجدها بهذا الحصن ، وارتفع حكم الأذان .

وكان يؤتى إليها بالخمور في الضيافة فتشربها ، وبالحنازير ، وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها ، ولم يبق معها من يصلّي إلا بعض الأتراك كان يصلّي معنا . وتغيّرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر ، ولكن الخاتون أوصت الأمير كفالي بإكرامي ، ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا .

ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك ، وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له أصفقيلي ، ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره . وبخارجه قرية كبيرة . ثم سرنا يومين ووصلنا إلى الخليج ، وعلى ساحله قرية كبيرة ، فوجدنا فيه المد . فأقمنا حتى كان الحزير وخضناه . وعرضه نحو ميلين ، ومشينا أربعة أميال في رمال ، ووصلنا الخليج الثاني فخضناه ، وعرضه نحو ثلاثة أميال ، ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ، ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتبعنا فيه . وعرضه ميل واحد ، فعرض الخليج كله مائة وياسة اثنا عشر ميلاً . وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تسخاض إلا في القوارب .

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفسيكة ، وهي صغيرة لكنّها حسنة مانعة . وكنائسها وديارها حسان ، والأنهار تخرقها ، والبساتين تحفها ، ويدّخر بها العنب والإجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى .

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثاً والخاتون في قصر لأبيها هنالك ، ثمّ قدم أخوها شقيقهئها ، واسمه كفالي قراس ، في خمسة آلاف فارس شاكين السلاح ، ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرساً أشهب ، ولبس ثياباً بيضاء وجعل على رأسه مُظَلَّلًا مَكَلَّلًا بالجواهر ، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم ، لابسين البياض أيضاً ، وعليهم مظلات مُزَرَّكة بالذهب ، وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم ، وكل واحد منهم يقود فرساً مُسَرَّجاً مدرّعا ، عليه شِكَّةُ فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف ، وبيده رمح في طرف رأسه راية . وأكثرُ تلك الرماح مكسوّة بصفائح الذهب والفضّة ، وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان .

وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ، ولهم أمير قد قدّم أمامه عشرة من الفرسان شاكين في السلاح ، وكل واحد منهم يقود فرساً ، وخلفه عشر من العلامات ملوثة بأيدي عشرة من الفرسان ، وعشرة أطبال يتقلّدوها عشرة من الفرسان ، ومعهم ستّة يضربون الأبواق والأنفار والصرنايات ، وهي الغيظطات ، وركبت الخاتون في مماليكها وجواريتها وفتياتها وخدامها ، وهم نحو خمسمائة ، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة ، وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ، ويقال لها أيضاً النسيج ، مرصعة بالجواهر ، وعلى رأسها تاج مرصع ، وفرسها مجلّل بحريز مزركش بالذهب ، وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب ، وفي عنقه قلائد مرصعة ، وعظم السرج مكسو ذهباً مكلّل جوهراً .

وكان التقاؤهما في بسط من الأرض على نحو ميل من البلد ، وترجل لها أخوها لأنّه أصغر سنّاً منها ، وقبّل ركاها وقبّل رأسه ، وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعاً ركاها ، وانصرفت مع أخيها .

وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن

اسمها . ذات أنهار وأشجار . نزلنا بخارجها . ووصل أخو الخاتون وليّ العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرّع ، وعلى رأسه تاج ، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك . وعن يساره مثلهم . وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء إلا أن الحقل أعظم والجمع أكثر . وتلاقت معه أخته في مثل زيتها الأول . وترجلاً جميعاً وأناي بخباء حرير فدخلنا فيه ، فلا أعلم كيفية سلامها . ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية .

فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركباناً ومشاة في أحسن زيّ وأجمل لباس ، وضربت عند الصبح الأبطال والأبواق والأنفاز . وركبت العساكر . وخرج السلطان وزوجته أمّ هذه الخاتون . وأرباب الدولة والخواص . وعلى رأس الملك رواق يحماه جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصي طوال في أعلى كل عصاً شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق . وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصي .

ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر . وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم . فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفاً على نفسي . وذكر لي أنها لما قربت من أبيها ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما . ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك .

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى . وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكّانة . وسمعتهم يقولون : سراكنوا سراكنوا . ومعناه المسلمون . ومنعونا من الدخول . فقال لهم أصحاب الخاتون : لائهم من جهتنا . فقالوا : لا يدخلون إلا بإذن . فأقمنا بالباب . وذهب بعض أصحاب الخاتون . فبعث من أعلمها بذلك . وهي بين يدي والدها ، فذكرت له شأننا . فأمر بدخولنا . وعيّن لنا داراً بمقربة من دار الخاتون . وكتب لنا أمراً بأن لا نمترض حيث نذهب من المدينة . ونؤدي بذلك في الأسواق .

وأقمنا بالدار ثلاثاً تُبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج
والسمن والفاكهة والحوث والدراهم والفرش ، وفي اليوم الرابع دخلنا على
السلطان .

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تَكْفُور ، ابنُ السلطان جرجيس ، وأبوه السلطان جرجيس
بقيد الحياة ، لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة في الكنائس ، وترك الملك
لولده ، وسنذكره .

وفي اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إليّ الخاتون الفتى سنبل
الهندي ، فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب في كل باب
سقائفُ بها رجالٌ وأسلحتهم ، وقائدهم على دكانة مفروشة ، فلمّا وصلنا إلى
الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخلتُ ثمّ أتتْ ومعه أربعةٌ من الفتيان
الروميين ، ففتشوني لثلاً يكون معي سكّين ، وقال لي القائد: تلك عادةٌ لهم ،
لا بدّ من تفتيش كلّ من يدخل على الملك من خاصّ أو عامّ ، غريبٍ أو بلديّ .
وكذلك الفعلُ بأرض الهند .

ثمّ لما فتشوني قام الموكل بالباب ، فأخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعةٌ
من الرجال أمسك اثنان منهم بكمّتي واثنان من ورائي ، فدخلوا بي إلى مِشْور
كبير حيطانه بالفسيفساء ، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد ،
وفي وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الأشجار والناسُ واقفون يميناً ويساراً سكوتاً
لا يتكلّم أحد منهم ، وفي وسط المِشْور ثلاثة رجال وقوفٌ أسلمني أولئك
الأربعة إليهم . فأمسكوا بشيبي كما فعل الآخرون ، وأشار إليهم رجلٌ فتقدّموا
بي ، وكان أحدهم يهودياً ، فقال لي بالعربي : لا تخفْ فهكذا عادتهم أن يفعلوا
بالوارد ، وأنا الترجمان ، وأصلي من بلاد الشام . فسألته : كيف أسلمت ؟
فقال : قلّ السلام عليكم .

ثمّ وصلتُ إلى قبّة عظيمة ، والسلطان على سريرهِ ، وزوجتُهُ أمّ هذه الخاتون بين يديه ، وأسفلَ السرير الخاتونُ وإخوتُها ، وعن يمينه ستّة رجال ، وعن يساره أربعة ، وكلّهم بالسلاح ، فأشار إليّ قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيئة ليسكن روعي ، ففعلتُ ذلك ، ثمّ وصلتُ إليه فسلمتُ عليه ، وأشار إليّ : أن اجلسْ ؛ فلم أفعل ، وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدّسة وعن القسّامة وعن مهد عيسى ، وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل ، عليه السلام ، ثمّ عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم ، فأجبتُهُ عن ذلك كلّهُ ، واليهوديّ يترجم بيني وبينه ، فأعجبه كلامي ، وقال لأولاده : اكرموا هذا الرجل وأمنّوه ، ثمّ خلّع عليّ خلعةً وأمرَ لي بفرس مُسرّج ملجَم ، ومظلّة من التي يجعلها الملك فوق رأسه ، وهي علامة الأمان ، وطلبتُ منه أن يعيّن من يركب معي بالمدينة في كلّ يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها في بلادِي ، فعين لي ذلك .

ومن العوائد عندهم أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس ، وأكثر ما يُفعلُ ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لثلاثَ يَؤذوا ، فطافوا بي في الأسواق .

ذكر مدينة القسطنطينية

وهي متناهية في الكبر ، منقسمة قسمين ، بينهما نهرٌ عظيم المدّ والجزر ، على شكل وادي سَلا من بلاد المغرب . وكانت عليه فيما تقدّم قنطرة مبنية فخرت ، وهو الآن يُعبَرُ في القوارب . واسمُ هذا النهر أبُسْمِي ، وأحد القسمين من المدينة يسمّى أصطُتْسَبُول ، وهو بالعدوة الشرقيّة من النهر ، وفيه سكّنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصّفاح ، متّسعة ، وأهلُ كلّ صناعة على حِدة لا يشاركونهم سواهم ، وعلى

كل سوق أبواب تسد عليه بالليل ، وأكثر الصنّاع والباعة بها النساء .
والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك
أو أكثر . وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل .
وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر ، وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة .
والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة .
وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة ، وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه
برباط الفتح في قرية من النهر . وهذا القسم خاصّ بنصارى الافرنج يسكنونه .
وهم أصناف : فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل فرنسة ، وحكمهم
إلى ملك القسطنطينية يُقدّم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمّص ،
وعليهم وظيفة في كل عام للملك القسطنطينية ، وربّما استعصوا عليه ، فيحاربهم
حتى يصلح بينهم البابا . وجسيعهم أهل تجارة ، ومرّسأهم من أعظم المراسي ،
رأيت به نحو مائة جفن من القراقرا وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تُحصى
كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقدار غالبية عليها ، ويشقّها نهر
صغير قدّر تجس ، وكنائسهم لا خير فيها .

ذكر الكنيسة العظمى

وإنما نذكر خارجتها ، وأما داخلها فلم أشاهده ، وهي تسمى عندهم
أيا صوفيا ، ويذكر أنها من بناء آصف بن برخياء ، وهو ابن خالة سليمان ،
عليه السلام ، وهي من أعظم كنائس الروم ، وعليها سور يُطيف بها ، فكأنّها
مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر باباً ، ولها حرم هو نحو ميل ، عليه باب كبير ،
ولا يمنع أحد من دخوله ، وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره ، وهو
شبه ميسور مسطح بالرخام ، وتشقّه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان
مرتفعان نحو ذراع . مصنوعان بالرخام المجزّع المنقوش بأحسن صنعة ، والأشجار

١ القراقرا ، الواحدة قرقرة : مركب كبير .

منتظمة عن جهتي الساقية .

ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرّش من الخشب مرتفع ، عليه دوالي العنب ، وفي أسفله الياسمين والرياحين . وخارج باب هذا المشور قبّة خشب كبيرة فيها طبلاّت خشب يجلس عليها خدّامٌ ذلك الباب ، وعن يمين القبّة مساطبٌ وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضّاتهم وكتّاب دواوينهم ، وفي وسط تلك الحوانيت قبّة خشب يُصعد إليها على درج خشب ، وفيها كرسيّ كبير مطبق بالملف ، يجلس فوقه قاضيهم ، وسنذكره ؛ وعن يسار القبّة التي على باب هذا المشور سوق العطّارين .

والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين أحدهما يمرّ بسوق العطّارين والآخر يمرّ بالسوق حيثُ القضاة والكتّاب . وعلى باب الكنيسة سقائف يجلسُ بها خدّامُها الذين يقيمون طرقيّاتها ويوقدون سُرجَها ، ويغلقون أبوابها ، ولا يدعون أحداً بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم ، الذي يزعمون أنّه بقيّة من الخشبة التي صُلبَ عليها شبيهُ عيسى ، عليه السلام ، وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع ، وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليباً .

وهذا الباب مصفّح بصفائح الفضة والذهب ، وحلقته من الذهب الخالص . وذكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي إلى آلاف ، وأن بعضهم من ذُرية الحواريّين ، وأن بداخلها كنيسة مختصّة بالنساء فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيدُ من ألف . وأمّا القواعد من النساء فأكثر من ذلك كلّهُ .

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كلّ يوم صباحاً إلى زيارة هذه الكنيسة ، ويأتي إليها البابا مرّة في السنة ، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقاءه ، ويترجّلُ له ، وعند دخول المدينة يمشي بين

١ يقيمون : يكسون .

يديه على قدميه . ويأتيه صباحاً ومساءً للسلام عليه ، طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

ذكر المانستارات بقسطنطينية

والمانستار^١ على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدّمة ورائه متأخّرة ، وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين ، وهذه المانستارات بها كثيرة ، فمنها مانستار عمّره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية ، وسنذكره ، وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ؛ ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها : وهما في داخل بستان يشقّهما نهر ماء ، وأحدُهما للرجال والآخر للنساء ، وفي كل واحد منهما كنيسة ، ويدور بهما البيوت للمتعبّدين والمتعبّات . وقد حبّس على كل واحد منهما أحباس لكسوة المتعبّدين ونفقتهم ؛ بناهما أحد الملوك ؛ ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ، ويطيّف بهما بيوت ، وأحدُهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ، ممّن بلغ السّتين أو نحوها ، ولكل واحد منهم كسوته ونفقتة من أوقاف معيّنة لذلك .

وفي داخل كل مانستار منها دويّرة لتعبّد الملك الذي بناه ، وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ السّتين أو السبعين بنى مانستاراً ولبس المسوح ، وهي ثياب الشعر ، وقلّد ولده الملك ، واشتغل بالعبادة حتى يموت .

وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء ، وهي كثيرة بهذه المدينة .

ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي إلى مانستار يشقّه نهر ، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ، ورؤوسهن مخلوقة فيها قلانيس اللّبد ، وطنّ جمال فائق ، وعليهن أثر العبادة ، وقد قعد صبي على

١ المانستار ، أراد به الموناستير : دير الرهبان .

منبر يقرأ هن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه ، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ، ومعهم قسيسهم . فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر . وقال لي الرومي : إن هؤلاء البنات من بنات الملوك ، وهن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة ، وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة . ودخلتُ أيضاً إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد ، وصبي يقرأ هن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين ، فقال لي الرومي : هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة . ودخلتُ إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد ، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء ، وإلى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر أو أقل . وأكثرتُ هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون . وكنائسها لا تحصى كثرة . وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفاً . والنساء هن عمائم كبار .

ذكر الملك المترهب جرجيس

وهذا الملك ولّى الملك لابنه ، وانقطع للعبادة وبنى مانستاراً . كما ذكرناه ، خارج المدينة على ساحلها . وكنت يوماً مع الرومي المعين للركوب معي ، فإذا بهذا الملك ماش على قدميه . وعليه المسوح ، وعلى رأسه قلنسوة لبيد ، وله لحية بيضاء طويلة ، ووجهه حسن عليه أثر العبادة . وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان ، وبيده عكاز وفي عنقه سبحة . فلما رآه الرومي نزل وقال لي : انزل فهذا والدك الملك ! فلما سلّم عليه الرومي سأله عني . ثم وقف وبعث لي ، فجئت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي ، وكان يعرف اللسان العربي : قل لهذا السراكنوا ، يعني المسلم : أنا أضافح اليد التي دخلت بيت المقدس ، والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى ، التي تسمى قمامة ، وبيت لحم ،

وجعل يده على قدمي ، ومسحَ بها وجهه ، فعجبتُ من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم .
ثم أخذ بيدي ومشيتُ معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى ، وأطالَ السؤال ، ودخلتُ معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفاً ، ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه ، وهو من كبارهم في الرهبانية ، ولما رأهم أرسل بيدي ، فقلت له : أريد الدخول معك إلى الكنيسة ، فقال للترجمان : قل له لا بدّ لدخلها من السجود للصليب الأعظم ، فإن هذا ممّا سنته الأوائل ، ولا يمكن خلافه ، فتركته ودخل وحده ، ولم أره بعدها .

ذكر قاضي القسطنطينية

ولما فارقتُ الملك المترهب المذكور دخلتُ سوق الكتاب فرآني القاضي ، فبعث إليّ أحد أعوانه ، فسأل الرومي الذي معي فقال له : إنّه من طلبة المسلمين ، فلمّا عادَ إليه وأخبره بذلك بعث إليّ أحد أصحابه ، وهم يسمون القاضي النجشي كفاً لي ، فقال لي : النجشي كفاً لي يدعوك ، فصعدتُ إليه إلى القبة التي تقدّم ذكرها فرأيتُ شيخاً حسن الوجه واللّمة عليه لباسُ الرهبان ، وهو الملفّ الأسود ، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون ، فقام إليّ وقام أصحابه ، وقال : أنتَ ضيفُ الملك ، ويجبُ علينا إكرامك ، وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر ، وأطالَ الكلامَ وكثر عليه الازدحام ، وقال لي : لا بدّ لك أن تأتي إلى داري فأضيفك ، فانصرفت عنه ولم ألقه بعد .

ذكر الانصراف عن القسطنطينية

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنّها على دين أبيها وراغبة في المقام معه ، طلبوا منها الاذن في العودة إلى بلادهم ، فأذنت لهم وأعطتهم

عطاء جزيلاً ، وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم ، أميراً يسمّى ساروجة الصغير ، في خمسمائة فارس ، وبحث عني ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمّونه البربرة ، وليس بالطيب ، وألفي درهم بندقية ، وشقة ملف من عمل البنات ، وهو أجود أنواعه ، وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف ، وفرسين ، وذلك من عطاء أبيها ، وأوصت بي ساروجة ، وودّعته وانصرفت ، وكانت مدة مقامي عندهم شهراً وستة أيام .

وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا إلى آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا ، فركبنا العربات ، ودخلنا البرية ، ووصل ساروجة معنا إلى مدينة باباسلوق ، وأقام بها ثلاثاً في الضيافة ، وانصرف إلى بلاده ، وذلك في اشتداد البرد . وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين ، أحدهما مبطّن ، وفي رجلي خف من صوف ، وفوقه خف مبطّن بثوب كتان ، وفوقه خف من البرغالي ، وهو جلد الفرس ، مبطّن بجلد ذئب . وكنت أتوضأ بالماء الحار ، بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلّا جمدت لحينها ، وإذا غسلت وجهي يصل الماء إلى لحيتي فيجمد فأحرّكها فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب ، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما عليّ من الثياب حتى يركبني أصحابي .

ثمّ وصلت إلى مدينة الحاجّ ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقرّ بحضرة ملكه ، فسافرنا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثاً ، وهي جامدة ، وكنت إذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به .

ووصلنا إلى مدينة السّرا ، وتُعرف بسرا بركة ، وهي حضرة السلطان أوزبك ، ودخلنا على السلطان ، فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته ، فأعلمناه وأمر بإجراء النفقة علينا ، وأنزلنا .

ومدينة السّرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغصّ

بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق ، متسعة الشوارع . وركبنا يوماً مع بعض كبرائها ، وغرضنا التطواف عليها ، ومعرفة مقدارها ، وكان منزلنا في طرف منها ، فركبنا منه غداةً : فما وصلنا لآخرها إلّا بعد الزوال ، فصلّينا الظهر وأكلنا طعامنا ، فما وصلنا إلى المنزل إلّا عند المغرب ، ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم ، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين ، وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية ، وأمّا المساجد سوى ذلك فكثير جدّاً ، وفيها طوائف من الناس منهم المغل ، وهم أهل البلاد والساطين وبعضهم مسلمون ، ومنهم الأصّ وهم مسلمون ؛ ومنهم القفجق والجركس والروش والروم ، وهم نصارى ، وكلّ طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها ؛ والتجّار والغرباء من أهل العراق ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سورٌ احتياطاً على أموال التجارة ؛ وقصر السلطان بها يسمّى النطون طاش ، والنطون معناه الذهب ، وطاش معناه حجر .

وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة ، وبها من مدرّسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكري أحد الفضلاء ؛ وبها من المالكية شمس الدين المصري ، وهو ممّن يُطعنُ في ديّانته . وبها زاوية الصالح الحاجّ نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا ، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي ، رأيته بها ، وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق ، كريم النفس ، شديد التواضع ، شديد السطوة على أهل الدنيا ، يأتي إليه السلطان أوزبك زائراً في كلّ جمعة ، فلا يستقبله ولا يقوم إليه ، ويقعد السلطان بين يديه ويكلّمه ألطف كلام ويتواضع له ، والشيخ بضدّ ذلك . وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلافُ فعله مع السلطان ، فإنّه يتواضع لهم ويكلّمهم بلطف كلام ، ويكرمهم ، وأكرمني جزاه الله خيراً وبعث إليّ بغلام تركي وشاهدت له بركة .

ذكر كرامة له

كنتُ أردتُ السفر من السَّرا إلى خوارزم ، فنهاني عن ذلك وقال لي :
أقيمُ أيَّاماً ، وحينئذٍ تسافر . فنازعني النفس ، ووجدتُ رفقةً كبيرةً آخذةً
في السفر فيهم تجارٌ أعرفهم ، فاتفقتُ معهم على السفر في صحبتهم ، وذكرتُ
له ذلك ، فقال لي : لا بُدَّ لك من الإقامة ، فعزمتُ على السفر ، فأبقا لي الغلامُ
فأقمْتُ بسببه ، وهذه من الكرامات الظاهرة ، ولما كان بعد ثلاث وجدَ بعضُ
أصحابي ذلك الغلامَ الآبقَ بمدينة الحاج ترخان ، فجاء به إليّ ، فحينئذٍ سافرتُ
إلى خوارزم وبينها وبين حضرة السَّرا صحراءٌ مسيرة أربعين يوماً لا تسافر فيها
الخيول لقلة الكلأ ، وإنما تجرُّ العربات بها الجمالُ .

فسرنا من السَّرا عشرة أيَّام ، فوصلنا إلى مدينة سراجوق ، ومعنى جُوق
صغير ، فكأنتهم قالوا سَرا الصغيرة ، وهي على شاطئ نهر كبير زخار ، يقال
له ألوصو ومعناه الماء الكبير . وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد ، وإلى
هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيول التي تجرُّ العربات ، وبعناها بها بخساب أربعة دنانير
دراهم للفرس ، وأقلَّ من ذلك لأجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة ، واكثرينا
الجمال بحرَّ العربات .

وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا ، ومعناه
الوالد ، أضافنا بها ودعا لنا ، وأضافنا أيضاً قاضيها ، ولا أعرف اسمه ، ثم
سرنا منها ثلاثين يوماً سيراً جاداً لا ننزل إلا ساعتين إحداهما عند الضحى
والأخرى عند المغرب ، وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوق ويشربونه ،
وهو يُطبخ من غلية واحدة ، ويكون معهم الخليج^٢ من اللحم يجعلونه عليه ،
ويصبون عليه اللبن ، وكلَّ إنساناً إنَّما ينام أو يأكل في عربته حال السير .

١ أبق العبد : هرب من سيده .

٢ لعله أراد بالخليج المقدد .

وكان لي في عربي ثلاث من الجوّاري ، ومن عادة المسافرين في هذه البريّة الإسراع لقلّة أعشابها ، والجمال التي تقطعها يتهلّك معظمها ، وما يبقى منها لا ينتفع به . إلّا في سنة أخرى بعد أن يسمن . والماء في هذه البريّة في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة ، وهو ماء المطر والحسيان .

ثمّ لمّا سلكنّا هذه البريّة وقطعناها كما ذكرناه وصلنا إلى خوارزم ، وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها ، لها الأسواق المليحة ، والشوارع الفسيحة ، والعمارة الكثيرة ، والمحاسن الأثيرة ، وهي ترتجّ بسكّانها لكثرتهم ، وتموج بهم موج البحر ، ولقد ركبتُ بها يوماً ودخلت السوق ، فلمّا توسّطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشّور لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام ، وأردتُ الرجوع فما أمكنتني لكثرة الناس ، فبقيت متحيّراً ، وبعد جهد شديد رجعت .

وذكر لي بعض الناس أن تلك السوق يخفّ زحامها يوم الجمعة لأنّهم يسدّون سوق القيساريّة وغيرها من الأسواق ، فركبت يوم الجمعة وتوجّهت إلى المسجد الجامع والمدرسة ، وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك ، وله فيها أمير كبير يسمّى قُطْلُودُ مُور ، وهو الذي عمّر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة ، وأمّا المسجد فعمّرتّه زوجته الخاتون الصالحة تُرابك . وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يُعرف بالصهيوني نسبة إلى صهيون من بلاد الشام ، ولم أرَ في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ، ولا أحبّ في الغرباء .

ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرّها لغيرهم ، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كلّ واحد منهم على دُور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة . وفي كلّ مسجد ديرة^١ معالقة برسم ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تُنفق في مصالح المسجد أو تُطعم

١ الدرة : السوط يضرب به .

للفقراء والمساكين ، ويذكرون أنّ هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان .
وبخارج خوارزم نهرٌ جَيِّحون أحدُ الأنهار الأربعة التي من الجنة ، وهو
يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده
خمسة أشهر . وربما سلكوا عليه عند أخذه في الدوبان فهلكوا .

ويُسافر فيه أيّام الصيف بالمراكب إلى ترمذ ، ويجلبون منها القمح والشعير ،
وهي مسيرة عشر للمنحدر . وبخارج خوارزم زاويةٌ مبنيةٌ على تربة الشيخ نجم
الدين الكبرى ، وكان من كبار الصالحين ، وفيها الطعام للوارد والصادر ،
وشيخها المدرّس سيف الدين بن عصبه من كبار أهل خوارزم ، وبها أيضاً زاوية
شيخها الصالح المجاور جلالُ الدين السمرقندي من كبار الصالحين أضافنا بها ،
وبخارجها قبرُ الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، وعليه قبّة .
وزمخشّر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم ، ولما أتيت هذه المدينة
نزلتُ بخارجها ، وتوجّه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر
البكري ، فبعث إليّ نائبه نور الإسلام ، فسلم عليّ ثمّ عادَ إليه ، ثمّ أتى
القاضي في جماعة من أصحابه فسلم عليّ ، وهو فتي السنّ ، كبيرُ الفعال ،
وله نائبان أحدهما نور الإسلام المذكور ، والآخر نور الدين الكرمانى من كبار
الفقهاء ، وهو الشديد في أحكامه القوي في ذات الله تعالى .

ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي: إنّ هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم
نهاراً لا يتأتّى ، وسيأتي إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه في آخر الليل ، ففعلنا
ذلك ، ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد . ولما كان بعد صلاة الصبح
أتى إلينا القاضي المذكور ، ومعه من كبار المدينة جماعة منهم : مولانا همام
الدين ، ومولانا زين الدين المقدسي ، ومولانا رضي الدين يحيى ، ومولانا فضل
الله الرضوي ، ومولانا جلال الدين العمادي ، ومولانا شمس الدين السنجري
إمام أميرها ، وهم أهل مكارم وفضائل . والغالبُ على مذهبهم الاعتزالُ لكنّهم
لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قتلودمور من أهل السنة .

وكنْتُ أَيَّامَ إقامتي بها أَصْلَتي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده ، فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره ، وهي قريبة من المسجد ، فأدخل معه إلى مجلسه ، وهو من أبداع المجالس فيه القُرُشُ الحافلة ، وحيطانه مكسوة بالملف ، وفيه طيقان كثيرة ، وفي كلِّ طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب ، والأواني العراقية . وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا في بيوتهم . ثمَّ يأتي بالطعام الكثير ، وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع ، وهو سلفُ الأمير قطلودمور متزوج بأخت امرأته ، واسمها جيجا أغا ، وبهذه المدينة جماعةٌ من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الأربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم .

أمير خوارزم

وهو الأمير الكبير قُطْلُودُمُور ، ومعنى اسمه الحديد المبارك لأن قُطْلُو هو المبارك ودُمُور هو الحديد . وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك ، وأكبرُ أمرائه ، وهو واليه على خراسان ، وولده هارون بك متزوج بابتنة السلطان المذكور التي أمَّها الملكة طَيْطُغْلِي المتقدِّم ذكرها ، وامرأته الخاتون تُرابُك صاحبة المكارم الشهيرة .

ولما أتاني القاضي مسلماً عليّ كما ذكرته قال لي : إنَّ الأمير قد علم بقُدومك ، وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان إليك ، فركبتُ مع القاضي إلى زيارته ، وأتينا داره ، فدخلنا مِشْوراً كبيراً أكثر بيوته خشب ، ثمَّ دخلنا مِشْوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرفة قد كُسيَت حيطانها بالملف الملون ، وسقفُها بالحرير المذهب ، والأمير على فرش له من الحرير ، وقد غطى رجليه لِمَساً بهما من النقرس ، وهي علّة فاشية في الترك ، فسَلَمْتُ عليه وأجلستني إلى جانبه ، وقعد القاضي والفقهاء ، وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن

الختاتون بيملون وعن أبيها ، وعن مدينة القسطنطينية ، فأعلمته بذلك كله ، ثم أتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي^١ وأفراخ الحمام ، وخبز معجون بالسمن ، يسمونه الكليجا ، والكعك والخلوى ، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ، ومعه ملاعق الذهب ، وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ، ومن العنب والبطيخ العجيب .

ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره فيجلس بمجلس معد له ، ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلته أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، يسمون الأرعجية (يارغوجي) ويتحاكم الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يتهمون بميل ، ولا يقبلون رشوة .

ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والغنم والسمن والأبزار وأحمال الخطب ، وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم ، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم ، وأمّا الصين فيوفدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ، ثم إذا صارت رماداً عجنوه بالماء وجففوه بالشمس ، وطبخوا به ثانية كذلك حتى يتلاشى .

حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص فقال لي : إن الأمير أمر لك بخمسمائة درهم ، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى ، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه ، فلما أمر بذلك

١ الكراكي ، الواحد كركي : طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أتر الذنب قليل اللحم يأتي إلى الماء أحياناً .

قلت له : أيتها الأمير تصنعُ دعوةً يأكل من حضرها لُقمة أو لُقمتين ، لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع ، فقال : افعل ذلك . وقد أمر لك بالآلف كاملة ، ثم بعثها الأميرُ صحبةَ إمامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه ، وصرفُها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار .

وكنْتُ قد اشتريتُ ذلك اليوم فرساً أدهم اللون بخمسة وثلاثين ديناراً دراهم ، وركبته في ذهابي إلى المسجد ، فما أعطيتُ ثمنه إلا من تلك الآلف . وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ، ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلتُ أرض الهند ، وكانت عندي خيلٌ كثيرة لكنني كنتُ أفضلُ هذا الفرسَ وأوثره وأربطه أمام الخيل ، وبقي عندي إلى انقضاء ثلاث سنين . ولما هلك تغيرت حالي ، وبعثتُ إليَّ الخاتون جيحا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم ، وصنعت لي أختها تُرابك زوجةُ الأمير دعوةً جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر ، وبعثتُ إليَّ بفروة سمور وفرس جيد ، وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيراً .

حكاية الخاتون المتقشفة

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثيابٌ دنسة ، وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن ، فسلمت عليَّ فرددتُ عليها السلام ولم أهف معها ، ولا التفتُ إليها. فلما خرجتُ أدركني بعضُ الناس ، وقال لي : إن المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون ، فخرجتُ عند ذلك ، وأردتُ الرجوع إليها ، فوجدتها قد انصرفت ، فأبلغتُ إليها السلام مع بعض خُدّامها ، واعتذرتُ عما كان مني لعدم معرفتي بها .

ذكر بطيخ خوارزم

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً إلا ما كان من بطيخ بخارى ، ويليهِ بطيخ أصفهان ، وقشره أخضر ، وباطنه أحمر ، وهو صادق الحلاوة ، وفيه صلابة .

ومن العجائب أنه يُقدِّد ويُبيِّس في الشمس ويُجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة^١ وبالتين المالقي ، ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين ، وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه .

وكنْتُ أيام إقامتي بدهلي من بلاد الهند ، متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ ، وكان ملك الهند إذا أتى إليه بشيء منه بعث إليّ به لِمَا يعلم من محبتي فيه . ومن عادته أنه يُطْرِفُ الغرباء بفواكه بلادهم ، ويتفقدهم بذلك .

حكاية التاجر الكريم

كان قد صبحني من مدينة السِّرا إلى خوارزم شريف من أهل كَرْبلاء يسمّى عليّ بن منصور ، وكان من التجّار ، فكنتُ أكلفه أن يشتري لي الثياب وسواها ، فكان يشتري لي الثوب بعشرة دنانير ، ويقول : اشتريته بثمانية ، ويحاسبني بالثمانية ، ويدفع الدينارين من ماله ، وأنا لا علم لي بفعله ، إلى أن تعرّفتُ ذلك على ألسنة الناس ؛ وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير ، فلما وصل إليّ إحسانُ أمير خوارزم رددتُ إليه ما أسلفنيه ، وأردتُ أن أحسن بعده إليه مكافأةً لأفعاله الحسنة ، فأبى ذلك ، وحلف أن لا أفعل ؛ وأردتُ أن أحسن إلى فتى كان له اسمه كافر ، فحلف أن لا أفعل ، وكان أكرم من لقيته من العراقيين . وعزم على السفر معي إلى بلاد الهند ، ثمّ إن جماعة من أهل بلده وصلوا إلى

١ الشريحة : التين المشرح الميبس بالشمس .

خوارزم برسم السفر إلى الصين ، فأخذ في السفر معهم ، فقلتُ له في ذلك ، فقال : هؤلاء أهلُ بلدي يعودون إلى أهلي وأقاربي ويذكرون أنني سافرتُ إلى أرض الهند برسم الكُندية ، فيكون سببُ عليّ ، لا أفعل ذلك .

وسافر معهم إلى الصين ، فبلغني بعدُ ، وأنا بأرض الهند ، أنه لما بلغ إلى مدينة المالتى ، وهي آخرُ البلاد التي من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين ، أقام بها وبعث فتىً له بما كان عنده من المتاع ، فأبطأ الفتى عليه . وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعضُ التجار ونزل معه في فندق واحد ، فطلب منه الشريف أن يُسلفه شيئاً بخلاف ما يصل فتاه ، فلم يفعل . ثم أكَّدَ قُبْحَ ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق ، فبلغ ذلك الشريف ، فاغتم منه ، ودخل إلى بيته فذبح نفسه ، فأدرك وبه رمقٌ ، واتَّهموا غلاماً كان له بقتله ، فقال لهم : لا تظلموه فإني أنا فعلتُ ذلك بنفسى . ومات من يومه ، غفر الله له .

وكان قد حكى لي عن نفسه أنه أخذ مرّةً من بعض تجار دمشق ستّة آلاف درهم قِراضاً ، فلقية ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطالبه بالمال ، وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين ، فاستحيا من صاحب المال ، ودخل إلى بيته وربط عِمَامَتَه بسقف البيت ، وأراد أن يخنق نفسه . وكان في أجله تأخيرٌ ، فتذكّر صاحباً له من الصيارفة ، فقصده وذكر له القضية ، فسلفه مالاً دفعه للتاجر .

ولما أردتُ السفر من خوارزم اِكْتَرَيْتُ جمالاً واشتريتُ مَحَارَةً^١ ، وكان عدلي بها عفيف الدين التوزري ، وركب الخلدّام بعضَ الخيل ، وجللنا باقيها لأجل البرد ، ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى ، وهي مسيرة ثمانية عشر يوماً في رمال لا عمارة بها إلاّ بلدةً واحدة ، فودّعتُ الأميرَ قُطْلُودَمُورَ ، وخلعَ عليّ خلعةً^٢ ، وخلع عليّ القاضي أخرى ، وخرج مع

١ المحارة : نوع من المحامل يركب فيه اثنان من كل ناحية واحد يسمى عدلا .

الفقهاء لوداعي و سرنا أربعة أيام ، ووصلنا إلى مدينة ألككات .
وليس بهذه الطريق عمارة سواها ، وهي صغيرة حسنة ، نزلنا خارجها
على بركة ماء قد جمدت من البرد ، فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها .
وسمع بقدمي قاضي ألككات ويسمى صدر الشريعة ، وكنت قد لقيته بدار
قاضي خوارزم ، فجاء إليّ مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود
الحيوي ، ثم عرض عليّ القاضي الوصول إلى أمير تلك المدينة ، فقال له الشيخ
محمود : القادم ينبغي له أن يُزار ، وإن كانت لنا همّة نذهب إلى أمير المدينة
ونأتي به ، ففعلوا ذلك ، وأتى الأمير بعد ساعة في أصحابه وخدمته ، فسلمنا
عليه ، وكان غرضنا تعجيل السفر ، فطلب منا الإقامة ، وصنع دعوة جمع
لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ، ووقف الشعراء يمدحونه ، وأعطاني
كسوةً وفساً جيّداً ، و سرنا على الطريق المعروفة بسببية في تلك الصحراء ،
مسيرة ستّ دون ماء .

ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وبكّنة ، وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى ،
بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين ، وهم يدّخرون العنب من سنة إلى سنة ، وعندهم
فاكهة يسمونها العلكو (الآلو) ، فيبيسونه ويجلبه الناس إلى الهند والصين ،
ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه ، وهو أيام كونه أخضر ، حلواً ، فإذا يبس صار
فيه يسير حموضة . ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالأندلس ولا بالمغرب ولا بالشام .
ثم سرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوماً كاملاً ، ووصلنا
إلى مدينة بخارى التي ينسب إليها إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل
البخاري ، وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد ، وخرّبها
اللعين تنكيز التتري جند ملوك العراق ، فمساجدُها الآن ومدارسها وأسواقُها
خرابة إلا القليل ، وأهلُها أذلاء ، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم
بالتعصب ودعوى الباطل ، وإنكار الحق . وليس بها اليوم من الناس من يعلم
شيئاً من العلم ولا من له عناية به .

ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها

كان تنكيز خان حدّاداً بأرض الخطا ، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم ، وكان يجمع الناس ويطعمهم ، ثمّ صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوي واشتدّت شوكته واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ، ثمّ على ملك الصين ، وعظمت جيوشه وتغلّب على بلاد الحن وكاشغر والمالط .

وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، له قوة عظيمة وشوكة ، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرّض له ، فاتفق أن بعث تنكيز تجّاراً بأمّتة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها إلى بلدة أطرار ، وهي آخر عمالة جلال الدين ، فبعث إليه عامله عليها معلماً بذلك ، واستأذنه ما يفعل في أمرهم ، فكتب إليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثّل بهم ، ويقطع أعضاءهم ويردّهم إلى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحتهم رأياً فائلاً ، وتديراً سيئاً مشؤوماً ، فلمّا فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه في عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الإسلام ، فلمّا سمع عامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره ، فدُكرَ أن أحدهم دخل محلّة بعض أمراء تنكيز في صورة سائل ، فلم يجد من يُطعمه ، ونزل إلى جانب رجل منهم ، فلم يرَ عنده زاداً ، ولا أطعمه شيئاً ، فلمّا أمسى أخرج مصراناً يابسة عنده ، فبلّتها بالماء وفصدّ فرسه وملأها بدمه وعقدها وشواها بالنار ، فكانت طعامه ، فعاد إلى أطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم ، فاستمدّ مليكته جلال الدين فأمده بستين ألفاً زيادة على من كان عنده من العساكر ، فلمّا وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة أطرار بالسيف فقتل الرجال وسبى الذراري .

وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربتة ، فكانت بينهم وقائع لا يُعلم في الإسلام

مثلها ، وآل الأمر إلى أن تملك تنكيز ما وراء النهر وخرب بخارى وسمّر قند وترمذ ، وعبر النهر ، وهو نهر جيحون ، إلى مدينة بلخ فتملكها ، ثم إلى الياميان (الباميان) فتملكها ، وأوغل في بلاد خراسان وعراق العجم ، فثار عليه المسلمون في بلخ وفي ما وراء النهر فكرر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ، ثم فعل مثل ذلك في ترمذ فعزبت ، ولم تعمّر بعد ، لكنّها بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمّى اليوم ترمذ ، وقتل أهل الياميان (الباميان) وهدمها بأسرها إلاّ صومعة جامعها ، وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ، ثمّ عاد بعد ذلك إلى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الإسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف ، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي ، رحمه الله .

قال ابن جزّي : أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات بن الحاج أعزّه الله ، قال : سمعتُ الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول : لقيت بمكة نور الدين ابن الزجّاج من علماء العراق ، ومعه ابن أخ له ، فتفاوضنا الحديث فقال لي : هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ، ولم يبقَ منهم غيري وغير ذلك ، وأشار إلى ابن أخيه .

قال : ونزلنا من بخارى برّضها المعروف بفتح آباد ، حيثُ قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخريزي ، وكان من كبار الأولياء . وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ ، حيثُ نزلنا ، عظيمةٌ لها أوقافٌ ضخمةٌ يُطعم منها الوارد والصادر ، وشيخها من ذريته ، وهو الحاج السياح يحيى الباخريزي ، وأضافني هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القرآن بالأصوات الحسان ، ووعظ الواعظ ، وغنّوا بالتركي والفارسي على طريقة حسنة ، ومرّت لنا هنالك ليلة بدیعة من أعجب الليالي .

ولقيتُ بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة ، وكان قد قدم من هراة ، وهو من الصلحاء الفضلاء ، وزرتُ ببخارى قبر الإمام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح ، شيخ المسلمين ، رضي الله عنه ، وعليه مكتوب :

هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري ، وقد صنّف من الكتب كذا وكذا ؛ وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم ، وكنت قيّدتُ من ذلك كثيراً وضاع مني في جملة ما ضاع لي لما سلّمني كفّار الهند في البحر . ثمّ سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طر مشيرين ، وسندّكره ، فمررنا على نخشب البلدة التي ينسب إليها الشيخ أبو تراب النخشي ، وهي صغيرة تحفّ بها البساتين والمياه ، فنزلنا بخارجها بدار لأميرها ، وكان عندي جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها ، فاتفق أنها كانت في المحمل فوُضع المحمل على الجمل ، وسافر أصحابنا من الليل ، وهي معهم ، والزاد وغيره من أسباني ، وأقمتُ أنا حتى أرتحلَ نهاراً مع بعض من معي ، فسلّكوا طريقاً وسلّكتُ طريقاً سواها ، فوصلنا عشيةً النهار إلى محلة السلطان المذكور ، وقد جُئنا ، فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ما سدّ جوعَتنا ، وأعارنا بعضُ التجّار خباءً بتنا به تلك الليلة .

ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقي الأصحاب ، فوجدوهم عشيةً وجأوا بهم . وكان السلطان غائباً عن المحلة في الصيد ، فاجتمعتُ بنائبه الأمير تقبغا ، فأنزّلني بقرب مسجده وأعطاني خرقه (خرگاه) وهي شبه الخباء ، وقد ذكرنا صفتها فيما تقدّم ، فجعلت الجارية في تلك الخرقه ، فولدت تلك الليلة مولوداً ، وأخبروني أنّه ولد ذكر ، ولم يكن كذلك ، فلمّا كان بعد العقيقة^١ أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت ، فاستحضرتُ الجوّاري ، فسألتهنّ . فأخبرني بذلك ، وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد ، فرأيت كلّ ما يسرّني ويرضيني منذُ ولّدت . وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين ، وسبّذكر ذلك ، واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي ، ومعناه بالتركيّة الثائر . وهو من أهل أطرار ، وبالشيخ حسن صهر السلطان .

١ العقيقة : طعام يصنع عند الولادة .

ذكر سلطان ما وراء النهر

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين ، وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخمة المملكة ، شديد القوة عادل الحكم .
وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار ، وهم ملك الصين ، وملك الهند ، وملك العراق ، والملك أوزبك ، وكلهم يهابونه ويعظمونه ويكرمونه . وولي الملك بعد أخيه الجكطي ، وكان الجكطي هذا كافراً ، وولي بعد أخيه الأكبر كبك . وكان كبك هذا كافراً أيضاً لكنه كان عادل الحكم ، منصفاً للمظلومين ، يكرم المسلمين ويعظمهم .

حكاية الملك كبك والواعظ

يُذكر أن هذا الملك كبك تكلم يوماً مع الفقيه الواعظ المذكور بدر الدين الميداني فقال له : أنت تقول إن الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز ؟ قال : نعم ! فقال : أين اسمي فيه ؟ فقال : هو في قوله تعالى : في أي صورة ما شاء ركبك . فأعجبه ذلك ، وقال : يخشي ، ومعناه بالتركية جيد ، فأكرمه إكراماً كثيراً وزاد في تعظيم المسلمين .

حكاية عن عدل كبك

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء ، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد ، وكان لها لبن تقوتهم بثمنه ، فاعتصبه ذلك الأمير وشربه ، فقال لها : أنا أوسطه ! فإن خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله ، وإلاّ وسطتلك بعده . فقالت المرأة : قد حملته ولا أطلب ، بشيء . فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه . ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين : ولما أقمت بالمحطة ، وهم يسمونها
أوسطه : أي أشقه من وسطه .

الأردو، أيّاماً ذهبتُ يوماً لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي ، فلما صليتُ ذكرَ لي بعضُ الناس أن السلطان بالمسجد ، فلما قام عن مُصلّاه تقدّمتُ للسلام عليه ، وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغي ، وأعلماء بحالي وقدمي منذ أيّام ، فقال لي بالتركية : خش ميسن يخشي ميسن قطلو أيوسن . ومعنى خش ميسن : في عافية أنت . ومعنى يخشي ميسن : جيد أنت ، ومعنى قطلو أيوسن : مبارك قدومك . وكان عليه في ذلك الحين قباء قدسيّ أخضر ، وعلى رأسه شاشية مثله ، ثمّ انصرف إلى مجلسه راجلاً ، والناس يتعرّضون له بالشكايات ، فيقف لكلّ مشتك منهم صغيراً أو كبيراً ، ذكراً أو أنثى .

ثمّ بعث عني^١ فوصلتُ إليه وهو في خرقة ، والناس خارجها ميمنة وميسرة ، والأمراء منهم على الكراسي ، وأصحابهم وقوفٌ على رؤوسهم وبين أيديهم ، وسائرُ الجند قد جلسوا صفوفاً ، وأمام كلّ واحد منهم سلاحه ، وهم أهل النوبة ، يقعدون هنالك إلى العصر ، ويأتي آخرون فيقعدون إلى آخر الليل . وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها .

ولما دخلتُ إلى الملك بداخل الخرقة وجدته جالساً على كرسي شبه المنبر مكسوً بالحرير المزركش بالذهب ، وداخلُ الخرقة ملبسٌ بثياب الحرير المذهب . والتاجُ المرصّع بالجوهر والياقيت معلق فوق رأس السلطان ، بينه وبين رأسه قدرُ ذراع ، والأمراء الكبار على الكراسي عن يمينه ويساره ، وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه. وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمّونه آل طمغنى ، وأل معناه الأحمر وطمغنى معناه العلامة .

وقام إليّ أربعتهم . حين دخولي ، ودخلوا معي فسلمتُ عليه ، وسألني ، وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه . عن مكّة والمدينة والقدس ، شرفها الله ، وعن مدينة الخليل ، عليه السلام ، وعن دمشق ومصر والملك الناصر ، وعن
١ بعث عني : لعله يريد بعث يطلّني إليه .

العراقين وملكهما وبلاد الأعاجم . ثم أذن المؤذن بالظهر ، فانصرفنا ، وكنا نحضرُ معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك ، فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، ويأتي إليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد يده على يده ، وكذلك يفعلون في صلاة العصر . وكان إذا أتى بهدية من زبيب أو تمر ، والتمر عزيز عندهم ، وهم يتبركون به ، يعطي منها بيده لكل من في المسجد .

حكاية فضائل السلطان طرمشيرين

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر السلطان ، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب ، حيث جرت عادته أن يصلي ، وقال للإمام حسام الدين الياغي : إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ ، فقام الإمام المذكور وقال : نماز ، ومعناه الصلاة ، برأي خُدا أو برأي طرمشيرين ، أي الصلاة لله أو لطرشيرين . ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة ، وجاء السلطان وقد صلي منها ركعتان ، فصلّي الركعتين الأخيرتين حيث انتهى به القيام ، وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنحيلةُ الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاتة ، وقام إلى الإمام ليصافحه ، وهو يضحك ، وجلس قبالة المحراب ، والشيخ الإمام إلى جانبه ، وأنا إلى جانب الإمام ، فقال لي : إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيراً من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك .

وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويغلظ عليه القول ، والسلطان يُنصت لكلامه ، ويبكي ؛ وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً ، ولم يأكل قط من طعامه ، ولا لبس من ثيابه .

وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين ، وكنت كثيراً ما أرى عليه قباء قطن مبطناً بالقطن محشواً به ، وقد بلي وتمزق ، وعلى رأسه قلنسوة ليد

يساوي مثلها قيراطاً ، ولا عمامة عليه . فقلتُ له في بعض الأيام : يا سيدي ، ما هذا القباء الذي أنت لابسه ؟ إنه ليس بجيد . فقال لي : يا ولدي ليس هذا القباء لي وإنما هو لابنتي . فرغبتُ منه أن يأخذ بعض ثيابي ، فقال لي : عاهدت الله منذ خمسين سنة أن لا أقبل من أحدٍ شيئاً ، ولو كنتُ أقبل من أحدٍ لقبلتُ منك .

ولما عزمتُ على السفر بعد مقامي عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوماً أعطاني السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمّور تساوي مائة دينار ، طلبتها منه لأجل البرد ، ولما ذكرتها له أخذ أكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعاً منه وفضلاً وحسن خلق ، وأعطاني فرسين وجمالين . ولما أردتُ ودّاعه أدركته في أثناء طريقه إلى متصيته ، وكان اليوم شديد البرد جدّاً ، فوالله ما قدرتُ على أن أنطقَ بكلمة لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك وأعطاني يده وانصرفت . وبعد سنتين من وصولي إلى أرض الهند بلغنا الخبر بأنّ الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين ، وهناك معظم عساكره ، وبايعوا ابن عم له اسمه بُوزُن أغلي . وكلّ من كان من أبناء الملوك فهم يسمّونه أغلي ، وكان مسلماً إلاّ أنّه فاسد الدين سيّء السيرة . وسببُ بيعتهم له وخلعهم لطرشيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدّهم تنكيز اللعين الذي خرب بلاد الإسلام ، وقد تقدّم ذكره ، وكان تنكيز ألفَ كتاباً في أحكامه يسمّي عندهم اليَسّاق ، وعندهم أنّه من خالف أحكام هذا الكتاب ، فخلعه واجبٌ . ومن جملة أحكامه أنّهم يجتمعون يوماً في السنة يسمّونه الطوى ، ومعناه يوم الضيافة ، ويأتي أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبارُ الأجناد ، وإن كان سلطانهم قد غيّر شيئاً من تلك الأحكام يقوم إليه كبارُهم فيقولون له : غيّرْتَ كذا وغيّرت كذا ، وفعلت كذا ، وقد وجب خلعتُك ، ويأخذون بيده ويُقيمونه عن سرير الملك ، ويُقعدون غيره من أبناء تنكيز . وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنباً في بلاده حكموا عليه

بما يستحقّه .

وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكمَ هذا اليوم ومحا رسمه ، فأنكروه عليه أشدّ الانكار ، وأنكروا عليه أيضاً كونه أقام أربع سنين فيما يلي خراسان من بلاده . ولم يصل إلى الجهة التي توالي الصين ، والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة في كلّ سنة فيختبر أحوالها وحالَ الجند بها لأنّ أصل ملكهم منها ، ودار الملك هي مدينة المائق . فلما بايعوا بُوزُن أتى في عسكر عظيم ، وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ، ولم يأمنهم . فركب في خمسة عشر فارساً يريد بلاد غَزَنَة ، وهي من عمّالته . وواليها كبير أمرائه ، وصاحب سرّه برنطيه ، وهذا الأميرُ محبّ في الإسلام والمسلمين قد عمّر في عمّالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وتحت يده العساكر العظيمة ، ولم أر قطّ فيمن رأيت من الأدميّين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه ، فلما عبرَ جيّحون وقصد طريق بلكخ رآه بعضُ الأتراك من أصحاب ينقي ابن أخيه كبك . وكان السلطان طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وبقي ابنه ينقي ببلخ ، فلما أعلمه التركي بخبره قال: ما فرّ إلاّ لأمر حدث عليه ، فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه ، ووصل بُوزُن إلى سمرقند وبخارى فبايعهُ الناس ، وجاءه ينقي بطرمشيرين ، فيذكر أنّه لما وصل إلى نسف بخارج سمرقند قُتل هنالك ، ودفن بها ، وخدم تربته الشيخُ شمس الدين كَرْدَن بُريدا ، وقيل أنّه لم يُقتل كما سنذكره ، وكَرْدَن معناه العنق ، وبُريدا معناه المقطوع ، ويسمّى بذلك لضربة كانت في عنقه . وقد رأيتُه بأرض الهند ، ويقع ذكره فيما بعد .

ولما ملك بُوزُن هرب ابن السلطان طرمشيرين ، وهو بشاي أغل (أغلي) ، وأختُه وزوجُها فيروز إلى ملك الهند ، فعظّمهم وأنزلهم منزلةً عليّةً بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الودّ والمكاتبه والمهاداة ، وكان يخاطبه بالأخ . ثمّ بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادّعى أنّه هو طرمشيرين ، واختلف الناس فيه ، فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ووالي بلاد السند ،

ويسمى ملك عرض ، وهو الذي تُعرّض بين يديه عساكرُ الهند وإليه أمرُها ، ومقرّه بمُلتان قاعدة السند ، فبعث إليه بعض الأتراك العارفين به ، فعادوا إليه وأنخروه أنّه هو طرمشيرين حقّاً ، فأمر له بالسراجة ، وهي افراج^١ ، فضرب خارج المدينة ، ورتّب له ما يُرتّب لمثله ، وخرج لاستقباله ، وترجّل له وسلّم عليه ، وأتى في خدمته إلى السراجة ، فدخلها راكباً كعادة الملوك ، ولم يشكّ أحدٌ أنّه هو ، وبعث إلى ملك الهند بخبره فبعث إليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات . وكان في خدمة ملك الهند حكيمٌ ممّن خدم طرمشيرين فيما تقدّم ، وهو كبير الحكماء بالهند ، فقال للملك : أنا أتوجّه إليه ، وأعرف حقيقة أمره ، فإني كنتُ عابلتُ له دمثلاً تحت ركبته ، وبقي أثره ، وبه أعرفه . فأتى إليه ذلك الحكيم واستقبله مع الأمراء ، ودخلَ عليه ولازمه لسابقته عنده ، وأخذ يغمز رجليه وكشف عن الأثر فشمته ، وقال له : تريد أن تنظر إلى الدمثل الذي عابلتَه ؟ ها هوذا ، وأراه أثره ، فتحقّق أنّه هو وعاد إلى ملك الهند فأعجمه بذلك .

ثمّ إنّ الوزير خواجه جهان أحمد بن إياس ، وكبير الأمراء قطلو خان معلّم السلطان أيّام صغره ، دخلا على ملك الهند ، وقالوا له : يا خوندد عالم ! هذا السلطان طرمشيرين قد وصل ، وصحّ أنّه هو ، وهاهنا من قومه نحو أربعين ألفاً ؛ وولدُه وصهرُه، أرايت إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل ؟ فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وأمر أن يُؤتَى بطرمشيرين معجلاً ، فلمّا دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين ، ولم يعظّم ، وقال له السلطان : يا ماذركاني ، وهي شتمة قبيحة ، كيف تكذب وتقول إنك طرمشيرين ، وطرمشيرين قد قُتل ، وهذا خادم تُربّته عندنا ؟ والله لولا المعرفة لقتلتك ، ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار ، واذهبوا به إلى دار بشاي أغل وأخته ولدي طرمشيرين ، وقولوا لهم : إن هذا الكاذب يزعم أنّه والدكم ، فدخل عليهم فعرّفوه وبات عندهم والحراس

١ الافراج : لعله شيء كالسرادق .

يُحرسونه ، وأُخرج بالغد ، وخافوا أن يهلكوا بسببه ، فأُنكروه ونُفي عن بلاد الهند والسند ، فسلك طريق كيج ومكران ، وأهل البلاد يكرمونه ويُضيفونه ويهادونه ، ووصل إلى شيراز فأكرمه سلطانها أبو إسحاق وأجرى له كفايته .

ولما دخلتُ عند وصولي من الهند إلى مدينة شيراز ذُكر لي أنه باقٍ بها ، وأردتُ لقاءه ولم أفعل لأنه كان في دار لا يدخلُ إليه أحدٌ إلاّ بإذن من السلطان أبي إسحاق ، فخفتُ ممّا يُتَوَقَّع بسبب ذلك ، ثمّ ندمتُ على عدم لقائه .

(رجع الحديث إلى بُوزُن) وذلك أنه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعيّة وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم ، فضجّ المسلمون من ذلك ، وتربصوا به الدوائر ، واتّصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان ، فقصده ملك هراة ، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري ، فأعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الإعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك إذا استقام له ، فبعث معه الملك حسين عسكرياً عظيماً ، وبين هراة وترمد تسعة أيّام ، فلما سمع أمراء الإسلام بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو .

وكان أوّل قادم عليه علاء الملك خداوند زاده صاحب ترمد ، وهو أميرٌ كبير شريف حسيني النسب ، فأتاه في أربعة آلاف من المسلمين ، فسُرّ به وولاه وزارته ، وفوض إليه أمره ، وكان من الأبطال ؛ وجاء الأمراء من كلّ ناحية واجتمعوا على خليل والتقى مع بُوزُن ، فمالت العساكر إلى خليل وأسلموا بُوزُن ، وأتوا به أسيراً ، فقتله خنقاً بأوتار القيسيّ ، وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلاّ خنقاً ، واستقام الملك لخليل .

وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفاً عليهم وعلى خيلهم الدروع ، فصرف العسكر الذي جاء به من هراة . وقصد بلاد المالك ، فقدم التّرع على أنفسهم واحداً منهم . ولقوه على مسيرة ثلاث من المالك بمقربة من أطراز (طراز) وحسي القتال وصبر الفريقان . فحصل الأمير خداوند زاده وزيره

في عشرين ألفاً من المسلمين حملةً لم يثبت لها التتر ، فانهزموا واشتدّ فيهم القتل . وأقام خليل بالمائق ثلاثاً ، وخرج إلى استئصال من بقي من التتر ، فأذعنوا له بالطاعة ، وجاز إلى تخوم الخطا والصين ، وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ ، وبعث إليه سلطان الخطا بالعساكر ثمّ وقع بينهما الصلح .

وعظم أمرُ خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العساكر بالمائق ، وترك بها وزيره خداوند زاده ، وانصرف إلى سمرقند وبخارى .

ثمّ إن الترك أرادوا الفتنة فسعوا إلى خليل بوزيره المذكور ، وزعموا أنّه يريد الثورة ، ويقول إنّهُ أحقّ بالملك لقرابته من النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، وكرمه وشجاعته ، فبعث والياً إلى المائق عوضاً عنه ، وأمره أن يقدم عليه في نفر يسير من أصحابه ، فلمّا قدم عليه قتله عند وصوله ، من غير تثبّت ، فكان ذلك سبب خراب ملكه .

وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هراة الذي أورثه الملك وجهّزه بالعساكر والمال ، فكتب إليه أن يخطب في بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدرهم على سكتته ، فغاض ذلك الملك حسيناً ، وأنف منه ، وأجابه بأقبح جواب . فتهجّز خليل لقتاله ، فلم توافقه عساكر الإسلام ورأوه باغياً عليه ، وبلغ خبره إلى الملك حسين ، فجهّز العساكر مع ابن عمّه ملك ورنّا ، والتقى الجمعان ، فانهزم خليل وأُتيّ به إلى الملك حسين أسيراً فمنّ عليه بالبقاء ، وجعله في دار وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة . وعلى هذا الحال تركته عنده في أواخر سنة سبع وأربعين^١ عند خروجي من الهند .

(ولنعد إلى ما كنّا بسبيله) ولما ودّعتُ السلطان طر مشيرين سافرت إلى مدينة سمرقند ، وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمّها جمالاً ، مبنية على شاطئ وادي يُعرف بوادي القصارين ، عليه النواعيرُ تسقي البساتين ، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرّج ، ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون

١ سنة ١٣٤٦ م .

عليها ، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات .
وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو هيمم أهلها ،
فدثر أكثر ذلك ، وكذلك المدينة خرب كثير منها ، ولا سور لها ولا أبواب
عليها ، وفي داخلها البساتين .

وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة في الغريب ، وهم خير من أهل
بخارى . وبخارج سمرقند قبر قشتم بن العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عن
العباس وعن ابنه ، وهو المستشهد حين فتحها . ويخرج أهل سمرقند كل ليلة
اثنين وجمعة إلى زيارته ، والقر يأتون لزيارته ، ويندرون له النذور العظيمة ،
ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير ، فيصرف ذلك في النفقة على الوارد
والصادر ولحدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ، ومع
كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحر ، وحيطان
القبة بالرخام المجزّع المنقوش بالذهب ، وسقفها مصنوع بالرخام ، وعلى
القبر خشب الآبنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة ، وفوقه ثلاثة من قناديل
الفضة . وفرش القبة بالصوف والقطن ، وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي
هنالك ، وعلى حافته الأشجار ودوالي العنب والياسمين .

وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ، ولم يغير القتر أيتام كفرهم شيئا
من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات . وكان
الناظر في كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه ، حين نزولنا به ، الأمير غياث
الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله
العباسي ، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق ، وهو الآن
عند ملك الهند ، وسيأتي ذكره .

ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان ، وهو من الفضلاء
ذوي المكارم ، وسافر إلى بلاد الهند بعد سفري إليها فأدرسته مسيته بمدينة
مئتان قاعدة بلاد السند .

حكاية ملك الهند

لما مات هذا القاضي بمُلتان كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند ،
وانته قدم برسم بابيه فاخترُماً^١ دون ذلك ، فلمّا بلغ الخبر إلى الملك أمر أن يُبعث
إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير ، لا أذكره الآن ، وأمر أن يُعطى لأصحابه
ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة .

ولملك الهند في كلّ بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكلّ ما يجري
في ذلك البلد من الأمور وبمن يرد عليه من الواردين ، وإذا أتى الوارد كتبوا
من أيّ البلاد ورد ، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته
من الجلوس والمأكّل وجميع شؤونه وتصرفاته ، وما يظهر منه من فضيلة أو
ضدّها ، فلا يصل الوارد إلى الملك إلّا وهو عارف بجميع حاله ، فتكون
كرامته على مقدار ما يستحقّه .

وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف ، وإليها ينسب أبو حفص عمر
النسفي مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافيّة بين الفقهاء الأربعة ، رضي الله
عنهم . ثمّ وصلنا إلى مدينة ترمذ التي ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى
ابن سورة الترمذي ، مؤلف الجامع الكبير في السنن ، وهي مدينة كبيرة حسنة
العمارة والأسواق . تخرقها الأنهار ، وبها البساتين الكثيرة والعنب ، والسفرجل
بها كثير متناهي الطيب ، واللحوم بها كثيرة ، وكذلك الألبان ، وأهلها يغسلون
رؤوسهم في الحمّام باللبن عوضاً عن الطفل^٢ ، ويكون عند كلّ صاحب حمّام
أوعية كبار مملوءة لبناً فإذا دخل الرجل الحمّام أخذ منها في إناء صغير ، فغسل
رأسه . وهو يرطب الشعر ويصقله .

وأهل الهند يجمعون في رؤوسهم زيت السّمسم . ويسمّونه الشيرج^٣ ، ويغسلون

١ اخترم : استوصل ، هلك .

٢ الطفل : هكذا في الأصل ولعله مادة تغسل بها الرؤوس في الحمام أو الطفل .

٣ الشيرج : هو ما نسميه السيرج .

الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ، ويصقل الشعر ويطيئه ، وبذلك طالت لحي أهل الهند ومن سكن معهم .

وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جیحون ، فلما خربها تنكيز بُنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر ، وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم ، كثير المال والرباع والبساتين ، يُنفق على الوارد والصادر من ماله .

واجتمعت قبل وصولي إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداند زاده ، وكتب لي إليها بالضيافة ، فكانت تُحمّلُ إلينا أيام مقامنا بها في كل يوم ، ولقيتُ أيضاً قاضيها قوام الدين ، وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين ، وطالبٌ للإذن له في السفر إلى بلاد الهند ، وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك ، ولأخويه ضياء الدين وبرهان الدين بمُلتان وسفرنا جميعاً إلى الهند ، وذكرُ أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائي لهما بحضرة ملك الهند ، وذكرُ ولديه وقدومهما على ملك الهند ، بعد قتل أبيهما ، وتزويجهما بنتي الوزير خواجه جهان ، وما جرى في ذلك كله إن شاء الله تعالى .

ثمّ أجزنا نهر جیحون إلى بلاد خراسان وسیرنا ، بعد انصرافنا من ترمذ وإجازة الوادي ، يوماً ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلخ ، وهي خاوية على عروشها ، غير عامرة ، ومن رآها ظنّها عامرة لإتقان بنائها . وكانت ضخمة فسيحة ، ومساجدُها ومدارسُها باقية الرسوم حتى الآن ، ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد ، والناس ينسبون اللازورد إلى خراسان ، وإنّما يجلب من جبال بدخشان التي يُنسب إليها الياقوت البدخشي ، والعامّة يقولون البلخش وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى . وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كثرة دُكيرٍ له أنّه تحت سارية من سواريه ؛ وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها ، ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه ، ومسجد بلخ أجملُ منه في سوى ذلك .

حكاية أميرة تبني مسجداً

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجداً بلخ بنته امرأة كان زوجها أميراً بلخ لبني العباس يسمى داود بن عليّ ، فاتفق أن الخليفة غضب مرةً على أهل بلخ لحادث أحدثوه ، فبعث إليهم من يُغرّمهم مَغْرَماً فادحاً ، فلمّا بلغ إلى بلخ أتت نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التي بنت المسجد ، وهي زوج أميرهم ، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرّم ، فبعثت إلى الأمير الذي قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصّع بالجوهر ، قيمته أكثر ممّا أمر بتغريمه ، فقالت له : اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة ، فقد أعطيتُه صدقةً عن أهل بلخ لضعف حالهم . فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه ، وقصّ عليه القصة ، فحجل الخليفة وقال : أتكون المرأة أكرم منّا ؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ ، وبالعودة إليها ليردّ للمرأة ثوبها . وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة .

فعاد الأمير إلى بلخ ، وأتى منزل المرأة ، وقصّ عليها مقالة الخليفة ، وردّ عليها الثوب ، فقالت له : اوقع بصر الخليفة على هذا الثوب ؟ قال : نعم ! قالت : لا ألبس ثوباً وقع عليه بصر غير ذي مَحْرَم مني ، وأمرت ببيعه ، فبني منه المسجد والزاوية ورباطاً في مقابلته مبنيّ بالكذّان^١ ، وهو عامر حتى الآن ، وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه ، فذكر أنّها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسّراً إن احتيج إليه أخرج ، فأخبر تنكيز هذه الحكاية فأمر بهدم سوارى المسجد فهُدِمَ منها نحو الثلث ولم يجد شيئاً ، فترك الباقي على حاله .

وبخارج بلخ قبرٌ يُذكر أنّه قبر عكاشة بن محصن الأسدي صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ، الذي يُدخل الجنة بلا حساب ، وعليه

١ الكذّان : حجارة رخوة نخرة واحدها كذنة .

زاوية" معظمها بها كان نزولنا ، وبخارجها بركة ماء عجيبة" عليها شجرة جوز عظيمة ، ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها .

وشيخ هذه الزاوية يُعرف بالحاج خرد ، وهو الصغير من الفضلاء ، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة ، منها قبرُ حَزَقِيل النبيّ ، عليه السلام ، وعليه قبّة حسنة ، وزرنا بها أيضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ، ووقفنا على دار إبراهيم بن أدهم ، رضي الله عنه ، وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذي يشبه الكلدّان ، وكان زرعُ الزاوية مقترناً بها ، وقد سُدّت عليه ، فلم ندخلها ، وهي بمقربة من المسجد الجامع .

ثمّ سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوه استان (قَهستان) سبعة أيّام ، وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والأشجار المورقة وأكثرها شجرالتين ، وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعالى . وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هراة ، وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ، ومدن خراسان العظيمة أربع : ثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور ، وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو . ومدينة هراة كبيرة عظيمة ، كثيرة العمارة ، ولأهلها صلاح وعفاف وديانة ، وهم على مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله عنه ، وبلدهم طاهر من الفساد .

ذكر سلطان هراة

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري صاحب الشجاعة الماثورة ، والتأييد والسعادة ، ظهر له من لإنجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين ما يُقضى منه العجب : أحدهما عند ملاقاته جيشه للسلطان خليل الذي بغى عليه ، وكان منتهى أمره حصوله أسيراً في يديه ؛ والموطن الثاني عند ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة ، وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهابُ ملكه . وولي السلطان حسين المُلْكَ بعد أخيه المعروف بالحافظ . وولي أخوه بعد أبيه غياث الدين .

حكاية الرافضة

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمّى بمسعود والآخر يسمّى بمحمد ، وكان لهما خمسة من الأصحاب ، وهم من الفتاك ، ويُعرفون بالعراق بالشطّار ، ويعرفون بخراسان بسرا بداران (سر بداران) ، ويعرفون بالمغرب بالصقورة ، فاتفق سبعتهم على الفساد ، وقطع الطرق وسلب الأموال ، وشاع خبرهم ، وسكنوا جبلاً منيعاً بمقربة من مدينة بيّيق ، وتسمّى أيضاً مدينة سيزار (سيزوار) ، وكانوا يكمنون بالنهار ، ويخرجون بالليل والعشي ، فيضربون على القرى ، ويقطعون الطرق ، ويأخذون الأموال ، واثال عليهم أشباههم من أهل الشرّ والفساد ، فكثّر عددهم واشتدّت شكواهم ، وهابهم الناس ، وضربوا على مدينة بيّيق ، فملكوها ثمّ ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الأموال ، وجنّدوا الجنود ، وركبوا الخيل ، وتسمّى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرّون عن مواليتهم إليه ، فكلّ عبد فرّ منهم يعطيه الفرسّ والمال ، وإن ظهرت له شجاعة أمّره على جماعة ، فعظم جيشه واستفحل أمره ، وتمذهب جميعهم بمذهب الرافض ، وطمحو إلى استئصال أهل السنّة بخراسان ، وان يجعلوها كلمة واحدة رافضيّة .

وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمّى بحسن ، وهو عندهم من الصلحاء ، فوافقهم على ذلك وسمّوه بالخليفة ، وأمّرههم بالعدل ، فأظهره حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم ، فلا يلتقطها أحد حتى يأتي ربّها فيأخذها ، وغلبوا على نيسابور .

وبعث إليهم السلطان طغتمور بالعساكر فهزموها ، ثمّ بعث إليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنّوا عليه ، ثمّ غزاهم طغتمور بنفسه في خمسين ألفاً من التتر ، فهزموه ، وملكوا البلاد ، وتغلّبوا على سرخس والزواه وطوس ،

١ الفتاك ، الواحد فاتك : الجريء . الشطار ، الواحد شاطر : المتصف بالدهاء والخباثة .

وهي من أعظم بلاد خراسان ، وجعلوا خليفتهم بمشهد علي بن موسى الرضى ،
وتغلبوا على مدينة الحام ، ونزلوا بخارجها ، وهم قاصدون مدينة هراة وبينها
وبينهم مسيرة ست .

فلما بلغ ذلك الملك حسيناً جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم
هل يُقيمون حتى يأتي القوم أو يمشون إليهم فيناجزونهم ، فوقع لإجماعهم على
الخروج إليهم ، وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ، ويقال انهم منسوبون
إلى غور الشام ، وإن أصلهم منه ، فتجهزوا أجمعون ، واجتمعوا من أطراف
البلاد ، وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهي مسيرة أربع
لا يزال عشبها أخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم ، وأكثر شجرها الفستق ،
ومنها يحمل إلى أرض العراق ، وعضدهم أهل مدينة سمنان ، ونفروا جميعاً
إلى الرافضة ، وهم مائة وعشرون ألفاً ما بين رجالة وفرسان يقودهم الملك
حسين ، واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفاً من الفرسان ، وكانت الملاقاة
بصحراء بوشنج ، وصبر الفريقان معاً ثم كانت الدائرة على الرافضة ، وفر
سلطانهم مسعود ، وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفاً حتى قُتل وقُتل
أكثرهم وأسر منهم نحو أربعة آلاف .

وذكر لي بعض من حضر هذه الواقعة أن ابتداء القتال كان في وقت الضحى ،
وكانت الهزيمة عند الزوال . ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلّى وأتى بالطعام ،
فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون ، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى . وعاد
إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم ، وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة .
وكانت هذه الواقعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين .

ونشأ بهراة رجل من الزهاد والصلحاء واسمه نظام الدين مولانا ،
وكان أهل هراة يحبونه ويرجعون إلى قوله ، وكان يعظهم ويذكرهم ، وتوافقوا
معه على تغيير المنكر ، وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورننا ،

١ سنة ١٣٤٧ م .

وهو ابن عمّ الملك حسين ومتزوّج بزوجة والده ، وهو من أحسن الناس صورةً وسيرةً ، والملك يخافه على نفسه ، وسنذكر خبره ، وكانوا متى علموا بمنكر ، ولو كان عند الملك ، غيروه .

حكاية منكر بدار الملك

ذُكر لي أنّهم تعرّفوا يوماً أن بدار الملك حسين منكرًا فاجتمعوا لتغييره وتحصّن منهم بداخل داره ، فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل ، فخاف منهم ، فاستحضر الفقيه وكبار البلد ، وكان قد شرب الخمر ، فأقاموا عليه الحدّ بداخل قصره وانصرفوا عنه .

سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور

كان الأتراك المجاورون لمدينة هَراة الساكنون بالصحراء ، وملكهم طغيتور الذي مرّ ذكره ، وهم نحو خمسين ألفاً يخافهم الملك حسين ، ويهدي لهم الهدايا في كلّ سنة ويداريهم ، وذلك قبل هزيمته للرافضة ، وأمّا بعد هزيمته للرافضة ، فتغلّب عليهم ، ومن عادة هؤلاء الأتراك التردّد إلى مدينة هَراة ، وربّما شربوا بها الخمر ، وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحدّ من وجد منهم سكران .

وهؤلاء الأتراك أهلُ نجدة وبأس ، ولا يزالون يضربون على بلاد الهند ، فيسبون ويقتلون ، وربّما سبّوا بعضَ المسلمات اللاتي يكنّ بأرض الهند ما بين الكفار ، فإذا خرجوا بهنّ إلى خراسان يُطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك . وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند تركُ ثقب الأذن ، والكافراتُ آذانهنّ مثقوبات ، فاتّفقَ مرّةً أن أميراً من أمراء الترك يسمّى تمورالطي سبي امرأةً ، وكلف بها كلفاً شديداً ، فذكرت أنّها مسلمة فانتزعها الفقيه من يده ، فبلغ ذلك من التركي مبلغاً عظيماً وركب في آلاف من أصحابه وأغار على خيل

هَرَاة ، وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها ، فلم يتركوا لأهل هراة ما يركبون ولا ما يحلبون ، وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يُقدَّر عليهم فيه ، ولم يجد السلطان ولا جنده خيلاً يتبعونهم بها ، فبعث إليهم رسولاً يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل ، ويذكّرهم العهد الذي بينهم ، فأجابوا بأنهم لا يردّون ذلك حتى يُمكّنوا من الفقيه نظام الدين ، فقال السلطان : لا سبيلَ إلى هذا .

وكان الشيخ أبو أحمد الجسّي حفيدُ الشيخ مودود الجسّي له بخراسان شأنٌ عظيمٌ ، وقوله معتبر لديهم ، فركب في جماعة خيل من أصحابه ومماليكه ، فقال : أنا أحملُ الفقيه نظام الدين معي إلى الترك ليرضوا بذلك ثمّ أردّه ، فمال الناس إلى قوله ، ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك ، فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل إلى الترك ، فقام إليه الأمير تمورالطي وقال له : أنت أخذتَ امرأتِي مني ، وضربه بدبوسه فكسر دماغه ، فخرّ ميتاً ، فسقط في يد الشيخ أبي أحمد ، وانصرف من هنالك إلى بلده ، وردّ الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية .

وبعد مدّة قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هَرَاة ، فلقبه جماعةٌ من أصحاب الفقيه ، فتقدّموا إليه كأنّهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه . وفرّ أصحابه ، ولمّا كان بعدَ هذا بعثَ الملك حسين ابن عمّه ملك ورنا ، الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر ، رسولاً إلى ملك سجستان ، فلمّا حصل بها بعثَ إليه أن يقيمَ هنالك ، ولا يعودَ إليه ، فقصد بلادَ الهند ، ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند ، وهو أحد الفضلاء ، وفي طبعه حبّ الرياسة والصيد والبُرّاة والخيل والممالك والأصحاب واللبّاس الملوّكي الفاخر ، ومن كان على هذا الترتيب فلمّا لا يصلحُ حاله بأرض الهند . فكان من أمره أنّ ملك الهند ولّاّه بلداً صغيراً ، وقتله به بعضُ أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية . وقيل إن ملك الهند دسّ عليه من قتله بسعي

الملك حسين في ذلك ، ولأجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنّا المذكور ، وهاداه ملك الهند ، وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ، وجباها خمسون ألفاً من دنانير الذهب في كلّ سنة .

ولنعد إلى ما كنّا بسبيله فنقول : سافرنا من هراة إلى مدينة الجام ، وهي متوسطة حسنة ، ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار ، وأكثر شجرها التوت ، والحريرُ بها كثيرٌ ، وهي تُنسبُ إلى الوليِّ العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامي ، وسنذكر حكايته ، وحفيدهُ الشيخ أحمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند ، والمدينة الآن لأولاده ، وهي محرّرة من قبل السلطان ، ولهم بها نعمة وثروة .

وذكر لي من أتق به أن السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرّةً ونزل على هذه المدينة ، وبها زاوية الشيخ ، فاضافه ضيافةً عظيمةً وأعطى لكلّ خبء بمحلّته رأسَ غنم ، ولكلّ أربعة رجال رأسَ غنم ، ولكلّ دابةً بالمحلّة من فرس وبغل وحمار علف ليلة ، فلم يبقَ في المحلّة حيوان إلّا وصلته ضيافته .

حكاية الشيخ شهاب الدين الذي تنسب إليه مدينة الجام

يُذكر أنّه كان صاحب راحة مكثراً من الشرب ، وكان له من الندماء نحو ستّين ، وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوماً في منزل كلّ واحد منهم ، فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين ، وبقوا على ذلك مدّة . ثمّ إنّ النوبة وصلت يوماً إلى الشيخ شهاب الدين ، فعقد التوبة ليلة النوبة ، وعزم على إصلاح حاله مع ربّه ، وقال في نفسه : إن قلتُ لأصحابي اني قد تبتُ قبلَ اجتماعهم عندي ظنّوا ذلك عجزاً عن مؤونتهم ، فأحضر ما كان يُحضر مثله قبلُ من مأكول ومشروب ، وجعل الخمر في الزقاق ، وحضر أصحابه ، فلما أرادوا الشرب ، فتحو زقاً فذاقه أحدُهم فوجده حلواً ، ثمّ فتحوا ثانياً فوجده كذلك ، ثمّ ثالثاً فوجده كذلك ، فكلّموا الشيخ في ذلك ، فخرج لهم عن حقيقة أمره ،

وصدقهم سنّ بكَرِه^١ ، وعرفهم بتوبته ، وقال لهم : والله ما هذا إلاّ الشراب الذي كنتم تشربونه فيما تقدّم ، فتابوا جميعاً إلى الله تعالى ، وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى ، وظهر لهذا الشيخ كثيرٌ من الكرامات والمُكاشفات .

ثمّ سافروا من الجام إلى مدينة طوس ، وهي من أكبر بلاد خراسان وأعظمها ، بلدُ الإمام الشهيد أبي حامد الغزالي ، رضي الله عنه ، وبها قبره ، ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرضا ، وهو عليّ بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، وهي أيضاً مدينة كبيرة ضخمة ، كثيرة الفواكه والمياه والأرحاء الطاحنة ، وكان بها الطاهر محمد شاه ، والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق ، وأهل الهند والسند وتركستان يقولون : السيّد الأجلّ .

وكان أيضاً بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند ، والشريف عليّ وولده أمير هندو ، ودولة شاه ، وصحبوني من ترمذ إلى بلاد الهند ، وكانوا من الفضلاء .

والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية وتجاورها مدرسة ومسجد ، وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني . وعلى القبر دكّانة خشب ملبّسة بصفائح الفضة ، وعليه قناديل فضّة معلّقة ، وعتبة باب القبة فضّة ، وعلى بابها ستر حرير مذهب ، وهي مبسوطة بأنواع البُسُط .

وإزاء هذا القبر قبرُ هارون الرشيد أمير المؤمنين ، رضي الله عنه ، وعليه دكّانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك ، والمنائر ، وإذا دخل الرافضيّ للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله وسلّم على الرضا .

ثمّ سافروا إلى مدينة سرخس وإليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسي ، رضي الله عنه ، ثمّ سافروا منها إلى مدينة زاوة ، وهي مدينة الشيخ الصالح قطب

١ صدقهم سن بكَرِه : أي أخبرهم ما في نفسه .

الدين حيدر ، وإليه تنتسب طائفة الحيدريّة من الفقراء ، وهم الذين يجعلون حلّق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ، ويجعلونها أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأتّى لهم النكاح .

ثمّ رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة نيسابور ، وهي إحدى المدن الأربع التي هي قواعد خراسان ، ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياها وحسنها . وتخرقها أربعة من الأنهار ، وأسواقها حسنة متسعة ، ومسجدها بديع ، وهو في وسط السوق ، ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير . وفيها من الطلبة خلق كثير يقرأون القرآن والفقه ، وهي من حسان مدارس تلك البلاد ، ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر ، وإن بلغت الغاية من الاتقان والحسن ، فكلّها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكّل على الله المجاهد في سبيل الله ، عالم الملوك ، واسطة عقد الخلفاء العادلين ، أبو عنان ، وصل الله سعده ونصر جنده ، وهي التي عند القصبة من حضرة فاس ، حرسها الله تعالى ، فإنّها لا نظير لها سعة وارتفاعاً ، ونقش الجصّ بها لا قدرة لأهل المشرق عليه .

ويُصنعُ بنيسابور ثياب الحرير من النخّ والكمخا وغيرها ، وتحملُ منها إلى الهند ، وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الإمام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين ، نزلتُ عنده فأحسن القري وأكرم ، ورأيتُ له البراهين والكرّامات العجيبة .

ذكر كرامة له

كنتُ قد اشتريتُ بنيسابور غلاماً تركيّاً فرآه معي ، فقال لي : هذا الغلام لا يصلحُ لك ، فبعه ! فقلتُ له : نعم ! وبعث الغلام في غد ذلك اليوم ، واشتراه بعضُ التجّار . وودعتُ الشيخ وانصرفت . فلمّا حللتُ بمدينة بسطام كتب

إليّ بعضُ أصحابي من نيسابور ، وذكر أنّ الغلام المذكور قتلَ بعض أولاد الأتراك ، وقتلَ به ، وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ ، رضي الله عنه . وسافرتُ من نيسابور إلى مدينة بسطام التي يُنسب إليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير ، رضي الله عنه ، وبهذه المدينة قبرُهُ ، ومعه في قبّة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق ، رضي الله عنه ، وببسطام أيضاً قبرُ الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني .

وكان نزولي من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي يزيد البسطامي ، رضي الله عنه ، ثمّ سافرتُ من هذه المدينة على طريق هندخير إلى قندوس وبغلان ، وهي قرى فيها مشايخ وصالحون ، وبها البساتين والأنهار ، فترلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمّى بشير سيّاه ، ومعنى ذلك الأسد الأسود ، وأضافنا بها والي تلك الأرض ، وهو من أهل الموصل ، وسكنه بستان عظيم هنالك ، وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوماً لرعي الجمال والخيول ، وبها مراعي طيّبة وأعشاب كثيرة . والأمن بها شامل بسبب شدّة أحكام الأمير برنطيه . وقد قدّمنا أن أحكام الترك في من سرقَ فرساً أن يُعطي معه تسعة مثله ، فإن لم يجد ذلك أخذ فيها أولادُهُ ، فإن لم يكن له أولاد ذُبِحَ ذُبَحَ الشاة . والنّاس يتركون دوابّهم مهملة دون راع بعد أن يسمّ كل واحد دوابّه في أفخاذها ، وكذلك فعلنا في هذه البلاد .

واتفق أن نفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ، ففقدنا منها ثلاثة أفراس ، ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التّمر بها إلى منزلنا خوفاً على أنفسهم من الأحكام ، وكنا نربطُ في كلّ ليلة إزاء أحببتنا فرسينّ لما عسى أن يقع بالليل ، ففقدنا الفرسين ذات ليلة ، وسافرنا من هنالك ، وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤوا بهما إلينا في أثناء طريقنا .

وكان أيضاً من أسباب إقامتنا خوف الثلج ، فإن بأثناء الطريق جبلاً يقال له هندوكوش . ومعناه قاتل الهنود ، لأنّ العبيد والحواري الذين يؤتّى بهم من

بلاد الهند يموتُ هنالك الكثير منهم لشدة البرد ، وكثرة الثلج ، وهو مسيرة يوم كامل . وأقمنا حتى تمكّن دخولُ الحرّ ، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب ، وكنا نضعُ اللبود بين أيدي الجمال تطاً عليها لثلاً تفرق في الثلج .

ثمّ سافرنا إلى موضع يُعرفُ بأندر ، وكانت هنالك فيما تقدّم مدينة عُفّي رسمها ، ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاويةٌ لأحد الفضلاء ، ويسمّى بمحمّد المهروي ، ونزلنا عنده وأكرمنا ، وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشربُ الماء الذي غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله ، وسافر معنا إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور ، ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارّة فغسلنا منها وجوهنا فتقشّرت ، وتألّمنا لذلك .

ثمّ نزلنا بموضع يُعرفُ ببنج هير ، ومعنى بنج خمسة ، وهير الجبل ، فمعناه خمسة جبال ، وكانت هنالك مدينة حسنةٌ كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنّه بحر ينزلُ من جبال بدخشان ، وبهذه الجبال يوجدُ الياقوتُ الذي يعرفه الناس بالبلخش . وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر ، فلم تعمّر بعد . وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكّي ، وهو معظمّ عندهم .

ووصلنا إلى جبل بشاي ، وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء ، وأطا معناه بالتركية الأب ، وأولياء باللسان العربي . فمعناه أبو الأولياء ، ويسمّى أيضاً سيّصد صّاله ، وسيّصد معناه بالفارسيّة ثلاثمائة ، وصّاله (سّاله) معناه عام ، وهم يذكرون أنّ عمره ثلاثمائة وخمسون عاماً ، ولهم فيه اعتقاد حسن ، ويأتون لزيارته من البلاد والقُرى ، ويقصده السلاطين والخواطين ، وأكرمنا وأضافنا ، ونزلنا على نهر عند زاويته ودخلنا إليه ، فسلمتُ عليه وعانقني ، وجسمه رطبٌ لم أرَ ألينَ منه ، ويظنّ رائيهِ أن عمره خمسون سنة ، وذكر لي أنّه في كلّ مائة سنة ينبتُ له الشعر والأسنان ، وإنه رأى أباً رُهم الذي قبره بمثلتان من السند . وسألته عن رواية حديث فأخبرني بحكايات وشككتُ في حاله ،

والله أعلم بصدقه .

ثم سافرنا إلى برّون، وفيها لقيتُ الأمير بُرْنُطِيَه، وأحسنَ إليّ وأكرمني ، وكتبَ إلى نوابه بمدينة غزنة في إكرامي ، وقد تقدّم ذكره وذكرُ ما أُعطي من البَسْطَة في الجسم . وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا .

ثم سافرنا إلى قرية الجَرَح ، وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة ، قد منّاها في أيّام الصيف ، ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة ، وصلينا بها الجمعة ، وأضافنا أميرها محمد الجرخي ، ولقيته بعد ذلك بالهند ، ثم سافرنا إلى مدينة غزنة ، وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم ، وكان من كبار السلاطين يُلقَّب بيمين الدولة ، وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند ، وفتحَ بها المدائن والحصون ، وقبره بهذه المدينة عليه زاوية ، وقد خرب معظم هذه البلدة ، ولم يبقَ منها إلّا يسير ، وكانت كبيرة ، وهي شديدة البرد ، والساكنون بها يخرجون عنها أيّام البرد إلى مدينة القندهار ، وهي كبيرة مخصبة ، ولم أدخلها ، وبينهما مسيرة ثلاث .

ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها ، وأكرمنا أميرها مرّ ذلك أغا ، ومرّ ذلك معناه الصغير ، وأغنا معناه الكبير الأصل .

ثم سافرنا إلى كابُل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة ، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجيم يُقال لهم الأفغان . ولهم جبال وشعاب ، وشوكة قوية ، وأكثرهم قطاع الطريق ، وجبلهم الكبير يسمّى كوه سليمان ، ويذكر ان نبيّ الله سليمان ، عليه السلام ، صعد ذلك الجبل ، فنظر إلى أرض الهند ، وهي مظلمة ، فرجع ولم يدخلها ، فسمّي الجبلُ به ، وفيه يسكن ملك الافغان . وبكابُل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عبّاس من كبار الأولياء . ومنها رحلنا إلى كرماش ، وهي حصن بين جبلين تُقطعُ به الأفغان ، وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم ، وهم بسفح الجبل ، ونرميهم بالنشاب ، فيفرون . وكانت رفقتنا مُحففة ، ومعهم نحو أربعة آلاف فرس ، وكانت لي جمال

انقطعت عن القافلة لأجلها ، ومعى جماعة بعضهم من الأفغان ، وطرحنا بعض الزاد ، وتركنا أحمال الجمال التي أعتيت بالطريق ، وعادت إليها نخيلنا بالغد فاحتملتها .

ووصلنا إلى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششغار ، وهي آخر العمارة ممّا يلي بلاد الترك ، ومن هنالك دخلنا البرية الكبرى ، وهي مسيرة خمس عشرة لا تُدخلُ إلاّ في فصل واحد ، وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ، وذلك في أوائل شهر يولييه^١. وتهبّ في هذه البرية ريحُ السّموم القاتلة التي تعفن الجسوم ، حتّى إن الرجل ، إذا مات ، تتفسخُ أعضاؤه . وقد ذكرنا أنّ هذه الرّيح تهبّ أيضاً في البرية بين هُرْمَز وشيراز .

وكانت تقدّمت أمامنا رفقةٌ كبيرةٌ فيها خدائونذ زاده قاضي ترمذ ، فمات لهم جمال ونخيلٌ كثيرة ، ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بَسَنْجَ آب ، وهو ماء السند ، وبَسَنْجَ معناه خمسة وآب معناه الماء ، فمعنى ذلك المياه الخمسة ، وهي تصبّ في النهر الأعظم ، وتسقي تلك النواحي ، وسنذكرها إن شاء الله تعالى . وكان وصولنا لهذا النهر سلخَ ذي الحجة واستهلّ علينا تلك الليلة هلالُ المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة^٢ . ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند ، وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا .

وادي السند

ولمّا كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببَسَنْجَ آب ، ومعنى ذلك المياه الخمسة ، وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا ، وهو يفيضُ في أوّان الحرّ ، فيزرعُ أهلُ تلك البلاد على فيضيه ، كما يفعلُ أهلُ الديار المصرية في فيض النيل . وهذا الوادي

١ يولييه : تموز .

٢ سنة ١٣٣٣ م .

هو أولُ عُمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ، ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحابُ الأخبار الموكّلون بذلك ، وكتبوا بخبرنا إلى قُطب الملك أمير مدينة مُلتان ، وكان أميرَ أمراء السند على هذا العهد مملوكٌ للسلطان يسمّى سَرَتِيز ، وهو من عُرُض الممالك ، وبين يديه تُعرض عساكر السلطان ، ومعنى اسمه الحادّ الرأس لأن سَرَّ هو الرأس وتيز معناه الحادّ ، وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند ، وبينها وبين مُلتان مسيرةُ عشرة أيّام ، وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلي مسيرةُ خمسين يوماً ، وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه في خمسة أيّام بسبب البريد .

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صنفان : فأما بريدُ الخيل فيسمّونه الوُلاق (أولاق) وهو خيل تكون للسلطان في كلّ مسافة أربعة أميال ؛ وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ، ويسمّونها الداوة ، والداوة هي ثلاث ميل ، والميل عندهم يسمّى الكُروّة ، وترتيب ذلك أن يكون في كلّ ثلاث ميل قريةٌ معمورة ، ويكون بخارجها ثلاثُ قباب يقعد فيها الرجالُ مستعدين للحركة ، قد شدّوا أوساطهم ، وعند كلّ واحد منهم مَقَرَعَةٌ مقدارُ ذراعين بأعلاها جَلّاجلٌ نحاس ، فإذا خرج البريد من المدينة أخذَ الكتابُ بأعلى يده والمقرعة ذات الجَلّاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتدّ بمنتهى جُهدِه ، فإذا سمع الرجالُ الذين بالقباب صوت الجَلّاجل تأهبوا له ، فإذا وصلهم أخذَ أحدهم الكتابَ من يده ، ومرّ بأقصى جهده ، وهو يحركُ المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى ، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتابُ إلى حيثُ يراد منه .

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند ، من فواكه خراسان ، يجعلونها في الأطباق ، ويشتدون بها حتى
المرض : العامة .

تصل إلى السلطان ؛ وكذلك يحملون أيضاً الكبار من ذوي الجنايات ، يَسْجَلُونَ الرجلَ منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رؤوسهم ، ويسرون به شداً ، وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان ، إذا كان بدولة أباد ؛ يحملونه من نهر الكَنْك الذي تحجّ الهنود إليه ، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بنجر من يصل إلى بلاده ، استوعبوا الكتاب ، وأمعنوا في ذلك ، وعرفوه أنّه ورد رجلٌ صورته كذا ولباسه كذا ، وكتبوا عدد أصحابه وغلماؤه وخدامه ودوابه ، وترتيبَ حاله في حركته وسكونه ، وجميع تصرفاته ، لا يغادرون من ذلك كلّ شيئاً ، فإذا وصل الوارد إلى مدينة مُلتان، وهي قاعدة بلاد السند ، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدمه وما يُجرى له من الضيافة ؛ وإنّما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته ، إذ لا يُعرفُ هنالك ما حسبه ولا آباؤه .

ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرامُ الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ، ومعظم خواصه وحجّابه ووزرائه وقضاته وأصحابه غرباء ، ونفذ أمره بأن يسمّى الغرباء في بلاده بالأعزّة ، فصار لهم ذلك اسماً عسماً ، ولا بدّ لكلّ قادم على هذا الملك من هدية يُهديها إليه ويقدمها وسيلةً بين يديه ، فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة ، وسيمرّ من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير .

ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكلّ قادم على السلطان الآلاف من الدنانير ديناً ، ويجهّزونه بما يريد أن يُهديه إليه ، أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والامتعة ، ويخدمونه بأموالهم وأنفسهم ، ويقفون بين يديه كالخشم ، فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل ففضى ديونهم ووفاهم حقوقهم ، فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم ، وصار لهم ذلك عادة مستمرة .

ولما وصلت إلى بلاد السند سلكتُ ذلك المنهج ، واشتريتُ من التجار الخيل

والجمال والممالك وغير ذلك ، ولقد اشترت من تاجر عراقي من أهل تكريت يُعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرساً ، وجملاً عليه حمل من النشاب ، فإنه ممّا يُهدى إلى السلطان ، وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ، ثم عاد إلى الهند ، وهناك تقاضى مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة ، وعاد من كبار التجار . ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلّني الكفار ما كان بيدي فلم ألق منه خيراً .

ذكر الكركدن^١

ولما أجزّنا نهر السند المعروف ببسنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها ، فخرج علينا الكركدن ، وصورته أنّه حيوان أسود اللون عظيم الحرم ، رأسه كبير متفاوت الضخامة ، ولذلك يُضربُ به المثل ، فيقال : الكركدن رأس بلا بدن ، وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ، وله قرن واحد بين عينيه ، طوله نحو ثلاثة أذرع ، وعرضه نحو شبر . ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فأنفذ فخذَه وصرعَه ، وعاد إلى الغيضة ، فلم نقدر عليه .

وقد رأيت الكركدن مرّة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر ، وهو يرعى نبات الأرض ، فلما قصدناه هرب منا ، ورأيتُه مرّة أخرى ونحن مع ملك الهند . دخلنا غيضة قصب . وركب السلطان على الفيل ، وركبنا معه الفيّلة ، ودخلت الرّجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه ، واستاقوا رأسه إلى المحلّة .

وسرنا من نهر السند يومين ، ووصلنا إلى مدينة جنّاني . مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند ، لها أسواق مليحة ، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة ، استوطنوها قديماً ، واستقرّ بها أسلافهم . حين فتحها على أيّام الحجاج بن

١ الكركدن : وحيد القرن .

يوسف ، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند ، وأخبرني الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريّا القرشي ، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية اني سألقاهم في رحلتي ، فلقيتهم والحمد لله ، أن جدّه الأعلى كان يسمّى بمحمد بن قاسم القرشي ، وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق ، وأقام بها وتكاثر ذُرّيّته .

وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحداً من غيرهم ، ولا يصاهر إليهم أحد . وكان لهم في هذا العهد أميرٌ يسمّى ونّار وسنذكر خبره .

ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سيوستان ، وهي مدينة كبيرة ، وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غيّلان^١ ، ولا يُزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ ، وطعامهم الذرة والحبّان ، ويسمونه المُسُنك ، ومنه يصنعون الخبز ، وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية ، وأهلها يأكلون السقنقور^٢ ، وهي دويبة شبيهة بأمّ حنين^٣ التي يسميها المغاربة حنينة الجنة ، إلا أنها لا ذنب لها . ورأيتهُم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقّون بطنها ، ويرمون بما فيه ، ويحشونه بالكرّكُم^٤ ، وهم يسمونه زردشوبه ، ومعناه العود الأصفر ، وهو عندهم عِوض الزعفران . ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقدرتها فلم أكلها .

ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيط ، وحرّها شديد ، فكان أصحابي يقعدون

.....

١ أم غيلان : شجر السر .

٢ السقنقور : ضرب من الزحافات يكون في البلاد الحارة يشبه الحردون .

٣ أم حنين : دويبة شبيهة بسام أبرص (أبو برص) .

٤ الكرّكُم : الزعفران .

عريانيين يجعل أحدهم فوطه على وسطه ، وفوطه على كتفيه مبلولة بالماء ،
فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطه ، فيبلى مرة أخرى ،
وهكذا أبداً .

ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني ، وأراني كتاب أمير المؤمنين
الحليفة عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، بلحده الأعلى بخطابة هذه المدينة ،
وهم يتوارثونها من ذلك العهد إلى الآن .

ونص الكتاب : هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز
لفلان ، وتاريخه سنة تسع وتسعين ، وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن
عبد العزيز : الحمد لله وحده ، على ما أخبرني الخطيب المذكور .

ولقيت بها أيضاً المعمّر محمداً البغدادي ، وهو بالزاوية التي على قبر
الشيخ الصالح عثمان المرتدي ، وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ،
وأنة حضر مقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس ، رضي الله عنهم ، لما
قتله الكافر هلاون بن تنكيز التتري ، وهذا الشيخ على كبر سنّه قويّ الجثة
يتصرف على قدميه .

حكاية الجلود المصلوبة

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري ، الذي تقدّم ذكره ، والأمير
قيصر الرومي ، وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمئة فارس ، وكان
يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن ، وهو من الخدّاق بالحساب والكتابة ،
فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء فاستحسنه السلطان ، وسمّاه عظيم السند ،
وولاه بتلك البلاد وأقطعته سيوّستان وأعمالها . وأعطاه المراتب ، وهي الأبطال
والعلامات ، كما يُعطى كبار الأمراء .

فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهما تقديم الكافر

١ هلاون : أراد هولاكو .

عليهم فأجمعوا على قتله ، فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ليطَّلَعَ على أمورِها ، فخرج معهم ، فلما جنَّ الليل أقاموا ضجَّةً بالمحلَّة وزعموا أن السجَّ ضرب عليها ، وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه ، وعادوا إلى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكتاً ، واللكَّ مائة ألف دينار ، وصرفُ اللكِّ عشرةُ آلاف دينار من ذهب الهند ، وصرفُ الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب ، وقدّموا على أنفسهم ونار المذكور ، وسمّوه ملك فيروز ، وقسم الأموال على العسكر ، ثمَّ خافَ على نفسه لبعده عن قبيلته فخرجَ فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته ، وقدّم الباقيون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي .

واتَّصلَ خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان ، وهو يومئذٍ أميرُ أمراء السند ، وسكناه بمثلتان ، فجمع العساكر وتجهَّز في البرِّ وفي نهر السند ، وبين مثلتان وسيوستان عشرة أيام ، وخرَجَ إليه قيصر فوقع اللقاء وانهمز قيصر ومن معه أشنعَ هزيمة وتحصَّنوا بالمدينة ، فحصرهم ونصبَ المجانيق عليهم واشتدَّ عليهم الحصار ، فطلبوا الأمان بعد أربعين يوماً من نزوله عليهم ، فأعطاهم الأمان ، فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمرَ بقتلهم ، فكان كلَّ يوم يضربُ أعناقَ بعضهم ، ويوسِّطُ بعضهم ، ويسلخُ آخرين منهم ، ويملاً جلودهم تبناً ويعلقها على السور ، فكانت تلك الجلود ، مصلوبة ، ترعب من ينظر إليها ، وجمع رؤوسهم في وسط المدينة ، فكانت مثل التلِّ هنالك .

ونزلتُ بتلك المدينة إثرَ هذه الواقعة بمدرسة فيها كبيرة ، وكنتُ أنام على سطحها ، فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئزُّ النفس منها . ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة ، فانتقلتُ عنها . وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني ، المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في مقدِّم التاريخ ، قد وفد على ملك الهند ، فولَّاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند ، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر ، فعزمتُ على السفر

معه إلى مدينة لاهري ، وكان له خمسة عشر مركباً قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فسافرت .

ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك

وكان الفقيه علاء الملك في جملة مراكبه مركب يُعرف بالأهورة ، وهي نوعٌ من الطريدة عندنا إلا أنها أوسعُ منها وأقصر ، وعلى نصفها معرّشٌ من خشب يُصعد له على درج ، وفوقه مجلس مهيبٌ لجلوس الأمير ، ويجلس أصحابه بين يديه ، ويقفُ المماليكُ يميناً ويسرةً ، والرجالُ يقفَدون ، وهم نحو أربعين ، ويكون مع هذه الأهورة أربعةٌ من المراكب عن يمينها ويسارها : اثنان منها فيهما مراتب الأمير ، وهي العلامات والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات ، وهي الغيطات ، والآخران فيهما أهل الطرب ، فتضربُ الطبول والأبواق نوبةً ويغني المغنون نوبةً ، ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الغداء .

فإذا كان وقتُ الغداء انضمت المراكب ووصلَ بعضها ببعض ووضعت بينهما الإصقالات ، وأتى أهلُ الطرب إلى أهورة الأمير ، فيغنون إلى أن يفرغ من أكله ثم يأكلون ، وإذا انقضى الأكل عادوا إلى مراكبهم . وشرعوا أيضاً في المسير على ترتيبهم إلى الليل . فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ، ونزل الأمير إلى مضاربه . ومدَّ السَّمَط ، وحضرَ الطعامَ معظمُ العسكر ، فإذا صلّوا العشاء الأخيرة سَمَرَ السَّمَارُ بالليل نوباً . فإذا أتمَّ أهلُ النوبة منهم نوبتهم نادى منادٍ منهم بصوت عالٍ : يا خَوْنَدُ ملك قد مضى من الليل كذا من الساعات ، ثمَّ يسمرُ أهلُ النوبة الأخرى . فإذا أتموها نادى منادٍهم أيضاً معلماً بما مرَّ من الساعات . فإذا كان الصبحُ ضربت الأبواقُ والطبول وصليت صلاةُ الصبح ، وأتى بالطعام . فإذا فرغ الأكل أخذوا في المسير ، الإصقالات : أخشاب توصل بها المراكب يمر عليها .

فإن أرادَ الأميرُ ركوبَ النهر ركبَ على ما ذكرناه من الترتيب ، وإن أرادَ المسيرَ في البرِّ ضربت الأبطال والأبواق وتقدّم حجّابه ثمّ تلاهم المشاؤون بين يديه . ويكون بين أيدي الحجّاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أبطال قد تقلّدوها ، وعند ثلاثة صرنايات ، فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفعٌ ضربوا تلك الأبطال والصرنايات ، ثمّ تُضربُ أبطال العسكر وأبواقه ، ويكون عن يمين الحجّاب ويسارهم المغنّون يغنون نوباً ، فإذا كان وقت الغداء نزلوا .

وسافرتُ مع علاء الملك خمسةَ أيّام ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهريّ ، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير ، وبها يصبّ نهر السند في البحر ، فيلتقي بها بحران ، ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهلُ اليمن وأهلُ فارس وغيرهم ، وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها ، أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن مجي هذه المدينة ستون لكاً في السنة ، وقد ذكرنا مقدار اللّك ، وللأمير من ذلك ثم (نيم) ده يك ، ومعناه نصف العشر ، وعلى ذلك يُعطي السلطان البلاد لعمّاله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر .

ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة

وركبتُ يوماً مع علاء الملّك فانتبهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا ، فرأيتُ هنالك ما لا يحصره العدّ من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهاائم ، وقد تغيّر كثير منها وذرّث أشكاله ، فيبقى منه صورةُ رأس أو رجل أو سواهما ؛ ومن الحجارة أيضاً على صورة الحبوب من البرّ والحمص ، والفول والعدّس ، وهنالك آثارُ سورٍ وجُدُرٍان دُورٍ ، ثم رأينا رسمَ دار فيها بيتٌ من حجارة منحوتة ، وفي وسطه دكّانةُ حجارة منحوتة كأنّها حجر واحد ، عليها صورة آدميٍّ إلّا أن رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه ، ويداه خلف ظهره كالمكتوف .

وهناك مياه شديدة النتن ، وكتابة على بعض الجُدَرَات بالهندي . وأخبرتني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسحوا حجارةً ، وأن ملكهم هو الذي على الدكّانة في الدار التي ذكرناها ، وهي إلى الآن تسمّى دار الملك ، وإن الكتابة التي في بعض الحيطان هنالك بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة ، وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها .

وأقيمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيّام ، ثمّ أحسن في الزاد وانصرفت عنه إلى مدينة بَكَار ، وهي مدينةٌ حسنة يشقّها خليجٌ من نهر السند ، وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمّرها كشلوخان أيّام ولايته على بلاد السند ، وسيقع ذكره .

ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي ، ولقيتُ بها قاضيها المسمّى بأبي حنيفة ، ولقيتُ بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي ، وهو من المعمرين ، ذُكِرَ لي أن سنّه يزيد على مائة وعشرين عاماً .

ثمّ سافرتُ من مدينة بَكَار فوصلت إلى مدينة أوجه ، وهي مدينة كبيرة على نهر السند ، لها أسواقٌ حسنة وعمارة جيّدة ، وكان الأميرُ بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي أحد الشجعان الكرماء ، وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه .

مكرمة لهذا الملك

ونشأت بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودّة ، وتأكدت بيننا الصّحبة والمحبة ، واجتمعنا بحضرة دهلي ، فلمّا سافر السلطان إلى دولة أباد ، كما سنذكره ، وأمرني بالإقامة بالحضرة ، قال لي جلال الدين : إنك تحتاجُ إلى نفقة كبيرة ، والسلطان تطولُ غيبته ، فخذ قريتي واستغلّها حتى أعود ، ففعلتُ ذلك ، واستغلّيتُ منها نحو خمسة آلاف دينار ، جزاه الله أحسن جزائه .

ولقيتُ بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي ،
والبسني الحريقة^١ ، وهو من كبار الصالحين ، ولم يزل الثوب الذي ألبسنيه معي
إلى أن سلبني كفّار الهنود في البحر .
ثمّ سافرتُ من أوجه إلى مدينة مُلتان ، وهي قاعدة بلاد السند ، ومسكن
أمير أمرائها .

وفي الطريق إليها ، على مسافة عشرة أميال منها ، الوادي المعروف بخسرو
أباد ، وهو من الأودية الكبار لا يُجاز إلاّ في المركب وبه يبحث عن أمتعة
المجتازين أشدّ البحث ، وتفتشُ رحالهم . وكانت عاداتهم في حين وصولنا
إليها أن يأخذوا الربع من كلّ ما يجلبه التجار ، ويأخذوا على كلّ فرس سبعة
دنانير مغرمًا ، ثمّ بعد وصولنا للهند بستتين ، رفع السلطان تلك المغارم ، وأمرَ
أن لا يؤخذ من الناس إلاّ الزكاة والعشرُ لما بايع للخليفة أبي العباس العباسي .
ولما أخذنا في إجازة هذا الوادي وفُتشت الرحال عظمَ عليّ تفتيشُ رحلي
لأنّه لم يكن فيه طائل ، وكان يظهر في أعين الناس كبيراً ، فكنتُ أكره أن
يُطلّع عليه . ومن لطف الله تعالى أن وصلَ أحد كبار الأجناد من جهة قطب
المُلك صاحب مُلتان ، فأمرَ أن لا يُعرَضَ لي ببحث ولا تفتيش ، فكان كذلك ،
فحمدتُ الله على ما هيّأه لي من لطائفه .

وبتنا تلك اللّيلة على شاطئ الوادي ، وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد ،
واسمُه دهقان ، وهو سمرقنديّ الأصل ، وهو الذي يكتبُ للسلطان بأخبار
تلك المدينة ، وعُمّالها ، وما يحدثُ بها ، ومن يصلُ إليها ، فتعرّفتُ به ،
ودخلتُ في صحبته إلى أمير مُلتان .

١ الخرقه : أي خرقه الصوفية .

ذكر أمير ملتان وترتيب حاله

وأمرُ ملتان هو قُطْب المُلْك من كبار الأمراء وفضلائهم ، لما دخلتُ عليه قامَ إليّ وصافحني وأجلسني إلى جانبه ، وأهديتُ له مملوكاً وفرساً وشيئاً من الزبيب واللوز ، وهو من أعظم ما يُهدى إليهم لأنه ليس ببلادهم ، وإنما يُجلبُ من خراسان .

وكان جلوسُ هذا الأمير على دُكَّانة كبيرة عليها البُسْطُ ، وعلى مقربة منه القاضي ، ويسمى سالار ، والخطيب ولا أذكر اسمه ، وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهلُ السَّلاح وقوفٌ على رأسه ، والعساكر تُعرَضُ بين يديه . وهناك قيسي كثيرة ، فإذا أتى من يريد أن يثبت في العسكر رامياً أُعطي قوساً من تلك القسيّ ينزَعُ فيها ، وهي متفاوتة في الشدَّة ، فعلى قدر نزعه يكون مُرتَّبُهُ ، ومن أراد أن يثبت فارساً ، فهناك طبلية منصوبةٌ فيُسْجَرى فرسه ويرميها برمح ، وهناك أيضاً خاتمٌ معلقٌ في حائط صغير فيُسْجَرى فرسه حتى يحاذيه ، فإن رفعه برمح فهو الجيّد عندهم ، ومن أراد أن يثبت رامياً فارساً فهناك كُرَّةٌ موضوعة في الأرض ، فيُسْجَرى فرسه ويرميها ، وعلى قدر ما يظهر من الإنسان في ذلك من الإصابة يكون مُرتَّبُهُ .

ولما دخلنا على هذا الأمير ، وسلّمنا عليه ، كما ذكرناه ، أمر بإنزالنا في دار خارج المدينة هي لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذي تقدّم ذكره ؛ وعادتهم أن لا يضيفوا أحداً حتى يأتي أمر السلطان بتضييفه .

ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند

فمنهم خدّاوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ ، قدم بأهله وولده ، ثمّ ورد عليه بها إخوته عمادُ الدين وضياء الدين وبرهانُ الدين ؛ ومنهم مبارك شاه أحد

كبار سمرقند ؛ ومنهم أرن بُغا أحد كبار بخارى ؛ ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده ؛ ومنهم بدر الدين الفصالح . وكلّ واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه .

ولما مضى من وصولنا إلى مُلُتان شهران وصل أحد حجاب السلطان ، وهو شمسُ الدين البوشنجي ، والملك محمد الهروي الكتوال ، بعثهما السلطان لاستقبال خداوند زاده ، وقدم معهما ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدمة جَهان ، وهي أمّ السلطان ، لاستقبال زوجة خداوند زاده المذكور ، وأتوا بالخلع لهما ولأولادهما ، ولتجهيز من قدم من الوفود ، وأتوا جميعاً إليّ وسألوني لماذا قدمت ؟ فأخبرتهم أنّي قدمت للإقامة في خدمة خوند عالم ، وهو السلطان ، وبهذا يدعى في بلاده .

وكان أمر أنّ لا يُترك أحدٌ ممّن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند إلّا إن كان برسم الإقامة . فلما أعلمتهم أنّي قدمت للإقامة استدعوا القاضي والعدول ، وكتبوا عقداً عليّ وعلى من أراد الإقامة من أصحابي ، وأبى بعضهم ذلك . وتجهّزنا للسفر إلى الحضرة ، وبين مُلُتان وبينها مسيرة أربعين يوماً في عمارة متصلة ، وأخرج الحاجب وصاحبه الذي بُعث معه ما يُحتاج إليه في ضيافة قوام الدين ، واستصحبوا من مُلُتان نحوَ عشرين طبّاخاً ؛ وكان الحاجب يتقدّم ليلاً إلى كلّ منزل فيجهّز الطعام وسواه ، فما يصل خداوند زاده حتّى يكون الطعام متيسّراً ، وينزل كلّ واحد ممّن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه ، وربّما حضروا الطعام الذي يُصنع لخداوند زاده ، ولم أحضره أنا إلّا مرّة واحدة .

وترتيب ذلك الطعام أنّهم يجعلون الخبز ، وخبزهم الرقاق ، وهو شبه الجراديق^١ ، ويقطعون اللحم المشوي قطعاً كبيراً بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستّاً ، ويجعلون أمام كلّ رجل قطعة ، ويجعلون أقراصاً مصنوعة بالسمن الجراديق : الأرغفة ، الواحد جردق ، وجردة .

تُشبه الخبزَ المشترك ببلادنا ، ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية ، ويغطّون كلَّ قرصٍ منها برغيف حلواء يسمّونه الخشقي ، ومعناه الأجرّي ، مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ، ثمَّ يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صحاف صينية ، ثمَّ يجعلون شيئاً يسمّونه سموسك^١ ، وهو لحم مهروس مطبوخ باللّوز والجوز والفسق والبصل والابازير ، موضوعة في جوف رقاقة مقلّوة بالسمن ، يضعون أمام كلِّ إنسان خمسَ قطع من ذلك أو أربعاً ، ثمَّ يجعلون المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ، ثمَّ يجعلون لُقيمات القاضي ويسمّونه الهاشمي ، ثمَّ يجعلون القاهريّة .

ويقف الحاجب على السّماط قبل الأكل ويخُدم إلى الجهة التي فيها السلطان ، ويخُدم جميعَ من حضّر لخدمته ، والخدمة عندهم حطّ الرأس نحو الركوع ، فإذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل ويؤتّى بأقداح الذهب والفضّة والزجاج مملوءة بماء النبات ، وهو الجلاب محلولاً في الماء ، ويسمّون ذلك الشربة ، ويشربونه قبلَ الطعام . ثمَّ يقول الحاجب : بسم الله ، فعندَ ذلك يشرعون في الأكل ، فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفُقّاع^٢ ، فإذا شربوه أتوا بالتنبول والفوفل ، وقد تقدّم ذكرهما ، فإذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب : بسم الله ، فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أوّلاً ، وينصرفون .

وسافرنا من مدينة ملتان ، وهم يُجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه ، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند ، وكان أوّلَ بلد دخلناه مدينة أبهر ، وهي أوّل تلك البلاد الهندية ، صغيرة ، حسنة ، كثيرة العمارة ، ذات أنهار وأشجار ، وليس هنالك من أشجار بلادنا شيء ما عدا التّبَقَ لكنّه عندهم عظيم الجِرم ، تكون الحبّة منه بمقدار حبة العفص ، شديد الحلاوة ، ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها .

١ السموسك : هو ما نسميه السبوسك .

٢ الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير .

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبّة ، وهي شجرة تشبه أشجار النارج إلا أنّها أعظم أجراماً وأكثر أوراقاً ، وظلّها أكثر الظلال ، غير أنّه ثقيل ، فمن نام تحته وعكّ ؛ وثمرها على قدر الإحصاص الكبير ، فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه وجعلوا عليه الملح وصيّروه كما يُصيّر اللّيم والليمون ببلادنا ، وكذلك يصيّرون أيضاً الزّنجبيل الأخضر ، وعناقيد الفلفل ، ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بإثر كلّ لقمة يسيراً من هذه المملوحات ، فإذا نضجت العنبّة في أوان الخريف اصفرّت حبّاتها ، فأكلوها كالتفاح ، فبعضهم يقطعها بالسكّين ، وبعضهم يمصّها مصّاً ، وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ، ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبّت منها الأشجار كما تُزرع نوى النارج وغيرها . ومنها الشّكّي والبرّكي ، وهي أشجارٌ عاديّةٌ ، أوراقها كأوراق الجوز ، وثمرها يخرج من أصل الشجرة ، فما اتصل منه بالأرض فهو البرّكي ، وحلاوته أشدّ ومطعمه أطيب ، وما كان فوق ذلك فهو الشّكّي ، وثمره يشبه القرع الكبار ، وجلوده تشبه جلود البقر ، فإذا اصفرّ في أوان الخريف قطعوه وشقّوه ، فيكون في داخل كلّ حبة المائة والمائتان ، فما بين ذلك ، من حبّات تشبه الخيار ، بين كلّ حبة وحبة صفّان أصفر اللون ، ولكلّ حبة نواة تُشبه الفول الكبير ، وإذا شويت تلك النواة أو طبّخت يكون طعمها كطعم الفول إذ ليس يوجد هنالك ، ويدّخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى .

وهذا الشّكّي والبرّكي هو خير فاكهة ببلاد الهند ، ومنها التّندو ، وهو ثمر شجر الآبتوس ، وحبّاته في قدر حبّات الشمس ولونها ، وهو شديد الحلاوة ، ومنها الجوز ، وأشجاره عاديّة ، ويشبه ثمره الزيتون ، وهو أسود

١ اليم : لعله بعض الأثمار الموجودة في المغرب .

اللّون ، ونواه واحدة كالزّيتون ؛ ومنها النّارنج الحلو ، وهو عندهم كثير ؛ وأمّا النّارنج الحامض فعزیزُ الوجود ؛ ومنه صنفٌ ثالث يكون بين الحلو والحامض ، وثمره على قدر اللّيم ، وهو طيّبٌ جدّاً وكنْتُ يُعجبني أكله ؛ ومنها المسهوّ وأشجاره عاديّة ، وأوراقه كأوراق الجوز إلّا أنّ فيها حُمرة وصُفرة ، وثمره مثل الإجاص الصغير ، شديدُ الحلاوة ، وفي أعلى كلّ حبة منه حبةٌ صغيرة بمقدار حبة العنب ، مجوّفة ، وطعمها كطعم العنب ، إلّا أنّ الإكثار من أكلها يُحدثُ في الرأس صداعاً ؛ ومن العجب أنّ هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان مطعمها كطعم التين ، وكنْتُ آكلها عوّضاً عن التين ، إذ لا يوجد ببلاد الهند ، وهم يسمّون هذه الحبة الأنكُور ، وتفسيره بلسانهم العنب .

والعنب بأرض الهند عزيزٌ جدّاً ولا يكون بها إلّا في موضع بحضرة دهلي وببلاد آخر ، ويثمرُ مرتين في السنة ، ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به . ومن فواكههم فاكهة يسمّونها كَسِيرًا يحفرون عليها الأرض وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل .

وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ، ويثمر مرتين في السنة ، ورأيتُه ببلاد جزائر ذبيبة المهل لا ينقطع له ثمر ، وهم يسمّونه أنار ، وأظنّ ذلك هو الأصل في تسمية الجُلّتار ، فإنّ جُلّ بالفارسيّة الزهر ، ونار الرمان .

ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزدرعون مرتين في السنة ، فإذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزّرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوماً من زراعته ؛ ومن هذه الحبوب الخريفيّة عندهم الكُنْزُرو ، وهو نوع من الدخن ، وهذا الكُنْزُرو هو أكثر الحبوب عندهم ؛ ومنها القال وهو شبه انلي ؛ ومنها الشاماخ ، وهو أصغرُ حبّاً من القال ، وربّما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة ، وهو طعام الصالحين وأهل

الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة ، فيمسك أحدهم قفة كبيرة ييساره ، وتكون يميناه مقلعة يضرب بها الزرع ، فيسقط في القفة ، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة .

وحب هذا الشامخ صغير جداً ، وإذا جمع جعل في الشمس ثم يندق في مهارس الخشب ، فيطير قشره ، ويبقى لبه أبيض ، ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس ، وهي أطيب من خبزها ، وكنت آكلها كثيراً ببلاد الهند ، وتعجبي ، ومنها الماش وهو نوع من الخلبان ، ومنها المنج ، وهو نوع من الماش إلا أن حبوه مستطيلة ولونه صافي الخضرة ، ويطبخون المنج مع الأرز ، ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه كشرى ، وعليه يفتطرون في كل يوم ، وهو عندهم كالحرير ببلاد المغرب ، ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول ، ومنها الموت ، وهو مثل الكندرو إلا أن حبوه أصغر ، وهو من علف الدواب عندهم ، وتسمن الدواب بأكله ، والشعير عندهم لا قوة له وإنما علف الدواب من هذا الموت أو الحمتص يعرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ، ويطعمونها عوضاً من القصيل أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام ، في كل يوم مقدار ثلاثة أرتال أو أربعة ، ولا تركب في تلك الأيام ، وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوه .

وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية ، وإذا حصدها بعد ستين يوماً من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية ، وهي القمح والشعير والحمص والعدس ، وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرة فيها .

وبلادهم كريمة طيبة التربة ، وأما الأرز فإنهم يزرعون ثلاث مرات في السنة ، وهو من أكبر الحبوب عندهم ، ويزدرون السمسيم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها .

ولنعد إلى ما كنا بسبيله فأقول : سافرنا من مدينة أبوهر ، في صحراء

١ الجلبان : نبات يشبه الماش .

مسيرة يوم ، في أطرافها جبالٌ منيعة ، يسكنها كفّار الهنود ، وربّما قطعوا الطريق . وأهلُ بلاد الهند أكثرُهم كفّار ، فمنهم رعية تحت ذمّة المسلمين ، يسكنون القرى ، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدّمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في إقطاعه ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر خرجَ الناسُ منها أولَ النهار ، وأقمتُ بها إلى نصف النهار في لُمة من أصحابي ، ثمّ خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارساً منهم عرب ، ومنهم أعاجم ، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفّار وفارسان ، وكان أصحابي ذوي نجدة وعيٍّ ، فقاتلناهم أشدّ القتال فقتلنا أحدَ الفارسين منهم ، وغنمنا فرسَه ، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلاً ، وأصابني نُسابة ، وأصابني فرسي نُسابة ثانية ، ومنّ الله بالسلامة منها لأنّ نُسابتهم لا قوّة لها ، وجرحَ لأحد أصحابنا فرسٌ عوّضناه له بفرس الكافر ، وذبحنا فرسَه المجروح ، فأكله الترك من أصحابنا ، وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بكنهَر فعلقناها على سوره .

وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكنهَر المذكور وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودَهَن ، وهي مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فريد الدين البذاوني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالإسكندريّة أنّي سألقاه ، فلقيناه والحمدُ لله ، وهو شيخ ملك الهند ، وأنعم عليه بهذه المدينة .

وهذا الشيخ مُبْتَلَى بالوسّواس ، والعياذ بالله ، فلا يصافح أحداً ولا يدنو

منه ، وإذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه . دخلتُ زاويته ولقيته ، وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين ، فعجب وقال : أنا دون ذلك . ولقيتُ ولديه الفاضلين معز الدين ، وهو أكبرهما ، ولما مات أبوه تولّى الشياخة بعده علم الدين ، وزرتُ قبر جدّه القطب الصالح فريد الدين البلداوي ، منسوبة إلى مدينة بَداونُ بلد السنبُل . ولما أردتُ الانصرافَ عن هذه المدينة قال لي علم الدين : لا بدّ لك من رؤية والدي . فرأيتُه وهو في أعلى سطح له ، وعليه ثيابٌ بيض وعمامةٌ كبيرة لها ذؤابة ، وهي مائلة إلى جانب ، ودعا لي وبعث إليّ بسكر ونّبات .

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفتُ عن هذا الشيخ رأيتُ الناس يهرعون من عسكرينا ، ومعهم بعضُ أصحابنا ، فسألتهُم : ما الخبر ؟ فأخبروني أنّ كافرًا من الهنود مات ، وأجّجت النار لحرقه ، وامراته تُحرق نفسها معه . ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنّها عانقت الميت حتى احترقت معه ، وبعد ذلك كنتُ في تلك البلاد أرى المرأة من كفّار الهنود متزيّنة ، راكبة والناسُ يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطبالُ والأبواقُ بينَ يديها ، ومعها البَراهمة ، وهم كبراء الهنود ، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفقَ بعد مدّة أني كنتُ بمدينة أكثرُ سكّانها الكفّار تُعرفُ بإبحري ، وأميرها مسلم من سامرة السند ، وعلى مقربة منها الكفّار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأميرُ المسلم لقتالهم ، وخرّجت معه رعيّة من المسلمين والكفّار . ووقعَ بينهم قتالٌ شديد مات فيه من رعيّة الكفّار سبعة نفر . وكان لثلاثة منهم ثلاثُ زوجات ، فاتّفقن على إحراق أنفسهن ، وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمرٌ مندوبٌ إليه ، غيرُ واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرزَ أهلُ بيتها شرفاً بذلك . ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب . وأقامت عند أهلها بائسةً ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها

لا تُكره على إحراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ؛ ويأتي إليهن النساء من كل جهة ، وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهي متزينة متعطّرة وفي يَمَناها جوزة نارجيل تَلَعَبُ بها ، وفي يسراها مرآة تَنْظُرُ فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطباء والأبواق والأنفاز ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : ابلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ، وهي تقول : نعم ! وتضحك لهم . وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكائف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبّة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تُخلّتها الشمس ، فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم ، أعادنا الله منها . ولما وصلنا إلى تلك القباب نزلنا إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردنا ما عليهن من ثياب وحلى ، فتصدّقن به ، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربطن بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكثفنها ، والنيران قد أضرمت على قُرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجُلجُلان^٢ فزاد في اشتعالها ، وهناك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الخطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطباء والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حُجبت النار بمِلْحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها . فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك المِلْحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم : مارا

١ الصهريج : حوض الماء .

٢ الجُلجُلان : حب السمسم .

مِتر ساني ازاطش (آنش) من ميدانم أواطش است رهاكني مارا ؛ وهي تضحك ، ومعنى هذا الكلام : أبالنار تخوفوني ؟ أنا أعلم أنها نارٌ محرقة . ثمّ جمعت يديها على رأسها خِدمةً للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضُربت الأبطالُ والأنفار والأبواق ورمى الرجالُ ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الحُشْبَ من فوقها لثلاثاً تتحرّك ، وارتفعت الأصواتُ ، وكثر الضجيجُ ، ولما رأيتُ ذلك كدتُ أسقطُ عن فرسي لولا أصحابي الذين تداركوني بالماء فغسلوا وجهي وانصرفت .

وكذلك يفعلُ أهلُ الهند أيضاً في الغرق ، يُغرقُ كثيرٌ منهم أنفسهم في نهر الكنك^١ وهو الذي إليه يحجّون وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحرّقين ، وهم يقولون إنّه من الجنة ، وإذا أتى أحدهم ليُغرقَ نفسه يقول لمن حضره : لا تظنّوا أنّي أغرقُ نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا ، أو لقلّة مال ، إنّما قصدي التقرّب إلى كُساي ، وكُساي اسمُ الله عزّ وجلّ بلسانهم ، ثمّ يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور .

ولنعد إلى كلامنا الأوّل فنقول : سافرنا من مدينة أجودَهَن فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيّام منها إلى مدينة سَرَسَتِي ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأرز ، وأرزها طيّب ، ومنها يحمل إلى حضرة دهلي ، ولها مجي كثيرٌ جدّاً ، أخبرني الحاجبُ شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته .

ثمّ سافرنا منها إلى مدينة حَنَاسِي ، وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة ، ولها سورٌ عظيم ذكروا أن بانيه رجلٌ من كبار سلاطين الكفّار يسمّى توره وله عندهم حكاياتٌ وأخبار . ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند ، وأخوه قطلوخان معلّم السلطان ، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع إلى الله وجاور بمكة حتى مات .

١ نهر الكنك : هو ما نسميه نهر الكنج ، وهو النهر المقدس عند الهنود .

ثمّ سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود آباد ، وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي ، وأقمنا بها ثلاثة أيّام . وحانسي ومسعود آباد هما للملك المعظم هُوشنج ابن الملك كمال كُرك ، وكُرك معناه الذهب وسيأتي ذكره .

وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائباً عنها بناحية مدينة قنوج ، وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيّام ، وكانت بالحضرة والدته ، وتدعى المخدومة جتهان ، وجتهان اسم الدنيا ، وكان بها أيضاً وزيره خواجه جهان المسمّى بأحمد ابن إياس الرومي الأصل ، فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقّونا ، وعيّن للقاء كلّ واحد منّا من كان من صنفه، فكان من الذين عيّنهم للقائي الشيخ البسطامي ، والشريف المازندراني ، وهو حاجب الغرباء ، والفقيه علاء الدين الملتاني المعروف بقُسرّه ، وكتبَ إلى السلطان بخبرنا ، وبعثَ الكتاب مع الدواة ، وهي يريد الرجالة حسبما ذكرناه ، فوصل إلى السلطان ، وأتاه الجواب في تلك الأيّام الثلاثة التي أقمناها بمسعود آباد .

وبعدَ تلك الأيّام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء ، وهم يسمّون الأمراء ملوكاً ، فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها : الأميرُ ، يقولون هم : الملكُ . وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني ، وهو كبير المنزلة عند السلطان .

ثمّ رحلنا من مسعود آباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمّى بآلسم، وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري ، أحد ندماء السلطان وممّن له عنده الخطوة الثامّة ، وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند ، وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحُسن والحصانة ، وعليها السور الذي لا يُعلم له في بلاد الدنيا نظير . وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلّها بالشرق .

ذكر وصف دهلي

ومدينة دهلي كبيرة الساحة ، كثيرة العمارة ، وهي الآن أربعُ مدن متجاوراتٍ متّصلاتٍ ، إحداها المسماة بهذا الاسم دهلي وهي القديمة من بناء الكفّار ، وكان افتتاحها سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة ، والثانية تسمى سيري ، وتسمى أيضاً دار الخلافة ، وهي التي أعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي ، لما قدم عليه ، وبها كان سُكنى السلطان علاء الدين وابنه قُطب الدين ، وسنذكرهما ؛ والثالثة تسمى تغلق آباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه ، وكان سبب بنائه لها أنّه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين ، فقال له : يا خوند عالم ! كان ينبغي أن تبني هنا مدينة . فقال له السلطان متهمكماً : إذا كنتَ سلطاناً فابنها . فكان من قدر الله أن كان سلطاناً فبناها وسمّاها باسمه ؛ والرابعة تسمى جهان بناه ، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه ، وهو الذي بناها ، وكان أراد أن يضمّ هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضاً ، وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم في بنائه .

ذكر سور دهلي وأبوابها

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير ، عرضُ حائطه أحد عشر ذراعاً ، وفيه بيوتٌ يسكنها الستمار وحفّاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ، ويسمونها الأنبارات ، ومخازن للعدّد ، ومخازن للمجانيق والرعادات ^١ ، ويبقى الزرعُ بها مدةً طائلة لا يتغيّر ، ولا تطرقه آفة .

ولقد شاهدتُ الأرضَ يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسودّ ، ولكن طعمه طيّب ، ورأيتُ أيضاً الكدّرو يخرج منها ، وكلّ ذلك من اختزان

١ ضرب من الأسلحة القديمة يرمى عنه .

السلطان بلبن منذ تسعين سنة . ويمشي في داخل السور الفرسانُ والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طيقتان مفتحتان إلى جهة المدينة يدخلُ منها الضوء ، وأسفلُ هذا السور مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرةٌ متقاربة . ولهذه المدينة ثمانيةٌ وعشرون باباً ، وهم يسمون الباب دروازة ، فمنها دروازة بذاون ، وهي الكبرى ، ودروازة المندوي ، وبها رجة الزرع ، ودروازة جُل ، وهي موضع البساتين ، ودروازة شاه ، اسم رجل ، ودروازة بآلم اسم قرية قد ذكرناها ، ودروازة نجيب ، اسم رجل ، ودروازة كمال كذلك ، ودروازة غزنه ، نسبة إلى مدينة غزنه التي في طرف خراسان . وبخارجها مُصَلَّى العيد وبعض المقابر ودروازة البَجَالِصَة ، وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي ، وهي مقبرة حسنة يبنون بها القباب ، ولا بدّ عند كلِّ قبر من محراب . وإن كان لا قبة له ، ويزرعون بها الأشجار المزهرة مثل قُل (كل شنبو) وريبول (راي بيل) والنسرين وسواها ، والأزاهير هنالك لا تنقطع في فصل من الفصول .

ذكر جامع دهلي

وجامع دهلي كبيرُ الساحة حيطانُه وسقفُه وفرشُه كلُّ ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدعَ نحت . ملصقة بالرصاص أثقن إلصاق . ولا خشبة به أصلاً . وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة . ومنبره أيضاً من الحجر . وله أربعة من الصحنون ، وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يُدري من أيِّ المعادن هو . ذكرَ لي بعض حكمائهم أنّه يسمّى هَفَّتْ جُوش ، ومعنى ذلك سبعة معادن ، وإنّه مؤلّف منها ، وقد جُي من هذا العمود مقدارُ السبابة . ولذلك المجلو منه بريقٌ عظيم . ولا يؤثّرُ فيه الحديد . وطوله ثلاثون ذراعاً ، وأدركنا به عمامة . فكان الذي أحاطَ بدائرته منها ثمانين أذرع . وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جدّاً من النحاس

مطروحان بالأرض قد ألصقا بالحجارة ، ويطأ عليهما كل داخل إلى المسجد أو خارج منه .

وكان موضع هذا المسجد بُدْخَانَة ، وهو بيت الأصنام ، فلما افتُتحت جعل مسجداً . وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام ، وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافاً لحجارة سائر المسجد ، فإنَّها بيض ، وحجارة الصومعة منقوشة ، وهي سامية الارتفاع ، وفحلُّها من الرخام الأبيض الناصع ، وتفايحُها من الذهب الخالص ، وسعة ممرِّها بحيث تصعدُ فيه الفيلة . حدثني من أثقُ به أنَّه رأى الفيل ، حين بُنيت ، يصعد بالحجارة إلى أعلاها . وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ، وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها . فبني مقدار الثلث منها ، واختبرم دون إتمامها ؛ وأراد السلطان محمد إتمامها ، ثم ترك ذلك تشاؤماً .

وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرِّها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة ؛ وهذا الثلث المبنى منها مساوٍ لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا أنَّها بالصحن الشمالي .

وصعدتُها مرةً فرأيتُ معظمَ دور المدينة ، وعينتُ الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة ، وظهرَ لي الناسُ في أسفلها كأنَّهم الصبيان الصغار . ويظهرُ لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها .

وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضاً مسجداً جامعاً بسيري المسماة دار الخلافة ، فلم يُتمَّ منه غيرَ الحائط القبلي والمحراب ، وبنائوه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر ، ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد ؛ وأراد السلطان محمد إتمامه وبعثَ عرفاء البناء ليقدِّروا النفقة فيه ، فزعموا أنَّه يُنفق في إتمامه خمسةً وثلاثون لكتاً فترك ذلك استكثاراً له . وأخبرني بعض خواصه أنَّه لم يتركه استكثاراً لكنَّه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قُتِل قبل تمامه .

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلي الحوضُ العظيمُ المنسوب إلى السلطان شمس الدين لَسْمِش ، ومنه يشربُ أهلُ المدينة ، وهو بالقرب من مصلاّها ، وماؤه يجتمع من ماء المطر ، وطوله نحو ميلين ، وعرضه على النصف من طوله ، والجهة الغربية منه من ناحية المصلّى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين ، بعضها أعلى من بعض ، وتحت كلّ دكان درَج يُنزَلُ عليها إلى الماء ، وبجانب كلّ دكان قبة حجارة ، فيها مجالس للمتزّهِين والمتفرّجين .

وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين ، فإذا كثَرَ الماء في الحوض لم يكن سبيلٌ إليها إلاّ في القوارب ، فإذا قلّ الماء دخلَ إليها الناس ، ودخلها مسجدٌ . وفي أكثر الأوقات يُقيمُ بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه ؛ وإذا جفّ الماء في جوانب هذا الحوض زُرِعَ فيها قصبُ السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر ، والأصفر . وهو شديدُ الحلاوة صغيرُ الحرم ، وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص ، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين . وعلى جوانبه نحو أربعين قبة . ويسكنُ حوله أهلُ الطرب ، وموضعهم يسمّى طرب آباد ، ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ، ومسجدٌ جامع . ومساجد سواه كثيرة .

وأُخبرتُ أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يُصَلّينَ التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤمّ بهنّ الأئمة وعددهنّ كثير . وكذلك الرجال المغنون ، ولقد شاهدتُ الرجال أهل الطرب في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنا ، لكلّ واحد منهم مصلّى تحت ركبته ، فإذا سمع الأذان قام فتوضّأ وصلّى .

١ توله : حوض الخاص ، هكذا في الأصل ، ولعله الخاصة ، أي خاصة السلطان .

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكي ، وهو ظاهر البركة ، كثيرُ التعظيم ، وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكي أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة ، أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهّزونهن به إلى أزواجهنّ يعطي من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة ، حتى عُرف من أجل ذلك بالكعكي ، رحمه الله ؛ ومنها قبرُ الفقيه الفاضل نور الدين الكرُلاني ؛ ومنها قبرُ الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة إلى كرمان ، وهو ظاهر البركة ساطع النور ، ومكانه يظهر قبلة المصلّى ؛ وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير ، نفع الله تعالى بهم .

ذكر بعض علمائها وصلحائها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبّا ، وهو من كبار الصالحين ، والناس يزعمون أنه ينفق من الكون ، لأنه لا مال له ظاهراً . وهو يطعم الوارد والصادر ، ويعطي الذهب والدراهم والأثواب . وظهرت له كراماتٌ كثيرة ، واشتهر بها . رأيتُه مرّاتٍ كثيرة وحصلت لي بركته ؛ ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي كأنه منسوب إلى نيل مصر ، والله أعلم ، كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البداوني . وهو يعظ الناس في كلِّ يوم جمعة ، فيتوبُّ كثيرٌ منهم بين يديه ، ويخلقون رؤوسهم ، ويتواجدون ويغشى على بعضهم .

حكاية قتيل خوف العذاب

شاهدته في بعض الأيام وهو يعظ ، فقرأ القارئ بين يديه « يا أيّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ

سُكَّارَى وَمَا هُمْ بِسُكَّارَى . وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » ثُمَّ كَرَّرَهَا
الفقيه علاء الدين ، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد
الشيخ الآية ، فصاح الفقير ثانية ووقع ميتاً ، وكنتُ فيمن صلى عليه وحضر جنازته .

ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكُهراني ، وكان يصومُ الدهرَ ،
ويقومُ الليلَ ، وتجرّد عن الدنيا جميعاً ، ونبذَها ، ولباسُه عباءة ، ويزوره
السلطان وأهل الدولة ، وربما احتجبَ عنهم فرغب السلطان منه أن يُقطّعه قرى
يطعم منها الفقراء والواردين ، فأبى ذلك ، وزاره يوماً وأتى إليه بعشرة آلاف
دينار ، فلم يقبلها ، وذكروا أنه لا يُفطّر إلاّ بعد ثلاثٍ ، وأنه قيل له في
ذلك فقال : لا أفطر حتى أضطرّ فتحلّ لي الميعة .

ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريدُ دهره ووحيدهُ عصره
كمالُ الدين عبد الله الغاري ، نسبةً إلى غاريّ كان يسكنه خارج دهلِي بمقربة من
زاوية الشيخ نظام الدين البداوني زرتُه بهذا الغار ثلاثَ مرّاتٍ .

ذكر كرامة له

كان لي غلام فأبّقَ مني ، وألفيته بيد رجل من الترك فذهبتُ إلى انتزاعه
من يده ، فقال لي الشيخ : إنّ هذا الغلام لا يصلحُ لك ، فلا تأخذه ، وكان
التركي راغباً في المصالحة ، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه ، وتركته له . فلمّا
كان بعد ستة أشهر قتلَ سيّده . وأتى به إلى السلطان فأمرَ بتسليمه لأولاد
سيّده ، فقتلوه ؛ ولما شاهدتُ لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمته ،
وتركتُ الدنيا ، ووهبتُ جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين . وأقمتُ عنده
مدةً فكنتُ أراه يواصل عشرة أيّام وعشرين يوماً ، ويقومُ أكثرَ الليل . ولم
أزل معه حتى بَعَثَ عني السلطان . ونشِبتُ في الدنيا ثانيةً ، والله تعالى يختم
بالخير . وسأذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى وكيفية رجوعي إلى الدنيا .

ذكر فتح دهلي ومن تداولها من الملوك

حدثني الفقيه الإمام العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي ، الملقب بصدر الجهان ، أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفتار في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وقد قرأت أنا ذلك مكتوباً على محراب الجامع الأعظم بها ، وأخبرني أيضاً أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيوبك ، وكان يلقب سباه سالار ومعناه مقدم الجيوش ، وهو أحد ممالك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سام الغوري ملك غزنة وخراسان ، المتغلب على ملك إبراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذي ابتداء فتح الهند .

وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم ففتح الله عليه مدينة لاهور وسكنها ، وعظم شأنه ، وسعي به إلى السلطان ، وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند ، وأنه قد عصى وخالف ، وبلغ هذا الخبر إلى قطب الدين ، فبادر بنفسه ، وقدم على غزنة ليلاً ، ودخل على السلطان ، ولا علم عند الذين وشوا به إليه ، فلما كان بالغد قعد السلطان على سريرته ، وأقعد أيوبك تحت السرير بحيث لا يظهر ، وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به ، فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن أيوبك ، فذكروا له أنه عصى وخالف ، وقالوا : قد صحح عندنا أنه ادعى الملك لنفسه . فضرب السلطان سريره برجله ، وصفق بيديه ، وقال : يا أيوبك ! قال : لبسك . وخرج عليهم ، فسقط في أيديهم ، وفرعوا إلى تقبيل الأرض ، فقال لهم السلطان : قد غفرت لكم هذه الزلة ، وإياكم والعودة إلى الكلام في أيوبك ، وأمره أن يعود إلى بلاد الهند ، فعاد إليها ، وفتح مدينة دهلي وسواها واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد ، وأقام قطب الدين بها إلى أن توفي .

١ سنة ١١٨٨ م .

ذكر السلطان شمس الدين للمش

وهو أول من وليّ الملك بمدينة دهلي مستقلاً به ، وكان قبل تملكه مملوكاً للأمير قطب الدين أيوبك وصاحب عسكره ونائباً عنه ، فلما مات قطب الدين استبد بالملك ، وأخذ الناس بالبيعة ، فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضي القضاة ، إذ ذاك . وجيه الدين الكاساني ، فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه . وقعد القاضي إلى جانبه على العادة . وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به . فرفع طرف البساط الذي هو قاعدٌ عليه . وأخرج لهم عقداً يتضمن عتقه ، فقرأه القاضي والفقهاء ، وبايعوه جميعاً ، واستقل بالملك ، وكانت مدته عشرين سنة ، وكان عادلاً صالحاً فاضلاً .

ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً ، وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض ، فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيتته وأنصفه ممن ظلمه . ثم إنه أعيان في ذلك ، فقال : إن بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل ، وأريد تعجيل إنصافهم ، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام ، موضوعين على بُرجين هنالك ، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد ، فيهما جرس كبير ، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الحرس فيسمعه السلطان ، وينظر في أمره للحين وينصفه .

ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة ، وهم : ركن الدين الوالي بعده ، ومعز الدين ، وناصر الدين ، وبناتاً تسمى رضيّة هي شقيقة معز الدين منهم ، فتولّى بعده ركن الدين ، كما ذكرناه .

ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما بُويعَ ركنُ الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدي على أخيه مُعزّ الدين ، فقتله وكانت رضية شقيقته . فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها ، فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة ، فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ، وهو يسمّى دولة خانة ، ولبست عليها ثياب المظلومين ، وتعرضت للناس . وكلمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم : إنّ أخي قتلَ أخاه ، وهو يريد قتلي معه ، وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير ، وإحسانه إليهم ، فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين ، وهو في المسجد ، فقبضوا عليه وأتوا به إليها ، فقالت لهم : القاتلُ يُقتل ، فقتلوه قصاصاً بأخيه ، وكان أخوهما ناصرُ الدين صغيراً فاتفقَ الناس على تولية رضية .

ذكر السلطنة رضية

ولما قُتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك ، فولّوها ، واستقلت بالملك أربع سنين ، وكانت تركب بالقوس والركش والقربان كما يركبُ الرجال ولا تستر وجهها ، ثمّ لأنها اتهمت بعد لها من الحبشة فاتفقَ الناسُ على خلعه وتزويجها ، فخلعت وزوّجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين .

ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما خلعت رضية ولي ناصر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة . ثمّ إنّ رضية وزوجها خالفا عليه ، وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد ، وتهيأ لقتاله ، وخرج ناصر الدين ، ومعه مملوكه النائب عنه غياث

الدين بَلَسَن ، متولّي الملك بعده ، فوقّع اللقاء وانهمز عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع وأجهدها الإعياء ، فقصدت حرّاثاً رأته يحرق الأرض فطلبت منه ما تأكله فأعطاه كسرة خبز ، فأكلتها ، وغلب عليها النوم ، وكانت في زي الرجال فلما نامت نظرت إليها الحرّاث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قبّاء مُرَصَّعاً فعلم أنّها امرأةٌ فقتلها وسلَبَها ، وطرَدَ فرسها ، ودفنها في فدانه ، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعه ، فأنكر أهلُ السوق شأنه وأثوا به الشحنة . وهو الحاكم ، فضرّبه فأقرّ بقتلها ، ودلّهم على مدفنها ، فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها . ودُفنت هنالك وبني عليها قبة . وقبرها الآن يُزارُ ويُتبرّك به ، وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجحون على مسافة فرسخ واحدٍ من المدينة .

واستقلَّ ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الأمر عشرين سنة ، وكان ملكاً صالحاً ينسخُ نُسَخاً من الكتاب العزيز ، ويبيعهُ فيقتاتُ بثمرها . وقد وقفني القاضي كمال الدين على مُصحف بخطه مُتّقن ، مُحكم الكتابة ، ثمّ إنّ نائبه غياث الدين بلبن قتله ، وملك بعده . ولَبَسَن هذا خبرٌ طريفٌ نذكره .

ذكر السلطان غياث الدين بلبن

ولما قتلَ بَلَسَن مولاہ السلطان ناصر الدين استقلَّ بالملك بعده عشرين سنة ، وقد كان قبلها نائباً له عشرين سنة أخرى ، وكان من خيار السلاطين عادلاً حليماً فاضلاً . ومن مكارمه أنّه بنى داراً وسمّاها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قُضي دينه ، ومن دخلها خائفاً أُمّن ؛ ومن دخلها وقد قتل أحداً أُرضي عنه أولياء المقتول ؛ ومن دخلها من ذوي الجنايات أُرضي أيضاً من يطلبه . وبذلك الدار دُفِنَ لما مات . وقد زرتُ قبره .

حكايته الغريبة

يُذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بَلَسَبَن هذا ، وكان قصيراً حقيراً دَمِيماً ، فقال له : يا تُركك ، وهي لفظة تُعربُ عن الاحتقار ، فقال له : لَبِيك يا خوند ، فأعجبه كلامه ، فقال له : اشتر لي من هذا الرمان ، وأشار إلى رُمان يُباعُ بالسوق ، فقال : نعم ، وأخرجَ فُلَيْسات لم يكن عنده سواها ، واشترى له من ذلك الرمان ، فلما أخذها الفقير قال له : وهبناك مُلك الهند . فقبِلَ بَلَسَبَن يدَ نفسه ، وقال : قبلتُ ورضيتُ ، واستقرّ ذلك في ضميره .

واتفقَ أن بعثَ السلطان شمس الدين لَلْمِش تاجراً يشتري له الممالك بسمرقند وبخارى وترمد ، فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بَلَسَبَن ، فلما دخلَ بالممالك على السلطان أعجبه جميعُهم إلا بَلَسَبَن لما ذكرناه من دمامته ، فقال : لا أقبلُ هذا . فقال له بلبن : يا خوند عالم لمن اشتريت هؤلاء الممالك ؟ فضحك منه ، وقال : اشتريتُهم لنفسي . فقال له : اشترني أنا لله ، عزّ وجلّ ، فقال : نعم ، وقبّله وجعله في جملة الممالك فاحتقرَ شأنه وجُعِلَ في السقّاتين . وكان أهلُ المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين : إنّ أحدَ ممالكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولي عليه ، ولا يزالون يلقون له ذلك ، وهو لا يلتفت إلى أقوالهم لصلاحه وعدله ، إلى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أمّ أولاده ، فذكرت له ذلك وأثّرَ في نفسه ، وبعثَ في طلب المنجمين ، فقال : أتعرفون المملوك الذي يأخذ ملك ابني إذا رأيتموه ؟ فقالوا له : نعم . عندنا علامةٌ نعرفه بها ، فأمر السلطان بعرض ممالكه وجلس لذلك ، فعرضوا بين يديه طبقةً طبقة . والمنجمون ينظرون إليهم ، ويقولون : لم نرهُ بعدُ ، وحانَ وقتُ الزوال . فقال السقّاؤون بعضهم لبعض : إنّنا قد جعنا فلنَجْمَعُ شيئاً من الدراهم ، ونبعثَ أحداً إلى السوق ليشترى لنا ما نأكله . فجمعوا الدراهم . وبعثوا بها بَلَسَبَن إذ لم يكن فيهم أحقرُ منه . فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجّه إلى سوق أخرى وأبطأ .

وجاءت نوبةُ السقّائين في العَرَض وهو لم يأتِ بعدُ ، فأخذوا زِقّه وماعونته وجعلوه على كاهل صبيّ وعَرَضوه على أنّه بَلَسَبَن ، فلمّا نودي باسمه جاز الصبيّ بين أيديهم ، وانقضى العرض ، ولم يرَ المنجّمون الصورة التي تطلّبوها . وجاء بَلَسَبَن بعدَ تمام العرض ، لما أراد الله من إنفاذ قضائه . ثمّ إنّّه ظهرت نجاته فجُعِلَ أميرَ السقّائين ، ثمّ صارَ من جملة الأجناد . ثمّ من الأمراء ، ثمّ تزوّج السلطان ناصر الدين بنته قبلَ أن يلي الملك . فلمّا ولي الملك جعله نائباً عنه مدّة عشرين سنة ، ثمّ قتله بَلَسَبَن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى ، كما تقدّم ذكرُ ذلك .

وكان للسلطان بَلَسَن ولدان أحدهما الخان الشهيد وليّ عهده ، وكان والياً لأبيه ببلاد السند ، ساكناً بمدينة مُلّتان ، وقُتِلَ في حرب له مع التتر ، وترك ولدين كَيّ قباد وكَيّ خسرو ؛ وولد السلطان بَلَسَن الثاني يسمّى ناصر الدين ، وكان والياً لأبيه ببلاد اللكنوتي وبنجاله ، فلمّا استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بَلَسَن العهدَ إلى ولده كَيّ خسرو وعدلَ به عن ابن نفسه ناصر الدين ، وكان لناصر الدين أيضاً ولدٌ ساكنٌ بحضرة دهلي مع جدّه ، يسمّى مُعزّ الدين ، وهو الذي تولّى الملك بعد جدّه في خبر عجيب نذكره ، وأبوه إذ ذاك حيّ كما ذكرناه .

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَسَن

ولمّا توفي السلطان غياثُ الدين ليلاً ، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتي ، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كَيّ خسرو حسبما قصصناه ، كان ملك الأمراء نائبُ السلطان غياث الدين عدوّاً لكَيّ خسرو ، فأدار عليه حيلةً تمّت له ، وهي أنّه كتب بيعةً دلّس فيها على خطوط الأمراء الكبار بأنّهم بايعوا مُعزّ وهي ١ دلّس : مدع .

الدين حفيد السلطان بلبسن ، ودخلَ على كَيّ خسرو كالمُتنصِّح له فقال له :
 إنّ الأمراء قد بايعوا ابن عمّك ، وأخاف عليك منهم ، فقال له كَيّ خسرو :
 فما الحيلة ؟ قال : انجُ بنفسك هارباً إلى بلاد السند ، فقال : وكيف الخروج
 والأبوابُ مسدودة ؟ فقال له : إنّ المفاتيحَ بيدي وأنا أفنحُ لك . فشكره على
 ذلك وقبّلَ يده فقال له : اركب الآن ، فركبَ في خاصّته ومماليكه ، وفتحَ له
 البابَ وأخرجَه وسدّ في أثره .

واستأذن على مُعزّ الدين ، فبايعه . فقال : كيف لي بذلك ، وولاية العهد
 لابن عمّي ؟ فأعلمه بما أدارَ عليه من الحيلة وبإخراجه ، فشكره على ذلك ،
 ومضى به إلى دار المُلك ، وبعثَ إلى الأمراء والخواصّ فبايعوه ليلاً ، فلمّا
 أصبحَ بايعه سائرُ الناس ، واستقامَ له المُلك .

وكان أبوه حيّاً ببلاد بنجالة والكنوتي ، فاتّصلَ به الخبر فقال : أنا وارثُ
 المُلك ، وكيف يلي ابني المُلك ويستقلّ به ، وأنا بقيد الحياة ؟ فتجهّزَ في جيوشه
 قاصداً حضرة دهلي ، وتجهّزَ ولده في جيوشه أيضاً قاصداً لمدافعته عنها ، فتوافيا
 معاً بمدينة كرا ، وهي على ساحل نهر الكنك ، الذي تحجّ الهنود إليه ، فنزل
 ناصر الدين على شاطئه ممّا يلي كرا ، ونزل ولده السلطان مُعزّ الدين ممّا يلي
 الجهة الأخرى ، والنهر بينهما ، وعزما على القتال ، ثمّ إنّ الله تعالى أراد حقن دماء
 المُسلمين ، فألقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال : إذا ملك ولدي فذلك شرفٌ
 لي ، وأنا أحقّ أن أرغبَ في ذلك ، وألقى في قلب السلطان معزّ الدين الضّراعة لأبيه ،
 فركبَ كلّ واحد منهما في مركب منفرداً عن جيوشه ، والتقيا في وسط النهر ،
 فقبّل السلطانُ رجلَ أبيه واعتذر له ، فقال له أبوه : قد وهبتُك ملكي ووليتك ،
 وبايعه ، وأراد الرجوع لبلاده ، فقال له ابنه : لا بدّ لك من الوصول إلى بلادي ،
 فمضى معه إلى دهلي ودخلَ القصرَ وأقعدَه أبوه على سرير المُلك ، ووقفَ بينَ
 يديه ، وسمّي ذلك اللّقاء الذي كان بينهما بالنهر : لقاء السعدين لما كان فيه
 من حقن الدماء وتواهُب المُلك والتجاني عن المنازعة ، وأكثرَت الشعراء في ذلك .

وعاد ناصر الدين إلى بلاده فماتَ بها بعد سنين وتركَ بها ذُرِّيَّةً ، منهم غياثُ الدين بهادور الذي أسره السلطان تغلق ، وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته ، واستقام الملك لمعز الدين أربعةَ أعوام بعد ذلك كانت كالأعياد ، رأيتُ بعض من أدركها يصفُ خيراتها ورخصَ أسعارها وجودَ معزّ الدين وكرمه ، وهو الذي بنى الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي ، ولا نظيرَ لها في البلاد .

وحكى لي بعض أهل الهند أن معزّ الدين كان يُكثِرُ النكاح والشرب ، فاعتزّته عِيْلَةٌ أعجزَ الأطباء دواؤها ، ويبسَ أحدُ شقّيه ، فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجي .

ذكر السلطان جلال الدين

ولما اعتري السلطانَ معزّ الدين ما ذكرناه من يبسَ أحدَ شقّيه ، خالف عليه نائبه جلال الدين ، وخرج إلى ظاهر المدينة ، فوقف على تلٍّ هنالك بجانب قبة تُعرف بقبة الجيشاني ، فبعثَ معزّ الدين الأمراء لقتاله ، فكان كلٌّ من بيعته منهم يبايع جلال الدين ، ويدخل في جملته ، ثمّ دخلَ المدينة وحصره في القصر ثلاثةَ أيّام .

وحدّثني من شاهد ذلك أن السلطانَ معزّ الدين أصابه الجوع في تلك الأيّام فلم يجد ما يأكله ، فبعثَ إليه أحدُ الشرفاء من جيرانه ما أقام أودّه ، ودخل عليه القصرُ فقتلَ وولي بعده جلالُ الدين ، وكان حليماً فاضلاً ، وحلمه أدّاه إلى القتل ، كما سنذكره ، واستقامَ له الملك سنين ، وبنى القصرَ المعروف باسمه ، وهو الذي أعطاه السلطان محمد لصهره الأمير غدا بن مهنا لما زوّجه بأخته ، وسيدكر ذلك ، فكان للسلطان جلال الدين ولدٌ اسمه رُكنُ الدين ، وابنُ أخٍ اسمه علاء الدين زوّجه بابنته ، وولّاه مدينة كرا ومانكبور ونواحها ، وهي من أخصب بلاد الهند ، كثيرة القمح والأرز والسكر ، وتُصنعُ بها الثيابُ الرفيعةُ . ومنها تُجلبُ إلى دهلي ، وبينهما مسيرةُ ثمانية عشرَ يوماً .

وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا يزال يشكوها إلى عمّه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها ، وكان علاء الدين شهماً شجاعاً مظفراً منصوراً وحبّ الملك ثابتاً في نفسه ، إلاّ أنّه لم يكن له مالٌ إلاّ ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفّار ، فاتّفقَ أنّه ذهبَ مرّةً إلى الغزو ببلاد الديوقير ، وتسمّى بلاد الكتّكة أيضاً ، وسنذكرها وهي كرسي بلاد المالوة والمرهته ، وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفّار ، فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابةً له عند حجر ، فسمع له طنيناً ؛ فأمرَ بالحفر هنالك ، فوجد تحته كنزاً عظيماً ففرّقه في أصحابه ، ووصل إلى الديوقير ، فأذعنَ له سلطانها بالطاعة ومكّنه من المدينة من غير حرب ، وأهدى له هدايا عظيمة ، فرجعَ إلى مدينة كرا ، ولم يبعث إلى عمّه شيئاً من الغنائم ، فأغرى الناسُ عمّه به ، فبعثَ إليه فامتنعَ من الوصول إليه ، فقال السلطان جلال الدين : أنا أذهبُ إليه وآتي به فإنّه محلّ ولدي ، فتجهّز في عساكره وطوى المراحل حتى حلّ بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معزّ الدين لما خرّجَ إلى لقاء أبيه ناصر الدين ، وركبَ النهر برسم الوصول إلى ابن أخيه ، وركبَ ابنُ أخيه أيضاً في مركبٍ ثانٍ عازماً على الفتك به ، وقال لأصحابه : إذا أنا عانقته فاقتلوه ، فلمّا التقيا وسطّ النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ملكه وعساكره .

ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلاجي

ولما قتل عمّه استقلّ بالملك وفرّ إليه أكثر عساكر عمّه ، وعادَ بعضهم إلى دهلي ، واجتمعوا على ركن الدين . وخرج إلى دفاعه ، فهربوا جميعاً إلى السلطان علاء الدين ، وفرّ ركن الدين إلى السند ، ودخلَ علاء الدين دار الملك ، واستقام له الأمر عشرين سنة ، وكان من خيار السلاطين ، وأهلُ الهند يُشنون عليه كثيراً . وكان يتفقّد أمور الرعيّة بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم ، ويُحضّر

المحتسب ، وهم يسمّونه الرئيس ، في كلّ يوم يرسم ذلك ، ويذكر أنّه سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أنّ ذلك لكثرة المغرم على البقر في المرتب ، فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجّار ، وأعطاهم الأموال وقال لهم : اشترؤا بها البقر والغنم ويبيعوها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها ، ففعلوا ذلك ، وفعل مثل هذا في الأثواب التي يؤتى بها من دولة اباد .

وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخّص السعر . ويذكر أنّ السعر ارتفع ذات مرّة فأمر ببيع الزرع بثمن عيّنه ، فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألاّ يبيع أحدٌ زرعاً غير زرع المخزن . وباع للناس ستة أشهر ، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا أن يؤذن لهم في البيع ، فأذن لهم على أن يبيعه بأقلّ من القيمة الأولى التي امتنعوا من بيعه بها . وكان لا يركبُ بجمعة ولا لعيد ولا سواهما ، وسبب ذلك أنّه كان له ابن أخ يسمّى سليمان شاه ، وكان يحبّه ويعظّمه ، فركب يوماً إلى الصيد ، وهو معه ، وأضمر في نفسه أن يفعل به ما فعل هو بعمّه جلال الدين من الفتك ، فلمّا نزل للغداء رماه بنشابة فصرعه وغطّاه بعض عبيده بتُرس ، وأتى ابن أخيه ليجهز عليه ، فقال له العبيد : إنّهُ قد مات ، فصدّقهم وركب فدخل القصر على الحرم ، وأفاق السلطان علاء الدين من غشّيته ، وركب واجتمعت العساكر عليه ، وفرّ ابن أخيه ، فأدركه وأتى به إليه فقتله . وكان بعد ذلك لا يركب .

وكان له من الأولاد خضر خان وشادي خان وأبو بكر خان ومبارك خان ، وهو قطبُ الدين الذي ولي الملك ، وشهاب الدين ، وكان قطبُ الدين مهتضماً عنده ناقص الحظّ قليل الخطوة ، وأعطى جميع إخوته المراتب ، وهي الأعلام والأطبال ، ولم يعطه شيئاً . وقال له يوماً : لا بدّ أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك ، فقال له : الله هو الذي يعطيني . فهال أباهُ هذا الكلام وفرغ منه . ثمّ إنّ السلطان أصابه المرض الذي مات منه . وكانت زوجته أمّ ولده خضر

خان وتسمّى ماه حق ، والماء القمر بلسانهم ، لها أخٌ يسمّى سنجر ، فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان ، وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان ، وكان يسمّى الألفي لأن السلطان اشتراه بألف تنكة ، وهي ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب ، فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه ، فقال لخواصّه : إذا دخلَ عليّ سنجر فإني معطيه ثوباً ، فإذا لبسه فامسكوا بأكمامه ، واضربوا به الأرض ، واذبحوه ، فلما دخلَ عليه فعلوا ذلك وقتلوه .

وكان خضر خان غائباً بموضع يقال له سندبت ، على مسيرة يوم من دهلي ، توجهَ لزيارة شهداء مدفونين به لتندّر كان عليه أن يمشي تلك المسافة راجلاً ويدعو لوالده بالراحة ، فلما بلغه أنّ أباه قتلَ خاله حزنَ عليه حزناً شديداً ، ومزّقَ جيبه . وتلك عادة لأهل الهند يفعلونها إذا مات لهم من يعزّ عليهم ، فبلغ والده ما فعله فكره ذلك . فلما دخلَ عليه عنقته ولامه ، وأمرَ به فقيّدت يداه ورجلاه ، وسلّمه للملك نائب المذكور ، وأمره أن يذهب به إلى حصن كاليبور ويقال له أيضاً كيالير ، وهو حصن منقطع بين كفّار الهندو منبعٌ على مسيرة عشر من دهلي ، وقد سكنته أنا مدّة ، فلما أوصله إلى هذا الحصن سلّمه للكتوال ، وهو أميرُ الحصن ، وللمفردين ، وهم الزماميون ، وقال لهم : لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه ، إنّما هو أعدى عدوّ له ، فاحفظوه كما يُحفظُ العدو . ثمّ إنّ المرض اشتدّ بالسلطان ، فقال للملك نائب : ابعث من يأتي بابني خضر خان لأوليّه العهد ، فقال له : نعم ، وماطله بذلك ، فمتى سأل عنه قال : هوذا يصل ، إلى أن توفي السلطان ، رحمه الله .

ذكر ابنه السلطان شهاب الدين

ولما توفي السلطان علاء الدين أقعدَ ملك نائب ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايعه الناس ، وتغلّب ملك نائب عليه ، وسمل أعين أبي بكر خان وشادي خان ، وبعثَ بهما إلى كاليبور ، وأمرَ بسمل عيني أخيهما

خضر خان المسجون هنالك ، وسُجنوا ، وسُجنَ قطب الدين لكنّه لم تسمل عيناه . وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصّه يسمّى أحدهما ببشير والآخر بمبشّر . فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين وهي بنت السلطان معزّ الدين فذكرتهما بنعمة مولاها ، وقالت : إنّ هذا الفتى ملك نائب قد فعلَ في أولادي ما تعلمانه ، وإنّه يريد أن يقتل قطب الدين ، فقالا لها : سترين ما نفعل . وكانت عادتاهما أن يبيتا عند ملك نائب ويدخلا عليه بالسلاح ، فدخلا عليه تلك الليلة ، وهو في بيت من الخشب مكسوّ بالملفّ يسمّونه الحرمة ، ينامُ فيه أيّام المطر فوق سطح القصر ، فاتفقَ أنّه أخذ السيّف من يد أحدهما فقلّبه وردّه إليه ، فضربه المملوك وثنتى عليه صاحبه ، واحتزّ رأسه ، وأتيا به إلى محبس قطب الدين ، فرمياه بين يديه ، وأخرجاه ، فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أيّاماً كأنّه نائب له ثمّ عزم على خلعه فخلعه .

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين

وخلعَ قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطعَ إصبعه ، وبعثَ به إلى كاليور فحبّسَ مع إخوته ، واستقام الملك لقطب الدين ، ثمّ إنّّه بعد ذلك خرجَ من حضرة دهلي إلى دولة اباد ، وهي على مسيرة أربعين يوماً منها ، والطريقُ بينهما تكنفه الأشجارُ من الصفصاف وسواه ، فكأنّ الماشي به في بستان ، وفي كلّ ميل منه ثلاثُ داوات وهي البريد ، وقد ذكرنا ترتيبه ، وفي كلّ داوة جميعُ ما يحتاجُ المسافر إليه ، فكأنّه يمشي في سوق مسيرة الأربعين يوماً ، وكذلك يتصلّ الطريقُ إلى بلاد التلنك والمعبر مسيرة ستّة أشهر ، وفي كلّ منزلة قصرٌ للسلطان وزاويةٌ للوارد والصادر ، فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد في ذلك الطريق . ولما خرجَ السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفقَ بعضُ الأمراء على الخِلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون ، وسنّه نحو عشرة أعوام ، وكان مع السلطان ، فبلغَ السلطانَ ذلك ، فأخذ ابنَ أخيه المذكور وأمسك برجله

وضربَ برأسه إلى الحجارة حتى نثرَ دماغه . وبعثَ أحد الأمراء ، ويسمى ملك شاه ، إلى كاليور حيثُ أبو هذا الولد وأعمامه ، وأمره بقتلهم جميعاً .

فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال : قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خسان بمحبسه ، فلما سمعَ بقدمه خافَ وتغيّرَ لونه ، ودخلَ عليه الأمير . فقال له : فيمَ جئتَ ؟ قال : في حاجة خوند عالم . فقال له : نفسي سالمة ؟ فقال : نعم ، وخرجَ عنه واستحضرَ الكتوال ، وهو صاحبُ الحصن ، والمفردين ، وهم الزماميون ، وكانوا ثلاثمائة رجل ، وبعثَ غني وعن العُدول ، واستظهرَ بأمر السلطان فقرأوه ، وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه ، وهو متشبّت غيرُ جزع . ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادي خان : ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فرجَ وذُهِيل ، وكانت أمّه معه فسدّوا البابَ دونها وقتلوه وسحبوهم جميعاً في حفرة دون تكفين ولا غسل ، وأخرجوا بعد سنين فدُفِنوا بمقابر آبائهم . وعاشت أم خضر خان مدّة ورأيته بمكّة سنة ثمان وعشرين^١ .

وحصنُ كاليور هذا في رأس شاهق كأنّه منحوتٌ من الصخر ، لا يحاذيه جبلٌ ، وبداخله جبابُ الماء ونحو عشرينَ بئراً عليها الأسوار مضافةٌ إلى الحصن ، منصوباً عليها المجانيق والرعايات . ويصعدُ إلى الحصن في طريقٍ متّسعة يصعدُها الفيلُ والفرس ، وعندَ باب الحصن صورة فيلٍ منحوتٍ من الحجر ، وعليه صورة فيّال ، وإذا رآه الإنسان على البُعد لم يشكّ أنّه فيلٌ حقيقة ، وأسفل الحصن مدينةٌ حسنة مبنية كلّها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدُها ودُورها ، ولا خشبَ فيها ما عدا الأبواب ، وكذلك دارُ الملك بها والقبابُ والمجالس ، وأكثرُ سوقتها كُفّارٌ ، وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهادٍ لأنّها بين الكفّار .

ولما قتل قطبُ الدين إخوته واستقلّ بالملك فلم يبقَ من ينازعه ولا من

١ سنة ١٣٢٧ م .

يخالف عليه ، بعث الله تعالى عليه من خاصته الحظيبيّ لديه أكبر أمراء وأعظمهم منزلةً عنده ، ناصر الدين خسرو خان ، ففتك به وقتله واستقلّ بملكه ، إلاّ أنّ مدّته لم تطل في الملك فبعث الله عليه أيضاً من قتله بعد خلعه ، وهو السلطان تغلق ، حسبما يشرح ذلك كلّهُ مستوفى إن شاء الله تعالى إثرَ هذا ونسطرهُ .

ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين ، وهو شجاع ، حسن الصورة ، وكان فتح بلاد جنديرى وبلاد المعبر ، وهي من أخصب بلاد الهند ، وبينهما وبين دهلي مسيرة ستة أشهر . وكان قطب الدين يُحبّه حبّاً شديداً ، ويؤثره ، فجزّ ذلك حتفه على يديه ، وكان لقطب الدين معلّم يسمّى قاضيخان صدرّ الجهان ، وهو أكبر أمرائه ، وكلّيت (كليد) دار ، وهو صاحب مفاتيح القصر ، وعادته أن يبيت كلّ ليلة على باب السلطان ، ومعه أهلُ النوبة ، وهم ألف رجل ، يبيتون مناوبةً بين أربع ليالٍ ، ويكونون صفّين فيما بين أبواب القصر ، وسلاحُ كلّ واحد منهم بين يديه ، فلا يدخلُ أحدٌ إلاّ فيما بين سِمَاطيّهم ، وإذا تمّ الليل أتى أهلُ نوبةِ النهار .

ولأهل النوبة أمراء وكتّاب يتطوّفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر ، وكان معلّم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان ، ويسوءه ما يراه من إثارة لكفّار الهنود وميله إليهم ، وأصله منهم ، ولا يزال يُلقى ذلك إلى السلطان فلا يسمعُ منه ، ويقولُ له : دعه وما يريد ، لما أراد الله من قتله على يديه . فلمّا كان في بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان : إنّ جماعة من الهنود يريدون أن يُسلموا ، ومن عادتهم بتلك البلاد أنّ الهندي إذا أراد الإسلام أدخلَ إلى السلطان ، فيكسوه كسوةً حسنةً ، ويعطيه قلادةً وأساوراً من ذهب على قدره ، فقال له السلطان : اثني بهم ! فقال : إنّهم يستحيون أن

يدخلوا إليك نهاراً لأجل أقربائهم وأهل ملّتهم . فقال له : انتهي بهم ليلاً ! فجمعَ خسرو خان جماعةً من شجعان الهنود وكبرائهم ، فيهم أخوه خان خانان ، وذلك أوان الحرّ ، والسلطان ينامُ فوق سطح القصر ، ولا يكون عنده في ذلك الوقت إلاّ بعض الفتيان ، فلمّا دخلوا الأبوابَ الأربعة ، وهم شاكون السلاح ، ووصلوا إلى الباب الخامس وعليه قاضي خان أنكرَ شأنهم ، وأحسّ بالشرّ ، فمنعهم من الدخول ، وقال : لا بدّ أن أسمع من خوند عالم بنفسي الإذن في دخولهم ، وحينئذٍ يدخلون . فلمّا منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه ، وعلت الضجّة بالباب ، فقال السلطان : ما هذا ؟ فقال خسرو خان : هم الهنود الذين أتوا ليسلموا ، فمنعهم قاضي خان من الدخول ، وزاد الضجيجُ ، فخاف السلطان ، وقامَ يريدُ الدخولَ إلى القصر ، وكان بابُه مسدوداً ، والفتيانُ عنده ، فقرّعَ الباب ، واحتضنه خسرو خان من خلفه ، وكان السلطان أقوى منه ، فصرّعه ، ودخلَ الهنود فقال لهم خسرو خان : هوذا فوقيّ فاقتلوه ، فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه .

وبعثَ خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك ، وهم لا يعلمون بما اتفق . فكلّما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك ، فبايعوه ، ولما أصبح أعلنَ بأمره ، وكتبَ المراسم وهي الأوامر إلى جميع البلاد ، وبعثَ لكلِّ أميرٍ خلعة ، فطاعوا له جميعاً ، وأذعنوا إلى تغلّلق شاه ، ولد السلطان محمد شاه ، وكان إذ ذاك أمير ابد بال بور من بلاد السند . فلمّا وصلته خلعة خسرو خان طرحها بالأرض وجلس فوقها ، وبعثَ إليه أخاه خان خانان فهزمهم ثمّ آلَ أمرُه إلى أن قتله كما سنشرحه في أخبار تغلّلق .

ولما ملك خسرو خان أثر الهنود ، وأظهر أموراً منكراً منها النهيُ عن ذبح البقر على قاعدة كفّار الهنود ، فإنّهم لا يُجيزون ذبحها ، وجزء من ذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويُحرّق ، وهم يعظّمون البقر ، ويشربون أبوالها للبركة وللاستشفاء إذا مرضوا ، ويلطّخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها ، وكان

ذلك ممّا بغَضَّ خسرو خان إلى المسلمين وأماهم عنه إلى تُغَلُّق . فلم تطل مدّة ولايته . ولا امتدّت أيّام ملكه كما سنذكره .

ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه

حدّثني الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبد الله ابن الولي الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريّا القرشي الملتاني بزاويته ، أن السلطان تُغَلُّق كان من الأتراك المعروفين بالقسرونة ، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك . وكان ضعيف الحال ، فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجّار ، وكان كلّوا نياله ، وكلّوا ني هو راعي الخيل ، (جلوبان) وذلك على أيّام السلطان علاء الدين ، وأميرُ السند إذ ذاك أخوه أولوخان ، فخدمه تُغَلُّق وتعلّق بجانبه فرتبّه في البيّنة^١ . وهم الرّجالة ، ثمّ ظهرت نجابته فأثبت في الفرسان . ثمّ كان من الأمراء الصغار ، وجعله أولوخان أمير خيله ، ثمّ كان بعد من الأمراء الكبار ، وسمّي بالملك الغازي . ورأيتُ مكتوباً على مقصورة الجامع بمُلتان . وهو الذي أمرَ بعملها : إني قاتلتُ التترَ تسعاً وعشرين مرّةً فهزمتُهُم . فحينئذٍ سُمّيَ بالملك الغازي .

ولمّا ولي قطبُ الدين ولاّه مدينة ديبال بور وعملاتها وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله ، وكان يسمّى جَوْنَة ، ولمّا ملك تسمّى بمحمّد شاه ، ثمّ لما قُتِلَ قطبُ الدين وولي خسرو خان أبواه الله على إمارة الخيل . فلمّا أرادَ تُغَلُّق الخِلاف ، كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال . وكتبَ إلى كشلو خان . وهو يومئذٍ بمُلتان ، وبينها وبين ديبال بور ثلاثة أيّام . يطلبُ منه القيام بنُصْرته ، ويذكره نعمة قطب الدين ، ويحرّضه على طلب ثأره .

١ البيّنة : العسكر البَيّادة .

وكان ولدُ كشلو خان بدھلي فكتبَ إلى تُغلقُ : انه لو كان ولدي عندي لأعتك على ما تريد . فكتبَ تُغلقُ إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ، ويأمره أن يفرّ إليه ، ويستصحب معه ولد كشلو خان ، فأدارَ ولدُه الحيلةَ على خسرو خان ، وتمّت له كما أراد ، فقالَ له : إنّ الخيلَ قد سمّنت وتبدّنت ، وهي تحتاجُ البراق ، وهو التضمير . فأذنَ له في تضميرها ، فكان يركبُ كلَّ يومٍ في أصحابه فيسيرُ بها الساعة والساعتين والثلاث . واستمرّ إلى أربع ساعات ، إلى أن غابَ يوماً إلى وقت الزوال ، وذلك وقتُ طعامهم . فأمرَ السلطان بالركوب في طلبه . فلم يوجد له خبرٌ . ولحقَ بأبيه . واستصحبَ معه ولد كشلو خان ، وحينئذٍ أظهرَ تُغلقُ الخلافَ ، وجمعَ العساكرَ وخرجَ معه كشلو خان في أصحابه . وبعثَ السلطان أخاه خان خانان لقتالهما . فهزّمه شرّ هزيمة ، وفرّ عسكرُهُ إليهما ، ورجعَ خان خانان إلى أخيه وقتلَ أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله .

وقصدَ تُغلقُ حضرةَ دهلي وخرجَ إليه خسرو خان في عساكره ونزل بخارج دهلي بموضع يُعرفُ بأصيا اباد (آسيا باد) ومعنى ذلك رحى الريح ، وأمرَ بالخزائن ففتحت وأعطى الأموالَ بالبدل لا بوزن ولا عدّ . ووقعَ اللقاء بينه وبينَ تُغلقُ ، وقاتلت الهنود أشدّ قتال . وانهمزت عساكرُ تُغلقُ ونهبت محلّته ، وانفردَ في أصحابه الأقدمين الثلاثمائة ، فقال لهم : إلى أين الفرار ؟ حيثما أدركنا قُتِلنا . واشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب وتفرّقوا عنه ، ولم يبقَ معه إلاّ قليلٌ ، فقصدَ تُغلقُ وأصحابه موقِفَه ، والسلطان هنالك يُعرفُ بالشطر (جتر) الذي يُرفعُ فوقَ رأسه . وهو الذي يُسمّى بديار مصر القبة ، والطير ، ويرفعُ بها في الأعياد . وأمّا بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر ، فلمّا قصده تُغلقُ وأصحابه حمي القتال بينهم وبينَ الهنود ، وانهمز أصحابُ السلطان . ولم يبقَ معه أحدٌ ، وهربَ فزلَ عن فرسه ، ورمى بشيابه وسلاحه ، وبقي في قميص واحد . وأرسلَ شعره بينَ كتفيه . كما يفعل فقراء الهند . ودخلَ بستاناً هنالك . واجتمعَ الناسُ على تُغلقُ . وقصدَ المدينة

فأتاه الكتوال بالمفاتيح ، ودخلَ القصرَ ونزلَ بناحية منه ، وقال لكشلو خان : أنتَ تكون السلطان ، فقال كشلو خان : بل أنتَ تكون السلطان ، وتنازعاً ، فقال له كشلو خان : فإن أبيتَ أن تكون سلطاناً فيتولّى ولدك ، فكرِهَ هذا ، وقبلَ حينئذٍ وقعدَ على سرير الملك وبايعه الخاص والعام .

ولما كان بعد ثلاثِ اشْتَدَّ الجوعُ بخسروخان ، وهو مختفٍ بالبستان ، فخرجَ وطافَ به . فوجدَ القيسمَ ، فسأله طعاماً ، فلم يكن عنده ، فأعطاه خاتمه وقال : اذهبْ فارهنه في طعام . فلما ذهبَ بالخاتم إلى السوق أنكرَ الناس أمره ، ورفعوه إلى الشحنة . وهو الحاكم ، فأدخله على السلطان تُغَلُّق ، فأعلمه بمن دَفَعَ إليه الخاتم . فبعثَ ولده محمداً ليأتي به ، فقبضَ عليه وأتاه به راكباً على تشو . وهو البرذون . فلما مثل بين يديه قال له : إني جائعٌ فأتني بطعام . فأمرَ له بالشربة ثمَّ بالطعام ثمَّ بالقُفَّاع ثمَّ بالنبول ، فلما أكلَ قام قائماً وقال : يا تُغَلُّقُ افعلْ معي فعلَ الملوك ولا تفضحني ! فقال له : لك ذلك ، وأمرَ به فُضِرِبَتْ رقبته ، وذلك في الموضع الذي قُتِلَ هو به قطب الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح . كما فعل هو برأس قطب الدين ، وبعد ذلك أمرَ بغسله وتكفينه . ودُفِنَ في مقبرته واستقامَ الملك لتُغَلُّق أربعة أعوام ، وكان عادلاً فاضلاً .

ذكر ما رآه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك

ولما استقرَّ تُغَلُّقُ بدار الملك بعثَ ولده ليفتح بلاد التلنك ، وهي على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلي . وبعثَ معه عسكرياً عظيماً فيه كبارُ الأمراء مثلُ الملك تَمُور . ومثلُ الملك تِكِين ، ومثلُ ملك كافور والمُهر دار ، ومثلُ ملك بَسِرَم وسواهم . فلما بلغَ إلى أرض التلنك أراد المخالفة ، وكان له نديمٌ من الفقهاء الشعراء يُعرفُ بعَبِيدُ فأمره أن يُلْقِي إلى الناس أن السلطان تُغَلُّقُ تَوَفَّى وظنَّه أن الناس يبايعونه مُسرِّعين إذا سمعوا ذلك ، فلما ألقى

ذلك إلى الناس أنكره الأمراء ، وضرب كل واحد منهم طبلته ، وخالف ، فلم يبق معه من أحد . وأرادوا قتله ، فمنعهم منه ملك تَمُور ، وقام دونه ففر إلى أبيه في عشرة من الفرسان سمّاهم ياران موافق ، معناه الأصحابُ الموافقون . فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعودة إلى تِلِينك ، فعاد إليها ، وعلم أبوه بما كان أراد ، فقتل الفقيه عبيداً ، وأمر بملك كافور المهر دار ، فنُصِرِبَ له عمودٌ في الأرض محدود الطرف ، ورُكِّزَ في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ، ورأسه إلى أسفل ، وترك على تلك الحال ، وفر من بقي من الأمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَسَبَن واستقرّوا عنده .

ذكر مسير تغلق إلى بلاد اللكنوتي وما اتصل بذلك إلى وفاته

وأقام الأمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين ، ثم إن شمس الدين توفي وعهد لولده شهاب الدين . فجلس مجلس أبيه ، ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادور بورة . ومعناه بالهنديّة : الأسود ، واستولى على الملك ، وقتل أخاه قتلوا خان وسائر إخوته . وفرّ شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تَغْلُق . فتجهزّ معهما بنفسه لقتال أخيهما ، وخلف ولده محمداً نائباً عنه في ملكه ، وجدّ السير إلى بلاد اللكنوتي . فتغلب عليها وأسر سلطانها غياث الدين بهادور . وقدم به أسيراً إلى حضرته .

وكان بمدينة دهلي الولي نظام الدين البذاوني . ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردّد إليه ويعظم خدامه ، ويسأله الدعاء . وكان يأخذ الشيخ حال تغليب عليه . فقال ابن السلطان لخدامه : إذا كان السلطان في حالة التي تغلب عليه فأعاجوني بذلك . فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه ، فلما رآه الشيخ قال : وهبنا لك الملك . ثم توفي الشيخ في أيام غيبة السلطان ، فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله . فبلغ ذلك أباه . فأنكره وتوعده . وكان قد رابته

منه أمور ، ونقمَ عليه استكثاره من شراء الممالك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوبَ الناس ، فزادَ حنقُهُ عليه .

وبلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دهل بعد سفره ذلك . فتوعدّهم ، ولما عاد من سفره وقربَ من الحضرة أمرَ ولده أن يبني له قصرًا ، وهم يُسمّونه الكُشْكُ . على وادٍ هنالك يسمّى أفغان بور . فبناه في ثلاثة أيام وجعلَ أكثرَ بنائه بالخشب مرتفعاً على الأرض . قائماً على سوارى خشب . وأحكمه بهندسةٍ تولّى النظرَ فيها الملكُ زاده المعروف بعد ذلك بخواجه جهان . واسمه أحمد بن آياس كبير وزراء السلطان محمد . وكان إذ ذاك شحنة العمارة . وكانت الحكمة التي اخترعوها فيه أنه متى وطئت الفيلة جهةً منه ، وقعَ ذلك القصرُ وسقط .

ونزلَ السلطان بالقصر ، وأطعمَ الناس وتفرّقوا . واستأذنه ولده في أن يعرض الفيلة بين يديه ، وهي مزيّنة . فأذنَ له .

وحدثني الشيخُ ركنُ الدين أنه كان يومئذٍ مع السلطان . ومعهما ولدُ السلطان المؤثر لديه محمود . فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ : يا خوند ! هذا وقتُ العصر ، انزل فصلًا ! قال لي الشيخ : فترلت وأتيت بالأفيال من جهة واحدةٍ حسبما دبروه . فلما وطئتها سقطَ الكُشْكُ على السلطان وولده محمود . قال الشيخ : فسمعتُ الضجّةَ فعدتُ ولم أصل . فوجدتُ الكُشْكُ قد سقطَ ، فأمرَ ابنه أن يُؤتَى بالفؤوس والمساحي للحفر عنه . وأشار بالإبطاء . فلم يؤتَ بهما إلاّ وقد غربت الشمس . فحفروا ووجدوا السلطان قد حنا ظهره على ولده ليقيّه الموت . فزعمَ بعضهم أنه أخرجَ ميتاً . وزعمَ بعضهم أنه أخرجَ حيّاً فأجهزَ عليه . وحُمِلَ ليلاً إلى مقبرته التي بناها بخارج البلدة المسماة باسمه تُغلقُ اباد فدُفِنَ بها .

وقد ذكرنا السبب في بنائه لهذه المدينة . وبها كانت خزائن تُغلقُ وقصوره . وبها القصرُ الأعظم الذي جعل قراميدهُ مذهّبةً . فإذا طلعت الشمس كان لها

نورٌ عظيم وبصيصٌ يمنعُ البصرَ من إدامة النظر إليها ، واختزنَ بها الأموال الكثيرة .

ويذكرُ أنه بنى صهريجاً ، وأفرغَ فيه الذهب إ فراغاً ، فكان قطعةً واحدة ، فصرفتَ جميعَ ذلك ولده محمد شاه لما ولي ، وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان في بناء الكُشْك الذي سقطَ على تُغْلُق ، كانت حظوته عند ولده محمد شاه وإيثاره لديه . فلم يكن أحد يدانيه في المنزلة لديه ، ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم .

ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه

ولما مات السلطان تُغْلُق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه ، وقد قدّمنا أنه كان اسمه جُونه ، فلما ملك تسمّى بمحمد واكتفى بأبي المجاهد ؛ وكلّ ما ذكرتُ من شأن سلاطين الهند فهو ممّا أخبرت به وتلقيته ، أو معظمه ، من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة ؛ وأمّا أخبار هذا الملك فمعظمها ممّا شاهدته أيام كوني ببلاده .

ذكر وصفه

وهذا الملك أحبّ الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه عن فقير يتغنى أو حيّ يُقتل ، وقد شهّرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته في الفتك والبطش بذوي الجنايات ، وهو أشدّ الناس مع ذلك تواضعاً وأكثرهم إظهاراً للعدل والحقّ ، وشعائر الدين عنده محفوظة ، وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها ، وهو من الملوك الذين اطرّدت سعادتهم وخرّق المعتادَ يمنُ نقيبتهم ، ولكن الأغلب عليه الكرمُ ، وسنذكر من أخباره في عجائب لم يُسمع بمثلها عمّن تقدّمه ، وأنا أشهدُ بالله وملائكته ورسله أن

جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حقّ يقين وكفى بالله شهيداً .
واعلم أنّ بعض مآثره من ذلك لا يسع في عقل كثير من الناس ويعدّونه
من قبيل المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته وأخذتُ بحظّ
وافر منه ، لا يسعني إلاّ قول الحقّ فيه ، وأكثرُ ذلك ثابت بالتواتر في بلاد
المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك

ودارُ السلطان بدلهي تسمّى دارَ سرّى ، ولها أبوابٌ كثيرة ، فأما البابُ
الأوّل فعليه جملة من الرجال موكلون به ، ويقعدُ به أهلُ الأنفار والأبواق
والصرنايات ، فإذا جاء أميرٌ أو كبيرٌ ضربوها ، ويقولون في ضربهم : جاء
فلان ! جاء فلان ! وكذلك أيضاً في البابين الثاني والثالث . وبخارج الباب الأوّل
دكاكين يقعدُ عليها الجلاّدون وهم الذين يقتلون الناس ، فإنّ العادة عندهم أنّه
متى أمرَ السلطان بقتل أحدٍ قُتلَ على باب المِشور ، ويبقى هنالك ثلاثاً . وبينَ
البابين الأوّل والثاني دِهليزٌ كبيرٌ فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعدُ عليها أهلُ
التوبة من حفظِ الأبواب .

وأما الباب الثاني فيقعدُ عليه البوابون الموكلون به ، وبينه وبين الباب الثالث
دكّانة كبيرة يقعدُ عليها نقيبُ النقباء ، وبينَ يديه عمودٌ ذهبٌ يمسكه بيده ،
وعلى رأسه كلاهٌ من الذهب مجوهر في أعلاها ريش الطواويس ، والنقباء بين
يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهّبة ، وفي وسطه منطقة وبيده سوط
نِصابه من ذهب أو فضّة ، ويفضي هذا الباب الثاني إلى مِشورٍ كبير متّسع
يقعدُ به الناس .

وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعدُ فيها كتّاب الباب ، ومن عوائدهم
أن لا يدخل على هذا الباب أحدٌ إلاّ من عينه السلطان لذلك ، ويُعيّن لكلّ

١ الكلاه : غطاء للرأس .

إنسانٍ عددٌ من أصحابه وناسه يدخلون معه ، وكلّ من يأتي إلى هذا الباب يكتب الكتاب : ان فلاناً جاء في الساعة الأولى أو الثانية أو ما بعدهما من الساعات إلى آخر النهار ، ويطالعُ السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ، ويكتبون أيضاً بكلّ ما يحدث بالباب من الأمور . وقد عُيِّنَ من أبناء الملوك من يوصل كلّ ما يكتبونه إلى السلطان .

ومن عوائدهم أيضاً أنّه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيّام فصاعداً لعذر أو لغير عذر ، فلا يدخل هذا الباب بعدها إلّا بإذن من السلطان ، فإن كان له عذرٌ من مرض أو غيره قدّم بين يديه هديّة ممّا يناسب أن تُهدى إلى السلطان ، وكذلك أيضاً القادمون من الأسفار : فالفقيه يُهدي المُصحف والكتاب ، وشبهه الفقير يُهدي المصلى والسبحة والمسواك ونحوها ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيلَ والجِمالَ والسلاحَ . وهذا البابُ الثالث يُفضي إلى المشور الهائل الفسيح الساحة المسمّى هُزار اسطون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وهي سوارٍ من خشب مدهونة عليها سقفُ خشب منقوشة أبدعَ نقش يجلسُ الناسُ تحتها ، وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام .

ذكر ترتيب جلوسه للناس

وأكثر جلوسه بعد العصر وربّما جلس أوّلَ النهار ، وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة ، ويجعلُ خلفَ ظهره مِخدّةً كبيرة ، وعن يمينه مُتْكاً ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده كجلوس الإنسان للتشّهد في الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلّهم ، فإذا جلس وقفَ أمامه الوزيرُ ، ووقفَ الكتابُ خلفَ الوزير ، وخلفهم الحجاب ، وكبيرُ الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه ، وهو أدنى الحجاب من السلطان ، ثمّ يتلوه خاصّ حاجب ، ثمّ يتلوه نائبُ خاصّ حاجب ، ووكيلُ الدار ونائبه ، وشرفُ الحجاب ، وسيدُ الحجاب ، وجماعة تحت أيديهم ، ثمّ يتلو الحجاب النقباء ، وهم نحو مائة

وعند جلوس السلطان ينادي الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم : بسم الله .
ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة ، ويده المذبة يشرّد بها الدباب ،
ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ، ومثلهم عن يساره بأيديهم الدرق
والسيوف والقسي . ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ،
ويليه خطيب الخطباء ، ثم سائر القضاة . ثم كبار الفقهاء ، ثم كبار الشرفاء
والمشايع ، ثم إخوة السلطان وأصهاره ، ثم الأمراء الكبار . ثم كبار الأعزة ،
وهم الغرباء ، ثم القواد ، ثم يؤتى بستين فرساً مسرجة مسلّجة بمهازات
سلطانية ، فمنها ما هو بشعار الخلافة ، وهي التي لحُمها ودوائرُها من الحرير
الأسود المذهب ، ومنها ما يكون ذلك من الحرير الأبيض المذهب ، ولا يركب
بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال
بحيث يراها السلطان . ثم يؤتى بخمسين فيلاً مزينة بثياب الحرير والذهب .
مكسوة أنيابها بالحديد لإعداداً لقتل أهل الجرائم ، وعلى عنق كل فيل فياله .
ويده شبه الطبرزين^١ من الحديد يؤدّبه به ، ويقومه لِمَا يراد منه .

وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة وأكثر
من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه ، ويكون في أركان
ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة . وتلك الفيلة معلّمة أن تخدم السلطان
وتحط رؤوسها . فإذا خدمت قال الحجاب : بسم الله ، بأصوات عالية ،
ويوقف أيضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين ،
وكل من يأتي من الناس المعيّنين للوقوف في الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف
الحجاب ، ويقول الحجاب : بسم الله . ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع
صوت الذي يخدم . فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة
لا يتعدّاه أبداً .

ومن كان من كفّار الهنود يخدم ويقول له الحجاب والنقباء : هداك الله ،

١ الطبرزين : الفأس .

ويقفُ عبيدُ السلطان من وراء الناس كلَّهم بأيديهم التَّرسَّةُ والسيوفُ ، فلا يمكن الدخول بينهم إلاّ بين يدي الحجابّ القائمين بين يدي السلطان .

ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه

وإن كان بالباب أحدٌ ممّن قدّم على السلطان بهديّة دخلَ الحجابّ إلى السلطان على ترتيبهم يقدمهم أمير حاجب ، ونائبه خلفه ، ثمّ خاصّ حاجب ، ونائبه خلفه ، ثمّ وكيلُ الدار ، ونائبه خلفه ، ثمّ سيّدُ الحجابّ وشرفُ الحجابّ ويخدمون في ثلاثة مواضع ، ويُعلمون السلطان بمن في الباب . فإذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا الهدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها أمامَ الناس بحيث يراها السلطان ، ويُستدعى صاحبها فيخدمُ قبلَ الوصول إلى السلطان ثلاثَ مرّات ثمّ يخدم عند موقف الحجابّ ، فإن كان رجلاً كبيراً وقفَ في صفّ أمير حاجب ، وإلاّ وقفَ خلفه ، ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ، ويرحب به ، وإن كان ممّن يستحقّ التعظيم ، فإنّه يصافحه أو يعانقه ، ويطلب بعض هديته ، فتحضّرُ بين يديه ، فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبراً لخطر مُهديها وإيناساً له ورفقاً به ، وخلعَ عليه ، وأمرَ له بماء لغسل رأسه على عادتهم في ذلك بمقدار ما يستحقّه المهدي .

ذكر دخول هدايا عماله إليه

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابي البلاد صنعوا الأواني من الذهب والفضّة مثلَ الطّسوت والأباريق وسواها ، وصنعوا من الذهب والفضّة قطعاً شبه الآجر يسمّونها الحِشْت ، ويقفُ العراشون ، وهم عبيدُ السلطان ، صفّاً ، والهديةُ بأيديهم . كلّ واحدٍ منهم ممسكٌ قطعةً ، ثمّ يُقدّم الفيلةُ إن كان في الهدية شيء منها ، ثمّ الخيل المُسرّجة الملجمة ، ثمّ البغالُ ، ثمّ الجمالُ عليها الأموال .

ولقد رأيتُ الوزير خواجه جهان قدّمَ هديّته ذاتَ يومٍ حينَ قدّمَ السلطان من دولة آباد ، ولقيه بها في ظاهر مدينة بيانة ، فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب ، ورأيتُ في جملتها صينية مملوءة بأحجار الياقوت ، وصينية مملوءة بأحجار الزمرد ، وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر . وكان حاجي كاوان ابن عمّ السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضراً عنده حينَ ذلك فأعطاه حظّاً منها ، وسنذكرُ ذلك فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

ذكر خروجه للعديدن وما يتصل بذلك

وإذا كانت ليلةُ العيد بعثَ السلطان إلى الملوك والخواصّ وأرباب الدولة والأعزة والكتّاب والحجّاب والنقباء والقوّاد والعبيد وأهل الأخبار الخلعَ التي تَعْمَهُم جميعاً ، فإذا كانت صبيحةُ العيد زُيّنَت الفيلة كلّها بالحرير والذهب والجواهر ، ويكون منها ستة عشرَ فيلاً لا يركبُها أحدٌ إلّا ما هي مختصة بركوب السلطان ، ويرفع عليها ستة عشرَ شطراً (جترّاً) من الحرير مرصعة بالجواهر ، قائمة كلّ شطر منها ذهبٌ خالصٌ ، وعلى كلّ فيل مرتبةٌ حرير مرصعة بالجواهر ، ويركبُ السلطان فيلاً منها ، وتُرفعُ أمامه الغاشية ، وهي ستارة سرجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر ، ويمشي بينَ يديه عبيده ومماليكه ، وكلّ واحدٍ منهم تكون على رأسه شاشية ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وبعضهم يرصّعها بالجواهر ، ويمشي بينَ يديه أيضاً النقباء ، وهم نحو ثلاثمائة ، وعلى رأس كلّ واحدٍ منهم أقروفا ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وفي يده مَقرعةٌ نصابُها ذهب .

ويركبُ قاضي القضاة صدرُ الجهان كمالُ الدين الغزنوي ، وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي ، وسائرُ القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كلّ واحدٍ منهم على فيل ، وجميعُ الأقروفا : قبة مستطيلة مخروطة الشكل .

الغرباء عندهم يُسَمَّونَ الخراسانيّين ، ويركب المؤذنون أيضاً على الفيلة وهم يكبّرون ، ويخرجُ السلطان من باب القصر على هذا الترتيب ، والعساكرُ تنتظره كلّ أميرٍ بفوجا على حدة ، معه طبولُه وأعلامه ، فيقدم السلطانُ وأمامه من ذكرناه من المشاة ، وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى ، وخلف السلطان مراتبُه وهي الأعلام والطبولُ والأبواق والأنفار والصرنايات ، وخلفهم جميعُ أهل دِحْلَتِه ، ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه ابنُ أخي السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه ابنُ عمّه مَلَك فيروز بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه الوزير بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه الملك مجير بن ذي الرجا بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه الملك الكبير قُبُولَة بمراتبه وعساكره .

وهذا الملك كبيرُ القدر عنده ، عظيمُ الجاه كثيرُ المال . أخبرني صاحبُ ديوانه ثقة الملك علاء الدين علي المصري المعروف بابن الشرايشي أن نفقته ونفقة عبيده ومرتبّاتهم ستّة وثلاثون لكَاً في السنة . ثمّ يليه الملك نُكْبِيَة بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه الملك بغرةُ بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه الملك مُخْلِص بمراتبه وعساكره ، ثمّ يليه الملك قُطَب الملك بمراتبه وعساكره ، وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ، ويركب غيرُهم من الأمراء دون مراتب .

وجميعُ من يركب في ذلك اليوم يكون مدرّعا هو وفروسه ، وأكثرُ مماليك السلطان ، فإذا وصلَ السلطان إلى باب المصلّى وقفَ على بابه ، وأمرَ بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزّة ، ثم نزلَ السلطان ويصلّي الإمام ويخطب ، فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بحمل فنحره برُمح يُسمّونه النّيّزة ، بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقياً من الدم ، ثمّ يركب الفيل ويعودُ إلى قصره .

ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى

ويُفَرَّشُ القصرُ يومَ العيد ويُزَيَّنُ بأبدع الزينة وتُضْرَبُ البارقةُ على المِشْوَرِ كله . وهي شبهُ خيمةٍ عظيمةٍ ، تقومُ على أعمدةٍ ضخامٍ كثيرةٍ ، وتحفُّها القبابُ من كلِّ ناحيةٍ ، ويُصنَعُ شبهُ أشجارٍ من حريرٍ ملوّنٍ ، فيها شبهُ الأزهار . ويجعلُ منها ثلاثةُ صفوفٍ بالمشور ، ويجعلُ بين كلِّ شجرتين كرسيَّ ذهبٍ ، عليه مرتبةٌ مغطاةٌ ، ويُنصبُ السريرُ الأعظمُ في صدرِ المشور ، وهو من الذهبِ الخالصِ ، كله مرصعُ القوائمِ بالجوهر ، وطولُه ثلاثةٌ وعشرون شبراً ، وعرضُه نحوُ النصفِ من ذلك ، وهو منفصلٌ ، وتجمعُ قطعُه فتتصلُ ، وكلُّ قطعةٍ منها يحملُها جملةُ رجالٍ لثقلِ الذهبِ . وتجعلُ فوقَ المرتبةِ ، ويرفعُ الشطرَ المرصعُ بالجواهر على رأسِ السلطان .

وعندما يصعد على السرير ينادي الحجاب والنقباء بأصواتٍ عاليةٍ : بسم الله . ثمَّ يتقدّم الناسُ للسلام ، فأولُّهم القضاةُ والخطباءُ والعلماءُ والشرفاءُ والمشايخُ وإخوةُ السلطان وأقاربه وأصهاره ، ثمَّ الأعزّةُ ، ثمَّ الوزير ، ثمَّ أمراءُ العساكر ، ثمَّ شيوخُ الممالك . ثمَّ كبارُ الأجناد ، يُسلمُ واحدٌ إثرَ واحدٍ من غيرِ تراحمٍ ولا تدافعٍ .

ومن عوائدهم في يوم العيد أن كلَّ من بيده قريةٌ مُنعمٌ بها عليه يأتي بدنانير ذهبٍ مصرورةٍ في خرقةٍ مكتوبٍ عليها اسمه . فيلقِيها في طستٍ ذهبٍ هنالك . فيجتمعُ منها مالٌ عظيمٌ يُعطيهِ السلطان لمن شاء .

فإذا فرغَ الناسُ من السلامِ وُضِعَ لهم الطعامُ على حسبِ مراتبهم ، ويُنصبُ في ذلك اليومِ المبخرةُ العظمى ، وهي شبهُ برجٍ من خالصِ الذهبِ ، منفصلةٌ . فإذا أرادوا اتصافها وصلوها ، وتحملُ القطعةُ الواحدةُ منها جملةً من الرجال . وفي داخلها ثلاثةُ بيوتٍ يدخلُ فيها المبخرون بوقودِ العودِ القماري والقافلي

والعنبر الأشهب والجواوي حتى يعمّ دخانها المشور كله .

ويكون بأيدي الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبّونه على الناس صبّاً ، وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلاّ في العيدين خاصّة . ويجلسُ السلطان في بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك ، وتُنصّبُ باركةٌ بعيدةٌ لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان في داخلها ، ويقف على الباب الأول منها عمادُ الملك سرتيز ، وعلى الباب الثاني الملك نُكّبيّة ، وعلى الباب الثالث يوسفُ بَغرة ، ويقفُ على اليمين أمراء الممالك السَلَحداريّة ، وعن اليسار كذلك ، ويقفُ الناسُ على مراتبهم ، وشحنةُ الباركة ملك طغى بيده عصا ذهب ، ويبد نائبه عصا فضة ، يرتبان الناس ويسويان الصفوف ، ويقف الوزيرُ والكتاب خلفه ، ويقفُ الحجابُ والنقباء ، ثمّ يأتي أهلُ الطرب ، فأولهم بنات الملوك الكفّار من الهنود المسيّيات في تلك السنة ، فيغنيّن ويرقصن ويهههنّ السلطان للأمراء والأعزة ثمّ يأتي بعدهن سائر بنات الكفّار ، فيغنيّن ويرقصن ويهههن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك .

ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ، ثمّ يجلس في اليوم الذي بعده بعد العصر أيضاً ، على ذلك الترتيب ، ويؤتى بالمغنيّات فيغنيّن ويرقصن ويهههن لأمراء الممالك . وفي اليوم الثالث يزوّج أقاربه ويُنعّم عليهم . وفي اليوم الرابع يُعتيقُ العبيد . وفي اليوم الخامس يُعتيقُ الجوّاري . وفي اليوم السادس يُزوّج العبيد بالجوّاري . وفي اليوم السابع يُعطي الصدقات ويُكثّرُ منها .

ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره

وإذا قدم السلطان من أسفاره زُيِّنت الفيّلة . ورُفعت على ستة عشر فيلاً منها ستة عشر شطراً . منها مزركش . ومنها مرصع . وحُمِلت أمامه الغاشيةُ ، وهي الستارة المرصّعة بالجوهر النفيس . وتُصنّعُ قِباب الخشب مقسومة على طبقات . وتُكسى بثياب الحرير . ويكون في كلّ طبقة الجوّاري المغنيّات

عليهنّ أجملُ لباس وأحسنُ حليّة ، ومنهنّ رواقصٌ ، ويحصلُ في وسط كلّ قبة حوضٌ كبيرٌ مصنوعٌ من الجلود مملوء بماء الجلاب محلولاً بالماء ، يشربُ منه جميعُ الناس من وارد وصادر وبلدي أو غريب ، وكلّ من يشربُ منه يُعطى التنبول والفوفل .

ويكون ما بين القباب مفروشاً بشباب الحرير يطأ عليها مركبُ السلطان وتزيّن حيطانُ الشارع الذي يمرّ به من باب المدينة إلى باب القصر بشباب الحرير ، ويمشي أمامه المشاةُ من عبيده ، وهم آلاف ، وتكونُ الأفواجُ والعساكرُ خلفه . ورأيتُهُ في بعض قدّماته على الحضرة ، وقد نصبت ثلاثاً أو أربعاً من الرّعادات الصغار على الفيّلة ترمي بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتّى وصل إلى قصره .

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صنفين : الطعام الخاصّ والطعام العام ، فأما الخاص فهو طعامُ السلطان الذي يأكلُ منه ، وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين ، ويحضر لذلك الأمراء والخوَصّ وأميرُ حاجب ابن عمّ السلطان ، وعماد الملك سرتيز ، وأمير مجلس . ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعيّة أو كبار الأمراء دعاه فأكلَ معهم . وربّما أراد أيضاً تشريف أحد من الحاضرين ، فأخذ إحدى الصّحاف بيده ، وجعل عليها خبزة ، ويعطيه إيّاها ، فيأخذها المُعطى ويجعلها على كفه اليسرى ، ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض . وربّما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس ، فيخدم كما يصنعُ الحاضرُ ، ويأكله مع من حضره .

وقد حضرتُ مرّاتٍ لهذا الطعام الخاصّ فرأيتُ جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلاً .

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعامُ العامُ فيؤتَى به من المطبخ ، وأمامه النقباء يصيحون : بسم الله ، ونقيبُ النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ، ونائبه معه ، بيده عمود فضة ، فإذا دخلوا من الباب الرابع وسمعَ من المشور أصواتهم قاموا قياماً أجمعين ، ولا يبقى أحدٌ قاعداً إلاّ السلطان وحده ، فإذا وُضعَ الطعامُ بالأرض اصطفت النقباء صفّاً ، ووقفَ أميرهم أمامهم . وتكلّم بكلام يمدحُ فيه السلطان ويثني عليه ، ثمّ يخدمُ ويخدمُ النقباء لخدمته ويخدمُ جميعُ من بالمشور من كبير وصغير .

وعادتهم أنّه من سمع كلام نقيب النقباء حينَ ذلك وقفَ إن كان ماشياً ولزم موقفه إن كان واقفاً ، ولا يتحرك أحدٌ ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ، ثمّ يتكلّم أيضاً نائبه كلاماً نحو ذلك ، ويخدمُ ويخدمُ النقباء وجميع الناس مرّةً ثانية ، وحينئذٍ يجلسون ، ويكتبُ كتاب الباب معرّفين بحضور الطعام ، وإن كان السلطان قد علم بحضوره ، ويُعطى المكتوب لصيٍّ من أبناء الملوك موكلٌ بذلك . فيأتي به إلى السلطان فإذا قرأه عيّنَ من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس وإطعامهم .

وطعامهم الرقاقُ والشواء والأقراصُ ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاجُ والسّمك ، وقد ذكرنا ذلك وفسّرنا ترتيبهم .

وعادتهم أن يكون في صدر سباط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ، ثمّ أقارب السلطان ، ثمّ الأمراء الكبار ، ثمّ سائر الناس ، ولا يقعدُ أحدٌ إلاّ في موضع معيّن له ، فلا يكون بينهم تراحم البتّة ؛ فإذا جلسوا أتى الشريدارية ، وهم السقاة ، بأيديهم أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءةً بالنبات المحلول بالماء ، فيشربون ذلك قبل الطعام ، فإذا شربوا قال الحجاب : بسم الله ، ثمّ يشرعون في الأكل . ويُجعلُ أمام كلِّ إنسان من جميع ما يحتوي عليه السباط ، يأكلُ منه وحده ، ولا يأكلُ أحدٌ مع أحدٍ في

صحفة واحدة ، فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقّاع في أكوار القصدير ، فإذا أخذوه قال الحجاب : بسم الله ، ثمّ يؤتى بأطباق التنبول والفوفل فيُعطى كلّ إنسان غرفةً من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعةً مربوطة بخيط حرير أحمر ، فإذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب : بسم الله ، فيقومون جميعاً ، ويُخدمُ الأميرُ المعينُ للإطعام ، ويخدمون لخدمته ، ثمّ ينصرفون. وطعامهم مرتّان في اليوم لإحداهما قبل الظهر والأخرى بعد العصر .

ذكر بعض أخباره في الجود والكرم

وإنّما أذكرُ منها ما حضرته وشاهدته وعينته ، ويعلمُ اللهُ تعالى صدقَ ما أقولُ وكفى به شهيداً ، مع أن الذي أحكيه مستفيضٌ متواتر ، والبلادُ التي تقربُ من أرض الهند كاليمين وخراسان وفارس مملوءةٌ بأخباره يعلمونها حقيقةً . ولا سيّما جوده على الغرباء ، فإنّه يفضلّهم على أهل الهند ، ويؤثّرهم ويُجزل لهم الإحسان ، ويُسبغُ عليهم الإنعام ، ويوليهم الخطط الرفيعة . ويوليهم المواهب العظيمة ، ومن إحسانه إليهم أن سمّاهم الأعزّة . ومنع من أن يدعوا الغرباء ، وقال : إنّ الإنسان إذا دُعي غريباً انكسرَ خاطره وتغيّرَ حاله . وسأذكرُ بعضاً ممّا لا يُحصى من عطايه الجزيلة ومواهبه . إن شاء الله تعالى .

ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني التاجر وحكايته

كان شهاب الدين هذا صديقاً لملك التجار الكازروني الملقّب ببروز ، وكان السلطان قد أقطعَ ملك التجار مدينة كنباية ، ووعده أن يوليّه الوزارة ، فبعث إلى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه ، فأثاه وأعدّ هديّة للسلطان ، وهي سراجة من الملفّ المقطوع المزين بورقة الذهب ، وصيوان ممّا يناسبها ، وخباء ، وتابع ، وخباء راحة ، كلّ ذلك من الملفّ المزين ، وبغال كثيرة . فلمّا قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجار وجده آخذاً في القدوم على

الحضرة بما اجتمع عنده من يحايي^١ بلاده وهدية للسلطان .

وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة ، فغار من ذلك وقلق بسببه ، وكانت بلاد كنباسة والجزرات قبل تلك المدّة في ولاية الوزير ، ولأهلها تعلّق بجانبه وانقطاع إليه . وتخدم له ، وأكثرهم كفّار ، وبعضهم عصاة^٢ يمتنعون بالجبال ، فدرس^٣ الوزير إليهم أن يضربوا^٤ على ملك التجار إذا خرج إلى الحضرة . فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوماً عند الضحى على عادتهم . وتفرقت العساكر ونام أكثرهم ، فصرّب عليهم الكفّار في جمع عظيم ، فقتلوا ملك التجار ، وسلبوا الأموال والخزائن ، وهدية شهاب الدين ، ونجا هو بنفسه ، وكتب المخبرون إلى السلطان بذلك فأمر أن يعطى شهاب الدين من مسجى بلاد هروالة ثلاثين ألف دينار ويعود إلى بلاده ، فعرض عليه ذلك فأبى قبوله . وقال : ما قصدي إلا^٥ رؤية السلطان وتقبيل^٦ الأرض بين يديه ، فكتبوا إلى السلطان بذلك فأعجبه قوله وأمر بوصوله إلى الحضرة مكرماً .

وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه ، فخلع علينا جميعاً وأمر بإنزالنا وأعطى شهاب الدين عطاء جزلاً ، فلما كان بعد ذلك أمر لي السلطان بستّة آلاف تنكة كما سنذكره ، وسأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو ، فقال له بهاء الدين ابن الفلكي : يا خوند عالم نميدائهم . معناه ما ندرى ، ثم قال : شنيدم زحمت دارد (دار) معناه سمعت أن به مرضاً . فقال له السلطان : بروهمين زمان در خزانه يك لك تنكة زربكري أوييش أوييري تادل أوخش (خوش) شود . معناه امش الساعة إلى الخزانه وخذ منها مائة ألف تنكة من الذهب واحملها إليه حتى يبقى خاطره طيباً ، ففعل ذلك ، فأعطاه إيّاها . وأمر السلطان أن يشتري بها ما أحب من السلع الهندية ، ولا يشتري أحد من الناس

١ يحايي : هكذا في الأصل ولعل المراد بها ضرب من التحف .

٢ يضربوا عليهم : يغيروا عليهم ، يتقفسوا عليهم .

شيئاً حتى يتجهّز هو ، وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها ، فسافر ونزل بجزيرة هرمز ، وبني بها داراً عظيمة رأيتها بعد ذلك .

ورأيتُ أيضاً شهاب الدين وقد فني جميع ما كان عنده ، وهو بشيراز يستجدي سلطانها أبا إسحاق ، وهكذا مالُ هذه البلاد الهندية قلماً يخرج أحدٌ به منها إلاّ النادر ، وإذا خرجَ به ووصلَ إلى غيرها من البلاد بعثَ الله عليه آفةً تُفني ما بيده كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا ، فإنه أخذ له في الفتنة التي كانت بينَ ملك هرمز وابني أخيه جميعاً ما عنده وخرجَ سليباً من ماله .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قد بعثَ هديةً إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس ، وطلبَ منه أن يبعثَ له أمرَ التقديم على بلاد الهند والسند اعتقاداً منه في الخلافة ، فبعثَ إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين ، فلما قدمَ عليه بالغَ في إكرامه وأعطاه عطاء جزلاً ، وكان يقومُ له متى دخلَ عليه ، ويعظّمه . ثمَّ صرفه وأعطاه أموالاً طائلة .

وفي جملة ما أعطاه جملةً من صفائح الخيل ، ومساميرها ، كلَّ ذلك من الذهب الخالص ، وقال له : إذا نزلت من البحر فأنعل أفراسك بها ، فتوجهَ إلى كنباية ليركبَ البحرَ منها إلى بلاد اليمن . ف وقعت قضية خروج القاضي جلال الدين . وأخذَه مال ابن الكولي ، فأخذَ أيضاً ما كان لشيخ الشيوخ ، وفرَّ بنفسه مع ابن الكولي إلى السلطان ، فلما رآه السلطان قال له ممازحاً : امدى كزر (كه زر) برى بادكري (دلرباي) صنم خرى زر نيرى وسر نهي ، معناه جئتَ لتحملَ الذهبَ تأكله مع الصور الحسنان ، فلا تحملَ ذهباً ، ورأسك تخليه هاهنا . قال له ذلك على معنى الانبساط ، ثمَّ قال له : اجمع خاطرك فها أنا سائر إلى المخالفين ، وأعطيك أضعاف ما أخذوه لك .

وبلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وفي له بما وعده ، وأخلف له جميع ما ضاع منه ، وأنه وصل بذلك إلى ديار مصر .

ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان وأقام تحت إحصانه مدة عام ، ثم أحب الرجوع إلى وطنه ، فأذن له في ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظته ، فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر أحب سماعه قبل انصرافه ، فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الأبيض المقاصري . وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب ، وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم ، وخلع على ناصر الدين خلعة عبّاسية سوداء مذهبة ، مرصعة بالجوهر ، وعمامة مثلها .

ونصب له المنبر بداخل السراجة ، وهي افراج ، وقعد السلطان على سريره والخواص عن يمينه ويساره ، وأخذ القضاة والفقهاء والأمرء مجالسهم ، فخطب خطبة بليغة ، ووعظ وذكر ، ولم يكن فيما فعله طائلاً لكن سعادته ساعدته ، فلما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل ، وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه ، وكنت في جمالتهم ، إلى سراجة ضربت له مقابلة سراجة السلطان ، جميعها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخبائرها أيضاً كذلك ، فجلس وجلسنا معه .

وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطاه السلطان إياها ، وذلك تنوير كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد ، وقدران اثنتان ، وصحاف لا أذكر عددها ، وجملة أكواز ، وركوة وتميسندة ، ومائدة لها أربع أرجل ، ومحمل للكتب ، كل ذلك من ذهب خالص ، ورفع عماد الدين السمنائي وتدين من أوتاد السراجة أحدهما نحاس والآخر مقصدر يوهم بذلك أنهما من ذهب وفضة ، ولم يكونا إلا كما ذكرنا ، وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ، ومئين من العبيد سرح بعضهم وحمل بعضهم .

ذكر عطائه لعبد العزيز الاردولي

وكان عبد العزيز هذا فقيهاً محدثاً قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية وبرهان الدين بن البركح وجمال الدين المزني وشمس الدين الذهبي وغيرهم ، ثم قدم على السلطان فأحسنَ إليه وأكرمه .

واتَّفَقَ يوماً أنه سرّد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه ، رضي الله عنهما ، وشيئاً من مآثر الخلفاء أولادهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس ، وقبل قدمي الفقيه ، وأمر أن يُؤتَى بصينية ذهب فيها ألفا تنكة ، فصبّها عليه بيده ، وقال : هي لك مع الصينية . وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدّم .

ذكر عطائه لشمس الدين الاندكاني

وكان الفقيه شمس الدين الاندكاني حكيماً شاعراً مطبوعاً ، فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي ، وكان عددُ أبياتها سبعةً وعشرين بيتاً فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم ، وهذا أعظم ممّا يُحكى عن المتقدّمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم ، وهو عشرُ عطاء السلطان .

ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري

وكان عضد الدين فقيهاً إماماً فاضلاً . كبير القدر ، عظيم الصيت ، شهير الذكر ببلاده . فبلغت السلطان أخباره ، وسمع بمآثره . فبعثَ إليه إلى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يرَ قطّ . ولا وفد عليه .

ذكر عطائه للقاضي مجد الدين

ولمّا بلغه أيضاً خبرُ القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضي شيراز الذي سطرنا أخباره في السفر الأوّل ، وسيمرّ بعض خبره بعد هذا أيضاً ، بعثَ إليه إلى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقي عشرة آلاف دينار دراهم .

ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجي

وكان برهان الدين أحد الوعّاظ الأئمة كثير الإيثار باذلاً لما يملكه حتى إنّه كثيراً ما يأخذ الديون ويؤثر على الناس ، فبلغ خبره إلى السلطان فبعث إليه أربعين ألف دينار ، وطلب منه أن يصل إلى حضرته ، فقبل الدنانير وقضى دينه منها ، وتوجّه إلى بلاد الخطا وأبى أن يصل إليه ، وقال : لا أمضي إلى سلطان يقف العلماء بين يديه .

ذكر عطائه لحاجي كاوان وحكايته

وكان حاجي كاوان ابن عمّ السلطان أبي سعيد ملك العراق ، وكان أخوه موسى ملكاً ببعض بلاد العراق ، فوفد حاجي كاوان على السلطان ، فأكرم مشواه ، وأعطاه العطاء الجزل .

ورأيت يوماً وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته ، وكان منها ثلاث صينيات إحداها مملوءة يواقيت ، والأخرى مملوءة زهر دأ ، والأخرى مملوءة جواهر ، وكان حاجي كاوان حاضراً فأعطاه من ذلك حظاً جزيلاً ، ثمّ إنّه أعطاه أيضاً مالاً عريضاً ، ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفي وولي مكانه سليمان خان ، فطلب إرث أخيه وادّعى الملك وبايعه العسكر ، وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شونكاره التي بها الإمام عضد الدين الذي تقدّم ذكره آنفاً ، فلمّا نزل بخارجها تأخّر شيوخها عن الخروج إليه ساعة ، ثمّ خرجوا فقال لهم : ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا ؟ فاعتذروا له فلم يقبل منهم ، وقال لأهل سلاحه : قلنج تجار (جقار) ، معناه جردوا السيوف ، فجردوها وضربوا أعناقهم ، وكانوا جماعة كبيرة . فسمع من يجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله فغضبوا لذلك ، وكتبوا إلى شمس الدين السمناني ، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار ، فأعلموه بما جرى على أهل شونكاره ، وطلبوا منه الإعانة على قتاله ،

فتجرّد في عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بثأر من قتله حاجي كاوان من المشايخ ، وضربوا على عسكره ليلاً ، فهزموه ، وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به فاختموا في بيت الطهارة فعثروا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به إلى سليمان خان ، وفرّقوا أعضائه على البلاد تشقياً منه .

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه واخباره

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيين ، ملك ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قشّم بن العباس ، رضي الله عنهما ، واستوطن بها أعواماً . ثمّ لما سمع بمحبّة السلطان في بني العباس وقيامه بدعوتهم أحبّ القدوم عليه ، وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرقي الحرباوي ، والثاني محمد الهمداني الصوفي ، فقدما على السلطان ، وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره قد لقي غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحّة نسبه ، فشهد هو عند السلطان بذلك ، فلما وصل رسولاه إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ليتزوّد بها إليه ، وكتب له خطاباً بخطّ يده يعظّمه فيه ، ويسأل منه القدوم عليه .

فلما وصله الكتاب رحل إليه ، فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه بعث السلطان من يستقبله على العادة ، ثمّ لما وصل إلى سرستي بعث أيضاً لاستقباله صدرّ الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوي وجماعة من الفقهاء ، ثمّ بعث الأمراء لاستقباله ، فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله ، فلما التقيا ترجّل غياث الدين فترجّل له السلطان ، وخدم فخدم له السلطان ، وكان قد استصحب هديّة في جملتها ثياب ، فأخذ السلطان أحد الثواب وجعلته على كتفه ، وخدم كما يفعل الناس معه ، ثمّ

قدمت الخيل فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له ، وحلف أن يركب ، وأمسك
بركابه حتى ركب ، ثم ركب السلطان وسائره والشطر يُظِلُّهما معاً ، وأخذ
التنبول بيده وأعطاه إياه ، وهذا أعظم ما أكرمه به فإنه لا يفعله مع أحد ،
وقال له : لولا أني بايعتُ الخليفة أبا العباس لباعثك .

فقال له غياث الدين : وأنا أيضاً على تلك البيعة ، وقال له غياث الدين :
قال رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم تسليمٌ : من أحيا أرضاً مواتاً فهي له ،
وأنتَ أحييتنا . فجاوبه السلطان بالطف جواب وأبره .

ولما وصلا إلى السراجة المعدة لتزول السلطان أنزله فيها وضربَ للسلطان
غيرُها ، وباتا في تلك الليلة بخارج الحضرة ، فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك
وأنزله بالمدينة المعروفة بسيري وبادار الخلافة أيضاً ، في القصر الذي بناه علاء
الدين الخلجي وابنه قطبُ الدين ، وأمرَ السلطان جميعَ الأمراء أن يمضوا معه
إليه . وأعدَّ له فيه جميعَ ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة ، حتى كان
من جملتها مُغتَسَل يغتسل فيه من ذهب ، وبعثَ له أربعمئة ألف دينار لغسل
رأسه على العادة ، وبعثَ له جملةً من الفتيان والخدم والحواري ، وعينَ له عن
نفقته في كلِّ يوم ثلاثمئة دينار وبعثَ له زيادة عليها عدداً من الموائد بالطعام
الخاص . وأعطاه جميعَ مدينة سيري إقطاعاً وجميعَ ما احتوت عليه من الدور
وما يتصلُ بها من بساتين المخزن وأرضه ، وأعطاه مائة قرية ، وأعطاه حكم
البلاد الشرقية المضافة لدهلي ، وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون
علفها من المخزن ، وأمره أن لا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا في
موضع خاص لا يدخله أحدٌ ركباً سوى السلطان ، وأمرَ الناسَ جميعاً من كبير
وصغير أن يخدموا له كما يخدمون للسلطان .

وإذا دخلَ على السلطان ينزل له عن سريريه ، وإن كان على الكرسي قام
قائماً ، وخدمَ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه ، ويجلس مع السلطان على بساط واحد ،
وإذا قامَ قامَ السلطان لقيامه وخدمَ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه ، وإذا انصرفَ

إلى خارج المجلس جعل له بساطاً يقعد عليه ما شاء ، ثمّ ينصرف ؛ يفعل هذا مرتين في اليوم .

حكاية من تعظيمه إياه

وفي أثناء مقامه بدھلي قدم الوزير من بلاد بنجاله فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا إلى استقباله ، ثمّ خرج بنفسه إلى استقباله وعظّمه تعظيماً كثيراً ، وصُنعت القباب بالمدينة كما تُصنع للسلطان إذا قدم ، وخرج ابن الخليفة للقائه أيضاً والفقهاء والقضاة والأعيان . فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير : امض إلى دار المخدم زاده ، وبذلك يدعوه ، ومعنى ذلك ابن المخدم ، فسار الوزير إليه وأهدى له ألفي تنكة من الذهب وأثواباً كثيرة ، وحضر الأمير قبولة وغيره من كبار الأمراء وحضرت أنا كذلك .

حكاية نحوها عن لطف السلطان وكرمه

وفد على السلطان ملك غزنة المسمّى ببهرام ، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة ، فأمر السلطان بإنزاله ببعض دور مدينة سيري التي لابن الخليفة ، وأمر أن يُبنى له بها دار ، فبلغ ذلك ابن الخليفة ، فغضب منه ، ومضى إلى دار السلطان ، فجلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه ، وبعث إلى الوزير فقال له : سلّم على خوند عالم ، وقل له إنّ جميع ما أعطانيه هو بمنزلي لم أنصرف في شيء منه بل زاد عندي وإنّما أنا لا أقيم معكم . وقام وانصرف . فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا ، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة في مدينة سيري ، فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك ، فركب من حينه في عشرة من ناسه ، وأتى منزل ابن الخليفة ، فاستأذن له ، ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس ، فلقاه واعتذر له فقبل عذره . وقال له السلطان : والله ما أعلم أنّك راضٍ عني حتى تضع قدمك على عنقي . فقال

له : هذا ما لا أفعله ولو قتلت . فقال له السلطان : وحقّ رأسي لا يبدّ لك من ذلك . ثمّ وضع رأسه في الأرض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعها على عنق السلطان ، ثمّ قام وقال : الآن علمت أنّك راضٍ عني وطاب قلبي .

وهذه حكاية غريبة لم يُسمع بمثلها عن ملك . ولقد حضرته يوم عيد ، وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان مفرّجة قد جعل مكان عُقَد الحرير التي تعلق بها حباتُ جوهرٍ قدرَ البندق الكبير ، وقام الملك الكبير ببابه حتى نزل من قصره ، فكساه إياها ، والذي أعطاه هو ما لا يحصره العدد ولا يحيطُ به الحدّ . وابنُ الخليفة مع ذلك كلّهُ أبخلُ خلق الله تعالى ، وله في البخل أخبارٌ عجيبة يعجبُ منها سامعها . وكأنّه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم ، ولندكر بعض أخباره في ذلك .

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت بيني وبينه مودة ، وكنتُ كثيرَ التردّد إلى منزله ، وعنده تركتُ ولدًا لي سمّيته أحمد لما سافرت ، ولا أدري ما فعلَ الله بهما . فقلتُ له يوماً : لِمَ تأكل وحدك ولا تجمعُ أصحابك على الطعام ؟ فقال لي : لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامي . فكان يأكلُ وحده ، ويُعطي صاحبه محمد بن أبي الشرفي من الطعام لمن أحبّ ويتصرّف في باقيه .

وكنتُ أتردّدُ إليه فأرى دَهِليز قصره الذي يسكن به مظلمًا لا سراجَ به ، ورأيتُهُ مراراً يجمعُ الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه ، وقد ملأ منها مخازن ، فكلمته في ذلك ، فقال لي : يحتاجُ إليها .

وكان يُخذّمُ أصحابه ومماليكه وفتيانَه في خدمة البستان وبنائه ، ويقول : لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون .

وكان عليّ مرّةً دينٌ فطلّبتُ به ، فقال لي في بعض الأيام : والله لقد هممتُ أن أودّي عنك دينك فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه .

حكاية عن شحه

حدّثني مرّةً قال : خرجتُ عن بغداد ، وأنا رابعُ أربعة ، أحدهم محمد ابن أبي الشرفي صاحبه ، ونحنُ على أقدامنا ولا زاد عندنا ، فنزلنا على عين ماء ببعض القرى ، فوجدنا أحدنا في العين درهماً ، فقلنا : وما نصنعُ بدرهم ؟ فاتّفقنا على أن نشترى به خبزاً ، فبعثنا أحدنا لشرائه ، فأبى الحبّازُ بتلك القرية أن يبيعَ الخبزَ وحده ، ولأنما يبيعُ خبزاً بغيرِراط وتيناً بغيرِراط ، فاشترى منه الخبزَ والتينَ ، فطرحنا التينَ إذ لا دابةً لنا تأكله ، وقسمنا الخبزَ لُقمةً ، وقد انتهى حالي اليوم إلى ما تراه .

فقلتُ له : ينبغي لك أن تحمدَ الله على ما أولاك وتؤثّرَ الفقراء والمساكين بالتصدق

فقال : لا أستطيعُ ذلك . ولم أره قطّ يجود بشيء ولا يفعلُ معروفاً ، ونعوذ بالله من الشحّ .

حكاية بخله على ابنه

كنتُ يوماً ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند ، وأنا قاعدٌ على باب المدرسة المستنصرية التي بناها جدّه أمير المؤمنين المستنصر ، رضي الله عنه ، فرأيتُ شاباً ضعيفَ الحال يشدّ خلفَ رجل خارج عن المدرسة ، فقال لي بعض الطلبة : هذا الشاب الذي تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند . فدعوته فقلت له : إني قدمتُ من بلاد الهند وإني أعرفُكَ بخبر أبيك .

فقال : قد جاءني خبره في هذه الأيام ، ومضى يشدّ خلفَ الرجل ،

فسألتُ عن الرجل فقيلَ لي : هو النَّاظِرُ في الحبس ، وهذا الشاب هو إمام ببعض المساجد ، وله على ذلك أجرة درهم واحد في اليوم ، وهو يطلب أجرته من الرجل . فطالَ عجبِي منه ، والله لو بعثَ إليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة إليه من السلطان لأغناه بها ، ونعوذ بالله من مثل هذه الحال .

ذكر ما أعطاه السلطان للأمير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام

ولما قدمَ هذا الأمير على السلطان أكرَمَ مثواه وأنزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلي ، ويعرف بكشك ، لعلَّ معناه القصر الأحمر ، وهو قصرٌ عظيم فيه مشور كبير جداً ودهليز هائل ، على بابه قبةٌ تشرف على هذا المشور ، وعلى المشور الثاني الذي يدخلُ منه إلى القصر ، وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتُلعبُ الكرة بين يديه في هذا المشور ، وقد دخلتُ هذا القصر عند نزوله به فرأيتُه مملوءاً أثاثاً وفرشاً وبسطاً وغيرها ، وذلك كله متمزق لا منتفع فيه ، فإنَّ عاداتهم بالهند أن يتركوا قصرَ السلطان ، إذا مات ، بجميع ما فيه لا يتعرَّضون له ويبنِّي المتولِّي بعده قصرًا لنفسه .

ولما دخلتُه طفتُ به وصعدتُ إلى أعلاه فكانت لي فيه عبرةٌ نشأت عنها عبرةٌ ، وكان معي الفقيه الطيّب الأديب جمال الدين المغربي الغرناطي البسجائي المولد مستوطن بلاد الهند ، قدمها مع أبيه وله بها أولاد ، فأنشدني عندما عايناه :

وَسَلَاطِينُهُمْ سَلَّ الطَّيْنَ عَنْهُمْ ، فَالرَّؤُوسُ الْعِظَامُ صَارَتْ عِظَامَا

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما نذكره ، وكان السلطان شديد المحبة في العرب مؤثراً لهم معترفاً بفضائلهم ، فلما وصله هذا الأمير أجزَلَ له العطاء وأحسنَ إليه إحساناً عظيماً ، وأعطاه مرة ، وقد قدمت عليه هديةً أعظم ملك الباييزيدي من بلاد منكبور ، أحد عشر فرساً من عتاق الخيل ، وأعطاه مرةً أخرى

عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة ، عليها اللجُم المذهبة ، ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خوند .

ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا عيّن للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله المعروف بشونويس ، وعيّنني ملازمة الأمير غدا والكون معه في تلك الأيام ، فأتى الملك فتح الله بالصيوانات ، فظلل بها المشوَرين في القصر الأحمر المذكور . وضرب في كل واحد منهما قبة ضخمة جداً ، وفرش ذلك بالفرش الحسان ، وأتى شمس الدين التبريزي أمير المطربين ، ومعه الرجال المغنون والنساء الغنيات والرواقص ، وكلهن ممالك السلطان ، وأحضر الأطباء والخبازين والشوّاين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران ، وذبحت الأنعام والطيور ، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ، ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلاً ونهاراً .

فلما كان قبل ليلة الزفاف بليّستين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر فزيّنه وفرّشّنه بأحسن الفرش ، واستُحضر الأمير سيف الدين ، وكان عربياً غريباً لا قرابة له ، فحفّفن به وأجلسنه على مرتبة معيّنة له ، وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيّته أمّ أخيه مبارك خان مقام أمّ الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته ، وأخرى مقام خالته ، حتى يكون كأته بين أهله .

ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن ، وانصرفن إلى قصر الزفاف ، وأقام هو مع خواص أصحابه ، وعيّن السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته ، وجماعة يكونون من جهة الزوجة . وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على

١ الشربدارية : الذين يقدمون الشراب .

باب الموضع الذي تكونُ به جَلَوْتُهَا على زوجها . ويأتي الزوج بجماعته ، فلا يدخلون إلاّ إنْ غلبوا أصحاب الزوجة . أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدرُوا عليهم .

ولما كان بعد المغرب أُتِيَ إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها ، فلا يظهرُ لوئُها ممّا عليها من الجواهر . وبشاشية مثل ذلك . ولم أرَ قطّ خلعة أجمل من هذه الخلعة . وقد رأيتُ ما خلعه السلطان على سائر أصحابه مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني وابن ملك العلماء وابن شيخ الإسلام وابن صدر جهان البخاري ، فلم يكن فيها مثل هذه .

ثم ركبَ الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده ، وفي يد كل واحد منهم عصا قد أعدّها ، وصنعوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين وريبول^١ وله رفرغ يغطي وجهه المتكثل به وصدره ، وأتوا به الأمير ليضعه على رأسه ، فأبى ذلك ، وكان من عرب البادية لا عهد له بأمر الملك والحضر ، فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ، ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة . فحملَ عليهم بأصحابه حملةً عريضةً وصرعوا كل من عارضهم ، فغلبوا عليهم . ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله ودخل إلى المشور . وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجواهر ، والمشور ملآن بالنساء . والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة . وكلّهنّ وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيماً . فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل . وخدم عند أول درجة منه . وقامت العروس قائمة حتى صعد فأعطته التنبول بيدها . فأخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها . ونُثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ، ولقطتها النساء ، والمغنيات يُغنين حينئذٍ . والأطبال والأبواق والأنفاز تضرب خارج الباب .

١ الريبول : ضرب من أغطية الرأس .

ثمّ قامَ الأميرَ وأخذَ بيَدَ زوجته ونزل وهي تتبعه فركبَ فرسه يطأ به الفرشَ والبسطَ . ونُثِرَت الدنانيرُ عليه وعلى أصحابه ، وجُعِلَت العروس في محفّة . وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره . والخواتين بينَ يديها راكباتٌ وغيرهنّ من النساء ماشيات . وإذا مرّوا بدار أمير أو كبير خرجَ إليهم ، ونثَرَ عليهم الدنانير والدراهم على قدر همّته ، حتى أوصلوها إلى قصره .

ولمّا كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم ، وأعطى السلطان لكلّ واحد منهم فرساً مسلحاً وملجماً وبدرّة دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار . وأعطى الملك فتوحاً الله للخواتين ثياب الحرير المتنوّعة والبیدَر ، وكذلك لأهل الطرب . وعادتهم ببلاد الهند أن لا يُعطي أحد شيئاً لأهل الطرب إلّما يُعطيهم صاحب العرس . وأطعمَ الناس جميعاً ذلك اليوم ، وانقضى العرس ، وأمرَ السلطان أن يعطى الأمير غداً بلاداً المالوة والجزرات وكنبایة ونهرالّة ، وجعلَ فتحَ الله المذكور نائباً عنه عليها . وعظّمه تعظيماً شديداً . وكان عربيّاً جافياً . فلم يقدرَ قدرَ ذلك وغلبَ عليه جفاء البادية ، فأدّاه ذلك إلى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه .

ذكر سجن الأمير غدا

ولمّا كان بعد عشرين يوماً من زفافه اتفقَ أنّه وصلَ إلى دار السلطان ، فأراد الدخول فمنعه أمير البرد (البرده) دارية . وهم الخواص من البوابين ، فلم يسمع منه . وأراد التّحقّق . فأمسك البوّابُ بدبّوقته ، وهي الضفيرة ، وردّه فضرّبه الأميرُ بعضاً كانت هنالك حتى أدماه .

وكان هذا المضروب من كبار الأمراء يُعرفُ أبوه بقاضي غزنة ، وهو من ذريّة السلطان محمود بن سبكتكين . والسلطان يخاطبه بالأب . ويخاطب ابنه هذا بالأخ . فدخلَ على السلطان والدمُ على ثيابه . فأخبره بما صنعَ الأميرُ غدا ، ففكّرَ السلطان هنيهة . ثمّ قال له : القاضي يفصل بينكما ، وتلك جريمة

لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه . ولا بدّ من الموت عليها . وإنّما أحتماؤه لغربته .
 وكان القاضي كمال الدين بالمشور فأمر السلطان الملك تتّر أن يقفَ معهما
 عند القاضي . وكان ترّ حاجاً مجاوراً يحسن العربية . فحضرَ معهما وقال للأمير :
 أنتَ ضربته أو قتلَ لا ! بقصد أن يعلمه الحجة . وكان سيفُ الدين جاهلاً
 مغتراً فقال : نعم . أنا ضربته . وأتى والدُ المضروب فرام الإصلاح بينهما .
 فلم يقبل سيفُ الدين . فأمرَ القاضي بسجنه تلك الليلة . فوالله ما بعثتْ له زوجته
 فراشاً ينامُ عليه . ولا سألت عنه خوفاً من السلطان . وخاف أصحابه فودّعوا
 أموالهم .

وأردتُ زيارته بالسجن فلقيني بعضُ الأمراء وفهمَ عني أني أريد زيارته .
 فقال لي : أوّسيت ؟ وذكرَتي بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين
 ابن شيخ الجاحم . وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك حسبما يقع ذكره . فرجعتُ
 ولم أزره . وتخلّص الأميرُ غداً عند الظهر من سجنه . فأظهرَ السلطان إهماله
 وأضرَبَ عما كان أمرَ له بولايته . وأراد نفيه .

وكان للسلطان صهرٌ يسمّى بمغيث ابن ملك الملوك ، وكانت أخت السلطان
 تشكوه لأخيها إلى أن ماتت . فذكرَ جواريا أنها ماتت بسبب قهره لها . وكان
 في نسبهِ مغمَز . فكتبَ السلطان بخطّه : يُجلى اللقيطُ . يعنيه . ثمّ كتب :
 ويُجلى موش خوار . معناه آكل الفئران . يعني بذلك الأميرُ غدا لأنّ عرب
 البادية يأكلون اليربوع . وهو شبهُ الفأر . وأمرَ بإخراجهما . فجاءه النقباء
 ليخرجه . فأراد دخولَ داره ووداعَ أهله ، فترادفَ النقباء في طلبه فخرجَ باكياً .
 وتوجّهتُ حينَ ذلك إلى دار السلطان فبتَ بها فسألني عن مبيتي بعضُ
 الأمراء . فقلتُ له : جئتُ لأتكلّم في الأمير سيف الدين حتى يُردّ ولا يُسْفَى .
 فقال : لا يكون ذلك . فقلتُ له : والله لأبيّنَ بدار السلطان . ولو بلغَ مبيتي
 مائة ليلة . حتى يُردّ . فبلغَ ذلك السلطان فأمرَ برده . وأمره أن يكون في خدمة
 الأمير ملك قبولة اللاهوري . فأقامَ أربعة أعوام في خدمته يركبُ لركوبه ويسافر

لسفره حتى تأدّب وتهذّب ، ثمّ أعاده السلطان إلى ما كان عليه أوّلاً ، وأقطعه البلاد ، وقدمه على العساكر ورفع قدره .

ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوند زاده قوام الدين الذي قدم معنا عليه

ولما قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاء جزلاً وأحسنَ إليه إحساناً عظيماً وبالغ في إكرامه ، ثمّ زوجَ ولديه من بنتي الوزير خواجه جهان ، وكان الوزير إذ ذاك غائباً ، فأَتى السلطان إلى داره ليلاً ، وحضرَ عقد النكاح ، كأنه نائب عن الوزير ، ووقفَ حتى قرأ قاضي القضاة الصداق ، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود ، وأخذ السلطان بيده الأثواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي وولدي خداوند زاده ، وقامَ الأمراء وأبوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه ، فأمرهم بالجلوس ، وأمرَ بعض كبار الأمراء أن يقومَ مقامه وانصرف .

حكاية في تواضع السلطان وانصافه

ادّعى عليه رجلٌ من كبار الهنود أنّه قتلَ أخاه من غير موجب ، ودعاه إلى القاضي ، فمضى على قدميه ولا سلاحَ معه إلى مجلس القاضي فسلمَ وخدّم ، وكان قد أمرَ القاضي قبلَ ذلك أنّه إذا جاءه إلى مجلسه . فلا يقومُ له ولا يتحرك . فصعدَ إلى المجلس ووقفَ بين يدي القاضي فعلمَ عليه أن يُرضي خصمه عن دم أخيه فأرضاه .

حكاية مثلها

وادّعى على السلطان مرّةً رجلٌ من المسلمين أنّه له قِبَلَه حقٌّ ماليٌّ فتخاصما في ذلك عند القاضي ، فتوجّه الحكيم على السلطان بإعطاء المال فأعطاه .

حكاية مثلها

وإدعى عليه صبيّ من أبناء الملوك أنّه ضربه من غير موجب ، ورفع إلى القاضي ، فتوجه الحكم عليه بأن يُرضيه بالمال إن قبلَ ذلك ، وإلاّ أمكنه من القصاص ، فشاهدته يومئذٍ وقد عاد لمجلسه ، واستحضرَ الصبيّ وأعطاه عصاً ، وقال له : وحقّ رأسي لتضربني كما ضربتك ! فأخذ الصبيّ العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة حتى رأيتُ الكلا (الكُلاه) قد طارت عن رأسه .

ذكر اشتداده في إقامة الصلاة

وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة آمراً بملازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشدّ العقاب . ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنياً . وكان يبعثُ الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق ، فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عُوقب . حتى انتهى إلى عقاب السائرين الذين يمسكون دوابّ الخدّام على باب المشور . إذا ضيّعوا الصلاة . وأمر أن يُطلبَ الناسُ بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام . فكانوا يسألون عن ذلك ، فمن لم يحسنه عُوقب . وصار الناسُ يتدارسون ذلك بالمشور والأسواق ويكتبونه .

ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع

وكان شديداً في إقامة الشرع ، وممّا فعلَ في ذلك أن أمرَ أخاه مبارك خان أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هنالك ، مفروشة بالبسط . وللقاضي بها مرتبة تحفّ بها المخادّ كمرتبة السلطان ، ويقعدُ أخو السلطان عن يمينه . فمن كان عليه حقّ من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه يُحضّره رجال أخيه السلطان عند القاضي ليُنصفَ منه .

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين

ولمّا كان في سنة إحدى وأربعين أمرَ السلطان برفع المكوس عن بلاده ، وأن لا يؤخذ من الناس إلاّ الزكاة والعشر خاصة ، وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم كلّ يوم اثنين وخميس برحبة أمام المشور . ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم إلاّ أمير حاجب ، وخاصّ حاجب ، وسيدّ الحجاب ، وشرّف الحجاب لا غير ، ولا يُمنع أحد ممّن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه . وعيّن أربعة من كبار الأمراء يجلسون في الأبواب الأربعة من المشور لأخذ القصص من المشتكين ، والرابع منهم هو ابن عمّه ملك فيروز . فإن أخذ صاحب الباب الأوّل الرفع من الشاكي فحسن ، وإلاّ أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع ، وإن لم يأخذوه منه مضى به إلى صدر الجهان قاضي الممالك ، فإن أخذه منه ، وإلاّ شكا إلى السلطان . فإن صحّ عنده أنّه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذ منه أدّبه . وكلّ ما يجتمع من القصص في سائر الأيام يُطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة .

ذكر إطعامه في الغلاء

ولمّا استولى القحطُ على بلاد الهند والسند واشتدّ الغلاء حتى بلغ من القمح إلى ستّة دنانير . أمرَ السلطان أن يُعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستّة أشهر من المخزن بحساب رطلٍ ونصف من أرطال المغرب لكلّ إنسان في اليوم صغيراً وكبيراً . حرّاً وعبدّاً . وخرّج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمّة بأهل الحارات ، ويحضرون الناس ويُعطى لكلّ واحد عولة ستّة أشهر يقتات بها .

ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله

وكان . على ما قدّمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة . كثير التجاسر على إراقة الدماء لا يخلو بابّه عن مقتول إلاّ في النادر ،

وكنْتُ كثيراً ما أرى الناس يُقتلون على بابه ويُطرحون هنالك . ولقد جئت يوماً
فنفرَ بي الفرس ونظرتُ إلى قطعة بيضاء في الأرض فقلت : ما هذه ؟ فقال بعض
أصحابي : هي صَدرُ رجلٍ قُطِعَ ثلاثُ قطع .

وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترمُ أحداً من أهل العلم والصلاح
والشرف . وفي كلِّ يوم يرد على المشور من المُسلَّسَلين والمغلولين والمقيدين
ميئون . فمن كان للقتل قُتِل أو للعذاب عُدِّب أو للضرب ضُرب . وعادته أن
يؤتَى كلَّ يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى المشور ما عدا يومَ الجمعة ،
فلئَهم لا يخرجون فيه . وهو يومٌ راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون ، أعادنا
اللهُ من البلاء .

ذكر قتله لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان . وأمه بنت السلطان علاء الدين ، وكان من
أجمل صورة رأيتها في الدنيا . فاتهمه بالقيام عليه . وسأله عن ذلك فأقرَّ خوفاً
من العذاب . فإِنَّه من أنكرَ ما يدَّعيه عليه السلطان من مثل ذلك يُعَدِّب فيرى
الناسُ أن القتلَ أهونُ عليهم من العذاب . فأمرَ به ، فضرَّبت عنقه في وسط
السوق . وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيَّام على عاداتهم . وكانت أمُّ هذا المقتول
قد رُجِمت في ذلك الموضع قبلَ ذلك بسنتين لاعتِرافِها بالزنا . فرَّجَمها القاضي
كمال الدين .

ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة

وكان مرَّةً عيَّنَ حصَّةً من العسكر تتوجَّه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال
الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلِي . فخرَّجَ يوسف . وخرَّجَ معه معظم
العسكر . وتخلَّفَ قومٌ منهم ، فكتب يوسف إلى السلطان يُعلمه بذلك ، فأمرَ أن
يُطاف بالمدينة ، ويُقبض على من وُجد من أولئك المتخلِّفين . ففُعِلَ ذلك ،
وقُبِضَ على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمرَ بقتلهم أجمعين ، ففُتِلوا .

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الحام الحراساني ، الذي تُنسب مدينة الحام بخراسان إلى جدّه حسبما قصصنا ذلك ، من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء ، وكان يواصل أربعة عشر يوماً ، وكان السلطان قطب الدين وتُغلق يعظّمانه ويزورانه ويتبرّكان به ، فلمّا وليّ السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته ، فإنّ عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجّاً أن الصدر الأوّل ، رضي الله عنهم ، لم يكونوا يستعملون إلّا أهل العلم والصلاح . فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة . وشافهه السلطان بذلك في مجلسه العام . فأظهر الإباية والامتناع ، فغضب السلطان من ذلك . وأمر الشيخ الفقيه المعظّم ضياء الدين السمناني أن يتنفّح لحيته ، فأبى ضياء الدين ذلك وقال : لا أفعلُ هذا . فأمر السلطان بتنفّح لحيته كلّ واحد منهما ، فنُتِفِت . ونفّى ضياء الدين إلى بلاد التلنك ، ثمّ ولاه بعد مدّة قضاء ورّنكل ، فمات بها .

ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد فأقام بها سبعة أعوام . ثمّ بعث إليه فأكرّمه وعظّمه ، وجعله على ديوان المستخرج ، وهو ديوان بقايا العمّال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ، ثمّ زاد في تعظيمه ، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه ويمثلوا أقواله ، ولم يكن أحدٌ في دار السلطان فوقه . ولما انتقل السلطان إلى السكّنى على نهر الكنك وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار ، معناه شبيه الجنة ، وأمر الناس بالبناء هنالك ، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بالحضرة ، فأذن له إلى أرض موات على مسافة ستّة أميال من دهلي ، فحفر بها كهفاً كبيراً صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام ، وجلب الماء من نهر جون ، وعمّر تلك الأرض ، وجمع مالاً كثيراً من مستغلّيها لأن السنين كانت قاحطة ، وأقام هنالك عامين ونصف عام مدّة مغيب السلطان .

وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهراً ويدخلون الغار ليلاً ويسدّونه على

أنفسهم وأنعامهم خوف سُرّاق الكفّار ، لأنّهم في جبل منيع هنالك . ولما عاد السلطان إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها ، فعظّمه السلطان وعانقه عند لقائه ، وعادَ إلى غاره ، ثمّ بعثَ إليه بعد أيّام ، فامتنعَ من إتيانه ، فبعثَ إليه مخلص الملك النذرباري ، وكان من كبراء الملوك ، فتلطّفَ له في القول وحذّره بطش السلطان ، فقال له : لا أخدم ظالماً أبداً . فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك ، فأمرَ أن يأتي به فأتى به ، فقال له : أنتَ القاتلُ إني ظالم ؟ فقال : نعم ، أنتَ ظالم . ومن ظلمك كذا وكذا ، وعدّدَ أموراً منها تخريبه لمدينة دهلي وإخراجَه أهلها ، فأخذ السلطانُ سيفه ودفعه لصدر الجهان ، وقال : ثبّتْ أيّ ظالم واقطعْ عنقي بهذا السيف . فقال له شهاب الدين : ومن يريد أن يشهد بذلك فيُقتل ، ولكن أنتَ تعرفُ ظلمَ نفسك . وأمرَ بتسليمه للملك نكبة رأس الدويدارية ، فقسيده بأربعة قيود ، وغلّ يديه ، وأقام كذلك أربعة عشر يوماً مواصلاً لا يأكل ولا يشرب ، وفي كلّ يوم منها يؤتَى به إلى المشور ، ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له : ارجعْ عن قولك ! فيقول : لا أرجعُ عنه ، وأريدُ أن أكون في زمرة الشهداء .

فلما كان اليومُ الرابع عشر بعثَ إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك فأبى أن يأكل ، وقال : قد رُفِعَ رزقي من الأرض ، ارجعْ بطعامك إليه . فلما أخبرَ بذلك السلطان أمرَ عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار (أساتير) من العذرة ، وهي رطلان ونصف من أرطال المغرب ، فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور ، وهم طائفة من كفّار الهنود ، فمدّوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين ، وحلّوا العذرة بالماء ، وسقوه ذلك . وفي اليوم الذي بعده أتى به إلى دار القاضي صدر الجهان ، وجمّع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزّة فوعظوه وطلبوا منه أن يرجع عن قوله ، فأبى ذلك ، فضربت عنقه ، رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للفقيه المدرس عفيف الدين الكاساني وفقهين معه

وكان السلطان في سني القحط قد أمرَ بحفر آبار خارج دار الملك ، وأن يُزرع هنالك زرع ، وأعطى الناسَ البذرَ وما يلزمُ على الزراعة من النفقة ، وكلّفهم زرع ذلك للمخزن ، فبلغَ ذلك الفقيه عفيف الدين ، فقال : هذا الزرع لا يحصل المراد منه . فوُشيَ به إلى السلطان ، فسجنه وقال له : لأيّ شيء تُدخلُ نفسك في أمور الملك ؟ ثمّ إنّه سرّحه بعد مدّة ، فذهبَ إلى داره ، ولقيه في طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء ، فقالا له : الحمدُ لله على خلاصك . فقال الفقيه : الحمدُ لله الذي نجّانا من القوم الظالمين . وتفرّقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغَ ذلك السلطان فأمرَ بهم فأحْضِرَ ثلاثتهم بينَ يديه ، فقال : اذهبوا بهذا . يعني عفيف الدين ، فاضربوا عنقه حِثْمًا ، وهو أن يُقطعَ الرأسُ مع الذراع وبعض الصدر . واضربوا أعناق الآخرين ، فقالا له : أما هو فيستحقّ العقاب بقوله ، وأما نحنُ فبأيّ جريمة تقتلنا ؟ فقال لهما : إنكما سمعتهما كلامه فلم تنكراهما فكأنكما وافقتما عليه ، فقتلوا جميعاً ، رحمهم الله تعالى .

ذكر قتله أيضاً لفقيهين من أهل السند كانا في خدمته

وأمرَ السلطان هذين الفقيهين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه إلى بعض البلاد ، وقال لهما : إنكما سلّمتُ أحوال البلاد والرعيّة لكما ، ويكون هذا الأمير معكما يتصرّف بما تأمرانه به . فقالا له : إنكما نكون كشاهدين عليه ، ونُبيّين له وجه الحقّ ليتبعه . فقال لهما : إنكما قصدكما أن تأكلا أموالا وتضيّعاها وتنسبا ذلك إلى هذا التركي الذي لا معرفةَ له . فقالا له : حاشا لله يا خوند عالم ! ما قصدنا هذا . فقال لهما : لم تقصدا غير هذا ، اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النهاوندي ، وهو الموكل بالعذاب ، فذُهِبَ بهما إليه . فقال لهما : السلطانُ يريد قتلكما ، فأقرّا بما قولكما إيّاه ، ولا تعدّبا

أنفسكما ! فقالا : والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا . فقال لزبانيته^١ : ذوقوهما بعض شيء ، يعني من العذاب ، فبسطحا على اقفايهما ، وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة^٢ ، ثم قلبعت بعد هنيهة ، فندّ هبت بلحم صدورهما ، ثم أخذ البول والرمال فجعل على تلك الجراحات ، فأقورا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان ، وأنهما مجرمان مستحقان للقتل ، فلا حق لهما ولا دعوى في دمائهما دنيا ولا أخرى . وكتب خطهما بذلك واعترفا به عند القاضي ، فسجل على العقد ، وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار . ولو قالاً أكرهنا لعذاباً أشد العذاب ، ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم ، فقتلا رحمهما الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده ، المسمى بهود ، حفيد الشيخ الصالح الولي ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكريا الملتاني وجدّه الشيخ ركن الدين ، معظماً عند السلطان ، وكذلك أخوه عماد الدين الذي كان شبيهاً بالسلطان ، وقتل يوم وقعة كشلو خان ، وسنذكره ، ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزوايته ، فتوفي الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود . ونازعه في ذلك ابن أخي الشيخ ركن الدين ، وقال : أنا أحق بميراث عمي ، فقدما على السلطان ، وهو بدولة آباد . وبينها وبين ملتان ثمانون يوماً ، فأعطى السلطان المشيخة لهود حسبما أوصى له الشيخ ، وكان كهلاً ، وكان ابن أخي الشيخ فتى ، وأكرمه السلطان وأمر بتضييفه في كل منزل يحلّه ، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمرّ به إلى ملتان ، وتصنع له فيه دعوة .

فلما وصل الأمر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايع والأعيان للقائه ،

١ الزبانية : الشرطة ، الواحد زبيلة .

وكنْتُ فيمن خرجَ إليه ، فلقيناه وهو راكب في دولة يحملها الرجال ، وخيله
مجنوبة ، فسَلَّمنا عليه وأنكرتُ أنا ما كان من فعله في ركوبه الدولة ، وقلت
إنَّما كان ينبغي له أن يركب الفرس ويسير من خرجَ للقائه من القضاة والمشايخ ،
فبلغه كلامي ، فركبَ الفرس واعتذر بأن فعله أولاً كان بسبب ألم منعه من
ركوب الفرس ، ودخلَ الحضرة ، وصُنعت له بها دعوةٌ أنفقَ فيها من مال
السلطان عددٌ كثير ، وحضرَ القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة ، ومُدَّ السماط ،
وأُتوا بالطعام على العادة . ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه ،
فأعطي قاضي القضاة خمسمائة دينار . وأعطيْتُ أنا مائتين وخمسين ديناراً ،
وهذه عادةٌ لهم في الدعوة السلطانية .

ثم انصرفَ الشيخ هود إلى بلده ، ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي ، بعثه
السلطان ليُجلسه على سَجَّادة جدَّه بزاويته ، ويصنعَ له الدعوة من مال السلطان
هنالك ، واستقرَّ بزاويته وأقامَ بها أعواماً . ثم إنَّ عماد الملك أمير بلاد السند
كتبَ إلى السلطان يذكر أن الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الأموال وإنفاقها في
الشهوات ، ولا يُطعمون أحداً بالزاوية . فنفذَ الأمرُ بمطالبتهم بالأموال ،
فطلبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم ، وضربَ بعضاً ، وصار يأخذ منهم كلَّ
يوم عشرين ألف دينار مدةَ أيام ، حتى استخلص ما كان عندهم . ووُجِدَ لهم
كثيرٌ من الأموال والذخائر ، من جملةِها نعلان مرصَّعان بالجوهر والياقوت ،
بيعتا بسبعة آلاف دينار ، قيل إنَّهما كانا لبنت الشيخ هود ، وقيل لسريَّة له .
فلما اشتدَّت الحال على الشيخ هربَ يريد بلاد الأتراك فقبضَ عليه ، وكتب
عمادُ الملك بذلك إلى السلطان فأمره أن يبعثه ويبعثَ الذي قبضَ عليه كلاهما
في حُكْم الثَّغاف^١ . فلما وصلا إليه سَرَّحَ الذي قبضَ عليه . وقال للشيخ
هود : أين أردت أن تفرَّ ؟ فاعتذر بعذر . فقال له السلطان : إنَّما أردت أن

.....

١ الثغاف : الخصاص .

تذهب إلى الأتراك فتقول : أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريّا ، وقد فعلَ السلطان معي كذا ، وتأتي بهم لقتالنا . اضربوا عنقه . فضربت عنقه ، رحمه الله تعالى .

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمسُ الدين ابن تاج العارفين ساكناً بمدينة كُول منقطعاً للعبادة ، كبيرُ القدر . ودخلَ السلطان إلى مدينة كُول ، فبعث إليه فام يأتَه . فذهب السلطان إليه ، ثمّ لما قارب منزله انصرفَ ، ولم يره . . .
واتفقَ بعد ذلك أن أميراً من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس ، فنُقلَ للسلطان أنه وقعَ ذكرُ هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين فأنى عليه ، وقال : انه يصلحُ للملك . فبعثَ السلطان بعضَ الأمراء إلى الشيخ ، فقيده وقيّد أولاده . وقيّد قاضي كُول ومحتسبها لأنه ذكرَ أنّهما كانا حاضرين للمجلس الذي وقعَ فيه ثناء الشيخ على الأمير المخالف ، وأمرَ بهم فسُجنوا جميعاً بعد أن سَمَلَ عيني القاضي وعيني المحتسب . ومات الشيخُ بالسجن .
وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجّانين فيسألان الناس ، ثمّ يُردّان إلى السجن ، وكان قد بلغَ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفّارَ الهنود وعصاتهم ويصحبونهم . فلمّا مات أبوهم أخرجهم من السجن . وقال لهم : لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون ! فقالوا له : وما فعلنا ؟ فاغتاظَ من ذلك وأمرَ بقتلهم جميعاً فقتلوا ، ثمّ استحضرَ القاضي المذكور فقال : أخبرني بمن كان يرى رأي هؤلاء الذين قُتلوا ويفعلُ مثلَ أفعالهم ! فأملئ أسماء رجال كثيرين من كبار البلد ، فلمّا عُرِضَ ما أملاه على السلطان قال : هذا يُحبّ أن يخرب البلد ؛ اضربوا عنقه ، فضربت عنقه . رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ الحيدري

وكان الشيخ عليّ الحيدري ساكناً بمدينة كنباية من ساحل الهند . وهو عظيمُ القدر . شهيرُ الذكر ، بعيد الصيت ، ينذر له التجّار بالبحر النذور

الكثيرة ، وإذا قدموا بدأوا بالسلام عليه . وكان يُكاشَفُ بأحوالهم ، وربّما نذر أحدهم النذرَ وندمَ عليه ، فإذا أتى الشيخ للسلام عليه أعلمه بما نذرَ له . وأمرَ بالوفاء به ، واتفقَ له ذلك مرّات واشتهرَ به .

فلما خالفَ القاضي جلال الأفغاني وقبيلته بتلك الجهات بلغَ السلطان أن الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال وأعطاه شاشيته من رأسه ، وذكرَ أيضاً أنه بايعه ، فلما خرجَ السلطان إليهم بنفسه وانهمزَ القاضي جلال خلفَ السلطان شرفَ الملك أميرَ بخت أحدَ الوافدين معنا عليه بكنبائية ، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف ، وجعلَ معه فقهاء يحكمُ بقولهم ، فأحضرَ الشيخ عليّ الحيدري بين يديه ، وثبتَ أنه أعطى للقائم شاشيته ودعا له . فحكموا بقتله . فلما ضربه السيّاف لم يفعل شيئاً ، وعجبَ الناس لذلك وظنّوا أنه يُعفى عنه بسبب ذلك . فأمرَ سيّافاً آخرَ بضرب عنقه فضرَبها ، رحمه الله تعالى .

ذكر قتله لطوغان وأخيه

وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة ، فوفدا على السلطان فأحسنَ إليهما وأعطاهما عطاءً جزيلاً ، وأقاما عنده مدّة ، فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما وحاولا الفرارَ فوشى بهما أحدُ أصحابهما إلى السلطان ، فأمرَ بتوسيطهما ، فوسّطوا ، وأعطى للذي وشى بهما جميعَ ما لهما . وكذلك عادتهم بتلك البلاد إذا وشى أحدٌ بأحدٍ وثبتَ ما وشى به فقتلَ أعطي ماله .

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابنُ ملك التجار شابّاً صغيراً لا نباتَ بعارضيه ، فلما وقعَ خلافَ عين الملك وقيامه وقتالُه للسلطان ، كما سنذكره ، غلبَ على ابن ملك التجار هذا فكان في جملته مقهوراً ، فلما همزَ عين الملك وقبضَ عليه وعلى أصحابه كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك ، فأمرَ بهما فعلقا من أيديهما في خشب وأمرَ أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا ، ولما ماتا قال

الحاجب خواجه أمير عليّ التبريزي لقاضي القضاة كمال الدين : ذلك الشاب لم يجب عليه القتل . فبلغ ذلك السلطان فقال : هلاّ قلتَ هذا قبلَ موته ؟ وأمرَ به فضربَ مائتي مفرقة أو نحوها . وسُجنَ وأُعطِيَ جميعُ ماله لأمير السيّافين ، فرأيتُه في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه ، وركبَ فرسَه ، فظننتُ أنّه هو .

وأقامَ بالسجن شهوراً ثمّ سرّحه وردّه إلى ما كان عليه ، ثمّ غضبَ عليه ثانية ، ونفاه إلى خراسان ، فاستقرّ بهراة ، وكتبَ إليه يستعطفه فوقعَ له على ظهر كتابه : اكر باز آمدي باز (آي) معناه : إن كنتَ تُبْتَ فارجع ! فرجعَ إليه .

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات

وكان قد وُلِّيَ خطيبُ الخطباء بدهلي النظر في خزانة الجواهر في السفر ، فاتَّفَقَ أن جاء سُراقُ الكفّار ليلاً فضربوا على تلك الخزانة ، وذهبوا بشيء منها ، فأمرَ بضرب الخطيب حتى مات ، رحمه الله تعالى .

ذكر تخريبه لدهلي ونفي أهلها وقتل الأعمى والمقعد

ومن أعظم ما كان يُنْقَمَ على السلطان اجلاؤه لأهل دهلي عنها . وسببُ ذلك أنّهم كانوا يكتبون بطائقَ فيها شتمه وسبّه ويختمون عليها ، ويكتبون عليها : وحقّ رأس خوند عالم ما يقرأها غيره ، ويرمونها بالمشور ليلاً . فإذا فضّتها وجدّ فيها شتمه وسبّه . فعزّمَ على تخريب دهلي ، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ومنازلهم . ودفعَ لهم ثمنها ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد . فأبوا ذلك . فنأدى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ثلاث ، فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور ، فأمرَ بالبحث عمّن بقي بها ، فوجد عبيدُه بأزقتها رجلين . أحدهما مُقْعَدٌ والآخر أعمى ، فأتوا بهما ، فأمرَ بالمقعد فرمي به في المنسجنيق . وأمرَ أن يُسجَرَ الأعمى من دهلي إلى دولة آباد مسيرة أربعين يوماً فتمزّق في الطريق ووصلَ منه رجله .

ولَمَّا فعلَ ذلك خرج أهلُها جميعاً وتركوا أثقالهم وأمتعتهُم ، وبقيت المدينة خاوية على عروشها ، فحدثني من أثقُ به قال : صعدَ السلطان ليلةً إلى سطح قصره فنظرَ إلى دهلي وليس بها نارٌ ولا دُخان ولا سراج فقال : الآن طابَ قلبي وتهدنْ! خاطري . ثمّ كتبَ إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلي ليعمروها ، فخربت بلادهم ، ولم تعمّر دهلي لاتساعها وضخامتها ، وهي من أعظم مدن الدنيا ، وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خاليةً ليسَ بها إلاّ قليلُ عمارة .

وقد ذكرنا كثيراً من مآثر هذا السلطان وممّا نُقيمَ عليه أيضاً ، فلنذكر جُملاً من الوقائع والحوادث الكائنة في أيّامه .

ذكر ما افتتح به أمره أوّل ولايته من منّة على بهادور بوره

ولمّا وليَ السلطان الملكَ بعدَ أبيه وبايعه الناس أحضرَ السلطانَ غياثَ الدين بهادور بوره الذي كان أسره السلطان تغلقُ ، فمنّ عليه وفكّ قيوده وأجزّل له العطاء من الأموال والخيل والفيلة ، وصرفه إلى مملكته . وبعثَ معه ابنَ أخيه إبراهيم خان ، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرةً بينهما ، وتُكتب أسماؤهما معاً في السكة . ويخطب لهما ، وعلى أن يصرف غياثُ الدين ابنه محمّداً المعروف ببرباط ، يكون رهينة عند السلطان ، فانصرف غياث الدين إلى مملكته والتزمَ ما شُرطَ عليه إلاّ أنّه لم يبعث ابنه وادّعى أنّه امتنع وأساء الأدب في كلامه ، فبعثَ السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم خان وأميرهم دُبلي الثري ، فقاتلوا غياثَ الدين فقتلوه . وسلخوا جلده وحُشي بالتهن وطيفَ به على البلاد .

١ تهدن : سكن .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تَغْلُتُق ابن أخت يسمّى بهاء الدين كُشْتُت اسب . فجعله أميراً ببعض النواحي . فلمّا مات خِثْلُهُ امتنع من بَيْعَةِ ابنه . وكان شجاعاً بطلاً . فبعثَ السلطان إليه العساكر فيهم الأمراء الكبار مثلُ الملك مجير والوزير خواجه جهان أميرٌ على الجميع . فالتقى الفرسان واشتدّ القتال وصبر كلا العسكرين . ثمّ كانت الكرةُ لعسكر السلطان ففرّ بهاء الدين إلى ملك من ملوك الكفار يُعرف بالرّأي كنييلة . والرّأي عندهم كمثل ما هو بلسان الروم عبارة عن السلطان . وكَنَسِيْلَة اسم الإقليم الذي هو به .

وهذا الرّأي له بلاد في جبال منيعة . وهو من أكابر سلاطين الكفار . فلمّا هربَ إليه بهاء الدين اتبعتَه عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتدّ الأمر على الكافر . ونفدَ ما عنده من الزرع . وخافَ أن يؤخذ باليد . فقال لبهاء الدين : إن الحال قد بلغت لما تراه . وأنا عازمٌ على هلاك نفسي وعيالي ومن تبعني . فاذهب أنت إلى السلطان فلان ، لسلطان من الكفار سمّاه لهم فأقيم عنده . فإنّه سيمنعك . وبعثَ معه من أوصله إليه .

وأمر رأي كَنَسِيْلَة بنار عظيمة فأجّجت وأحرقَ فيها أمتعته . وقال لنسائه وبناته : إني أريدُ قتلَ نفسي . فمن أرادت موافقتي فلتَفْعَلْ . فكانت المرأة منهنّ تغتسل وتدّهن بالصنْدُل المقاصري . وتقبّلُ الأرض بينَ يديه . وترمي بنفسها في النار حتى هَلَكْنَ جميعاً . وفعلَ مثل ذلك نساءُ أمرائه ووزرائه وأربابُ دولته ومن أراد من سائر النساء . ثمّ اغتسل الرّأي وادّهنَ بالصنْدُل ، ولبسَ السلاح ما عدا الدرع . وفعلَ كفعله من أراد الموت معه من ناسه ، وخرجوا إلى عسكر السلطان ، فقاتلوا حتى قُتِلوا جميعاً . ودُخِلَت المدينةُ فأُسِرَ أهلُها وأُسِرَ من أولاد رأي كنييلة أحد عشرَ ولداً فأُتي بهم السلطان ، فأسلموا جميعاً ، وجعلهم السلطان أمراء وعظّمهم لأصاْلَهم ولفعل أبيهم ، فرأيتُ عنده منهم نصراً وبخياراً والمهردار ، وهو صاحب الخاتم الذي يحتم به

على الماء الذي يشربُ السلطان منه ، وكنيته أبو مسلم ، وكانت بيني وبينه صحبة ومودة .

ولما قُتِلَ رأيَ كنبيلة توجهت عساكرُ السلطان إلى بلد الكافر الذي لجأ إليه بهاء الدين ، وأحاطوا به ، فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدرُ على أن أفعلَ ما فعله رأيَ كنبيلة ، فقبضَ على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر السلطان ، فقيّده وغلّوه وأتوا به إليه ، فلما أتى به إليه أمرَ بإدخاله إلى قرايته من النساء فشتَمَنَّهُ وبصقنَ في وجهه ، وأمرَ بسلّخه وهو بقيد الحياة ، فسلّخَ وطُبخَ لحمه مع الأرز ، وبُعثَ لأولاده وأهله ، وجُعِلَ باقيه في صحفة ، وطُرحَ للقبيلة لتأكله ، فأبث أكله ، وأمرَ بجلده فحشي بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره ، وطيفَ بهما على البلاد .

فلما وصلا إلى بلاد السند ، وأمير أمراثها يومئذ كشلو خان صاحب السلطان تُغلّسق ومعينه على أخذ الملك ، وكان السلطان يعظّمه ويخاطبه بالعم ويخرجُ لاستقباله إذا وفدَ من بلاده . أمر كشلو خان بدفن الجلدين ، فبلغَ ذلك السلطان ، فشقّ عليه فعله وأراد الفتك به .

ذكر ثورة كشلو خان وقتله

ولما اتّصلَ بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدين بعثَ إليه . وعلم كشلو خان أنّه يريد عِقابه ، فامتنع ، وخالف ، وأعطى الأموال ، وجمعَ العساكر ، وبعثَ إلى الترك والأفغان وأهل خراسان فأتاه منهم العددُ الجُمّ ، حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أربى عليه كثرةً . وخرجَ السلطان بنفسه لقتاله ، فكان اللقاء على مسيرة يومين من مُلتان بصحراء أبوهر ، وأخذَ السلطان بالجزم عند لقائه ، فجعل تحت الشطر عوضاً منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتاني وهو حدثني هذا وكان شبيهاً به ، فلما حمي القتال انفرد السلطان في أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكرُ كشلو خان قصدَ الشطر

معتقدين أن السلطان تحته ، فقتلوا عماد الدين . وشاع في العسكر أن السلطان قُتل ، فاشتغلت عساكر كشلو خان بالنهب وتفرقوا عنه ، ولم يبقَ معه إلا القليل ، فقصده السلطان بمن معه ، فقتله وجزّ رأسه . وعلم بذلك جيشه ففرّوا ودخل السلطان مدينة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين . وأمر بسلحه ، فسُلخ . وأمر برأس كشلو خان ، فعُلّق على بابه ، وقد رأيتُه معلقاً لما وصلتُ إلى ملتان . وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخِي عماد الدين ولابنه صدر الدين مائة قرية إنعاماً عليهم . ليأكلوا منها ويُطعموا بزوايتهم المنسوبة لخدمهم بهاء الدين زكريّا .

وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بور . وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر ، وكان أهلها قد خالفوا . فأخبرني بعض الفقهاء أنّه حضر دخول الوزير إياها . قال : وأُحضِرَ بين يديه القاضي بها والخطيب ، فأمر بسلخ جلودهما فقالا له : اقتلنا بغير ذلك ، فقال لهما : هم استوجبتا القتل ؟ فقالا : بمخالفتنا أمر السلطان . فقال لهما : فكيف أخالفُ أنا أمره . وقد أمرني أن أقتلكما بهذه القتلة ؟ وقال للمتولين لسلخهما : احفروا لهما حفراً تحت وجوههما يتنفّسان فيها ، فإنّهما إذا سلّخا . والعياذُ بالله ، يُطرحان على وجوههما . ولما فُعل ذلك تمهّدت بلاد السند وعاد السلطان إلى حضرته .

ذكر الواقعة بجبل قراجيل على جيش السلطان

وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر . وبينه وبين دهلي مسيرة عشر ، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفّار . وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية إلى حرب هذا الجبل ، ومعه مائة ألف فارس . ورجالة سواهم كثير ، فملك مدينة جيديّة ، وهي أسفل الجبل ، وملك ما يليها وسبي وخرب وأحرق ، وفرّ الكفّار إلى أعلى الجبل ، وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن مُلكهم .

وللجبل طريق "واحد" ، وعن أسفل منه وادي ، وفوقه الجبل ، فلا يجوز فيه إلا فارس منفرد خلفه آخر ، فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق ، وتمسكوا مدينة ورتسكل التي بأعلى الجبل ، واحتوا على ما فيها وكتبوا إلى السلطان بالفتح ، فبعث إليهم قاضياً وخطيباً وأمرهم بالإقامة . فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا ومات الخيل وانحلت القسي . فكتب الأمراء إلى السلطان واستأذنه في الخروج عن الجبل والنزول إلى أسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر ، فيعودون ، فأذن لهم في ذلك ، فأخذ الأمير نكبة الأموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن ، وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها إلى أسفل الجبل . فعندما علم الكفتار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق ، وصاروا يقطعون الأشجار العادية قطعاً ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر بأحد إلا أهلكته ، فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم ، وأخذ الكفتار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح ، ولم يفلت من العسكر إلا ثلاثة من الأمراء ، كبيرهم نكبة وبدر الدين الملك دولة شاه ، وثالث لهما لا أذكره . وهذه الواقعة أثرت في جيش الهند أثراً كبيراً وأضعفته ضعفاً بيناً ، وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه لأن لهم البلاد أسفل الجبل ، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه .

ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن اخت الوزير

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر ، وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر ، الشريف جلال الدين أحسن شاه ، فخالف وادعى الملك لنفسه ، وقتل نواب السلطان وعماله ، وضرب الدنانير والدراهم باسمه ، وكان يكتب في إحدى صفحتي الدينار : سلالة طه ويس ، أبو الفقراء والمساكين ، جلال الدنيا

والدين ؛ وفي الصفحة الأخرى : الواثقُ بتأييد الرحمن أحسنُ شاه السلطان .
 وخرجَ السلطانُ لما سمعَ بثورته يريد قتاله ، فنزل بموضع يقال له كشك
 زر ، معناه قصرُ الذهب . وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس . وفي تلك
 الأيام أتى بـ ابن أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الأمراء أو ثلاثة ، وهم
 مقيّدون مغلولون . وكان السلطان قد بعثَ وزيره المذكور في مقدّمته فوصل إلى
 مدينة ظهار ، وهي على مسيرة أربع وعشرين من دهلي . وأقامَ بها أياماً ، وكان
 ابنُ أخته شجاعاً بطلاً ، فاتَّفَقَ مع الأمراء الذين أتى بهم على قتل خاله والهروب
 بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر . وعزّوهوا على
 الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة ، فوشى بهم أحد من أدخلوه في
 أمرهم إلى الوزير ، وكان يسمّى الملك نصره الحاجب ، وأخبرَ الوزير أن آية
 ما يروونه له لبسهم الدروع تحت ثيابهم ، فبعثَ الوزير إليهم . فوجدهم كذلك ،
 فبعثَ بهم إلى السلطان .

وكنْتُ بين يدي السلطان حينَ وصولهم فرأيت وكان أحدهم طوّالاً ألحى .
 وهو يُرعد . ويتلو سورة يس ، فأمرَ بهم فطرحوا للفيلة المعلّمة لقتل الناس .
 وأمرَ بـ ابن أخت الوزير . فردّ إلى خاله ليقتله فقتله . وسنذكر ذلك .
 وتلك الفيلةُ التي تقتلُ الناس تُكسى أنيابها حدائدَ مسنونةً شبهَ سيكك
 الحرث ، لها أطراف كالسكاكين . ويركبُ الفيلُ على الفيل ، فإذا رمى الرجل بين
 يديه لفّ عليه خرطومُه ورمى به إلى الهواء . ثمّ يتلقّاه بنابيه . ويطرّحه بعد ذلك
 بين يديه ويجعل يده على صدره ، ويفعل به ما يأمره الفيلُ على حسب ما أمره
 السلطان . فإن أمره بتقطيعه قطعَه الفيلُ قطعاً بتلك الحدائد ؛ وإن أمره بتركه
 تركه مطروحاً ، فسُلخ ، وكذلك فُعِلَ بهؤلاء .

وخترجت من دار السلطان بعد المغرب فرأيتُ الكلابَ تأكلُ لحومهم ،
 وقد مُسّيت جلودهم بالنّين . والعياذ بالله . ولما تجهّزَ السلطان لهذه الحركة أمرني
 بالإقامة بالحضرة كما سنذكره . ومضى في سفره إلى أن بلغَ دولة آباد فثارَ الأمير

هلاجون بهلاده وخرج ، وكان الوزير خواجه جهان قد بقي أيضاً بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر .

ذكر ثورة هلاجون

ولما بلغ السلطان إلى دولة آباد ، وبعد عن بلاده ، ثار الأمير هلاجون بمدينة لاهور ، وادعى الملك ، وساعده الأمير قلجند على ذلك ، وصيّره وزيراً له ، واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدھلي فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيماً من الخدام بدھلي ، أخذ أصحابه وأخذ في الحملة أصحابي لأنني كنت بها مقيماً ، وأعانه السلطان بأمرين كبيرين أحدهما قيران ملك صفدار ، ومعناه مرتب العساكر ، والثاني الملك تمور الشربدار ، وهو الساقى . وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة أحد الأودية الكبار ، فانهزم هلاجون وهرب ، وغرق كثير من عسكره في النهر . ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها ، وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل . وكان الذي تولّى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير ، وهو المعروف بأجدر ملك ، ويسمى أيضاً صك (سك) السلطان ، والصك عندهم الكلب ، وكان ظالماً قاسي القلب ، ويسميه السلطان أسد الأسواق ، وكان ربّما عضّ أرباب الجنايات بأسنانه شترها وعدواناً . وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة إلى حصن كاليور ، فسجن به : ورأيت بعضهن هنالك . وكان أحد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل إليها حتى ولدت منه في السجن .

ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان

ولما وصل السلطان إلى بلاد التلّيك ، وهو قاصد إلى قتال الشريف بهلاد المعبر . نزل مدينة بدرکوت . وهي قاعدة بلاد التلّيك ، وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر . ووقع الوباء إذ ذاك في عسكره ، فهلك معظمهم ،

ومات العبيد والمماليك وكبار الأمراء ، مثل ملك دولة شاه الذي كان السلطان يخاطبه بالعم ، ومثل أمير عبد الله الهروي ، وقد تقدّمت حكايته في السفر الأوّل ، وهو الذي أمره السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال ، فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها .

ولما رأى السلطان ما حلّ بالعسكر عاد إلى دولة آباد ، وخالفت البلاد وانتقضت الأطراف ، وكاد المملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته .

ذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هوشنج

ولما عاد السلطان إلى دولة آباد مرض في طريقه فأرجف الناس بموته ، وشاع ذلك ، فنشأت عنه فتن عريضة ، وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد ، وكان بينه وبين السلطان عهد أن لا يبايع غيره أبداً في حياته ولا بعد موته . فلما أرجف بموت السلطان هرب إلى سلطان كافر ، يسمّى بربرة ، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه . فعلم السلطان بفراره ، وخاف وقوع الفتنة ، فجدّ السير إلى دولة آباد ، واقتفى أثر هوشنج وحصره بالخیل . وأرسل إلى الكافر أن يسلمه إليه ، فأبى ، وقال : لا أسلم دخيلي ولو آل بي الأمر لما آل برأي كنبيلة .

وخاف هوشنج على نفسه . فراسل السلطان وعاهدّه على أن يرحل السلطان إلى دولة آباد . ويبقى هنالك قتلوا خان معلّم السلطان ليستوثق منه هوشنج وينزل إليه على الأمان . فرحل السلطان ونزل هوشنج إلى قتلوا خان . وعاهدّه أن لا يقتله السلطان ، ولا يحطّ منزلته ، وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان ، فسرّ بقدمه وأرضاه ، وخلع عليه .

وكان قتلوا خان صاحب عهد يستنيم الناس إليه ويعولون في الوفاء عليه ، ومنزلته عند السلطان علية ، وتعظيمه له شديد ، ومتى دخل عليه قام له لإجلالاً .

فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذي يدعوه لثلاً يتعبه بالقيام له ، وهو محب في الصدقات ، كثير الإيثار ، مولع بالإحسان للفقراء والمساكين .

ذكر ما هم به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار ، وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان ، والياً على بلاد حانسي وسرتي لما تحرك السلطان إلى بلاد المعبر . وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه . فلما أرجف بموت السلطان طمع إبراهيم في السلطنة . وكان شجاعاً كريماً . حسن الصورة . وكنت متزوجاً بأخته حورنسب ، وكانت صالحة تهجد بالليل ، ولها أوراد من ذكر الله عز وجل ، وولدت مني بنتاً . ولا أدري ما فعل الله فيهما ، وكانت تقرأ لكنها لا تكتب . فلما هم إبراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الأموال يحملها إلى دهلي . فقال له إبراهيم : إن الطريق مخوف وفيه القُطُوع ، فأقيم عندي حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن . وكان قصده أن يتحقق موت السلطان فيستولي على تلك الأموال . فلما تحقق حياته سرّج ذلك الأمير ، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك .

ولما وصل السلطان إلى الحضرة . بعد غيبته سنتين ونصف السنة . وصل الشريف إبراهيم إليه فوشى به بعض غلمانه . وأعلم السلطان بما كان همّ به . وأراد السلطان أن يعجل بقتله . ثم تأتت لمحبته فيه . فاتفق أن أتى يوماً إلى السلطان بغزال مذبوح فنظر إلى ذبحته فقال : ليس بجيد الذكاة . اطرحوه . فرآه إبراهيم فقال : إن ذكاته جيّدة ، وأنا آكله . فأخبر السلطان بقوله . فأنكر ذلك ، وجعله ذريعة إلى أخذه ، فأمر به فقيّد وغلّل . ثم قرّره على ما رُمي به من أنه أراد أخذ الأموال التي مرّ بها ضياء الملك .

وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه ، وأنه لا تنفعه معذرة ، وخاف أن يُعذّب فرأى الموت خيراً له . فأقر بذلك . فأمر به فوسّط . وترك هنالك .

وعادتهم أنه متى قتلَ السلطان أحداً أقامَ مطروحاً بموضع قتله ثلاثاً ، فإذا كان بعد الثلاث أخذَه طائفةٌ من الكفّار موكلون بذلك ، فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به ، وهم يسكنون حول الخندق ثلاثاً يأتي أهلُ المقتول فيرفعوه ، وربما أعطى بعضهم هؤلاء الكفّار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه . وكذلك فُعلَ بالشريف إبراهيم . رحمه الله تعالى .

ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك

ولما عاد السلطان من التلنك ، وشاع خبرُ موته . وكان تركُ تاج الملك نصرة خان نائباً عنه ببلاد التلنك . وهو من قدماء خواصّه ، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ، ودعا لنفسه ، وبايعه الناس بحضرة بدركوت ، فبلغ خبره إلى السلطان فبعثَ معلمه قطلو خان في عساكر عظيمة ، فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أممٌ من الناس . واشتدّ الحصار على أهل بدركوت ، وهي منيعة ، وأخذ قطلو خان في نقبها . فخرجَ إليه نصرة خان على الأمان في نفسه . فأمنه ، وبعثَ به إلى السلطان وأمنَ أهلَ المدينة والعسكر .

ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك

ولما استولى القحطُ على البلاد انتقلَ السلطان بعساكره إلى نهر الكنك الذي تحجّ إليه الهنود . على مسيرة عشر من دهلي ، وأمرَ الناس بالبناء . وكانوا قبلَ ذلك صنعوا خياماً من حشيش الأرض . فكانت النارُ كثيراً ما تقعُ فيها وتؤذي الناسَ حتى كانوا يصنعون كهوفاً تحت الأرض . فإذا وقعت النار رمّوا أمتعتهم بها وسدّوا عليها بالتراب .

ووصلت أنا في تلك الأيام لمحلة السلطان . وكانت البلاد التي بغربي النهر حيثُ السلطان شديدة القحط ، والبلادُ التي بشرقيه خصبة ، وأميرُها عينُ الملك ابن ماهر . ومنها مدينة عوض ومدينة ظفر آباد ومدينة الكنو وغيرها . وكان

الأمير عين الملك يُحضِر كلَّ يوم خمسين ألف مَنّ منها قمحٌ وأرزٌ وحيّتصّ لعلف الدوابّ ، فأمرَ السلطان أن تُحمَلَ الفيلة ومعظمُ الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المخضبة لترعى هنالك ، وأوصى عين الملك بحفظها .

وكان لعين الملك أربعةٌ إخوة وهم : شهر الله ونصر الله وفضل الله ، ولا أذكر اسم الآخر ، فاتفقوا مع أخيهام عين الملك على أن يأخذوا فيلةً السلطان ودوابّه ويباعوا عين الملك . ويقوموا على السلطان . وهربَ إليهم عين الملك بالليل ، وكاد الأمرُ يتمّ لهم .

ومن عادة ملك الهند أنّه يجعل مع كلِّ أمير كبير أو صغير مملوكاً له يكون عيناً عليه ويُعرفه بجميع حاله ، ويجعل أيضاً جواري في الدور يكنّ عيوناً له على أمرائه ، ونسوةٌ يسميهم الكُنّاسات يدخلن الدور بلا استئذان ، ويُخبرهن الجوّاري بما عندهن ، فتُخبر الكُنّاساتُ بذلك ملكَ المخبرين ، فيُخبر بذلك السلطان . ويذكرون أنّ بعض الأمراء كان في فراشه مع زوجته ، فأراد مماسّتها ، فحلفته برأس السلطان أن لا يفعل ، فلم يسمع منها ، فبعثَ إليه السلطان صباحاً وأخبره بذلك ، وكان سبب هلاكه .

وكان للسلطان مملوك يُعرف بابن ملك شاه ، هو عين على عين الملك المذكور . فأخبرَ السلطان بفراره وجوازه النهر ، فسقطَ في يده ، وظنّ أنّها القضيةُ عليه لأنّ الخيل والفيلة والزرع كلّ ذلك عند عين الملك ، وعساكر السلطان مفترقةٌ ، فأراد أن يقصد حضرته ، ويجمعَ العساكرَ حينئذٍ يأتي لقتاله . وشاورَ أرباب الدولة في ذلك . وكان أمراء خراسان والغرباء أشدّ الناس خوفاً من هذا القائم ، لأنّه هندي ، وأهلُ الهند مبغضون في الغرباء لإظهار السلطان لهم ، فكروهوا ما ظهرَ له ، وقالوا : يا خوند عالم ! إن فعلتَ ذلك بلغته الخبر ، فاشتدّ أمرُه ورتبَ العساكر ، واثّالَ عليه طلابُ الشرّ ودعاة الفتن ، والأولى معاجلته قبل استحكام قوّته .

وكان أولّ من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الأوهري ، ووافقه جميعهم ،

فعملَ السلطان بإشارتهم ، وكتبَ تلك الليلة إلى من قربَ منه من الأمراء والعساكر فأتوا من حينهم ، وأدارَ في ذلك حيلةً حسنة ، فكان إذا قدمَ على محلته مثلاً مائةُ فارس بعثَ الآلاف من عنده للقائهم ليلاً . ودخلوا معهم إلى المحلة ، كأنَّ جميعهم مددٌ له .

وتحركَ السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قينوج وراء ظهره ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها . وبينها وبينَ الموضع الذي كان به ثلاثة أيام ، فرحلَ أولَ مرحلة . وقد عبأ جيشه للحرب وجعلهم صفّاً واحداً عند نزولهم ، كلٌّ واحد منهم بينَ يديه سلاحه . وفرسه إلى جانبه ، ومعه خبائض صغير يأكلُ به ويتوضأً ويعودُ إلى مجلسه . والمحلة الكبرى على بعد منهم . ولم يدخل السلطان في تلك الأيام الثلاثة خبأً ، ولا استظلَّ بظل .

وكنْتُ في يومٍ منها بخبائي فصاحَ بي فتى من فتياي اسمه سنبل ، واستعجلني ، وكان معي الجوّاري ، فخرجتُ إليه ، فقال : إنَّ السلطان أمرَ الساعة أن يُقتل كلَّ من معه امرأته أو جاريته ، فشفعَ عنده الأمراء ، فأمرَ أن لا تبقى الساعة بالمحلة امرأةً وان يُحملنَ إلى حصن هنالك على ثلاثة أميال يقال له كنبيل ، فلم تبقى امرأةً بالمحلة ولا مع السلطان .

وبتنا تلك الليلة على تعبئة ، فلمّا كان في اليوم الثاني رتبَ السلطان عسكره أفواجاً وجعل مع كلِّ فوج الفيلة المدرّعة ، عليها الأبراج فوقها المقاتلة ، وتدرع العسكرُ وتهاووا للحرب ، وباتوا تلك الليلة على أهبة . ولمّا كان اليوم الثالث بلغَ الخبر بأن عين الملك الثائر جاز النهر ، فخافَ السلطان من ذلك ، وتوقعَ أنّه لم يفعله إلاّ بعد مراسلة الأمراء الباقين مع السلطان ، فأمرَ في الحين بقسَم الخيل العتاق على خواصّه ، وبعثَ لي حظّاً منها ، وكان لي صاحب يسمّى أميرَ أميران الكرمانى من الشجعان ، فأعطيتُه فرساً منها أشهبَ اللون . فلمّا حرّكه جمعَ به ، فلم يستطع إمساكه ، ورماه عن ظهره ، فمات ، رحمه الله تعالى .

وجدَ السلطان ذلك اليوم في مسيره فوصلَ بعد العصر إلى مدينة قِنَّوَج ، وكان يخافُ أن يسبقه القائمُ إليها ، وباتَ ليلته تلك يرتبُ الناسَ بنفسه ، ووقف علينا ، ونحنُ في المقدمة مع ابن عمته ملك فيروز ، ومعنا الأميرُ غدا بن مهنا ، والسيّدُ ناصر الدين مطهر ، وأمراء خراسان ، فأضافنا إلى خواصه ، وقال : أنتم أعزاء عليّ ، ما ينبغي أن تفارقوني ، وكان في عاقبة ذلك الخير . فإن القائم ضربَ في آخر الليل على المقدمة . وفيها الوزير خواجه جهان ، فقامت ضجّةٌ في الناس كبيرة . فحينئذ أمرَ السلطان أن لا يبرَحَ أحدٌ من مكانه ولا يُقاتلَ الناسُ إلاّ بالسيوف ، فاستلّ العسكر سيوفهم ونهضوا إلى أصحابهم وحميّ القتال ، وأمرَ السلطانُ أن يكون شعارُ جيشه دهلي و غزنة . فإذا لقي أحدهم فارساً قال له : دهلي ، فإن أجابه بغزنة علمَ أنّه من أصحابه وإلاّ قاتله . وكان القائمُ إنّما قصدَ أن يضربَ على موضع السلطان . فأخطأ به الدليلُ . فقصد موضع الوزير ، فضربَ عنقَ الدليل .

وكان في عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيّون . وهم أعداء الهنود . فصدّقوا القتال . وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفاً ، فانهمزوا عند طلوع الفجر . وكان الملك إبراهيم المعروف بالهَنَسْجِيّ التتري قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة ، وهي قريةٌ من بلاد عين الملك ، فاتّفقَ معه على الخلاف وجعله نائبه . وكان داود بن قطب الملك وابنُ ملك التجار على فيلة السلطان وخيله . فوافقاه أيضاً . وجعلَ داود حاجبته .

وكان داودُ هذا لما ضربوا على محلّة الوزير يجهر بسبّ السلطان ويشتمه أقبح شتم ، والسلطان يسمعُ ذلك ويعرفُ كلامه ، فلمّا وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التتري : ماذا ترى يا ملك إبراهيم ؟ قد فرّ أكثر العسكر وذوو النجدة منهم ، فهل لك أن ننجو بأنفسنا ؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم : إذا أراد عين الملك أن يفرّ فإنّي سأقبض على دَبّوقته ، فإذا فعلتُ ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقطَ إلى الأرض فنقبضَ عليه ونأتي به السلطان ليكون ذلك كفارةً

لذنب في الخلاف معه وسبباً لخلاصه . فلمّا أرادَ عينُ الملك الفرار قال له إبراهيم : إلى أينَ يا سلطان علاء الدين؟ وكان يسمّى بذلك ، وأمسك بدبّوقته ، وضرب أصحابه فرسه ، فسقطَ إلى الأرض ورمى إبراهيم نفسه عليه فقُبضه ، وجاء أصحابُ الوزير ليأخذوه ، فمنعهم وقال : لا أتركه حتى أوصله للوزير أو أموت دون ذلك ، فتركوه ، فأوصله إلى الوزير .

وكنْتُ أنظرُ عند الصبح إلى الفيلة والأعلام يُؤتَى بها إلى السلطان . ثمّ جاءني بعضُ العراقيّين فقال : قد قُبِضَ على عين الملك وأُتي به الوزير ، فلم أصدّقْه ، فلم يمرّ إلّا يسيراً وجاءني الملك تَمُور الشربدار ، فأخذَ بيدي وقال : ابشر ! فقد قُبِضَ على عين الملك ، وهو عند الوزير . فتحركَ السلطان عند ذلك ونحنُ معه إلى محلّة عين الملك على نهر الكنك . فنهبت العساكرُ ما فيها ، واقتحمَ كثيرٌ من عسكر عين الملك النهر ، فغرقوا وأخذ داودُ بن قطب الملك وابنُ ملك التجار وخلقٌ كثيرٌ معهم ، ونُهبت الأموال والخيلُ والأمتعة .

ونزلَ السلطان على المجاز . وجاء الوزير بعين الملك ، وقد أركبَ على ثور ، وهو عريان مستور العورة بخرقَةٍ مربوطة بحبل وباقية في عنقه . فوقفَ على باب السراجة ، ودخلَ الوزيرُ إلى السلطان ، فأعطاه الشربة عناية به . وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك ، فجعلوا يسبّونه ويبصقون في وجهه ويصفعون أصحابه . وبعثَ إليه السلطانُ الملكَ الكبير فقال له : ما هذا الذي فعلت؟ فلم يجد جواباً ، فأمرَ به السلطان أن يُكسى ثوباً من ثياب الزمالة^١ ، وقِيْدَ بأربعة كبول ، وغُلّت يداه إلى عنقه ، وسلّم للوزير ليحفظه ، وجازَ لإخوته النهرَ هارين ، ووصلوا مدينة عوض ، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال ، وقالوا لزوجات أخيه عین الملك : اخلصي بنفسك وبنيك معنا ! فقالت : أفلا أكون كنساء الكفار اللاتي يُحرقن أنفسهنّ مع أزواجهن ؟ فأنا أيضاً أموتُ لموت زوجي وأعيشُ لعيشه ، فتركوها .

١ ثياب الزمالة أي ثياب رعاة المواشي .

وبلغ ذلك السلطان فكان سببَ خيرها ، وأدركته لها رقّةٌ ، وأدركَ الفتي سهيلٌ نصرَ الله من أولئك الاخوة فقتله ، وأتى السلطانَ برأسه ، وأتى بأمّ عين الملك وأخته وامراته ، فسُلّمنَ إلى الوزير ، وجُعِلنَ في خباءٍ بقرب خباء عين الملك ، فكان يدخلُ إليهنَّ ويجلسُ معهن ، ويعودُ إلى محبسه .

ولما كان بعد العصر من يومِ الهزيمة أمرَ السلطانُ بسراحٍ لفيفِ الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يُعبأ به ، وأتى بملك إبراهيم البستجي الذي ذكرناه ، فقال ملك العسكر الملك نوا : يا خوند عالم اقتل هذا ، فإنه من المخالفين ! فقال الوزير : إنّه قد فدى نفسه بالقائم ، فعفا عنه السلطان وسرّحه إلى بلاده .

ولما كان بعد المغرب جلسَ السلطانُ ببرج الخشب وأتى باثنين وستين رجلاً من كبار أصحاب القائم ، وأتى بالفيلة ، فطُرّحوا بين أيديها فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على أنيابها . وترمي ببعضهم إلى الهواء وتتلقّفه ، والأبواقُ والأنفار والطبولُ تُضربُ عند ذلك ، وعينُ الملك واقفٌ يعاين مقتلهم ، ويُطرح منهم عليه ، ثم أُعيدَ إلى محبسه ، وأقامَ السلطانُ على جواز النهر أياً ما لكثرة الناس وقلّة القوارب ، وأجازَ أمتعته وخزائنه على الفيلة ، وفرّقَ الفيلة على خواصّه ليجيزوا أمتعتهم ، وبعثَ إليّ بفيلٍ منها أجزتُ عليه رحلي .

وقصدَ السلطانُ ونحنُ معه إلى مدينة بَهْرَآيَج ، وهي مدينةٌ حسنة في عدوة نهر السرو ، وهو واد كبير شديد الانحدار ، وأجازه السلطانُ برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود الذي فتحَ أكثرَ تلك البلاد ، وله أخبارٌ عجيبة وغزواتٌ شهيرة . وتكاثرَ الناسُ للجواز وتزاحموا حتى غرقَ مركب كبيرٌ كان فيه نحو ثلاثمائة نفس لم ينبجُ منهم إلاّ عربي من أصحاب الأمير غدا ، وكنا ركبنا نحنُ في مركب صغير ، فسلّمنا الله تعالى .

وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمّى بسالم ، وذلك اتفاقٌ عجيب ، وكان أراد أن يصعد معنا في مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر ، فركبَ في المركب

الذي غرق ، فلمّا خرجَ ظنّ الناس أنّه كان معنا ، فقامت ضبجّة في أصحابنا وفي سائر الناس وتوهّموا أنّنا غرقنا ، ثمّ لمّا رأونا بعدُ استبشروا بسلامتنا .
وزرنا قبر الصالح المذكور ، وهو في قبّة لم نجد سبيلاً إلى دخولها لكثرة الزحام . وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب ، فخرجَ علينا منها الكسرُ كدّناً ، فقتلَ ، وأتّى الناس برأسه ، وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وقد ذكرناه .

ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كر

ولمّا ظفّر السلطان بعين الملك ، كما ذكرنا ، عادَ إلى حضرته بعدَ مغيب عامين ونصف ، وعفّا عن عين الملك ، وعفا أيضاً عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك ، وجعلهما معاً على عمل واحد ، وهو النظر على بساتين السلطان ، وكساهما وأركبهما ، وعيّنَ لهما نفقة من الدقيق واللحم في كلّ يوم ، وبلغَ الخبرُ بعد ذلك أن أحد أصحاب قتلُو خان ، وهو علي شاه كر ، ومعنى كر الأطرش ، خالفَ على السلطان ، وكان شجاعاً حسن الصورة والسيرة ، فغلبَ على بدركوت ، وجعلها مدينة ملكه ، وخرجت العساكرُ إليه ، وأمرَ السلطان معلّمه أن يخرجَ إلى قتاله ، فخرجَ في عساكر عظيمة ؛ وحصره ببدركوت ونُقبت أبراجُها ، واشتدّت به الحالُ ، فطلبَ الأمان فأمنه قتلُو خان ، وبعثَ به إلى السلطان مقيّداً ، فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غزنة من طرف خراسان ، فأقام بها مدّة ، ثمّ اشتاق إلى وطنه ، فأراد العودة إليه لما قضاه الله من حينه ، فقبضَ عليه ببلاد السند وأتي به السلطان ، فقال له : إنّما جئت لتثيّر الفساد ثانيةً ، وأمرَ به ، فضربت عنقه ،

ذكر فرار أمير بخت وأخذه

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان ، فحطّ مرتبه من أربعين ألفاً إلى ألف واحد ، وبعثه في خدمة الوزير إلى دهلي ، واتفق أن مات أمير عبد الله الهروي في الوباء بالتلنك ، وكان ماله عند أصحابه بدهلي ، فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب ، فلمّا خرج الوزير من دهلي إلى لقاء السلطان هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا إلى أرض السند في سبعة أيّام ، وهي مسيرة أربعين يوماً .

وكانت معهم الخيل مجنوبة ، وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عوماً ، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم في معدّية قصب يصنعونها ، وكانوا قد أعدّوا جبالاً من الحرير برسم ذلك ، فلمّا وصلوا إلى النهر خافوا من عبوره بالعوام ، فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجه فقالا له : إن هاهنا تجاراً أرادوا أن يعبروا النهر وقد بعثوا إليك بهذا السرج لتُبيح لهم الجواز . فأكرّ الأمير أن يُعطى التجار مثل ذلك السرج . وأمر بالقبض على الرجلين ، ففرّ أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه . وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر . فأخبرهم الخبر ، فركبوا مذعورين وفرّوا .

وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذي قبض عليه . فاعترف بقضية شرف الملك . فأمر جلال الدين نائبه . فركب في العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتنوا اثرهم فأدركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين بسهم فأثبته في ذراعه ، وغلب عليهم . فأتي بهم إلى جلال الدين ، فقيدهم وغلّ أيديهم . وكتب إلى الوزير في شأنهم ، فأمره الوزير أن يبعثهم إلى الحضرة . فبعثهم إليها وسجنوا بها . فمات طاهر في السجن ، وأمر السلطان أن يُضرب شرف الملك مائة مقرعة في كلّ يوم . فبقي على ذلك مدة ثمّ عفا عنه . وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نجلة إلى بلاد جنديري ،

فانتهت حاله إلى أن كان يركب البقر . ولم يكن له فرس " يركبه .
وأقام على ذلك مدة ، ثم وفد ذلك الأمير على السلطان ، وهو معه ، فجعله
السلطان شاشنكير (جاشنكير) وهو الذي يقطع اللحم بين يدي السلطان ويمشي
مع الطعام ، ثم أنه بعد ذلك نوّه به ورفع مقداره ، وانتهت حاله إلى أن مرض ،
فزاره السلطان وأمرَ بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك .
وقد قدّمنا هذه الحكاية في السفر الأول ، وبعد ذلك زوّجه بأخته وأعطاه
بلاد جنديري التي كان يركب بها البقر في خدمة الأمير نظام الدين ، فسبحان
مقلب القلوب ومحول الأحوال .

ذكر خلاف شاه افغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند ، وقتل
الأمير بها ، وكان يسمّى به " زاد وادّعى السلطنة لنفسه ، وتجهّز السلطان لقتاله ،
فعلم أنّه لا يقاومه فهرب ولحق بقومه الافغان . وهم ساكنون بجبال منيعة
لا يُقدر عليها ، فاغتاظ السلطان ممّا فعله ، وكتب إلى عمّاله أن يقبضوا على
من وجدوه من الافغان ببلاده ، فكان ذلك سبباً لخلاف القاضي جلال .

ذكر خلاف القاضي جلال

وكان القاضي جلال وجماعة من الافغانيّين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية
ومدينة بلوذرة ، فلمّا كتب السلطان إلى عمّاله بالقبض على الافغانيّين كتب
إلى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهرواله أن يحتال في القبض على
القاضي جلال ومن معه .

وكانت بلاد بلوذرة إقطاعاً للملك الحكماء . وكان ملك الحكماء متزوّجاً
بربّية السلطان زوجة أبيه تُغلق ، ولها بنت من تُغلق هي التي تزوّجها الأمير غدا ،
وملك الحكماء إذ ذاك في صحبة مقبل لأنّ بلاده تحت نظره ، فلمّا وصلوا إلى

بلاد الجزرات أمرَ مقبل ملك الحكماء أن يأتي بالقاضي جلال وأصحابه ، فلمّا وصلَ ملك الحكماء إلى بلاده حذّرهم في خفية لأنّهم كانوا من أهل بلاده ، وقال : إن مقبلاً طلبكم ليقبض عليكم ، فلا تدخلوا عليه إلّا بالسلاح . فركبوا في نحو ثلاثمائة مدرع ، وأتوه وقالوا : لا ندخل إلّا جملة ، فظهر له أنّه لا يمكن القبضُ عليهم وهم مجتمعون ، وخافَ منهم ، فأمرهم بالرجوع وأظهرَ تأمينهم ، فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن الكولي التاجر ، وهو الذي عمر المدرسة الحسنة بالاسكندريّة ، وسنذكره إثرَ هذا .

وجاء ملك مقبل لقتلهم فهزموه هزيمة شنيعة ، وجاء الملك عزيز الحمّار والملك جهان بنبل لقتلهم في سبعة آلاف من الفرسان ، فهزموهم أيضاً ، وتسامع بهم أهلُ الفساد والجرائم فاثالوا عليهم وادّعى القاضي جلال السلطنة ، وباعه أصحابه ، وبعثَ السلطان إليه العساكر فهزّمها ، وكان بدولة آباد جماعة من الافغان فخالفوا أيضاً .

ذكر خلاف ابن الملك مل

وكان ابن الملك مل ساكناً بدولة آباد في جماعة من الافغان ، فكتب السلطان إلى نائبه بها ، وهو نظام الدين أخو معلّمه قطلو خان ، أن يقبضَ عليهم ، وبعثَ إليه بأحمال كثيرة من القيود والسلاسل ، وبعثَ بخلع الشتاء . وعادة ملك الهند أن يبعثَ لكلّ أمير على مدينة ولوجوه عسكره خلعتين في السنة ، خلعة الشتاء وخلعة الصيف ، وإذا جاءت الخلع يخرج الأمير والعسكر للقائها ، فإذا وصلوا إلى الآتي بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعته وحملها على كتفه وخدمَ بلجة السلطان . وكتبَ السلطان لنظام الدين : إذا خرج الافغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع ، فاقبض عليهم عند ذلك . وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الافغان فأخبرهم بما يراد بهم ،

فكان نظام الدين ممّن احتال فانعكست عليه ، فركبَ وركبَ الافغان معه حتّى إذا لقوا الخلع ونزلَ نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وعلى أصحابه ، فقبضوا عليه وقتلوا كثيراً من أصحابه ، ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن ، وقدّموا على أنفسهم ناصر الدين ابن الملك مل ، واثال عليهم المفسدون ، فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية

ولما بلغ السلطان ما فعله الافغان بكنباية ودولة آباد خرجَ بنفسه وعزّم على أن يبدأ بكنباية ثمّ يعود إلى دولة آباد ، وبعث أعظم ملك البايدي صهره في أربعة آلاف مقدّمة ، فاستقبلته عساكر القاضي جلال فهزموه وحصلوه ببلوذرة ، وقتلوه بها ، وكان في عسكر القاضي جلال شيخ يسمّى جلّول ، وهو أحد الشجعان ، فلا يزال يفتك في العساكر ويقتل ويطلب المبارزة ، فلا يتجاسر أحد على مبارزته ، واتفقَ يوماً أنّه دفعَ فرسه فكبا به في حفرة فسقطَ عنه وقتل ، ووجدوا عليه درعين ، فبعثوا برأسه إلى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بلوذرة ، وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد .

ثمّ وصلَ السلطان بعساكره فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ففرّ في أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم ، فنهبَ ذلك كلّهُ . ودُخِلَت المدينة وأقامَ بها السلطان أيتاماً ، ثمّ رحلَ عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدّمنا ذكره وقضيّة فراره وأخذه بالسند وسجنه وما جرى عليه من الدلّ ، ثمّ من العزّ ، وأمره بالبحث عمّن كان في طاعة جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم فأدّى ذلك إلى قتل الشيخ علي الحيدري حسبما قدّمناه .

ولما هربَ القاضي جلال لحقَ بناصر الدين ابن الملك مل بدولة آباد ، ودخل في جملته ، فأتّى السلطان بنفسه إليهم واجتمعوا في نحو أربعين ألفاً من الافغان والترك والهنود والعبيد وتحالفوا على أن لا يفرّوا وأن يقاتلوا السلطان ، وأتّى السلطان لقتالهم ، ولم يُرفع الشطر الذي هو علامة عليه ، فلما استحرّ القتال رُفِعَ

الشطر ، فلما عاينوه دُهِشُوا وانهزموا أقبح هزيمة . ولحق ابنُ الملك مل والقاضي جلال في نحو أربعمائة من خواصهما إلى قلعة الدويكير ، وسنذكرها ، وهي من أمنع القلاع في الدنيا ، واستقرَّ السلطان بمدينة دولة آباد والدويكير هي قلعتها ، وبعثَ لهم أن ينزلوا على حكمه . فأبوا أن ينزلوا إلاّ على الأمان . فأبى السلطان أن يؤمنهم ، وبعثَ لهم الأطعمة تهاوناً بهم . وأقامَ هنالك وعلى ذلك آخر عهدي بهم .

ذكر قتال مقبل وابن الكولمي

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلال وخلافه . وكان تاج الدين بن الكولمي من كبار التجّار ، فوفدَ على السلطان من أرض الترك بهدايا جلييلة منها : الممالك والجمال والمتاع والسلاح والثياب . فأعجبَ السلطان فعله . وأعطاه اثني عشر لکاً ، ويذكر أنه لم تكن قيمة هديّته إلاّ لکاً واحداً ، وولاه مدينة كنباية ، وكانت لنظر الملك مقبل نائب الوزير . فوصلَ إليها وبعثَ المراكب إلى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها ، وجاءته التحف والهدايا في المراكب وضخمت حاله . ولما لم يبعثَ أموال تلك الجهات إلى الحضرة بعثَ الملك مقبل إلى ابن الكولمي أن يبعثَ ما عنده من الهدايا والأموال مع هدايا تلك الجهات على العادة . فامتنع ابن الكولمي من ذلك ، وقال : أنا أحملها بنفسي أو أبعثها مع خدّامي . ولا حكم لنائب الوزير عليّ ولا للوزير . واغترّ بما أولاه السلطان من الكرامة والعطيّة . فكتبَ مقبل إلى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه : إن كنت عاجزاً عن بلادنا فاتركها وارجع إلينا ؛ فلما بلغه الجواب تجهّز في عسكره ومماليكه والتقيا بظاهر كنباية . فانهزمَ ابن الكولمي وقُتل جماعة من الفريقين . واستخفى ابن الكولمي في دار الناخوذة (الناخذا) الياس أحد كبراء التجّار . ودخلَ مقبلُ "المدينة فضربَ رقابَ أمراء عسكر ابن الكولمي . وبعثَ له الأمان على أن يأخذ ماله المختصّ به ويترك مال السلطان وهديّته ومجّبي البلد ؛ وبعثَ مقبل بذلك كلّهُ مع خدّامه إلى السلطان وكتبَ شاكياً من ابن الكولمي .

وكتبَ ابن الكولي شاكياً منه ، فبعثَ السلطان ملك الحكماء ليتنصف بينهما .
وبأثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين ، فنهَبَ مال ابن الكولي ، وفرَّ
ابن الكولي في بعض مماليكه ولحقَ بالسلطان .

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفي مدّة مغيب السلطان عن حضرته إذ خرجَ بقصد بلاد المعبر ، وقعَ
الغلاء واشتدَّ الأمر وانتهى المنّ إلى ستين درهماً ، ثمّ زاد على ذلك ، وضاقَت
الأحوال وعظم الخطب . ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير ، فرأيت ثلاث نسوة
يَقْطَعْنَ قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر ويأْكُلْنَهُ ، وكانت الجلود تطبخ
وتباع في الأسواق ، وكان الناس إذا ذُبِحَت البقرُ أخذوا دماءها فأكلوها .

وحدثني بعض طلبة خراسان أنّهم دخلوا بلدة تسمّى أكروهة بين حانسي
وسرستي ، فوجدوها خالية ، فقصدوا بعض المنازل ليسيئوا به ، فوجدوا في بعض
بيوته رجلاً قد أضرَمَ ناراً ، وبيده رجلٌ آدميٌّ وهو يشويها في النار ويأكل
منها ، والعياذ بالله .

ولما اشتدَّت الحال أمرَ السلطان أن يُعْطَى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر .
فكانت القضاة والكتّاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ، ويكتبون الناس ،
ويعطون لكلّ أحدٍ نفقة ستة أشهر بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في
اليوم لكلّ واحدٍ . وكنتُ في تلك المدّة أطعمُ الناس من الطعام الذي أصنعه
بمقبرة السلطان قطب الدين ، حسبما يُذكر ، فكان الناس ينتعشون بذلك ، والله
تعالى ينفع بالقصد فيه .

وإذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه
الكفاية ، فلنعد إلى ما يخصُّنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولاً إلى حضرته
وتنقلّ الحال إلى خروجنا عن الخدمة ، ثمّ خروجنا عن السلطان في الرسالة إلى
الصين وعودنا منها إلى بلادنا إن شاء الله تعالى .

وكتب ابن الكولي شاكياً منه ، فبعث السلطان ملك الحكماء ليتنصف بينهما .
وبأثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين ، فنهب مال ابن الكولي ، وفرّ
ابن الكولي في بعض مماليكه ولحق بالسلطان .

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفي مدّة مغيب السلطان عن حضرته إذ خرج بقصد بلاد المعبر ، وقع
الغلاء واشتدّ الأمر وانتهى المنّ إلى ستين درهماً ، ثمّ زاد على ذلك . وضاعت
الأحوال وعظم الخطب . ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير ، فرأيت ثلاث نسوة
يَقْنَطَعْنَ قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر ويأْكُلْنَه ، وكانت الجلود تطبخ
وتباع في الأسواق ، وكان الناس إذا ذُبَحَت البقرُ أخذوا دماءها فأكلوها .

وحدثني بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمّى أكروهة بين حانسي
وسرستي ، فوجدوها خالية ، فقصدوا بعض المنازل ليسيئوا به ، فوجدوا في بعض
بيوتهم رجلاً قد أضرمَ ناراً ، ويده رجلٌ آدميٌّ وهو يشويها في النار ويأكل
منها . والعياذ بالله .

ولما اشتدّت الحال أمرَ السلطان أن يُعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر .
فكانت القضاة والكتّاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ، ويكتبون الناس ،
ويعطون لكلّ أحد نفقة ستة أشهر بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في
اليوم لكلّ واحد . وكنتُ في تلك المدّة أطعمُ الناس من الطعام الذي أصنعه
بمقبرة السلطان قطب الدين . حسبما يُذكر ، فكان الناس ينتعشون بذلك . والله
تعالى ينفع بالقصد فيه .

وإذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه
الكفاية ، فلنعد إلى ما يخصّنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولاً إلى حضرته
وننقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ، ثمّ خروجنا عن السلطان في الرسالة إلى
الصين وعودنا منها إلى بلادنا إن شاء الله تعالى .

وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين .

ولنعد لما قصدناه فنقول : ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف ، وهم يستون به باب الحرم ، وهناك سكنى المخدومة جهان ، فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب ، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله ، ودخل معنا قاضي قضاة الممالك كمال الدين بن البرهان ، فخدم الوزير والقاضي عند بابها ، وخدمنا كخدمتهما . وكتب كاتب بابها هدايانا ، ثم خرج من الفتیان جماعة وتقدم كبارهم إلى الوزير . فكلّموه سرّاً ، ثم عادوا إلى القصر ، ثم رجعوا إلى الوزير ، ثم عادوا إلى القصر ، ونحن وقوف ، ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك . ثم أتوا بالطعام . وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السنين ، وهي مثل القدور . ولها مرافع من الذهب تّجاس عليها يسمونها السبك ، وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلّها ذهب ، وجعلوا الطعام سيماطين ، وعلى كلّ سيماط صفتان . ويكون في رأس الصفّ كبير القوم الواردين .

ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء ، وخدمنا لخدمتهم ، ثم أتوا بالشربة فشربنا ، وقال الحجاب : بسم الله . ثم أكلنا . وأتوا بالفقاع ، ثم بالتنبول ، ثم قال الحجاب : بسم الله ، فخدمنا جميعاً . ثم دعينا إلى موضع هنالك فخلع علينا خلع الحرير المذهبة . ثم أتوا بنا إلى باب القصر ، فخدمنا عنده ، وقال الحجاب : بسم الله . ووقف الوزير ووقفنا معه ، ثم أخرج من داخل القصر تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن . فأعطي كلّ واحد منا نصيبه منها ، ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة ، وبطيفور مثله فيه البلاب ، وطيفور ثالث فيه التنبول .

ومن عادتهم أن الذي يُخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده . ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الأخرى إلى الأرض . فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلّمني كيف أفعل إيناساً منه وتواضعاً ومبرة . جزاه الله خيراً . ففعلتُ كفعله ،

ذكر وصولنا إلى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان ، ودخلنا الباب الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ووجدنا عليه النقباء . وقد تقدّم ذكرهم ، فلما وصلنا إليهم تقدّم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متّسع ، فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا ، فتقدّم ضياء الدين خداوند زاده . ثمّ تلاه أخوه قوام الدين ، ثمّ أخوهما عماد الدين ، ثمّ ثلوثهم ، ثمّ تلاي أخوهم برهان الدين ، ثمّ الأمير مبارك السمرقندي . ثمّ أرون بُغا التركي ، ثمّ ملك زاده ابن أخت خداوند زاده ، ثمّ بدر الدين الفصّال .

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهرَ لنا المشور الكبير المسمّى هزار اسطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية ، وبه يجلس السلطان الجلوس العام . فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض ، وخدمنا نحن بالركوع ، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض ، وخدمتُنا لناحية سرير السلطان ، وخدم جميعُ من معنا . فلما فرغنا من الخدمة صاحَ النقباء بأصوات عالية : بسم الله ، وخرجنا .

ذكر وصولنا إلى دار أم السلطان وذكر فضائلها

وأُمّ السلطان تُدعى المخدومة جهان ، وهي من أفضل النساء . كثيرة الصدقات ، عمّرت زوايا كثيرة ، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر ، وهي مكفوفة البصر ، وسببُ ذلك أنّه لما ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زيّ ، وهي على سرير الذهب المرصع بالجواهر ، فخدمنَ بينَ يديها جميعاً ، فذهبَ بصرُها للحين ، وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع .

وولدُها أشدّ الناس براءً بها ، ومن برّه أنّها سافرت معه مرّة ، فقدم السلطان قبلها بمدة . فلما قدمت خرجَ لاستقبالها وترجّلَ عن فرسه ، وقبلَ رجلها

ثمّ انصرفنا إلى الدار المعدّة لنزولنا بمدينة دهلي وبمقرّبة من دروازة بالم منها .
وبُعِثت لنا الضيافة .

ذكر الضيافة

ولمّا وصلتُ إلى الدار التي أُعدّت لنزولي وجدتُ فيها ما يُحتاجُ إليه من
فُرش وبُسُط وحُصُر وأوانٍ وسرير الرقاد . وأسيرتُهم بالهند خفيفة الحمل يحملُ
السريّر منها الرجلُ الواحد ، ولا بدّ لكلّ أحد أن يستصحب السرير في السفر
يحملُه غلامُه على رأسه . وهو أربع قوائم مخروطة . يُعرّضُ عليها أربعة أعواد .
وتنسجُ عليها صفائرُ من الحرير أو القطن . فإذا نامَ الإنسان عليه لم يحتاج إلى
ما يرطّبه به لأنّه يعطي الرطوبة من ذاته .

وجاؤوا مع السرير بمضربتين^١ وميخدتين ولحافٍ . كلّ ذلك من الحرير .
وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (واللحف) وجوهاً تغشيها من كتان
أو قطن بيضاء . فمَتى توسّخت غسلوا الوجوه المذكورة . وبقي ما في داخلها
مصبوناً .

وأثّوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمّونه الخراس . والآخر
الجزّار ويسمّونه القصاب . فقالوا لنا : خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن
هذا كذا وكذا من اللحم . لأوزان لا أذكرها الآن .

وعادتهم أن يكون اللحمُ الذي يُعطون بقدر وزن الدقيق . وهذا الذي
ذكرناه ضيافة أمّ السلطان . وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان . وسنذكرها .
ولمّا كان من غد ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان وسلّمنا على الوزير
فأعطاني بتدرتين كلّ بدرة من ألف دينار دراهم . وقال لي : هذه سر ششتي
(شستي) ومعناه لغسل رأسك . وأعطاني خلعة من المرعز . وكتبَ جميعَ
أصحابي وخدمتي وغلماي . فجعلوا أربعة أصناف : فالصنفُ الأوّل منها

١ المضربة : كساء ذو طاقين بينهما قطن .

أعطي كل واحد منهم مائتي دينار ؛ والصنفُ الثاني أعطي كلَّ واحد منهم مائة وخمسين ديناراً ؛ والصنفُ الثالث أعطي كلَّ واحد مائة دينار ؛ والصنفُ الرابع أعطي كلَّ واحد خمسة وسبعين ديناراً ، وكانوا نحو أربعين ، وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفاً .

وبعدَ ذلك عُيِّنَت ضيافة السلطان ، وهي ألف رطل هندية من الدقيق ، ثلثها من الميرا ، وهو الدرملك ، وثلثاها من الخشكار ، وهو المدهون ، وألف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة لا أذكر عددها ، والألف من ورق التنبول ، والرطل الهندي عشرون رطلاً من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر . وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ، ومثلها من اللحم مع ما يناسبها ممّا ذكرناه .

ذكر وفاة بنّي وما فعلوا في ذلك

ولمّا كان بعدَ شهر ونصف من مقدمنا ، توفيت بنت لي . سنّها دون السنة ، فاتّصلَ خبرُ وفاتها بالوزير ، فأمرَ أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم ، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القونوي ، فدفنّاها بها ، وكتبَ بخبرها إلى السلطان ، فاتاه الجواب في عشيّ اليوم الثاني ، وكان بين متصيّد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيّام .

وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ، ويفرشون جوانب القبر بالبُسْط وثياب الحرير ، ويجعلون على القبر الأزاهير . وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول . كالياسمين وقل شبه (كل شَبَّو) وهي زهر أصفر ، وريبول . وهو أبيض ، والنسرين ، وهو على صنفين أبيض وأصفر . ويجعلون أغصان النارج والليمون بشمارها ، وإن لم يكن فيها ثمار علّقوا منها حبّات بالخيوط . ويصبّون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ، ويجتمع الناس ويؤتّى بالمصاحف فيقرأون القرآن . فإذا ختموه أتوا بماء الجلاب

فسقوه الناس ، ثم يُصبّ عليهم ماء الورد صبّاً ، ويعطون التنبول وينصرفون . ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت عند الصبح على العادة ، وأعدت ما تيسّر من ذلك كله ، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك ، وأمر بسراجة فضربت على القبر ، وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملته من كبار أهل المدينة ، ولم آت إلا والقوم المذكورون قد أخذوا مجالسهم ، والحاجب بين أيديهم ، وهم يقرأون القرآن ، فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر ، فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان ، ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان ، وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً ، فخدموا ثم جلسوا ، ودعا القاضي دعاء حسناً .

ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبّوه على الناس ، ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات ، ثم فرقوا عليهم التنبول ، ثم أتت بإحدى عشرة خلعة لي ولأصحابي ، ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان ، فخدمنا للسرير على العادة ، وانصرفت إلى منزلي ، فما وصلت إلا وقد جاء من الطعام من دار المخدمومة جهان ما ملأ الدار ودور أصحابي ، وأكلوا جميعاً وأكل المساكين وفضلت الأقراص والخلواء والنبات ، فأقامت بقاياها أياماً ، وكان فعيل ذلك كله بأمر السلطان .

وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدمومة جهان بالدولة ، وهي المحفة التي يحمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضاً ، وهي شبه السرير ، سطحها من ضفائر الحرير أو القطن ، وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا ، معوج من القصب الهندي المغلوق ، ويحملها ثمانية رجال في نوبتين ، يستريح أربعة ويحمل أربعة . وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس ، فمن كان له عبيد حملوه ، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالاً يحملونه . وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الأسواق وعند باب السلطان وعند أبواب

الناس للكري . وتكون دول النساء مغشاةً بغشاية حرير ، وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار أمّ السلطان ، فحملوا فيها جارياتي التي هي أمّ البنت المتوفاة ، وبعثتُ أنا معها عن هدية جارية تركية ، فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت في اليوم الثاني ، وقد أعطوها ألف دينار دراهم ، وأساور ذهب مرصعة ، وتهليلاً^١ من الذهب مرصعاً أيضاً ، وقميص كتان مزركشاً بالذهب ، وخلعة حرير مذهبة ، وتختاً بأثواب . ولما جاءت بذلك كله أعطيتُهُ لأصحابي وللتجار الذين لهم علي الدين محافظة على نفسي وصوناً لعرضي لأنّ المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالي .

ذكر إحسان السلطان والوزير إليّ في أيام غيبة السلطان عن الحضرة

وفي أثناء مقامي أمرَ السلطان أن يعيّن لي من القرى ما يكون فائدة خمسة آلاف دينار في السنة ، فعيّنها لي الوزير وأهل الديوان ، وخرجتُ إليها ، فمنها قرية تسمّى بدلي ، وقرية تسمّى بسّهي ، ونصف قرية تسمّى بلكرة ، وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروهاً وهو الميل بصدي يعرف بصدي هند بت^٢ ، والصّدي عندهم مجموع مائة قرية ، وأحواز المدينة مقسومة أصداء ، كلّ صدي له جوطري ، وهو شيخ من كفّار تلك البلاد ، ومتصرّف ، وهو الذي يضمّ مجايبها . وكان قد وصلَ في ذلك الوقت سبيّ من الكفّار ، فبعثَ الوزيرُ إليّ عشرَ جوار منه ، فأعطيتُ للذي جاء بهن واحدة منهن ، فما رضي بذلك ، وأخذَ أصحابي ثلاثاً صغاراً منهنّ ، وباقيهنّ لا أعرف ما اتفقَ لهن . والسبيّ هنالك رخيصُ الثمن لأنّهن قنّدرات لا يعرفنّ مصالح الحضرة ، والمعلمات رخيصات الأثمان ، فلا يفتقر أحدٌ إلى شراء السبي .

والكفّار ببلاد الهند في برّ متّصل وبلاد متّصلة مع المسلمين ، والمسلمون

١ تهليل : لعله قطعة من الذهب على شكل هلال .

٢ هند بت : الصنم الهندي .

غالبون عليهم . وإنّما يمتنعُ الكفّار بالجبّال والأوعار ، ولهم غيضاّتٌ من القصب . وقصبُهم غيرُ مجوّف ، ويعظم ويلتفّ بعضُه على بعض ، ولا تؤثرُ فيه النار ، وله قوةٌ عظيمةٌ ، فيسكنون تلك الغياض ، وهي لهم مثلُ السور وبدخلها تكون مواشيهم وزروعهم ، ولهم فيها المياه ممّا يجتمع من ماء المطر ، فلا يُقدر عليهم إلّاّ بالعساكر القويّة من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، ويقطعون تلك القصب بآلات معدّة لذلك .

ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان

وأطلّ عيدُ الفطر والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة ، فلمّا كان يوم العيد ركبَ الخطيب على الفيل ، وقد مُهّدَ له على ظهره شبهُ السرير ورُكّزَت أربعةُ أعلامٍ في أركانه الأربعة . ولبس الخطيب ثيابَ السواد ، وركبَ المؤذّنون على الفيلة يكبرون أمامه . وركبَ فقهاء المدينة وقضاؤها . وكلّ واحد منهم يستصحبُ صدقة يتصدّقُ بها حينَ الخروج إلى المصلّى . ونُصِبَ على المصلّى صيوانُ قطن وفُرُشَ ببُسط . واجتمعَ الناسُ ذاكرين لله تعالى ، ثمّ صلّى بهم الخطيب وخطبَ ، وانصرفَ الناس إلى منازلهم . وانصرفنا إلى دار السلطان وأُعِدَّ الطعام فحضره الملوك والأمراء والأعزّة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا .

ذكر قدوم السلطان ولقائنا له

ولمّا كان في رابع شوال نزلَ السلطان بقصر يسمّى تِلْبَسَتْ ، وهي على مسافة سبعة أميال من الحضرة . فأمرنّا الوزيرُ بالخروج إليه ، فخرجنا ومع كلّ إنسان هديّته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانيّة والسيوف المصريّة والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك : فوصلنا إلى باب القصر وقد اجتمعَ جميعُ القادمين فكانوا يُدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم . ويُلجَع عليهم ثياب الكتّان المزركشة بالذهب .

ولما وصلت النوبة إليّ دخلت فوجدتُ السلطان قاعداً على كرسي فظننته أحد الحجاب حتى رأيتُ معه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي ، وكنتُ عرفتُه أيام غيبة السلطان ، فخدمَ الحجاب فخدمت ، واستقبلني أميرُ حاجب ، وهو ابن عمّ السلطان ، المسمّى بفيروز ، وخدمتُ ثانية لخدمته ، ثمّ قال لي ملك الندماء : بسم الله ، مولانا بدر الدين ، وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين ، وكلّ من كان من أهل الطلب إنّما يقال له مولانا . فغربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافحني وأمسك يدي وجعل يخاطبني بأحسن خطاب ويقول لي باللسان الفارسي : حلت البركة . قدومك مبارك . اجمع خاطرك . اعمل معك من المراحم وأعطيك من الإنعام ما يسمعُ به أهلُ بلادك فيأتون إليك . ثمّ سألتني عن بلادي ، فقلتُ له : بلاد المغرب ، فقال لي : بلادُ عبد المؤمن ؟ فقلتُ له : نعم ، وكان كلّما قال لي كلاماً جيّداً قبلتُ يده حتى قبلتُها سبع مرّات . وخلعَ عليّ ، وانصرفت .

واجتمع الواردون فمدّ لهم سماًطاً ، ووقفَ على رؤوسهم قاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي . وكان من كبار الفقهاء ، وقاضي قضاة الماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوي ، وعماد الملك عرض الماليك ، والملك جلال الدين الكيجي ، وجماعة من الحجاب والأمراء ، وحضرَ لذلك خداوند زاده غياث الدين . ابن عمّ خداوند زاده قوام الدين قاضي الترمذ الذي قدمَ معنا ، وكان السلطان يعظّمه ويخاطبه بالأخ . وتردّد إليه مراراً من بلاده . والواردون الذين خلّعَ عليهم في ذلك هم : خداوند زاده قوام الدين وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخته أميرُ بخت ابن السيّد تاج الدين ، وكان جدّه وجيه الدين وزير خراسان ، وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيراً أيضاً . والأمير هبة الله ابن الفلكي التبريزي . وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو الذي بنى المدرسة الفلكيّة بتبريز . وملك كراي من أولاد بهرام جور (جوبين) صاحب كسرن . وهو من أهل جبل بدخشان الذي منه يجلب الياقوت البلسخش

واللازورد ، والأمير مبارك شاه السمرقندي ، وأرون بغا البخاري ، وملك زاده الترمذي ، وشهاب الدين الكازروني التاجر الذي قدم من تبريز بالهدية إلى السلطان فسُلبَ في طريقه .

ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما أمر لنا به من المراكب

وفي الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أُعطي كل واحد منّا فرساً من مراكب السلطان ، عليه سرجٌ ولجامٌ محليّان ، وركب السلطان لدخول حضرته وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان ، وزُيّنت الفيلة أمام السلطان ، وجُعِلت عليها الأعلام ، ورفعت عليها ستة عشر شطراً منها مزركشة ومنها مرصعة ، ورفَع فوق رأس السلطان شطراً منها ، وحُمِلت أمامه العاشية ، وهي ستارة مرصعة ، وجُعِل على بعض الفيلة رعدادتٌ صغار ، فلمّا وصل السلطان إلى قرب المدينة رمي في تلك الرعدادات بالدنانير والدراهم مختلطة ، والمشاة بين يدي السلطان وسواهم ممّن حضر يلتقطون ذلك ، ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا إلى القصر ، وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام ، وصُنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير ، وفيها المغنّيات حسبما ذكرنا ذلك .

ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من الإحسان والولاية

ولمّا كان يوم الجمعة ثاني يوم دخول السلطان أتينا باب المشور فجلسنا في سقائف الباب الثالث ، ولم يكن الإذنُ حصل لنا بالدخول ، وخرَجَ الحاجب شمس الدين الفوشنجي فأمرَ الكتاب أن يكتبوا أسماءنا ، وأذنَ لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعيّن للدخول معي ثمانية ، فدخلنا ودخلوا معنا ، ثمّ جاؤوا بالبيدر والقبيّان ، وهو الميزان ، وقعدَ قاضي القضاة والكتاب ودعوا من بالباب من الأعزة ، وهم الغرباء ، فعيّنوا لكل إنسان نصيبه من تلك البدر فحصل لي منها خمسة آلاف دينار ، وكان مبلغ المال مائة ألف دينار ، تصدّقت به أم السلطان لمّا قدم ابنُها ، وانصرفنا ذلك اليوم .

وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ، ويسأل عن أحوالنا ويحاطبنا بأجمل كلام ، ولقد قال لنا في بعض الأيام : أنتم شرقتُمونا بقدمكم ، فما نقدر على مكافأتكم ، فالكبيرُ منكم مقام والدي ، والكهملُ مقام أخي ، والصغير مقام ولدي ، وما في ملكي أعظمُ من مدينتي هذه أعطيكم إياها . فشكرناه ودعونا له ، ثمّ بعد ذلك أمرَ لنا بالمرتبّات ، فعيّنَ لي اثني عشر ألف دينار في السنة ، وزادني قريتين على الثلاث التي أمرَ لي بها قبلُ : لإحداهما قرية جوزة ، والثانية قرية ملك بور .

وفي بعض الأيام بعثَ لنا خداوند زاده غياث الدين ، وقطب الملك صاحب السند ، فقالا لنا : إن خوند عالم يقول لكم : من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيتُه ذلك . فسكتَ الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم ، وتكلّمَ أميرُ بخت ابن السيّد تاج الدين الذي تقدّم ذكره ، فقال : أمّا الوزارة فميراثي ، وأمّا الكتابة فشغلي ، وغيرُ ذلك لا أعرفه . وتكلّمَ هبة الله ابن الفلكي ، فقال مثل ذلك . وقال لي خداوند زاده بالعربي : ما تقولُ أنتَ يا سيّدي ؟ وأهلُ تلك البلاد لا يدعون العربي إلّا بالتسويد ، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيماً للعرب . فقلت له : أمّا الوزارة والكتابة فليست شغلي ، وأمّا القضاء والمشيخة فشغلي وشغلُ آبائي ، وأمّا الإمارة فتعلمون أنّ الأعاجم ما أسلمت إلّا بأسيف العرب . فلمّا بلغَ ذلك إلى السلطان أعجبه كلامي ، وكان بهزار اسطون يأكل الطعام ، فبعثَ إلينا فأكلنا بين يديه وهو يأكل ، ثمّ انصرفنا إلى خارج هزار اسطون فقعدَ أصحابي ، وانصرفتُ بسبب دُمّل كان يمنعني الجلوس ، فاستدعانا السلطان ثانية ، فحضرَ أصحابي ، واعتذروا له عني ، وجئتُ بعد صلاة العصر ، فصلّيت بالمشورَ المغربَ والعشاء الآخرة .

ثمّ خرّجَ الحاجبُ فاستدعانا فدخلَ خداوند زاده ضياء الدين ، وهو أكبر الإخوة المذكورين ، فجعله السلطان أمير داد ، وهو من الأمراء الكبار ، فجلسَ

بمجلس القاضي ، فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه ، وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة ، عيّن له مجاشير^١ فائدة ذلك المقدار ، فأمر له بخمسين ألفاً عن يدٍ ، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ، ومعناه صورة السبع ، لأنه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار ما زركش فيها من الذهب ، وأمر له بفرس من الجنس الأول . والخيّل عندهم أربعة أجناس . وسروجهم كسروج أهل مصر ، ويسكسون أعظمها بالفضة المذهبة .

ثم دخل أمير بخت فأمره أن يجلس مع الوزير في مسنده ، ويقف على محاسبات الدواوين ، وعيّن له مرتباً أربعين ألف دينار في السنة ، أعطي مجاشير فائدها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعين ألفاً عن يد ، وأعطى فرساً مجهزاً وخلع عليه كخلعة الذي قبله ، ولُقّب شرف الملك .

ثم دخل هبة الله ابن الفلكي فجعله رسول دار ، ومعناه حاجب الارسال ، وعيّن له مرتباً أربعة وعشرين ألف دينار في السنة أعطي مجاشير فائدها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعة وعشرين ألفاً عن يد ، وأعطى فرساً مجهزاً وخلعة ، وجعل لقبه بهاء الملك .

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستنداً إلى السرير ، والوزير خواجه جهان بين يديه ، والملك الكبير قبولة واقف بين يديه ، فلما سلّمت عليه قال لي الملك الكبير : اخدم ، فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك . دهلي . وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة ، وعيّن لك مجاشير بمقدارها ، وأمر لك باثني عشر ألفاً نقداً تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله ، وأعطاك فرساً بسرجه ولحامه ، وأمر لك بخلعة محاربي ، وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب ، فخدمت وأخذ بيدي فتقدم بي إلى السلطان ، فقال لي السلطان :

.....

١ المجاشير ، الواحد مجشر : الخوض ولعله لفظة بمعنى مبلغ .

لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال . هو أكبر الأشغال عندنا . وكنت أفهم قوله ولا أحسنُ الجواب عنه ، وكان السلطان يفهم العربي ، ولا يحسن الجواب عنه . فقلتُ له : يا مولانا أنا على مذهب مالك ، وهؤلاء حنفيّة ، وأنا لا أعرف اللسان . فقال لي : قد عيّنتُ بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ينوبان عنك ويشاورانك ، وتكون أنت تسجّل على العقود ، وأنتَ عندنا بمقام الولد . فقلتُ له : بل عبدكم وخديمكم . فقال لي باللسان العربي : بل أنتَ سيّدنا ومخدومنا ، تواضعاً منه وفضلاً وإيناساً . ثمّ قال لشرف الملك أمير بخت : إن كان الذي رتبتُ له لا يكفيهِ لأنّه كثيرُ الإنفاق ، فأنا أعطيه زاوية إن قدر على إقامة حال الفقراء ، وقال : قل له هذا بالعربي . وكان يظنّ أنّه يحسن العربي ، ولم يكن كذلك . وفهم السلطان ذلك فقال له : برو ويكجا بخصبي (بخشي) وآن حكاية براوبكوي وتفهم كني (بكني) تا فردا إن شاء الله بيش من بياي (و) جواب أو بكري (بكوي) معناه : امشوا الليلة فارقدوا في موضع واحد وفهمه هذه الحكاية ، فإذا كان بالغد إن شاء الله تجيء إليّ وتعلمني بكلامه .

فانصرفنا ، وذلك في ثلث الليل ، وقد ضربت النوبة . والعادة عندهم ، إذا ضربت ، لا يخرج أحد ، فانتظرنا الوزير حتى خرّجَ وخرّجنا معه ، ووجدنا أبواب دهلي مسدودة ، فبتنا عند السيّد أبي الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسرابور خان ، وكان هذا الشيخ يتّجر بمال السلطان ، ويشترى له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان .

ولما كان بالغد بعثَ إلينا فقبضنا الأموال والخيلَ والخلع ، وأخذَ كل واحد منّا البدرة بالمال ، فجعلها على كاهله ، ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا ، وأتينا بالأفراس فقبّلنا حوافرها بعد أن جعلت عليها الخرق ، وقُدناها بأنفسنا إلى باب دار السلطان فركبناها ، وذلك كلّهُ عادةٌ عندهم ، ثمّ انصرفنا ، وأمرَ السلطان لأصحابي بألفي دينار وعشر خلع ، ولم يعطِ لأصحاب أحد سواي شيئاً . وكان اصحابي لهم رِواء ومنظر ، فأعجبوا السلطان وخدموا بين يديه ، وشكروهم .

ذكر عطاء ثان أمر لي به وتوقفه مدّة

وكنْتُ يوماً بالمِشور بعد أيتام من توليتي القضاء والإحسان إليّ ، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك وإلى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ ، فأتى بعضُ الحِجّاب فدعا مولانا ناصر الدين فدخلَ إلى السلطان فخلعَ عليه ، وأعطاه مصحفاً مكتلاً بالجوهر .

ثمّ أتاني بعض الحِجّاب فقال : اعطني شيئاً وأخذ لك خطّ خُرد باثني عشر ألفاً أمرَ لك بها خوند عالم . فلم أصدّقْه ، وظننتُه يريد الحيلة علي ، وهو مُجِدّ في كلامه ، فقال بعض الأصحاب : أنا أعطيهِ ، فأعطاه دينارين أو ثلاثة ، وجاء بخطّ خرد ، ومعناه الخطّ الأصغر مكتوباً بتعريف الحاجب ، ومعناه : أمر خوند عالم أن يُعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أي بتعريفه ، ويكتبُ المُبتلغُ اسمه ، ثمّ يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء ، وهم الخان الأعظم قطلو خان معلّم السلطان ، والخريطة دار ، وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام ، والأمير نكبّية الدوادار صاحب الدواة ، فإذا كتب كل واحد منهم خطّه يذهب بالبراءة إلى ديوان الوزارة فينسخُها كتاب الديوان عندهم ، ثمّ تُشَبّثُ في ديوان الأشراف ، ثمّ تُشَبّثُ في ديوان النظر ، ثمّ تكتب البروانة ، وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء . ثمّ يشبّثها الخازن في ديوانه ، ويكتب تلخيصاً في كل يوم بمبلغ ما أمرَ به السلطان ذلك اليوم من المال ، ويعرضه عليه ، فمن أراد التعجيل بعطائه أمرَ بتعجيله . ومن أراد التوقيف وقّف له ، ولكن لا بدّ من عطاء ذلك ، ولو طالّت المدّة ، فقد توقّفت هذه الاثنا عشر ألفاً ستة أشهر ، ثمّ أخذتها مع غيرها حسبما يأتي .

وعادتهم إذا أمرَ السلطان بإحسان لأحد يحط منه العُشر ، فمن أمرَ له مثلاً بمائة ألف أعطي تسعين ألفاً ، أو بعشرة آلاف أعطي تسعة آلاف .

ذكر طلب الغرماء ما لهم قِبَلِي ومدحي للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة

وكنْتُ حسبما ذكرته قد استندتُ من التجار مالا أنفقته في طريقي ،
وما صنعتُ به الهدية للسلطان ، وما أنفقته في إقامتي ، فلما أرادوا السفر إلى
بلادهم ألحوا عليّ في طلب ديونهم ، فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أَوْها :

إلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُبْتَجِلَا	أَتَيْنَا نَجْدَ السَّيْرِ نَحْوَكْ فِي الْفَلَاحَا
فَجِئْتُ مَحَلًّا مِنْ عَلائِكَ زَائِرًا	وَمَغْنَاكَ كَهْفٌ لِلزَّيَارَةِ أَهْلًا
فَلَوْ أَنَّ فَوْقَ الشَّمْسِ لِلْمَجْدِ رَتْبَةٌ	لَكُنْتُ لِأَعْلَاهَا إِمَامًا مُؤَهَّلًا
فَأَنْتَ الْإِمَامُ الْمَاجِدُ الْأَوْحَدُ الَّذِي	سَجَّيَاهُ حَتَمًا أَنْ يَقُولَ وَيَفْعَلَا
وَلِي حَاجَةٌ مِنْ فَيْضِ جُودِكَ أُرْتَجَى	قَضَاها وَقَصْدِي عِنْدَ مَجْدِكَ سُهَّلَا
أَذْكُرُهَا أَمْ قَدْ كَفَّيْتَنِي حَيَاؤَكُمْ	فَإِنْ حَيَاكُمْ ذِكْرُهُ كَانَ أَجْمَلَا
فَعَجَّلْ لِمَنْ وَافَى مَحَلَّكَ زَائِرًا	قَضَا دَيْنِهِ إِنَّ الْغَرِيمَ تَعَجَّلَا

فقدّمها بين يديه وهو قاعدٌ على كرسي ، فجعلها على ركبته وأمسك طرفها
بيده ، وطرفها الثاني بيدي ، وكنْتُ إذا أكملتُ بيتاً منها أقولُ لقاضي القضاة
كمال الدين الغزنوي : بيّن معناه لخوند عالم ، فبيّنه ، ويُعجب السلطان ،
وهم يحبّون الشعر العربي ، فلما بلغت إلى قولي : فعجّل لمن وافى (البيت) قال :
مرحمة ، ومعناه : ترحمتُ عليك ، فأخذ الحجاب حينئذٍ بيدي ليذهبوا بي
إلى موقفهم ، وأخدم على العادة ، فقال السلطان : اتركوه حتى يكملها ، فأكملتها
وخدمتُ ، وهنأني الناسُ بذلك ، وأقمتُ مدّة وكتبتُ رفعا ، وهم يسمّونه
عرض داشت ، فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند ، فدفعه للسلطان فقال له :
امض إلى خواجه جهان فقل له يعطي دينه ، فمضى إليه وأعلمه ، فقال : نعم ،
وأبطأ ذلك أيّاماً ، وأمره السلطان في خلاها بالسفر إلى دولة آباد ، وفي أثناء ذلك

خرجَ السلطان إلى الصيد وسافرَ الوزير ، فلم آخذ شيئاً منها إلّا بعد مدّة .
والسببُ الذي توقّف به عطاؤها اذكره مستوفى : وهو أنّه لما عزّم الدين
كان لهم عليّ الدين على السفر ، قلت لهم : إذا أنا أتيتُ دار السلطان فدروني^١
على العادة في تلك البلاد لعلمي أن السلطان متى علم بذلك خلّصهم . وعادتهم
أنّه متى كان لأحد دين على رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصه وقف له
بباب دار السلطان فإذا أراد الدخول قال له : دروهي^٢ وحقّ رأس السلطان ،
ما تدخل حتى تخلّصني ، فلا يمكنه أن يبرّح من مكانه حتى يخلّصه ، أو يرغب
إليه في تأخيرهِ .

فاتفقَ يوماً أن خرجَ السلطان إلى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك ، فقلت
لهم : هذا وقتكم ، فلما أردتُ الدخول وقفوا لي بباب القصر ، فقالوا لي :
دروهي السلطان ! ما تدخل حتى تخلّصنا . وكتبَ كتابُ الباب بذلك إلى السلطان ،
فخرجَ حاجب قصّة شمس الدين ، وكان من كبار الفقهاء ، فسألهم : لأيّ شيء
درهتُموه ؟ فقالوا : لنا عليه الدين ، فرجعَ إلى السلطان فأعلمه بذلك . فقال له :
اسألهم كم مبلغ الدين ؟ فسألهم فقالوا له : خمسة وخمسون ألف دينار ، فعاد إليه
فأعلمه . فأمره أن يعود إليهم ويقول لهم : إن خوند عالم يقول لكم المال عندي ،
وأنا أنصفكم منه ، فلا تطلبوه به .

وأمرَ عماد الدين السمناني وخداموند زاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار
اسطون ، ويأتي أهل الدين بعقودهم وينظروا إليها ويتحقّقوها . ففعلاً ذلك .
وأتى الغرماء بعقودهم ، فدخلا إلى السلطان وأعلماه بثبوت العقود . فضحك
وقال ممازحاً : أنا أعلم أنّه قاضٍ جهّز شغله فيها . ثمّ أمرَ خداوند زاده أن
يعطيني ذلك من الخزانة ، فطمع في الرشوة على ذلك ، وامتنع أن يكتبَ خط
خرد فبعثتُ إليه مائتي تنكة فردّها . ولم يأخذها ، وقال لي عنه بعضُ خدّامه :
إنّه طلب خمسمائة تنكة . فامتنعتُ من ذلك . وأعلمتُ عميدَ الملك بن عماد

١ لم يفسر المراد من هذه اللفظة ولا من لفظة دروهي .

الدين السمناني بذلك ، فأعلم به أباه ، وعلمه الوزير ، وكانت بينه وبين خداوند زاده عداوة ، فاعلم السلطان بذلك ، وذكر له كثيراً من أفعال خداوند زاده ، فغيّر خاطر السلطان عليه ، فأمر بحبسه في المدينة وقال : لأيّ شيء أعطاه فلان ما أعطاه . ووقفوا ذلك حتى يُعَلِّمَ هل يُعْطَى خداوند زاده شيئاً إذا منعه ، أو يمنعه إذا أعطيته ، فهذا السبب توقف عطاء ديني .

ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجه معه وما صنعت في ذلك

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير ترتبص . وكنت قد أعددت ما يُحتاجُ إليه . وعملتُ ترتيب أهل الهند ، فاشتريتُ سراجة ، وهي افراج ، وضربها هنالك مباح . ولا بدّ منها لكبار الناس . وتمتازُ سراجة السلطان بكونها حمراء ، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق ؛ واشتريتُ الصيوان ، وهو الذي يظلل به داخل السراجة ، ويرفع على عمودين كبيرين ويحملُ ذلك الرجالُ على أعناقهم ، ويقال لهم الكيوانية .

والعادة هنالك أن يكتري المسافر الكيوانية . وقد ذكرناهم ؛ ويكتري من يسوق له العشب لعلف الدواب لأنّهم لا يطعمونها التبن ؛ ويكتري الكهارين . وهم الذين يحملون أواني المطبخ ، ويكتري من يحمله في الدولة . وقد ذكرناها . ويحملها فارغة ، ويكتري الفرّاشين ، وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الأحمال على الجمال ، ويكتري الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل . فاكترت أنا جميع من احتجت له منهم ، وأظهرت القوة والهمة ، وخرجتُ يومَ خروج السلطان . وغيري أقامَ بعده اليومين والثلاثة .

فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركبَ الفيل ، وقصدّه أن يتطلّع على أحوال الناس ويعرفَ من تسارع إلى الخروج ومن أبطأ ، وجلس خارج السراجة على كرسي . فجئتُ وسلّمتُ ووقفتُ في موقعي بالميمنة ، فبعثَ إلي الملك

الكبير قبولة سرجامدار ، وهو الذي يشرد الذباب عنه ، فأمرني بالجلوس عناية بي ، ولم يجلس في ذلك اليوم سواي ، ثم أتيت بالفيل وألصق به سلم ، فركب عليه ، ورفع الشطر فوق رأسه ، وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد إلى السراجة .

وعادته إذا ركب أن يركب الأمراء أفواجاً كل أمير بفوجه وعلاماته وطبولة وأنفاره وصرناياته ، ويسمّون ذلك المراتب ، ولا يركب أمام السلطان إلا الحجاب وأهل الطرب والطبالة الذين يتقلّدون الأبطال الصغار والذين يضربون الصرنايات . ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلاً وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعيان ، وكنت أنا من أهل ميمته ، ويكون بين يديه المشاؤون والأدلاء ، ويكون خلفه علاماته ، وهي من الحرير المذهب ، والأبطال على الجمال ، وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته ، وخلفهم الأمراء وجميع الناس . ولا يعلم أحد أين يكون النزول ، فإذا مر السلطان بمكان يُعجبه النزول به أمر بالنزول ، ولا تُضرب سراجة أحد حتى تُضرب سراجته ، ثم يأتي الموكلون بالنزول فيُنزلون كل واحد في منزله . وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار ، وتقدّم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسنّنة والكراكي وغيرها من أنواع الصيد ، ويحضر أبناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود ، ويوقدون النار ويشتون ذلك . ويؤتى بسراجة صغيرة فتُضرب للسلطان ، ويجلس من معه من الخواص خارجها ، ويؤتى بالطعام ويستدعي من شاء فيأكل معه .

وكان في بعض تلك الأيام ، وهو بداخل السراجة ، يسأل عمّن بخارجها ، فقال له السيّد ناصر الدين مطهر الأوهري ، أحد ندائه : ثمّ فلان المغربي ، وهو متغيّر . فقال : لماذا ؟ فقال : بسبب الدين الذي عليه وغرماؤه يلحّون في الطلب ، وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك ، فإن أمر مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير ، أو أمر بإنصافهم . وحضر لهذا الملك

دولة شاه ، وكان السلطان يخاطبه بالعم ، فقال : يا خوند عالم ! كلَّ يومٍ هو يكلِّمني بالعربيَّة ولا أدري ما يقول . يا سيدي ناصر الدين : ماذا ؟ وقصد أن يكرِّر ذلك الكلام ، فقال : يتكلَّم لأجل الدين الذي عليه ، فقال السلطان : إذا دَخَلْنَا دار الملك فامضِ أنت يا أومار ، ومعناه يا عم ، إلى الخزنة فأعطه ذلك المال . وكان خنداوند زاده حاضراً فقال : يا خوند عالم ! إنَّه كثيرُ الإنفاق ، وقد رأيتُه ببلادنا عند السلطان طر مشيرين .

وبعدَ هذا الكلام استَحضرني السلطان للطعام ولا علمَ عندي بما جرى ، فلمَّا خرجتُ قال لي السيّد ناصر الدين : اشكرُ للملك دولة شاه . وقال لي الملك دولة شاه : اشكر لخدائوند زاده .

وفي بعض تلك الأيام ، ونحنُ معَ السلطان في الصيد ركبَ في المحلّة وكان طريقه على منزلي ، وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقة ، وكان لي خباء عند السراجة ، فوقف أصحابي عندها ، وسلّموا على السلطان ، فبعثَ عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا : لمن تلك الأخيية والسراجة ؟ فقيلَ لهما : لفلان ، فأخبراه بذلك ، فتبسّم . فلمَّا كان بالغد نفذ الأمرُ أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهري وابنُ قاضي مصر وملك صبيح إلى البلد ، فخلعَ علينا وعدنا إلى الحضرة .

ذكر الحمل الذي أهديته للسلطان

وكان السلطان في تلك الأيام سألني عن الملك الناصر : هل يركبُ الحمل ؟ فقلتُ له : نعم ! يركب المهوري في أيام الحجّ ، فيسيرُ إلى مكّة من مصر في عشرة أيام . ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد ، وأخبرته أن عندي جملاً منها ، فلمَّا عدتُ إلى الحضرة بعثتُ إلى بعض عرب مصر ، فصورَ لي صورة الكور الذي تُركبُ المهوري به ، من القير ، وأرَيْتُها بعض النجارين ، فعملَ الكور وأتقنه وكسوته بالملفّ ، وصنعتُ له رُكْباً وجعلتُ على الحمل

عباءة حسنة ، وجعلتُ له خطامَ حرير .
 وكان عندي رجلٌ من أهل اليمن يُحسنُ عملَ الحلواءِ فصنَعَ منها ما يُشبه
 التمرَ وغيره ، وبعثتُ بالجملَ والحلواءَ إلى السلطان ، وأمرتُ الذي حملها أن
 يدفعها على يد ملك دولة شاه ، وبعثتُ له بفرس وجملين ، فلمّا وصلته ذلك
 دخلَ على السلطان وقال : يا خوند عالم ! رأيتُ العجب . قال : وما ذلك ؟
 قال : فلان بعثَ جملاً عليه سرج ! فقال : اتوا به ! فأدخلَ الجملُ داخلَ
 السراجة ، وأعجبَ به السلطان ، وقال لراجلي : اركبه ، فركبه ومشاه بينَ
 يديه ، وأمرَ له بمائتي دينار دراهم وخلعة ، وعادَ الرجلُ إليّ فاعلمتني ،
 فسرتني ذلك ، وأهديتُ له جملين بعد عودته إلى الحضرة .

ذكر الجملين اللذين أهديتهما إليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك

ولمّا عادَ إليّ راجلي الذي بعثته بالجمل فأخبرني بما كان من شأنه ، صنعت
 كُورين اثنين ، وجعلتُ مقدم كلٍّ واحد ومؤخره مكسوّاً بصفائح الفضة
 المذهبة ، وكسوتُهُما بالملف وصنعتُ رَسَناً مصفحاً بصفائح الفضة ، وجعلتُ
 لهما جلتين من زردخانة مبطّنين بالكمخا ، وجعلتُ للجملين الخلاخيلَ من
 الفضة . وصنعتُ أحد عشر طيفوراً وملأتُها بالحلواء ، وغطّيتُ كلَّ
 طيفور بمنديل حرير . فلمّا قدمَ السلطان من الصيد . وقعدَ ثاني يوم قدمه
 بموضع جلوسه العام ، غدوتُ عليه بالجمال . فأمرَ بها . فحرّكتُ بينَ يديه ،
 وهزلتُ فطارَ خلخالُ أحدها ، فقال لبهاء الدين ابن الفلكي : بايل ورداري ،
 معني ذلك : ارفع الخلخال ! فرفّعه ثمّ نظرَ إلى الطيافير فقال : جداري
 (جه داري) درآن طبقها حلوا است ، معني ذلك : ما معك في تلك الأطباق ؟
 حلّواء هي ؟ فقلتُ له : نعم ! فقال للفقيه ناصر الدين الترمذي الواعظ : ما
 أكلتُ قطّ ولا رأيتُ مثل الحلواء التي بعثها إلينا ونحن بالمعسكر .

ثم أمر بتلك الطيافير أن تُرفع لموضع جلوسه الخاص ، فرفعت وقام إلى مجلسه واستدعاني ، وأمر بالطعام فأكلت ، ثم سألتني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له قبل فقلت له : يا خوند عالم ! تلك الحلواء أنواعها كثيرة ولا أدري عن أي نوع تسألون منها ؟ فقال : إيتوا بتلك الأطباق ، وهم يسمون الطيفور طبقاً ، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها ، فقال : عن هذا سألتك . وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له : هذه يقال لها المقرصة ، ثم أخذ نوعاً آخر فقال : وما اسم هذه ؟ فقلت له : هي لُقَيْمَات القاضي ، وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يُعرف بالسّامري ، وينتسب إلى آل العباس ، رضي الله تعالى عنه ، وهو كثير المال ، ويقول له السلطان : والدي ، فحسدني وأراد أن ينجلي ، فقال : لَيْسَتْ هذه لُقَيْمَات القاضي بل هي هذه ، وأخذ قطعة من التي تسمى جَلْدَ الفرس . وكان بإزائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي ، وكان كثيراً ما يُمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان . فقال له : يا خواجه أنت تكذب والقاضي يقول الحق ، فقال له السلطان : وكيف ذلك ؟ فقال : يا خوند عالم ! هو القاضي ، وهي لُقَيْمَاتُهُ ، فإنه أتى بها . فضحك السلطان وقال : صدقت . فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفَقَّاع بعد ذلك ، وأخذنا للتنبول وانصرفنا ، فلم يكن غير هُنيهة وأتاني الخازن فقال : ابعت أصحابك يقبضون المال ، فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب ، فوجدت المال بها ، وهو ثلاث بَدَر ، فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة ، وذلك صرفُ الخمسة والخمسين ألفاً التي هي دين عليّ ، وصرفُ الاثني عشر ألفاً التي أمر لي بها فيما تقدّم بعد حطّ العشر على عاداتهم ، وصرفُ التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضرة

وفي تاسع جمادى الأولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر ، وقتال القائم بها ، وكنت قد خلصت أصحاب الدين ، وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفرّاشين والكيوانية والدواوية ، وقد تقدّم ذكرهم ، فخرج الأمر بإقامتي في جملة ناس ، وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له ، وتلك عادتهم ، خوفاً من أن ينكر المبلغ ، وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم ، وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف ، وكذلك كل من أقام من الأعزّة . وأمّا البلديون فلم يعطوا شيئاً . وأمر لي السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين الذي تقدّم ذكره ، وكان السلطان يعظم تربته تعظيماً شديداً لأنه كان خديماً له ، ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعلته فيقبله ويجعله فوق رأسه .

وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة ، وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته ، وكان يعظم زوجته ويدعوها بالأخت ، وجعلها مع حرمة وزوجها بعد ذلك لابن قاضي مصر ، واعتنى به من أجلها . وكان يمضي لزيارتها في كل جمعة .

ولما خرج السلطان بعث إلينا للوداع ، فقام ابن قاضي مصر فقال : أنا لا أودع ولا أفارق خوند عالم ، فكان له في ذلك الخير ، فقال له السلطان : امض فتجهز للسفر ! وقدمت بعده للوداع ، وكنت أحب الإقامة ، ولم تكن عاقبتها محمودة ، فقال : مالك من حاجة ؟ فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل . فقال لي : تكلم بلسانك ! فقلت له : إن خوند عالم أمر لي بالقضاء ، وما قعدت لذلك بعد ، وليس مرادي من القضاء إلاّ حرمة ، فأمرني بالعود للقضاء وقعود النائين معي ، ثم قال لي : ايه ، فقلت : وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل بها ؟ فإني ربت فيها أربعمئة وستين شخصاً ، ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامهم ؟ فقال للوزير : بنجاه هزار ، ومعناه : خمسون

ألفاً . ثم قال : لا بدّ لك من غلّة بديّة ، يعني : اعطيه مائة ألف منّ من الغلّة ، وهي القمحُ والأرزُ ، ينفقها في هذه السنة حتى تأتي غلّة الروضة ، والمنّ عشرون رطلاً مغربيّة . ثمّ قال لي : وماذا أيضاً ؟ فقلت : إنّ أصحابي سُجِنُوا بسبب القرى التي أعطيتهموني ، فإني عوّضتها بغيرها . فطلبَ أهلُ الديوان ما وصلّني منها ، أو الاستظهار بأمر خوند عالم أن يرفعَ عني ذلك . فقال : كم وصلّك منها ؟ فقلت : خمسة آلاف دينار . فقال : هي إناعمٌ عليك . فقلت له : وداري التي أمرتُم لي بها مفتقرة إلى البناء . فقال للوزير : عمارة كنيدي أي ، معناه عمروها . ثمّ قال لي : ديكر نمائد ، معناه : هل بقي لك كلام ؟ فقلت له : لا ، فقال : لي وصيّة ديكر هست ، معناه : أوصيك أن لا تأخذ الدين لثلاثٍ تُطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إليّ . أنفقْ على قدر ما أعطيتُك ، قال الله تعالى : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً . فأردتُ أن أقبلَ قدّمته فمستعني ، وأمسك رأسي بيده فقبّلته وانصرفت .

وعدتُ إلى الحضرة فاشتغلتُ بعمارة داري وأنفقتُ فيها أربعة آلاف دينار أعطيتُ منها من الديوان ستمائة دينار ، وزدتُ عليها الباقي ، وبنيتُ بإزائها مسجداً واشتغلتُ بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين ، وكان السلطان قد أمرَ أن تُبنى عليه قبّةٌ يكونُ ارتفاعُها في الهواء مائة ذراعٍ بزيادة عشرين ذراعاً على ارتفاع القبّة المبنية على قازان ملك العراق ، وأمرَ أن تُشترى ثلاثون قرية تكون وقفاً عليها ، وجعلها بيدي على أن يكون لي العشر من فائدها على العادة .

ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيباً كترتيبهم بقيد الحياة ، ويؤنّس بالفيلة والحيل فتربط عند باب التربة ، وهي مزيّة ، فرتبتُ أنا في هذه التربة بحسب ذلك ، ورتبتُ من قرّاء القرآن مائة وخمسين ، وهم يسمّونهم الختميين ؛

ورَتَّبَتْ من الطلبة ثمانين ، ومن المعيدين ، ويسمّونهم المكرّرين ، ثمانية ؛
ورَتَّبَتْ لها مدرّساً ؛ ورَتَّبَتْ من الصوفية ثمانين ، ورَتَّبَتْ الإمام والمؤدّنين
والقراء بالأصوات الحسان والمدّاحين وكتّاب الغيبة والمعرّفين ، وجميع هؤلاء
يُعرفون عندهم بالأرباب ، ورَتَّبَتْ صنفاً آخر يُعرفون بالحاشية ، وهم الفرّاشون
والطبّاخون والدواوية والابدارية ، وهم السقّاؤون ، والشربدارية الذين
يسقون الشربة ، والتنبول دارية الذين يعطون التنبول ، والسلحدارية والنيزدارية
والشطردارية والطشت دارية والحجّاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين .
وكان السلطان أمرَ أن يكون الطعامُ بها كلّ يوم اثني عشرَ منّاً من الدقيق
ومثلها من اللحم ، فرأيتُ أن ذلك قليل ، والزرع الذي أمرَ به كثير ، فكنتُ
أنفِقُ كلّ يومٍ خمسةً وثلاثينَ منّاً من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبعُ ذلك
من السكر والنبات والسمن والتنبول ، وكنتُ أطعمُ المرتبين وغيرهم من صادر
ووارد ، وكان الغلاء شديداً فارتفقَ الناسُ بهذا الطعام وشاعَ خبرُهُ .
وسافرَ الملك صَبِيحُ إلى السلطان بدولة آباد فسأله عن حال الناس ، فقال له :
لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكّا الجهد ، فأعجبَ ذلك السلطان ، وبعثَ
إليّ بخلعة من ثيابه . وكنتُ أصنعُ في المواسم ، وهي العידان والمولد الكريم ويوم
عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين ، مائة منّ من
الدقيق ومثلها لحماً ، فيأكل منها الفقراء والمساكين . وأمّا أهلُ الوظيفة فيُجعل
أمام كلّ إنسان منهم ما يخصّه ، ولنذكر عاداتهم في ذلك .

ذكر عاداتهم في إطعام الناس في الولايم

وعاداتهم ببلاد الهند وببلاد السرا أنّه إذا فرغَ من أكل الطعام في الوليمة
جُعِلَ أمام كلّ إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاءٌ شبه المسدّ ،
له أربع قوائم ، منسوجٌ سطحه من الخوص ، وجُعِلَ عليه الرقاق ورأسُ غنم
مشوي ، وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية ، مغطاة بأربع

قطع من الحلواء كأنّها الآجر ، وطبق صغير مصنوع من الجلد فيه الحلواء والسموسك ، ويُغَطَّى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ، ومن كان دون من ذكرناه جُعِلَ أمامه نصفُ رأس غنم ، ويسمونه الزلة ، ومقدار النصف ممّا ذكرناه ، ومن كان دون هؤلاء أيضاً جُعِلَ أمامه مثل الربع من ذلك ، ويرفع رجال كلّ أحد ما جُعِلَ أمامه .

وأوّل ما رأيتهُم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك ، فامتنعت أن يرفع رجالي ذلك ، إذ لم يكن لي به عهد ، وكذلك يبعثون أيضاً لدار كبراء الناس من طعام الولائم .

ذكر خروجي إلى هزار امروها

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف منّ ، ونفذ لي الباقي في هزار امروها . وكان والي الخراج بها عزيز الحمّار ، وأميرها شمس الدين البنخشاني ، فبعثت رجالي فأخذوا بعض الإحالة . وتشكّوا من تعسّف عزيز الحمّار ، فخرّجتُ بنفسني لاستخلاص ذلك ، وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيّام ، وكان ذلك أوان نزول المطر . فخرّجتُ في نحو ثلاثين من أصحابي ، واستصحبْتُ معي أخوين من المغنين المُحسنين يُغَنِّيَان لي في الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بيجنُور ، فوجدتُ بها أيضاً ثلاثة إخوة من المغنين . فاستصحبْتُهُمْ . فكانوا يغنون لي نوبةً والآخرون نوبة .

ثمّ وصلنا إلى امروها ، وهي بلدة صغيرة حسنة . فخرّجَ عمّالُها للقائي ، وجاء قاضيها الشريف أمير علي وشيخ زاويتها وأضافاني معاً ضيافةً حسنة . وكان عزيز الحمّار بموضع يقال له أفغان بور على نهر السرو . وبيننا وبينه النهر . ولا معدّية فيه . فأخذنا الأثقال في معدّية صنعناها من الخشب والنبات ، وجزنا في اليوم الثاني . وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه وضربَ لنا سراجة ،

ثمّ جاء أخوه الوالي وكان معروفاً بالظلم وكانت القرى التي في عمالته ألفاً وخمسمائة قرية ، وجباها ستون مَكّاً في السنة ، له فيها نصف العشر .
ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه أنّه لا يشربُ منه أحدٌ في أيام نزول المطر ، ولا تُسقى منه دابةٌ ، ولقد أقمنا عليه ثلاثاً فما غرَفَ منه أحدٌ غرفةً ، ولا كدنا نقربُ منه لأنّه ينزلُ من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب ، ويمرّ على الخشاش المسمومة ، فمن شربَ منه مات .
وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر ، ويُتزلُّ منه إلى بلاد تبت حيثُ غزلان المسك ، وقد ذكرنا ما اتَّفَقَ على جيش المسلمين بهذا الجبل . وبهذا الموضع جاء إليّ جماعةٌ من الفقراء الحيدريّة ، وعملوا السّماع وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرّهم ، وقد ذكرنا ذلك .

وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشاني وبين واليها عزيز الحمّار منازعة ، وجاء شمس الدين لقتاله ، فامتنعَ منه بداره ، وبلغت شكايتهُ أحدهما الوزير بدعلي ، فبعثَ إليّ الوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بأمرها ، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان ، وإلى شهاب الدين الرومي أن ننظرَ في قضيتّهما فمن كان على الباطل بعثناه مثقفاً إلى الحضرة . فاجتمعوا جميعاً بمنزلي وادّعى عزيز على شمس الدين دعاوي منها أن خديماً له يُعرف بالرضي الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور ، فشربَ بها الخمر ، وسرقَ خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن ، فاستفهمت الرضي عن ذلك ، فقال لي : ما شربتُ الخمرَ منذُ خروجي من ملتان ، وذلك ثمانية أعوام ، فقلتُ له : أو شربتَها بملتان ؟ قال : نعم ! فأمرتُ بجلده ثمانين ، وسجنتُهُ بسبب الدعوى ليلوثَ ظهره عليه .

وانصرفتُ عن أمرها فكانت غيبتي نحو شهرين ، وكنتُ في كلّ يوم أذبحُ لأصحابي بقرةً ، وتركتُ أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز ، وحمله

١ اللوث : البيئة الضعيفة .

عليه ، فوزَّعَ على أهل القرى ، التي لنظره ، ثلاثون ألفَ مَنَّ يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة ، وأهلُ الهند لا يحملون إلاَّ على البقر ، وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار . وركوب الحمير عندهم عيبٌ كبيرٌ ، وحميرُهم صغارُ الأجرام يسمونها اللاشة ، وإذا أرادوا إشهار أحد بعد ضربه أركبوه الحمار .

ذكر مكرمة لبعض الأصحاب

وكان السيّد ناصر الدين الأوهري قد تركَ عندي لما سافرَ ألفاً وستين تنكة ، فتصرّفتُ فيها ، فلما عدتُ إلى دهلي وجدته قد أحالَ في ذلك المال خدائوندا زاده قوام الدين ، وكان قدم نائباً عن الوزير ، فاستقّبتُ أن أقولَ له تصرّفتُ في المال ، فأعطيته نحو ثلثه ، وأقمتُ بداري أيّاماً .

وشاعَ أني مرضتُ ، فأتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي ، فلما رآني قال : ما أرى بك مرضاً ، فقلتُ له : إني مريضُ القلب ! فقال لي : عرفني بذلك ! فقلتُ له : ابعثُ إليّ نائبك شيخَ الإسلام أعرفه به . فبعثه إليّ ، فأعلّمته ، فعادَ إليه فأعلّمه ، فبعثَ إليّ بألف دينار دراهم ، وكان له عندي قبلَ ذلك ألفٌ ثانٍ ، ثمَّ طُلِبَ مِنِّي بقيّةُ المال ، فقلتُ في نفسي : ما يخلصني منه إلاَّ صدرُ الجهان المذكورُ لأنّه كثيرُ المال ، فبعثتُ إليه بفرسٍ مسرجٍ قيمتهُ وقيمةُ سرجه ألفٌ وستّمائة دينار ، وبفرسٍ ثانٍ قيمتهُ وقيمةُ سرجه ثمانمائة دينار ، وببغلتين قيمتهما ألفٌ ومائتا دينار ، وبتركش فضّة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضّة ، وقلتُ له : انظر قيمة الجميع ، وابعثُ إليّ ذلك . فأخذَ ذلك ، وعملَ بجميعه قيمةً ثلاثة آلاف دينار ، فبعثَ إليّ ألفاً ، واقتطعَ الألفين ، فتغيّرَ خاطري ومرضتُ بالحمّى ، وقلتُ في نفسي : إن شكوتُ به إلى الوزير افتضحتُ ، فأخذتُ خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين . وبعثتُ الجميعَ للملك مغيث الدين محمد ابن ملك الملوكة عماد الدين السمناني ، وهو فتى السنّ ، فردّ

عليّ ذلك ، وبعث إليّ مائتي تنكة وأغزر ، وخلصتُ من ذلك المال ، فشتّانَ
بَيْنَ فعلٍ محمد ومحمد .

ذكر خروجي إلى محلة السلطان

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التلنك ووقع الوباء بعسكره
فعاد إلى دولة آباد ، ثم وصل إلى نهر الكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء ،
وخرّجت في تلك الأيام إلى محلته ، واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك ،
ولازمت السلطان في تلك الأيام ، وأعطاني من عتاق الخيل لما قسّمها على
خواصه ، وجعلني فيهم ، وحضرتُ معه الوقعة على عين الملك ، والقبض عليه ،
وجزتُ معه نهر الكنك ونهر السرو لزيارة قبر الصالح البطل سالارعود (مسعود)
وقد استوفيتُ ذلك كله وعدتُ معه إلى حضرة دهلي لما عاد إليها .

ذكر ما همّ به السلطان من عقابي وما تداركني من لطف الله تعالى

وكان سببُ ذلك أني ذهبتُ يوماً لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجلام
بالغار الذي احتفّره خارج دهلي ، وكان قصدي رؤية ذلك الغار ، فلما أخذه
السلطان سأل أولاده عمّن كان يزوره فذكروا ناساً أنا من جملتهم ، فأمر
السلطان أربعة من عبيده بملازمتي بالمشور .

وعادته أنه متى فعلَ ذلك مع أحد ، قلّما يتخلص . فكان أولَ يوم من
ملازمتهم لي يوم الجمعة ، فألهمني الله تعالى إلى تلاوة قوله : حسبنا الله ونعم
الوكيل ، فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة ، وبّت بالمشور ، وواصلت
إلى خمسة أيام في كلّ يوم منها أنحتم القرآن ، وأفطرتُ على الماء خاصة ، ثم
أفطرتُ بعد خمس وواصلتُ أربعاً وتخصّصتُ بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالى .

ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقبضتُ عن الخدمة ، ولازمتُ الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغاري ، وكان من الأولياء ، وله كرامات كثيرة قد ذكرتُ منها ما شاهدته عند ذكر اسمه ، وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ ، ووهبتُ ما عندي للفقراء والمساكين . وكان الشيخ يواصل عشرة أيام ، وربّما واصل عشرين ، فكنتُ أحبُّ أن أواصل ، فكان ينهاني ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة ، ويقولُ لي : إن المُنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^١ .

وظهرَ لي من نفسي تكاسلٌ بسبب شيء بقي معي ، فخرّجتُ عن جميع ما عندي من قليل وكثير ، وأعطيتُ ثياب ظهري لفقير ، ولبستُ ثيابه ، ولزمتُ هذا الشيخ خمسة أشهر ، والسلطان إذ ذاك غائبٌ ببلاد السند .

ذكر بعث السلطان إليّ وإبائي الرجوع إلى الخدمة واجتهادي في العبادة

ولما بلغ السلطانَ خبرُ خروجي عن الدنيا استدعاني ، وهو يومئذٍ بسيوستان ، فدخلتُ عليه في زيّ الفقراء . فكلمني أحسن كلام وألفه ، وأراد مني الرجوع إلى الخدمة . فأبيتُ وطلبتُ منه الإذن في السفر إلى الحجاز ، فأذن لي فيه ، وانصرفتُ عنه ، ونزلتُ بزاوية تُعرف بالنسبة إلى الملك بشير ، وذلك في أواخر جمادى الثانية سنة ثنتين وأربعين^٢ فاعتكفتُ بها شهرَ رجب وعشرةً من شعبان ، وانتهيتُ إلى مواصلة خمسة أيام . وأفطرتُ بعدها على قليل أرزٍ دون إدام ، وكنتُ أقرأ القرآن كلَّ يوم ، وأتهجد بما شاء الله ، وكنتُ إذا أكلتُ الطعام

١ يقال هذا للرجل الذي انقطع به سفره ، والمنبت هو الذي أُنبت حتى عطب ظهرا .

٢ سنة ١٣٤١ م .

آذاني ، فإذا طَرَحْتَهُ وجدتُ الراحة ، وأقمتُ كذلك أربعين يوماً ، ثمّ بعثتُ إليّ ثانية .

ذكر ما أمرني به من التوجه إلى الصين في الرسالة

ولما كملت لي أربعون يوماً بعثتُ إليّ السلطان خيلاً مسرّجاً وجواري وغلماناً وثياباً ونفقةً ، فلبستُ ثيابه وقصدتُهُ ، وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطّنة لبستها أيام اعتكافي ، فلما جردتُها ولبستُ ثياب السلطان أنكرتُ نفسي ، وكنتُ متى نظرتُ إلى تلك الجبة أجد نوراً في باطني ، ولم تزل عندي إلى أن سلّني الكفار في البحر . ولما وصلتُ إلى السلطان زادني إكراماً على ما كنتُ أعهده ، وقال لي : إنّما بعثتُ إليك لتتوجّه عني رسولاً إلى ملك الصين ، فإنّي أعلمُ حبّك في الأسفار والجوّالان ، فجهّزني بما احتاجُ له ، وعيّن للسفر معي من يُذكر بعد .

ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معي وذكر الهدية

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوبٍ من الكمخا منها مائة من التي تُصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التي تُصنع بمدينة الخنسا ، وخمسة أمان من المسك ، وخمسة أثواب مرصّعة بالجوهر ، وخمسة من التراکش مزركشة ، وخمسة سيوف ، وطلبَ من السلطان أن يأذنَ له في بناء بيت الأصنام الذي بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ، ويُعرفُ الموضع الذي هو به بسمَهَل ، وإليه يحجّ أهل الصين ، وتغلّب عليه جيشُ الإسلام بالهند فخرّبوه وسلّبوه .

فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتبَ إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملّة الإسلام لإسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلّا لمن يُعطي الجزية ، فإن رضيت بإعطائها أبجنا لك بناءه ، والسلام على من اتّبع الهدى . وكافأه على هديّته بخير منها وذلك : مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ،

ومائة مملوك ، ومائة جارية من كفّار الهند مغنّيات ورواقص ، ومائة ثوب بيرية . وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن ، قيمة الثوب منها مائة دينار . ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالحنّ ، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغاً بخمسة ألوان وأربعة ، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ، ومائة ثوب من الشيرين باف ، ومائة ثوب من الشان باف ، وخمسمائة ثوب من الميرغز ، مائة منها سود ، ومائة بيض ، ومائة حمر ، ومائة خضر ، ومائة زرق ، ومائة شقة من الكتان الرومي ، ومائة فضلة من الملف ، وسراجة وست من القباب ، وأربع حسك من ذهب ، وست حسك من فضة منيلة ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها ، وستة طسوت من الفضة ، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة ، وعشر شواش من لباسه إحداها مرصعة بالجوهر ، وعشرة تراكش مزركشة ، أحداها مرصع بالجواهر ، وعشرة من السيوف أحداها مرصع الغمد بالجواهر ، ودشت بان (دستبان) وهو قفّاز مرصع بالجواهر ، وخمسة عشر من الفتيان ، وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني ، وهو من فضلاء أهل العلم ، والفتى كافور الشربدار ، وإليه سلّمت الهدية ، وبعث معنا الأمير محمداً الهروي في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر ، وتوجّه صحبتنا ارسال ملك الصين ، وهم خمسة عشر رجلاً يسمّى كبيرهم تُرسي ، وخذاهم نحو مائة رجل ، وانفصلنا في جمع كبير ومحلّة عظيمة ، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدّة سفرنا ببلاده .

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين^١ ، وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لأنّهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين ، فكان نزولنا في أوّل مرحلة بمنزل تليبت على مسافة فرسخين وثلاث من حضرة دهلي ،

١ سنة ١٣٤٢ م .

ورحلنا منه إلى منزل أو ؛ ورحلنا منه إلى منزل هيلو ؛ ورحلنا منه إلى مدينة بيسانة ، مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ، ومسجدوها الجامع من أبدع المساجد ، وحيطائه وسقفه حجارة ، والأمير بها مظفر ابن الداية ، وأمه هي داية السلطان . وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبار الملوك ، وقد تقدم ذكره ، وهو ينتسب في قريش ، وفيه تجبر ، وله ظلم كثير ، قتل من أهل هذه المدينة جملة ومثل بكثير منهم ، ولقد رأيت من أهلها رجلاً حسن الهيئة قاعداً في اسطوان منزله ، وهو مقطوع اليدين والرجلين .

وقدّم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجير المذكور ، فأمر السلطان بالقبض عليه ، وجعلت في عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير ، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم ، فأمره السلطان بإرضائهم ، فأرضاهم بالأموال ، ثمّ قتله بعد ذلك .

ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام العالم عزّ الدين الزيري من ذرية الزير ابن العوام ، رضي الله عنه ، أحد كبار الفقهاء الصلحاء ، لقيته بكاليور عند الملك عزّ الدين البستاني المعروف بأعظم ملك .

ثمّ رحلنا من بيسانة فوصلنا إلى مدينة كُول ، مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا ، ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح ، ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين . وهو مكفوف البصر معتمّر ، وبعد ذلك سجنه السلطان ، ومات في سجنه ، وقد ذكرنا حديثه .

ذكر غزوة شهدناها بكول

ولما بلغنا إلى مدينة كُول بلغنا أنّ بعض كفّار الهند حاصروا بلدة الجلاي وأحاطوا بها ، وهي على مسافة سبعة أميال من كُول ، فقصدناها والكفّار يقاتلون أهلها ، وقد أشرفوا على التلّف ، ولم يعلم الكفّار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم .

الجامعة : القيد .

وهم في نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل . فقتلناهم عن آخرهم . واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم . واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارساً وخمسة وخمسون راجلاً . واستشهد الفتي كافور الساقى الذي كانت الهدية مسلمة بيده . فكتبنا إلى السلطان بخبره وأقمنا في انتظار الجواب .

وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالى . وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم .

ذكر محنتي بالأسر وخلاصي منه وخلاصي من شدة بعده على يد ولي من أولياء الله تعالى

وفي بعض تلك الأيام ركب في جماعة من أصحابي . ودخلنا بستاناً نفيل فيه ، وذلك في فصل القيظ ، فسمعنا الصياح . فركبنا ولحقنا كفاراً أغاروا على قرية من قرى الجلالى . فاتبعناهم . ففترقوا وتفرق أصحابنا في طلبهم . وانفردت في خمسة من أصحابي . فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك . ففتررنا منهم لكثرتهم . واتبعني نحو عشرة منهم . ثم انقطعوا عني إلا ثلاثة منهم ، ولا طريق بين يدي . وتلك الأرض كثيرة الحجارة . فنشبت يد فرسي بين الحجارة ، فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه .

والعادة بالهند أن يكون مع الإنسان سيفان أحدهما معلق بالسرّج . ويسمى الركابي . والآخر في التركش ، فسقط سيفي الركابي من غمده ، وكانت حليته ذهباً ، فنزلت فأخذته وتقلدته ، وركبت ، وهم في أثري ، ثم وصلت إلى خندق عظيم . فنزلت ودخلت في جوفه ، فكان آخر عهدي بهم . ثم خرجت إلى وادٍ في وسط شجراء ملتفة في وسطها طريق . فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه ، فبينما أنا في ذلك خرج علي نحو أربعين رجلاً من الكفار

بأيديهم القسيّ ، فأحدقوا بي ، وخفتُ أن يرموني رمية رجل واحد إن فررتُ منهم ، وكنتُ غيرَ متدرّج ، فألقيتُ بنفسي إلى الأرض ، واستأسرت ، وهم لا يقتلون من فعل ذلك ، فأخذوني وسلبوني جميع ما عليّ غيرَ جبةٍ وقميصٍ وسروال ، ودخلوا بي إلى تلك الغابة ، فانتھوا بي إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار ، وأتوني بخبز ماش ، وهو الجُلْبَان ، فأكلتُ منه وشربتُ من الماء .

وكان معهم مسلمان كلّماني بالفارسيّة وسألاني عن شأني فأخبرتهما ببعضه وكتمتهما أني من جهة السلطان ، فقالا لي : لا بدّ أن يقتلك هؤلاء أو غيرُهم ، ولكن هذا مقدّمهم ، وأشارا إلى رجل منهم ، فكلمته بترجمة المسلمين ، وتسلّطتُ له ، فوكلّ بي ثلاثةً منهم ، أحدهم شيخٌ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيثٌ ، وكلّمني أولئك الثلاثة ، ففهمتُ منهم أنهم أمروا بقتلي ، فاحتملوني عشيّ النهار إلى كهف وسلّطَ الله على الأسود منهم حمى مرعّدة ، فوضع رجله عليّ ، ونامَ الشيخُ وابنه .

فلما أصبح تكلموا فيما بينهم وأشاروا إليّ بالتزول معهم إلى الحوض ، وفهمتُ أنهم يريدون قتلي ، فكلمتُ الشيخ وتلطّقتُ إليه فرّق لي ، وقطعتُ كمّي قميصي وأعطيتُهُ إياهما لكي لا يأخذه أصحابه فيّ إن فررتُ .

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاماً عند الحوض ، فظنّوا أنهم أصحابهم ، فأشاروا إليّ بالتزول معهم ، فترلنا ووجدنا قوماً آخرين ، فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم ، فأبوا ، وجلسَ ثلاثتهم أمامي ، وأنا مواجهٌ لهم ، ووضعوا جبلَ قنّبٍ كان معهم بالأرض ، وأنا أنظر إليهم وأقول في نفسي : بهذا الحبل يربطوني عند القتل ، وأقمتُ كذلك ساعةً ، ثمّ جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني ، فتكلّموا معهم ، وفهمتُ أنهم قالوا لهم : لأيّ شيء ما قتلتموه ؟ فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه .

وكان أحد هؤلاء الثلاثة شاباً حسنَ الوجه فقال لي : أتريد أن أسرّحك ؟

فقلت : نعم ! فقال : اذهب ، فأخذتُ الجبةَ التي كانت عليّ فأعطيتها لبيّاتها ، وأعطاني مُسَيَّرَةً^١ باليةً عنده ، وأراني الطريق ، فذهبت ، وخفتُ أن يبدو لهم فيُدركوني ، فدخلتُ غيضةً قَصَبٍ واختفيتُ فيها إلى أن غابت الشمس ، ثمَّ خَرَجْتُ وسلكتُ الطريقَ التي أُرانيها الشاب فأفضتُ بي إلى ماء ، فشربتُ منه ، وسرتُ إلى ثلث الليل ، فوصلتُ إلى جبل ، فنمتُ تحته . فلما أصبحتُ سلكتُ الطريقَ فوصلتُ ضُحى إلى جبلٍ من الصخر عالٍ فيه شجرٌ أمّ غَيْلان والسدر ، فكنْتُ أجنّي النبقَ فأكلته حتى أثَّرَ الشوكُ في ذراعي آثاراً هي باقيةٌ به حتى الآن . ثمَّ نزلتُ من ذلك الجبلِ إلى أرضٍ مزروعةٍ قطناً ، وبها أشجارُ الخروع ، وهنالك باينٌ ، والباينُ عندهم بئرٌ متسعةٌ جداً مطويةٌ بالحجارة لها درَجٌ يُنْزَلُ عليها إلى ورد الماء ، وبعضُها يكونُ في وسطه وجوانبه القبابُ من الحجر والسقائفُ والمجالسُ ، ويتفاخِرُ ملوكُ البلادِ وأمرأؤها بعمارَتها في الطرقات التي لا ماءَ بها ، وسنذكرُ بعضَ ما رأيناه منها فيما بعد . ولما وصلتُ إلى البايين شربتُ منه ، ووجدتُ عليه شيئاً من عساليجِ الخردل قد سقطت لمن غسلها ، فأكلتُ منها وادّخرتُ باقيها ، ونمتُ تحتَ شجرةٍ خروَعٍ .

فبينما أنا كذلك إذ وردَ البايينَ نحو أربعين فارساً مدرّعين ، فدخلَ بعضهم إلى المزرعة ، ثمَّ ذهبوا وطَمَسَ اللهُ أبصارَهم دوني ، ثمَّ جاء بعدهم نحوُ خمسين في السلاح ، ونزلوا إلى البايين ، وأتى أحدهم إلى شجرةٍ إزاء الشجرة التي كنتُ تحتَها ، فلم يشعر بي .

ودخلتُ إذ ذاك في مزرعة القطن ، وأقمتُ بها بقيةَ نهارٍ ، وأقاموا على البايين يغسلون ثيابهم ويلعبون ، فلما كان الليلُ هدأتُ أصواتُهم ، فعلمتُ أنَّهم قد مروا أو ناموا ، فخرَجْتُ حينئذٍ واتَّبعتُ أثرَ الخيلِ ، والليلُ مَقمَرٌ ، وسرتُ حتى انتهيتُ إلى باينٍ آخرٍ عليه قُبَّةٌ ، فنزلتُ إليه وشربتُ من مائه ، وأكلتُ من عساليجِ الخردل التي كانت عندي ، ودخلتُ القُبَّةَ فوجدتها مملوءةً بالعشبِ

١ منيرة : اسمٌ لضربٍ من الثياب .

مما يجمعه الطير . فنمتُ بها . وكنتُ أحسُّ حركة حيوان في ذاك العشب أظنه حية . فلا أبالي بها لما بي من الجهد ، فلما أصبحتُ سلكْتُ طريقاً واسعة تفضي إلى قرية خربة ، وسلكْتُ سواها ، فكانتُ كمثليها ، وأقمتُ كذلك أياماً ، وفي بعضها وصلتُ إلى أشجار ملتفة بينها حوضُ ماء وداخلها شبهُ بيت ، وعلى جوانب الحوض نباتُ الأرض ، كالنجيل^١ وغيره . فأردتُ أن أقعدَ هناك حتى يبعثَ الله من يوصلني إلى العمارة .

ثمَّ لاني وجدتُ سيرَ قوةٍ فنهضتُ على طريقٍ وجدتُ بها أثرَ البَقَر ، ووجدتُ ثوراً عليه بردعة ومنجل^٢ . فإذا تلك الطريق تفضي إلى قرى الكفار ، فاتبعتُ طريقاً أخرى ، فأفضتُ بي إلى قرية خربة ورأيتُ بها أسودين عريانين . فحفتُهما وأقمتُ تحتَ أشجار هنالك ، فلما كان الليل دخلتُ القرية ، ووجدتُ داراً في بيت من بيوتها شبهُ خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع ، وفي أسفلها نَمَب يسعُ منه الرجل . فدخلتها ووجدتُ داخلها مفروشاً بالبن . وفيه حجرٌ جعلتُ رأسي عليه ونمت .

وكان فوقها طائرٌ يرقرقُ بجناحيه أكثرَ الليل . وأظنه كان يخافُ ، فاجتمعنا خائفين . وأقمتُ على تلك الحال سبعةَ أيام من يوم أسرت . وهو يوم السبت . وفي السابع منها وصلتُ إلى قرية للكفار عامرة . وفيها حوضُ ماء ومنابتُ خُضَرَ . فسألتُهُم الطعام فأبوا أن يعطوني . فوجدتُ حول بئر بها أوراقُ فجل فأكلتها ، وجمتُ القرية فوجدتُ جماعةَ كفار لهم طليعة ، فدعاني طليعتهم ، فلم أجبه . وقعدتُ إلى الأرض . فأتى أحدهم بسيفٍ مسلول . ورفع ليضربني به . فلم ألتفتُ إليه لعظيم ما بي من الجهد . ففتشني فلم يجد عندي شيئاً ، فأخذ القميصَ الذي كنتُ أعطيتُ كميهِ للشيخ الموكل بي .

ولما كان في اليوم الثامن اشتدَّ بي العطش ، وعدمتُ الماء ، ووصلتُ إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضاً . وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضاً يجتمع

١ النجيل : نبات من نوع الحمض .

بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة ، فاتبعتُ طريقاً . فأفصتُ بي إلى بشر غير مطوية ، عليها جبل مصنوع من نبات الأرض ، وليس فيه آنيةٌ يُستقى بها ، فربطتُ خرقةً كانت على رأسي في الحبل ، وامتصصتُ ما تعلق بها من الماء فلم يروني ، فربطتُ خفي واستقيتُ به ، فلم يروني ، فاستقيتُ به ثانياً ، فانقطع الحبلُ ووقع الخفُ في البئر ، فربطتُ الخفَ الآخر وشربتُ حتى رويت . ثم قطعته فربطتُ أعلاه على رجلي بحبل البئر وبخيرق وجدتها هنالك ، فبينما أنا أربطها وأفكر في حالي ، إذ لاح لي شخصٌ . فنظرتُ إليه ، فإذا رجلٌ أسود اللون بيده إبريقٌ وعكازٌ ، وعلى كاهله جرابٌ ، فقال لي : سلام عليكم ! فقلتُ له : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقال لي بالفارسية : جيكس (جه كسي) معناه : من أنت ؟ فقلتُ له : أنا تائه ! فقال لي : وأنا كذلك ! ثم ربطتُ لإبريقه بحبل كان معه واستقى ماء ، فأردتُ أن أشرب . فقال لي : اصبر ! ثم فتح جرابه فأخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرزٍ فأكلتُ منه وشربت ، وتوضأً وصليتُ ركعتين . وتوضأتُ أنا وصليتُ ، وسألني عن اسمي ، فقلت : محمد ، وسألته عن اسمه ، فقال لي : القلبُ الفارح ، فتفاءلتُ بذلك وسررتُ به . ثم قال لي : بسم الله ! ترافقني ؟ فقلت : نعم ! فمشيتُ معه قليلاً ، ثم وجدتُ فتوراً في أعصابي . ولم أستطع النهوض ، فقعدتُ . فقال لي : ما شأنك ؟ فقلتُ له : كنتُ قادراً على المشي قبل أن ألقاك ، فلما لقيتكُ عجزتُ . فقال : سبحان الله ، اركب فوق عنقي ! فقلتُ له : إنك ضعيفٌ ولا تستطيع ذلك . فقال : يقويني الله ، لا بد لك من ذلك . فركبتُ على عنقه وقال لي : أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأكثرت من ذلك .

وغلبتني عيني ، فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض . فاستيقظتُ ولم أرَ للرجل أثراً ، وإذا أنا في قريةٍ عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود . وحاكها من المسلمين ، فأعلموه بي ، فجاء إليّ ، فقلتُ له : ما اسمُ هذه القرية ؟ فقال

لي : تاج بوره ، وبينها وبين مدينة كول ، حيث أصحابنا ، فرسخان ، وحماني ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمني طعاماً سخناً ، واغتسلتُ ، وقال لي : عندي ثوبٌ وعمامةٌ أودعهما عندي رجلٌ عربي مصري من أهل المحلة التي بكول ، فقلت له : هاتهما ألبسهما إلى أن أصلَ إلى المحلة ، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي كنتُ قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول ، فطال تعجبي من ذلك . وفكرتُ في الرجل الذي حملني على عنقه ، فتذكرتُ ما أخبرني به وليّ الله تعالى أبو عبد الله المرشدي حسبما ذكرناه في السفر الأول ، إذ قال لي : ستدخل أرض الهند ، وتلقى بها أخي دلشاد ويخلصك من شدة تقع فيها ، وتذكرتُ قوله لما سأله عن اسمه فقال : القلبُ الفارح ، وتفسيره بالفارسية دلشاد ، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه ، وأنه من الأولياء ، ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكرته .

وكتبتُ تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلماً لهم بسلامتي ، فجاؤوا إليّ بفرس وثياب واستبشروا بي ، ووجدتُ جوابَ السلطان قد وصلهم ، وبعثَ بفتي يسمى بسنبُل الجامدار عوضاً من كافور المستشهد ، وأمرنا أن نتمادى على سفرنا ، ووجدتهم أيضاً قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري وتشاءوا بهذه السفارة لما جرى فيها عليّ وعلى كافور ، وهم يريدون أن يرجعوا ، فلما رأيتُ تأكيد السلطان في السفر أكدتُ عليهم ، وقوي عزمي فقالوا : ألا ترى ما اتفقَ في بداية هذه السفارة ، والسلطان يعدرك ، فلنرجع إليه ، أو نقيمَ حتى يصلَ جوابه . فقلتُ لهم : لا يمكن المقام ، وحيثُ ما كنّا أدركنا الجواب .

فرحلنا عن كول ونزلنا برج بوره ، وبه زاوية حسنة فيها شيخٌ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لأنه لا يلبس عليه إلا ثوباً من سرته إلى أسفل ، وبأبي جسده مكشوف ، وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر ، نفعَ الله به .

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى قائماً على قدم التجرد يلبس تنورة ، وهو ثوبٌ يستر من سرّته إلى أسفل . ويُذكر أنّه كان إذا صلّى العشاء الآخرة أخرج كلّ ما بقي بالزاوية من طعام وإدام وماء وفرّق ذلك على المساكين ، ورمى بفتيلة السراج ، وأصبح على غير معلوم .

وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزاً وفولاً ، فكان الخبّازون والفوّالون يستبقون إلى زاويته ، فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء ، ويقول لمن أخذ منه ذلك : اقعد ، حتّى يأخذ أول ما يفتحُ به عليه في ذلك اليوم قليلاً أو كثيراً .

ومن حكاياته أنّه لما وصلَ قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتها ، خرجَ الملك الناصر إلى مدافعته ، ووقعَ اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشعب ، والملك الناصر إذ ذاك حديث السنّ لم يعهد الوقائع ، وكان الشيخ العريان في صحبته ، فنزل وأخذَ قيداً فقيّد به فرس الملك الناصر لثلاً يتزحّزح عند اللقاء لحدائته سنّه ، فيكون ذلك سببَ هزيمة المسلمين ، فنبتَ الملك الناصر ، وهُزِمَ التترُ هزيمةً شنعاء قُتلَ منهم فيها كثيرٌ وغرقَ كثيرٌ بما أُرسلَ عليهم من المياه ، ولم يعد التترُ إلى قصد بلاد الإسلام بعدها ، وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنّه حضرَ هذه الواقعة ، وهو حديث السنّ .

ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه ، ثمّ رحلنا إلى مدينة قينّوج ، مدينةٌ كبيرةٌ ، حسنةُ العمارة حصينة ، رخيصةُ الأسعار ، كثيرةُ السكر ومنها يُحمّل إلى دهلي ، وعليها سورٌ عظيمٌ ، وقد تقدّم ذكرُها . وكان بها الشيخ معين الدين الباخريزي أضافتنا بها ، وأميرُها فيروز البدهشاني من ذرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى ، ويسكن بها جماعة من الصالحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق يُعرفون بأولاد شرف جهان ، وكان جدّهم

قاضي القضاة بدولة آباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرياسة ببلاد الهند إليه .

حكاية قاضي القضاة

يذكر أنه عُرِلَ مرّة عن القضاء . وكان له أعداء ، فادّعى أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده أن له عشرة آلاف دينار قبضه . ولم تكن له بيّنة . وكان قصده أن يحلفه . فبعث القاضي إليه . فقال لرسوله : بم ادّعى عليّ ؟ فقال : بعشرة آلاف دينار . فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف ، وسُلِّمَت للمدّعي . وبلغ خبره السلطان علاء الدين . وصح عنه بطلان تلك الدعوى . فأعادته إلى القضاء وأعطاه عشرة آلاف .

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثاً ، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأننا بأنه إن لم يظهر لفلان أثر فيتوجّه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضاً منه . ثمّ رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول . ثمّ بمنزل وزير بور ، ثمّ بمنزل البجالصة ، ثمّ وصلنا إلى مدينة مسوري ، وهي صغيرة ، ولها أسواقٌ حسنة . ولقيتُ بها الشيخ الصالح المعمّر قطب الدين المسمّى بجيدر الفرغاني ، وكان بحال مرض ، فدعا لي وزودني رغيف شعير ، وأخبرني أن عمره ينيف على مائة وخمسين . وذكر لي أصحابه أنه يصومُ الدهر ، ويواصل كثيراً ويكثرُ الاعتكاف ، وربما أقام في خلوته أربعين يوماً يقتاتُ فيها بأربعين تمرّة ، في كلّ يوم واحدة . وقد رأيتُ بداهلي الشيخ المسمّى برجب البرقي . دخل الخلوة بأربعين تمرّة فأقام بها أربعين يوماً . ثمّ خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرّة .

ثمّ رحلنا ووصلنا إلى مدينة مسره ، وهي مدينةٌ كبيرةٌ أكثرُ سكّانها كفّار تحت الذمّة ، وهي حصينة وبها القمح الطيّب الذي ليس مثله بسواها ، ومنها يحمل إلى دهلي ، وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة . ولم أر قمحاً مثله إلاّ بأرض الصين . وتنسب هذه المدينة إلى المألوة . وهي قبيلة من قبائل

الهنود ضخامُ الأجسام ، عظامُ الخلق . حسانُ الصور . لنسائهم الجمالُ الفائق ،
وهنَّ مشهورات بطيب الخلوة ووفور الحظّ من اللذة ، وكذلك نساء المرتة ونساء
جزيرة ذبية المهل .

ثمّ سافرنا إلى مدينة علابور ، مدينة صغيرة أكثر سكّانها الكفّار
تحت الذمة ، وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَتَم ، وهو سلطان
جَسْبِيل الذي حاصر مدينة كيالير ، وقتل بعد ذلك .

حكاية الأمير خطاب الأفغاني

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري ، وهي على نهر الجون ،
كثيرة القرى والمزارع ، وكان أميرها خطاب الأفغاني . وهو أحد الشجعان ،
واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمّى رجُو ، وبلده يسمّى سلطان
بور ، وحاصر مدينة رابري فبعث خطاب إلى السلطان يطلب منه الإعانة ، فأبطأ
عليه المدد ، وهو على مسيرة أربعين من الحضرة . فخاف أن يتغلب الكفّار عليه .
فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة . ومثلهم من المماليك ، ونحو أربعمائة
من سائر الناس . وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم ، وهي عادة أهل الهند إذا
أرادوا الموت . وباعوا نفوسهم من الله تعالى ، وتقدّم خطاب وقبيلته . وتبعهم
سائر الناس . وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفّار حملةً واحدةً .
وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً ، فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانيّهم قَتَم
ورجُو ، وبعثوا برأسيهما إلى السلطان ، ولم ينجُ من الكفّار إلاّ الشريد .

ذكر أمير علابور واستشهاده

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان ، وهو من الأبطال الذين
تضربُ بهم الأمثال . وكان لا يزال يُغيّر على الكفّار منفرداً بنفسه فيقتل ويسبي
حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفّار ، وكان طويلاً ضخماً يأكلُ الشاة

عن آخرها في أكلة . وأُخبرتُ أَنَّهُ كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه ، على عادة الحبشة ببلادهم ، وكان له ابن يدانيه في الشجاعة . فاتَّفَق أنْ أغار مرّةً في جماعة من عبيده على قريةٍ للكفّار ، فوقَّعَ به الفرس في مطمورة واجتمعَ عليه أهلُ القرية فضربَهم بقتّارة ، والقتّارة : حديدة شبه سكة الحُرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ، ويفضلُ منها مقدار ذراعين ، وضربُها لا تُبقي ، فقتله بتلك الضربة ، وقاتلَ عبيدُه أشدَّ القتال ، فتغلَّبوا على القرية وقتلوا رجالَها وسبّوا نساءها وما فيها وأخرجوا الفرس من المظمورة سالماً ، فأتوا به ولده ، فكان من الانفاق الغريب أَنَّهُ ركبَ الفرس ، وتوجّه إلى دهلي فخرَجَ عليه الكفّار ، فقاتلهم حتّى قُتلَ وعادَ الفرس إلى أصحابه ، فدفعوه إلى أهله ، فركبه صهر له فقتله الكفّار عليه أيضاً .

ثمّ سافرنا إلى مدينة كَالِيُور ، ويقال فيه أيضاً كِيالير ، وهي مدينة كبيرة ، لها حصنٌ منيعٌ منقطع في رأس شاهق ، على بابهِ صورة فيل وفيال من الحجارة . وقد مرّ ذكره في اسم السلطان قطب الدين ، وأميرُ هذه المدينة أحمد بن سير خان ، فاضل ، كان يكرمني أيّام إقامتي عنده قبلَ هذه السفرة .

ودخلتُ عليه يوماً ، وهو يريد توسيط رجل من الكفّار ، فقلتُ له : بالله لا تفعل ذلك فإنّي ما رأيتُ أحداً قطّ يُقتلُ بمحضري ! فأمرَ بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه .

ثمّ رحلنا من مدينة كالِيور إلى مدينة بَرَوْن ، مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفّار ، أميرُها محمد بن يرم التركي الأصل ، والسباع بها كثيرة . وذكرَ لي بعضُ أهلها أن السبعَ كان يدخل إليها ليلاً ، وأبوابُها مغلقة ، فيفترس الناس حتّى قتلَ من أهلها كثيراً ، وكانوا يعجبون في شأن دخوله .

وأخبرني محمد التوفيري من أهلها ، وكان جاراً لي بها ، أَنَّهُ دخلَ دارَه ليلاً ، وافترسَ صبيّاً من فوق السرير ، وأخبرني غيره أَنَّهُ كان مع جماعة في دار عرس ، فخرَجَ أحدهم للحاجة ، فافترسه ، فخرَجَ أصحابُه في طلبه ،

فوجدوه مطروحاً بالسوق ، وقد شربَ دمه ولم يأكل لحمه . وذكروا أنه كذلك فعله بالناس .

ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع ، وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية ، يتصور في صورة سبع ، ولما أخبرته بذلك أنكرته . وأخبرني به جماعة ، ولذا ذكر بعضاً من أخبار هؤلاء السحرة .

ذكر السحرة الجوكية

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها : أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب . وكثير منهم تحفر له حفرة تحت الأرض وتبنى عليه . فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ، ويقيم بها الشهور . وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة .

ورأيت بمدينة منجور رجلاً من المسلمين محسن يتعلم منهم قد رفعت له طيلة . وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوماً ، وتركته كذلك ، فلا أدري كم أقام بعدي .

والناس يذكرون أنهم يركبون حبوباً يأكلون الحببة منها لأيام معلومة أو أشهر ، فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب . ويخبرون بأمر مغيب ، والسلطان يعظمهم ويجالسهم . ومنهم من يقتصر في أكله على البقل . ومنهم من لا يأكل اللحم . وهم الأكثرون ، والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ؛ ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتاً من نظره . وتقول العامة : أنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب . ويقولون : أكل قلبه . وأكثر ما يكون هذا في النساء . والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار .

حكاية امرأة كفتار

لما وقعت المجاعة العظمى بببلاد الهند بسبب القحط . والسلطان بببلاد التللك
نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم .
فجمعهم الوزير ووَزَع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم .
فكان عندي منهم خمسائة نفس . فعمرت لهم سفائف في دارين وأسكنتهم بها .
وكنْتُ أعطيهم نفقة خمسة أيتام في خمسة أيتام . فلما كان في بعض الأيتام
أتوني بمرأة منهم وقالوا : إنَّها كفتار . وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها . وأتوا
بالصبي ميتاً . فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان . فأمر باختبارها . وذلك
بأن ملأوا أربع جرّات بالماء وربطوها ببأيديها ورباعيها . وطرحوها في بحر الجون .
فلم تغرق . فعلم أنَّها كفتار . واو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار . فأمر
بإحراقها بالنار . وأتى أهل البلد رجلاً ونساء فأخذوا رمادها . وزعموا أنَّه
من تنبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار .

حكاية سحر الجوكية

بعث إليَّ السلطان يوماً وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه . وهو في خلوة .
وعنده بعض خوامسه ورجلان من هؤلاء الجوكية . وهم يلتحفون بالملاحف .
ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم . فأمرني
بالجلوس . فجلست . وقال لهما : إنَّ هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره .
فقالا : نعم ! فتربّع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا
متربّعاً . فعجبت منه وأدركني الوهم فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن
أسقى دواء عنده . فأفقت وقعدت . وهو على حاله متربّع . فأخذ صاحبه
نعلاً له من شكايرة كانت معه . فضرب بها الأرض كالغناظ . فصعدت إلى

أن علت فوقَ عُنقِ المترِيع ، وجعلت تضربُ في عنقه ، وهو ينزلُ قليلاً قليلاً حتى جلسَ معنا ، فقال لي السلطان : إن المترِيع هو تلميذ صاحب النعل ، ثم قال : لولا أنني أخافُ على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت . فانصرفت عنه . وأصابني الخفقان ومرضتُ حتى أمرَ لي بشربة أذهبت ذلك عني .

ولنعد لما كنّا بسبيله ، فنقول : سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ، ثمَّ إلى منزل كجراً ، وبه حوضٌ عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكنائسُ فيها الأصنامُ قد مثَّلَ بها المسلمون ، وفي وسطه ثلاثُ قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق ، وعلى أركانه الأربعة أربع قِبابٍ ، ويسكن هنالك جماعةٌ من الجوكية ، وقد لبّدوا شعورهم ، وطالت حتى صارت في طولهم ، وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة . وكثيرٌ من المسلمين يتبعونهم ليتعلّموا منهم ، ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي إليهم مدّة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى .

وأول ما رأيتُ هذه الطائفة بمحلّة السلطان طرمشيرين ملك تركستان ، وكانوا نحوَ الخمسين ، فحُفِرَ لهم غار تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلّا لقضاء حاجة .

ولهم شبه القَرَن يضربونه أوّل النهار وآخره وبعد العتمة ، وشأنهم كلّهُ عجب . ومنهم الرجلُ الذي صنَّعَ للسلطان غياث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعبر حبوباً يأكلها تقوية على الجماع ، وكان من اخلاطها برادةُ الحديد ، فأعجبه فعلُها ، فأكلَ منها أزيدَ من مقدار الحاجة ، فمات ، ووَلِيَ ابن أخيه ناصر الدين ، فأكرمَ هذا الجوكي ورَفَعَ قدره .

ثمَّ سافرنا إلى مدينة جندِيري ، مدينةٌ عظيمةٌ لها أسواقٌ حافلة يسكنُها أميرُ أمراء تلك البلاد عزّ الدين البستّاني وهو المدعو بأعظم ملك . وكان خيراً فاضلاً يجالس أهل العلم . وممّن كان يجالسه الفقيهُ عزّ الدين الزُبَيْري ، والفقيه العالم وجيه الدين البستاني ، نسبة إلى مدينة بيانة التي تقدّم ذكرُها ، والفقيه

القاضي المعروف بقاضي خاصّة ، وإمامهم شمس الدين . وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمّى قمر الدين ، ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجعان ، وبين يديه تُعرّض العساكر . وأعظم ملك لا يظهر إلاّ في يوم الجمعة أو في غيرها نادراً .

ثمّ سرنا من جنّديري إلى مدينة ظيهار ، وهي مدينة المالوة ، أكبر عمالة تلك البلاد ، وزرعها كثيرٌ خصوصاً القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي ، وبينهما أربعة وعشرون يوماً ، وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوشة عليها عددُ الأميال فيما بين كلِّ عمودين ، فإذا أراد المسافر أن يعلم عددَ ما سارَ في يومه وما بقي له إلى المنزل أو إلى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه . ومدينة ظيهار إقطاعٌ للشيخ إبراهيم الذي من أهل ذيبة المهل .

حكاية بطيخ الشيخ إبراهيم

كان هذا الشيخ إبراهيم قدّم على هذه المدينة ونزلَ بخارجها ، فأحيا أرضاً مواتاً هنالك وصار يزرعها بطيخاً فتأتي في الغاية من الحلاوة ، ليس بتلك الأرض مثلها . ويزرعُ الناس بطيخاً فيما يجاوره فلا يكون مثله . وكان يطعمُ الفقراء والمساكين ، فلمّا قصدَ السلطان إلى بلاد المعبر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخاً ، فقبله واستطابه . وأقطعه مدينة ظيهار ، وأمره أن يعمّر زاوية بربوة تشرف عليها ، فعمّرَها أحسن عمارة ، وكان يطعمُ بها الوارد والصادر ، وأقامَ على ذلك أعواماً ثمّ قدّم على السلطان ، وحملَ إليه ثلاثة عشرَ لكتاً فقال : هذا فضلٌ ممّا كنت أطعمه الناس ، وبيتُ المال أحقّ به ، فقبضه منه ، ولم يُعجب السلطانَ فعله لكونه جمع المال ولم يُنفق جميعه في إطعام الطعام .

وبهذه المدينة أراد ابنُ أخت الوزير خواجه جهان أن يفتك بخاله ويستولي على أمواله . ويسير إلى القائم ببلاد المعبر ، فنُسي خبره إلى خاله ، فقبض عليه

وعلى جماعة من الأمراء وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء وردّ ابن أخته إليه ،
فقتله الوزير .

حكاية ابن اخت الوزير وجاريته

ولما ردّ ابنُ أخت الوزير إليه ، أمر به أن يُقتل كما قُتل أصحابه . وكانت
له جارية يحبّها ، فاستحضرها وأطعمتها التنبول وأطعمته وعانقها مودّعاً ،
ثمّ طُرح للفيلكة ، وسلخ جلده ومُلئ تبناً ، فلمّا كان من الليل خرجت
الجارية من الدار ، فرمت بنفسها في بئر هنالك تقربُ من الموضع الذي قُتل
فيه ، فوجدت ميتة من الغد ، فأخرجت ، ودفن لحمه معها في قبر واحد وسمي
ذلك قبور (كور) عاشقان ، وتفسيرُ ذلك بلسانهم : قبرُ العاشقين .

ثمّ سافرنا من مدينة ظيهار إلى مدينة أجين ، مدينةٌ حسنةٌ ، كثيرة
العمارة ، وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء
العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها ؛ وقد زُرْتُ قبره هنالك ،
وسنذكره ، وبهذه المدينة كان سُكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي
الأصل .

ثمّ سافرنا من مدينة أجين إلى مدينة دولة آباد ، وهي المدينة الضخمة
العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلي في رفعة قدرها واتساع خطتها، وهي منقسمة
ثلاثة أقسام : أحدها دولة آباد ، وهو مختصّ بسكنى السلطان وعساكره ،
والقسم الثاني يسمّى الكتكتة ، والقسم الثالث قلعته التي لا مثل لها ولا نظير في
الحصانة وتسمّى الدويقيير ، وبهذه المدينة سُكنى الخان الأعظم قتلوق خان معلّم
السلطان وهو أميرها والنائب عن السلطان بها ، وببلاد صاغر وبلاد التلنك وما
أضيف إلى ذلك، وعمالها مسيرة ثلاثة أشهر ، عامرة كلّها لحكمه، ونوابه فيها .
وقلعة الدويقيير التي ذكرناها هي قطعة حجر في بسيط من الأرض قد نحتت

وبُني بأعلاها قلعة يُصعدُ إليها بسلم مصنوع من جلود ، ويرفعُ ليلاً ، ويسكن بها المفردون ، وهم الزماميون بأولادهم ، وفيها سجنُ أهل الجرائم العظيمة في جبوب بها ، وبها فيرانٌ ضخام أعظمُ من القطوط ، والقطوط تهربُ منها ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها . ولا تُصاد إلاّ بحيل تُدارُ عليها ، وقد رأيتها هنالك فعجبتُ منها .

حكاية فيران تأكل الرجال

أخبرتني الملك خطّاب الافغاني أنّه سُجنَ مرّةً في جبّ بهذه القلعة يسمّى جبّ الفيران ، قال : فكانت تجتمعُ عليّ ليلاً لتأكلني ، فأقاتلُها وألقى من ذلك جهداً ، ثمّ إني رأيتُ في النوم قاتلاً يقول لي : اقرأ سورة الاخلاص مائة ألف مرّة ، ويُفرجُ الله عنك . قال : فقرأتُها ، فلمّا أتممتُها أخرجتُ .

وكان سبب خروجي أن الملك مَلّ كان مسجوناً في جبّ يجاورُني فمرض ، وأكلت الفيرانُ أصابعه وعينه ، فمات ، فبلغَ ذلك السلطان . فقال : اخرجوا خطّاباً لئلاّ يتفق له مثل ذلك . وإلى هذه القلعة لحأ ناصر الدين ابن الملك مَلّ المذكور والقاضي جلال حينَ هزمهما السلطان .

وأهلُ بلاد دولة آباد هم قبيلُ المُرهّنة الذين خصّ الله نساءهم بالحسن ، وخصوصاً في الأنوف والحواجب ، ولهنّ من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن .

وكفّارُ هذه المدينة أصحابُ تجارات وأكثرُ تجاراتهم في الجواهر . وأمواهم طائلة ، وهم يسمّون الساهة ، واحدٌ ساهٍ بإهمال السين ، وهم مثل الأكارم بديار مصر .

وبدولة آباد العنبُ والرمان ويثمران مرتّين في السنة . وهي من أعظم البلاد مجي . وأكبرها خراجاً لكثرة عمارتها واتساع عمالتها . وأخبرتُ أنّ بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعاً . وهي كما ذكرناه

مسيرة ثلاثة أشهر . بسبعة عشر كروراً ، والكرورُ مائة لكّ ، واللّكّ مائة ألف دينار ، ولكنّه لم يفِ بذلك فبقي عليه بقيّة وأخذَ ماله وسليخَ جلدّه .

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات تسمّى سوق طرب آباد ، من أجمل الأسواق وأكبرها فيها الدكاكين الكثيرة كلّ دكان له باب يُفْضي إلى دار صاحبه . وللدار بابٌ سوى ذلك ، والحانوت مزيّن بالفرش ، وفي وسطه شكلٌ مهّد كبير تجلسُ فيه المغنية أو ترقّد . وهي متزيّنة بأنواع الحلّى . وجواربها يحركنَ مهدها .

وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلسُ فيها أميرُ المطربين بعد صلاة العصر من يوم كلّ خميس ، وبينَ يديه خدامه ومماليكه . وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى ، فيغنينَ بينَ يديه ويرقصنَ إلى وقت المغرب . ثمّ ينصرفن .

وفي تلك السوق المساجد للصلاة . ويصليّ الأئمّة فيها التراويح في شهر رمضان . وكان بعضُ سلاطين الكفّار بالهند . إذا مرّ بهذه السوق ، ينزل بقبتها وتغني المغنيات بينَ يديه . وقد فعل ذلك بعضُ سلاطين المسلمين أيضاً . ثمّ سافرنا إلى مدينة نندربار . مدينة صغيرة يسكنها المرهّنة . وهم أهلُ الاتقان في الصنائع والأطباء والمنجّمون ، وشرفاء المرهّنة هم البراهمة . وهم الكثريون أيضاً . وأكلهم الأرزّ والخضرّ ودهن السمسم . ولا يروّون تعذيبَ الحيوان ولا ذبحه . ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة ، ولا ينكحون في أقاربهم إلّا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد . ولا يشربون الخمر . وهي عندهم أعظم المعائب . وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ، ومن شربها من مسلم حدّ ثمانين جلدة . وسُجنَ في مطمورة ثلاثة أشهر لا تُفتّح عليه إلّا حين طعامه .

ثمّ سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر ، وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يُسمّى أيضاً صَاغَر كاسمها ، وعليه النواعير والبساتين فيها العنبُ والموز وقصب السكر ، وأهلُ هذه المدينة أهلُ صلاح ودين وأمانة ، وأحوالهم كلّها مرضيّة ، ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر ، وكلّ من يبني زاوية يجبّسُ البستان عليها ، ويجعلُ النظرَ فيه لأولاده ، فإن انقرضوا عادَ النظرُ للقضاة .

والعمارة بها كثيرة ، والناسُ يقصدونها للتبرّك بأهلها ، ولكونها محرّرة من المغارم والوظائف. ثمّ سافرنا من صَاغَر المذكورة إلى مدينة كِنَبَاية وهي على خور من البحر ، وهو شبه الوادي تدخله المراكب ، وبه المدّ والجزر . وعايّنت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر ، فإذا كان المدّ عامت في الماء. وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد ، وسبب ذلك أن أكثر سكّانها التجارُ الغرباء ، فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون في ذلك . ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذي اتفقت لي معه قضيّة الحلواء ، وكذبّه ملك الندماء . ولم أر قطّ أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار ، وبابها كأنّه باب مدينة . وإلى جانبها مسجد عظيم يُعرفُ باسمه ، ومنها دار ملك التجار الكازروني ، وإلى جانبها مسجده ؛ ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز ، ومعناه : خياط الشواشي .

حكاية الثلاثة المخالفين

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الافغاني أراد شمس الدين المذكور والناخودة إلياس ، وكان من كبار أهل هذه المدينة ، وملك الحكماء الذي تقدّم ذكره ، على أن يمتنعوا منه بهذه المدينة ، وشرّعوا في حفر خندق عليها إذ لا سورَ لها ، فغلبَ عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة . وخافوا أن يتطلع عليهم ، فاتفقوا على أن يقتلوا أنفسهم فضرَبَ

كل واحد منهم صاحبه بقتارة ، وقد ذكرنا صفتها ، فمات اثنان منهم ، ولم يمت ملك الحكماء .

وكان من كبار التجار أيضاً بها نجم الدين الجيلاني . وكان حسن الصورة ، كثير المال ، وبني بها داراً عظيمة ومسجداً . ثم بعث السلطان إليه ، وأمره عليها ، وأعطاه المراتب . فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله .

وكان أمير كنباية حين وصولنا إليها مقبل التلنكي . وهو كبير المنزلة عند السلطان ، وكان في صحبته الشيخ زاده الأصهباني نائباً عنه في جميع أموره ، وهذا الشيخ له أموال عظيمة ، وعنده معرفة بأمر السلطنة ، ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده . ويتحيل في الفرار . وبلغ خبره إلى السلطان ، وذكر عنه أنه يروم الهروب . فكتب إلى مقبل أن يبعثه . فبعثه على البريد ، وأحضر بين يدي السلطان ، ووكل به . والعادة عنده أنه متى وكتل بأحد فقلما ينجو . فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه ، وهربا جميعاً . وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجد بمدينة قلعات ، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده ، وحصل على أمواله وأمن مما كان يخافه .

حكاية الأعورين

وأضافنا الملك مقبل يوماً بداره . فكان من النادر أن جلس قاضي المدينة ، وهو أعور العين اليمنى ، وفي مقابلته شريف بغداد شديداً الشبه به في صورته وعوره ، إلا أنه أعور اليسرى ، فجعل الشريف ينظر إلى القاضي ويضحك ، فزجره القاضي ، فقال له : لا تزجرني ، فإني أحسن منك . قال : كيف ذلك ؟ قال : لأنك أعور اليمنى ، وأنا أعور اليسرى . فضحك الأمير والحاضرون وضحك القاضي ولم يستطع أن يرد عليه ، لأن الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم .

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر ، وسكنه

بقبة من قباب الجامع . دَخَلْنَا إِلَيْهِ وَأَكَلْنَا مِنْ طَعَامِهِ . وَاتَّفَقَ لَهُ لَمَّا دَخَلَ
القاضي جلال مدينة كنباية حين خلافه أَنَّهُ أَنَاهُ ، وَذَكَرَ لِلسُّلْطَانِ أَنَّهُ دَعَا لَهُ ،
فَهَرَبَ لَثَلَا يُقْتَلُ كَمَا قُتِلَ الْحِيدَرِي .

وكان بها أيضاً من الصالحين التاجر خواجه إسحاق ، وله زاوية يطعمُ فيها
الوارد والصادر ، وينفقُ على الفقراء والمساكين ، وماله على هذا ينمي ويزيد كثرةً .
وسافرنا من هذه المدينة إلى بلدة كاوي ، وهي على خور فيه المدّ والجزر ،
وهي من بلاد الري جالنسي الكافر ، وسنذكره ؛ وسافرنا منها إلى مدينة قَنْدَهَار ،
وهي مدينة كبيرة للكفّار على خور من البحر .

ذِكْرُ سُلْطَانِهَا

وسُلْطَانُ قَنْدَهَارِ كَافِرٌ اسْمُهُ جَالَنْسِيٌّ وَهُوَ تَحْتَ حُكْمِ الْإِسْلَامِ ، وَيُعْطِي
لِلْمَلِكِ الْهِنْدِ هَدِيَّةً كُلَّ عَامٍ . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى قَنْدَهَارِ خَرَجَ إِلَى اسْتِقْبَالِنَا وَعَظَّمْنَا
أَشَدَّ التَّعْظِيمِ ، وَخَرَجَ عَنْ قَصْرِهِ فَأَنْزَلَنَا بِهِ ، وَجَاءَ إِلَيْنَا مِنْ عِنْدِهِ مِنْ كِبَارِ
الْمُسْلِمِينَ كَأَوْلَادِ خَوَاجِهِ بَهْرِهِ ، وَمِنْهُمْ النَّاخُوْدَةُ إِبْرَاهِيمُ ، لَهُ سِتَّةٌ مِنَ الْمَرَاقِبِ
مَخْتَصَّةٌ لَهُ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَكَبْنَا الْبَحْرَ .

ذِكْرُ رَكُوبِنَا الْبَحْرَ

ورَكَبْنَا فِي مَرْكَبٍ لِإِبْرَاهِيمَ الْمَذْكُورِ يُسَمَّى الْجَاكَّرَ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ مِنْ خَيْلِ
الْهِنْدِ سَبْعِينَ فَرَساً . وَجَعَلْنَا بَاقِيَهَا مَعَ خَيْلِ أَصْحَابِنَا فِي مَرْكَبٍ لِأَخِي إِبْرَاهِيمَ
الْمَذْكُورِ يُسَمَّى مَنُورَتٌ وَأَعْطَانَا جَالَنْسِيٌّ مَرْكَباً جَعَلْنَا فِيهِ خَيْلَ ظَهِيرِ الدِّينِ وَسَنْبَلٍ
وَأَصْحَابَهُمَا ، وَجَهَّزَهُ لَنَا بِالْمَاءِ وَالزَّادِ وَالْعَلْفِ ، وَبَعَثَ مَعَنَا وَلَدَهُ فِي مَرْكَبٍ
يُسَمَّى الْعُكَيْرِيَّ وَهُوَ شَبِهُ الْغَرَابِ^١ إِلَّا أَنَّهُ أَوْسَعُ مِنْهُ ، وَفِيهِ سِتُّونَ مَجْدَافاً ،
وَيُسَقَّفُ حِينَ الْقِتَالِ حَتَّى لَا يَنَالَ الْجُدَّافِينَ شَيْئاً مِنَ السَّهْمِ وَلَا الْحِجَارَةِ .

١ الغراب : سفينة من سفن البحر القديمة .

وكان ركوبي أنا في الجتَاكْر ، وكان فيه خمسون رامياً وخمسون من المقاتلة الحبشة ، وهم زعماء هذا البحر ، وإذا كان بالمركب أحدٌ منهم تحاماه لصوصُ الهنود وكُفَّارُهم .

وَوَصَلْنَا بعد يومين إلى جزيرة بَيْرَم وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال ، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها . وسببُ خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار ، فلم تَعْمُرْ بعد . وكان ملك التجار الذي تقدّم ذكره أراد عمارتها وبني سورها ، وجعلَ بها المجانيق ، وأسكنَ بها بعضَ المسلمين ، ثم سافرنا منها ، ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قُوقَة ، وهي مدينةٌ كبيرةٌ عظيمةُ الأسواق أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ، ونزلتُ في عشارى مع بعض أصحابي حينَ الجزر لأدخل إليها ، فوَحَلَ العشارى في الطين وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل ، فكنتُ لما نزلنا في الوَحْل أتوكأ على رجلين من أصحابي ، وخوفي الناس من وصول المد قبل وصولي إليها . وأنا لا أحسنُ السباحة . ثم وصلتُ إليها وطفْتُ بأسواقها ، ورأيتُ بها مسجداً يُنسبُ للخضر وإلياس ، عليهما السلام . صلّيتُ به المغرب ، ووَجَدْتُ به جماعة من الفقراء الحيدريّة مع شيخ لهم ، ثم عدتُ إلى المركب .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يسمّى دُنْكُول ، وكان يظهر الطاعة للملك الهند ، وهو في الحقيقة عاص ، ولما أفلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيّام إلى جزيرة سَنَدَابُور ، وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور ، وإذا كان الجزرُ فمأوها عذبٌ طيّبٌ ، وإذا كان المدّ فهو ملح أجاج ، وفي وسطها مدينتان إحداهما قديمة من بناء الكفار ، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول . وفيها مسجدٌ جامعٌ عظيمٌ يشبه مساجد بغداد عمره الناحودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري ، وسيأتي ذكره وذكر

١ العشارى : قارب صغير .

حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتحَ الثاني إن شاء الله . وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البرّ فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا فيها أحد الجوكية .

حكاية هذا الجوكي

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيًّا مستنداً إلى حائط بدخانة ، وهي بيت الأصنام ، وهو فيما بين صنمين منها ، وعليه أثر المجاهدة ، فكلّمناه فلم يتكلّم ، ونظرنا هل معه طعام ، فلم نرَ معه طعاماً ، وفي حين نظرنا صاح صيحةً عظيمة ، فسقطت عند صياحه جوزه من جوز النارجيل بين يديه ، ودفعها لنا ، فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم ، فلم يقبلها ، وأتينا به بزاز فردّه .

وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتُها بيدي فدفعها لي ، وكانت بيدي سبحة زيلع ، فقلبتها في يدي ، فأعطيتُها إيّاها ، ففركها بيده وشمّها وقبلها وأشار إلى السماء ، ثمّ إلى سمت القبلة ، فلم يفهم أصحابي إشارته ، وفهمْتُ أنا عنه أنّه أشار أنّه مسلم يُخفي إسلامه من أهل تلك الجزيرة ، ويتعيّش من تلك الجوز ، ولما ودّعناه قبلتُ يده ، فأنكر أصحابي ذلك ، ففهم إنكارهم فأخذ بيدي وقبلها وتبسّم وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا ، وكنتُ آخر أصحابي خروجاً ، ف جذب ثوبي فرددتُ رأسي إليه فأعطاني عشرة دنانير . فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي : لِمَ جَدَدْتُكَ ؟ فقلتُ لهم : أعطاني هذه الدنانير ، وأعطيتُ لظهير الدين ثلاثة منها ، ولسنبل ثلاثة ، وقلتُ لهما : الرجل مسلم ، ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشيرُ إلى أنّه يعرفُ الله تعالى ، وأشار إلى القبلة يشيرُ إلى معرفة الرسول عليه السلام ، وأخذهُ السبحة يصدّقُ ذلك . فرجعنا لما قلتُ لهما ذلك إليه ، فلم يجدها .

وسافرنا تلك الساعة ، وبالغد وصلنا إلى مدينة هِنُور ، وهي على خور كبير

تدخله المراكب الكبار ، والمدينة على نصف ميل من البحر ، وفي أيام البشكال ، وهو المطر ، يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه . وفي يوم وصولنا إليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة وأعطاني ستة دنانير ، وقال لي : البرهمن بعثها إليك ، يعني : الجوكي الذي أعطيته السبحة ، وأعطاني الدنانير ، فأخذتها منه وأعطيته ديناراً منها فلم يقبله وانصرف . وأخبرت صاحبي بالقضية وقلت لهما : إن شئتما فخذنا نصيبكما منها ، فأبيا وجعلنا يعجبنا من شأنه وقال لي : إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه ، فطال عجبني من أمره ، واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها .

وأهل مدينة هينور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب بالبحر وقوة ، وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسند أبور ، وسنذكر ذلك . ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري أضافتي بزوايته . وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية والغلام . ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلّم كتاب الله تعالى ، وهو ورع حسن الخلق كريم النفس ، والقاضي بها نور الدين علي ، والخطيب لا أذكر اسمه .

ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط وإنما يلبسن ثياباً غير مخططة تحترم إحداهن بأحد طرفي الثوب ، وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ، ولهن جمال وعفاف ، وتجعل إحداهن خُرص ذهب في أنفها . ومن خصائصهن أنهن جميعاً يحفظن القرآن الكريم ، ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتباً لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ، ولم أر ذلك في سواها .

ومعاش أهلها من التجارة في البحر ، ولا زرع لهم ، وأهل بلاد الملبسبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئاً معلوماً خوفاً منه لقوته في البحر ، وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة .

ذكر سلطان هنور

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم . وهو تحت حكم سلطان كافر يسمّى هَرَبِيب ، سنذكره . والسلطان جمال الدين . واطب للصلاة في الجماعة ، وعادته أن يأتي إلى المسجد قبل الصبح ، فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر فيصلّي أول الوقت ، ثمّ يركبُ إلى خارج المدينة ، ويأتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ، ثمّ يدخل إلى قصره . وهو يصومُ الأيام البيض . وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للإفطار معه فأحضرُ لذلك ويحضرُ الفقيه علي والفقيه إسماعيل فتوضع أربعة كراسٍ صغار على الأرض فيقعدُ على أحدها ويقعدُ كل واحد منّا على كرسي .

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه أن يؤتّى بمائدة نحاس يسمونها خَوَنَجَة ، ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالسم ، وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ، ومعهما مغرفة نحاس كبيرة فتغرفُ بها من الأرز مغرفة واحدة . وتجعلها في الطالسم ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعسبّا ، فيأكلُ الإنسانُ لُقمة ، ويتبعها بشيء من تلك الموالح . فإذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالسم غرفت مغرفة أخرى من الأرز ، وأفرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة ، فيؤكل بها الأرز أيضاً ، فإذا تمت المغرفة الثانية غرفت وأفرغت لوناً آخر من الدجاج تؤكل به ، فإذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضاً ، فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فيأكلون بها الأرز ، فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان ، وهو اللبن الرائب ، وبه ينخمون

١ المنبا : هو ثمر المنفا .

طعامهم ؛ فإذا وُضِعَ علّم أنه لم يبقَ شيء يؤكل بعده ، ثم يشربون على ذلك الماء السخن لأنّ الماء البارد يُضِرُّ بهم في فصل نزول المطر .

ولقد أقيمتُ عند هذا السلطان في كرّة أخرى أحدَ عشرَ شهراً لم آكل خبزاً .

إنّما طعامهم الأرزّ ، وبقيتُ أيضاً بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاثَ سنين لا آكل فيها إلّا الأرزّ حتى كنت لا أستسيغه إلّا بالماء .

ولباسُ هذا السلطان ملاحفُ الحرير والكتّان الرقاق ، يشدّ في وسطه فوطلة ويلتحف ملحفتين ، إحداهما فوق الأخرى ، ويعقّص شعره ، ويلفّ عليه عمامة صغيرة . وإذا ركب لبسَ قباء والتحف بملحفتين فوقه ، وتضربُ بين يديه طبولٌ وأبواقٌ يحملها الرجال .

وكانت إقامتنا عنده في هذه المرّة ثلاثة أيّام ، وزودنا ، وسافرنا عنه .

وبعدَ ثلاثة أيّام وصلنا إلى بلاد المُلَيَّبَار وهي بلاد الفلفل ، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سَنَدَابُور إلى كولم ، والطريقُ في جميعها بين ظلال الأشجار ، وفي كلّ نصف ميل بيتٌ من الخشب فيه دكاكين يتّعدّ عليها كلّ وارد وصادر من مسلم وكافر ، وعند كلّ بيتٍ منها بئرٌ يشرب منها ، ورجلٌ كافر موكل بها ، فمن كان كافراً سقاه في الأواني ، ومن كان مسلماً سقاه في يديه ، ولا يزال يصبّ له حتى يشير له أو يكفّ .

وعادة الكفّار ببلاد المُلَيَّبَار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آبنيتهم ، فإن طُعِمَ فيها كسروها ، أو أعطوها للمسلمين ، وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبّوه له على أوراق الموز ، وصبّوا عليه الإدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطيور .

وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ، ويطبخون لهم الطعام ، ولولاهم لما سافر فيه مسلم . وهذا الطريق الذي ذكرنا أنّه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة ، وكلّ إنسان له بستانه على حدة ودّاره في وسطه ، وعلى الجميع

حائط خشب ، والطريق يُمرّ في البساتين ، فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يُصعدُ عليها ودرجٌ أخرى يُنزلُ عليها إلى البستان الآخر ، هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل إلاّ عند السلطان ، وأكثرُ ركوب أهلها في دولة^١ على رقاب العبيد ، أو المستأجرين ، ومن لم يركب في دولة مشى على قدميه كائنًا من كان ، ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اُكترى رجالًا يحملونه على ظهورهم ، فترى هنالك التاجر ، ومعه المائة^٢ فما دونها أو فوقها ، يحملون أمتعته ، وبيد كل واحد منهم عودٌ غليظ له زج حديد ، وفي أعلاه مِخْطاف^٣ حديد ، فإذا أعيأ ولم يجد مكانةً يستريحُ عليها ركز عوده بالأرض ، وعلّق حمله منه ، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به .

ولم أرَ طريقاً آمن من هذا الطريق، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحدٌ حتى يأخذه صاحبه .

وأُخبرت أن بعضَ الهنود مرّوا على الطريق فالتقطَ أحدهم جوزة ، وبلغ خبره إلى الحاكم ، فأمرَ بعود فرُكزَ في الأرض وبُري طرفه الأعلى ، وأدخل في لوح خشب حتى برز منه ، ومُدّ الرجلُ على اللّوح ورُكزَ في العود وهو على بطنه حتى خرجَ من ظهره ، وتُركَ عبرة للناظرين .

ومن هذه العيdan على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرٌ ليراهم الناس فيتعطوا . ولقد كنّا نلقى الكفّار بالليل في هذه الطريق فإذا رأونا تنحّوا عن الطريق حتى نتجاوز . والمسلمون أعزّ الناس بها غير أنّهم كما ذكرناه لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم .

وفي بلاد المسلمين اثنان عشر سلطاناً من الكفّار ، منهم القوي الذي يبلغ

١ الدولة : شبه المحفة .

٢ المخطاف كالمخاطف : ما يخلف به .

عسكره خمسين ألفاً ؛ ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف ، ولا فتنة بينهم البتة ، ولا يطمعُ القويّ منهم في انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه بابُ خشبٍ منتوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب أمان فلان، وإذا فرّ مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل إلى بلاد أمان الآخر أمن على نفسه ، ولم يستطع الذي هربَ عنه أخذه ، وإن كان القويّ صاحب العدد والجيوش .

وسلاطينُ تلك البلاد يُورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم ، ولم أرَ من يفعلُ ذلك إلاّ مسوّفة أهل الثلم (الثمام) وسندكرهم فيما بعد . وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المُلسيّار منعَ الناس من البيع والشراء أمرَ بعض غلمانه فعلقَ على الحوانيت بعضَ أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيعُ أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفلفل

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ، وهم يغرسونها إزاء النارجيل ، فتصعدُ فيها كصعود الدوالي إلاّ أنّها ليس لها عُسلوج^١ ، وهو الغزل ، كما للدوالي . وأوراق شجره تشبه آذان الخيل ، وبعضها يشبه أوراق العليق ، ويثمر عناقيد صغاراً ، حبّها كحبّ أبي قنينة إذا كانت خضراء ، وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يُصنعُ بالعنب عند تزيينه ، ولا يزالون يقلّبونه حتى يستحكم يبسه ويسود ثمّ يبيعونه من التجار . والعامّة ببلادنا يزعمون أنّهم يقلّبونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش^٢ ، وليس كذلك ، وإنّما يحدث ذلك فيه بالشمس . ولقد رأيته بمدينة قالقوت يُصبّب للكيل كالذرّة ببلادنا . وأوّل مدينة دخلناها من بلاد المُلسيّار مدينة أبي سرور ، وهي صغيرة على خور كبير ، كثيرة أشجار النارجيل ، وكبيرُ المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف

١ العسلوج : ما لان من أغصان الشجر .

بأبي ستة ، أحد الكرماء ، أنفقَ أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت .
وبعدَ يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكَنور ، مدينة كبيرة على خورٍ بها
قصبُ السكر الكثير الطيب الذي لا مثيلَ له بتلك البلاد ، وبها جماعة من المسلمين
يسمى كبيرهم بحسين السلاط ، وبها قاضٍ وخطيب ، وعمرَ بها حسين
المذكور مسجداً لإقامة الجمعة .

ذكر سلطانها

وسلطان فاكَنور كافرٌ اسمه بتاسدَو وله نحو ثلاثين مركباً حربيّة ،
قائدها مسلم يسمى لولا ، وكان من المفسدين يقطعُ بالبحر ويسلب التجار .
ولما أرسينا على فاكَنور بعثَ سلطانها إلينا ولدَه ، فأقامَ بالمركب كالرهينة ،
ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثاً بأحسن ضيافة تعظيماً لسلطان الهند وقياماً بحقه ورغبةً
فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا .
ومن عادتهم هنالك أن كلَّ مركب يمرّ ببلد فلا بدّ من إرسائه به وإعطائه
هديةً لصاحب البلد يسمونها حقّ البندَر ، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتّباعه
بمراكبهم ، وأدخلوه المرسى قهراً وضاعفوا عليه المغرّم ، ومنعوه عن السفر
ما شاؤوا .
وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيّام إلى مدينة منجَرور ، مدينة كبيرة
على خورٍ يسمى خور الدُّنْب وهو أكبرُ خور ببلاد المُلسِيَّار ، وهذه المدينة
ينزل معظم تجار فارس واليمن ، والفلفل والزنجبيل بها كثيرٌ جداً .

ذكر سلطان منجروور

وهو من أكبر سلاطين تلك البلاد ، واسمه رامَ دَو . وبها نحو أربعة آلاف
من المسلمين يسكنون ربضاً بناحية المدينة ، وربّما وقعت الحرب بينهم وبين
أهل المدينة فيُصلحُ السلطان بينهم لحاجته إلى التجار . وبها قاضٍ من الفضلاء

الكرماء شافعي المذهب يسمّى بدر الدين المعبري ، وهو يقرئ العلم ، ضَعَد إلينا إلى المركب ورغبَ متّاً في النزول إلى بلده ، فقلنا : حتى يبعثَ السلطانُ ولدَه يقيمُ بالمركب . فقال : إنّما فعلَ ذلك سلطانَ فمّا كنور لأنّه لا قوّة للمسلمين في بلده . وأمّا نحن فالسلطان يخافنا . فأبينا عليه إلّاّ إن بعثَ السلطان ولده ، فبعثَ ولده كما فعل الآخرُ ، ونزلنا إليهم وأكرمونا إكراماً عظيماً وأقمنا عندهم ثلاثة أيّام .

ثمّ سافرنا إلى مدينة هيلي فوصلناها بعدَ يومين ، وهي كبيرةٌ حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار . وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ، ولا تدخل إلّاّ مرساها ومرسى كولم ، وقالقوط . ومدينة هيلي معظّمة عند المسلمين والكفّار بسبب مسجدِها الجامع . فإنّه عظيمُ البركة مُشرقُ النور ، وركاب البحر يندرون له الندورَ الكثيرة . وله خزانة مال عظيمة تحتَ نظر الخطيب حسين ، وحسن الوزّان كبير المسلمين . وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلّمون العلم ، ولهم مرتبات من مال المسجد . وله مطبخة يُصنّعُ فيها الطعام للوارد والصادر ، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها .

ولقيتُ بهذا المسجد فقيهاً صالحاً من أهل مقدشو يسمّى سعيداً حسن اللقاء . والخلق يسردُ الصوم ، وذكرَ لي أنّه جاورَ بمكّة أربع عشرة سنة ، ومثلها بالمدينة ، وأدركَ الأميرَ بمكّة أبا نمي ، والأميرَ بالمدينة منصور بن جمّاز ، وسافر في بلاد الهند والصين .

ثمّ سافرنا من هيلي إلى مدينة جُرفَتَن ، وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ، ولقيتُ بها فقيهاً من أهل بغداد كبيرَ القدر ، يُعرف بالصّرصري نسبةً إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق الكوفة ، واسمُها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب . وكان له أخ بهذه المدينة كثيرُ المال ، له أولادٌ صغار أوصى إليه بهم ، وتركته أخذاً في حملهم إلى بغداد . وعادةُ أهل الهند كعادة السودان

لا يتعرّضون لمال الميت ، ولو ترك الآلاف ، إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقّه شرعاً .

ذكر سلطانها

وهو يُسمّى بكُوَيْل ، وهو من أكبر سلاطين المُلُكِيَّار ، وله مراكب كثيرة تسافر إلى عُمان وفارس واليمن . ومن بلاده دَهْ فَتَن ، وبُندْ فَتَن ، وسندكرهما . وسرنا من جُرْ فَتَن إلى مدينة دَهْ فَتَن ، وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين ، وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول ، وبها القلقاق الكثير ، ويطبخون به اللحم . وأمّا الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ، ولا أرخص ثمناً ، وفيها البايُنُ الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة ، وهو مطويّ بالحجارة الحمر المنحوتة ، وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر في كلّ قبة أربعة مجالس من الحجر ، وكلّ قبة يُصعد إليها على درج حجارة ، وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات ، في كلّ طبقة أربعة مجالس .

وذكر لي أن والد هذا السلطان كُوَيْل هو الذي عمّر هذا البايُن ، وبإزائه مسجد جامع للمسلمين ، وله أدراج يُنزل منها إليه فيتوضّأ منه الناس ويغتسلون . وحدّثني الفقيه حسين أن الذي عمّر المسجد والبايُن أيضاً هو أحد أجداد كُوَيْل . وإنه كان مسلماً وإسلامه خبر عجيب نذكره .

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلاّ أنّها ليّنة ، وعليها حائط يطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين ، واسم هذه الشجرة عندهم دَرَنُخت الشهادة ، وأخبرت هنالك أنّه إذا كان زمان الخريف من كلّ سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل

لونها إلى الصفرة ، ثم إلى الحمرة ، ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها ، وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعدت تحتها الثقات من المسلمين والكفار ، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر . وهم يستشفون بها للمرضى .

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جدّ كُوَيْل الذي عمّر المسجد والباين ، فإنه كان يقرأ الخطّ العربي ، فلمّا قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسّن إسلامه ، وحكايتُه عندهم متواترة .

وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطمغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتُلعت ، ولم يُترك لها أثر ، ثمّ إنّها نبتت بعد ذلك ، وعادت كأحسن ما كانت عليه ، وهلك الكافر سريعاً .

ثمّ سافرنا إلى مدينة بُد فَتَن ، وهي مدينة كبيرة على خور كبير ، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين لأنّه لا مسلم بهذه المدينة ، ومساها من أحسن المراسي ، وماؤها عذب ، والفول بها كثير ، ومنها يُحمّلُ للهند والصين . وأكثرُ أهلها براهمة ، وهم معظّمون عند الكفار مُبغضون في المسلمين ، ولذلك ليس بينهم مسلم .

حكاية مسجد بد فتن

أخبرتُ أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهذوم أن أحد البراهمة خرب سقّفه ليصنع منه سقفاً لبيته ، فاشتعلت النار في بيته ، فاحترق هو وأولاده ومتاعه ، فاحترموا هذا المسجد ، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها ، وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكةً لئلاّ يدخله الطير .

ثمّ سافرنا من مدينة بد فَتَن إلى مدينة فَندَرينا ، مدينة كبيرة حسنة

ذات بساتين وأسواق ، وبها للمسلمين ثلاثُ محلات ، في كلِّ محلةٍ مسجد ، والجامعُ بها على الساحل ، وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر ، وقاضيهما وخطيبهما رجل من أهل عُمَّان ، وله أخٌ فاضل ، وهذه البلدة تشتهر بمراكب الصين ، ثمَّ سافرنا منها إلى مدينة قَالِقُوط ، وهي أحد البنادر العظام ببلاد المُسَلِّبَار يقصدُها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل ، وأهلُ اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجارُ الآفاق ، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا .

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يُعرف بالسامري ، شيخٌ مسنٌ يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم ، رأيتهُ بها ، وسنذكره إن شاء الله . وأميرُ التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين . فاضل ذو مكارم ، يجتمعُ إليه التجار ويأكلون في سماطه ، وقاضيهما فخر الدين عثمان . فاضل كريم ، وصاحبُ الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني ، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازروني نفعَ اللهُ به ، وهذه المدينة الناحودة مثقال الشهير الاسم ، صاحبُ الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس . ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرجَ إلينا إبراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمَّى بقُلَاج ومعهم الأطباء والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم . ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيتُ مثله بتلك البلاد ، فكانت فرحة تتبعها ترحةٌ ، وأقمنا بمرساها ، وبه يومئذ ثلاثة عشرَ من مراكب الصين ، ونزلنا بالمدينة ، وجعلَ كلُّ واحد منّا في دار ، وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثةَ أشهر ، ونحنُ في ضيافة الكافر . وبحر الصين لا يسافرُ فيه إلاّ بمراكب الصين ، ولندكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكبُ الصين ثلاثةُ أصناف : الكبارُ منها تسمى الجُنُوك واحدها جُنُك والمتوسطة تسمى الزُّو والصغار تسمى أحدها الكَكَم ، ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة ، وقُلْعُها من قُضبان الخيزران منسوجةٌ كالخُصر لا تُحِطُ أبداً ، ويديرونها بحسب دوران الريح ، وإذا أرسوا تركوها واقفةً في مهبِّ الريح .

ويخدمُ في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستُمائة ، ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجُرْخية ، وهم الذين يرمون باللفظ . ويتبعُ كلَّ مركب كبير منها ثلاثةٌ : النصفى والثُلثى والرُبْعى ، ولا تُصنع هذه المراكب إلاَّ بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان ، وهي صين الصين . وكيفيةُ إنشائها أنَّهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جداً موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طولُ المسمار منها ثلاثة أذرع ، فإذا التأمَ الحائطان بهذه الخُشب ، صنعوا على أعلاهما فرشَ المركب الأسفل ، ودفعوهما في البحر وأتموا عمله ، وتبقى تلك الخُشب والحائطان مواليةً للماء ، ينزلون إليها فيقتسلون ويقضون حاجتهم .

وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفُهم ، وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً ، ويجذفون وقوفاً على أقدامهم ، ويجعلون للمركب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت ، والمصارى ، والغرف للتجّار ، والمصرية^١ منها يكون فيها البيوت والسنداس^٢ ، وعليها المفتاح ، يسدّها صاحبها ، ويحملُ معه الجوّاري والنساء . وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرفُ به غيره ممّن يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض

١ المصرية : لعلها شقة من المركب .

٢ لم يفسر لفظة السنداس ، ولم نعثَر على معنى لها .

البلاد . والبحرية يسكنون فيها أولادهم ، ويزدرون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب .

ووكيلُ المركب كأنه أميرٌ كبيرٌ ، وإذا نزل إلى البرّ مشى الرماةُ والحبشةُ بالحرايب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه ، وإذا وصلَ إلى المنزل الذي يقيمُ به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ، ولا يزالون كذلك مدةً إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعثُ بها وكلاءه إلى البلاد ، وليسَ في الدنيا أكثرُ أموالاً من أهل الصين .

ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك

ولما حانَ وقتُ السفر إلى الصين جهّزَ لنا السلطان السامري جنكاً من الجنوك الثلاثة عشر التي بمرسى قنّالِقُوط ، وكان وكيلُ الجنك يسمّى بسليمان الصفدي الشامي ، وبينى وبينه معرفة ، فقلتُ له : أريدُ مصريّة لا يشاركني فيها أحدٌ لأجل الجوّاري ، ومن عادي أن لا أسافر إلاّ بهنّ . فقال لي : إن تجار الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ، ولصهري مصرية أعطيكها لكنّها لا سنداس فيها ، وعسى أن تمكن معاوضتها . فأمرتُ أصحابي فأوسقوا ما عندي من المتاع ، وصعد العبيد والجوّاري إلى الجنك ، وذلك في يوم الخميس ، وأقمتُ لأصليّ الجمعة وألحق بهم ، وصعدَ الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية . ثمّ ان فتى لي يسمّى بهلال أتاني غدوة الجمعة فقال : إنّ المصريّة التي أخذناها بالجنك ضيقةٌ لا تصلح ، فذكرتُ ذلك للناخودة ، فقال : ليست في ذلك حيلة فإن أحببت أن تكون في الككّم ففيه المصاري على اختيارك . فقلت : نعم ! وأمرتُ أصحابي فنقلوا الجوّاري والمتاع إلى الككّم واستقرّوا به قبل صلاة الجمعة .

وعادة هذا البحر أن يشتدّ هيجانه كلّ يوم بعد العصر ، فلا يستطيع أحدٌ ركوبه ، وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبقَ منها إلاّ الذي فيه الهدية ، وجنك

عزَمَ أصحابه على أن يشتاوا بفَسْدَرَيْنَا ، والكَكَمَ المذكور ، فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الكَكَمَ ، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا ، ولم يكن بقي معي إلاَّ بساطُ أفرشهُ ، وأصبح الجُنك والكَمَ يومَ السبت على بعد من المرسى ، ورمى البحرُ بالجُنك الذي كان أهله يريدون فَنَسْدَرَيْنَا ، فتكسّر ومات بعضُ أهله وسلم بعضهم .

وكانت فيه جارية لبعض التجّار عزيزةٌ عليه ، فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يُخرجُها ، وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجُنك ، فانتدبَ لذلك بعضُ البحرية المهرمزين ، فأخرجَها وأبى أن يأخذ الدنانير ، وقال : إنَّما فعلتُ ذلك لله تعالى . ولَمَّا كان الليلُ رمى البحرُ بالجُنك الذي كانت فيه الهدية ، فمات جميعُ من فيه ، ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم ، ورأيتُ ظهير الدين قد انشقَّ رأسه وتناثرَ دماغُه ، والمملك سنبل قد ضربَه مسمار في أحد صدغيه ونفذَ من الآخر ، وصلّينا عليهما ودفناهما .

ورأيتُ الكافر سلطان قلقوط وفي وسطه شقةٌ بيضاء كبيرة قد لفَّها من سرَّته إلى ركبته ، وفي رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين ، والشرطين غلام فوقَ رأسه ، والنارُ توقدُ بين يديه في الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لثلاً ينتهبوا ما يرمي البحر .

وعادة بلاد المُلِّيَّار أنَّ كلَّ ما انكسر من مركب يرجع ما يخرجُ منه للمخزن إلاَّ في هذا البلد خاصة ، فإنَّ ذلك يأخذه أربابه ، ولذلك عَمرت وكثر تردّد الناس إليها . ولَمَّا رأى أهلُ الكَكَمَ ما حدثَ على الجُنك رفعوا قُلْعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري ، وبقيتُ منفرداً على الساحل ليس معي إلاَّ فتى كنتُ أعتقته . فلَمَّا رأى ما حلَّ بي ذهبَ عني ، ولم يبقَ عندي إلاَّ العشرة دنانير التي أعطانيها الجوكي والبساطُ الذي كنتُ أفرشه . وأخبرني الناس أن ذلك الكَكَمَ لا بدَّ له أن يدخل مرسى كولم ، فعزمتُ على السفر إليها ، وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضاً لمن أراد ذلك ، فسافرت

في النهر واكثريت رجلاً من المسلمين يحملُ لي البساط .
وعادتُهم إذا سافروا في ذلك النهر ، أن ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي
على حافته ثم يعودوا إلى المركب بالغدو ، فكنا نفعَلُ ذلك ، ولم يكن بالمركب
مسلم إلا الذي اكثريته ، وكان يشربُ الخمر عند الكفار إذا نزلنا ، ويعربد
عليّ ، فيزيدُ تغيرُ خاطري .
ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجِي كَرِي ، وهي بأعلى جبل
هنالك يسكنها اليهود ، ولهم أميرٌ منهم ، ويؤدون الجزية لسلطان كولم .

ذكر القرية والبقم

وجميعُ الأشجار التي على هذا النهر أشجارُ القرية والبقم ، وهي حطبُهم
هنالك ، ومنها كنا نَقِدُ النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق .
وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كَوَلَم ، وهي من أحسن بلاد الملبيار ،
وأسواقها حسان ، وتجارها يُعرفون بالصُوليين لهم أموالٌ عريضة ، يشتري
أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسِّلَع ، وبها من التجار المسلمين
جماعةٌ ، كبيرُهم علاء الدين الآوجي من أهل آوه من بلاد العراق ، وهو
رافضي ، ومعه أصحابٌ له على مذهبه ، وهم يُظهرون ذلك ، وقاضيهما فاضل
من أهل قَزَوين ، وكبيرُ المسلمين بها محمد شاه بندر ، وله أخٌ فاضل كريمٌ
اسمه تقي الدين . والمسجدُ الجامعُ بها عجيب عمّره التاجر خواجه مهذب .
وهذه المدينة أوّل ما يوالي الصين من بلاد الملبيار ، وإليها يسافر أكثرُهم ،
والمسلمون بها أعزّة محترمون .

١ البقم : شجر ورقه كورق الجوز وساقه أحمر .

ذكر سلطانها

وهو كافر يُعرف بالثيّروري ، وهو معظم للمسلمين ، وله أحكام شديدة على السّراق والدُّعّار .

حكاية العراقي القتل

ومما شاهدتُ بكَوَلَم أن بعض الرماة العراقيّين قتلَ آخرَ منهم ، وفرّ إلى دار الآوجي ، وكان له مال كثير ، وأراد المسلمون دفن المقتول ، فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا : لا يُدفن حتّى تدفعوا لنا قاتله فيُقتل به ، وتركوه في تابوته على باب الآوجي ، حتّى أننّ وتغيّر ، فمكّنهم الآوجي من القتال ، ورغبَ منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيّاً ، فأبوا ذلك ، وقتلوه ، وحينئذٍ دُفن المقتول .

حكاية رجل قتل بحبة عنبة

أُخبرتُ أن سلطان كَوَلَم ركبَ يوماً إلى خارجها ، وكان طريقه فيما بين البساتين ، ومعه صهره زوجُ بنته ، وهو من أبناء الملوك ، فأخذ حبةً واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين ، وكان السلطان ينظر إليه ، فأمرَ به عند ذلك فوسّطَ ، وقُسِمَ نصفين ، وصُلِبَ نصفه عن يمين الطريق ، ونصفه الآخر عن يساره ، وقُسِمَت حبة العنبة نصفين ، فوُضِعَ على كلِّ نصف منه نصفٌ منها ، وترك هنالك عبرة للناظرين .

حكاية قتل مغتصب سيفاً

ومما اتفق نحو ذلك بقالْقُوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفاً لبعض تجّار المسلمين ، فشكا بذلك إلى عمّه ، فوعده بالنظر في أمره ، وقعدت على باب داره ، فإذا بابن أخيه متقلّد ذلك السيف ، فدعاه فقال : هذا

سيفُ المسلم ؟ قال : نعم ! قال : اشتريته منه ؟ قال : لا ! فقال لأعوانه : امسكوه ، ثمَّ أمرَ به ، فضربت عنقه بذلك السيف .

وأقيمتُ بكتولم مدةً بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ زاوية قالقُوط ، فلم أتعرفَ للككتم خبراً . وفي أثناء مقامي بها دخلَ إليها أرسالُ ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا ركبوا في أحد تلك الجنوك فاندكسرَ أيضاً ، فكساهم تجار الصين وعادوا إلى بلادهم ، ولقيتهم بها بعدُ ، وأردتُ أن أعود من كتولم إلى السلطان لأعلمه بما اتفقَ على الهدية ، ثمَّ خفتُ أن يتعقبَ فعلي ويقول : لِمَ فارقتَ الهدية ؟ فعزمتُ على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنوري ، وأقيمُ عنده حتى أتعرفَ خبرَ الككتم ، فعدتُ إلى قالقُوط ووجدتُ بها بعضَ مراكب السلطان ، فبعثَ فيها أميراً من العرب يُعرف بالسيد أبي الحسن ، وهو من البرد دارية ، وهم خواص البوابين ، بعثه السلطان بأموال يستجلبُ بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبتهم في العرب ، فتوجهتُ إلى هذا الأمير ، ورأيتُه عازماً على أن يشتو بقالقُوط ، وحينئذٍ يسافر إلى بلاد العرب ، فشاورته في العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك ، فسافرتُ بالبحر من قالقُوط . وذلك آخر فصل السفر فيه ، فكنتُ نسيرُ نصفَ النهار الأول ثمَّ نرسو إلى الغد . ولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية ، فحفظنا منها ، ثمَّ لم يتعرضوا لنا بشرّ .

ووصلنا إلى مدينة هينور فنزلتُ إلى السلطان ، وسلمتُ عليه ، فأُنزلني بدار ولم يكن لي خديم وطلبَ مني أن أصلي معه الصلوات ، فكان أكثر جلوسي في مسجده ، وكنتُ أختِمُ القرآن كلَّ يوم ، ثمَّ كنتُ أختِمُ مرتين في اليوم ، أبتديء القراءة بعد صلاة الصبح فأختِم عند الزوال ، وأجدد الوضوء وابتديء القراءة فأختِم الختمة الثانية عند الغروب ، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر ، واعتكفت منها أربعين يوماً .

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور

وكان السلطان جمال الدين قد جهّز اثنين وخمسين مركباً ، وسفرتة برسم غزو سندابور ، وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف ، فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ، ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان أخته ، فلمّا تجهّزت المراكب ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد ، ففتحت المصحف أنظر فيه ، فكان في أول الصفح يذكر فيه اسم الله كثيراً ، وليستصّر الله من نصره ، فاستبشرت بذلك ، وأتى السلطان إلى صلاة العصر ، فقلت له : إني أريد السفر ، فقال : فأنت إذاً تكون أميرهم ، فأخبرته بما خرج لي في أول الصفح ، فأعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ، ولم يكن ظهر له ذلك قبل ، فركب مركباً منها ، وأنا معه ، وذلك في يوم السبت ، فوصلنا عشي الاثنين إلى سندابور ، ودخلنا خورها ، فوجدنا أهلها مستعدين للحرب ، وقد نصبوا المجانيق ، فبتنا عليها تلك الليلة .

فلما أصبح ضربت الطبول والأنفار والأبواق وزحفت المراكب ورموا عليها بالمجانيق ، فلقد رأيت حجراً أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ، ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترسّة والسيوف ، ونزل السلطان إلى العكري ، وهو شبه الشلير ، ورمى بنفسه في الماء في جملة الناس ، وكان عندنا طريدتان مفتوحتا المواخر ، فيها الخيل ، وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرّع ويخرج ، ففعلوا ذلك وأذن الله في فتحها ، وأنزل النصر على المسلمين . فدخلنا بالسيوف ، ودخل معظم الكفار في قصر سلطانهم ، فرمينا النار فيه ، فخرجوا وقبضنا عليهم ، ثم إن السلطان أمّنهم وردّ لهم نساءهم وأولادهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف ، وأسكنهم بربض المدينة ، وسكن السلطان القصر ، وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته ، وأعطاني جارية منهن تسمى لبكي ، فسميتها مباركة ، وأراد زوجها فداها ، فأبيت ، وكساني

فُرجيةٌ مصريةٌ وُجدت في خزائن الكافر . وأُقيمتُ عنده بسندابور من يوم فتحها ، وهو الثالث عشر لحمادى الأولى ، إلى منتصف شعبان ، وطلبتُ منه الإذن في السفر ، فأخذَ عليّ العهد في العودة إليه .

وسافرتُ في البحر إلى هِنَور ثمّ إلى فَنَّاكَنَور ثمّ إلى مَسَجَرُور ثمّ إلى هيلبي ثمّ إلى جُرْ فَتَن وِدَه فَتَن وِبُدْ فَتَن وَفَسَدَرِينَا وَقَالِقُوط وقد تقدّم ذكرُ جميعها ، ثمّ إلى مدينة الشاليات . مدينة من حسان المدن تُصنعُ بها الثياب المنسوبة لها ، وأُقيمتُ بها فطالَ مقامي فعدتُ إلى قَتَالِقُوط ، ووصلتُ إليها غُلَامَان كانا لي بالكِكَم ، فأخبراني أنّ الجارية التي كانت حاملاً ، وبسببها كان تغيّرُ خاطري ، تُوفيت ، وأخذ صاحبُ الجاوة سائر الجوّاري واستولت الأيدي على المتاع . وتفرّق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة ، فعدتُ لما تعرفتُ هذا إلى هِنَور ثمّ إلى سَنَدابور . فوصلتها في آخر المحرم . وأُقيمتُ بها إلى الثاني من شهر ربيع الآخر .

وقدم سلطانُها الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها ، وهرّب إليه الكفّار كلّهم ، وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى . فانقطعوا عنا ، وحصرنا الكفّارُ وضيقوا علينا . ولما اشتدّ الحالُ خرجتُ عنها وتركتُها محصورة . وعدتُ إلى قَتَالِقُوط ، وعزمتُ على السفر إلى ذِيبة المهل . وكنتُ أسمعُ بأخبارها ، فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذِيبة المهل . وذِيبةٌ على لفظ مؤنث الذيب ، وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخلٌ كالباب لا تدخلُ المراكب إلّا منه ، وإذا وصلَ المركبُ إلى إحداها . فلا بدّ له من دليل من أهلها يسيرُ به إلى سائر الجزائر ، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي بإحداها عند الخروج من الأخرى . فإن أخطأ المركبُ سمتها لم يمكنه دخولها ، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان .

وهذه الجزائر أهلها كلّهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح ، وهي منقسمة إلى

أقاليم على كل إقليم والي يسمونه الكردوبي . ومن أقاليمها إقليم باليور ،
ومنها كتنلوس . ومنها إقليم المهل . وبه تعرف الجزائر كلها ، وبها يسكن
سلاطينها ، ومنها إقليم تلالديب ، ومنها إقليم كرايدو ، ومنها إقليم التيسم .
ومنها إقليم تلسدومتسي ، ومنها إقليم هلسدومتسي . ومنها إقليم بريندو .
ومنها إقليم كندكل ، ومنها إقليم ملوك ، ومنها إقليم السويد وهو أقصاها .
وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا أن في إقليم السويد منها زرعاً يشبه انلي ،
ويجلب منه إلى المهل ، وإنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلباً
الماس ، ولحمه أحمر ، ولا زفر له . إنما ريحه كريح لحم الأنعام . وإذا
اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع ، وطبخوه يسيراً . ثم جعلوه في مكاتيل
من سعف النخل . وعلقوه للدخان ، فإذا استحكمت يسهه أكلوه ، ويحمل منها
إلى الهند والصين واليمن ، ويسمونه قلب الماس .

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل ، وهو من أقواتهم مع السمك .
وقد تقدم ذكره . وأشجار النارجيل شأنها عجيب . وتثمر النخل منها اثني
عشر عذقاً في السنة ، يخرج في كل شهر عذق ، فيكون بعضها صغيراً وبعضها
كبيراً وبعضها يابساً وبعضها أخضر ، هكذا أبداً ، ويصنعون منه الحليب والزيت
والعسل ، حسبما ذكرنا ذلك في السفر الأول ، ويصنعون من عسله الحلواء .
فيأكلونها مع الجوز اليابس منه .

وللسمك الذي يغتنون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها . ولأهل هذه
الجزائر عجب في ذلك ، ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن ، فكنت
أطوف على جميعهن كل يوم ، وأبيت عند من تكون ليلتها ، وأقمت بها سنة
ونصف أخرى على ذلك .

١ القلب : سوار المرأة .

ومن أشجارها الجحون والأترج والليمون والقلقاص ، وهم يصنعون من أصوله دقيقاً يعملون منه شبه الاطرية ، ويطبخونها بحليب النارجيل ، وهي من أطيب الطعام ، كنت أستحسنها كثيراً وأكلها .

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائلهم وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة ، أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب . وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له : الله ربي ومحمد نبيي ، وأنا أمي مسكين . وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة ، وسلاحهم الدعاء . ولقد أمرت مرةً بقطع يد سارق بها فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس . ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تدعهم لأنهم جربوا ان من أخذ لهم شيئاً أصابته مصيبة عاجلة . وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء ، وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفاً من عاقبة ذلك ، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم .

وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم بالخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقدار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثر من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ، ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو .

ومن عاداتهم أنهم إذا صلّوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية . فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه .

ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان ، وهي شبه الأحاريم ، وبعضهم يجعل

١ الغالية : أخلط من الطيب .

عمامة ، وبعضهم مندبلاً صغيراً عوضاً منها ، وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه ، وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله .

ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجعل عليها غرقات من الودع^١ عن يمين طريقه إلى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره ، فإذا وصل إليها رمت على رجله ثوباً يأخذه خدامه ، وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره ، وجعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجله . وكذلك عادتُهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك وسنذكره .

وبنيانُهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات لأن أرضهم نديّة^٢ ، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفاً ، ويعرضون عليها خشب النارجيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب ، ولهم صناعة عجيبة في ذلك ، ويبنّون في أسطوان الدار بيتاً يسمّونه المالم يجلس الرجل فيه مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الأسطوان يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ، ولها مستقى يسمّونه الوكسج وهو من قشر جوز النارجيل ، وله نصاب طولُه ذراعان ، وبه يسقون الماء من الآبار لقربها .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقيّة تظللها الأشجار ، فالماشي بها كأنه في بستان ، ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجله بالماء الذي في الخابية بالمالم ، ويمسحهما بحصير غليظ من

١ الغرقات ، الواحدة غرقة : ما يفرق باليد . الودع : مناقيف صغار تخرج من البحر ، أو جوف في جوفها دابة ، الواحدة ردة .

الأيّيف يكون هنالك ثمّ يدخل بيته . وكذلك يفعل كلّ داخل إلى المسجد . ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن يخرج إليه الكنادر . وهي القوارب الصغار . واحدا كسندرة . وفيها أهل الجزيرة معهم التبول والكربة . وهي جوز النارجيل الأخضر . فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب . ويكون نزله . ويعمل أمتعته إلى داره كأنه بمس أقرائه . ومن أراد التزوّج من القادمين عليهم تزوّج . فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن . ومن لم يتزوّج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتغذمه وتزوّده إذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الإحسان .

وفائدة المخزن . ويسمونه البندر . أن يشتري من كلّ سلعة بالمركب حظاً بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه . ويسمونه شرع البندر . ويكون للبندر بيت في كلّ جزيرة من الخشب يسكنه به البجنصار يجمع به الوالي . وهو الكر دورتي . جميع سلعه ويبيع بها ويشترى . وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج . فتباع عندهم القدر بحسب حاجات وست . وتعمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي دأرياه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعائم . وهي من القطن . ويعملون منها أواني النحاس . فإنها عندهم كثيرة . ويعملون الودع . ويعملون القسبر وهو ليف حور النارجيل . وهم يدبغونه في حفر على الساحل . ثمّ يصربونه بأمرار ثمّ يفرله النساء . وتصنع منه الحبال لحياسة المراكب . وتعمل إلى نصين واحد واليمن . وهو خير من القتب . وبهذه الحبال تحاط مراكب الهند واليمن لأن ذلك البحر كثير الحجارة . فإن كان المركب مسحراً بمسامير الحديد صدمه الحجارة فانكسر . وإذا كان محيطاً بالحبال أعطي الرطوبة فلم يكسر .

وعرف أهل هذه الجزائر الودع . وهو حيوان يلتقطونه في البحر . ويضمونه في حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض . ويسمون ثمائه منه سياه .

١ المراز . لعلها شيء كالمذقات .

ويسمّون السبعمئة منه الفال ، ويسمّون الاثني عشر ألفاً منه الكُتّى ، ويسمّون المائة ألف منه بُسْتُو ، ويبيع منها قيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب ، وربما رخصَ حتى يباع عشرة بساتي منه بدينار ، ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز ، وهو أيضاً صرفُ أهل بلاد بنجالة ، ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوضَ الرمل في مراكبهم . وهذا الودعُ أيضاً هو صرفُ السودان في بلادهم ، رأيته يُباعُ بمالي وجوجو ، بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي .

ذكر نساها

ونسأوها لا يُغَطِّينَ رؤوسهن ، ولا سلطانتُهن تغطّي رأسها ، ويمشطن شعورهن ، ويمجمعنّها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهنّ إلاّ فوطة واحدة تسترّها من السرّة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها .

ولقد جهدتُ لما وليتُ القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك ، فكنتُ لا تدخلُ إليّ منهن امرأة في خصومة إلاّ مسترة الجسد ، وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة .

ولباس بعضهنّ قمصٌ زائدة على الفوطة ، وقمصهن قصائر الأكمام ، عراضها . وكان لي جوارٍ كسوتهن لباس أهل دهلي وغطّين رؤوسهن ، فعابهن ذلك أكثر ممّا زاتهن إذ لم يتعوّدنّه . وحليهنّ الأساور ، تجعل المرأة منها جملةً في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق ، وهي من الفضّة ولا يجعل أساور الذهب إلاّ نساء السلطان وأقاربه ، ولهنّ الخلاخيل ، ويسمّونها البابل . وقلائدُ ذهبٍ يجعلنها على صدورهن ، ويسمّونها البسدرد .

ومن عجيب أفعالهن أنّهن يؤجرن أنفسهنّ للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يرين ذلك عيباً ويفعله أكثر بناتهن فتجد في دار الإنسان الغنيّ منهن العشر والعشرين ، وكلّ ما تكسره

من الأواني يحسبُ عليها قيمته ، وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرتبته فيه ، فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها ، ويبقى عليها للآخرين. وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر . والتزوّج بهذه الجزائر سهل لتزارة الصداق وحسن معاشرّة النساء ، وأكثرُ الناس لا يسمّي صداقاً ، إنّما تقعُ الشهادة ويعطي صداق مثلها ، وإذا قدمت المراكب تزوّج أهلُها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ، وذلك نوعٌ من نكاح المتعة ، وهن لا يخرجن عن بلادهنّ أبداً ، ولم أرَ في الدنيا أحسن معاشرّة منهن . ولا تَكِيلُ المرأةُ عندهم خدمة زوجها إلى سواها بل هي تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغفم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ، ولقد تزوّجتُ بها نسوة ، فأكلَ معي بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معي ، ولا استطعتُ أن أراها تأكل ، ولا نفعتني حيلة في ذلك .

ذكر السبب في إسلام أهل هذه الجزائر وذكر العفاريات من الجن التي تضر بها في كل شهر

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليماني ، والفقيه الملقب عليّ ، والقاضي عبد الله ، وجماعة سواهم ، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفّاراً ، وكان يظهر لهم في كلّ شهر عفريتٌ من الجنّ يأتي من ناحية البحر كأنّه مركب مملوء بالقناديل ، وكانت عادتُهم إذا رأوه أخذوا جاريةً بكراً فزيّنوها وأدخلوها إلى بُدْخانة ، وهي بيت الأصنام ، وكان مبنياً على ضفّة البحر ، وله طاق يُنظرُ إليه منه ، ويتركونها هنالك ليلةً ، ثمّ يأتون عند الصباح ، فيجدونها مفتضّةً ميتةً ، ولا يزالون في كلّ شهر يقرعون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته .

ثمّ أتته قدمٌ عليهم مغربي يسمّى بأبي البركات البربري ، وكان حافظاً

للقرآن العظيم ، فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل ، فدخل عليها يوماً ، وقد جمعت أهلها ، وهن يبكين كأنهن في مأتم ، فاستفهمتهن عن شأنهن ، فلم يفهمتهن ، فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها ، وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت . فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضاً من بنتك بالليل ، وكان سناطاً لا حية له ، فاحتملوه تلك الليلة ، وأدخلوه إلى بُدْخانة ، وهو متوضئ ، وأقام يتلو القرآن ، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة ، فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله ، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عاداتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربي يتلو ، فمضوا به إلى ملكهم ، وكان يسمى شَنُورَازة ، وأعلموه بخبره ، فعجب منه ، وعرض المغربي عليه الإسلام ورغبه فيه ، فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر ، فإن فعلت كفعلك ، ونجوت من العفريت ، أسلمت . فأقام عندهم وشرّح الله صدر الملك للإسلام ، فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهلُه وأولادُه وأهلُ دولته .

ثم حمل المغربي لما دخل الشهر إلى بُدْخانة ، ولم يأت العفريت ، فجعل يتلو حتى الصباح ، وجاء السلطان والناس معه ، فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الأصنام وهدموا بُدْخانة ، وأسلم أهلُ الجزيرة . وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها ، وأقام المغربي عندهم معظماً ، وتمذهبوا بمذهبه مذهب الإمام مالك ، رضي الله عنه . وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه . وبني مسجداً هو معروف باسمه ، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشاً في الخشب : أسلم السلطان أحمد شَنُورَازة على يد أبي البركات البربري المغربي . وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل . إذ كان إسلامه بسببهم ، فسمي على ذلك حتى الآن ، وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام .

ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه . فبينما أنا ليلة في بعض شأني إذ سمعتُ

الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ، ورأيتُ الأولادَ وعلى رؤوسهم المصاحفُ والنساء يضربن في الطسوت وأواني النحاس ، فعجبتُ من فعلهم ، وقلتُ : ما شأنكم ؟ فقالوا : ألا تنظر إلى البحر ؟ فنظرتُ فإذا مثل المركب الكبير ، وكأنه مملوء سرجاً ومشاعل ، فقالوا : ذلك العفريت ، وعادته أن يظهرَ مرّةً في الشهر ، فإذا فعلنا ما رأيت انصرفَ عنا ولم يضرنا .

ذكر سلطنة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة ، وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي ، وكان الملكُ بلجدها ثم لأبيها ، فلما مات أبوها وليَ أخوها شهاب الدين ، وهو صغير السن ، فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه ، وغلبَ عليه ، وهو الذي تزوج أيضاً هذه السلطنة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سنذكره . فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرجَ ربيبه الوزير عبد الله ، ونفاه إلى جزائر السويد ، واستقل بالملك ، واستوزر أحد مواليه ، ويسمى عليّ كلكي ، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد .

وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلفُ إلى حرّم أهل دولته وخواصه بالليل ، فخلعوه لذلك ، ونفوه إلى إقليم هلدتي ، وبعثوا من قتله بها . ولم يكن بقي من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة . فقدموا خديجة سلطنة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصارَ وزيراً وغالباً على الأمر ، وقدمَ ولده محمداً للخطابة عوضاً منه . ولكن الأوامر إنما تُنفذ باسم خديجة ، وهم يكتبون الأوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين . ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم . ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها . فيقول : اللهم انصر أمّتك التي اخترتها على علم على العالمين ، وجعلتها رحمةً لكافة المسلمين ، ألا وهي السلطنة خديجة بنت السلطان

جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين .
ومن عاداتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى إلى المشور ، وهم يسمونه
الدار ، فلا بدّ له أن يستصحب ثوبين ، فيخدم بلجة هذه السلطنة ويرمي بأحدهما ،
ثمّ يخدم لوزيرها ، وهو زوجُها جمال الدين ، ويرمي بالثاني .
وعسكرُها نحو ألف إنسان من الغرباء . وبعضهم بلديون ، ويأتون كلَّ
يومٍ إلى الدار فيخدمون وينصرفون . ومرتبهم الأرض يُعطاهم من البندر في كلَّ
شهر . فإذا تمَّ الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير : بلغ عنا الخدمة ،
واعلم بأننا أتينا نطلب مرتبنا . فيؤمر لهم به عند ذلك ، ويأتي أيضاً إلى الدار
كلَّ يوم القاضي وأرباب الخطط ، وهم الوزراء عندهم ، فيخدمون ويبلغ
خدمتهم الفتيان وينصرفون .

ذكر أرباب الخطط وسيرهم

وهم يسمّون الوزيرَ الأكبر النائب عن السلطنة كـتـكـي ويسمّون القاضي
فَسَنْدِيَارْقَالُو ، وأحكامهم كلّها راجعة إلى القاضي ، وهو أعظم عندهم من
الناس أجمعين ، وأمره ممثّل كأمر السلطان وأشدّ ، ويجلسُ على بساط في
الدار ، وله ثلاث جزائر يأخذ مجباها لنفسه ، عادة قديمة أجراها السلطان أحمد
نَشُورَازة ، ويسمّون الخطيب هَسَنْدِيَجَرِي ، ويسمّون صاحب الديوان
الفَتَامَلْدَارِي ، ويسمّون صاحب الأشغال مَسَافَاكَلُو ، ويسمّون الحاكم
فَتَسَنَائِيك ، ويسمّون قائد البحر مَسَانَائِيك ، وكلّ هؤلاء يسمّى وزيراً .
ولا سجنَ عندهم بتلك الجزائر إنّما يُحبسُ أربابُ الجرائم في بيوت خشب
هي معدّة لأمتعة التجار ، ويجعل أحدهم في خشبة كما يفعل عندنا بأسارى الروم .

ذكر وصولي الى هذه الجزائر وتنقل حالي بها

ولما وصّلتُ إليها نزلتُ منها بجزيرة كنلوس ، وهي جزيرة حسنة فيها
المساجد الكثيرة ، ونزلتُ بدار رجل من صلحائها ، وأضافني بها الفقيه عليّ ،

وكان فاضلاً له أولاد من طلبة العلم، ولقيتُ بها رجلاً اسمه محمد من أهل ظَنَار الحموض ، فأضافني وقال لي : إن دخلتَ جزيرة المهل أمسكك الوزيرُ بها ، فإنّهم لا قاضي عندهم . وكان غرضي أن أسافرَ منها إلى المعبر وسرنديب وبنجالة ثمَّ إلى الصين . وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة^١ عمر الهنوري ، وهو من الحجّاج الفضلاء ، ولما وصلنا كنلوس أقامَ بها عشرًا ثمَّ اكترى كندرة^٢ يسافرُ فيها إلى المهل بهدية للسلطانة وزوجها ، فأردت السفر معه ، فقال : لا تسعك الكندرة أنتَ وأصحابك ، فإن شئتَ السفر منفرداً عنهم فدونك ، فأبيتُ ذلك . وسافر ، فلعبت به الريح وعادَ إلينا بعد أربعة أيّام ، وقد لقي شدائد ، فاعتذرَ لي وعزَمَ عليّ في السفر معه بأصحابي . فكنتُ نرحلُ غدوة فنزل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحلُ فنيبتُ بأخرى ، ووصلنا بعد أربعة أيّام إلى إقليم التيم ، وكان الكردي يسمّى بها هلالاً ، فسلمَ عليّ وأضافني ، وجاء إليّ ومعه أربعة رجال ، وقد جعل اثنان منهم عوداً على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات ، وجعل الآخران عوداً مثله وعلقا منه نحوَ عشر من جوز النارجيل ، ففعلتُ من تعظيمهم لهذا الشيء الحقيق ، فأخبرتُ أنّهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال .

ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان ، وهو رجلٌ فاضلٌ من خيار الناس ، فأكرمنا وأضافنا ، وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمذي ، وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل حيثُ السلطانة وزوجها ، وأرسلنا بمرساها . وعادتهم أن لا ينزل أحد من المرسى إلّا بإذنهم ، فأذنوا لنا بالنزول ، وأردتُ التوجّه إلى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل ، وقالوا : لا بدّ من الدخول إلى الوزير . وكنتُ أوصيتُ الناخوذة أن يقول إذا سئل عني : لا أعرفه ، خوفاً من إمساكهم إيتاي ، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتبَ إليهم معرفاً بنخبري ، واني كنتُ قاضياً بدلهي .

١ الناخوذة : رئيس المركب .

فلما وصلنا إلى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه ، وجاء القاضي عيسى اليميني ، فسلم عليّ وسلّمتُ على الوزير ، وجاء الناخوذة إبراهيم بعشرة أثواب ، فخدمَ بخدمة السلطنة ورمى بثوب منها ، ثمّ خدمَ للوزير ورمى بثوب آخر ، ورمى بجميعها ، وسُئِلَ عني فقال : لا أعرفه . ثمّ أخرجوا لنا التنبول وماء الورد ، وذلك هو الكرامة عندهم ، وأنزلنا بدار ، وبُعثَ إلينا الطعام ، وهو قصعة كبيرة فيها الأرز ، وتدور بها صحافٌ فيها اللحم الخليج^١ والدجاج والسمن والسّمك .

ولما كان بالغد مضيتُ مع الناخوذة والقاضي عيسى اليميني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمّرها الشيخ الصالح نجيب ، وعدنا ليلاً ، وبعثَ الوزيرُ إليّ صبيحةً تلك الليلة كسوةً وضيافة فيها الأرز والسمن والخليج وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها ، وهم يسمّونه القُرْباني ، ومعنى ذلك ماء السكر ، وأنوا بمائة ألف ودعة للنفقة .

وبعد عشرة أيامَ قدّمَ مركبٌ من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفونني ، فعرفوا خدامَ الوزير بأمرِي ، فزاد اغتباطاً بي ، وبعثَ إليّ عند استهلال رمضان ، فوجدتُ الأمراء والوزراء ، وأحضّرَ الطعامُ في موائد يجتمعُ على المائدة طائفةٌ ، فأجلسني الوزير إلى جانبه ، ومعه القاضي عيسى والوزير الفاملدري والوزير عمر دهرد ، ومعناه مقدم العسكر ، وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسّمك والخليج والموز المطبوخ ، ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطاً بالأفاويه وهو يهضم الطعام .

وفي التاسع من شهر رمضان ماتَ صهر الوزير زوج بنته ، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ، ولم يدخل بها أحد منهما لصغرهما ، فردّها أبوها لداره ، وأعطاني دارها ، وهي من أجمل الدور ، واستأذنتُ في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم . فأذن لي في ذلك ، وبعثَ إليّ خمساً من الغنم ، وهي عزيزة

١ لعل المراد باللحم الخليج اللحم المزال منه عظمه أو المقدد .

عندهم لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو ، وبعث الأرّز والدجاج والسمن والأبازير ، فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مآنايتك ، فطبخ لي بها فأحسن في طبخه وزاد فيه ، وبعث الفرش وأواني النحاس ، وأفطرنا على العادة بدار السلطنة مع الوزير ، واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فقال لي : وأنا أحضر أيضاً ، فشكرته وانصرفت إلى داري ، فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة . فجلس في قبة خشب مرتفعة ، وكان كل من يأتي من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ، ويرمي بثوب غير مخط ، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها ، فأخذها الفقراء .

وقدم الطعام فأكلوا ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثم أخذوا في السماع والرقص ، وأعددت النار ، فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ، ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء ، إلى أن خمدت .

ذكر بعض إحسان الوزير إلي

ولما تمت الليلة انصرفت الوزير ومضيت معه . فمرنا ببستان للمخزن ، فقال لي الوزير : هذا البستان لك ، وسأعمر لك فيه داراً لسكنائك ، فشكرت فعله ودعوت له ، ثم بعث لي من الغد بجارية ، وقال لي خديمه : يقول لك الوزير إن أعجبتك هذه هي لك ، وإلا بعثت لك جارية مرهتية ، وكانت الجواري المرهنيات تعجبي ، فقلت له : إنما أريد المرهتية . فبعثها لي ، وكان اسمها قلستان ، ومعناه زهر البستان ، وكانت تعرف اللسان الفارسي ، فأعجبني ، وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه ، ثم بعث إلي في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبري .

ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير إلي ، بعد العشاء الأخيرة ، في نفر من أصحابه ، فدخل الدار ، ومعه غلامان صغيران ، فسلمت عليه ، وسألني عن حالي ، فدعوت له وشكرته ، فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة)

وهي شبه السبئية^١، وأُخْرِجَ منها ثياب حرير وحَقَّقاً فيه جوهر وحلى، فأعطاني ذلك وقال لي : لو بعثته لك مع الجارية لقاتل هو مالي جثتُ به من دار مولاي ، والآن هو مالك فأعطها ليَّاه ، فدعوتُ له وشكرتُه ، وكان أهلاً للشكر .
رحمه الله .

ذكر تغييره وما أودته من الخروج ومقامي بعد ذلك

وكان الوزير سليمان مَنَّاسَيْك قد بعثَ إليَّ أن أَتَزَوَّج بنته ، فبعثتُ إلى الوزير جمال الدين مستأذناً في ذلك ، فعادَ إليَّ الرسولُ . وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحبُّ أن يزوّجك بنته إذا انقضت عدتها ، فأبيتُ أنا ذلك ، وخفتُ من شؤمها لأنّه مات تحتها زوجان قبل الدخول . وأصابتنِي أثناء ذلك حمى مرضتُ بها ، ولا بدّ لكلِّ من يدخل تلك الجزيرة أن يُحَمَّ . فقوي عزمي على الرحلة عنها ، فبعثتُ بعض الحلى بالودع . واكتريتُ مركباً أسافرُ فيه لبنجالة .

فلما ذهبتُ لوداع الوزير خَرَجَ إليَّ القاضي فقال : الوزير يقول لك : إن شئتَ السفرَ فأعطنا ما أعطيناك وسافر . فقلتُ له : إن بعض الحلى اشتريتُ به الودع فشأنكم وليَّاه ، فعادَ إليَّ فقال : يقول إنّما أعطيناك الذهب ولم نعطيك الودع . فقلتُ له : أنا أبيعه وآتيكم بالذهب ، فبعثتُ إلى التجار ليشتروه مني . فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا ، وقصدهُ بذلك كلّهُ أن لا أسافر عنه .

ثمّ بعثَ إليَّ أحد خواصّه ، وقال : الوزير يقول لك أقم عندنا ، ولك كلّ ما أحببت . فقلتُ في نفسي : أنا تحت حكمهم ، وإن لم أقم مختاراً أقم مضطراً . فالإقامة باختيارى أولى . وقلتُ لرسوله : نعم ! أنا أقيمُ معه . فعاد إليّ ففرح بذلك واستدعاني ، فلما دخلتُ إليه قامَ إليّ وعانقني ، وقال : نحن نريدُ قربك . وأنتَ تريدُ البعد عنا ، فاعتذرتُ له فقبل عذري ، وقلتُ له : إن أردتم مقامي . فأنا أشرطُ عليكم شروطاً ، فقال : نقبلها فاشترط . فقلتُ له :

١ السبئية : إزار أسود للنساء .

أنا لا أستطيعُ المشي على قدمي ، ومن عادتهم أن لا يركب أحدٌ هنالك إلا الوزير ، ولقد كنتُ لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالاً وصبياناً يعجبون مني حتى شكوتُ له فضربت الدُّنْقُرَةَ وُبرِّحَ في الناس أن لا يتبعني أحد ، والدُّنْقُرَةَ شبهُ الطست من النحاس ، تُضْرَبُ بِحَدِيدَةٍ فيُسمعُ لها صوتٌ على البعد ، فإذا ضربوها حينئذٍ يبرِّح في الناس بما يراد ، فقال لي الوزير : إن أردت أن تركبَ الدولة ، وإلا فعندنا حصانٌ ورمكة . فاخترتُ الرمكة فأتوني بها في تلك الساعة ، وأتوني بكسوة ، فقلت له : وكيف أصنعُ بالودع الذي اشتريته ؟ فقال : ابعت أحد أصحابك لبيعه لك ببجالة . فقلت له : على أن تبعثَ أنتَ من يعينه على ذلك . فقال : نعم ، فبعثتُ حينئذٍ رفيقي أبا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلاً يسمي الحاج علياً ، فاتفق أن هالَ البحر ، فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقرية^١ ، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلعَ لهم ولا سُكَّان ولا غيره ، ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد . وقدمَ عليٌ صاحبي أبو محمد بعد سنة ، وقد زارَ القدم^٢ ، وزارها مرةً ثانية معي .

ذكر العيد الذي شاهده معهم

ولما تمَّ شهر رمضان بعثَ الوزيرُ إليَّ بكسوة . وخرجنا إلى المصلى . وقد زُيِّنَت الطريق التي يمرُّ الوزيرُ عليها من داره إلى المصلى ، وفرشت الثياب فيها ، وجُعِلَت كُتَاتِي^٣ الودع يمنة ويسرة ، وكلَّ من له على طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرسَ عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل

١ برح به : آذاه ، ولعله أراد بها هنا أوصي الناس بشدة .

٢ القرية : عود الشراع الذي يجعل في عرضه من أعلاه .

٣ أراد بالمقدم قدم آدم وسيأتي ذكرها .

٤ الكُتَاتِي : لم نجد هذه اللفظة في المعاجم .

والموز ، ومدّ من شجرة إلى أخرى شرائط ، وعلق منها الجوز الأخضر ، ويقف صاحبُ الدار عند بابها فإذا مرّ الوزيرُ رمى على رجليه ثوباً من الحرير أو القطن ، فيأخذه عبيده مع الودع الذي يُجعلُ على طريقه أيضاً ، والوزيرُ ماشٍ على قدميه ، وعليه فرجية مصرية من المرعز ، وعمامة كبيرة ، وهو مثقلٌد فوطة حرير ، وفوقَ رأسه أربعة شطور ، وفي رجليه النعل ، وجميعُ الناسِ سواه حفاة ، والأبواقُ والأنفَارُ والأطبال بينَ يديه ، والعساكرُ أمامه وخلفه ، وجميعُهُم يكبّرون حتى أتوا المصلّى ، فخطبَ ولده بعد الصلاة ، ثمّ أتى بمحفّة فركبَ فيها الوزير ، وخدمَ له الأمراء والوزراء ، ورموا بالثياب على العادة ، ولم يكن ركبَ في المحفّة قبل ذلك لأن ذلك لا يفعله إلاّ الملوك .

ثمّ رفَعته الرجال وركبتُ فرسي ، ودخلنا القصر ، فجلس بموضع مرتفع ، وعنده الوزراء والأمراء ، ووقفَ العبيد بالتّرسه والسيوف والعصي ، ثمّ أتى بالطعام ثمّ بالفوفل والتنبول . ثمّ أتى بصحفةٍ صغيرة فيها الصندل المقاصري ، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطّخوا بالصندل .

ورأيتُ على بعض طعامهم يومئذٍ حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ ، أهدي لهم من كولم ، وهو ببلاد المُلَسِّيَّين كثير ، فأخذ الوزيرُ سردينه ، وجعل يأكلها وقال لي : كلّ منه فإنّه ليس ببِلادنا ! فقلت : كيف آكله وهو غير مطبوخ ؟ فقال : إنّهُ مطبوخ . فقلت : أنا أعرفُ به فإنّه ببِلادي كثير .

ذكر تزوجي وولايتي القضاء

وفي الثاني من شوال اتفقتُ مع الوزير سليمان مَنّايَاك على تزوّج بنته ، فبعثتُ إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بينَ يديه بالقصر ، فأجابَ إلى ذلك وأحضَرَ التنبول ، على العادة ، والصندل ، وحضَرَ الناس ، وأبطأ الوزير سليمان ، فاستُدعي فلم يأت ، ثمّ استُدعي ثانية ، فاعتذر بمرض البنت . فقال لي الوزيرُ سرّاً : إنّ بنته امتنعت ، وهي مالكة أمرَ نفسها ، والناسُ قد

اجتمعوا ، فهل لك أن تزوّج بربيبة السلطان زوجة أبيها ، وهي التي ولده متزوّج بنتها ؟ فقلتُ له : نعم ! فاستدعى القاضي والشهود ووقّعت الشهادة ، ودفع الوزيرُ الصداق ، ورُفعت إليّ بعد أيتام ، فكانت من خيار النساء . وبلغ حسنُ معاشرتها أنّها كانت إذا تزوّجت عليها تطيّبني وتبخّر أنوابي ، وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغيير .

ولمّا تزوّجتها أكرهني الوزير على القضاء ، وسببُ ذلك اعتراضه على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات إذا قسمها على أربابها . فقلتُ له : إنّما لك أجرة تتفقُ بها مع الورثة ، ولم يكن يُحسنُ شيئاً ، فلمّا وليت اجتهدتُ جهدي في إقامة رسوم الشرع ، وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا ، فأول ما غيّرت من عوائد السوء مكثُ المطلّقات في ديار المطلّقين ، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلّق حتى تزوّج غيره ، فحسبتُ علّة ذلك . وأتي إليّ بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممّن فعلَ ذلك ، فضرَبتهم وشهّرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثمّ اشتدّت في إقامة الصلوات وأمرت الرجالَ بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصلْ ضربته وشهّرتة ، وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله ، وكتبْتُ إلى جميع الجزائر بنحو ذلك ، وجهدتُ أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك .

ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي

الذي نفاه السلطان شهاب الدين إلى السويد وما وقع بيني وبينه

وكنْتُ قد تزوّجتُ بربيبته بنتَ زوجته ، وأحببتها حبّاً شديداً ، ولمّا بعثَ الوزيرُ إليه ، وردّه إلى جزيرة المهمل ، بعثُ له التحف ، وتلقّيته ، ومضيتُ معه إلى القصر ، فسلم على الوزير ، وأنزله في دار جيّدة ، فكنتُ أزوره بها . واتفقَ أن اعتكفتُ في رمضان فزارني جميعُ الناس إلّا هو ، وزارني الوزيرُ

جمالُ الدين ، فدخلَ هو معه بحكم الموافقة ، فوَقعت بيننا الوحشة ؛ فلمّا خرجتُ من الاعتكاف شكّا ليّ أخوالُ زوجتي ربّيته ، أولادُ الوزير جمال الدين السنجري ، فإن أباهم أوصى عليهم الوزيرَ عبد الله ، وإن ما لهم باقٍ بيده ، وقد خرجوا عن حِجره بحكم الشرع ، وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم . وكانت عادتِي إذا بعثتُ إلى خصمٍ من الخصوم أبعثُ له قطعةً كاغدٍ مكتوبةً ، فعندما يقفُ عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي وإلاّ عاقبته ، فبعثتُ إليه على العادة ، فأغضبه ذلك ، وحقدّها لي ، وأضمرّ عداوتي ، ووكلَ من يتكلّم عنه ، وبلغني عنه كلامٌ قبيح .

وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين ، وخدمتهم أن يوصلوا السبّابة إلى الأرض ثمّ يقبّلوها ويضعوها على رؤوسهم ، فأمرتُ المناادي فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنّه من خدمَ للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد ، وأخذتُ عليه أن لا يترك الناس لذلك . فزادت عداوته . وتزوّجتُ أيضاً زوجةً أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جدّه السلطان داود حفيد السلطان أحمد سننورازة ، ثمّ تزوّجتُ زوجةً كانت تحت السلطان شهاب الدين ، وعمّرت ثلاث ديار بالبلستان الذي أعطانيه الوزير ، وكانت الرابعة ، وهي ربّية الوزير عبد الله ، تسكن في دارها . وهي أحبّهنّ إليّ ، فلمّا صاهرتُ من ذكرته هابني الوزير وأهل الجزيرة . وتخوّفوا مني لأجل ضعفهم . وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم ، وتولّى الوزير عبد الله كبر ذلك ، حتّى تمكنت الوحشة .

ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك

واتفقَ في بعض الأيام أن عبداً من عبيد السلطان جلال الدين شكّته زوجته إلى الوزير . وأعلمته أنّه عند سرّيّة من سراري السلطان يزني بها ، فبعثَ الوزيرُ الشهود . ودخلوا دار السرّيّة فوجدوا الغلام نائماً معها في فراشٍ واحد ،

وحبسوهما ، فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت إلى المشور ، وجلست في موضع جلوسي ، ولم أتكلّم في شيء من أمرهما ، فخرج إليّ بعض الخواص فقال : يقول لك الوزير أنك حاجة ؟ فقلت : لا ! وكان قصده أن أتكلّم في شأن السريّة والغلام ، إذ كانت عادي أن لا تقع قضية إلاّ حكمت فيها . فلما وقع التغير والوحشة قصرت في ذلك ، فانصرفت إلى داري بعد ذلك ، وجلست بموضع الأحكام ، فإذا ببعض الوزراء ، فقال لي : الوزير يقول لك : إنّه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السريّة والغلام ، فاحكم فيهما بالشرع . فقلت له : هذه قضية لا ينبغي أن يكون الحكم فيها إلاّ بدار السلطان ، فعدت إليها .

واجتمع الناس وأحضرت السريّة والغلام ، فأمرت بضربهما للخلوة ، وأطلقت سراح المرأة ، وحبست الغلام ، وانصرفت إلى داري . فبعث الوزير إليّ جماعة من كبراء ناسه في شأن تسريح الغلام ، فقلت لهم : أتشفعون في غلام زنجي يهتك حرمة مولا ، وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين ، وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له ؟ وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهي أشدّ وقعا من السياط ، وشهرته بالجزيرة ، وفي عنقه حبل .

فذهبوا إلى الوزير فأعلموه ، فقام وقعد واستشاط غضبا ، وجمع الوزراء ووجوه العسكر ، وبعث إليّ فجئته ، وكانت عادي أن أخدم له فلم أخدم ، وقلت : سلام عليكم . ثم قلت للحاضرين : اشهدوا عليّ أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزني عنه ، فكلّمني الوزير . فصعدت وجلست بموضع أقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب ، وأذن مؤذن المغرب ، فدخل إلى داره . وهو يقول : ويقولون اني سلطان ، وها أنا ذا طلبته لأغضب عليه ، فغضب عليّ . وإنما كان اعتزالي عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحقّقوا مكانتي عنده . وإن كانوا على بعد منه فخوفه في قلوبهم متمكن . فلما دخل إلى داره بعث إليّ القاضي المعزول ، وكان جريء اللسان ، فقال لي : إن مولانا يقول لك :

كيف هتكت حرمتة على رؤوس الاشهاد ، ولم تخدم له ؟ فقلت له : إننا كنت أخدم له حين كان قلبي طيباً عليه . فلما وقع التغير تركت ذلك ، وتحيّة المسلمين إننا هي السلام . وقد سلّمت . فبعثه إليّ ثانية فقال : إننا غرضك السفرُ عنا فأعطى صدقات النساء وديون الناس وانصرف إذا شئت ، فخدمت له على هذا القول ، وذهبت إلى داري فخلصت ممّا عليّ من الدين ، وكان قد أعطاني في تلك الأيام فرشَ دارٍ وجهازها من أواني نحاس وسواها ، وكان يعطيني كلّ ما أطلبه ، ويحسني ويكرمني ، ولكنّه غيرَ خاطره وتخوّفَ مني ، فلما عرّف أنّي قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندمَ على ما قاله ، وتلكأ في الإذن لي في السفر . فحلفت بالأيمان المغلظة أن لا بدّ من سفري ، ونقلت ما عندي إلى مسجد على البحر ، وطلّقت إحدى الزوجات . وكانت إحداهن حاملاً فجعلت لها أجلاً تسعة أشهر إن عدتُ فيها ، وإلاّ فأمرها بيدها ، وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ملوك ، وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطانة . وتوافقت مع الوزير عمّر دهرد والوزير حسن قائد البحر على أن أمضي إلى بلاد المعبر ، وكان ملكها سلفي ، فأتي منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه ، وأنوب أنا عنه فيها ، وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب ، فإذا رأوها ثاروا في البر . ولم أكن حدثت نفسي بهذا قطّ ، حتى وقع ما وقع من التغير ، وكان الوزير خائفاً مني يقول للناس : لا بدّ لهذا أن يأخذ الوزارة إمّا في حياتي أو بعد مماتي ، ويكثر السؤال عن حالي ، ويقول : سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها عليّ ، وكان يخاف من سفري لئلاّ آتي بالحيوش من بلاد المعبر ، فبعث إليّ أن أقيم حتّى يجهز لي مركباً فأبيت ، وشكت أخت السلطانة إليها سفر أمّها معي ، فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك ، فلما رأت عزمها على السفر قالت لها : ان جميع ما عندك من الحلّى هو من مال البندر ، فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك وإلاّ فردّيه ، وكان حلياً له خطر ، فردّته إليهم ، وأتاني الوزراء

والوجوه ، وأنا بالمسجد ، وطلبوا مني الرجوع ، فقلت لهم : لولا اني حلفتُ لعدتُ ، فقالوا : تذهب إلى بعض الجزائر ليبرّ قسمك وتعود ، فقلتُ لهم : نعم ، إرضاء لهم .

فلما كانت الليلة التي سافرت فيها أتيتُ لوداع الوزير فعانقني ، وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي ، وبات تلك الليلة يحترسُ الجزيرة بنفسه خوفاً من أن يثور عليه أصهاري وأصحابي ، ثم سافرتُ ووصلتُ إلى جزيرة الوزير عليّ فأصابني زوجتي أوجاعٌ عظيمة ، وأحببتُ الرجوع ، فطلقتها وتركتهُ هناك ، وكتبتُ للوزير بذلك لأنها أمّ زوجة ولده ، وطلقتُ التي كنتُ ضربتُ لها الأجل ، وبعثتُ إلى جارية كنتُ أحبّها ، وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم .

ذكر النساء ذوات الثدي الواحد

وفي بعض تلك الجزائر رأيتُ امرأة لها ثديّ واحد في صدرها ، ولها ابنتان إحداهما كمثلهما ذاتُ ثدي واحد ، والأخرى ذاتُ ثدين ، إلاّ أنّ أحدهما كبيرٌ فيه اللبن والأخر صغير لا لبن فيه ، فعجبتُ من شأنهن . ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليسَ بها إلاّ دارٌ واحدة ، فيها رجلٌ حائك ، له زوجة وأولاد ونُخيلات نارجيل ، وقارب صغير يصطادُ فيه السمك ، ويسيرُ به إلى حيثُ أراد من الجزائر . وفي جزيرته أيضاً شجيرات موز ، ولم نرَ فيها من طيور البرّ غيرَ غُرّابين خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا ، فغبطتُ والله ذلك الرجل ووددتُ أن لو كانت تلك الجزيرة لي ، فانقطعتُ فيها إلى أن يأتيني اليقين .

ثمّ وصلتُ إلى جزيرة ملوك حيثُ المركب الذي لناخوذة إبراهيم ، وهو الذي عزمتُ على السفر فيه إلى المعبر ، فجاء إليّ ، ومعه أصحابه ، وأضافوني ضيافةً حسنةً . وكان الوزيرُ قد كتبَ لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستواً من الكودة ، وهي الودع ، وعشرينَ قدحاً من الأطوان ، وهو عسل

النارجيل ، وعددًا معلومًا من التنبول والفوفل والسّمك في كلّ يوم .
وأقيمتُ بهذه الجزيرة سبعينَ يوماً ، وتزوَّجتُ بها امرأتين ، وهي من أحسن
الجزائر خَصيرةً نَصيرةً ، رأيتُ من عجائبها أن الغصن يُقْطَع من شجرها ويركز
في الأرض أو الحائط ، فيورق ويصير شجرة ، ورأيتُ الرّمّان بها لا ينقطع له
ثمّ بطول السنة .

وخافَ أهلُ هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره ،
فأرادوا إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره ، فوقعت المشاجرة بسبب
ذلك ، وعدنا إلى المهمل ، ولم ندخلها ، وكتبْتُ إلى الوزير مُعلماً بذلك ، فكتبَ
أن لا سبيلَ لأخذ السلاح ، وعدنا إلى ملوك ، وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني
عام خمسة وأربعين^١ . وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين ،
رحمه الله ، وكانت السلطنة حاملاً منه ، فولدت اثر وفاته ، وتزوَّجها الوزير
عبد الله .

وسافرنا ولم يكن معنا رئيسٌ عارفٌ ، ومسافة ما بينَ الجزائر والمعبر ثلاثة
أيّام ، فسرنا نحن تسعة أيّام ، وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان ، ورأينا
جبل سَرَنديب فيها ذاهباً في السماء كأنه عمود دخان . ولما وصلناها قال
البحرية : إن هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمنين ،
إنّما هذا مرسى في بلاد السلطان أيري شكروتي ، وهو من العتاة المفسدين ،
وله مراكب تقطعُ في البحر ، فحفظنا أن ننزل بمرساه ، ثمّ اشتدّت الرياح فحفظنا
الغرق ، فقلتُ للناخوذة : انزلني إلى الساحل ، وأنا آخذ لك الأمان من هذا
السلطان ، ففعلَ ذلك ، وأنزلني بالساحل فأتانا الكفار فقالوا : من أنتم ؟ فأخبرتهم
أنني سلفُ سلطان المعبر وصاحبُه جئتُ لزيارته ، وإنّ الذي في المركب هديةٌ له ،
فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك ، فاستدعاني ، فذهبتُ له إلى مدينة بطّالة
وهي حضرته ، مدينةٌ صغيرةٌ حسنة ، عليها سورٌ خشب وأبراجُ خشب ، وجميعُ

١ سنة ١٣٤٤ م .

سواحلها مملوءة بأعواد القرفة تأتي بها السيول فتجتمعُ بالساحل كأنّها الروابي ويحملها أهلُ المعبر والمَلَسِيَّار دون ثمن ؛ إلّا أنّهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه . وبينَ بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرةُ يومٍ وليلة ، وبها أيضاً من خشب البقَم كثيرٌ ، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي ، إلّا أنّه ليس كالقُماري والفاقُلّي وسنذكره .

ذكر سلطان سيلان

واسمه أيرِي شَكْرَوَتِي ، وهو سلطان قويّ في البحر ، رأيتُ مرّةً ، وأنا بالمعبر ، مائةً مركبٍ من مراكبه بينَ صغار وكبار وصلت إلى هناك ، وكانت بالمرسى ثمانيةً مراكبٍ للسلطان يرسم السفر إلى اليمن ، فأمرَ السلطان بالاستعداد ، وحشدَ الناس لحماية أجفانه ، فلمّا يشوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنّما جئنا في حماية مراكب لنا تسيرُ أيضاً إلى اليمن .

ولمّا دخلتُ على هذا السلطان الكافر قامَ إليّ وأجلسني إلى جانبه ، وكلمني بأحسن كلام ، وقال : ينزلُ أصحابُك على الأمان ، ويكونون في ضيافتي إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بيني وبينه الصّحبة ، ثمّ أمرَ بإنزالِي ، فأقمتُ عنده ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد في كلّ يوم ، وكان يفهم اللسان الفارسي ، ويعجبه ما أحدثته به عن الملوك والبلاد .

ودخلتُ عليه يوماً وعندَه جواهر كثيرة أتتني بها من مغاص الجواهر الذي ببلاده ، وأصحابُه يميّزون النفيس منها من غيره ، فقال لي : هل رأيتَ مغاصَ الجواهر في البلاد التي جئت منها ؟ فقلتُ له : نعم ! رأيتُه بجزيرة قيس وجزيرة كَش التي لابن السواملي . فقال : سمعتُ بها . ثمّ أخذَ حبّات منه فقال : أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه ؟ فقلتُ له : رأيتُ ما هو دونها . فأعجبه ذلك وقال : هي لك . وقال لي : لا تستحِ واطلب مني ما شئت . فقلتُ له : ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلّا زيارة القَدَم الكريمة قدم آدم ، عليه السلام ؛

وهم يسمّونه « بابا » ويسمّون حواء « ماما » . فقال : هذا هين ! نبعثُ معك من يوصلك . فقلت : ذلك أريد . ثمّ قلتُ له : وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمناً إلى المعبر ، وإذا عدتُ أنا بعثتني في مراكبك . فقال : نعم . فلمّا ذكرتُ ذلك لصاحب المركب قال لي : لا أسافرُ حتى تعودَ ، ولو أقمتُ سنة بسببك ، فأخبرتُ السلطان بذلك ، فقال : يقيمُ في ضيافتي حتى تعود . فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم ، وبعثَ معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كلَّ عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد ، وأمّا الماء فهو بتلك الطريق كثيرٌ .

ونزلنا ذلك اليوم على وادٍ جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران ، ثمّ رحلنا من هنالك إلى منّارٍ منّدي ، مدينةٌ حسنة هي آخر عمالة السلطان ، أضافنا أهلها ضيافةً حسنة ، وضيافتهم عجولُ الجواميس يصطادونها بغاية هنالك . ويأتون بها أحياء ، ويأتون بالأرز والسمن والخوت والدجاج واللبن . ولم نرَ في هذه المدينة مسلماً غيرَ رجل خراساني انقطع بسبب مرضه ، فسافر معنا ورحلنا إلى بَسْدَرَسَلاوات وهي بلدة صغيرة ، وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه ، وبها الفيلة الكثيرة إلّا أنّها لا تؤذي الزوّار والغرباء ، وذلك ببركة الشيخ أبي عبد الله بن خفيف ، رحمه الله ، وهو أوّل من فتحَ هذا الطريق إلى زيارة القدم . وكان هؤلاء الكفّار يمنعون المسلمين من ذلك ، ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم ، فلمّا اتّفقَ للشيخ أبي عبد الله ما ذكرناه في السفر الأوّل من قتل الفيلة لأصحابه وسلامته من بينهم ، وحمل الفيل له على ظهره ، صارَ الكفّار من ذلك العهد يعظّمون المسلمين ، ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ، ويطمئنّون لهم بأهلهم وأولادهم ، وهم إلى الآن يعظّمون الشيخ المذكور أشدّ تعظيم ، ويسمّونه الشيخ الكبير .

ثمّ وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كُنْسَكَار ، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك

البلاد ، وبنائها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به . وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش ، وسultan هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه ، وهو كان الدليل إلى القدم . فلما قُطعت يده ورجله صار الأدلاء أولادُه وغلماؤه . وسببُ قطعه أنه ذبح بقرة ، وحُكم كفّار الهنود أنه من ذبح بقرة ذُبِحَ كمثلها ، أو جُعِلَ في جلدها وحرق . وكان الشيخ عثمان معظماً عندهم ، فقطعوا يده ورجله ، وأعطوه مجي بعض الأسواق .

ذكر سلطان كنكار

وهو يُعرفُ بالكُنّار ، وعنده الفيلُ الأبيض لم أرَ في الدنيا فيلاً أبيض سواه ، يركبه في الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة ، واتفقَ له أن قامَ عليه أهلُ دولته وسمّلوا عينيه وولّوا واده ، وهو هنالك أعمى .

ذكر الياقوت

والياقوتُ العجيبُ البهرمان إنما يكون بهذه البلدة ، فمنه ما يخرج من الخور ، وهو عزيزٌ عندهم ، ومنه ما يحفرُ عنه . وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها ، وهي متملكة ، فيشتري الإنسانُ القطعة منها ويحفر عن الياقوت ، فيجدُ أحجاراً بيضاء مشعّبة ، وهي التي يتكوّن الياقوتُ في أجوافها ، فيعطياها الحكّاكين ، فيحكّونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت ، فمنه الأحمرُ ، ومنه الأصفرُ ، ومنه الأزرقُ ، ويسمّونه النّيلّم .

وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فنّتم فهو للسلطان يُعطي ثمنه ويأخذه ، وما نقصَ عن تلك القيمة فهو لأصحابه . وصرف مائة فنّتم ستة دنانير من الذهب .

وجميع النساء بجزيرة سيلان هنّ القلائد من الياقوت الملون ، ويعملنه في

أيديهن وأرجلهن عوضاً من الاسورة والخلاخيل . وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن . ولقد رأيتُ على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة ، ورأيتُ عند السلطان أيّري شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت ، فيها دهن العود ، فجعلت أعجب منها ، فقال : إن عندنا ما هو أضخم من ذلك .

ثم سافرنا من كُنْكَتَار فنزلنا بمغارة تُعرف باسم أسطا محمود اللّوري وكان من الصالحين . واحترق تلك المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك ، ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنه ، وبوزنه هي القروود .

ذكر القروود

والقروود بتلك الجبال كثيرة جداً ، وهي سود الألوان ، لها أذنان طوال ، ولذكورها لحي كما هي للآدميين . وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القروود لها مقدّم تتبعه كآته سلطان ، يشدّ على رأسه عصاة من أوراق الأشجار . ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القروود لها عصي بأيديها ، وأنه إذا جلس القردُ المقدّم تقفُ القروود الأربعة على رأسه وتأتي أنثاه وأولاده فتقعدُ بين يديه كل يوم ، وتأتي القروود فتقعد على بعد منه . ثم يكلّمها أحد القروود الأربعة فتصرفُ القروودُ كلّها ، ثم يأتي كل قردٍ منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكلُ القرد المقدّم وأولاده ، والقروود الأربعة . وأخبرني بعض الجوكية أنّه رأى القروود الأربعة بين يدي مقدّمها ، وهي تضربُ بعض القروود بالعصي ، ثم نتفت وبهره بعد ضربه . وذكر لي الثقات أنّه إذا ظفر قردٌ من هذه القروود بصبيّة لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها . وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنّه كان بداره قردٌ منها ، فدخلت بنتٌ له بعض البيوت ، فدخل عليها ، فصاحت به ، فغلبها . قال : ودخلنا عليها ، وهو بين رجلها . فقتلناه .

ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران ، ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله ابن خفيف اليافوتتين اللتين أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة ، حسبما ذكرناه في السفر الأول . ثم رحلنا إلى موضع يُعرفُ ببيت العجوز ، وهو آخر العمارة ، ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر ، وكان من الصالحين ، ثم رحلنا إلى مغارة السبيك ، وكان السبيك من سلاطين الكفار ، وانقطع للعبادة هنالك .

ذكر العلق الطيار

وهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزُتو ويكون بالأشجار والحشائش التي تقربُ من الماء . فإذا قربَ الإنسانُ منه وثبَّ عليه فحيثما وقعَ من جسده خرجَ منه الدم الكثير ، والناس يستعدُّون له اللَّيْمون يعصرونه عليه ، فيسقطُ عنهم ، ويجردون الموضع الذي يقعُ عليه بسكين خشب مُعدَّة لذلك . ويذكر أن بعض الزَّوَّار مرَّ بذلك الموضع فتعلَّقت به العلق ، فأظهرَ الجلد ، ولم يعصر عليها اللَّيْمون ، فترَفَّ دمه ، ومات ، وكان اسمه بابا خوزي ، وهنالك مغارة تُنسبُ إليه .

ثم رحلنا إلى السبع مغارات ، ثمَّ إلى عقبة اسكندر ، ثمَّ مغارة الأصفهاني وعين ماء وقلعة غير عامرة ، تحتها خور يُعرفُ بغوطة كاه عارفان . وهنالك مغارة النارج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل أي بابهُ .

ذكر جبل سرنديب

وهو من أعلى جبال الدنيا ، رأيناه من البحر ، وبيننا وبينه مسيرة تسع ، ولما صعدناه كنّا نرى السحاب أسفلَ منا قد حالَ بيننا وبين رؤية أسفله . وفيه كثيرٌ من الأشجار التي لا يسقطُ لها ورق ، والأزاهر الملونة ، والوردُ الأحمرُ على قدر الكف . ويزعمون أن في ذلك الورد كتابة يُقرأ منها اسمُ الله تعالى واسمُ رسوله ، عليه الصلاة والسلام .

وفي الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يُعرفُ بطريق « بابا » والآخر بطريق « ماما » يعنون آدم وحواء ، عليهما السلام ؛ فأما طريق ماما فطريق "سهل" ، عليه يرجعُ الزوّار إذا رجعوا ، ومن مضى عليه فهو عندهم كَمَنَّ لم يزر ، وأما طريق بابا فصعبٌ وعر المرتقى ، وفي أسفل الجبل ، حيثُ دروازته ، مغارةٌ تُنسبُ أيضاً للاسكندر وعين ماء .

وتحت الأولون في الجبل شبه درج يُصعدُ عليها ، وغرّزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده ، وهي عشر سلاسل، ثنتان في أسفل الجبل حيث الدروازة ، وسبع متوالية بعدها ، والعاشرية هي سلسلة الشهادة ، لأنّ الإنسان إذا وصلَ إليها ونظرَ إلى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ، ثمّ إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقاً مهملًا . ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال وهي في موضع فسيح ، عندها عينُ ماء تُنسبُ إليه أيضاً ملأى بالحوث ، ولا يصطادُه أحد . وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبي الطريق ، وبمغارة الخضر يترك الزوّار ما عندهم ، يصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيثُ القدم .

ذكر القدم

وأثرُ القدم الكريمة ، قدم أبينا آدم ، صلّى الله عليه وسلّم ، في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح . وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً ، وطولها أحد عشر شبراً ، وأتى إليها أهل الصين قديماً ، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد .

وفي الصخرة حيثُ القدم تسعُ حفر منحوتة يجعلُ الزوّار من الكفّار فيها الذهبَ والياقوت والجواهر . فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر ، ولم نجد نحنُ بها إلّا يسيرَ حُجيرات وذهب أعطيناها الدليل .

والعادة أن يقيم الزوّار بمغارة الخضر ثلاثة أيّام يأتون فيها إلى القدم غدوةً وعشيّاً ، وكذلك فعلنا . ولما تمتّ الأيّامُ الثلاثة عدنا على طريق ماما فنزلنا بمغارة شيم ، وهو شيت بن آدم ، عليهما السلام ، ثمّ إلى خور السمك ، ثمّ إلى قرية كُرمُلة ، ثمّ إلى قرية جبّركاوان ، ثمّ إلى قرية دِلْ دِينَوَة ، ثمّ إلى قرية آتْ قَلَنْسَجَة ، وهناك كان يشي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف . وكلّ هذه القرى والمنازل هي بالجبل ، وعند أصل الجبل في هذا الطريق دَرَحَتْ رَوّان ، ورَوّان هي شجرة عادية لا يسقط لها ورق ، ولم أرَ من رأى ورقها ، ويعرفونها أيضاً بالماشية لأنّ الناظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل ، والنّاظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك . ورأيتُ هناك جماعة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها ، وهي بحيث لا يمكن التوصل إليها البتّة ، ولهم أكاذيب في شأنها ، من جملتها : إنّ من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخاً وذلك باطل . وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأي العين شديد الزرقة .

ورحّلنا من هناك يومين إلى مدينة دِينَوَر ، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجّار ، وبها الصنمُ المعروف بدِينَوَر في كنيسة عظيمة ، فيها نحو ألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الخنود . ويغنين كلّ ليلة عند الصنم ويرقصن . والمدينة ومجايبها وقفٌ على الصنم . وكلّ من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك . والصنم من ذهب على قدر الآدمي ، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرتُ أنّهما تضيئان بالليل كالقنديلين . ثمّ رحّلنا إلى مدينة قالي وهي صغيرة على ستّة فراسخ من دِينَوَر . وبها رجل من المسلمين يُعرف بالناخوذة إبراهيم ، أضافنا بموضعه ، ورحّلنا إلى مدينة كَلَنْسَبُو وهي من أحسن بلاد سَرَنْديب ، وأكبرها ، وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة .

ثم رَحَلْنَا فَوَصَلْنَا بعد ثلاثة أَيَّامٍ إِلَى بَطَّالَةَ ، وقد تقدَّم ذِكْرُهَا ، ودخلنا إلى سُلْطَانِهَا الَّذِي تقدَّم ذِكْرُهُ ، ووجدتُ النَّاخُوذَةَ لِإِبْرَاهِيمَ فِي انْتِظَارِي ، فسافرنا بِقِصْدِ بِلَادِ المَعْبَرِ ، وقويتُ الرِّيحَ وكادَ المَاءُ يَدْخُلُ فِي المَرْكَبِ ، ولم يَكُنْ لَنَا رَئِيسٌ عَارِفٌ .

ثمَّ وَصَلْنَا إِلَى حِجَارَةِ كَادَ المَرْكَبُ يَنْكَسِرُ فِيهَا ، ثمَّ دَخَلْنَا بِحَرًّا قَصِيرًا فَتَجَلَّسَ المَرْكَبُ ، ورَأَيْنَا المَوْتَ عِيَانًا ، وَرَمَى النَّاسُ بِمَا مَعَهُمْ وَتَوَادَعُوا وَقَطَعْنَا صَارِي المَرْكَبِ فَرَمَيْنَا بِهِ ، وَصَنَعَ البَحْرِيَّةُ مَعْدِيَّةً مِنَ الخَشَبِ ، وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَرِّ فَرْسَخَانِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُنْزَلَ فِي المَعْدِيَّةِ ، وَكَانَ لِي جَارِيتَانِ وَصَاحِبَانِ مِنْ أَصْحَابِي فَقَالَا : أَنْزَلُ وَتَرَكْنَا ؟ فَأَثَرْتُهُمَا عَلَى نَفْسِي ، وَقُلْتُ : أَنْزَلَا أَنْتُمَا وَالجَارِيَةُ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا ، فَقَالَتْ الْجَارِيَةُ : إِنِّي أَحْسَنُ السَّابَّحَةِ ، فَأَتَعَلَّقُ بِحِمْلِ مِنْ حَبَالِ المَعْدِيَّةِ وَأَعُومُ مَعَهُمْ . فَنَزَلَ رَفِيقَايَ . وَأَحَدُهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ فَرْحَانَ التُّوزَرِي ، وَالْآخَرُ رَجُلٌ مِصْرِي . وَالجَارِيَةُ مَعَهُمَا ، وَالْآخَرَى تَسْبِيحٌ ، وَرَبَطَ البَحْرِيَّةُ فِي المَعْدِيَّةِ حَبَالًا وَسَبَّحُوا بِهَا ، وَجَعَلْتُ مَعَهُمْ مَا عَزَّ عَلَيَّ مِنَ المَتَاعِ وَالجَوَاهِرِ وَالْعَنْبَرِ ، فَوَصَلُوا إِلَى الْبَرِّ سَالِمِينَ لِأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَسَاعِدُهُمْ .

وَأَقَمْتُ بِالْمَرْكَبِ وَنَزَلَ صَاحِبُهُ إِلَى الْبَرِّ عَلَى الدَّفَّةِ ، وَشَرَعَ البَحْرِيَّةُ فِي عَمَلِ أَرْبَعٍ مِنَ المَعَادِي ، فَجَاءَ اللَّيْلُ قَبْلَ تَمَامِهَا ، وَدَخَلَ مَعَنَا المَاءُ ، فَصَعِدْتُ إِلَى المُوْخَرِ وَأَقَمْتُ بِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ ، وَحِينَئِذٍ جَاءَ إِلَيْنَا نَفَرٌ مِنَ الْكُفَّارِ فِي قَارِبٍ لَهُمْ ، وَنَزَلْنَا مَعَهُمْ إِلَى السَّاحِلِ بِبِلَادِ المَعْبَرِ ، فَأَعْلَمْنَاهُمْ أَنَّا مِنْ أَصْحَابِ سُلْطَانِهِمْ ، وَهُمْ تَحْتَ ذِمَّتِهِ ، فَكَتَبُوا إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَهُوَ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ فِي الْغَزْوِ ، وَكَتَبْتُ أَنَا إِلَيْهِ أَعْلَمُهُ بِمَا اتَّفَقَ عَلَيَّ ، وَأَدْخَلْنَا أَوْلَئِكَ الْكُفَّارَ إِلَى غِيْضَةٍ عَظِيمَةٍ فَأَتَوْنَا بِفَاكِهِةٍ تَشْبَهُ البَطِيخِ تُشْمِرُهَا شَجَرَةُ المَقْلِ ، وَفِي دَاخِلِهَا شَبَهٌ قُطْنٍ فِيهِ عَسَلِيَّةٌ يَسْتَخْرِجُونَهَا وَيَصْنَعُونَ مِنْهَا حُلُوءًا يَسْمَوْنَهَا التَّلَّ ، وَهِيَ تَشْبَهُ السُّكَّرَ ، وَأَتُوا بِسَمَكٍ طَيِّبٍ .

وَأَقَمْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ وَصَلَ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ أَمِيرٌ يُعْرَفُ بِقَمَرِ الدِّينِ ، مَعَهُ

جماعة فرسان ورجال ، وجاؤوا بالدولة وبعشرة أفراس ، فركبتُ وركبَ أصحابي ، وصاحبُ المركب وإحدى الجاريتين ، وحملت الأخرى في الدولة ، وَوَصَلْنَا إلى حصن هَرَكَاتُو وَبَتْنَا به ، وتركتُ فيه الجوارى وبعض الغلمان والأصحاب ، وَوَصَلْنَا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان .

ذكر سلطان بلاد المعبر

وهو غياث الدين الدامغاني ، وكان في أوّل أمره فارساً من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا أحد خدّام السلطان محمد ، ثمّ خدمَ الأمير حاجي ابن السيّد السلطان جلال الدين ، ثمّ ولي الملك ، وكان يدعى سراج الدين قبله . فلما وليّ تسمّى غياث الدين ، وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي ، ثمّ ثار بها صهري الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وملك بها خمسة أعوام ، ثمّ قتل ووليّ أحد أمرائه ، وهو علاء الدين أدّيسجي ، فملك سنة ، ثمّ خرّجَ إلى غزو الكفّار فأخذ لهم أموالاً كثيرة وغنائم واسعة ، وعادَ إلى بلاده ، وغزاهم في السنة الثانية ، فهزمهم وقتلَ منهم مقتلة عظيمة .

واتفقَ يوم قتله لهم أن رفعَ المغفر عن رأسه ليشربَ فأصابه سهم غرب ، فمات من حينه ، فولّوا صهره قطب الدين ، ثمّ لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوماً ، ووليّ بعده السلطان غياث الدين وتزوَّج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كنتُ متزوَّجاً أختها بدھلي .

ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين

ولما وَصَلْنَا إلى قرب من منزله بعثَ بعض الحجّاب لتلقينا ، وكان قاعداً في برج خشب ، وعادتهم بالهند كلّها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خوفٍ ، ولم يكن عندي خوفٌ ، فأعطاني بعض الكفّار خفياً ، وكان هنالك من المسلمين جماعةٌ فعجبتُ من كون الكافر كان أتمّ مروءةً منهم . ودخلتُ على السلطان

فأمرني بالجلوس ، ودعا القاضي الحاجّ صدر الزمان بهاء الدين وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية ، وهم يسمونها الخيام ، وبعث بالفرش وبطعامهم ، وهو الأرزّ واللحم .

وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا . ثمّ اجتمعت به بعد ذلك وألقيتُ له أمرَ جزائر ذيبة المهل ، وأن يبعث الجيشَ إليها ، فأخذَ في ذلك بالعزم ، وعيّن المراكب لذلك ، وعيّن الهدية لسلطانها والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم ، وفوض إليّ في عقد نكاحه مع أخت السلطنة ، وأمرَ بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر ، وقال لي : يكون رجوعك بعد خمسة أيّام . فقالَ له قائدُ البحر خواجه سرك : لا يمكن السفر إلى الجزائر إلاّ بعد ثلاثة أشهر من الآن . فقال لي السلطان : أمّا إذا كان الأمرُ هكذا ، فامضِ إلى فتّن حتى نقضي هذه الحركة ، ونعود إلى حضرتنا مُتّرة ، ومنها تكون الحركة . فأقمتُ معه بخلال ما بعثت إلى الجوّاري والأصحاب .

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان

وكانت الأرض التي نسلكتها غيضةً واحدة من الأشجار والقصب ، بحيث لا يسلكها أحدٌ ، فأمرَ السلطان أن يكون مع كلّ واحد ممّن في الجيش من كبير وصغير قدّوم لقطع ذلك ، فإذا نزلت المحلّة ركبَ إلى الغابة ، والناسُ معه ، فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال ، ثمّ يؤتّى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى ، ثمّ يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشي ، وكلّ من وجدوه من الكفّار في الغيضة أسروه ، وصنعوا خشبة محدة الطرفين فجعلوها على كتفيه يحملها ، ومعه امرأته وأولاده ، ويؤتّى بهم إلى المحلّة . وعادتهم أن يصنعوا على المحلّة سوراً من خشب يكون له أربعة أبواب ، ويسمّونه الكتّكر ، ويصنعون على دار السلطان كتّكرًا ثانيًا ، ويصنعون خارج الكتّكر الأكبر مصاطب ، ارتفاعُها نحو نصف قامة ، ويوقدون عليها

النار بالليل . ويبستُ عندها العبيد والمشائون ، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب ، فإذا أتى أحدٌ من الكفار ليضربوا على المحلة ليلاً أو قد كل واحد منهم الحزمة التي بيده ، فعاد الليلُ شبه النهار لكثرة الضياء ، وخرجت الفرسان في اتباع الكفار ، فإذا كان عند الصباح قُسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام . وأُتي إلى كل باب من أبواب الكتّسكس بقسم منهم ، فركّزت الخششب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده ثم ركّزوا فيها حتى تنفذهم ، ثم تدبج نساؤهم ويربطن بشعورهن إلى تلك الخشبات ، ويدبج الأولاد الصغار في حجورهن ، ويتركون هنالك . وتنزلُ المحلة ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ، ويصنعون بمن أسروه كذلك .

وذلك أمرٌ شنيعٌ ما علمته لأحد من الملوك ، وبسببه عجل الله حينه ، ولقد رأيتُه يوماً والقاضي عن يمينه . وأنا عن شماله ، وهو يأكل معنا ، وقد أُنّي بكافر معه امرأته وولده سنه سبع ، فأشار إلى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه ، ثم قال لهم : وزن أو وبسر أو ، معناه : وابنه وزوجته ، فقطعت رقابهم ، وصرفت بصري عنهم . فلما قتُ وجدتُ رؤوسهم مطروحة بالأرض . وحضرت عنده يوماً وقد أُنّي برجل من الكفار ، فتكلّم بما لم أفهمه ، فإذا بجماعة من الزبانية قد استلّوا سكاكينهم ، فبادرت القيام ، فقال لي : إلى أين؟ فقلت : أصلي العصر . ففهم عني وضحك ، وأمرَ بقطع يديه ورجليه ، فلما عدتُ وجدته متشحطاً في دمائه .

ذكر هزيمته للكفار ، وهي من اعظم فتوحات الإسلام

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمّى بَلال دِيَوَ ، وهو من كبار سلاطين الكفار ، يزيدُ عسكرُهُ على مائة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفاً من المسلمين أهل الدعارة وذوي الخنايات والعبيد الفارين ، فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر . وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف ، منهم النصف من الجياد

والنصف الثاني لا خيرَ فيهم ولا غناءَ عندهم ، فلقوه بظاهر مدينة كُتبان فهزمهم ورجعوا إلى حضرة مُتُترة . ونزل الكافر على كُتبان ، وهي من أكبر مدنها وأحصنها ، وحاصرها عشرة أشهر ، ولم يبقَ لهم من الطعام إلاّ قوت أربعة عشر يوماً ، فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان ، ويتركوا له البلد . فقالوا له : لا بدّ من مطالعة سلطاننا بذلك ، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوماً ، وكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم ، فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا ، وقالوا : نبيعُ أنفسنا من الله ، فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا ، فالمت تحت السيوف أولى بنا ، فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤوسهم ، وجعلوها في أعناق الخيل ، وهي علامة من يريد الموت ، وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة ، وكانوا ثلاثمائة ، وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور ، وكان فقيهاً ورعاً شجاعاً ، وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار ، وركب السلطان في القلب ، ومعه ثلاثة آلاف ، وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقيةً لهم ، وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي ، وقصدوا محلة الكافر عند القايلة ، وأهلها على غرّة ، وخيلهم في المرعى ، فأغاروا عليها ، وظنّ الكفار أنهم سرّاق ، فخرجوا إليهم على غير تعبئة ، وقاتلوهم ، فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شرّ هزيمة ، وأراد سلطانهم أن يركب . وكان ابن ثمانين سنة ، فأدركه ناصر الدين ابن أخي السلطان الذي ولي الملك بعده ، فأراد قتله ، ولم يعرفه ، فقال له أحد غلمانه : هو السلطان . فأسرّه ، وحمله إلى عمّه ، فأكرمه في الظاهر حتى جبي منه الأموال والفيلة والخيل ، وكان يعده السراح ، فلمّا استصفى ما عنده ذبحه وسلّخه ، وملىء جلده بالتبّن ، فعُلّق على سور مُتُترة ، ورأيتُ بها معلقاً .

ولنعد إلى كلامنا فنقول : ورحلتُ عن المحلة . فوصلتُ إلى مدينة فتنّ ، وهي كبيرةٌ حسنة على الساحل ، ومرساها عجيب قد صُنعت فيه قبة خشب كبيرة ، قائمة على الخشب الضخام ، يُصعدُ إليها على طريق خشب مسقّف ،

فإذا جاء العدو ضمّموا إليها الأجفان التي تكون بالمرسى ، وصعدوها الرجال والرماة ، فلا يصيبُ العدو فرصة .

وبهذه المدينة مسجد حسنٌ مبني بالحجارة ، وبها العنبُ الكثير والرمان الطيب ، ولقيتُ بها الشيخَ الصالح محمدًا النيسابوري أحد الفقراء المولّين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم ، ومعه سبعٌ ربّاه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم ، وكان معه نحو ثلاثينَ فقيراً ، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد ، فلا يعرض لها .

وأقمتُ بمدينة فتّن ، وكان السلطان غياث الدين قد صنّع له أحدُ الجوكيّة حبوباً للقوة على الجماع ، وذكروا أن من جملة اخلاطها بُرادة الحديد ، فأكل منها فوق الحاجة ، فمرضَ ووَصَلَ إلى فتّن فخرّجتُ إلى لقائه ، وأهديتُ له هديّة ، فلمّا استقرّ بها بعثَ إلى قائد البحر خواجه سرور ، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعيّنة للسفر إلى الجزائر ، وأراد أن يعطيني قيمة الهدية ، فأبيت ، ثمّ ندمتُ لأنّه مات فلم آخذ شيئاً . وأقامَ بفتّن نصفَ شهر ، ثمّ رحلَ إلى حضرته .

وأقمتُ أنا بعده نصفَ شهر ، ثمّ رحلتُ إلى حضرته ، وهي مدينة مُشترّة ، مدينة كبيرة ، متّسعة الشوارع ، وأوّلُ من اتخذها حضرةً صهري السلطانُ الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وجعلها شبيهةً بدهلي ، وأحسن بناءها . ولما قدمتها وجدّتُ بها وباء يموتُ منه الناسُ موتاً ذريعاً ، فمن مرضَ ماتَ من ثاني يوم مرضه أو ثلثه ، وإن أبطأ موته فلمّا إلى الرابع ، فكنتُ إذا خرّجتُ لا أرى إلّا مريضاً أو ميتاً . واشتريتُ بها جاريةً على أنّها صحيحة ، فماتت في يوم آخر . ولقد جاءتُ إليّ في بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ، ومعها ابن لها سنّه ثمانية أعوام ، نبيل كيس فطن ، فشكت ضعف حالها ، فأعطيتها نفقة ، وهما صحيحان سويّان ، فلمّا كان من الغد جاءت تطلبُ لولدها المذكور كفنّاً ، وإذا به قد توفي من حينه .

وكنْتُ أرى بمشور السلطان حينَ مات المئين من الخدم اللاتي أُتي بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان ، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس . ولما دخل السلطان مُتَّسرةً وجدَّ أمّه وامراته وولده مرضى ، فأقام بالمدينة ثلاثة أيّام ، ثمَّ خرَّجَ إلى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار ، وخرَّجتُ إليه في يوم خميس ، فأمرَ بإنزالني إلى جانب القاضي ، فلما ضُربت لي الأخبية رأيتُ الناس يسرحون ويموجُ بعضهم في بعض ، فمن قائل ان السلطان مات ؛ ومن قائل ان ولده هو الميت . ثمَّ تحقّقنا ذلك فكان الولد هو الميت ، ولم يكن له سواه ، فكان موته ممّا زاد في مرضه . وفي الخميس بعده تُوفّيَت أمّ السلطان .

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافي عنه

وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين ، وشعرتُ بذلك فبادرت الدخول إلى المدينة خوفاً الفتنة ، ولقيتُ ناصر الدين ابن أخيه الوالي بعده خارجاً إلى المحلّة قد وجّه عنه ، إذ ليس للسلطان ولد ، فطلب إليّ الرجوع معه ، فأبيتُ وأثّرَ ذلك في قلبه . وكان ناصر الدين هذا خديماً بداهلي قبل أن يملك عمّه ، فلما ملك عمّه هربَ في زيّ الفقراء إليه ، فكان من القدر ملكه بعده . ولما بويجَ مدحته الشعراء فأجزلَ لهم العطاء . وأوّلُ من قامَ منشداً القاضي صدر الزمان ، فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ، ثمَّ الوزير المسمّى بالقاضي ، فأعطاه ألفي دينار دراهم ، وأعطاني أنا ثلاثمائة دينار وخلعة ، وبثّ الصدقات في الفقراء والمساكين . ولما خطبَ الخطيبُ أوّل خطبة خطبها باسمه نُثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق الذهب والفضّة ، وعُملَ عزاء السلطان غياث الدين ، فكانوا يختمون القرآن على قبره كلّ يوم ، ثمَّ يقرأ العشّارون ، ثمَّ يؤتّى بالطعام فيأكلُ الناس ، ثمَّ يعطون الدراهم كلّ إنسان على قدره ، وأقاموا على ذلك أربعين يوماً ، ثمَّ يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كلّ سنة .

وأولُ ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزلَ وزيرَ عمته وطالبه بالأموال .
 ووليَ الوزارة الملكُ بدر الدين الذي بعثه عمه إليّ وأنا بفتنٍ ليتلقاني ، فتوفي
 سريعاً ، فوليَ الوزارة خواجه سرور قائد البحر وأمرَ أن يخاطبَ بخواجه جهان
 كما يخاطبُ الوزير بدهلي ، ومن مخاطبته بغير ذلك غُرْمَ دنانيرَ معلومة .
 ثمَّ انَّ السلطان ناصر الدين قتلَ ابنَ عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين ،
 وتزوَّجها بعده . وبلغه أن الملك مسعوداً زاره في محبسه قبلَ موته فقتله أيضاً ،
 وقتلَ الملك بهادور ، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء ، وأمرَ لي بجميع ما كان
 عيشته عمه من المراكب برسم الجزائر .

ثمَّ أصابني الحمى القاتلة هنالك . فظننتُ أنَّها القاضية ، وألهمتني الله إلى
 التمر الهندي ، وهو هنالك كثير ، فأخذتُ نحوَ رطلٍ منه وجعلته في الماء ثمَّ
 شربته فأسهلتني ثلاثةَ أيَّام ، وعافاني الله من مرضي ، فكرهتُ تلك المدينة ،
 وطلبتُ الإذنَ في السفر ، فقال لي السلطان : كيفَ تسافر ولم يبقَ لأيَّام السفر
 إلى الجزائر غيرُ شهرٍ واحدٍ ؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمرَ لك به خوَّند عالم ،
 فأبيت ، وكتبَ لي إلى فتَنَ لأسافر في أيِّ مركب أردتُ . وعدتُ إلى فتَنَ ،
 فوجدتُ ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن ، فسافرتُ في أحدها ، ولقينا أربعة
 أجفان ، فقاتلنا يسيراً ، ثمَّ انصرفَ . ووصلنا إلى كُوم وكان في بقيَّة مرض ،
 فأقمْتُ بها ثلاثةَ أشهر ، ثمَّ ركبْتُ في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهِنُوري ،
 فخرجَ علينا الكفَّار بينَ هِنُور وفكَّسنُور .

ذكر سلب الكفار لنا

ولمَّا وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بينَ هِنُور وفكَّسنُور خرجَ علينا الكفَّار
 في اثني عشرَ مركباً حربيةً ، وقاتلونا قتالاً شديداً ، وتغلَّبوا علينا ، فأخذوا
 جميع ما عندي ممَّا كنتُ أدَّخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر والياواقيت التي
 أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابي والزوائد التي كانت عندي ممَّا أعطانيه

الصالحون والأولياء ، ولم يتركوا لي سائراً خلا السراويل ، وأخذوا ما كان لجميع الناس ، وأنزلونا بالساحل ، فرجعتُ إلى قالقوت فدخلتُ بعض المساجد ، فبعثتُ إليّ أحدُ الفقهاء بثوب وبعث القاضي بعمامة ، وبعث بعض التجّار بثوب آخر . وتعرّفتُ هنالك بتزوُّج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة ، بعد موت الوزير جمال الدين ، وبأنّ زوجتي التي تركتها حاملاً ولدت ولداً ذكراً ، فخطرَ لي السفرُ إلى الجزائر ، وتذكّرتُ العداوة التي بيني وبينَ الوزير عبد الله ، ففتحت المصحفَ فخرجَ لي : تنزّلُ عليهم الملائكةُ أن لا تخافوا ولا تحزنوا؛ فاستخرت الله وسافرت ، فوصّلتُ بعد عشرة أيّام إلى جزائر ذيبة المهّل ، ونزلتُ منها بكنّلوس ، فأكرمني واليها عبد العزيز المقدشاي، وأضافني وجهتَ لي كندرةً ، ووصّلتُ بعد ذلك إلى هُلّلي وهي الجزيرة التي تخرجُ السلطانة وأخواتها إليها برسم التفرّج والسباحة ، ويسمّون ذلك : التّشجّر ، ويلعبون في المراكب ، ويبعثُ لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها . ووجدتُ بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين ، وأمّها التي كانت زوجتي ، فجاء الخطيب إليّ وأتوا بالطعام .

ومرّ بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي ، فسألَ عن حالي وعمّن قدمَ معي ، وأخبرَ أنّي جئتُ برسم حمّلٍ ولدي ، وكانت سنّه نحوَ عامين ، وأتته أمّه تشكو من ذلك ، فقالَ لها : أنا لا أمنعه من حمل ولده . وصادرنِي في دخول الجزيرة ، وأنزلني بدار تقابل برج قصره ، ليتطلّع على حالي ، وبعثَ إليّ بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم . وجئتُ بثوبتي حرير للرّمي عند السلام ، فأخذوهما ، ولم يخرج الوزير إليّ ذلك اليوم ، وأتني إليّ بولدي ، فظهرَ لي أنّ إقامته معهم خيرٌ له ، فرددته إليهم ، وأقامت خمسةَ أيّام .

وظهرَ لي أنّ تعجيلَ السفرِ أولى ، فطلبتُ الإذنَ في ذلك ، فاستدعاني الوزير ، ودخلتُ عليه ، وأتوني بالثوبين اللذين أخذوهما مني ، فرميتهما عند-

السلام ، على العادة ، وأجلسني إلى جانبه . وسألني عن حالي ، وأكلتُ معه الطعام وغسلتُ يدي معه في الطست . وذلك شيء لا يفعله مع أحد ، وأتوا بالتنبول . وانصرفتُ ، وبعثتُ إليّ بأثواب وبساتي من الودع . وأحسنَ في أفعاله وأجملَ . وسافرتُ ، فأقمنا على ظهر البحر ثلاثاً وأربعين ليلة ، ثمَّ وصَلنا إلى بلاد بَنَسْجَالَة ، وهي بلادٌ متسعة كثيرة الأرز ، ولم أرَ في الدنيا أرخص أسعاراً منها لكنَّها مظلمة ، وأهل خراسان يسمونها دوزْخَسْت (دوزخ) بور (بر) نعمة ، معناه: جهنم ملاءى بالنعم . رأيتُ الأرز يُباع في أسواقها خمسةً وعشرين رطلاً دهلية بدينار فضي ، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ، ودرهمهم كالدرهم النَّقْرة سواء ، والرطلُ الدهلِي عشرون رطلاً مغربية . وسمعتُهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم .

وحدثني محمد المصمودي المغربي وكان من الصالحين ، وسكنَ هذا البلد قديماً وماتَ عندي بدھلي ، أنه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوتَ ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم ، وأنه كان يشتري الأرز في قشره ، بحساب ثمانين رطلاً دهلية بثمانية دراهم ، فإذا دقّه خرَّجَ منه خمسون رطلاً صافية ، وهي عشرة قناطير . ورأيتُ البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة . وبقرُهم الجواميس . ورأيتُ الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد . وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم . ورأيتُ الكبش السمين يُباع بدرهمين . ورطلُ السكر بأربعة دراهم . وهو رطلٌ دھلي ، ورطلُ الجلاب بثمانية دراهم ، ورطلُ السمن بأربعة دراهم ، ورطلُ السبرج بدرهمين ، ورأيتُ ثوبَ القطن الرقيق الجيّد الذي ذرعه ثلاثون ذراعاً يباع بدينارين ، ورأيتُ الجارية المليحة للفراش تُباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي . واشتريتُ بنحو هذه القيمة جاريةً تسمّى عاشورة ، وكان لها جمال بارع . واشترى بعضُ أصحابي غلاماً صغير السن حسناً اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب .

وأولُ مدينة دخلناها من بلاد بَنَجَالَة مدينة سُدْكَاوان، وهي مدينةٌ عظيمة على ساحل البحر الأعظم، ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحجّ إليه الهنود، ونهر الجون، ويصبّان في البحر . ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتي .

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان فخر الدين الملقّب بفَخْرَة ، سلطان فاضلٌ محبٌّ في الغرباء ، وخصوصاً الفقراء والمتصوفة . وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَسَبَن ، وهو الذي وَلِيَ ولدهُ معزّ الدين الملك بداهلي ، فتوجّه لقتاله ، والتقى بالنهر ، وسُمِّيَ لقاؤهما لقاء السّعين ، وقد ذكرنا ذلك ، وإنّه ترك الملك لولده وعادَ إلى بَنَجَالَة فأقامَ بها إلى أن توفي .

وَوَلِيَ ابنُه شمسُ الدين إلى أن توفي ، فَوَلِيَ ابنُه شهاب الدين إلى أن غلبَ عليه أخوه غياث الدين بهادور بور ، فاستنصرَ شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تُغْلُكُ ، فنصره وأخذَ بهادور بور أسيراً . ثمّ أطلقه ابنُه محمد لما ملك على أن يقاسمه ملكه . فنكثَ عليه ، فقاتله حتى قتله ، ووَلَّى على هذه البلاد صهراً له ، فقتله العسكر ، واستولى على ملكها علي شاه ، وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتي . فلما رأى فخر الدين أن المُلْك قد خرَجَ عن أولاد السلطان ناصر الدين ، وهو مولى لهم ، خالفَ بسدكاوان ، وبلاد بنجالة ، واستقلَّ بالملك ، واشتدّت الفتنة بينه وبين عليّ شاه ، فإذا كانت أيّامُ الشتاء والوَحْل أغارَ فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوّته فيه ، وإذا عادت الأيّام التي لا مطرَ فيها أغارَ عليّ شاه على بنجالة في البرّ لقوّته فيه .

حكاية للفقير شيدا

وانتهى حبّ الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعلَ أحدهم نائباً عنه في الملك بسدكاوان وكان يسمّى شَيْدَا ، وخرَجَ إلى قتال عدو له ، فخالفَ عليه

شَيْدَا ، وأراد الاستبداد بالملك ، وقتل ولدًا للسلطان فخر الدين ، ولم يكن له ولد غيره ، فعلم بذلك فكرَّ عائداً إلى حضرته ، ففرَّ شَيْدَا ومن اتبعه إلى مدينة سُرْكَاوان ، وهي منيعة ، فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره ، فخاف أهلها على أنفسهم ، فقبضوا على شَيْدَا وبعثوه إلى عسكر السلطان ، فكتبوا إليه بأمره ، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه ، فبعثوه ، وقتلَ بسببه جماعةٌ كبيرة من الفقراء .

ولما دخلت سدكاوان لم أرَ سلطانها ولا لقيته وعلمتُ أنه مخالفٌ على ملك الهند فخفتُ عاقبة ذلك ، وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كَامَرُو ، وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر ، وهي جبالٌ متسعة متصلة بالصين ، وتتصل أيضاً ببلاد التبت (التيبت) حيثُ غزلان المسك .

وأهلُ هذا الجبل يُشبهون الترك ، ولهم قوةٌ على الخدمة ، والغلامُ منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلامُ من غيرهم ، وهم مشهورون بمعاونة السحر والاشتغال به . وكان قصدي بالمشير إلى هذه الجبال لقاء ولي من الأولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التبريزي .

ذكر الشيخ جلال الدين

وهذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال ، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة ، وهو من المعمرين . أخبرني ، رحمه الله ، أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد ، وكان بها حينَ قتله ، وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابنُ مائة وخمسين ، وأنه كان له نحوُ أربعين سنة يسرد الصوم ، ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر . وكانت له بقرة يُفطرُ على حليبها ، ويقوم الليلَ كله . وكان نحيف الجسم طويلاً ، خفيف العارضين ، وعلى يديه أسلَمَ أهلُ تلك الجبال ، ولذلك أقامَ بينهم .

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله ، وقال لهم : إني أسافر عنكم غداً ، إن شاء الله ، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو . فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبراً محفوراً ، عليه الكفن والخنوط ، فغسلوه وكفنوه وصلّوا عليه ، ودفنوه به ، رحمه الله .

كرامة له أيضاً

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكنه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح المغرب ، فاستقبلوه . وانتهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ، ولم يكن عنده علم بشيء من أمري ، وإنما كُوشِفَ به . وسرتُ معهم إلى الشيخ فوصلتُ إلى زاويته خارج الغار ، ولا عمارة عندها ، وأهلُ تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف ، فيأكل منها الفقراء والواردون ، وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يُفطِرُ على حليبتها بعد عشر ، كما قدمناه ؛ ولما دخلتُ عليه قامَ إليّ وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري ، فأخبرته فقال لي : أنت مسافرُ العرب . فقال له من حضر من أصحابه : والعجم يا سيّدنا ، فقال : والعجم ، فأكرّموه . فاحتسّلوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيّام .

حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيتُ عليه فرجة مرعز فاعجبني ، وقلت في نفسي : ليت الشيخ أعطانيها ، فلما دخلتُ عليه للوداع قامَ إلى جانب الغار وجردَ الفرجة وألبسنيها مع طاقة من رأسه ، ولبس مرقعة ، فأخبرني الفقراء

انّ الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية ، وإنّما لبسها عند قدومي ، وإنّه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها لأخيها برهان الدين الصاغر جي . وهي له وبرسمه كانت . فلمّا أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم : قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه . وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم . وانصرفت عن الشيخ .

فاتفق لي بعد مدّة طويلة اني دخلت بلاد الصين وانتهيت إلى مدينة الخنسا ، فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام ، وكانت الفرجية عليّ ، فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم ، فوقع بصره عليّ . فاستدعاني ، وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه ، فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان ، فسألني عن سلاطين الإسلام ، فأجبته . ونظر إلى الفرجية . فاستحسنها . فقال لي الوزير : جرّدها . فلم يمكني خلافاً ذلك . فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطري لذلك ، ثمّ تذكّرت قول الشيخ إنّه يأخذها سلطان كافر فطالّ عجبني من ذلك .

ولمّا كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق ، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغر جي . فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها ، فعجبت من ذلك . وقلّبتُها بيدي ، فقال لي : لِمَ تقلّبتُها وأنت تعرفُها ؟ فقلت له : نعم ! هي التي أخذها لي سلطان الخنسا ، فقال لي : هذه الفرجية صنّعها أخي جلال الدين برسمي . وكتب إليّ ان الفرجية تصلك على يد فلان . ثمّ أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية . فقال لي : أخي جلال الدين أكبر من ذلك كلّهُ ، هو يتصرّف في الكون وقد انتقل إلى رحمة الله . ثمّ قال لي : بلغني أنّه كان يصلّي الصبح كلّ يوم بمكّة ، وإنّه يحجّ كلّ عام لأنّه كان يغيب عن الناس يَوْمِي عرفة والعيد ، فلا يُعرف أين ذهب .

ولمّا وادعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبَشَنق ، وهي من أكبر

المدن وأحسنها ، يشقّها النهر الذي ينزل من جبال كامرو ، ويسمّى النهر الأزرق ،
ويُسافرُ فيه إلى بنجالة ، وبلاد اللكنوتي ، وعليه النواعير والبساتين والقُرَى
يَسْمَنُ وَيَسْتَرُ ، كما هي على نيل مصر . وأهلُها كفّار تحت الذمّة ، يؤخذ منهم
نصفُ ما يزدرعون ووظائفُ سوى ذلك .

وسافرنا في هذا النهر خمسةَ عشرَ يوماً بين القرى والبساتين ، فكأنّما نمشي
في سوق من الأسواق ، وفيه من المراكب ما لا يُحصى كثرةً ، وفي كلّ
مركبٍ منها طبل ، فإذا التقى المركبان ضربَ كلّ واحد طبله ، وسلّمَ بعضُهم
على بعض . وأمرَ السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء
نَول ، وأن يُعطى الزادُ لمن لا زادَ له منهم ، وإذا وصل الفقير إلى مدينة أُعطيَ
نصفَ دينار .

وبعد خمسةَ عشرَ يوماً من سفرنا في النهر . كما ذكرناه ، وصلنا إلى مدينة
سُنُرُكاوان ، وهي المدينة التي قبضَ أهلُها على الفقير شديداً عندما لجأ إليها .
ولمّا وصلناها وجدنا بها جنكاً يريدُ السفر إلى بلاد الجاوة . وبينهما أربعون
يوماً ، فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسةَ عشرَ يوماً إلى بلاد البرهمنكار الذين
أفواههم كأفواه الكلاب ، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ،
ولا إلى غيره ، وسكناهم في بيوت قصب مسقّفة بحشيش الأرض على شاطئ
البحر ، وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير .

ورجالهم على مثل صورنا إلا أنّ أفواههم كأفواه الكلاب . وأمّا نساؤهم
فلسن كذلك ، ولهنّ جمالٌ بارع ، ورجالهم عرايا لا يستترون إلاّ أن الواحد منهم
يجعلُ ذكره وأنثيته في جعبة من القصب منقوشة معلقة في بطنه . وتستتر نساؤهم
بأوراق الشجر ، ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون
في حارة على حدة . أخبرونا أنّهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ،
ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأةً فما دون ذلك أو فوقه ، وأنّهم لا يزنون ،
.....
١ البلك : ضرب من السفن .

ولذا زنى أحدٌ منهم فحدّ الرجل أن يُصلب حتى يموت أو يُؤتَى بصاحبه أو عبده فيُصلب عوضاً منه ، ويسرّح هو . وحدّ المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحداً بعد واحد بمحضرتها حتى تموت ، ويرمون بها في البحر ، ولأجل ذلك لا يتركون أحداً من أهل المراكب ينزلُ إليهم إلاّ إن كان من المقيمين عندهم ، وإنّما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنّه بعيدٌ من الساحل ، ولا يتركونهم لاستقائه خوفاً على نساءهم لأنّهنّ يطمحنّ إلى الرجال الحسان .

والفيلةُ كثيرةٌ عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ، ثمّ تُشترى منه بالآثواب . ولهم كلام غريب لا يفقه إلاّ من ساكنهم وأكثرَ التردّد إليهم . ولما وصّلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار كلّ قارب من خشبة واحدة منحوتة ، وجاؤوا بالموز والأرز والتنبول والفوفل والسمك .

ذكر سلطانهم

وأتى إلينا سلطانهم راكباً على فيل ، عليه شبه بردعة من الجلود . ولباسُ السلطان ثوبٌ من جلود المعزى ، وقد جعلَ الوبرَ إلى خارج ، وفوقَ رأسه ثلاثُ عصائب من الحرير ملوّناتٌ ، وفي يده حربّة من القصب ، ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة . فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوث الذي يكون بجزائر ذبّة المهمل وأثواباً بنجالية ، وهم لا يلبسونها إنّما يكسونها الفيلة في أيّام عيدهم .

ولهذا السلطان على كلّ مركب ينزلُ ببلاده جاريةٌ ومملوكٌ وثيابٌ لكسوة الفيل وحلّيٌ ذهبٍ تجعله زوجته في محزمها ، وأصابع رجلها ، ومن لم يُعط هذه الوظيفة صنعوا له سحراً يهيجُ به البحر ، فيهلك أو يقاربُ الهلاك .

حكاية كيف يعاقب الزناة

واتَّفَقَ في ليلةٍ من ليالي إقامتنا بمسأهم أن غلاماً لصاحب المركب ممّن تردّد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلاً ، وتواعدَ مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل ، وعلمَ بذلك زوجها ، فجاء في جمع من أصحابه إلى الغار فوجداهما به فحُمِلَا إلى سلطانهم فأمرَ بالغلام فقطعت أنثياه وصلّبَ ، وأمرَ بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت . ثمّ جاء السلطان إلى الساحل فاعتذَرَ عمّا جرى ، وقال : إننا لا نجدُ بدءاً من إمضاء أحكامنا ، ووهبَ لصاحب المركب غلاماً عوّضَ الغلام المصلوب .

ثمّ سافرنا عن هؤلاء ، وبعد خمسة وعشرين يوماً وصلّنا إلى جزيرة الجاوة ، وهي التي يُنسبُ إليها اللّبان الجاوي ، رأيناها على مسيرة نصف يوم ، وهي خضيرة نضرة ، وأكثرُ أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبا والحمون والنارنج الحلو وقصب الكافور ، ويبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ، والكثيرُ من أفايه الطيب التي بها إنّما هو ببلاد الكفّار منها ، وأمّا ببلاد المسلمين فهو أقلّ من ذلك . ولما وصلّنا المرسى خرّجَ إلينا أهلُها في مراكب صغار ، ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسّمك ، وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كلّ إنسان على قدره . وصعدَ إلينا أيضاً نائبُ صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار ، وأذن لنا في النزول إلى البرّ ، فنزلنا إلى البندر ، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر ، بها دور يسمونها السّرْحَى وبينها وبين البلد أربعة أميال ، ثمّ كتبَ بْهَرُوزُ نائب صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومي ، فأمرَ الأميرَ دولسة بلقائي والقاضي الشريف أمير سيّد الشيرازي وتاج الدين الأصهباني وسواهم من الفقهاء ، فخرجوا لذلك وجاؤوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه ، فركبْتُ وركبَ أصحابي ودخلنا إلى حضرة السلطان ، وهي مدينة سُمُطْرَة ، مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم . شافعي المذهب ، محبّ في الفقهاء . يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثيرُ الجهاد والغزو ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه . وأهلُ بلاده شافعيّةٌ محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعاً ، وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ذكر دخولنا إلى داره وإحسانه إلينا

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحاً مركوزة على جانبي الطريق ، وهي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكباً ، فنزلنا عندها ودخلنا المشور ، فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمّى عمدة الملك ، فقام إلينا وسلّم علينا . وسلامهم بالمصافحة ، وقعدنا معه ، وكتبَ بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك ، وختمها ودفعها لبعض الفتيان ، فأتاه الجواب على ظهرها . ثم جاء أحدُ الفتيان ببُغْشَة ، والبُغْشَة هي السَّبْشَة ، فأخذها النائب بيده وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة يسمونها فَرْدُخَانَة على وزن زَرْدُخَانَة ، وهي موضع راحته بالنهار ، فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح ، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة . وكذلك الوزراء والأمراء الكبار ، وأخرجَ من البُغْشَة ثلاثَ فُوطٍ إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حريرٌ وقطن ، وأخرى حريرٌ وكتان ، وأخرجَ ثلاثةَ أثوابٍ يسمونها التختانيات من جنس الفوط ؛ وأخرجَ ثلاثةَ من الثياب مختلفة الأجناس تسمّى الوسطانيات ؛ وأخرجَ ثلاثةَ أثوابٍ من الأرمك أحدها أبيض ، وأخرجَ ثلاثَ عمام ، فلبستُ فوطة منها عوض السراويل ، على عادتهم ، وثوباً من كل جنس . وأخذَ أصحابي ما بقي منها .

ثمّ جاؤوا بالطعام أكثره الأرز ، ثمّ أتوا بنوع من الفقّاع ، ثمّ أتوا بالتنبول ، وهو علامة الانصراف ، فأخذناه وقمنا ، وقامَ النائب لقيامنا ، وخرجنا عن الميشور ، فركبنا وركبَ النائبُ معنا ، وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب ، وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن ، يسمّونها المُخَمَّلات ، ومنها مصبوغ وغير مصبوغ ، وفي البيت أسرةٌ من الخيزران ، فوقها مضرباتٌ من الحرير ولُحفٌ خفاف ، ومُخادٌ يسمّونها البوالشت ، فجلسنا بالدار ومعنا النائب ، ثمّ جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لي : يقولُ لك السلطان هذه على قدرنا . لا على قدر السلطان محمد . ثمّ خرجَ النائب وبقي الأمير دولسة عندي ، وكانت بيني وبينه معرفة لأنّه كان ورد رسولاً على السلطان بدهلي ، فقلتُ له : متى تكون رؤية السلطان ؟ فقال لي : إن العادة عندنا أن لا يسلمَ القادمُ على السلطان إلّا بعد ثلاثة أيّام ليَسْدَهَبَ عنه تعبُ السفر ويثوبَ إليه ذهنه ، فأقمنا ثلاثة أيّام يأتي إلينا الطعام ثلاثَ مرّات في اليوم وتأتينا الفواكه والطُرف مساءً وصباحاً ، فلمّا كان اليومُ الرابع ، وهو يومُ الجمعة ، أتاني الأمير دولسة فقال لي : يكون سلامُك على السلطان بمقصورة الجامع ، بعد الصلاة ، فأتيْتُ المسجد وصَلَّيْتُ به الجمعة مع حاجبه قَيِّرَانَ .

ثمّ دخلتُ إلى السلطان فوجدتُ القاضي أمير سيّد والطلبة عن يمينه وشماله ، فصافحتني وسلّمتُ عليه وأجلستني عن يساره وسألني عن السلطان محمد وعن أسفاري ، فأجبته ، وعادَ إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر ، فلمّا صلاّها دخل بيتاً هنالك ، فنزعَ الثياب التي كانت عليه ، وهي ثياب الفقهاء ، وبها يأتي المسجد يوم الجمعة ماشياً ، ثمّ لبسَ ثياب الملك ، وهي الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابهِ ، والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل ، وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه ، فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور ، فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكباً وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتّاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفاً ، فأول الصفوف صف الوزراء والكتّاب ، ووزراؤه أربعة ، فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء ، فسلموا ومضوا إلى مواقفهم ، وكذلك تفعل كل طائفة ، ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والمماليك .

ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ، ورُفِعَ فوق رأسه شطراً مُرَصَّعٌ وجعل عن يمينه خمسون فيلاً مزيّنة ، وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضاً مائة فرس ، وعن شماله مثلها ، وهي خيل النوبة ، ووقف بين يديه خواص الحجاب ، ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنّوا بين يديه ، وأتى بخيل مُجَلَّلَةٌ بالحرير ، لها خلاخيل ذهب وأرسانٌ حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبت من شأنها ، وكنتُ رأيتُ مثل ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم .

ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك

وكان له ابن أخ متزوج بهنته ، فولّاه بعض البلاد ، وكان الفتى يتعشق بنتاً لبعض الأمراء ويريد تزوّجها ، والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس ، أمير أو سوقي أو سواه ، بنت قد بلغت مبلغ النكاح ، فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها ، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها ، فإن أعجبت صفته تزوّجها ،

ولاً تركها يزوجه أولياؤها ممن شاءوا . والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف . ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان ، بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها ، واشتد شغف الفتى بها ، ولم يجد سبيلاً إليها .

ثم إن السلطان خرج إلى الغزو ، وبينه وبين الكفار مسيرة شهر ، فخالفه ابن أخيه إلى سُمطرة ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ ، وادعى الملك وبياعه بعض الناس وامتنع آخرون ، وعلم عمه بذلك ، ففقل عائداً إليها ، فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر ، وأخذ الجارية التي تعشقها وقصد بلاد الكفار بمُل جاوة ، ولهذا بنى عمه السور على سُمطرة .

وكانت إقامتي عنده بسُمطرة خمسة عشر يوماً . ثم طلبت منه السفر إذ كان أوانه ، ولا يتهيأ السفر إلى الصين في كل وقت . فجهز لنا جنكاً وزودنا وأحسن وأجمل ، جزاه الله خيراً ، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك ، وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة .

ثم وصلنا إلى مُل جاوة ، وهي بلاد الكفار ، وطولها مسيرة شهرين ، وبها الأفايه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري ، وقاقلة وقمارة من بعض بلادها ، وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي ، وإنما معظم ذلك بمُل جاوة . ولندكر ما شاهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه .

ذكر اللبان

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك ، وأغصانها كأغصان الخرشف^١ ، وأوراقها صغار رقاق ، وربما سقطت فبقيت

١ الخرشف : ما نسيه الأرضي شوكي .

الشجرة منها دون ورقة . واللبن صمغية تكون في أغصانها ، وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار .

ذكر الكافور

وأما شجر الكافور ، فهي قصب كقصب بلادنا إلا أن الأنايب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور في داخل الأنايب ، فإذا كُسِرت القصبه وجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور . والسر العجيب فيه أنه لا يتكوّن في تلك القصب حتى يُذبح عند أصولها شيء من الحيوان، وإلا لم يتكوّن شيء منه . والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح ، وهو المسمّى عندهم بالحدالة ، هو الذي يُذبح عند قصبه الآدمي ، ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار .

ذكر العود الهندي

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له . وشجرته لا تعظم كل العظم ، وعروقها طويلة ممتدة ، وفيها الرائحة العطرة ، وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها . وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك ، وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك . والمتملك منه ما كان بقاقله ، وهو أطيب العود . وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ، ويبيعه لأهل الجاوة بالأثواب . ومن القماري صنف يُطبخ عليه كالشمع ، وأما العطاس فإنه يُقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهراً فتبقى فيه قوته ، وهو من أعجب أنواعه .

ذكر القرنفل

وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة ، وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام ، وليست بمتملكة لكثرتها . والمجلوب إلى بلادنا منها هو

العيدان ، والذي يسمّيه أهلُ بلادنا نُوَّارَ القَرَنفُل هو الذي يسقطُ من زهره ، وهو شبيهُ بزهرة النارنج . وثمر القَرَنفُل هو جوز بُوَا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب ، والزهرُ المتكوّن فيها هو البسباسة . رأيتُ ذلك كله وشاهدته .

ووصّلنا إلى مرسى قاقلة ، فوجدنا به جملة من الجنوك معدّة للسرقه ولمن يستعصي عليهم من الجنوك ، فإن لهم على كلّ جنك وظيفة . ثمّ نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقلة ، وهي مدينةٌ حسنة ، عليها سورٌ من حجارة منحوتة . عرضه بحيثُ تسيرُ فيه ثلاثة من الفيلة ، وأوّلُ ما رأيتُ بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندي يوقدونّه في بيوتهم ، وهو بقيمة الخطب عندنا أو أرخص ثمناً .

هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم ، وأمّا للتجار فيبيعون الحملَ منه بثوب من ثياب القطن ، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير ، والفيلة بها كثيرة جدّاً . عليها يركبون ويحملون . وكلّ إنسانٍ يربطُ فيلته على بابه ، وكلّ صاحب حانوت يربطُ فيله عنده يركبه إلى داره . وكذلك جميعُ أهل الصين والخيطة على مثل هذا الترتيب .

ذكر سلطان ملّ جاوة

وهو كافرٌ رأيتُه خارج قصره جالساً على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط . ومعه أربابُ دولته ، والعساكرُ يُعرّضون عليه مشاة . ولا خيلَ هنالك إلّا عند السلطان ، وإنّما يركبون الفيلة ، وعليها يقاتلون ، فعرف شأني . فاستدعاني . فجلّيتُ وقلت : السلامُ على من اتبع الهدى ، فلم يفقهوا إلّا لفظ السلام . فرحّبَ بي ، وأمرَ أن يُفرّشَ لي ثوبٌ أقعدُ عليه . فجلّيتُ للترجمان : كيف أجلس على الثوب ، والسلطانُ قاعدٌ على الأرض ؟ فقال : هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعاً ، وأنتَ ضيفٌ . وجلّيتُ من سلطان كبير . فيجبُ إكرامُك . فجلّستُ وسألني عن السلطان ، فأوجزَ في سؤاله وقال لي : تقيمُ عندنا في الضيافة ثلاثة أيّام ، وحينئذٍ يكون انصرافُك .

ذكر عجيبة رأيته بمجلسه

ورأيتُ في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسفر^١ قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معاً وقطع عنق نفسه ، فوق رأسه لحدّة السكين ، وشدة إمساكه بالأرض ، فعجبتُ من شأنه . وقال لي السلطان : أيفعلُ أحدٌ هذا عندكم ؟ فقلتُ له : ما رأيتهُ هذا قطُّ ! فضحك ، وقال : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا ، وأمر به فرُفِعَ وأُحرق ، وخرَجَ لإحراقه النواب وأربابُ الدولة والعساكر والرعايا ، وأجري الرزقُ الواسعُ على أولاده وأهله وإخوانه ، وعُظِّموا لأجل فعله . وأخبرني من كان حاضراً في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به كان تقريراً لمحبتته في السلطان ، وأنه يقتلُ نفسه في حبه ، كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه ، وجدّه نفسه في حب جدّه .

ثم انصرفتُ عن المجلس وبعث لي بضيفة ثلاثة أيام ، وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوماً إلى البحر الكاهل ، وهو الراكد ، وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرض تجاوره ، ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه ، ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب ، كما ذكرناه ، تجذبُ به فتجرّه ، ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافاً كباراً كالصواري يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها ، ويقومون قياماً صفيح كل صف يقابل الآخر . وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس^٢ فتجذبُ إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه ، وتجذبُ الطائفة الأخرى ، وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان ، وأكثر ما يقولون لعلّى لعلّى .

١ المسفر : الكثير الأسفار ، ولعل هذا السكين كان على شكل مخصوص .

٢ الطوابيس : لم نجد هذه اللفظة .

وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعةً وثلاثين يوماً . وعجبت البحرية من التسهيل فيه ، فإنّهم يقيمون فيه خمسين يوماً إلى أربعين ، وهي أنهى ما يكون من التيسير عليهم .

ثمّ وصلنا إلى بلاد طّوالسي ، وملكها هو المسمّى بطّوالسي ، وهي بلاد عريضة ، وملكها يضاهي ملك الصين ، وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصلحوه على شيء .

وأهل هذه البلاد عبدة أوثان ، حسان الصورة ، أشبه الناس بالترك في صورهم ، والغالب على ألوانهم الحمرة ، ولهم شجاعةٌ ونجدة ، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيّلوكري ، وهي من أحسن مدنها وأكبرها ، وكان يسكن بها ابن ملكهم ، فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل الناخوذة إليهم ، ومعه هديّة لابن الملك ، فسألهم عنه فأخبروه أن أباه ولّاه بلداً غيره ، وولّى بنته بتلك المدينة واسمها أرْدُجا .

ذكر هذه الملكة

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيّلوكري استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب والكراني ، وهو الكاتب ، والتجّار والرؤساء والتنديل ، وهو مقدم الرجال ، وسباه سالار ، وهو مقدم الرماة ، لضيافة صنعتها لهم على عادتها ، ورغب الناخوذة مني أن أحضر معهم فأبيت لأنّهم كفّار لا يجوز أكل طعامهم ، فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقي أحد منكم لم يحضر ؟ فقال لها الناخوذة : لم يبق إلاّ رجل واحد بخشي ، وهو القاضي بلسانهم ، وهو لا يأكل طعامكم . فقالت : ادعوه ! فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة فقالوا : أجب الملكة . فأتيتها ، وهي بمجلسها الأعظم ،

وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمنة يعرضن ذلك عليها، وجولها النساء القواعد .
وهن وزيراتها . وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل . وبين يديها
الرجال ومجلسها مفروش بالحرير . وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل ،
وعليه صفائح الذهب . وبالمجلس مساطب خشب منقوش . عليها أواني ذهب
كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواويل . أخبرني الناحوذة أنها مملوءة
بشراب مصنوع من السكر . مخلوط بالأفاويه . يشربونه بعد الطعام . وأنه
عطر الرائحة حلوا المطعم . يفرح ويطيب النكهة . ويهضم . ويعين على الباءة .
فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية : حسن مسن يخشي مسن (خوشميسن
يخشيميسن) معناه : كيف حالك . كيف أنت ؟ وأجلستني على قرب منها .
وكانت تحسن الكتاب العربي . فقالت لبعض خدامها : دواة وبثك كانور
(كنور) معناه : الدواة والكاغد . فأني بذلك مكتبت فيه : بسم الله الرحمن
الرحيم . فقالت : ما هذا ؟ فقلت لها : تنصري (تكرني) . ومعنى ذلك
اسم الله . فقالت : خشن (حوش) ومعناه جيد . ثم سألتني : من أي البلاد
قدمت ؟ فقلت لها : من بلاد الهند . فقالت : بلاد الفلفل ؟ فقلت : نعم . فسألتني
عن تلك البلاد وأخبارها فأجبته . فقالت : لا بد أن أعزوها وأحدها
لنفسى فاني يعجبني كثرة ماها وعساكرها . فقلت لها : افعلي . وأمرت
لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز وبنجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطاف
جلاب . وأربعة مرطبانات . وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل
والليمون والعنبا . كل ذلك مخلوح ممّا يستعد به للبحر .

وأخبرني الناحوذة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقانلن
كالرجال . وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء ، فتغير على عدوها ونشاهد
القتال وتبارز الأبطال . وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد ،
وقتل كثير من عسكرها . وكادوا يهزمون . فدفعت بنفسها وخرقت ابغيوش
حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقانله . فطعنته طعنة كان فيها حنفة ،

فماتَ وانْهزمت عساكره ، وجاءت برأسه على رمح فافتكته أهلُه منها بمال كثير . فلما عادت إلى أبيها ملكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها . وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول : لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني ، فيتحامون مبارزتها خوفَ المعرة إن غلبتهم .

ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً ، والرياح مساعدة لنا ، ونحن نسيرُ بها أشدَّ السير وأحسنه إلى بلاد الصين . وإقليمُ الصين متسعٌ كثيرٌ الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك إقليمٌ من أقاليم الأرض ، ويخترقه النهر المعروف بآب حياة ، معنى ذلك ماء الحياة ، ويسمى أيضاً نهر السَّبر (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ، ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه ، معناه جبل القروء ، ويمرُّ في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثرُ عمارة ، وعليه النواعرُ الكثيرة .

وببلاد الصين السكرُ الكثير ممّا يضاهي المصري بل يفضله ، والاعناب والإجاص ، وكنتُ أظنُّ أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظيرَ له حتى رأيتُ الإجاص الذي بالصين . وبها البطيخُ العجيب يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان ، وكلُّ ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه . والقمح بها كثيرٌ جداً ولم أرَ قمحاً أطيبَ منه ، وكذلك العدسُ والحمصُ .

ذكر الفخار الصيني

وأما الفخار الصيني فلا يُصنعُ منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان ، وهو من تراب جبال هنالك تمقيدُ فيه النار كالْفحم ، وسنذكرُ ذلك ، ويضيفون إليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها الماء فيعودُ الجميع تراباً ، ثم يخمرونه ، فالجيدُ منه ما خُمر شهراً كاملاً ،

ولا يَزَادُ على ذلك ، والدون ما خُمِرَ عشرة أيّام ؛ وهو هنالك بقيمة الفخّار ببلادنا أو أرخص ثمنًا ، ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب ، وهو أبداع أنواع الفخّار .

ذكر دجاج الصين

ودَجَاجُ الصين وديوكُها ضخمةٌ جدًّا ، أضخمُ من الاوزِّ عندنا ، ويبيض الدجاج عندهم أضخمُ من يبيض الاوزُّ عندنا ، وأمّا الاوزُّ عندهم فلا ضخامة لها ، ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طَبَّخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة ، فجعلناه في برمتين .
ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتتفَ ريشُه فيبقى بضعة حمراء . وأوّل ما رأيتُ الديك الصيني بمدينة كُولم فظننتُه نعامة ، وعجبتُ منه . فقال لي صاحبه : إن بلاد الصين ما هو أعظمُ منه . فلمّا وصلتُ إلى الصين رأيتُ مصداق ما أخبرني به من ذلك .

ذكر بعض من أحوال أهل الصين

وأهلُ الصين كفّار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان . وفي كلّ مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجُمُعات وسواها . وهم معظّمون محترمون ، وكفّار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها في أسواقهم ، وهم أهلُ رفاهة وسعة عيش إلاّ أنّهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس . وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة . وعليه جبّة قطن خشنة .

١ البرمة : القدر من الحجر .

وجميعُ أهل الصين إنَّما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ، ولكلِّ واحد منهم عكازٌ يعتمد عليه في المشي ، ويقولون هو الرَّجُلُ الثالثة . والجريُّ عندهم كثيرٌ جداً لأن الدود تتعلَّق بالثمار وتأكُلُ منها ، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة ، ولذلك كثر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ، ومن كان له خمس قطع منها جعل في إصبعه خاتماً . ومن كانت له عشر جعل خاتمين ؛ ومن كان له خمس عشرة سمّوه السَّيِّ ، وهو بمعنى الكارمي بمصر ، ويسمّون القطعة الواحدة منها بَرَكالة .

ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون

وأهلُ الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميعُ ما يتحصَّل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنَّما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كلُّ قطعة منها بقدر الكفّ مطبوعةٌ بطابع السلطان ، وتسمّى الخمس والعشرون قطعةً منها باليشْت ، وهو بمعنى الدينار عندنا ، وإذا تمزّقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكّة عندنا ، فأخذَ عوضها جُذُداً ، ودفعَ تلك ، ولا يُعطي على ذلك أجرة ولا سواها ، لأنَّ الذين يتولّون عملها لهم الأرزاق البخارية من قبل السلطان .

وقد وُكِّلَ بتلك الدار أميرٌ من كبار الأمراء ، وإذا مضى الإنسانُ إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يُلْتَفَت إليه حتى يصرفه بالبالِشْت ، ويشترى به ما أراد .

ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخيطة إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطَّفَل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتي الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه فيسقى كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم ، وإذا صارَ رماداً عجنوه بالماء وييسوه وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون إليه حجارة سواه كما ذكرناه .

ذكر ما خصوا به من إحكام الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدّهم إتقاناً فيها ، وذلك مشهورٌ من حالهم ، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه ، وأمّا التصوير فلا يُجاريهم أحدٌ في إحكامه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجب ما شاهدت لهم من ذلك اني ما دخلتُ قطّ مدينة من مدنها ثم عدتُ إليها إلا ورأيتُ صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد ، موضوعة في الأسواق .

ولقد دخلتُ إلى مدينة السلطان فمررتُ على سوق النقّاشين ، ووصلتُ إلى قصر السلطان مع أصحابي ، ونحنُ على زي العراقيين ، فلمّا عدت من القصر عشيّاً مررتُ بالسوق المذكورة فرأيتُ صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظرُ إلى صورة صاحبه لا تخطيء شيئاً من شبهه . وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى قصره ونحنُ به ، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحنُ لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمرّ بهم ، وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بَعَثوا صورته إلى البلاد وبُحِث عنه ،

فحيثما وُجدَ شبه تلك الصورة أُخذ .

قال ابنُ جُزَي : هذا مثل ما حكاه أهلُ التأريخ من قضية سابور ذي الاكتاف ملك الفرس حينَ دخلَ إلى بلاد الروم متنكراً ، وحضرَ وليمة صنعها ملكُهم ، وكانت صورته على بعض الأواني ، فنظرَ إليها بعض خدام قيصر ، فانطبعت على صورة سابور ، فقال للملكه: إن هذه الصورة تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس، فكان الأمرُ على ما قاله، وجرى فيه ما هو مسطورٌ في الكتب .

ذكر عاداتهم في تقييد ما في المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتبه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية ، وحينئذٍ يُباح لهم السفر ، فإذا عادَ الجنك إلى الصين صعدوا إليه أيضاً ، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس ، فإن فقدوا أحداً ممن قيّدوه طلبوا صاحب الجنك به فلمّا أن يأتي ببُرهان على موته أو فراره أو غير ذلك ممّا يحدث عليه ، وإلاّ أخذَ فيه . فلمّا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يُملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ، ثمّ ينزلُ من فيه ، ويجلسُ حُفَظُ الديوان لمشاهدة ما عندهم ، فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاّ للمخزن، وذلك نوعٌ من الظلم ما رأيتُه ببلاد من بلاد الكفّار ولا المسلمين إلاّ بالصين ، اللهمّ إلاّ أنّه كان بالهند ما يقرب منه ، وهو أنّ من عُثر على سلعة له قد غاب مُغَرَّمُها أُغرم أحد عشر مغرمًا ثمّ رفعَ السلطان ذلك لما رفعَ المغارم .

ذكر عاداتهم في منع التجار عن الفساد

وإذا قدمَ التاجرُ المسلم على بلد من بلاد الصين خيّرَ في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيّن ، أو في الفندق ، فإن أحبّ النزولَ عند التاجر

حُصِرَ ماله وضمته التاجر المستوطن ، وأنفقَ عليه منه بالمعروف ، فإذا أرادَ السفر بُحِثَ عن ماله ، فإن وُجدَ شيء منه قد ضاعَ أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه ، وإن أرادَ التزول بالفندق سلّمَ ماله لصاحب الفندق وضمته ، وهو يشتري له ما أحبّ ويحاسبه ، فإن أرادَ التسريّ اشترى له جارية وأسكنه بدار يكونُ بابُها في الفندق ، وأنفقَ عليهما .

والجواري رخصات الأثمان إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم ، وليسَ ذلك عيباً عندهم ، غيرَ أنهم لا يُجبرون على السفر مع مشريهم ، ولا يُمنعون أيضاً منه إن اختاروه . وكذلك إن أرادَ التزوج تزوّج . وأمّا إنفاقُ ماله في الفساد فشيء لا سبيلَ له إليه ، ويقولون : لا نريدُ أن يُسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنّها أرضُ فساد وحسن فائت .

ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق

وبلادُ الصين آمنُ البلاد وأحسنُها حالاً للمسافرين ، فإنّ الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر ، وتكونُ معه الأموال الطائلة ، فلا يخافُ عليها . وترتيبُ ذلك أن لهم في كلّ منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكمٌ يسكنُ به في جماعة من الفرسان والرجال ، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه . فكتبَ أسماء جميع من يبيتُ به من المسافرين وختمَ عليها ، وأقفَلَ بابَ الفندق عليهم ، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه ، فدعا كلّ إنسان باسمه وكتبَ به تفصيلاً ، وبعثَ معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له ، ويأتيه براءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه ، وإن لم يفعل طلبه بهم . وهكذا العمل في كلّ منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق . وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد وخصوصاً الدجاج والإوز ، وأمّا الغنم فهي قليلة عندهم .

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون ، وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ، ولكنه اسم وضع عليها . وهي مدينة عظيمة كبيرة ، تُصنعُ بها ثياب الكمخا والأطلس ، وتُعرف بالنسبة إليها ، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية . ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها . رأيتُ به نحو مائة جنك كبار ، وأما الصغار فلا تُحصى كثرة ، وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم .

وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكونُ للانسان بها البستان والأرض ، وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجيلماسة ببلادنا ، وبهذا عظمت بلادهم . والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة .

وفي يوم وصولي إليها رأيتُ بها الأمير الذي توجه إلى الهند رسولا بالهدية ، ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك ، فسلم عليّ ، وعرف صاحب الديوان بي فأنزَلني في منزل حسن . وجاء إليّ قاضي المسلمين تاج الدين الادريلي . وهو من الأفاضل الكرماء ، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني ، وهو من الصلحاء ، وجاء إليّ كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة ، حافظ للقرآن ، مُكثّر للتلاوة .

وهؤلاء التجار ، لسكناهم في بلاد الكفار ، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشدّ الفرح وقالوا : جاء من أرض الإسلام ، وله يعطون زكوات أموالهم . فيعود غنياً كواحد منهم .

وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني ، له زاوية خارج البلد ، وإليه يدفع التجار النذور التي يندرونها للشيخ أبي إسحاق الكازروني . ولما عرف صاحب الديوان أخباري كتب إلى القان ، وهو ملكهم الأعظم ، يخبره بقدومي من جهة ملك الهند ، فطلبتُ منه أن يبعث معي من يوصلني إلى بلاد

الصين (صين الصين) وهم يسمونها صين كلان ، لأشاهد تلك البلاد ، وهي في عُمالته ، بخلال ما يعود جوابُ القان ، فأجابَ إلى ذلك وبعثَ معي من أصحابه من يوصلني .

وركبتُ في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية إلا أن الجذّافين يجذفون فيه قياماً ، وجميعهم في وسط المركب ، والركاب في المقدّم والمؤخر ، ويظللّون على المركب بثياب تُصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتّان وليس به ، وهو أرقّ من القنب .

وسافرنا في هذا النهر سبعةً وعشرين يوماً ، وفي كلّ يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج إليه ، ونصلّي الظهر ، ثمّ ننزل بالعشي إلى أخرى ، وهكذا إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كلان ، وهي مدينة صين الصين ، وبها يُصنّع الفخّار ، وبالزيتون أيضاً ، وهناك يصبّ نهر آب حياة في البحر ويسمّونه مجمع البحرين ، وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقاً . ومن أعظم أسواقها سوق الفخّار ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن ، وفي وسط هذه المدينة كنيسةٌ عظيمة لها تسعة أبواب ، داخل كلّ باب اسطوان ومصاطب يقعدُ عليها الساكنون بها ، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزّمانات ، ولكلّ واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة . وكذلك فيما بين الأبواب كلّها . وفي داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الأغذية ، وفيها الأطباء والخدام .

وذكر لي أنّ الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكبّسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل ممّن لا مال لهم . وعمر هذه الكنيسة بعضُ ملوكهم ، وجعل هذه المدينة وما إليها من القرى والبساتين وقفاً عليها ، وصورة ذلك الملك مُصوّرة بالكنيسة المذكورة ، وهم يعبدونها .

وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزواوية والسوق ، ولهم قاض وشيخ ، ولا بلد في كلّ بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام

تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه . وقاضٍ يقضي بينهم .
وكان نزولي عند أوجد الدين السنجاري ، وهو أحد الفضلاء الأكابر
ذوي الأموال الطائلة ، وأقمتُ عنده أربعة عشر يوماً ، وتُحَفُّ القاضي وسائر
المسلمين تتوالى عليّ . وكلّ يوم يصنعون دعوة جديدة ، ويأتون إليها بالعُشَّارين
الحسان ، والمغنيين .

وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين ، وبينها وبين سد
يأجوج ومأجوج ستون يوماً ، فيما ذكر لي ، يسكنها كفّار رحالة يأكلون
بني آدم إذا ظفروا بهم ، ولذلك لا تُسلك بلادهم ، ولا يُسافَرُ إليها ، ولم أرَ
بتلك البلاد من رأى السدّ ولا من رأى من رآه .

حكاية عجيبة

ولما كنتُ بصين كَلان سمعتُ أنّ بها شيخاً كبيراً قد أنافَ على مائتي سنة ،
وأَنَّهُ لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يحدث ، ولا يباشر النساء ، مع قوّته الثامّة ،
وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبّدُ فيه ، فتوجّهتُ إلى الغار فرأيتُه على بابهِ ،
وهو نحيف ، شديدُ الحمرة ، عليه أثرُ العبادة ، ولا لحية له ، فسلمتُ عليه ،
فأمسكَ يدي وشمّها ، وقال للترجمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها
الآخر . ثمّ قال : لقد رأيتُ عجباً . أتذكرون يومَ قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة ،
والرجل الذي كان جالساً بين الأصنام ، وأعطاك عشرة دنانير من الذهب ؟
فقلت : نعم ! فقال : أنا هو . فقبِلْتُ يده ، وفكّرَ ساعة ، ثمّ دخلَ الغار
فلم يخرج إلينا ، وكأنّه ظهرَ منه الندمُ على ما تكلمَ به ، فتهجّمنا ودخلنا الغار
عليه ، فلم نجدّه ووجدنا بعض أصحابه ، ومعه جملة بَوَالِشْت من الكاغد ،
فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا ، فقلنا له : ننتظر الرجل . فقال : لو أقمتُم
عشرَ سنين لم تروه ، فإن عادته إذا اطلعَ أحدٌ على سرٍّ من أسرارهِ لا يراه بعده ،

١ لعلها العشاريون وهم الغلمان الذين لم يتجاوزوا العاشرة .

ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك . فعجبتُ من ذلك وانصرفت ، فأعلمتُ القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته ، فقالوا : كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء ، ولا يعلم أحدٌ ما ينتحله من الأديان ، والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو .

وأخبروني أنه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ، ثم قدمَ عليها منذ سنة ، وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهـم التَّحَفَ على أقدارهم ، ويأتيه الفقراء كلَّ يوم ، فيُعطي لكلِّ أحدٍ على قدره . وليس في الغار الذي هو به ما يقعُ عليه البصر . وأنه يحدثُ عن السنين الماضية ، ويذكر النبيّ ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، ويقول : لو كنتُ معه لنصرته ، ويذكر الخليفتين عمر ابن الخطَّاب وعليّ بن أبي طالب بأحسن الذكر ، ويثني عليهما ، ويلعن يزيد ابن معاوية ، ويقعُ في معاوية .

وحدثوني عنه بأمور كثيرة ، وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال : دخلت عليه بالغار ، فأخذ بيدي ، فخيَّلَ ليّ أني في قصر عظيم ، وأنه قاعدٌ فيه على سرير ، وفوق رأسه تاج ، وعن جانبيه الوصائفُ الحسان ، والفواكه تتساقط في أنهار هنالك . وتخيَّلْتُ أني أخذتُ تفاحةً لآكلها ، فإذا أنا بالغار وبينَ يديه ، وهو يضحكُ مني . وأصابني مرض شديد لازمني شهوراً ، فلم أعد إليه .

وأهلُ تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم لكن لم يره أحد يصليّ ، وأمّا الصيام ، فهو صائمٌ أبداً ، وقال لي القاضي : ذكرتُ له الصلاة في بعض الأيام ، فقال لي : أتدري أنتَ ما أصنع ؟ إنَّ صلاتي غير صلاتك . وأخباره كلّها غريبة . وفي اليوم الثاني من لقائه سافرتُ راجعاً إلى مدينة الزيتون ، وبعد وصولي إليها بأيّام جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البرِّ والكرامة ، إن شئتُ في النهر ، وإلاّ ففي البرِّ ، فاخترتُ السفر في النهر ، فجهَّزوا لي مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب الأمراء . وبعثَ الأميرُ معنا أصحابه ، ووجهَ لنا الأميرُ والقاضي والتجار المسلمون أزواداً كثيرة ، وسرنا في الضيافة نغدّى بقرية

ونتعشّى بأخرى . فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قَسَجَسْفُو ، وهي مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيج ، والبساتين محدقة بها ، فكأنّها غوطة دمشق . وعند وصولنا خرَجَ إلينا القاضي وشيخُ الإسلام والتجار ، ومعهم الأعلام والطلول والأبواق والأنفار وأهلُ الطرب ، وأتونا بالخيول فركبنا ومشوا بين أيدينا ، لم يركب معنا غير القاضي والشيخ . وخرَجَ أميرُ البلد وخدامه . وضيفُ السلطان عندهم معظّمٌ أشدّ التعظيم . ودخلنا المدينة ، ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الأوّل والثاني عبيدُ السلطان من حرّاس المدينة وسمّارها ، ويسمّون البَصَوَانان (الباسوانان) ، ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المُركبون والأميرُ الحاكم على البلد . ويسكن داخل السور الثالث المسلمون ، وهناك نزلنا عندَ شيخهم ظهير الدين القرلاني ، ويسكن داخل السور الرابع الصينيون ، وهو أعظم المدن الأربع ، ومقدار ما بين كلّ باب منها والذي يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكلّ إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه .

حكاية قوام الدين السبتي

وبينا أنا يوماً في دار ظهير الدين القرلاني إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظّمين عندهم ، فاستؤذن له عليّ ، وقالوا : مولانا قوام الدين السبتي . فعجبتُ من اسمه . ودخلَ إليّ . فلمّا حصلت الموائسة بعد السلام سنح لي اني أعرفه ، فأطلتُ النظرَ إليه . فقال : أراك تنظر إليّ نظر من يعرفني ؟ فقلتُ له : من أي البلاد أنت ؟ فقال : من سبته . فقلتُ له : وأنا من طنجة ، فجدّد السلام عليّ وبكى حتى بكيت لبكائه ، فقلتُ له : هل دخلتَ بلاد الهند ؟ فقال لي : نعم ! دخلتُ حضرة دهلي ، فلمّا قال لي ذلك تذكّرتُ له ، وقلت : أأنتَ البشري ؟ قال : نعم . وكان وصلَ إلى دهلي مع خاله أبي القاسم المرسي . وهو يومئذٍ شاب لا نبات بعارضيه ، من حذاق الطلبة يحفظُ الموطن ، وكنتُ أعلمتُ سلطان الهند بأمره ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وطلبَ منه الإقامة عنده ،

فأبى ، وكان قصدهُ في بلاد الصين ، فعظم شأنه بها ، واكتسبَ الأموال الطائلة .
 أخبرني أن له نحو خمسين غلاماً ومثلهم من الجوارى ، وأهدى إليّ منهم غلامين
 وجاريتين وتحفاً كثيرة ، ولقيتُ أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فبا بعد ما بينهما ،
 وكانت لإقامتي بقسنجسُفُو خمسة عشر يوماً ، وسافرتُ منها . وبلاد الصين على
 ما فيها من الحسن لم تكن تعجبي بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر
 عليها ، فمتى خرجتُ عن منزلي رأيتُ المناكير الكثيرة ، فأقلقني ذلك حتى كنتُ
 أُلَازِمُ المنزل فلا أخرج إلاّ للضرورة . وكنتُ إذا رأيتُ المسلمين بها فكأنني لقيتُ
 أهلي وأقاربي .

ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري أن سافرَ معي لما رحلتُ عن قسنجسُفُو
 أربعة أيّام حتى وصلتُ إلى مدينة بَسَوم قُطُلُو ، مدينة صغيرة يسكنها
 الصينيون من جند وسوقة ، وليس بها للمسلمين إلاّ أربع من الدور أهلها
 من جهة الفقيه المذكور ، نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيّام ، ثم ودعتُ
 الفقيه وانصرفتُ ، فركبتُ النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى إلى
 أن وصلنا بعد سبعة عشر يوماً منها إلى مدينة الخنساء ، واسمُها على نحو اسم الخنساء
 الشاعرة ، ولا أدري أعربيّ هو أم وافق العربي . وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها
 على وجه الأرض ، طولُها مسيرة ثلاثة أيّام يرحلُ المسافر فيها وينزل ، وهي
 على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين ، كلّ أحد له بستانه وداره ، وهي
 منقسمة إلى ستّ مدن سندكرها .

وعند وصولنا إليها خرجَ إلينا قاضيها أفخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد
 عثمان بن عفّان المصري ، وهم كبراء المسلمين بها ، ومعهم علمٌ أبيض والأطبال
 والأنفَارُ والأبواق ، وخرجَ أميرُها في موكبه ، ودخلنا المدينة ، وهي ستّ مدن
 على كلّ مدينة سور ومُحَدَقٌ بالجميع سورٌ واحد ، فأولُ مدينة منها يسكنها
 حراسُ المدينة وأميرُهم . حدثني القاضي وسواه أنهم اثنا عشر ألفاً في زمام
 العسكرية ، وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم .

وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يُعرف بباب اليهود ، ويسكن بها اليهود والنصارى ، والترك عبدة الشمس . وهم كثير ، وأميرُ هذه المدينة من أهل العمين ، وبتنا عنده الليلة الثانية .

وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ، ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام ، وبها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر ، عند دخولنا ، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفّان المصري . وكان أحدُ التجّار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها ، وعُرفت بالنسبة إليه وأورث عتقبيه بها الجاه والحرمة ، وهم على ما كان عليه أبوهم من الايثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين ، ولهم زاوية تُعرفُ بالعثمانية ، حسنة العمارة ، لها أوقافٌ كثيرة ، وبها طائفةٌ من الصوفيّة ، وبني عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة . ووقفت عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة ، وعدد المسلمين بهذه المدينة كثيرٌ ، وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً ، فكنتا كلَّ يوم ليلة في دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون في أطعمتهم ، ويركبون معنا كلَّ يوم للنزهة في أقطار المدينة .

وركبوا معي يوماً فدخلنا إلى المدينة الرابعة ، وهي دار الإمارة ، وبها سكنى الأمير الكبير قُـرْطَـيْ ، ولما دخلنا من بابها ذهبَ عني أصحابي ، ولقيني الوزير وذهبَ بي إلى دار الأمير الكبير قُـرْطَـيْ ، فكان من أخذه الفرجية التي أعطاهاها ولي الله جلال الدين الشيرازي ما قد ذكرته .

وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدّامه ، وهي أحسن المدن الست . ويشقّها أنهارٌ ثلاثة أحدها خليجٌ يخرجُ من النهر الأعظم ، وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقود ، وفيه السفن للنزهة . والميشور في وسط هذه المدينة ، وهو كبيرٌ جداً ، ودارُ الإمارة في وسطه ، وهو يحفّ بها من جميع الجهات ، وفيه سقائف فيها الصنائع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . أخبرني الأميرُ قُـرْطَـيْ أن عددهم ألفٌ وستمائة

معلّم ، كلّ واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلّمين ، وهم أجمعون عبيد القان ، وفي أرجلهم القيود ، ومساكنهم خارج القصر ، ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ، ويُعرّضون كلّ يوم على الأمير مائة مائة ، فإن نقص أحدهم طُلِبَ به أميره .

وعادتهم أنّه إذا خدّم أحدُهم عشرَ سنين فُكَّ عنه قيده ، وكان يُخَيَّرُ في النظرين: إمّا أن يقيمَ في الخدمة غيرَ مقيّد ، وإمّا أن يسيرَ حيثُ شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها ، وإذا بلغَ سنّه خمسين عاماً أُعْتِقَ من الأشغال ، وأنْفَقَ عليه ، وكذلك يُنْفَقُ على من بلغَ هذه السن أو نحوها من سواهم ، ومن بلغَ ستينَ سنة عدّوه كالصبيّ ، فلم تُجرَ عليه الأحكام . والشيوخ بالصين يُعْظَمون تعظيماً كثيراً ، ويسمّى أحدهم آطا ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قرطي

وهو أميرُ أمراء الصين ، أضافنا بداره ، وصنّع الدعوة ، ويسمونها الطّوّى ، وحضرها كبار المدينة ، وأتى بالطبّاخين المسلمين ، فذبّحوا وطبخوا الطعام ، وكان هذا الأميرُ على عظمتِه يناولنا الطعام بيده ، ويقطعُ اللحمَ بيده ، وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيّام ، وبعثَ ولده معنا إلى الخليج ، فركبنا سفينة تشبه الحراقة ، وركب ابنُ الأمير في أخرى ، ومعه أهلُ الطرب وأهلُ الموسيقى وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي ، وكان ابنُ الأمير معجباً بالغناء الفارسي ، فغنوا شعراً منه وأمرهم بتكريره مراراً حتى حفظته من أفواههم ، وله تلحين عجيب وهو :

تا دل بمحنت دادیسم در بحر فکر افتادیم
جن (جون) در نماز استادیم قوي بمحراب اندري (اندریم)

واجتمعتْ بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة ، لها القلاع الملوّنة ، ومظلات الحرير ، وسفنُهم منقوشة أبدعَ نقش ، وجعلوا يتحاملون ، ويطرامون

بالتارنج والليمون ، وعدنا بالعشي إلى دار الأمير ، فبتنا بها ، وحضر أهلُ
الطرب ، فغنّوا بأنواع من الغناء العجيب .

حكاية المشعوذ

وفي تلك الليلة حضرَ أحد المشعوذة ، وهو من عبيد القان ، فقال له الأمير :
أرنا من عجائبك ، فأخذ كرة خشب لها ثُقَب فيها سيورٌ طوال فرمى بها إلى
الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار ، ونحنُ في وسط المِشور أيام الحرِّ
الشديد ، فلمّا لم يبقَ من السير في يده إلّا يسير أمرَ متعلماً له ، فتعلّق به ،
وصعدَ في الهواء إلى أن غابَ عن أبصارنا ، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً ، فأخذَ سكيناً
بيده كالْمغتَاط وتعلّق بالسير إلى أن غاب أيضاً ، ثمّ رمى بيد الصبي إلى الأرض ،
ثمّ رمى برجله ، ثمّ بيده الأخرى ، ثمّ برجله الأخرى ، ثمّ بجسده ، ثمّ برأسه ،
ثمّ هبطَ . وهو ينفخ وثيراً ملطّخة بالدم ، فقبلَ الأرض بين يدي الأمير ،
وكلمه بالصيني . وأمرَ له الأميرُ بشيء ، ثمّ أنّه أخذ أعضاء الصبي فالصقَ
بعضها ببعض ، وركضه برجله ، فقام سويّاً ، فعجبتُ منه وأصابني خفقانُ
القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيتُ مثل ذلك ، فسقوني دواء
أذهبَ عني ما وجدت .

وكان القاضي أفخر الدين إلى جانبي فقال لي : والله ما كان من صعود
ولا نزول ، ولا قطع عضو ، وإنّما ذلك شعوذة . وفي غد تلك الليلة دخلنا
من باب المدينة الخامسة ، وهي أكبر المدن يسكنها عامة الناس ، وأسواقُها
حسان ، وبها الخذاق بالصنائع ، وبها تُصنع الثياب الخنساوية ، ومن عجيب ما
يصنعون بها أطباقٌ يسمّونها الدست ، وهي من القصب ، وقد ألصقت قطعه
أبدعَ إلصاق . ودُهنت بصبغ أحمر مشرق ، وتكونُ هذه الأطباقُ عشرةً ،
واحداً في جوف آخر لطورقتها تظهرُ لرائيها كأنّها طبقٌ واحد . ويصنعون

غطاء يغطي جميعها ، ويصنعون من هذا القصب صحافاً . ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صهاغها ولا يحول ، وتُجلبُ من هنالك إلى الهند وخراسان وسواهما .

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها ، وبالغد دخلنا من باب يسمّى كشتي وانان إلى المدينة السادسة ، ويسكنها البحرية والصيادون والحلافطة والنجارون ، ويدعون دود كاران (درود كران) ، والإصباية وهم الرماة ، والبيادة ، وهم الرجالة ، وجميعهم عبيد السلطان ، ولا يسكن معهم سواهم ، وعددهم كثير .

وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها ، وجهّز لنا الأميرُ قُرطَي مركباً بما يحتاجُ إليه من زادٍ وسواه ، وبعثَ معنا أصحابه برسم التضييف ، وسافرنا من هذه المدينة ، وهي آخر أعمال الصين ، ودخلنا إلى بلاد الخطا ، وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ، ولا يكون في جميعها موضع غير معمر ، فإنه إن بقي موضع غير معمر طُلبَ أهله أو من يواليهم بخراجه . والبساتين والقُرى والمزارع منتظمة بجانب هذا النهر من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق ، وذلك مسيرة أربعة وستين يوماً ، وليس بها أحد من المسلمين إلاّ من كان خاطراً غير مقيم لأنها ليست بدار مقام ، وليس بها مدينة مجتمعة إنّما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ، ولم أرَ في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيّام من الأنبار إلى عانة .

وكنّا كلّ ليلة ننزلُ بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق وتسمّى أيضاً خنانقو وهي حضرة القان ، والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا . ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم ، وكُتِبَ إلى أمراء البحر بخبرنا ، فأذنوا لنا في دخول مرساها ، فدخلناه ، ثمّ نزلنا إلى المدينة ، وهي من أعظم مدن الدنيا ، وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها ، إنّما هي كسائر البلاد ، والبساتين بخارجها ،

ومدينة السلطان في وسطها كالقصبه حسبما نذكره .
ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي ، وهو الذي بعث إليه ملك الهند
بأربعين ألف دينار واستدعاه ، فأخذ الدنانير وقضى بها دينه ، وأبى أن يسير
إليه ، وقدم على بلاد الصين فقدّمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه
بصدر الجهان .

ذكر سلطان الصين والخطا الملّقب بالقان

والقان عندهم سِمَة لكلّ من يلي الملك ملك الأقطار كمثل ما يسمّى
كلّ من ملك بلاد اللور بأتابك ، واسمُه بَشَاشَاي ، وليس للكفتار على وجه
الأرض مملكة أعظم من مملكته .

ذكر قصر القان

وقصره في وسط المدينة المختصّة بسكناه ، وأكثرُ عمارته بالخشب المنقوش .
وله ترتيبٌ عجيبٌ وعليه سبعة أبواب . فالبابُ الأوّل منها يجلس به الكتّوال ،
وهو أميرُ البوّابين ، وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره . فيها الممالك
البردارية ، وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل . وأخبرتُ أنّهم
كانوا فيما تقدّم ألفَ رجل ؛ والباب الثاني يجلس عليه الإصباهية ، وهم الرماة
وعدهم خمسمائة ؛ والباب الثالث يجلس عليه التزدارية ، وهم أصحاب الرماح
وعدهم خمسمائة ؛ والباب الرابع يجلس عليه التغدارية . وهم أصحاب
السيوف والترسة ؛ والباب الخامس فيه ديوان الوزارة ، وبه سقائف كثيرة ،
فالسقيفة العظمى يقعدُ بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ، ويسمّون ذلك الموضع
المسند ، وبين يدي الوزير دواةٌ عظيمةٌ من الذهب ، وتقابل هذه السقيفة سقيفة
كاتب السرّ ، وعن يمينها سقيفةُ كتّاب الرسائل ، وعن يمين سقيفة الوزير
سقيفة كتّاب الأشغال ، وتقابل هذه السقائف سقائفُ أربعٍ إحداها تُسمّى

ديوان الإشراف يقعدُ بها المشرف ؛ والثانية سقيفة ديوان المستخرج ، وأميرُها من كبار الأمراء ، والمستخرج هو ما يبقى قبيلَ العمّال وقبيلَ الأمراء من إقطاعاتهم ؛ والثالثة ديوان الغوث ، ويجلس فيها أحدُ الأمراء الكبار ، ومعه الفقهاء والكتّاب ، فمن لحقته مظلمة استغاثَ بهم ؛ والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أميرُ الاخباريين ؛ والبابُ السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرُهم الأعظم ؛ والباب السابع يجلسُ عليه الفتيان ، ولهم ثلاثُ سقائف إحداها سقيفة الحبشان منهم ؛ والثانية سقيفة الهنود ؛ والثالثة سقيفة الصينيين ، ولكلّ طائفةٍ منهم أميرٌ من الصينيين .

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولمّا وصلنا حضرةَ خان باليق وجدنا القان غائباً عنها إذ ذاك ، وخرجَ للقاء ابن عمّه فيروز القائم عليه بناحية قراقوم وبش بالغ من بلاد الحيط ، وبينها وبين الحضرة مسيرةُ ثلاثة أشهر عامرة . وأخبرني صدرُ الجهان برهان الدين الصاغرجي أن القان لمّا جمعَ الجيوش ، وحشدَ الحشود ، اجتمعَ عليه من الفرسان مائةُ فوج ، كلّ فوج منها من عشرة آلاف فارس ، وأميرُهم يسمّى أمير طومان ، وكان خواصُّ السلطان ، وأهلُ دخلته ، خمسين ألفاً زائداً إلى ذلك ، وكانت الرجالة خمسمائة ألف . ولمّا خرجَ خالفَ عليه أكثرُ الأمراء ، واتفقوا على خلعه لأنّه كان قد غيرَ أحكامَ اليساق ، وهي الأحكامُ التي وضعها تنكيز خان جدّهم الذي خربَ بلاد الإسلام ، فمضوا إلى ابن عمّه القائم وكتبوا إلى القان أن يخلعَ نفسه وتكون مدينة الخنسا اقطاعاً له ، فأبى ذلك ، وقاتلهم فانهزم وقُتل . وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته وردَ الخبرُ بذلك ، فزُيّنت المدينة وضُربت الطبولُ والأبواقُ والأنفار ، واستُعملَ اللعب والطربُ مدّة شهر ، ثمّ جيءَ بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمّه وأقاربه وخواصّه ، فحُفِرَ

للقان ناووس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض ، وفُرش بأحسن الفرش ، وجُعل فيه القان بسلاحه . وجُعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة ، وجُعل معه أربع من الجواري وستة من خواص الممالك ، معهم أواني الشراب ، وبني باب البيت ، وجُعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ، ثم جاؤوا بأربعة أفراس ، فأجروها عند قبره حتى وقفت ، ونصبوا خشباً على القبر . وعلّقوها عليه ، بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه . وجُعل أقارب القان المذكورون في نواويس . ومعهم سلاحهم وأواني دورهم . وصلّبو على قبور كبارهم . وكانوا عشرة ، ثلاثة من الخيل على كل قبر ، وعلى قبور الباقيين فرساً فرساً . وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً لم يتخلّف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار ، وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء ، وهي الطيالة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين ، وأقام خواتين القان وخواصه في الأخبية على قبره أربعين يوماً وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة . وصُنعت هنالك سوق يباع فيها ما يحتاجون إليه من طعام وسواه . وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا العصر . فأمّا الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم ، وسواهم من الأمم يدفنون الميت . ولا يجعلون معه أحداً ، لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووساً ، وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم ، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ، ويجعلون معهم أواني الشراب .

وأخبرني بعض كبار مسوفة ممّن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصه سلطانهم : أنّه كان له ولد . فلمّا مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم ، قال : فقلت لهم : كيف تفعلون ذلك ، وليس على دينكم ولا من ولدكم ؟ وفديته منهم بمال عريض . ولما قُتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمّه فيروز على الملك اختار أن

تكون حضرته مدينة قرأ قرم لقرها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر ، ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان ، وقطعوا الطرق وعظمت الفتن .

ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار عليّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن ، ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز ، فبعث معي ثلاثة من أصحابه ، وكتب لي بالضيافة ، وسرنا منحدرين في النهر إلى الخنسا ، ثم إلى قنجنفو ثم إلى الزيتون ، فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر إلى الهند ، وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة ، أهله مسلمون ، وعرفني وكيله وسرّ بقدومي . وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام ، فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر ، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحراً لا نعرفه ، وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين ، فلم يتمكن ذلك ، وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أيّ البحار نحن .

ذكر الرخ

ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً ، والريح تحملنا إلى صوبه ، فعجب البحريّة وقالوا : لسنا بقرب من البر ، ولا يُعهد في البحر جبل ، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكننا ، فلجأ الناس إلى التضرع والاخلاص ، وجدّدوا التوبة ، وابتهلنا إلى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، ونذر التجار الصدقات الكثيرة ، وكتبتهما لهم في زمام بخطي ، وسكنت الريح بعض سكون ، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين

البحر ، فعجبنا من ذلك ، ورأيتُ البحرية يكون ويودع بعضهم بعضاً ، فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرُّخَّ وإن رأنا أهلكننا ، وبيننا وبينه إذ ذاك أقلّ من عشرة أميال . ثمّ إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة صرّفنا عن صوبه ، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصَلنا الجلاوة ونزلنا إلى سُمُطرة ، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له ، وجاء بسبي كثير ، فبعثَ لي جاريتين وغلّامين وأنزَلني على العادة وحضرتُ إعراسَ ولده مع بنت أخيه .

ذكر إعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدتُ يومَ الجلاوة فرأيتُهم قد نصبوا في وسط المشور منبراً كبيراً وكسوه بثياب الحرير ، وجاءت العروسُ من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعنَ أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه ، وكلّهنّ باديات الوجوه ينظرُ إليهن كلّ من حضرَ من رفيع أو ضيع . وليست تلك بعادة لهنّ إلاّ في الأعراس خاصة .

وصعدت العروسُ المنبرَ وبين يديها أهلُ الطرب رجالاً ونساء يلعبون ويغنّون . ثمّ جاء الزوج على فيل مزين ، على ظهره سرير وفوقه قبة شبيهة البهجة ، والتأجّ على رأس العروس المذكور ، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك ، والأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيلَ المزيّنة ، وعلى رؤوسهم الشواشي المرصّعة ، وهم أترابُ العروس ليسَ فيهم ذو لحية ، ونُثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله .

وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ، ونزلَ ابنُه فقَبِلَ رجله وصعدَ المنبر إلى العروس ، فقامت إليه ، وقبّلت يده ، وجلسَ إلى جانبها ، والخواتين يروّحن عليها ، وجاؤوا بالفوفل والتنبول ، فأخذه الزوج بيده ، وجعلَ منه في فمها ، ثمّ أخذت هي بيديها وجعلت في فمه ، ثمّ أخذ الزوج بفمه ورقة

تنبول وجعلها في فمها ، وذلك كله على أعين الناس . ثم فعلت هي كفعله ، ثم وُضِعَ عليها السرُّ ورُفِعَ المنبر وهما فيه إلى داخل القصر ، وأكلَ الناس وانصرفوا .

ثم لما كان من الغد جَمَعَ الناسَ وأجرى له أبوه ولاية العهد وبإيعه الناسُ ، وأعطاهم العطاء الجزلَ من الثياب والذهب ، وأقمتُ بهذه الجزيرة شهرين ، ثم ركبْتُ في بعض الجنوك ، وأعطاني السلطان كثيراً من العود والكافور والقرنفل والصندل . وزودني وسافرتُ عنه . فوصلتُ بعد أربعين يوماً إلى كولم ، فنزلتُ بها في جوار القزويني قاضي المسلمين ، وذلك في رمضان ، وحضرتُ بها صلاة العيد في مسجدِها الجامع ، وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلاً ، فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ، ثم يصلُّون ويخطبُ الخطيبُ وينصرفون .

ثم سافرنا من كولم إلى قالقوت وأقمنا بها أياماً ، وأردتُ العودة إلى دهلي ، ثم خفتُ من ذلك ، فركبتُ البحرَ فوصلتُ بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار ، وذلك في محرّم سنة ثمان وأربعين . ونزلتُ بدار خطيبها عيسى بن طاطأ .

ذكر سلطان ظفار

ووجدتُ سلطانها في هذه الكرّة الملك الناصر ابن الملك المغيث الذي كان ملكاً بها حين وُصُولي إليها فيما تقدّم . ونائبه سيف الدين عمر أمير جنادر التركي الأصل ، وأنزَلَنِي هذا السلطان وأكرمني .

ثم ركبْتُ البحرَ فوصلتُ إلى مَسْقِط ، وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ، ثم سافرنا إلى مرسى القُرَيَّات ، ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّة ، ثم إلى مرسى كَلْبَة ولفظُها على لفظ مؤنث الكلب ، ثم إلى قَلْهَات ،

.....

١ سنة ١٣٤٧ م .

وقد تقدّم ذكرها . وهذه البلاد كلّها من عمالة هرمز ، وهي محسوبة من بلاد عُمان .

ثمّ سافرنا إلى هرمز وأقمنا بها ثلاثاً ، وسافرنا في البر إلى كَوْرَسْتَان ، ثمّ إلى اللار ، ثمّ إلى خنج بال ، وقد تقدّم ذكر جميعها ، ثمّ سافرنا إلى كَارَزِي ، وأقمنا بها ثلاثاً ، ثمّ سافرنا إلى جَمَسْكَان ، ثمّ سافرنا منها إلى مَيْمَن ، ثمّ سافرنا إلى بَسَا ، ثمّ إلى مدينة شيراز ، فوجدنا سلطانها أبا إسحاق على ملكه ، إلاّ أنّه كان غائباً عنها ، ولقيتُ بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة ، وهو قد كُفّ بصره ، نفعه الله ونفع به .

ثمّ سافرتُ إلى ماين ، ثمّ إلى يزدخاص ، ثمّ إلى كَلِيل ، ثمّ إلى كُشْك زَر ، ثمّ إلى أصبهان ، ثمّ إلى تُسْتَر ، ثمّ إلى الخويزا ، ثمّ إلى البصرة ، وقد تقدّم ذكرُ جميعها . وزرتُ بالبصرة القبور الكريمة التي بها ، وهي قبر الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وحليمة السعدية ، وأبي بكر ، وأنس بن مالك ، والحسن البصري ، وثابت البناني ، ومحمد بن سيرين ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن واسع ، وحبيب العجمي ، وسهل بن عبد الله التستري ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . ثمّ سافرنا من البصرة فوصلنا إلى مشهد علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وزرناه ، ثمّ توجهنا إلى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك ، ثمّ إلى الحلة حيث مشهدُ صاحب الزمان . واتفقَ في بعض تلك الأيام أن وليها بعضُ الأمراء فمنعَ أهلها من التوجّه على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك ، ومنعَ عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كلّ ليلة من الأمير فأصاب ذلك الوالي علةٌ مات منها سريعاً ، فزادَ ذلك في فتنة الرافضة . وقالوا : إنّما أصابه ذلك لأجل منعه الدابة ، فلم تُمنع بعد .

ثمّ سافرتُ إلى صرصر ، ثمّ إلى مدينة بغداد . وصَلّتها في شوال سنة ثمان وأربعين . ولقيتُ بها بعض المغاربة فعرفني بكائنة طريف ، واستيلاء الروم على الخضراء جبر الله صدع الإسلام في ذلك .

ذكر سلطان العراق

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمّة السلطان أبي سعيد ، رحمه الله ، ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوّج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجه ابن الأمير الجوبان ، حسبما كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوّج زوجة الشيخ حسن . وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد في هذه المدّة متوجّها لقتال السلطان أتابك افراسياب صاحب بلاد اللور .

ثمّ رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأنبار ، ثمّ إلى هيت ، ثمّ إلى الحديثة ، ثمّ إلى عانة ، وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثير العمارة ، كأنّ الماشي في سوق من الأسواق ، وقد ذكرنا أنّا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصّين إلّا هذه البلاد .

ثمّ وصلنا إلى مدينة الرحبة ، وهي التي تُنسب إلى مالك بن طوق ، ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ، ثمّ سافرنا منها إلى السخنة ، وهي بلدةٌ حسنةٌ أكثر سكّانها الكفّار من النصارى ، وإنّما سُمّيت السخنة لحرارة مائها ، وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمّون فيها ، ويستقون الماء ليلاً ، ويجعلونه في السطوح ليبرد ، ثمّ سافرنا إلى تدمر مدينة نبيّ الله سليمان ، عليه السلام ، التي بنتها له الجن كما قال النابغة : يبنون تدمر بالصّفّاح والعمد .

رجوعي إلى دمشق

ثمّ سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام ، وكانت مدّة مغيبتي عنها عشرين سنة كاملة ، وكنت تركتُ بها زوجةً لي حاملاً ، وتعرفت ، وأنا ببلاد الهند ، أنّها ولدت ولداً ذكراً ، فبعثتُ حينئذٍ إلى جدّه للأُم ، وكان من أهل مكناسة المغرب ، أربعين ديناراً ذهباً هندياً ، فحين وُصّولي إلى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي همٌ إلّا السؤال عن ولدي . فدخلتُ المسجد فوُتّق لي نور الدين السخاوي

إمامُ المالكيّة وكبيرُهم ، فسَلِمْتُ عليه فلم يعرفني ، فعَرَفْتُهُ بنفسِي ، وسألته عن الولد ، فقال : مات منذ ثنَي عشرة سنة، وأخبرني أن فقيهاً من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية ، فسرتُ إليه لأسأله عن والدي وأهلي ، فوجدتُه شيخاً كبيراً ، فسَلِمْتُ عليه وانتسبتُ له ، فأخبرني أن والدي تُوفي منذ خمس عشرة سنة ، وإن الوالدة بقيت الحياة .

وأقمتُ بدمشق الشام بقيّة السنة والغلاء شديد والخبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواقٍ بدرهم نقرة ، وأوقيتهم أربع أواقٍ مغربية ، وكان قاضي قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المسلاقي ، وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوي ، وقدمَ معه دمشق ، فعُرفَ بها ، ثمّ ولي القضاء وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين ابن السبكي ، وأمير دمشق ملك الأمراء ارغون شاه .

حكاية قتلى الخبز

وماتَ في تلك الأيام بعض كبراء دمشق وأوصى بمال للمساكين ، فكان المتولي لإنفاذ الوصيّة يشتري الخبز ويفرّقه عليهم كلّ يوم بعد العصر ، فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرّق عليهم ، ومدّوا أيديهم إلى خبز الحبّازين ، وبلغَ ذلك الأمير ارغون شاه ، فأخرجَ زبانيته ، فكانوا حيثُ ما لقوا أحداً من المساكين قالوا له : تعالَ تأخذ الخبز ، فاجتمعَ منهم عددٌ كثير فحبسهم تلك الليلة ، وركبَ من الغد ، وأحضرهم تحتَ القلعة ، وأمرَ بقطع أيديهم وأرجلهم ، وكان أكثرُهم براء عن ذلك ، وأخرجَ طائفة الحرافيش عن دمشق ، فانتقلوا إلى حمص وحماه وحلب ، وذُكِرَ لي أنه لم يعيش بعد ذلك إلاّ قليلاً وقتل .

ثمّ سافرتُ من دمشق إلى حمص ، ثمّ إلى حماه ، ثمّ إلى المعرة ، ثمّ إلى سَرمين ، ثمّ إلى حلب ، وكان أميرُ حلب في هذا العهد الحاجّ رُغْطَيّ .

حكاية الوباء المجتاح

واتفقَ في تلك الأيام أن فقيراً يُعرف بشيخ المشايخ ، وهو ساكن في جبل خارج مدينة عينتاب ، والناسُ يقصدونه وهم يتبركون به ، وله تلميذٌ ملازمٌ له ، وكان متجرداً عزباً لا زوجة له ، قال في بعض كلامه : إنَّ النبيَّ ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، كان لا يصبر عن النساء . وأنا أصبر عنهن ، فشُهد عليه بذلك ، وثبتَ عند القاضي ، ورُفِعَ أمرُهُ إلى ملك الأمراء ، وأُتي به وبتلميذه الموافق له على قوله ، فأفَى القضاة الأربعة ، وهم شهاب الدين المالكي وناصر الدين العديم الحنفي وتقي الدين بن الصائغ الشافعي وعزّ الدين دمشقي الحنبلي ، بقتلهما معاً ، فقتلا .

وفي أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين^١ بلغني الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزة ، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف في يوم واحد ، فسافرت إلى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يومٌ دخولي إليها نحو ثلاثمائة إنسان . ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس ، وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام ، وخرجوا يوم الجمعة إلى مسجد الأقدام ، حسبما ذكرناه في السفر الأول ، فخففَ الله الوباء عنهم ، فانتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة في اليوم .

ثم سافرتُ إلى عجلون . ثمَّ إلى بيت المقدس ، ووجدتُ الوباء قد ارتفعَ عنه ، ولقيتُ خطيبه عزّ الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر ، وهو من الفضلاء الكرماء . ومرتبهُ على الخطابة ألفُ درهم في الشهر .

حكاية نذر الخطيب

وصنَعَ الخطيب عز الدين يوماً دعوة ودعاني فيمن دعاه إليها . فسألته عن سببها ، فأخبرني أنه نذرَ أيام الوباء أنه إن ارتفعَ ذلك ومرَّ عليه يومٌ لا يصلي

١ سنة ١٣٤٨ م .

فيه على ميت صنع الدعوة . ثمّ قال لي : ولما كان بالأمس لم أصلّ على ميت ، فصنعت الدعوة التي نذرت .

ووجدتُ من كنتُ أعهدُه من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى ، رحمهم الله ، فلم يبقَ منهم إلاّ القليلُ مثلُ المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي ، ومثل الصالح شرف الدين الحُسَنيّ شيخ زاوية المسجد الأقصى .

ولقيتُ الشيخ سليمان الشيرازي فأضافني ، ولم ألقَ بالشام ومصر من وصلَ إلى قدم آدم ، عليه السلام ، سواه ، ثمّ سافرتُ عن القدس ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني ، وشيخُ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي ، فوصلنا إلى مدينة الخليل ، عليه السلام ، وزرناه ومن معه من الأنبياء ، عليهم السلام .

ثمّ سرنا إلى غزة فوجدنا معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء . وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين فبقي منهم الربع ، وإن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة في اليوم .

ثمّ سافرنا في البرّ فوصلتُ إلى دمياط ، ولقيتُ بها قطب الدين النقشواني ، وهو صائم الدهر ، ورافقني منها إلى فارسكور وسمتود ثمّ إلى أبي صير ، ونزلنا في زاوية لبعض المصريين بها .

حكاية الفقير الصائم

وبينما نحنُ بتلك الزاوية إذ دخلَ علينا أحد الفقراء فسلم ، وعرضنا عليه الطعام فأبى . وقال : إنّما قصدتُ زيارتكم ، ولم يزل ليلته تلك ساجداً وراكعاً ، ثمّ صلّينا الصبح ، واشتغلنا بالذكر ، والفقيرُ بركن الزاوية ، فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه . فمضى إليه فوجده ميتاً ، فصلّينا عليه ودفنناه ، رحمة الله عليه .

ثمّ سافرتُ إلى المحلّة الكبيرة، ثمّ إلى نَحْرَارِيّة ، ثمّ إلى ابيار ، ثمّ إلى دمنهور ، ثمّ إلى الإسكندريّة فوجدتُ الوباء قد خفّ بها بعد أن بلغَ عدد الموتى إلى ألف وثمانين في اليوم . ثمّ سافرتُ إلى القاهرة ، وبلغني أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفاً في اليوم ، ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا ، رحمهم الله تعالى .

ذكر سلطان مصر

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ، وبعد ذلك خُلِعَ عن الملك وولي أخوه الملك الصالح . ولما وصلتُ القاهرة وجدتُ قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة قد توجه إلى مكّة في ركب عظيم يُسمّونه الرّجبي ، لسفرهم في شهر رجب، وأخبرتُ أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة أيلة فارتفع عنهم . ثمّ سافرتُ من القاهرة على بلاد الصعيد ، وقد تقدّم ذكرها ، إلى عيذاب ، وركبتُ منها البحر ، فوصلتُ إلى جدّة ، ثمّ سافرتُ منها إلى مكّة ، شرفها الله تعالى وكرّمها ، فوصلتُها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين ، ونزلت في جوار إمام المالكيّة الصالح الولي الفاضل أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل ، فصمتُ شهر رمضان بمكّة ، وكنتُ أعتمرُ كلَّ يوم على مذهب الشافعي ، ولقيتُ ممّن أعهد من أسيانها شهاب الدين الحنفي ، وشهاب الدين الطبري ، وأبا محمد اليافعي ، ونجم الدين الأصفوني ، والحرازي ، وحججحت في تلك السنة .

ثمّ سافرتُ مع الركب الشامي إلى طيبة مدينة رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وزرتُ قبره المكرّم المطيّب زاده الله طيباً وتشريفاً ، وصليتُ في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيماً ، وزرتُ من بالبقيع من أصحاب الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، ورضي عنهم ، ولقيتُ من الأشياخ أبا محمد بن فرحون .

ثمّ سافرنا من المدينة الشريفة إلى العُلا وتَبوك ، ثمّ إلى بيت المقدس ،
 ثمّ إلى مدينة الخليل ، صلّى الله عليه وسلّم ، ثمّ إلى غزة ، ثمّ إلى منازل الرمل ،
 وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلّهُ ، ثمّ إلى القاهرة ، وهناك تعرّفنا أن مولانا أميرَ
 المؤمنين وناصر الدين المتوكّل على ربّ العالمين أبا عنان أيّده الله تعالى قد ضمّ
 اللهُ به نشرَ الدولة المَرينيّة ، وشفى ببركته ، بعدَ إشفائها ، البلادَ المغربيّة ،
 وأفاضَ الإحسانَ على الخاصّ والعام ، وغمرَ جميعَ الناسَ بسابغِ الإنعام .
 فتشوّفت النفوسُ إلى المثلِ ببابه ، وأمّلتْ لثمّ ركباه ، فعند ذلك قصّدتُ القدومَ
 على حضرتِهِ العليّة . مع ما شاقني من تذكّار الأوطان والحنين إلى الأهل والخلان
 والمحبة إلى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان :

بلادُ بها نَيطَنتُ عليّ تَمائمي ، وأوّلُ أرضٍ مَسَّ جِلدي تَرَابُها

فرَكبتُ البحرَ في قرقورة لبعضِ التونسيّين صَغيرة ، وذلك في صفر سنة
 خمسَين^١ ، وسرتُ حتّى نزلت بِجربة ، وسافرَ المركبُ المذكورُ إلى تونس فاستولى
 العدوُّ عليه ، ثمّ سافرتُ في مركبٍ صَغيرٍ إلى قابس ، فنزلتُ في ضيافة الأخوين
 الفاضلين أبي مروان وأبي العبّاس ابني مكّي أميرِ جربة وقابس ، وحضرتُ
 عندهما مولدَ رسولِ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ثمّ رَكبتُ في مركبٍ إلى
 سفاقس . ثمّ توجّهتُ في البحرِ إلى بُلَيّانة ، ومنها سرتُ في البرِ مع العرب .
 فوصّلتُ بعدَ مشقّاتٍ إلى مدينة تونس ، والعرب محاصرون لها .

ذكر سلطان تونس

وكانت تونس في إِيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين ، المجاهد في سبيلِ
 ربّ العالمين ، علم الأعلام وأوحد الملوك الكرام ، أسد الآساد وجواد الأجواد ،
 القانت الأواب ، الخاشع العادل ، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد

١ سنة ١٣٤٩ م .

في سبيل ربّ العالمين ، ناصر دين الإسلام الذي سارت الأمثال بجوده وشاع في الأقطار أثرُ كرمه وفضله ، ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر ، الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين ، المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، قاهر الكفّار ومبيدها ، ومبدي آثار الجهاد ومعيدها ، ناصر الإيمان ، الشديد السطوة في ذات الرحمن ، العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبي يوسف بن عبد الحقّ ، رضي الله عنهم أجمعين ، وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين .

ولمّا وصَلْتُ تونس قصدتُ الحاج أبا الحسن الناميسي لِمَا بيّني وبينه من مواتِ القرابة والبلدية . فأُنزِلني بداره وتوجّه معي إلى المِشور ، فدخلتُ المشور الكريم ، وقبَلْتُ يد مولانا أبي الحسن . رضي الله عنه ، وأمرني بالعودة ، فقعدتُ ، وسألني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر ، فأجبته . وسألني عن ابن تيفراجين ، فأخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالإسكندرية ، وما لقي من أذاتهم انتصاراً منهم لمولانا أبي الحسن ، رضي الله عنه .

وكان في مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السطّي ، والإمام أبو عبد الله محمد بن الصبّاغ ، ومن أهل تونس قاضيهما أبو عليّ عمر بن عبد الرّبيع ، وأبو عبد الله بن هارون ، وانصرفتُ عن المجلس الكريم ، فلمّا كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن ، وهو ببرز يُشرفُ على موضع القتال ، ومعه الشيوخ الحِلّة : أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التّنالقي ، وأبو حسون زيان ابن أمريون العلوي ، وأبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري ، والحاج أبو الحسن الناميسي ، فسألني عن ملك الهند ، فأجبته عمّا سأل ، ولم أزل أتردّد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس ، وكانت ستّة وثلاثين يوماً . ولقيتُ بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم أبا عبد الله الأُبُلّي . وكان في فراش المرض . وباحثني عن كثير من أمور رحلتي .

ثمّ سافرتُ من تونس في البحر مع القَطْلانيين . فوصلنا إلى جزيرة سَرْدانية

من جزر الروم ، ولما مرسى عجيب . عليه خشبٌ كبارٌ دائرةٌ به ، وله مدخلٌ كأنه بابٌ لا يُفتح إلا بإذن منهم ، وفيها حصونٌ دخلنا أحدها ، وبه أسواقٌ كثيرةٌ ، ونذرتُ لله تعالى ، إن خلّصنا الله منها ، صوم شهرين متتابعين لأننا تعرّفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا ، إذا خرجنا عنها ، ليأسرونا .

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشرٍ إلى مدينة تنس ، ثم إلى مازونة ، ثم إلى مستغانم . ثم إلى تليسان ، فقصدتُ العباد ، وزرتُ الشيخ أبا مدين ، رضي الله عنه ، ونفّع به ، ثم خرجتُ عنها على طريق مدرومة ، وسلكتُ طريقَ اخندقان ، وبتُ بزواية الشيخ إبراهيم .

ثم سافرنا منها فيينما نحنُ بقرب ازغنغان خرجَ علينا خمسون راجلاً وفارسان ، وكان معي الحاج ابنُ قريعات الطنجي ، وأخوه محمد المُستَشْهَد بعد ذلك في البحر ، فعزّمنا على قتالهم ، ورفعنا علماً ، ثم سالمونا وسالمناهم ، والحمدُ لله .

ووصلتُ إلى مدينة تازي . وبها تعرّفتُ خبرَ موت والدتي بالبواء ، رحمها الله تعالى . ثم سافرتُ عن تازي فوصلتُ يوم الجمعة ، في أواخر شهر شعبان المكرّم من عام خمسين وسبعمائة . إلى حضرة فاس ، فملت بين يدي مولانا الأعظم الإمام الأكرم أمير المؤمنين المتوكّل على ربّ العالمين أبي عنان ، وصلّ الله علوه وكتبَ عدوه . فأُنسِيتُ هيبته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند . وحسنُ أخلاقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك . وحلمه حلم ملك الروم . وديانته ديانة ملك تركستان . وعلمه علم ملك الجاوة ؛ وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة أبو زيان بن ودرار ، فسألني عن الديار المصرية ، إذ كان قد وصل إليها ، فأجبتُه عما سأل وغمرني من إحسان مولانا ، أيّده الله تعالى ، بما أعجزني شكره . والله ولي مكافأته .

وأقيتُ عصا التسيار ببلاده الشريفة ، بعد أن تحقّقت بفضل الإنصاف

أنّها أحسنُ البلدان لأنّ الفواكه بها متيسّرة ، والمياه والأقوات غير متعدّرة ،
وقلّ لإقليمٍ يجمعُ ذلك كلّهُ ، ولقد أحسنَ من قال :

الغَرْبُ أَحْسَنُ أَرْضٍ وَلِي دَلِيلٌ عَلَيْهِ
الْبَدْرُ يُرْقَبُ مِنْهُ ، وَالشَّمْسُ تَسْعَى إِلَيْهِ

ودراهمُ الغربِ صغيرة وفوائدها كثيرة ، وإذا تأملتُ أسعاره مع أسعار
ديار مصر والشام ظهرَ لك الحقّ في ذلك ، ولا حَ فضلُ بلاد المغرب ، فأقول :
إن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثماني عشرة أوقية بدرهم نقرة ، والدراهم
النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب ، وبالمغرب يباعُ اللحم ، إذا غلا سعره ،
ثماني عشرة أوقية بدرهمين ، وهما ثلث النقرة ، وأمّا السمنُ فلا يوجد بمصر
في أكثر الأوقات ، والذي يستعمله أهلُ مصر من أنواع الإدام لا يُلْتَفَتُ إليه
بالمغرب ، ولأنّ أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات ،
ويجعلون عليه السيرج والبَسِيلَ ، وهو صنفٌ من الحُلبان ، يطبخونه ويجعلون
عليه الزيت . والقرعُ يطبخونه ويخلطونه باللبن ، والبقلةُ الحمقاء يطبخونها
كذلك ، وأعين أغصان اللوز يطبخونها ، ويجعلون عليها اللبن ، والقلقاسُ
يطبخونه ، وهذا كلّهُ متيسّر بالمغرب . لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن
والزبد والعسل وسوى ذلك .

وأما الخضر فهي أقلّ الأشياء ببلاد مصر ، وأمّا الفواكه فأكثرُها مجلوبة
من الشام ، وأمّا العنب فإذا كان رخيصاً بيعَ عندهم ثلاثة أرتال من أرتالهم
بدرهم نقرة ، ورطلهم ثنتا عشرة أوقية ، وأمّا بلاد الشام فالفواكهُ بها كثيرةٌ
إلاّ أنّها ببلاد المغرب أرخص منها ثمناً ، فإنّ العنبَ يباعُ بها بحساب رطل من
أرتالهم بدرهم نقرة ، ورطلهم ثلاثة أرتال مغربية ، وإذا رخصَ ثمنه بيعَ
بحساب رطلين بدرهم نقرة ، والاجاصُ يُباعُ بحساب عشر أواقٍ بدرهم
نقرة ، وأمّا الرمان والسفّرجل فتُباعُ الحبةُ منه بثمانية فلوس ، وهي درهم

من دراهم المغرب ، وأما الخضر فيُباع بالدرهم النقرة منها أقلّ ممّا يُباع في بلادنا بالدرهم الصغير ، وأما اللحمُ فيُباعُ فيها الرطلُ منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة ، فإذا تأملتَ ذلك كلّهُ تبينَ لك أن بلاد المغرب أرخصُ البلاد أسعاراً ، وأكثرُها خيرات ، وأعظمُها مرافق وفوائد .

ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً إلى شرفها وفضلاً إلى فضلها بإمامة مولانا أمير المؤمنين الذي مدّ ظلالَ الأمن في أقطارها ، وأطلعَ شمسَ العدل في أرجائها ، وأفاضَ سحابَ الإحسان في باديتها وحاضرتها ، وطهرَها من المفسدين وأقامَ بها رسومَ الدنيا والدين . وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته ، واشتغاله بالعلم ، وتفقهه ، وصدقته الجارية ، ورفع المظالم .

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

أما عدله فأشهرُ من أن يُسطرَ في كتاب ، فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يومَ الجمعة للمساكين منهم ، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء ، وتقديمه النساء لضعفهن ، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، ومن وصلت نوبتها نودي باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة ، فإن كانت متظلّمة عجّلَ إنصافها ، أو طالبة إحسان وقعَ إسعافها ، ثمّ إذا صلّيت العصر قرئت قصصُ الرجال ، وفُعل مثلُ ذلك فيها .

ويحضرُ المجلس الفقهاء والقضاةُ فيردّ إليهم ما تعلّق بالأحكام الشرعيّة ، وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام ، ويظهرُ فيه مثلَ هذا العدل ، فإنّ ملك الهند عيّنَ بعضَ أمرائه لأخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها إليه دون حضور أربابها بين يديه ، وأما حلمه فقد شاهدتُ منه العجائب ، فإنّه أيّده الله عفا عن الكثير ممّن تعرّضَ لقتال عساكره والمخالفة عليه ، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلّا من وثّقَ برّبه وعليمَ علمَ اليقين معنى قوله تعالى : والعافين عن الناس .

قال ابن جزري : من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا ، أيده الله ، أني منذ قدومي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين^١ إلى هذا العهد ، وهو أوائل عام سبعة وخمسين^٢ ، لم أشاهد أحداً أمرَ بقتله إلا من قتلته الشرع في حد من حدود الله تعالى قصاص أو حراة^٣ هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف ، ولم يُسمع بمثل ذلك في ما تقدّم من الأعصار . ولا فيما تباعد من الأقطار .

وأما شجاعته فقد عليم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والإقدام مثل يوم قتال بني عبد الوادي وغيرهم ، ولقد سمعتُ خبر ذلك اليوم ببلاد السودان ، وذكر ذلك عند سلطانهم ، فقال : هكذا وإلا فلا .

قال ابن جزري : لم يزل الملوك الأقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الأعادي ، ومولانا ، أيده الله ، كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد ، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوزسلا وتحامته الأبطال . وفرت أمامه الفرسان والرجال . برز إليه مولانا ، أيده الله ، غير محتفل به ، ولا متهيب منه ، فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خر بها صريعاً لليدين وللحم . وأما هزائم الأعادي فإنما اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم ، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال . وأما مولانا ، أيده الله ، فإنه أقدم على عدوه منفرداً بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل ، فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الأعداء . وانهمزوا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين ، وما هو إلا ثمرة ما يمتن به ، أعلي مقامه ، من التوكّل على الله والتفويض إليه .

١ سنة ١٣٥٢ م .

٢ سنة ١٣٥٦ م .

٣ لم نجد لفظة حراة في المعاجم ولملّه أراد بها المحاربة .

وأما اشتغاله بالعلم فيها هو ، أيده الله تعالى ، يعقد مجالس العلم في كل يوم ، بعد صلاة الصبح ، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم ، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، وفروع مذهب مالك ، رضي الله عنه ، وكتب المتصوفة ، وفي كل علم منها له القيد المعلى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقي نكته الرائقة من حفظه ، وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين . ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية ، فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه ، بعد صلاة الصبح ، في العلوم المعقولات خاصة ، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه ، بعد صلاة الجمعة ، في الفروع على مذهب الشافعي خاصة ، وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الآخرة والصبح في الجماعة حتى رأيت ملازمة مولانا ، أيده الله ، في الصلوات كلها في الجماعة وقيام رمضان ، والله يختص برحمته من يشاء .

قال ابن جزري : لو أن عالماً ليس له شغل إلا بالعلم ليلاً ونهاراً لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا ، أيده الله ، في العلوم مع اشتغاله بأمور الأمة ، وتديره لسياسة الأقاليم النائية ، ومباشرته من حال ملوكها ما لم يباشره أحد من الملوك ، ونظره بنفسه في شكايات المظلومين ، ومع ذلك كله ، فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم في أي علم كان إلا جلا مشكلها ، وباحت في دقائقها ، واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها ، ثم سما ، أيده الله ، إلى العلم الشريف التصوفي ، ففهم إشارات القوم ، وتخلق بأخلاقهم ، وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعة وشفقته على رعيته ورفقه في أمره كله ، وأعطى للآداب حظاً جزيلاً من نفسه ، فاستعمل أحسنها منزعاً ، وأعظمها موقعاً . وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة . روضة سيد المرسلين ، وشفيع المذنبين ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكتبهما بخط يده الذي يسجل الروض حسناً ، وذلك شيء

لم يتعاطَ أحدٌ من ملوك الزمان لإنشاءه ، ولا رامَ إدراكه .
ومن تأملَ التوقيعات الصادرة عنه ، أيده الله تعالى ، وأحاطَ علماً بمحصولها ،
لاحَ له فضلٌ ما وهبَ الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها ، وجمعَ له بينَ
الطبيعي والمكتسب منها ، وأما صدقاته الجارية ، وما أمرَ به من عمارة الزوايا
بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر ، فذلك ما لم يفعله أحدٌ من الملوك
غير السلطان أتابك أحمد ، وقد زادَ عليه مولانا ، أيده الله ، بالتصدق على
المساكين بالطعام كلَّ يوم ، والتصدق بالزرع على المستترين من أهل البيوت .
قال ابن جزّي : اخترَعَ مولانا ، أيده الله ، في الكرم والصدقات أموراً
لم تخطر في الأوهام ، ولا اهتدت إليها السلاطين : فمنها إجراء الصدقات على
المساكين بكلِّ بلد من بلاده على الدوام ، ومنها تعيينُ الصدقة الوافرة للمسجونين في
جميع البلاد أيضاً ، ومنها كونُ تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً متيسراً للانتفاع به ،
ومنها كسوةُ المساكين والضعفاء والعجائز والمشايع والملازمين للمساجد بجميع
بلادها ؛ ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى ، ومنها التصديق
بما يجتمع في مجاني أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان لإكراماً لذلك
اليوم الكريم ، وقياماً بحقه ؛ ومنها إطعامُ الناس في جميع البلاد ليلة المولد
الكريم ، واجتماعهم لإقامة رسمه ؛ ومنها إعدارُ^١ اليتامى من الصبيان وكسوتهم
يوم عاشوراء ؛ ومنها صدقته على الزمّنى والضعفاء بأزواج^٢ الحرث يقيمون
بها أودهم ؛ ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف^٣
الحياد يفترشونها عند رقادهم ، وتلك مكرمة لا يُعلم لها نظير ؛ ومنها بناء

.....

١ الاعذار : الختن .

٢ قوله : بأزواج ، هكذا في الأصل ، ولم ندر ما المراد من هذه اللفظة هنا ، ولعلها محرفة عن
إرواح فيكون المعنى : برد الأرض التي تستنبت عليهم .

٣ الطنافس ، الواحدة طنفسة : البساط والحصير . القطائف ، الواحدة قطيفة : الدثار من مخمل .

المارستانات في كل بلد من بلاده ، وتعينُ الأوقاف الكثيرة لمُؤن المرضى ،
وتعينُ الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طبّهم . إلى غير ذلك ممّا أبدع فيه من
أنواع المكارم وضروب المآثر ، كافأ الله أيّاديه وشكّر نعمه .

وأما رفعه للمظالم عن الرعيّة : فمنها الرتبُ التي كانت تؤخذ بالطرقات
أمر ، أيّده الله ، بمحو رسمها ، وكان لها مسجى عظيم ، فلم يلتفت إليه ،
وما عند الله خيرٌ وأبقى ؛ وأما كفّه أيدي الظلام فأمر مشهور ، وقد سمعته ،
أيّده الله ، يقولُ لعمّاله : لا تظلموا الرعيّة ، ويؤكد عليهم في تلك الوصيّة .
قال ابنُ جُزَي : ولو لم يكن من رفق مولانا ، أيّده الله ، برعيّته إلّا رفعه
التضييف الذي كانت عمّال الزكاة وولاة البلاد تأخذنه من الرعايا لكفى ذلك
أثراً في العدل ظاهراً ونوراً في الرفق باهراً ، فكيف وقد رفع من المظالم وبسط
من المرافق ما لا يُحيطُ به الحصر .

وقد صدّر في أيّام تصنيف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسجونين
ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم ما هو اللائق بإحسانه والمعهود
من رأفته ، وشمل الأمرُ بذلك جميعَ الأقطار ، وكذلك صدّر من التنكيل بمن
ثبت جورهم من القضاة والحكّام ما فيه زجرُ الظلّمة وردعُ المعتدين ؛ وأما فعله
في معاونة أهل الأندلس على الجهاد ومحافظته على إمداد الثغور بالأموال والأقوات
والسلاح ، وفتّه في عضدِ العدو بإعداد العدد وإظهارِ القوة ، فذلك أمرٌ شهيرٌ
لم يغيب علمه عن أهل المغرب والمشرق ، ولا سبق إليه أحدٌ من الملوك .

قال ابنُ جُزَي : حسبُ المتشوّف إلى عِلِم ما عند مولانا ، أيّده الله ،
من سدادِ القطر للمسلمين ، ودفاعِ القوم الكافرين ، ما فعله في فداء مدينة طرابلس
افريقية ، فإنّها لما استولى العدو عليها ، ومدّ يدَ العدوان إليها ، ورأى ، أيّده
الله ، أن يبعثَ الجيوش إلى نصرتها لا يتأتّى لبعد الأقطار ، كتبَ إلى خدّامه
ببلاد افريقية أن يفدوها بالمال ، ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين ، فلمّا
بلغه خبرُ ذلك قال : الحمدُ لله الذي استرجعها من أيدي الكفّار بهذا النّز

اليسير ! وأمرّ للحين ببَعَثِ ذلك العدد إلى إفريقية . وعادت المدينة إلى الإسلام على يديه . ولم يخطر في الأوهام أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرأ يسيراً ، حتى جاء بها مولانا ، أيّده الله . مكرّمةً بعيدةً ومأثرةً فائقةً ، قلّ في الملوك أمثالها وعزّ عليهم مثاليها .

وممّا شاع من أفعال مولانا . أيّده الله . في الجهاد . إنشاؤه الأجفانَ بجميع السواحل واستكثاره من عُدَدِ البحر . وهذا في زمان الصلح والمهادنة . إعداداً لأيام الغزاة . وأخذاً بالحزم في قطع أطماع الكفّار . وأكدّ ذلك بتوجّهه ، أيّده الله . بنفسه إلى جبال جاناته في العام الفارط ليباشرَ قطعَ الخشب للأنشاء . ويُظهرَ قدرَ ما لّه بذلك من الاعتناء . ويتولّى بذاته أعمالَ الجهاد مترجياً ثوابَ الله تعالى . وموقناً بحسن الجزاء .

ومن أعظم حسناته . أيّده الله . عمارةُ المسجد الحديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلي . وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب . وعمارةُ المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر ممّا يُجاورُ قصبة فاس . ولا نظيرَ لها في المعمورة اتساعاً وحسناً وإبداعاً وكثرة ماء وحسن وضع . ولم أرَ في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها . وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمّص خارج المدينة البيضاء ، فلا مثلَ لها أيضاً في عجيب وضعها ، وبديع صنعها . وأبدعُ زاوية رأيتها بالشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر وهذه أبدعُ منها وأشدّ إحكاماً وإتقاناً والله سبحانه ينفعُ مولانا . أيّده الله . بمقاصده الشريفة . ويكافئ فضائله المنيفة . ويُديمُ للإسلام والمسلمين أيامه . وينصرُ ألويته المظفرة وأعلامه .

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول : ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام الكريم وعميتي فضلُ إحسانه العميم ، قصدتُ زيارة قبر الوالدة فوصلتُ إلى بلدة طنجة . وزرتها . وتوجّهتُ إلى مدينة سبتة . فأقمتُ بها شهراً . وأصابني بها المرضُ ثلاثة أشهر . ثمّ عافاني الله فأردتُ أن يكونَ لي حظّ من الجهاد والرباط .

فركبتُ البحرَ من سبّته في شطّي لأهل أصيلا ، فوصلتُ إلى بلاد الأندلس ،
حرّسها الله تعالى ، حيثُ الأجرُ موفورٌ للساكن ، والثوابُ مذخورٌ للمقيم
والظاعن ، وكان ذلك إثرَ موت طاغية الروم الفونس ، وحصاره الجبل عشرةَ
أشهر ، وظنّه أنّه يستولي على ما بقي من بلاد الأندلس للمسلمين ، فأخذّه الله
من حيثُ لم يحتسب ، وماتَ بالوباء الذي كان أشدّ الناس خوفاً منه .

وأول بلد شاهده من البلاد الأندلسيّة جبلُ الفتح . فلقيتُ به خطيبه الفاضل
أبا زكريّا يحيى بن السراج الرندي . وقاضيه عيسى البربري ، وعنده نزلت ،
وتطوّفتُ معه على الجبل ، فرأيتُ عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن . رضي الله
عنه ، وأعدّ فيه من العدد ، وما زادَ على ذلك مولانا ، أيّده الله ، وودّدت
أن لو كنتُ ممّن رابطَ به إلى نهاية العمر .

قال ابن جزّي : جبلُ الفتح هو مسعقلُ الإسلام المعترضُ شجّي في
حلق عبدة الأصنام . حسنة مولانا أبي الحسن ، رضي الله عنه . المنسوبة إليه ،
وقربته التي قدّمها نوراً بين يديه . محلّ عدد الجهاد . ومقرّ آساد الأجناد ،
والشعرُ الذي افتّر عن نصر الإيمان ، وأذاقَ أهلَ الأندلس ، بعد مرارة الخوف ،
حلاوة الأمان . ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر ، وبه نزل طارق بن زياد ، مولى
موسى بن نصير . عند جوازه ، فنُسب إليه فيقال له : جبل طارق وجبل الفتح ،
لأنّ مبدأه كان منه .

وبقيا السور الذي بناه ومن معه باقية إلى الآن تسمّى بسور العرب شاهدها
أيّام إقامتي به عند حصار الجزيرة . أعادها الله ، ثمّ فتحه مولانا أبو الحسن ،
رضوانُ الله عليه ، واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفاً ،
وبعثَ إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك . وأيدّه بالأموال الطائلة والعساكر
الجرّارة . وكان فتحه بعد حصار ستّة أشهر . وذلك في عام ثلاثة وثلاثين

١ قوله : شطي لأهل أصيلا ، يدل على أنه مركب لأهل أصيلا يسير على الشلوط .

وسبعمائة^١ ، ولم يكن حينئذٍ على ما هو الآن عليه ، فبنى به مولانا أبو الحسن ، رحمة الله عليه ، المأثرة العظمى بأعلى الحصن . وكانت قبل ذلك برجاً صغيراً تهدم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه ، وبنى به دار الصناعة ، ولم يكن به دار صنعة ، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة ، ثم جدّد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان ، أيّده الله ، عهد تحصينه وتحسينه ، وزاد بناء السور بطرف الفتح ، وهو أعظم أسواره غناء وأعمّها نفعاً ، وبعث إليه العدد الوفرة والأقوات والمرافق العامة ، وعامل الله تعالى فيه بحُسن النية وصدق الإخلاص .

ولما كان في الأشهر الأخيرة من عام ستّة وخمسين^٢ وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا ، أيّده الله ، وثمرة توكله في أموره على الله ، وبأنّ مصداق ما اطّرد له من السعادة الكافية ، وذلك أنّ عامل الجبل الخائن ، الذي ختّم له بالشقاء ، عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزّع يده المغلولة عن الطاعة وفارق عصمة الجماعة وأظهر النفاق ، وجمّع في الغدر والشقاق ، وتعاطى ما ليس من رجاله ، وعمي عن مبدل حاله السيء ومآله ، وتوهّم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تُنفق على إطفائها كرائم الأموال ، ويُستعدّ لانتقامها بالفرسان والرجال ، فحكمت سعادة مولانا ، أيّده الله ، ببطلان هذا التوهم ، وقضى صدق يقينه بالخراب العادة في هذه الفتنة ، فلم تكن إلّا أيام يسيرة ، وراجع أهل الجبل بصائرهم ، وثاروا على الثائر ، وخالفوا الشقيّ المخالف ، وقاموا بالواجب من الطاعة ، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق ، وأتي بهما مصفّدان إلى الحضرة العلية ، فنفدّ فيهما حكم الله في المحاربين ، وأراح الله من شرّهما .

١ سنة ١٣٣٢ م .

٢ سنة ١٣٥٥ م .

ولما خَتمَت نارُ الفتنَةِ أَظهَرَ مولانا ، أَيُّدَهُ اللهُ ، من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن في حساب أهلها ، وبعثَ إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشَدَ أبا بكر المدعو من السَّمات السلطانيَّة بالسعيد ، أسعدَهُ اللهُ تعالى ، وبعثَ معه أنجادَ الفرسان ووُجوه القبائل وكُفاة الرجال ، وأدَرَّ عليهم الأرزاق ، ووسَّعَ لهم الإقطاع . وحرَّرَ بلادهم من المغارم ، وبذلَ لهم جزيلَ الإحسان . وبلغَ من اهتمامه بأُمور الجبل أن أَمَرَ ، أَيُّدَهُ اللهُ ، ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور ، فمُثِّلَ فيه أشكالُ أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنّعه ومساجده ومخازن عُدَدِهِ وأهرية زرعهِ ؛ وصورةُ الجبل وما اتَّصلَ به من التربة الحمراء ، فصُنِعَ ذلك بالمِشور السعيد ، فكان شكلاً عَجيباً أَتقنه الصنَّاعُ إتقاناً يَعْرِفُ قدرَهُ من شاهدَ الجبل ، وشاهدَ هذا المثل ، وما ذلك إلا لتَشوُّقِهِ ، أَيُّدَهُ اللهُ ، إلى استطلاع أحواله ، وتَهَمُّمِهِ بِتَحْصِينِهِ وإعدادِهِ ، والله تعالى يجعل نصرَ الإسلام بالجزيرة الغربيَّة على يديه ويحقِّقُ ما يَؤمِّلُهُ في فتح بلاد الكُفَرِ وشَتَّ شملِ عُبُودِ الصليب . وتذكرتُ حين هذا التقييد قولَ الأديب البليغ المفلح أبي عبد الله محمد بن غالب الرصافي البُلنسي ، رحمه الله ، في وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن عليٍّ أَوَّلِها :

لَوْ جِئْتَ نارَ الهُدَى من جانبِ الطُّورِ قَبَسْتَ ما شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نورٍ
وفيها يقول في وصف الجبل ، وهو من البديع الذي لم يُسبق إليه ، بعدَ
وصفه السِّفنَ وجوازَها :

حَتَّى رَمَتْ جَبَلَ الفَتَحَيْنِ مِنْ جَبَلٍ مُعْظَمِ القَدَرِ في الأَجْبالِ مَذْكورِ
من شامخِ الأنفِ في سَحائِهِ طُلُوسٌ لَهُ مِنَ الغَيْمِ جَيْبٌ غَيْرُ مَزْرُورِ
تُمنِّي النَّجُومُ عَلَى تَسْكِيلِ مَفْرِقِهِ في الحَوِّ حائِمَةً مِثْلَ الدَّنانِيرِ

١ السحناء : الحية واللون . الطلس ، الواحدة طلسة : غيرة في سواد ، والسحابة الرقيقة .

فَرُبَّمَا مَسَحَتْهُ مِنْ ذَوَائِبِهَا
وَأَدْرَدٍ مِنْ ثَنَائِيَاهُ بِمَا أَخَذَتْ
مُحَنِّكَ حَلَبَ الْإِيَّامِ أَشْطَرَهَا
مُقَيِّدِ الْخَطْوِ جَوَّالِ الْخَوَاطِيرِ فِي
قَدِّ وَاصِلِ الصَّمْتِ وَالْإِطْرَاقِ مَفْتَكِرًا
كَثَائِهِ مُسْكَمِدًا مِمَّا تَعَبَّدَهُ
أَخْلِقُ بِهِ وَجِبَالُ الْأَرْضِ رَاجِفَةً
بِكُلِّ فَضْلٍ عَلَى فَوْدَيْهِ مَسْجُورٍ
مِنْهُ مَعَاجِمُ أَعْوَادِ الدَّهَارِ
وَسَاقَهَا سَوَّاقِ حَادِي الْعِيرِ لِلْعِيرِ
عَجِيبِ أَمْرِيهِ مِنْ مَاضٍ وَمَسْطُورِ
بَادِي السَّكِينَةِ مُصَفَّرِ الْأَسَارِ
خَوَفِ الْوَعِيدِينَ مِنْ دَكِّ وَتَسْيِيرِ
أَنْ يَطْمَئِنَّ غَدَاً مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ

ثم استمر في قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علي .
قال ابن جزري : ولنعد إلى كلام الشيخ أبي عبد الله قال : ثم خرجت
من جبل الفتح إلى مدينة رُنْدَة ، وهي من أمتع معاقل المسلمين وأجملها وضعا ،
وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكري ، وقاضيه ابن
عمي الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة ، ولقيت بها الفقيه القاضي
الأديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري ، وأضافني بمنزله ، ولقيت
بها أيضاً خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشندرخ ،
المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ، ولقيت بها جماعة من الصالحين
منهم عبد الله الصفّار وسواه .

وأقمت بها خمسة أيام ، ثم سافرت منها إلى مدينة مَرَبْلَة ، والطريقُ فيما
بينهما صعبٌ شديدُ الوعورة ، ومَرَبْلَة بُلَيْدَة حسنة خصبة ، ووجدت بها جماعة
من الفرسان متوجهين إلى مالقة ، فأردتُ التوجه في صحبتهم ، ثم إن الله تعالى
عصمني بفضله ، فتوجهوا قبلي فأسروا في الطريق ، كما سنذكره ، وخرجتُ

١ قوله : ذلك إشارة إلى ما جاء في الآية ٢١ من سورة الفجر : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا »
أي صارت هباءً مثنوراً يوم القيامة ؛ وفي قوله تسيير إشارة إلى ما جاء في الآية العاشرة من سورة
الطور « وتسير الجبال سيرا » أي تزلزل حتى ينهدم كل بناء عليها وتندم « تفسير الجلالين » .

في أثرهم ، فلما جاوزت حوز مربلة ودخلت في حوز سهيل مررت بفرس
ميت في بعض الحنادق ، ثم مررت بقفّة حوت مطروحة بالأرض ، فرايتني
ذلك ، وكان أمامي برج الناظور ، فقلت في نفسي : لو ظهر هاهنا عدو لأنذّر
به صاحب البرج ، ثم تقدّمت إلى دار هنالك فوجدت فرساً مقتولاً ،
فبينما أنا هنالك سمعت الصياح من خلفي وكنت قد تقدّمت أصحابي ،
فعدت إليهم ، فوجدت معهم قائد حصن سهيل فأعلمني أن أربعة أجفان للعدو
ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها إلى البرّ ، ولم يكن الناظور بالبرج ، فمرّ
بهم الفرسان الخارجون من مربلة ، وكانوا اثني عشر ، فقتل النصاري أحدهم
وفرّ واحد وأسّر العشرة ، وقتل معهم رجل حوّا ، وهو الذي وجدت
قفّته مطروحة بالأرض ، وأشار عليّ ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ليوصلني
منه إلى مالقة ، فبتّ عنده بحصن الرابطة المنسوبة إلى سهيل ، والأجفان المذكورة
مرساة عليه . وركب معي بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة إحدى قواعد الأندلس
وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البرّ والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ،
رأيت العنب يُباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير ، ورمّانها
المُرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا ، وأمّا التين واللوز فيُجلبان منها ومن
أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب .

قال ابن جرّزي : وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهّاب بن عليّ
المالقي في قوله ، وهو من ملبح التجنيس :

مَالِقَةٌ حَيَّتَ يَا تَيْنَهَا فالفُلُكُ مِنْ أَجْلِكَ يَاتِينَهَا
نَهَى طَبِيبِي عَنْكَ فِي عِلَّةٍ مَا لَطِيبِي عَنْ حَيَاتِي نَهَا

وذيلها قاضي الجماعة أبو عبد الله بن عبد الملك بقوله في قصد المجانسة :

وَحِمَصُ لَا تَنْسَ لَهَا تَيْنَهَا وَأَذْكَرُ مَعَ التَيْنِ زَيَاتِينَهَا

١ قوله : زياتينها ، أراد جمع زيتونة .

وبالقة يُصنعُ الفخارُ المذهبُ العجيبُ ، ويُجلبُ منها إلى أقاصي البلاد ،
ومسجدُها كبيرُ الساحة ، شهيرُ البركة ، وصحنُه لا نظيرَ له في الحسن ، فيه
أشجارُ النارج البعيدة ، ولما دخلتُ مالقة وجدتُ قاضيها الخطيبَ الفاضلَ أبا
عبد الله ابن خطيبها الفاضلَ أبي جعفر ابن خطيبها وليَّ الله تعالى أبي عبد الله
الطنجالي ، قاعداً بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس ، يجمعون مالا
برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم ، فقلتُ له : الحمدُ لله الذي عافاني ،
ولم يجعلني منهم ! وأخبرته بما اتفقَ لي بعدهم ، فعجبَ من ذلك ، وبعثَ إليَّ
بالضيافة ، رحمه الله ، وأضافني أيضاً خطيبُها أبو عبد الله الساحلي المعروف
بالمعمَّم .

ثمَّ سافرتُ منها إلى مدينة بَلَش ، وبينهما أربعةٌ وعشرون ميلاً ، وهي
مدينةٌ حسنةٌ بها مسجدٌ عجيبٌ ، وفيها الاعناب والفواكه والتين كمثل ما بمالقة .
ثمَّ سافرنا منها إلى الحَمَّة ، وهي بلدةٌ صغيرةٌ لها مسجدٌ بديعُ الوضع عجيبُ البناء ،
وبها العين الحارة على ضفَّة واديها ، وبينها وبين البلد ميل أو نحوه ، وهناك
بيتٌ لاستحمام الرجال ، وبيتٌ لاستحمام النساء .

ثمَّ سافرتُ منها إلى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها ،
وخارجُها لا نظيرَ له في بلاد الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شَتِيل
المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنان والرياض ، والقصورُ
والكرومُ محدةٌ بها من كلِّ جهة . ومن عجيب مواضعها عينُ الدمع ، وهو
جبلٌ فيه الرياض والبساتين لا مثيلَ له بسواها .

قال ابنُ جُزَي : لولا خشيتُ أن أنسبَ إلى العصبيَّة لأطلتُ القول في
وصف غرناطة ، فقد وجدتُ مكانه ، ولكن ما اشتهرَ كاشتهارها لا معنى لإطالة
القول فيه . والله درَّ شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي نزِيلَ غرناطة
حيثُ يقول :

رَعَى اللهُ مِنْ غَرْنَاطَةٍ مُتَبَوِّاً يَسُرُّ حَزِيناً أَوْ يُجِيرُ طَرِيداً

تَبَرَّمَ مِنْهَا صَاحِبِي عِنْدَمَا رَأَى مَسَارِحَهَا بِالثَّجَرِ عُدُنَ جَلِيدَا
هِيَ الثَّغْرُ صَبَانَ اللَّهُ مَنْ أَهْلَتْ بِهِ وَمَا خَيْرُ ثَغْرٍ لَا يَكُونُ بَرُودَا

ذكر سلطان غرناطة

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي إليها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ، ولم ألقه بسبب مرضٍ كان به ، وبعثت إليّ والدته الحرّة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفعت بها .

ولقيتُ بغرناطة جملةً من فضلائها منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي ، ومنهم فقيهها المدرّس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البيّاني ، ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب ، ومنهم قاضي الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن عبد الله بن إبراهيم السلمي البلعبي ، قدمَ عليها من المرية في تلك الأيام ، فوقعَ الاجتماعُ به في بستان الفقيه أبي القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم ، وأقمنا هنالك يومين وليلة . قال ابنُ جرّيّ : كنتُ معهم في ذلك البستان وأمتعنّا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ، وقيدتُ عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة ، وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجندامي ، ولهذا الفتى أمرٌ عجيب ، فإنه نشأ بالبادية ، ولم يطلب العلم ولا مارسَ الطلبة ، ثمّ أنّه نبغَ بالشعر الجيّد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله :

يَا مَنْ اخْتَارَ فُؤَادِي مَنَزِلًا بِبَابِهِ الْعَيْنُ الَّتِي تَرْمُقُهُ

١ ارتفعت بها : استمت بها .

فَتَحَ الْبَابَ سُهَادِي بَعْدَكُمْ فَابْعَثُوا طَيْفَكُمْ يُغْلِقُهُ

ولقيتُ بغرناطة شيخَ الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا عليّ عمر ابن الشيخ الصالح الولي أبي عبد الله محمد بن المحروق ، وأقمتُ أياماً بزاويته التي بخارج غرناطة ، وأكرمني أشدّ الإكرام ، وتوجّهتُ معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة ، المعروفة برابطة العقاب ، والعقاب جبلٌ مطلٌّ على خارج غرناطة ، وبينهما نحو ثمانية أميال ، وهو مجاور لمدينة التيرة الخربة ، ولقيتُ أيضاً ابنَ أخيه الفقيه أبا الحسن عليّ بن أحمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للحاج بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة ، المتصل بجبل السيكة ، وهو شيخ المتسبين من الفقهاء .

وبغرناطة جملةٌ من فقهاء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم ، منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندي ، والحاج أحمد التبريزي ، والحاج إبراهيم القونوي ، والحاج حسين الخراساني ، والحاجان عليّ ورشيد الهنديّان ، وسواهم .

ثمّ رحلتُ من غرناطة إلى الحمة ، ثمّ إلى بلّش ، ثمّ إلى مالقة ، ثمّ إلى حصن ذكوان ، وهو حصنٌ حسنٌ كثيرُ المياه والأشجار والفواكه ، ثمّ سافرتُ منه إلى رندة ، ثمّ إلى قرية بني رياح ، فأنزّلني شيخها أبو الحسن عليّ بن سليمان الرياحي ، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان يطعم الصادر والوارد ، وأضافني ضيافةً حسنة ، ثمّ سافرتُ إلى جبل الفتح ، وركبتُ البحر في الجفن الذي جزتُ فيه أولاً ، وهو لأهل أصيلا ، فوصلتُ إلى سبتة . وكان قائدّها إذ ذاك الشيخ أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور ، وقاضيتها الفقيه أبو محمد الزجندري .

ثمّ سافرتُ منها إلى أصيلا وأقمتُ بها شهوراً ، ثمّ سافرتُ منها إلى مدينة سلا ، ثمّ سافرتُ من سلا فوصلتُ إلى مدينة مراكش ، وهي من أجمل المدن فسيحة الأرجاء ، متسعة الأقطار ، كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين ، وبها الصومعة الهائلة العجيبة ،

صعدتُها وظهرَ لي جميع البلد منها ، وقد استولى عليه الخراب ، فما شبّهتهُ
إلاّ ببغداد ، إلا أن أسواق بغداد أحسنُ . وبمراكش المدرسة العجيبة التي
تميّزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة ، وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين
أبي الحسن ، رضوان الله عليه .

قال ابنُ جزّي : في مراكش يقول قاضيها الإمام التّائريخي أبو عبد الله
محمد بن عبد الملك الأوسي :

للهِ مَرَاكُشُ الْغُرَاءِ مِنْ بَلَدٍ ، وَحَبَبٌ أَهْلُهَا السَّادَاتُ مِنْ سَكَنٍ
إِنْ حَلَّهَا نَارِحُ الْأَوْطَانِ مُغْتَرِبٌ أَسْلَوْهُ بِالْأُنْسِ عَنْ أَهْلِ وَعَنْ وَطَنِ
بَيْنَ الْحَدِيثِ بَيْهَا أَوْ بِالْعِيَانِ لَهَا يَنْشَأُ التَّحَاسُدُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَذُنِ

ثمّ سافرنا من مراكش صحبة الركاب العلي ، ركاب مولانا ، أيّده الله ،
فوصلنا إلى مدينة سلا ، ثمّ إلى مدينة مكناسة العجيبة الحضرة النضرة ، ذات
البساتين والجنّات ، المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ، ثمّ وصلنا
إلى حضرة فاس ، حرسها الله تعالى ، فواعت بها مولانا ، أيّده الله ، وتوجهتُ
برسم السفر إلى بلاد السودان ، فوصلت إلى مدينة سجلماسة ، وهي من أحسن
المدن ، وبها التمر الكثير الطيّب ، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ، لكنّ
تمر سجلماسة أطيبُ ، وصنفُ إيراد منه لا نظير له في البلاد . ونزلتُ منها عند
الفقيه أبي محمد البشري ، وهو الذي لقيتُ أخاه بمدينة قَنَجَسْنُفُو من بلاد
الصين ، فيها شدّ ما تباعدا ، فأكرمني غاية الإكرام ، واشتريتُ بها الجمال ،
وعلفتها أربعة أشهر .

ثمّ سافرتُ في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين^٢ في رفقة مقدّمها
أبو محمد يندكان المنسوفي ، رحمه الله ، وفيها جماعة من تجّار سجلماسة

١ قوله : بحائر ، لعلها جمع بحرة وهي الروضة العظيمة ، أو لعلها عندهم بمعنى الغابات .

٢ سنة ١٣٥٢ م .

وغيرهم ، فَوَصَّكُنَا بعد خمسةٍ وعشرينَ يوماً إلى تَغَاذَى ، وهي قريةٌ لا خيرَ فيها ، ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلود الجمال ، ولا شجرَ بها ، إنَّما هي رملٌ فيه معدنُ الملح ، يُحْفَرُ عليه في الأرض ، فيوجدُ منه ألواحٌ ضخام متراكبة كأنَّها قد نُحِتَتْ ووُضِعَتْ تحت الأرض ، يحملُ الجملُ منها لوحين ، ولا يسكنُها إلاَّ عبيدُ مَسْوَفة الذين يحفرون على الملح ، ويتعیشون بما يجلب إليهم من تمر دَرعة وسجلماسة ، ومن لحوم الجمال ، ومن أنلي^١ المجلوب من بلاد السودان ، ويصلُ السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ، ويُسَبَّعُ الحملُ منه بايوالاتن ، بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مَالِي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين ، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً .

وبالملح يتصارفُ السودان كما يُتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ، ويتبايعون به ، وقرية تَغَاذَى على حقارتها يُتعاملُ فيها بالقناطير المُقَسَّطرة من التبر . وأقمنا بها عشرةَ أيَّام في جهد لأنَّ ماءها زُعَاقٌ ، وهي أكثرُ المواضع ذباباً ، ومنها يُرْفَعُ الماء لدخول الصحراء التي بعدها . وهي مسيرة عشر لا ماء فيها إلاَّ في النادر ، ووجدنا نحنُ بها ماء كثيراً في غدران أبقاها المطر ؛ ولقد وجدنا في بعض الأيَّام غديراً بينَ تلَّين من حجارة ، مأوّه عذبٌ ، فترَوينا منه ، وغسلنا ثيابنا .

والكمأة بتلك الصحراء كثيرةٌ ، ويكثرُ القملُ بها حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزئبق ، فيقتلها .

وكنَّا في تلك الأيَّام نتقدَّمُ أمامَ القافلة فإذا وجدنا مكاناً يصلحُ للرعي رَعينا الدوابَّ به ، ولم نزلْ كذلك حتى ضاعَ في الصحراء رجلٌ يُعرَفُ بابن زيري ، فلم أتقدَّم بعد ذلك ولا تأخَّرت . وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله ، ويُعرَفُ بابن عدي ، منازعة ومشامة . فتأخَّرت عن الرفقة . فضلَّ ، فلمَّا نزلْ

١ أنلي : نوع من الحبوب .

الناس لم يظهر له خبر . فأشرتُ على ابن خاله بأن يكتري من مَسَوِّفَة من يقصُّ أثره لعلّه يجده ، فأبى ، وانتدبَ في اليوم الثاني رجلٌ من مَسَوِّفَة دون أجره لطلبه ، فوجد أثره ، وهو يسلك الجادةَ طوراً ، ويخرجُ عنها تارةً ، ولم يقع له على خبر . ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم ، فوجدنا أحدهم ميتاً تحت شجيرة من أشجار الرمل ، وعليه ثيابه ، وفي يده سوط ، وكان الماء على نحو ميلٍ منه .

ثمَّ وصَلنا إلى تَاسَرَ هَلا ، وهي أحساء ماء تنزل القوافل عليها ، وقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ، ويملاؤها بالماء ، ويخيطون عليها التلايس^١ خوف الريح ، ومن هنالك يُبعثُ التكهيف .

ذكر التكهيف

والتكهيفُ اسمٌ لكلِّ رجلٍ من مَسَوِّفَة يكتريه أهلُ القافلة فيتقدّمُ إلى ايوالا^٢ن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ، ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع ، ومن لم يكن له صاحب بايوالا^٢ن كتبَ إلى من شهَرَ بالفضل من التجار بها ، فيشاركه في ذلك ، وربما هلك التكهيف في هذه الصحراء ، فلا يعلمُ أهلُ ايوالا^٢ن بالقافلة ، فيهلكُ أهلُها أو الكثيرُ منهم . وتلك الصحراء كثيرة الشياطين ، فإن كان التكهيفُ منفرداً لعبت به واستهوته حتى يضلَّ عن قصده ، فيهلك . إذ لا طريقَ يظهرُ بها ولا أثر ، إنّما هي رمالٌ تسفيها الريح فترى جبالاتٍ من الرمل في مكان . ثمَّ تراها قد انتقلت إلى سواه . والدليلُ هنالك من كثر تردده ، وكان له قلب ذكي . ورأيتُ من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة ، مريضُ الثانية ، وهو أعرفُ الناس بالطريق .

واكثرنا التكهيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب ، وهو من

١ التلايس ، الواحدة تليسة : وعاء يسوى من الخوص شبيه قفصة ، أي قفة واسعة .

مسوفة . وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرّجوا للقائنا ، فاستبشرنا بذلك . وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها ، وتطيب النفس ، وهي آمنة من السراق ، والبقرة الوحشية بها كثيرة يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس ، فيصطادونه بالكلاب والنشاب ، لكن لحمها يولد أكله العطش ، فيتحاماه كثير من الناس لذلك . ومن العجائب أن هذه البقرة إذا قتلت وجذ في كروشها الماء ، ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرّش منها ويشربون الماء الذي فيه . والحيات أيضاً بهذه الصحراء كثيرة .

حكاية ملاعب الحيات

وكان في القافلة تاجر تلمساني يُعرف بالحاج زيان ، ومن عادته أن يقبض على الحيات ، ويعبث بها ، وكنتُ أنباهُ عن ذلك ، فلا ينتهي ، فلما كان ذات يوم أدخل يده في جحر ضب ليخرجه ، فوجد مكانه حية فأخذها بيده ، وأراد الركوب فلسعته في سبّابته اليمنى ، وأصابه وجع شديد ، فكويت يده ، وزاد ألمه عشيّ النهار . فنحّر جملاً ، وأدخل يده في كرشه ، وتركها كذلك ليلة ، ثم تناثر لحم إصبعه فقطعها من الأصل ، وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ، ولو لم تكن شربت لقتلته .

ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ، ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا ، وكنا نرحل بعد صلاة العصر ، ونسري الليل كله ، وننزل عند الصباح ، وتأني الرجال من مسوفة وبرّدامة ، وغيرهم . بأحمال الماء للبيع .

ثم وصلنا إلى مدينة ايوالاين في غرة شهر ربيع الأول . بعد سفر شهرين كاملين من سجالماسة ، وهي أول عمالة السودان ، ونائب السلطان بها فربا حسين ، وفربا معناه النائب ، ولما وصلناها جعل التجار أمتعهم في رحبة ، وتكفل السودان بحفظها ، وتوجهوا إلى الفربا ، وهو جالس على بساط في

سقيف ، وأعوانهُ بينَ يديه بأيديهم الرماح والقسيّ ، وكبراء مسوفة من ورائه ،
 ووقفَ التجارُ بينَ يديه ، وهو يكلمهم بترجُمان ، على قريهم منه ، احتقاراً
 لهم ، فعند ذلك ندمتُ على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض ،
 وقصدتُ دار ابن بدّاء ، وهو رجلٌ فاضلٌ من أهل سلا كنتُ كتبت له أن
 يكتري لي داراً ففعلَ ذلك ، ثمّ ان مشرف ايوالاتن ، ويسمى منَشَاجُو ،
 استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته ، فأبيتُ حضور ذلك ، فعزَمَ الأصحابُ
 عليّ أشدّ العزم . فتوجّهتُ فيمن توجهّ . ثمّ أني بالضيافة ، وهي جريش أنلي
 مخلوطاً بيسير عسل ولبن ، قد وضعوه في نصف قرعة صبروه شبه الحفنة ،
 فشربَ الحاضرون وانصرفوا ، فقلتُ لهم : ألهذا دعانا الأسود ؟ قالوا : نعم !
 وهي الضيافة الكبيرة عندهم ، فأيقنتُ حينئذٍ أن لا خيرَ يترجى منهم ، وأردتُ
 أن أسافر مع حجاج ايوالاتن ، ثمّ ظهرَ لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم .
 وكانت إقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً ، وأكرمني أهلها وأضافوني ،
 منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر ، وأخوه الفقيه المدرّس يحيى . وبلدة
 ايوالاتن شديدة الحرّ ، وفيها يسيرُ نُخَيْلات يزرعون في ظلالها البطيخ ،
 وماؤهم من أحساء بها ، ولحمُ الضأن كثيرٌ بها ، وثيابُ أهلها حسان مصرية ،
 وأكثرُ السكّان بها من مسوفة ، ولنسائهم الجمالُ الفائق ، وهنّ أعظمُ شأنًا
 من الرجال .

ذكر مسوفة الساكنين بايوالاتن

وشأنُ هؤلاء القوم عجيب ، وأمرهم غريب ، فأما رجالهم فلا غيرَ
 لديهم ، ولا ينتسبُ أحدهم إلى أبيه بل ينتسبُ لخاله ، ولا يرث الرجلُ إلاّ أبناء
 أخته دون بنيه ، وذلك شيء ما رأيتُهُ في الدنيا إلاّ عند كفّار بلاد المُلَسَّيَّار من الهنود ،
 وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلّم الفقه وحفظ القرآن ؛
 وأما نسائهم فلا يحتشمنَ من الرجال ، ولا يحتجبنَ مع مواظبتهم على الصلوات .

ومن أراد التزوُّجَ منهن تزوَّجَ لكنَّهن لا يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعهن أهلُها .

والنساء هنالك يكونُ لهنَّ الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحبُ من النساء الأجنبيةات ، ويدخلُ أحدهم دارَه ، فيجدُ امرأته ومعها صاحبُها فلا يُنكرُ ذلك .

حكاية القاضي وصاحبه

دخلتُ يوماً على القاضي بابوالآتن ، بعد إذنه في الدخول ، فوجدتُ عنده امرأةً صغيرة السنَّ ، بديعة الحسن ، فلما رأيتها ارتبَّتْ وأردتُ الرجوع ، فضحكتُ مني ولم يُدرِكها خجل ، وقال لي القاضي : لِمَ تَرَجِعُ؟ إنَّها صاحبي . فعجبتُ من شأنهما ، فإنَّه من الفقهاء الحجاَّج ، وأُخبرتُ أنَّه استأذنَ السلطانَ في الحجِّ في ذلك العام مع صاحبه ، لا أدري أهي هذه أم لا ، فلم يأذن له .

حكاية نحوها

دخلتُ يوماً على أبي محمد يندكان المسوفي ، الذي قدمنا في صحبه ، فوجدتُه قاعداً على بساط ، وفي وسط داره سريرٌ مظللٌ . عليه امرأةٌ معها رجلٌ قاعد ، وهما يتحدثان . فقلتُ له : من هذه المرأة ؟ فقال : هي زوجتي . فقلتُ : وما الرجلُ الذي معها منها ؟ فقال : هو صاحبُها . فقلتُ له : أتَرْضَى بهذا وأنتَ قد سكنتَ بلادنا وعرفتَ أمور الشرع ؟ فقال لي : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تُهْمَة فيها . ولسنَ كنساء بلادكم . فعجبتُ من رُعوته ، وانصرفتُ عنه ، فلم أعد إليه بعدها ، واستدعاني مرَّات ، فلم أجبه . ولما عَزَمْتُ على السفر إلى مالي وبينها وبين ابوالآتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمُسجَد ، اكتريتُ دليلاً من مسوفة . إذ لا حاجةَ إلى السفر في رفقة لأمنٍ . تلك الأريق ، وخرَجْتُ في ثلاثة من أصحابي .

وتلك الطريق كثيرة الأشجار ، وأشجارها عادية ، ضخمة^١ ، تستظل القافلة^٢ بظل الشجرة منها ، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ، ولكن ظل جسد^٣ها بحيث يستظل به الإنسان ، وبعض تلك الأشجار قد استأسن^٤ داخلها ، واستنقع فيه ماء المطر ، فكأنها بئر ، ويشرب الناس من الماء الذي فيها ، ويكون في بعضها النحل والعسل ، فيشتار^٥ه الناس منها . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حاكاً قد نصب بها ممرته^٦ ، وهو ينسج ، فعجبت منه .

قال ابن جُزَي : إن بلاد الأندلس شجرتين من شجر القسطل في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب ، إحداهما بسند وادي آش والأخرى ببشارة غرناطة .

وفي أشجار هذه الغابة ، التي بين أيولان ومالي ، ما يشبه ثمرة الإجاص والتفاح والخوخ والمشمش . وليست بها ، وفيها أشجار^٧ تُشمر^٨ شبه الفقس^٩ ، فلذا طاب انفست^{١٠} عن شيء شبه الدقيق . فيطبخونه ويأكلونه ويُباع بالأسواق . ويستخرجون من هذه الأرض حبّات كالقول فيقلونها ويأكلونها ، وطعمها كطعم الحمص المقلو ، وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج ، وقلوه بالقرتي ، والقرتي هو ثمر كالإجاص شديد الحلاوة ، مضرّ بالبيضان إذا أكلوه ، ويدقّ عظمه فيُستخرج منه زيت^{١١} ، لهم فيه منافع ، فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج^{١٢} ويقلون به هذا الاسفنج ، ويدّهنون به ، ويخلطونه بتراب عندهم ، ويسطحون به الدور^{١٣} ، كما تُسطح بالجير^{١٤} ، وهو عندهم كثير متيسر ، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القسلة^{١٥} ببلادنا . والقرع^{١٦} ببلاد السودان يعظم^{١٧} ، ومنه يصنعون الجفان ، يقطعون القرعة نصفين

١ استأسن : أي صار آسناً متغيراً .

٢ ممرته : أراد نوله .

٣ الفقس : ضرب من البطيخ .

٤ الجير : الكلس .

فيصنعون منها جفتين ، وينقشونها نقشاً حسناً ، وإذا سافر أحدهم يتبعه عبده وجواريه يحملون فرشته وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها ، وهي من القرع . والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج ، الذي يسميه الناس النظم ، وبعض السلع العطرية . وأكثر ما يعجبهم منها القَرَئِفُ والمصطَكي وتاسرغنت ، وهو بخورهم ، فإذا وصلَ قريةً جاء نساء السودان بأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز ، والفوني ، وهو كحب الخردل ، يُصنعُ منه الكُسكسو والعصيدة^١ . ودقيق اللوبياء ، فيشتري منهن ما أحب من ذلك ، إلا أن الأرز يضرّ أكله بالبيضان ، والفوني خير منه .

وبعدَ مسيرة عشرة أيام من ابوالاتن وصلنا إلى قرية زَاغَرِي ، وهي قرية كبيرة يسكنها تجّار السودان ، ويسمّون وتَجَرَّاتَة ، ويسكن معهم جماعة من البيضان ، يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج ، ويسمّون صَغَنَغُو ، والسنينيون المالكيون من البيض يسمّون عندهم توري ، ومن هذه القرية يجلب أنلي إلى ابوالاتن .

ثم سرنا من زَاغَرِي ، فوصلنا إلى النهر الأعظم ، وهو النيل ، وعليه بلدة كَارَسَتْخُو ، والنيلُ ينحدرُ منها إلى كَابَرَة ، ثم إلى زَاغَة ، ولكابرة وزَاغَة سلطانان يؤديان الطاعة للملك مَالِي ، وأهلُ زَاغَة قدماء في الإسلام ، لهم ديانة وطلب للعلم ، ثم ينحدرُ النيل من زَاغَة إلى تَنْبُكْتُو ، ثم إلى كَوَكُو ، وسنذكرهما ، ثم إلى بلدة مُوْلِي ، من بلاد اليميين ، وهي آخر عُمالة مَالِي ، ثم إلى يُونِي ، وهي من أكبر بلاد السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ، ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها ، ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة ، وهم على دين النصرانية ، ثم إلى دَنْقَلَة وهي أكبر بلادهم ، وسلطانها يدعى بَابَن كَنْز الدين ، أسلمَ على أيام الملك الناصر ، ثم ينحدر إلى

١ الكسكسو : ما نسيه المغربية . العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ .

جنادل . وهي آخر عُمالة السودان ، وأوّل عُمالة أسوان من صعيد مصر .
ورأيتُ التمساحَ بهذا الموضع من النيل ، بالقرب من الساحل ، كأنّه قاربٌ
صغير ، ولقد نزلتُ يوماً إلى النيل لقضاء حاجة ، فإذا بأحد السودان قد جاء
ووقف فيما بيني وبين النهر ، فعجبتُ من سوء أدبه وقلة حياثه ، وذكرتُ ذلك
لبعض الناس ، فقال : إنّما فعلَ ذلك خوفاً عليك من التمساح ، فحالَ
بينك وبينه .

ثمّ سرنا من كارسَخو فوصلنا إلى نهر صَنْصَرَة ، وهو على نحو عشرة
أميال من مالتى ، وعادتهم أن يُمنعَ الناس من دخولها إلاّ بإذن . وكنتُ كتبتُ
قبلَ ذلك لجماعة البيضان ، وكبيرهم محمد ابن الفقيه الجزولي ، وشمس الدين
ابن النقويش المصري ، ليكتبوا لي داراً ، فلمّا وصَلْتُ إلى النهر المذكور جزتُ
في المعدية ، ولم يمنعني أحدٌ ، فوصلتُ إلى مدينة مالتى حضرة ملك السودان ،
فنزلتُ عند مقبرتها ، ووصلتُ إلى محلة البيضان ، وقصدتُ محمداً ابن الفقيه .
فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره ، فتوجّهتُ إليها ، وجاء صهره الفقيه
المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام ، ثمّ جاء ابن الفقيه إليّ من الغد ، وشمس
الدين بن النقويش ، وعلي الزودي المراكشي ، وهو من الطلبة ، ولقيتُ القاضي
بمالتى عبد الرحمن ، جاءني ، وهو من السودان ، حاجّ فاضل ، له مكارم أخلاق ،
بعثَ إليّ بقرة في ضيافته ، ولقيتُ الترجمان دُوغا ، وهو من أفاضل السودان
وكبارهم . وبعثَ إليّ بثور ، وبعثَ إليّ الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني ،
وقرعة من الغرتي ، وبعثَ إليّ ابنُ الفقيه الأرز والفوني ، وبعثَ إليّ شمسُ
الدين بضيافة ، وقاموا بحقّي أتمّ قيام ، شكرَ اللهُ حسنَ أفعالهم .

وكان ابنُ الفقيه متزوّجاً ببنت عمّ السلطان فكانت تنفقنا بالطعام وغيره ،
وأكلنا بعد عشرة أيام من وُصولنا عصيدةً تُصنعُ من شيء شبه القلقاس يسمّى
القافي ، وهي عندهم مفضّلة على سائر الطعام ، فأصبحنا جميعاً مرضى ، وكنا
ستّة . فماتَ أحدنا ، وذهبتُ أنا لصلاة الصبح ، فغشيَ عليّ فيها ، وطلبتُ

من بعض المصريين دواء مسهلاً ، فأتى بشيء يسمى بـبندَر ، وهو عروق نبات ، واخلطه بالأنيسون والسكر ولته بالماء ، فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة . وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين .

ذكر سلطان مالي

وهو السلطان منسى سليمان ، ومنسى معناه السلطان . وسليمان اسمه ، وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء . واتفق أني أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي ، ثم لأنه صنع طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن . رضي الله عنه ، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب ، وحضرت معهم ، فأثروا بالربعات وختم القرآن ، ودعوا لمولانا أبي الحسن ، رحمه الله . ودعوا لمنسى سليمان . ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسى سليمان . وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي ، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لي : يقول لك السلطان : اشكر الله ، فقلت : الحمد لله ، والشكر على كل حال .

ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها

ولما انصرفت بعثت إلي الضيافة . فوجهت إلى دار القاضي وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه . فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافي القدمين فدخل عليّ ، وقال : قم ! قد جاءك قماش السلطان وهديته . فقم وظننت أنها الخلع والأموال . فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرتي مقلو بالغرقي . وقرعة فيها لبن رائب . فعندما رأيتهما ضحكنا وطال تعجبي من ضعف عقولهم . وتعظيمهم للشيء الحقير .

ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إليّ

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين ليصل إليّ نبيها . شيء من قبل السلطان . ودخل شهر رمضان . وكنت نلال ذات أثر تد إلى المنور وأسلم عليه .

وأقعدُ مع القاضي والخطيب ، فتكلّمتُ مع دُوغا الترجمان ، فقال : تكلّم عنده ، وأنا أعبّرُ عنك بما يجب ، فجلس في أوائل رمضان ، وقمتُ بين يديه وقلتُ له : إني سافرتُ بلادَ الدنيا ، ولقيتُ ملوكها ، ولي ببلادك أربعة أشهر ، ولم تُضِفني ، ولا أعطيتني شيئاً ، فماذا أقولُ عنك عند السلاطين ؟ فقال : إني لم أرك ولا علمتُ بك . فقام القاضي وابنُ الفقيه فردّا عليه ، وقالوا : إنّه قد سلّمَ عليك ، وبعثَ إليه الطعام ، فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها ، ونفقة تُجرى عليّ . ثمّ فرّقَ على القاضي والخطيب والفقهاء مالاّ ليلة سبعم وعشرين من رمضان ، يسمّونه الزكاة ، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً ، وأحسنَ إليّ عند سفري بمائة مثقال ذهباً .

ذكر جلوسه بقبته

وله قبةٌ مرتفعة ، بابُها بداخل داره . يقعدُ فيها أكثرَ الأوقات ، ولها من جهة المشور طيقان ثلاثٌ من الخشب ، مغشاةٌ بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثٌ مغشاةٌ بصفائح الذهب ، أو هي فضةٌ مذهبة ، وعليها ستور ملفّ ، فإذا كان يومُ جلوسه بالقبّة رُفِعَت الستور ، فعُلمَ أنّه يجلس ، فإذا جلس أخرجَ من شباك إحدى الطاقات شرابةً حريّر قد رُبِطَ فيها منديلٌ مصريّ مرقومٌ ، فإذا رأى الناسُ المنديلَ ضربتِ الأبطالُ والأبواقُ ، ثمّ يخرجُ من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد في أيدي بعضهم القسيّ ، وفي أيدي بعضهم الرماحُ الصغار والدّرَق ، فيقفُ أصحابُ الرماح منهم ميمنةً وميسرةً . ويجلس أصحابُ القسيّ كذلك ، ثمّ يؤتَى بفرسين مُسرّجين مُلجمين . ومعهما كبشان ، يذكرون أنّهما ينفعان من العين .

وعند جلوسه يخرجُ ثلاثةٌ من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى ، وتأتي الفَرارية ، وهم الأمراء . ويأتي الخطيبُ والفقهاء فيقعّدون أمام السلحدارية يمنةً ويسرةً في المشور ، ويقفُ دُوغا الترجمان على باب المشور ، وعليه

الثياب الفاخرة من الزرد-خانة وغيرها ، وعلى رأسه عِمامة ذاتُ حواشٍ ، لهم في تعميمها صنعةٌ بديعةٌ ، وهو متقلدٌ سيفاً غمدُهُ من الذهب ، وفي رجليه الخفّ والمهاميز ، ولا يلبسُ أحدٌ ذلك اليوم خفّاً غيره . ويكون في يده ربحان صغيران أحدهما من ذهب والآخرُ من فضّة ، وأسنتُهُما من الحديد .

ويجلسُ الأجنادُ والوُلاةُ والفتيانُ ومسوّفةٌ وغيرُهم خارج المشور في شارع هنالك متّسع ، فيه أشجار . وكلّ فراري بينَ يديه أصحابه بالرماح والقسيّ والأطبال والأبواق ، وبوقاتهم من أنياب الفيلة ، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، وتضربُ بالسّطاعة^١ . ولها صوتٌ عجيب . وكلّ فراري له كِنانة قد علّقها بينَ كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكبٌ فرسه ، وأصحابه بينَ مشاة وركبان ، ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجلٌ واقفٌ ، فمن أراد أن يكلمَ السلطان كَلَمَ دُوغا ، ويكلمَ دُوغا لذلك الواقف ، ويكلمُ الواقفُ السلطان .

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلسُ أيضاً في بعض الأيام بالمشور وهنالك مصطبةٌ تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمّونها البَسَنِي ، وتُفَرشُ بالحرير وتُجعلُ المخادّ عليها ، ويرفع الشطر ، وهو شبهُ قبةٍ من الحرير ، وعليه طائر من ذهب على قدر البازي .

ويخرجُ السلطان من باب في ركن القصر ، وقوسه بيده ، وكنانته بينَ كتفيه ، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب ، لها أطرافٌ مثل السكاكين رقاق ، طولُها أزيدُ من شبر . وأكثرُ لباسه جبةٌ حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمّى المُطَنَفَس ، ويخرجُ بينَ يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضّة ، وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ، ويمشي مشياً رويداً ، ويكثرُ التّأني ، وربّما وقفَ ، فإذا وصل إلى البَسَنِي وقف ينظرُ في الناس ، ثمّ

١ السطاعة : أداة يضرب بها .

يصعدُ برفق كما يصعدُ الخطيب المنبر ، وعند جلوسه تُضربُ الطبول والأبواق والأنفار ، ويخرجُ ثلاثةٌ من العبيد مسرعين ، فيدعون النائب والفرارية ، فيدخلون ويجلسون ، ويؤتى بالفرسين والكباشين معهما ، ويقفُ دُوغا على الباب ، وسائرُ الناس في الشارع تحت الأشجار .

ذكر تذلل السودان لملكهم وتربيتهم له وغير ذلك من أحوالهم

والسودان أعظمُ الناس تواضعاً لملكهم وأشدّهم تذلاًّ له ، ويخلفون باسمه ، فيقولون : منسى سليمان كي ، فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزح المدعو ثيابه ولبس ثياباً خَلَقةً ، ونزعَ عِمَامته ، وجعلَ شاشيةً وسيخةً ، ودخلَ رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدّمَ بذلةً ومسكنةً وضربَ الأرضَ بمِرْفَقَيْهِ ضرباً شديداً ، ووقفَ كالراكي يسمعُ كلامه .
وإذا كلمَ أحدهم السلطان فردّ عليه جوابه كشفَ ثيابه عن ظهره ، ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعلُ المغتسلُ بالماء ، وكنتُ أعجبُ منهم كيف لا تعمى أعينُهُم .

وإذا تكلمَ السلطان في مجلسه بكلام وضعَ الحاضرون عماثمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام ، وربما قامَ أحدهم بين يديه ، فيذكرُ أفعاله في خدمته ، ويقول : فعلتُ كذا يوم كذا ، وقتلتُ كذا يوم كذا ، فيصدّقُه من عليم ذلك . وتصديقهم أن ينزعَ أحدهم وترَ قوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى ، فإذا قال له السلطان : صدقت أو شكّرتَه ، نزحَ ثيابه وترّب ، وذلك عندهم من الأدب .
قال ابنُ جزّي : وأخبرني صاحبُ العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان ، أعزّه الله ، أنه لما قدم الحاجّ موسى الونجراتي رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبي الحسن ، رضي الله عنه ، كان إذا دخلَ المجلس الكريم حملَ بعضُ ناسِه معه قفة تراب ، فيتربّ مهما قال له مولانا كلاماً حسناً ، كما يفعل ببلاده .

ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه

وحضرتُ بمالتي عيدي الأضحى والفطر ، فخرجَ الناس إلى المصلّى ، وهو بمقربة من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان ، وركبَ السلطان ، وعلى رأسه الطيلسان ، والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء ، فإلتهم يلبسونه في سائر الأيام . وكانوا يومَ العيد بين يدي السلطان ، وهم يهتلون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحمرُ من الحرير ، ونُصِبَ عند المصلّى خباء ، فدخلَ السلطان إليه وأصلحَ من شأنه ، ثمَّ خرجَ إلى المصلّى . فقُضيت الصلاة والخطبة ، ثمَّ نزلَ الخطيب وقعدَ بين يدي السلطان وتكلّم بكلام كثير ، وهنالك رجلٌ بيده رمحٌ يبيّن للناس بلسانهم كلامَ الخطيب ، وذلك وعظٌ وتذكيرٌ وثناء على السلطان ، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقّه . ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البُسْبي ، ويأتي السلحدارية بالسلح العجيب من تراكش الذهب والفضّة والسيوف المحلاة بالذهب ، وأعمادها منه ، ورماح الذهب والفضّة ، ودبابيس البتور ، ويقفُ على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الدّباب . وفي أيديهم حليّة من الفضّة تشبه ركابَ السّرّج ، ويجلسُ الفرّارية والقاضي والخطيب على العادة ، ويأتي دُوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه ، وهن نحو مائة ، عليهنّ الملابسُ الحسان وعلى رؤوسهنّ عصائبُ الذهب والفضّة ، فيها تفافيحُ ذهب وفضّة ، وينصبُ لدوغا كرسيّ يجلسُ عليه ، ويضربُ بالآلة التي هي من قصب ، وتحتّها قُرّيعات ، ويغني بشعر يمدحُ السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله ، ويغني النساء والجواري معه ، ويلعبنَ بالقسيّ .

ويكون معهنّ نحو ثلاثين من غلمانهم عليهم جباب الملفّ الحمر . وفي رؤوسهم الشواشي البيض ، وكلّ واحد منهم متقلّدٌ طبله يضربه . ثمَّ يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلّبون في الهواء . كما يفعل السندي ، ولهم في ذلك رشاقة

وخفّة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجملَ لعب ، ويلعبُ دُوغا بالسيف لعباً بديعاً . وعند ذلك يأمرُ السلطان له بالاحسان . فيؤتّى بصرّة فيها مائتا مثقال من التبر ويُذكرُ له ما فيها على رؤوس الناس ، وتقومُ الفرارية فينزعون في قسيّهم شكراً للسلطان . وبالغد يُعطي كلّ واحد منهم لدُوغا عطاء على قدره . وفي كلّ يوم جمعة ، بعد العصر ، يفعل دُوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

ذكر الأضحوة في إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يومُ العيد وأتمّ دُوغا لعبه ، جاء الشعراء ، ويسمّون الجُلا واحدُهم جالي ، وقد دخلَ كلّ واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق ، وجُعِلَ لها رأسٌ من الخشب له منقارٌ أحمر كأنه رأس الشقشاق^١ . ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم . وذكّر لي أن شعرهم نوعٌ من الوعظ ، يقولون فيه للسلطان : إن هذا البَنّي الذي عليه جلسَ فوقه من الملوك فلانٌ ، وكان من حسن أفعاله كذا ، وفلانٌ وكان من أفعاله كذا ، فافعل أنت من الخير ما بُدكرُ بعدك . ثمّ يصعدُ كبيرُ الشعراء على درج النبي ، ويضع رأسه في حجر السلطان ، ثمّ يصعد إلى أعلى البَنّي فيضع رأسه على كتف السلطان اليمنى ، ثمّ على كتفه اليسرى ، وهو يتكلّم بلسانهم . ثمّ ينزل . وأُخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام ، فاستمرّوا عليه .

حكاية الجرادة المتكلمة

وحضرتُ مجلس السلطان في بعض الأيام فأتّى أحد فقهاءهم ، وكان قدّم من بلاد بعيدة ، وقامَ بين يدي السلطان وتكلّم كلاماً كثيراً فقام القاضي فصّدقه . ثمّ صدّقهما السلطان ، فوضع كلّ واحد منهما عِمّامته عن رأسه .

١ لم نجد هذه اللفظة في المعاجم ، ولعلها عندهم اسم للشقيق .

وترَّبَ بينَ يديه . وكانَ إلى جانبي رجلٌ من البيضان فقال لي : أتعرفُ ما قالوه ؟
فقلت : لا أعرف . فقال : إن الفقيه أخبرَ أن الجرادَ وقعَ ببلادهم ، فخرجَ
أحدُ صلحائهم إلى موضع الجراد ، فهالته أمرُهُ ، فقال : هذا جراد كثير ،
فأجابتهُ جرادةٌ منها وقالت : إنَّ البلادَ التي يكثرُ فيها الظلمَ يبعثنا الله لفساد
زرعها ، فصَدَّقَه القاضي والسلطان ، وقال عند ذلك الأمراء : إني بريءٌ من
الظلم ، ومن ظَلَمَ منكم عاقبتهُ ، ومن علَمَ بظالم ولم يعلمني به فذنوبُ ذلك
الظالم في عنقه ، واللهُ حسيبهُ وسائلُهُ . ولما قال هذا الكلام وضعَ الفرارية
عمائمهم عن رؤوسهم وتبرأوا من الظلم .

حكاية عن عدل السلطان

وحضرتُ الجمعة يوماً فقامَ أحد التجار من طلبة مسوفة ، ويسمى بأبي
حفصن ، فقال : يا أهل المسجد أشهدُكم أن منسئى سليمان في دعوتي إلى
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فلما قال ذلك خرجَ إليه جماعة رجال من
مقصورة السلطان فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذَ لك شيئاً ؟ فقال : منساجو
ايوالاثن ، يعني مشرفها ، أخذَ مني ما قيمتهُ ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطيني
في مقابلته مائة مثقال خاصةً . فبعثَ السلطان إليه للحين ، فحضرَ بعد أيام
وصرفهما للقاضي ، فثبتَ للتاجر حقُّه ، فأخذه ، وبعد ذلك عزَّلَ المشرف
عن عمله .

حكاية زوجة السلطان وبنات عمه

واتَّفَقَ في أيام إقامتي بمالتي أن السلطان غضبَ على زوجته الكبرى بنت
عمِّه المدعوة بقاسا ، ومعنى قاسا عندهم المديكة ، وهي شريكته في الملك على
عادة السودان ، ويُذكر اسمها مع اسمه على المنبر ، وسجنها عند بعض الفرارية ،
وولَّتْ في مكانها زوجته الأخرى بنسجُو ، ولم تكن من بنات الملوك ، فأكثرَ

الناسُ الكلامُ في ذلك ، وأنكروا فعله ، ودخلَ بناتُ عمّه على بنجو يهنئنها بالملكة، فجعلنَ الرماد على أذرعهن ، ولم يُترَبْنَ رؤوسهن ، ثمَّ إنَّ السلطانَ سرَّحَ قاسا من ثقافها ، فدخلَ عليها بناتُ عمّه يهنئنها بالسراح ، وترَبْنَ على العادة ، فشكت بنجو إلى السلطان بذلك ، فغضبَ على بنات عمّه ، فحُفِنَ منه واستجرنَ بالجامع ، فعفا عنهن واستدعاهن .

وعادتُهنَّ إذا دخلنَ على السلطان أن يتجرَدنَ عن ثيابهن ، ويدخلنَ عرايا ، ففعلنَ ذلك ، ورضي عنهن ، وصِرْنَ يأتينَ باب السلطان غدوًّا وعشيًّا مدَّة سبعة أيَّام ، وكذلك يفعل كلُّ من عفا عنه السلطان .

وصارت قاسا تركبُ كلَّ يوم في جواربها وعبيدها ، وعلى رؤوسهم التراب ، وتقفُ عند المشور متقبَّة لا يرى وجهها ، وأكثرَ الأمراء الكلامَ في شأنها ، فجمعهم السلطان في المشور ، وقالَ لهم دُوغا على لسانه : إنَّكم قد أكثرتم الكلامَ في أمر قاسا ، وأنها أذنت ذنباً كبيراً . ثمَّ أتى بجارية من جواربها مقيَّدة مغلولة ، فقيلَ لها : تكلمي بما عندك ، فأخبرت أن قاسا بعثها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كَنبرني ، واستدعته ليخلعَ السلطان عن ملكه ، وقالت له : أنا وجميعُ العساكر طوعُ أمرُك . فلمَّا سمعَ الأمراء ذلك قالوا : إنَّ هذا ذنبٌ كبيرٌ ، وهي تستحقُّ القتلَ عليه ! فخافت قاسا من ذلك ، واستجارت بدار الخطيب ، وعادتُهم أن يستجبروا هنالك بالمسجد ، وإن لم يتمكنَ فبدار الخطيب .

وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله ، وكان قبَّله منسى مغا ، وقبل منسى منسى موسى ، وكان كريماً فاضلاً يحبُّ البيضاء ، ويحسن إليهم . وهو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يومٍ واحد أربعة آلاف مثقال ، وأخبرني بعضُ الثقات أنه أعطى لمدرِك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد ، وكان جدُّه سارق جاطة أسلمَ على يدَيَّ جدِّه مدرِك هذا .

حكاية الحسنة بعشر أمثالها

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلاً من أهل تِلِمِسان يُعرف بابن شيخ اللب ، كان قد أحسن إلى السلطان مَنَسَى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث ، وهو يومئذٍ صبي غيرُ معتبر ، ثم اتَّفَقَ أن جاء إليه في خصومة وهو سلطان فعرفه وأدناه منه حتى جلسَ معه على البني ، ثم قرَّره على فعله معه ، وقال للأمرء : ما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟ فقالوا له : الحسنة بعشر أمثالها ، فأعطه سبعين مثقالاً ! فأعطاهُ عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخداماً . وأمره أن لا ينقطع عنه . وأخبرني بهذه الحكاية أيضاً ولد ابن شيخ اللب المذكور ، وهو من الطلبة يعلِّم القرآن بمالتي .

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلَّةُ الظلم ، فهم أبعدُ الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه ؛ ومنها شمولُ الأمن في بلادهم ، فلا يخافُ المسافرُ فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ؛ ومنها عدمُ تعرُّضهم للمالِ من يموت ببلادهم من البيضان ، ولو كان القناطيرُ المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ؛ ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يومُ الجمعة ولم يُبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلِّي لكثرة الزحام .

ومن عاداتهم أن يبعث كلَّ إنسان غلامه بسجاده فيبسطها له بموضع يستحقه بها ، حتى يذهب إلى المسجد . وسجاداتهم من سَعَف شجر يشبه النخل ، ولا ثمرَ له ؛ ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خالٍ غسله ونظفه وشهد به الجمعة ؛ ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود ، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ،

فلا تُفكّ عنهم حتى يحفظوه .

ولقد دخلتُ على القاضي يومَ العيد ، وأولاده مقيّدون ، فقلتُ له :
ألا تُسرّحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن . ومررتُ يوماً بشابّ منهم
حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيدٌ ثقيل ، فقلتُ لمن كان معي :
ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهمَ عني الشاب وضحك ، وقيل لي : إنّما قُيّدَ حتى
يحفظَ القرآن .

ومن مساوي أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس
عرايا باديات العورات . ولقد كنتُ أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك
الصورة ، فإن عادة الفرّارية أن يُفطّروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم
بطعامه ، تحمله العشرون فما فوقهنّ من جواريهن ، وهنّ عرايا ؛ ومنها دخول
النساء على السلطان عرايا غير مستترات ، وتعريّ بناته . ولقد رأيتُ في ليلة سبع
وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرّجنّ بالطعام من قصره عرايا ، ومعهن
بتنان له ناهدان ليس عليهما سترٌ ؛ ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم
تأدّباً ؛ ومنها ما ذكرته من الأضحوة في إنشاد الشعراء ؛ ومنها أن كثيراً منهم
يأكلون الجيف والكلابَ والحُمير .

ذكر سفري عن مالي

وكان دخولي إليها في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ،
وخرّوجي عنها في الثاني والعشرين لمحرّم سنة أربع وخمسين^١ ، ورافقني تاجرٌ
يُعرّف بأبي بكر بن يعقوب . وقصدنا طريقَ ميمة ، وكان لي جملٌ أركبه لأن
الخليلَ غالبية الأثمان يساوي أحدها مائة مثقال ، فوصلنا إلى خليج كبير يخرجُ
من النيل ، لا يُسجّاز إلاّ في المراكب ، وذلك الموضع كثيرُ البعوض ، فلا يمرّ
أحدٌ به إلاّ بالليل ، ووصلنا الخليج ثلثَ الليل ، والليل مُقَمَّرٌ .

١ سنة ١٣٥٣ م .

ذكر الخيل التي تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيتُ على ضفّته ستّ عشرة دابةً ضخمة الحلقة ،
فعجبتُ منها ، وظننتُها فيلةً لكثرتها هنالك ، ثم إنني رأيتها دخلت في النهر ،
فقلتُ لأبي بكر بن يعقوب : ما هذه الدواب ؟ فقال : هي خيلُ البحر خرجت
ترعى في البرّ ، وهي أغلظُ من الخيل ، ولها أعرافٌ وأذنانٌ ، ورؤوسُها
كرؤوس الخيل ، وأرجلُها كأرجل الفيلة .

ورأيتُ هذه الخيل مرّةً أخرى لما ركبنا النيل من تُنبُكُنُو إلى كوكو ،
وهي تعومُ في الماء وترفعُ رؤوسَها ، وتنفخ ، وخافَ منها أهلُ المركب ، فقربوا
من البرّ لئلا تغرقهم . ولهم حيلة في صيدها حسنة ، وذلك أن لهم رماحاً مثقوبة
قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة ، فيضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة
رجله أو عنقه أنفذته ، وجذبوه بالجل حتى يصل إلى الساحل ، فيقتلونه ويأكلون
لحمه . ومن عظامها بالساحل كثيرٌ .

وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاجّ ،
فاضل ، يسمّى فربتا مَغّا ، وهو ممّن حجّ مع السلطان منسى موسى لما حجّ .

حكاية أكلة بني آدم

أخبرتني فربتا مَغّا أن منسى موسى لما وصلَ إلى هذا الخليج كان
معه قاض من البيضان يُكنى بأبي العباس ، ويُعرف بالدكالي ، فأحسنَ إليه
بأربعة آلاف مثقال لنفقته ، فلما وصلوا إلى ميمة شكّا إلى السلطان بأن الأربعة
آلاف مثقال سُرقَت له من داره ، فاستحضرَ السلطان أمير ميمة ، وتوعّده
بالقتل إن لم يحضر من سرقتها . وطلبَ الأميرُ السارقَ فلم يجد أحداً ، ولا سارق
يكون بتلك البلاد ، فدخلَ دارَ القاضي واشتدّ على خدامه ، وهدّدهم ،
فقال له إحدى جواريه : ما ضاعَ له شيءٌ ، وإنما دفنتها بيده في ذلك الموضع ،

وأشارت له إلى الموضع ، فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان ، وعرفه الخبر ، فغضب على القاضي ، ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم ، فأقام عندهم أربع سنين ، ثم رده إلى بلده . وإنما لم يأكله الكفار لبياضه لأنهم يقولون إن أكل الأبيض مضر لأنه لم ينضج ، والأسود هو النضج بزعمهم .

حكاية آكلي خادمة السلطان

قدّمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم ، معهم أميرهم ، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطاً كباراً ، وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ، ويلتحفون في ملاحف الحرير ، وفي بلادهم يكون معدن الذهب ، فأكرمهم السلطان ، وأعطاهم في الضيافة خادمة ، فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين . وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك ، وذُكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكفّ والثدي . ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا إلى بلدة قري منسا ، ومات لي بها الحمل الذي كنت أركبه ، فأخبرني راعيه بذلك ، فخرجت لأنظر إليه ، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف ، فبعثت غلامين كنت استأجرتُهما على خدمتي ليشتريا لي جملاً بزاً غري ، وهي على مسيرة يومين ، وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر بن يعقوب ، وتوجه هو لينتظرنا بميمة ، فأقمت ستة أيام أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة ، حتى وصل الغلامان بالحمل .

حكاية حلمي

وفي أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم ، كأن إنساناً يقول لي : يا محمد بن بطوطة ! لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم ؟ فمن يومئذ ما تركتُ

قراءتها كلَّ يوم في سفر ولا حضر .

ثمَّ رحلتُ إلى بلدة ميمّة ، فنزلنا على آبار بخارجها ، ثمَّ سافرنا منها إلى مدينة تُنبُكْتُو ، وبينها وبين النيل أربعة أميال . وأكثرُ سكّانها مسوّفة أهلُ اللثام ، وحاكمها يسمّى قربا موسى ، حضرتُ عنده يوماً ، وقد قدّم أحد مسوفة أميراً على جماعة ، فجعل عليه ثوباً وعمامة وسروالاً ، كلُّها مصبوغة ، وأجلسه على درّقة ، ورفعته كبراء قبيلته على رؤوسهم . وبهذه البلدة قبر الشاعر الملقب أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببِلْدَه بالطُويجِن ؛ وبها قبرُ سراج الدين بن الكُويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية .

حكاية أمير لا يحب البكاء

كان السلطان منسى موسى لما حجّ نزلَ برّوض لسراج الدين هذا ، ببركة الحبش ، خارج مصر ، وبها ينزل السلطان ، واحتاج إلى مالٍ فتسلّفه من سراج الدين ، وتسلّف منه أمراؤه أيضاً ، وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال ، فأقام بمالتي ، فتوجّه سراجُ الدين بنفسه لاقتضاء ماله ، ومعه ابنُ له ، فلمّا وصلَ تُنبُكْتُو أضافه أبو إسحاق الساحلي ، فكان من القدر موته تلك الليلة ، فتكلّم الناس في ذلك ، واتّهموا أنّه سُمّ ، فقال لهم ولده : إني أكلتُ معه ذلك الطعام بعينه ، فلو كان فيه سُمّ لقتلنا جميعاً ، لكنّه انقضى أجله . ووصلَ الولدُ إلى مالتي ، واقتضى ماله ، وانصرفَ إلى ديار مصر .

ومن تُنبُكْتُو ركبُ النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، وكنا ننزلُ كلَّ ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاجُ إليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحلّ الزجاج ، ثمَّ وصَلْتُ إلى بلد أنسيْتُ اسمه ، له أمير فاضل حاجٌ يسمّى قربا سليمان مشهورٌ بالشجاعة والشدة ، لا يتعاطى أحدُ الزرع في قوسه ، ولم أرَ في السودان أطولَ منه ولا أضخمَ جسماً ، واحتجّتُ بهذه البلدة إلى شيء من الذرة ، فجئتُ إليه ، وذلك يوم مولد رسول الله ، صلّى الله عليه

وسلّم ، فسَلِّمْتُ عليه ، وسألني عن مقدمي ، وكان معه فقيه يكتب له ، فأخذتُ
لوحاً كان بين يديه ، وكتبتُ فيه : يا فقيهُ قل لهذا الأمير إننا نحتاجُ إلى شيء من
الذرة للزاد ، والسلام . وناولت الفقيه اللوحَ يقرأ ما فيه سرّاً ، ويكلّمُ الأميرَ
في ذلك بلسانه ، فقرأه جهراً ، وفهمه الأمير . فأخذَ بيدي وأدخلتني إلى
مَشُورَه . وبه سلاحٌ كثير من الدَرَق والقسي والرماح ، ووَجَدْتُ عنده كتابَ
المُدْهَش لابن الجوزي ، فجعلتُ أقرأ فيه . ثمَّ أَتَيْتُ بمشروب لهم يسمّى
الدَّقْنُو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوطٌ بيسير عسل أو لبن ، وهم يشربونه
عِيَوْضَ الماء ، لأنّهم إن شربوا الماء خالصاً أَضُرَّ بهم ، وإن لم يجدوا الذرة
خلطوه بالعسل أو اللبن ، ثمَّ أَتَيْتُ ببَطِيخٍ أخضر فأكلنا منه . ودخلَ غلامٌ خماسيٌّ
فدعاه ، وقال لي : هذا ضيافتك . واحفظه لثلاثِ يفرّ ، فأخذته وأردتُ
الانصراف ، فقال : أقم حتى يأتي الطعام . وجاءت إلينا جاريةٌ له دمشقية
عربيّة ، فكلّمتني بالعربي ، فبينما نحنُ في ذلك سمعنا صراخاً بداره ، فوجه
البحارية لتعرف خبرَ ذلك ، فعادت إليه فأعلمته أن بنتاً له قد توفّيَت ، فقال :
إني لا أحبُّ البكاء ، فتعالَ نمشي إلى البحر ، يعني النيل ، وله على ساحله ديارٌ ،
فأتيتُ بالفرس ، فقال لي : اركب ، فقلتُ : لا أركبه وأنتَ ماشٍ ، فمشينا جميعاً ،
ووصلنا إلى دياره على النيل ، وأتيتُ بالطعام ، فأكلنا وودّعته وانصرفتُ ،
ولم أرَ في السودان أكرمَ منه ، ولا أفضل . والغلام الذي أعطانيه باقٍ عندي
إلى الآن .

ثمَّ سرتُ إلى مدينة كوكو ، وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن
السودان ، وأكبرها ، وأخصبها ، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك ، وبها
الفقّوس العناني الذي لا نظيرَ له ، وتعاملُ أهلها في البيع والشراء بالودّع ، وكذلك
أهلُ ماليّ ، وأقمتُ بها نحو شهر ، وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة ،
وكان ظريفاً مزاحاً فاضلاً ، وتوفي بها بعد خروجي عنها ، وأضافني بها الحاج
محمد الوجدي التازي ، وهو ممّن دخلَ اليمن ، والفقيه محمد الفيلاي إمامُ

مسجد البيضان .

ثمّ سافرتُ منها برسم تَسَكَّدًا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيّين ، دليلهم ومقدّمهم الحاج وُجّين ، ومعناه الدّثب بلسان السودان ، وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد ، فلمّا رَحَلْنَا أوّل مرحلة وقفت الناقة فأخذَ الحاجّ وُجّين ما كان عليها وقسمه على أصحابه ، فتوزّعوا حملته . وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي ، فأبى أن يرفعَ من ذلك شيئاً ، كما فعلَ غيره ، وعطش غلامي يوماً ، فطلبت منه الماء ، فلم يسمح به .

ثمّ وَصَلْنَا إلى بلاد بَرْدَامَة ، وهي قبيلة من البربر . ولا تسير القوافل إلّا في خفارتهم . والمرأةُ عندهم في ذلك أعظمُ شأنًا من الرجل ، وهم رَحَالَة لا يقيمون ، وبيوتهم غريبةُ الشكل ، يقيمونَ أعواداً من الخشب ويضعون عليها الخصر ، وفوقَ ذلك أعوادٌ مشبكة ، وفوقها الجلود أو ثياب القطن . ونساؤهم أتمّ النساء جمالاً ، وأبدعُهنّ صوراً مع البياض الناصع والسّمَمَن ، ولم أرَ في البلاد من يبلغ مبلغنّ في السمن ، وطعامُهنّ حليبُ البقر وجريش الذرة يشرّبه مخلوطاً بالماء ، غيرَ مطبوخ ، عند المساء والصباح ، ومن أراد التزوّج منهن سكن بهنّ في أقرب البلاد إليهنّ ، ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايواتن .

وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحرّ وغلبة الصفراء . واجتهدنا في السير إلى أن وَصَلْنَا إلى مدينة تَسَكَّدًا ، ونزلتُ بها في جوار شيخ المغاربة سعيد ابن عليّ الجزولي . وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحق الجاناتي ، وهو من الأفاضل ، وأضافني جعفر بن محمد المستوفي .

وديار تَسَكَّدًا مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معادن النحاس ، فيتغيّر لونه وطعمه بذلك ، ولا زرعَ بها إلّا يسيرٌ من القمح يأكله التجار والغرباء ، ويباع بحساب عشرين مُدّاً من أمدادهم بمثقال ذهب ، ومدّهم ثلثُ المدّ ببلادنا ، وتباع الذّرة عندهم بحساب تسعين مدّاً بمثقال ذهب . وهي كثيرة العقارب ، وعقاربها تقتل من كان صبيّاً لم يبلغ ، وأمّا الرجال فقلّما تقتلهم .

ولقد لدغَت يوماً ، وأنا بها ، ولدّاً للشيخ سعيد بن عليّ عند الصبح فمات لحينه ، وحضرتُ جنازته .

ولا شغلَ لأهل تَكْدَا غير التجارة ، يسافرون كلَّ عام إلى مصر ، ويجلبون من كلِّ ما فيها من حسان الثياب ، وسواها . ولأهلها رفاهية وسعة حال ، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم ، وكذلك أهل مالّي وإيالاتن ، ولا يبيعون المعلمّات منهنّ إلاّ نادراً ، وبالثلثين الكثير .

حكاية جوارٍ معلمات

أردتُ لما دخلتُ تَكْدَا شراء خادِم معلّمة ، فلم أجدها ، ثمّ بعثَ إليّ القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالاً ؛ ثمّ إنّ صاحبها ندمَ ورغب في الإقالة ، فقلتُ له : إنّ دَلَسْتَنِي على سواها أقلتُك ، فدَلَسَنِي على خادِم لعلّي أغول ، وهو المغربي التادلي الذي أبى أن يرفع شيئاً من أسباني حين وقعت ناقتي ، وأبى أن يسقي غلامي الماء حين عطش ، فاشتريتها منه ، وكانت خيراً من الأولى ، وأقلتُ صاحبي الأوّل . ثمّ ندمَ هذا المغربي على بيع الخادم ، ورغب في الإقالة ، وألحّ في ذلك ، فأبيتُ إلاّ أن أجازيه بسوء فعله ، فكاد أن يُجسّن أو يَهْلِكَ أسفاً ، ثمّ أقلتّه بعدُ .

ذكر معدن النحاس

ومعدن النحاس بخارج تَكْدَا يحفرون عليه في الأرض ، ويأتون به إلى البلد ، فيسبكونه في دورهم ، يفعلُ ذلك عبيدُهم وخدمُهم ، فإذا سبكوه نُحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف ، بعضها رفاقٌ وبعضُها غِلاظٌ ، فتُباعُ الغلاظُ منها بحساب أربعمئة قضيبٍ بمِثقال ذهب ، وتباعُ الرقاق بحساب ستمائة وسبعمئة بمِثقال ، وهي صرفهم يشترّون برقاقها اللحم والخطب ، ويشترّون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ، ويحمل

النحاس منها إلى مدينة كوبر ، من بلاد الكفّار ، وإلى زَغَاي ، وإلى بلاد
بَرَنو ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من تَسَكَّدَا ، وأهلها مسلمون لهم
ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ، ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب . ومن
هذه البلاد يُؤتَى بالجواري الحسان والفتيان ، وبالثياب المجسدة^١ ، ويُحْمَلُ
النحاسُ أيضاً منها إلى جوجوة وبلاد المورتبين وسواها .

ذكر سلطان تكدا

وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم ، والخطيب محمد ، والمدرس
أبو حفص ، والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تَسَكَّدَا ، وهو بربري يسمّى
إزار ، وكان على مسيرة يوم منها ، ووقعت بينه وبين التكركري ، وهو من سلاطين
البربر أيضاً ، منازعة فذهبوا إلى الإصلاح بينهما ، فأردت أن ألقاه ، فاكتريت
دليلاً وتوجهتُ إليه ، وأعلمه المذكورون بقدومي . فجاء إليّ راكباً فرساً
دون سرج ، وتلك عادتهم ، وقد جعل عوض السرج طُنْفَسَة حمراء بديعة ،
وعليه ملحفة وسراويل وعباءة كلها زُرْق . ومعه أولاد أخته ، وهم الذين
يرثون ملكه ، فقمنا إليه وصافحناه ، وسأل عن حالي ومقدمي . فأعلم بذلك ،
وأُنزِلني ببیت من بيوت اليناطين ، وهم كالوصفان^٢ عندنا ، وبعث برأس غنم
مشوي في السفود ، وقَعَب من حليب البقر ، وكان في جوارنا بيتُ أمّه وأخته ،
فجاءتا إلينا وسلّمتا علينا ، وكانت أمّه تبعث لنا الحليب بعد العتمة ، وهو وقت
حلبهم ، ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو ؛ وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه .
وأقمتُ عندهم ستّة أيام وفي كلّ يوم يبعثُ بكشين مشويين عند الصباح والمساء ،
وأحسن إليّ بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب ، وانصرفتُ عنه وعدتُ إلى تَسَكَّدَا .

١ المجسدة : المصبوغة بالفساد ، الزعفران .

٢ الوصفان : لعله أراد بها جمعاً لوصيف .

ذكر وصول الأمر الكريم إليّ

ولما عدتُ إلى تَكْدَا وَصَلَ غلامُ الحاج محمد بن سعيد السَّجَلْمَاسِي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية ، فقبَلَتْهُ وامتَشَلَتْهُ على الفور ، واشترتُ جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلاث ، وقصدتُ السفر إلى تَوَات ، ورفعتُ زاد سبعين ليلة إذ لا يوجدُ الطعام فيما بين تَكْدَا وتَوَات ، إلّما يوجدُ اللحم واللبن والسمن يُشْتَرَى بالأثواب . وخرَجْتُ من تَكْدَا يومَ الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين في رفقة كبيرة ، فيهم جعفر التواتي ، وهو من الفضلاء ، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تَكْدَا ، وفي الرفقة نحو ستمائة خادم ، فوَصَلْنَا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركري ، وهي أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ، ويحملة أهل توات إلى بلادهم ، ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء ، وهي مسيرة ثلاثة أيّام ، ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة بها إلّا أن بها الماء ، ووَصَلْنَا إلى الموضع الذي يفرق به طريقُ غات الآخذ إلى ديار مصر وطريقُ توات . وهناك أحساء ماء يجري على الحديد ، فإذا غُسِلَ به الثوبُ الأبيضُ اسودَّ لونه . وسرنا من هنالك عشرة أيّام ووَصَلْنَا إلى بلاد هَكَار ، وهم طائفة من البربر ملثّمون ، لا خيرَ عندهم ، ولقينا أحدَ كبارهم فجبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها ، وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان ، وهم لا يُغيرون فيه ، ولا يعترضون القوافل ، وإذا وَجَدَ سُرَّاقُهَا المتاعَ بالطريق في رمضان لم يعرضوا له ، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر .

وسرنا في بلاد هَكَار شهراً ، وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعراً ، ووَصَلْنَا يومَ عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء ، فأخبرونا بأخبار

١ سنة ١٣٥٣ م .

بلادنا ، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يَغْمور خالفوا وسكنوا تَسَاييت من توات ، فحافَ أهلُ القافلة من ذلك ، ثمَّ وَصَلْنَا إلى بُودا ، وهي من أكبر قرى توات. ، وأرضها رمال وسباخ ، وتمرُّها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ، ولا زرعَ بها ولا سمنَ ولا زيت ، وإلّا ما يُجلبُ لها ذلك من بلاد المغرب ، وأكلُ أهلها التمر ، والجراد ، وهو كثيرٌ عندهم يخترنونه كما يُخترن التمر ويقتاتون به ، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس ، فإنّه لا يطيرُ إذ ذاك لأجل البرد .

وأقمنا ببُودا أيّاماً ، ثمَّ سافرنا في قافلة ووَصَلْنَا في أوْسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة ، وخرجتُ منها في ثاني ذي الحِجّة ، وذلك أوّان البرد الشديد ، ونزل بالطريق ثلجٌ كثير ، ولقد رأيتُ الطرق الصعبة والثلجَ الكثير ببخارى وسمرقند وخُرّاسان وبلاد الأتراك ، فلم أرَ أصعبَ من طريق أمّ جُنَيْبَة. ووَصَلْنَا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطَّمَع ، فأقمتُ هنالك يوم الأضحى ، ثمَّ خرجتُ فوَصَلْتُ إلى حضرة فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين ، أيّده الله ، فقبلتُ يده الكريمة ، وتيمّنتُ بمشاهدة وجهه المبارك ، وأقمتُ في كنف إحسانه ، بعلم طول الرحلة . والله تعالى يشكرُ ما أولانيه من جزيل إحسانه ، وسابغ امتنانه ، ويديمُ أيّامه ، ويمتّعُ المسلمين بطول بقائه .

ومهما انتهت الرحلة المسماة تحفة النُظّار ، في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . وكان الفراغُ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة^١ والحمدُ لله - وسلامٌ على عباده الذين اصطفى .

قال ابن حنري

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه الله ، ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ، ومن قال : رحال هذه الملة ، لم يبعد ، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة . واتخذ حضرة فاس مقراً ومستوطناً بعد طول جولانه لما تحقّق أن مولانا ، أيّده الله ، أعظم ملوكها شأنًا وأعمهم فضائل وأكثرهم إحسانًا وأشدّهم بالواردين عليه عناية وأتمّهم بمن ينتمي إلى طلب العلم حمايةً ، فيجب على مثلي أن يحمّد الله تعالى لأن وفقه في أوّل حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً ، إنّها لنعمة لا يُقدّر قدرها ولا يوفّي شكرها ، والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ، ويبقي علينا ظلّ حرمة ورحمته ويجزيه عنّا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين . اللهم ، وكما فضّلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين ، وخصصته بالحلم والعقل الرصين ، فمدّ للملكه أسباب التأييد والتمكين وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين . واجعل الملك في عقبه إلى يوم الدين . وأره قرّة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا أرحمّ الراحمين ، وصلى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا ونبيّنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين .

وكان الفراغ من كتبها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة

عرف الله من كتبها

رحلة ابن بطوطة

مقدمة ابن جزي ٩	ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف ٥٩
الخروج من طنجة ١٤	ذكر بعض فضلاء القدس ٥٩
ذكر سلطان تونس ١٧	حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور ٦٣
ذكر عمود السواري ٢١	حكاية حسام الدين والتزوير عليه ٧٥
ذكر بعض علماء الإسكندرية ٢٣	حكاية الملك الناصر وقاتل أخيه ٧٦
حكاية الفأل الحسن ٢٣	حكاية أدهم الزاهد ٧٨
كرامة لأبي الحسن الشاذلي ٢٥	حكاية المهدي الكاذب ٨٠
ذكر حزب البحر المنسوب إليه ٢٦	حكاية ابن المؤيد الهجاء ٨١
حكاية مشجرة بين التجار ٢٧	حكاية الصالحين البنانيين وحمار الوحش ٨٢
حكاية لحية الشيخ جمال الدين ٣٤	ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية ٨٨
ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس	ذكر القيمة بهذا المسجد ٩٣
والمارستانات والزوايا ٣٧	ذكر المدرسين والمعلمين به ٩٣
ذكر قرافة مصر ومزاراتها ٣٩	ذكر قضاة دمشق ٩٤
ذكر ليل مصر ٤٠	حكاية الفقيه ذي اللوثة ٩٥
ذكر الأهرام والبرابي ٤١	ذكر مدارس دمشق ٩٦
ذكر سلطان مصر ٤٣	حكاية الشيخ ظهير الدين وقاضي القضاة ٩٦
ذكر بعض أمراء مصر ٤٣	ذكر أبواب دمشق ٩٧
ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي إليها ٤٤	ذكر بعض المشاهد والمزارات بها ٩٧
حكاية الملك الناصر يقعد للمظالم ٤٥	حكاية الطاعون الأعظم في دمشق ١٠٠
ذكر بعض علماء مصر وأعيانها ٤٦	ذكر أرباص دمشق ١٠١
ذكر يوم المحمل بمصر ٤٦	ذكر قاسيون ومشاهده المباركة ١٠١
حكاية خصيب ٤٨	ذكر الربوة والقرى التي تواليها ١٠٢
حكاية منبر الملك الناصر ٥٠	ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل
ذكر المسجد المقدس ٥٧	أهلها وعوائلهم ١٠٤
ذكر قبة الصخرة ٥٨	حكاية المملوك الصغير والصحفة ١٠٤

- ١٤١ . . . ذكر الصفا والمروة
- ١٤٢ . . . ذكر الجبابة المباركة
- ١٤٢ . . . ذكر بعض المشاهد بخارج مكة
- ١٤٤ . . . ذكر الجبال المطيفة بمكة
- ١٤٦ . . . حكاية شيخ ضل طريقه
- ١٤٨ . . . ذكر أميري مكة
- ١٤٨ . . . ذكر أهل مكة وفضائلهم
- ذكر قاضي مكة وخطيبها وإمام الموسم
- ١٤٩ . . . وعلمائها وصلحاتها
- ١٥٠ . . . حكاية مباركة
- ١٥١ . . . حكاية قطع يد السارق
- ١٥٢ . . . ذكر المجاورين بمكة
- ١٥٤ . . . حكاية في فضيلة
- ١٥٥ . . . حكاية الشيخ سعيد الهندي
- ١٥٨ . . . حكاية حسن المجنون
- ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم
- ١٦٠ . . . ومواضع أنبتهم
- ١٦٠ . . . ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة
- ١٦٢ . . . ذكر عاداتهم في استهلال الشهور
- ١٦٢ . . . ذكر عاداتهم في شهر رجب
- ١٦٣ . . . ذكر عمرة رجب
- ١٦٥ . . . ذكر عاداتهم في ليلة النصف من شعبان
- ١٦٦ . . . ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم
- ١٦٧ . . . ذكر عاداتهم في شوال
- ١٦٨ . . . ذكر إحرام الكعبة
- ١٦٨ . . . ذكر شعائر الحج وأعماله
- ١٧١ . . . ذكر كسوة الكعبة
- ذكر الانفصال عن مكة ، شرفها
- ١٧٢ . . . الله تعالى
- ١٧٦ . . . ذكر الروضة والقبور التي بها
- ١٠٨ ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها
- طليبة مدينة رسول الله ، صلى الله عليه
- ١١٣ . . . وسلم وشرف وكرم
- ذكر مسجد رسول الله ، صلى الله عليه
- ١١٤ . . . وسلم ، وروضته الشريفة
- ١١٥ . . . ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم
- ١١٩ . . . ذكر المنبر الكريم
- ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول
- الله ، صلى الله عليه وسلم
- ١٢٠ . . . حكاية سراج الدين وحلمه
- ١٢١ . . . ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به
- ١٢١ . . . حكاية الشيخ الذي جب نفسه
- ١٢٢ . . . ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة
- ١٢٣ . . . حكاية شيخ ضاع في الجبال
- ١٢٤ . . . حكاية المرتكب العظيمة
- ١٢٤ . . . ذكر أمير المدينة الشريفة
- ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج
- المدينة الشريفة
- ١٢٤ . . . حكاية الهاتف بالليل
- ١٢٧ . . . ذكر مدينة مكة المعنونة
- ١٣١ . . . ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه
- ١٣٢ . . . ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله
- تَعْظِيماً وَتَكْرِيماً
- ١٣٣ . . . ذكر الميزاب المبارك
- ١٣٥ . . . ذكر احجر الأسود
- ١٣٥ . . . ذكر المقام الكريم
- ١٣٦ . . . ذكر الحجر والمطاف
- ١٣٧ . . . ذكر زمزم
- ١٣٧ . . . ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به
- ١٣٨ . . . من المشاهد الشريفة

٢٥٢ . . .	حكاية كبش يمتق عبداً	١٧٨ . . .	ذكر نقيب الأشراف . . .
٢٥٤ . . .	ذكر سلطان مقدشو . . .	١٧٩ . . .	حكاية الشريف أبي غرة . . .
٢٥٨ . . .	ذكر سلطان كلوا . . .	١٨٣ . . .	مدينة واسط . . .
٢٦٣ . . .	ذكر التنبول . . .	١٨٤ . . .	حكاية الرقص في النار . . .
٢٦٣ . . .	ذكر النارجيل . . .	١٨٥ . . .	مدينة البصرة . . .
٢٦٥ . . .	ذكر سلطان ظفار . . .	١٨٦ . . .	حكاية اعتبار . . .
٢٦٨ . . .	كرامة للحاج خضر . . .	١٨٧ . . .	ذكر المشاهد المباركة بالبصرة . . .
٢٧٢ . . .	ذكر سلطان عمان . . .	١٩٣ . . .	حكاية الشيخ السخي . . .
٢٧٣ . . .	حكاية السلطان حامي الفساد . . .	١٩٤ . . .	ذكر ملك إيدج وتستر . . .
٢٧٤ . . .	ذكر سلطان هرمز . . .	١٩٥ . . .	حكاية عادة أهل إيدج في ماتم أمرائهم
٢٧٦ . . .	حكاية فقراء مدينة لار . . .	٢٠١ . . .	كرامة للشيخ قطب الدين . . .
٢٧٧ . . .	ذكر سلطان لار . . .	٢٠٧ . . .	ذكر سلطان شيراز . . .
٢٧٩ . . .	ذكر مغاص الجوهر . . .	٢١١ . . .	حكاية ملك الهند وكرمه . . .
٢٨١ . . .	حكاية مقتل أمير أحمد . . .	٢١٢ . . .	ذكر بعض المشاهد بشيراز . . .
٢٨٤ . . .	ذكر سلطان العلايا . . .	٢١٦ . . .	حكاية الفقيه الجواد . . .
٢٨٥ . . .	ذكر الأخية الفتيان . . .	٢١٩ . . .	مدينة الكوفة . . .
٢٨٧ . . .	ذكر سلطان أنطالية . . .	٢٢١ . . .	مدينة بغداد . . .
٢٨٨ . . .	ذكر سلطان أكريدور . . .		ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض
٢٨٩ . . .	ذكر سلطان قل حصار . . .	٢٢٦ . . .	العلماء والصالحين بها . . .
٢٩١ . . .	ذكر سلطان لاذق . . .	٢٢٧ . . .	ذكر سلطان العراقيين وخراسان . . .
٢٩٣ . . .	ذكر سلطان ميلاس . . .		ذكر المتغلبين على الملك بعد موت
٢٩٤ . . .	حكاية الشيخ الشاعر . . .	٢٣١ . . .	السلطان أبي سعيد . . .
٢٩٥ . . .	ذكر سلطان اللارندة . . .	٢٣٥ . . .	مدينة الموصل . . .
٣٠٠ . . .	ذكر سلطان بركي . . .	٢٣٨ . . .	ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي إليها
٣٠٢ . . .	حكاية الطبيب اليهودي . . .	٢٣٩ . . .	حكاية صلح بين زوجين . . .
٣٠٣ . . .	حكاية الحجر النازل من السماء . . .	٢٤٣ . . .	حكاية الأعمى والخاتم . . .
٣٠٥ . . .	ذكر سلطان مغنيسية . . .	٢٤٤ . . .	حكاية الدراهم المخبوءة بالعديلة . . .
٣٠٦ . . .	ذكر سلطان برغمة . . .	٢٤٧ . . .	ذكر سلطان حلي . . .
٣٠٧ . . .	ذكر سلطان بلي كسري . . .	٢٤٨ . . .	كرامة للشيخ أحمد بن المجيل . . .
٣٠٨ . . .	حكاية الفقير الذي مات . . .	٢٤٩ . . .	ذكر سلطان اليمن . . .

٣٧٠ . . . ذكر سلطان ما وراء النهر	٣٠٨ . . . حكاية سلطان برصا
٣٧٠ . . . حكاية الملك كبك والواعظ	٣١٣ . . . حكاية الحاج السارق
٣٧٠ . . . حكاية عن عدل كبك	٣١٥ . . . ذكر سلطان كردي بولي
٣٧٢ . . . حكاية فضائل السلطان طر مشيرين	٣١٧ . . . ذكر سلطان قصص موني
٣٧٩ . . . حكاية ملك الهند	٣٢٠ . . . حكاية الروافض وأكل الأرنب
٣٨١ . . . حكاية أميرة تبني مسجداً	٣٢٢ . . . حكاية أصوات النواقيس
٣٨٢ . . . ذكر سلطان هراة	٣٣١ . . . ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان
٣٨٣ . . . حكاية الرافضة	٣٣٣ . . . ذكر الخواتين وترتيبهن
٣٨٥ . . . حكاية منكر بدار الملك	٣٣٤ . . . ذكر الخاتون الكبرى
٣٨٥ . . . سبب قتل الفقيه نظام الدين	٣٣٥ . . . ذكر الخاتون التي تلي الملكة
حكاية الشيخ شهاب الدين الذي تفسب	٣٣٦ . . . ذكر الخاتون الثالثة
٣٨٧ . . . إلية مدينة الخام	٣٣٦ . . . ذكر الخاتون الرابعة
٣٩٣ . . . وادي السند	٣٣٧ . . . ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك
٣٩٤ . . . ذكر البريد	٣٣٧ . . . ذكر ولدي السلطان
٣٩٦ . . . ذكر الكركدن	٣٣٨ . . . ذكر سفري إلى مدينة بلغار
٣٩٨ . . . حكاية الجلود المصلوبة	٣٣٨ . . . ذكر أرض الظلمة
٤٠٠ . . . ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك	٣٤٤ . . . ذكر سفري إلى القسطنطينية
٤٠١ . . . ذكر غريبة رأيها	٣٤٩ . . . ذكر سلطان القسطنطينية
٤٠٤ . . . ذكر أمير ملتان وترتيب حاله	٣٥٠ . . . ذكر مدينة القسطنطينية
ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من	٣٥١ . . . ذكر الكنيسة العظمى
٤٠٤ . . . الغرباء الوافدين على حفرة ملك الهند	٣٥٣ . . . ذكر المانستارات بقسطنطينية
٤٠٧ . . . ذكر أشجار الهند وفواكهها	٣٥٤ . . . ذكر الملك المترهب جرجيس
ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند	٣٥٥ . . . ذكر قاضي القسطنطينية
٤٠٨ . . . ويقتاتون بها	٣٥٥ . . . ذكر الانصراف عن القسطنطينية
ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول	٣٦١ . . . أمير خوارزم
٤١٠ . . . غزوة شهدتها ببلاد الهند	٣٦٢ . . . حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير
٤١١ . . . ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار	٣٦٣ . . . حكاية الخاتون المتقشفة
٤١٥ . . . ذكر وصف دهلي	٣٦٤ . . . ذكر بطيخ خوارزم
٤١٥ . . . ذكر سور دهلي وأبوابها	٣٦٤ . . . حكاية التاجر الكريم
٤١٦ . . . ذكر جامع دهلي	٣٦٧ . . . ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها

- ٤١٩ . . . حكاية قتيل خوف العذاب . . .
- ٤٢١ ذكر فتح دهلي ومن تداوها من الملوك
- ٤٢٢ ذكر السلطان شمس الدين للمش . . .
- ٤٢٣ ذكر السلطان ركن الدين بن شمس الدين
- ٤٢٣ ذكر السلطنة رضية . . .
- ٤٢٣ ذكر السلطان ناصر الدين بن شمس الدين
- ٤٢٤ ذكر السلطان غياث الدين بلبن . . .
- ذكر السلطان معز الدين بن ناصر
- ٤٢٦ الدين بن غياث الدين بلبن . . .
- ٤٢٨ ذكر السلطان جلال الدين . . .
- ٤٢٩ ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي
- ٤٣١ ذكر ابنه السلطان شهاب الدين . . .
- ٤٣٢ ذكر السلطان قطب الدين بن علاء الدين
- ٤٣٤ ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين
- ٤٣٦ ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه . . .
- ذكر ما رآه ولده من القيام عليه فلم
- يتم له ذلك
- ٤٣٨ ذكر مسير تغلق إلى بلاد الكنوتي وما
- اتصل بذلك إلى وفاته . . .
- ٤٣٩ ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه
- ابن غياث الدين تغلق شاه ملك الهند
- والسند الذي قدمنا عليه . . .
- ٤٤١ ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك . . .
- ٤٤٢ ذكر ترتيب جلوسه للناس . . .
- ٤٤٣ ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه
- ٤٤٥ ذكر دخول هدايا عماله إليه . . .
- ٤٤٦ ذكر خروجه للمعدين وما يتصل بذلك
- ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير
- الأعظم والمبخر المظلي . . .
- ٤٤٨ ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره . . .
- ٤٤٩
- ٤٥٠ ذكر ترتيب الطعام الخاص . . .
- ٤٥١ ذكر ترتيب الطعام العام . . .
- ٤٥٢ ذكر بعض أخباره في الجود والكرم
- ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني
- ٤٥٢ التاجر وحكايته . . .
- ٤٥٤ ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين
- ٤٥٥ ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين
- ٤٥٦ ذكر عطائه لعبد العزيز الأردوي . . .
- ٤٥٦ ذكر عطائه لشمس الدين الأندكاني . . .
- ٤٥٦ ذكر عطائه لعبد الدين الشونكاري . . .
- ٤٥٦ ذكر عطائه للقاضي مجد الدين . . .
- ٤٥٧ ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغري . . .
- ٤٥٧ ذكر عطائه لحاجي كاوان وحكايته . . .
- ٤٥٨ ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره
- ٤٦٠ حكاية من تعظيمه إياه . . .
- ٤٦١ حكاية عن رجل ابن الخليفة . . .
- ٤٦٢ حكاية بخله على ابنه . . .
- ذكر ما أعطاه السلطان للأمير سيف الدين
- غدا بن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام ٤٦٣
- ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت
- السلطان
- ٤٦٤
- ٤٦٦ ذكر سجن الأمير غدا . . .
- ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني
- خداوند زاده قوام الدين الذي قدم
- معنا عليه
- ٤٦٨
- ٤٦٨ حكاية في تواضع السلطان وإنصافه . . .
- ٤٦٩ ذكر اشتداده في إقامة الصلاة . . .
- ٤٦٩ ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع
- ذكر رفقه للمغارم والمظالم وقموده
- لإنصاف المظلومين . . .
- ٤٧٠

٤٧٠	ذكر إطماعه في الغلاء . . .	٤٧٠	ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من
٤٨٧	هوشنج . . .	٤٧٠	أعماله . . .
٤٨٨	ذكر ما هم به الشريف إبراهيم من	٤٧١	ذكر قتله لأخيه . . .
٤٨٩	الثورة ومآل حاله . . .	٤٧١	ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في
٤٨٩	ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك	٤٧١	ساعة واحدة . . .
٤٨٩	ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك	٤٧٢	ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله
٤٨٩	وقيام عين الملك . . .	٤٧٢	ذكر قتله للفقيه المدرس عفيف الدين
٤٩٥	ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة	٤٧٤	الكاساني وفقهين معه . . .
٤٩٦	علي شاه كر . . .	٤٧٤	ذكر قتله أيضاً لفقيهين من أهل السند
٤٩٦	ذكر فرار أمير بخت وأخذه . . .	٤٧٤	كانا في خدمته . . .
٤٩٧	ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند	٤٧٥	ذكر قتله للشيخ هود . . .
٤٩٧	ذكر خلاف القاضي جلال . . .	٤٧٧	ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده
٤٩٨	ذكر خلاف ابن الملك مل . . .	٤٧٧	ذكر قتله للشيخ الحيدري . . .
٤٩٩	ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية	٤٧٨	ذكر قتله لطوغان وأخيه . . .
٥٠٠	ذكر قتال مقبل وابن الكولي . . .	٤٧٨	ذكر قتله لابن ملك التجار . . .
٥٠١	ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند . . .	٤٧٩	ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات
٥٠٢	ذكر وصولنا إلى دار السلطان عنده	٤٧٩	ذكر تخريبه لدعلي ونفي أهلها وقتل
٥٠٢	قدومنا وهو غائب . . .	٤٧٩	الأعمى والمقعد . . .
٥٠٢	ذكر وصولنا إلى دار أم السلطان	٤٨٠	ذكر ما افتتح به أسره أول ولايته من
٥٠٢	وذكر فضائلها . . .	٤٨١	منه على بهادور بوره . . .
٥٠٤	ذكر الضيافة . . .	٤٨٢	ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك
٥٠٥	ذكر وفاة يئتي وما فعلوا في ذلك . . .	٤٨٢	ذكر ثورة كشلو خان وقتله . . .
٥٠٧	ذكر إحسان السلطان والوزير إلي في	٤٨٣	ذكر الوقعة بمجبل قراجيل على جيش
٥٠٧	أيام غيبة السلطان عن الحضرة . . .	٤٨٣	السلطان . . .
٥٠٨	ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان	٤٨٤	ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد
٥٠٨	ذكر قدوم السلطان ولقائنا له . . .	٤٨٤	المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن
٥١٠	ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما	٤٨٦	أخت الوزير . . .
٥١٠	أمر لنا به من المراكب . . .	٤٨٦	ذكر ثورة هلاجون . . .
٥١٠	ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من	٤٨٦	ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان
٥١٠	الإحسان والولاية . . .		

- ٥١٤ ذكر عطاء ثان أمر لي به وتوقفه مدة
ذكر طلب الغرماء ما لهم قبلي ومدحي
السلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف
ذلك مدة ٥١٥
ذكر خروج السلطان إلى الصيد
وخروجه معه وما صنعت في ذلك ٥١٧
ذكر الحمل الذي أهديته للسلطان ٥١٩
ذكر الحملين اللذين أهديتهما إليه والحلواء
وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك ٥٢٠
ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة
بالخضرة ٥٢٢
ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة . ٥٢٣
ذكر عادتهم في إطلاع الناس في الولايم ٥٢٤
ذكر خروجي إلى هزار أمروها ٥٢٥
ذكر مكربة لبعض الأصحاب ٥٢٧
ذكر خروجي إلى محلة السلطان . ٥٢٨
ذكر ما هم به السلطان من عقابي وما
تداركني من لطف الله تعالى . ٥٢٨
ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي
عن الدنيا ٥٢٩
ذكر بعث السلطان إلي وأبايتي الرجوع
إلى الخدمة واجتهادي في العبادة ٥٢٩
ذكر ما أمرني به من التوجه إلى الصين
في الرسالة ٥٣٠
ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر
من بعث معي وذكر الهدية ٥٣٠
ذكر غزوة شهدناها بكونل . ٥٣٢
ذكر محنتي بالأسر وخلاصي منه
وخلاصي من شدة بعده على يد ولي من
أولياء الله تعالى ٥٣٣
- ٥٤١ حكاية الأمير خطاب الأفغاني . ٥٤١
ذكر أمير غلابور واستشهاده . ٥٤١
ذكر السحرة الجوكية ٥٤٣
حكاية امرأة كفتار ٥٤٤
حكاية سحر الجوكية ٥٤٤
حكاية بطيخ الشيخ إبراهيم . . ٥٤٦
حكاية ابن أخت الوزير وجاريتته . ٥٤٧
حكاية فيران تأكل الرجال . . . ٥٤٨
ذكر سوق المغنين ٥٤٩
حكاية الثلاثة المخالفين . . . ٥٥٠
حكاية الأعورين ٥٥١
ذكر ركوبنا البحر ٥٥٢
ذكر سلطان هنور ٥٥٦
ذكر الفلفل ٥٥٩
ذكر سلطان منجورور ٥٦٠
ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع ٥٦٢
حكاية مسجد بد فتن ٥٦٣
ذكر مراكب الصين ٥٦٥
ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك ٥٦٦
ذكر القرفة والبقم ٥٦٨
حكاية العراقي القليل ٥٦٩
حكاية رجل قتل بحجة عنبة . . . ٥٦٩
حكاية قتل منقصب سيفاً ٥٦٩
ذكر توجهنا إلى الفوز وفتح سندابور ٥٧١
ذكر أهل جزائر ذببة المهل وبعض
عوائدهم وذكر مساكنهم . ٥٧٤
ذكر نسائها ٥٧٧
ذكر السبب في إسلام أهل هذه الجزائر
وذكر العفاريات من الجن التي تنصر
بها في كل شهر ٥٧٨

- ٦١١ . . . ذكر سلطان بنجالة . ٥٨٠ . . . ذكر سلطنة هذه الجزائر
- ٦١١ . . . حكاية الفقير شيدا . ٥٨١ . . . ذكر أرباب الخطط وسيرهم
- ٦١٢ . . . ذكر الشيخ جلال الدين . . . ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقل
- ٦١٧ . . . حكاية كيف يعاقب الزناة . ٥٨١ . . . حالي بها
- ٦١٨ . . . ذكر سلطان الجاوة . ٥٨٤ . . . ذكر بعض إحسان الوزير إلي
- ٦٢١ . . . ذكر اللبان . . . ذكر تغيره وما أردته من الخروج
- ٦٢٢ . . . ذكر الكافور . . . ومقامي بعد ذلك
- ٦٢٢ . . . ذكر العود الهندي . ٥٨٦ . . . ذكر العيد الذي شاهدته معهم
- ٦٢٢ . . . ذكر القرنفل . ٥٨٧ . . . ذكر تزوجي وولائي القضاء
- ٦٢٣ . . . ذكر سلطان مل جاوة . . . ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد
- ٦٢٤ . . . ذكر عجيبة رأيته بمجلسه . . . الحضرمي الذي نفاه السلطان شهاب
- ٦٢٥ . . . ذكر أردوجا الملكة . ٥٨٨ . . . الدين إلى السويد وما وقع بيني وبينه
- ٦٢٧ . . . ذكر الفخار الصيني . ٥٨٩ . . . ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك
- ٦٢٨ . . . ذكر دجاج الصين . ٥٩٢ . . . ذكر النساء ذوات الثدي الواحد
- ٦٢٨ . . . ذكر بعض من أحوال أهل الصين . ٥٩٤ . . . ذكر سلطان سيلان
- ذكر دراهم الكاغذ التي بها يبيعون . ٥٩٦ . . . ذكر سلطان كنكار
- ٦٢٩ . . . ويشترون . ٥٩٦ . . . ذكر الياقوت
- ٦٣٠ . . . ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم . ٥٩٧ . . . ذكر القروذ
- ٦٣٠ . . . ذكر ما خصوا به من أحكام الصناعات . ٥٩٨ . . . ذكر العلق الطيار
- ٦٣١ . . . ذكر عاداتهم في تقييد ما في المراكب . ٥٩٨ . . . ذكر جبل سرنديب
- ٦٣١ . . . ذكر عاداتهم في منع التجار عن الفشاد . ٥٩٩ . . . ذكر القدم
- ٦٣٢ . . . ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق . ٦٠٢ . . . ذكر سلطان بلاد المعبر
- ٦٣٥ . . . حكاية عجيبة . ٦٠٢ . . . ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين
- ٦٣٧ . . . حكاية قوام الدين السبتي . . . ذكر ترتيب رحيله وشليخ فعله في قتل
- ٦٤٠ . . . ذكر الأمير الكبير قرطي . ٦٠٣ . . . النساء والولدان
- ٦٤١ . . . حكاية المشموذ . . . ذكر هزيمته للكفار ، وهي من أعظم
- ٦٤٣ . . . ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان . ٦٠٤ . . . فتوحات الإسلام
- ٦٤٣ . . . ذكر قصر القان . . . ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه
- ٦٤٤ . . . ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله . ٦٠٧ . . . وانصرافي عنه
- ٦٤٦ . . . ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند . ٦٠٨ . . . ذكر سلب الكفار لنا

٦٨٧	ذكر الأضحوكة في إنشاد الشعراء	٦٤٦	ذكر الرخ
٦٨٧	للسلطان	٦٤٧	ذكر إعراس ولد الملك الظاهر .
٦٨٧	حكاية الجرادة المتكلمة . . .	٦٤٨	ذكر سلطان ظفار
٦٨٨	حكاية عن عدل السلطان . . .	٦٥٠	ذكر سلطان العراق
٦٨٨	حكاية زوجة السلطان وبناث عمه .	٦٥٠	رجوعي إلى دمشق
٦٩٠	حكاية الحسنة بعشر أمثالها . .	٦٥١	حكاية قتل الخبز
	ذكر ما استحسنته من أفعال السودان	٦٥٢	حكاية الوباء المحتاج
٦٩٠	وما استقيحته منها	٦٥٢	حكاية نذر الخليل
٦٩١	ذكر سفري عن مالي	٦٥٣	حكاية الفقير الصائم
٦٩٢	ذكر الخليل التي تكون بالنيل . .	٦٥٤	ذكر سلطان مصر
٦٩٢	حكاية أكلة بني آدم	٦٥٥	ذكر سلطان تونس
٦٩٣	حكاية آكلي خادمة السلطان . .	٦٧١	ذكر سلطان غرناطة
٦٩٣	حكاية حلبي	٦٧٥	ذكر التكشيف
٦٩٤	حكاية أمير لا يحب البكاء . . .	٦٧٦	حكاية ملاعب الحيات
٦٩٧	حكاية جوار معلمات	٦٧٧	ذكر مسوفة الساكنين بإيالاتن .
٦٩٧	ذكر معدن النحاس	٦٧٨	حكاية القاضي وصاحبه
٦٩٨	ذكر سلطان تكدا	٦٨٢	ذكر سلطان مالي
٦٩٩	ذكر وصول الأمر الكريم إلي . .		ذكر تذلل السودان لملكهم وتطريهم
٧٠١	قال ابن جزي	٦٨٥	له وغير ذلك من أحوالهم . .
		٦٨٦	ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه .

فهرس الأماكن

أزاق : ٣٢٦ ، ٣٣١
 أزغغان : ٦٥٧
 أسفى : ١٥٩
 الإسكندرية : ٢٠ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٢٣٠ ،
 ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٦٥٤
 أسنا : ٥٢ ، ٢٨٢
 أسيوط : ٥٠ ، ٢٨٢
 أشركان : ١٩٩
 أشمون الرمان : ٣٥
 الأشمونين : ٢٨٢
 أصبهان : ٦٤٩
 إصطنبول : ٣٥٣ ، ٣٥٠
 أصفهان : ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٣١
 أصيلا : ٦٧٢
 أطرار : ٣٦٧ ، ٣٦٩
 أفغان بور : ٥٢٥
 أفغانبور : ١٨٤
 أقشهر : ٢٨٨
 أقصرا : ٤٦ ، ٢٩٥
 الأقصر : ٥٢ ، ٢٨٢
 أكروهة : ٥٠١
 أكريدور : ٢٨٨
 أكك : ٣٤٤
 ألكات : ٣٦٦
 أم جنيبة : ٧٠٠
 أماصية : ٢٩٧

أ

آب سياه : ٥٣٩
 آت قلنجة : ٦٠٠
 آوة : ١٧٨ ، ١٨٧ ، ٥٦٨
 أبجري : ٤١١
 أبدا بال بور : ٤٣٥
 الأبله : ١٥٧ ، ١٨٩
 أبو ستة : ٥٦٠
 أبو سرور : ٥٥٩
 أبو صير : ٦٥٣
 أبو قبيس : ١٦٧
 أبوهر : ٤٠٦
 أبيار : ٣١ ، ٦٥٤
 الأجر : ١٧٤
 أجودهن : ٤١٠
 أجين : ٥٤٧
 أحد : ١٢٦
 الأحقاف : ٩٠
 إخميم : ٥٠ ، ٢٨٢
 الأخيضر : ١١٢
 إدفو : ٥٢ ، ٢٨٢
 أرز الروم : ٢٩٨
 أرزنجان : ٢٩٨
 ارمنت : ٥٢ ، ٢٨٢
 أريحاء : ١٠٠

بذاون : ٤١١	أمواري : ٥٤٥
برتيك : ٣٠٩	الأنبار : ٦٥٠
برج بورة : ٥٣٨	أندر : ٣٩١
برجين : ٢٩٣	الأندلس : ٦٦٥
بردامة : ٢٩٦	أنطاكية : ٢٨٤ ، ٧٤
بردور : ٢٨٧	أو : ٥٣٢
برشانة : ١٨٧	أوجة : ٤٩٦ ، ٤٠٢
برص : ١٠١	أياسلوق : ٣٠٦ ، ٣٠٣ ، ٢٩٣
برصا : ٣٠٧	إيلج : ٢٣١ ، ١٩٤
برغمة : ٣٠٦	ايوالائن : ٦٧٦
بركة خليف : ١٢٩	
بركة المرجوم : ١٧٥	ب
بركة المعظم : ١١٢	بابا سلطوق : ٣٥٦ ، ٣٤٥
بركي : ٣٠٤ ، ٢٩٨	بالم : ٤١٤
البرلس : ٣٢	الباميان : ٣٦٨
برلو : ٣١٥	ببا : ٤٧
البرهنكار : ٦١٥	البحالصة : ٥٤٠
برون : ٥٤٢ ، ٣٩٢	بجاية : ١٢٧ ، ١٥
بريدو : ٥٧٣	بجنور : ٥٢٥
بزد : ٢٠٩	البحرين : ٢٧٩ ، ٢٣١ ، ١٨٧
بسا : ٦٤٩	بحيرة تئيس : ٣٢
بسظام : ٣٩٠	بحيرة لوط : ٥٦
بسهي : ٥٠٧	بخارى : ٣٢٩ ، ٢٠٠ ، ١٢٧ ، ٧٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٧٠٠
بش بالغ : ٦٤٤ ، ٣٧٧	
بش دغ : ٣٣٩ ، ٣٣٠	بدر : ١٢٨
البصرة : ٦٤٩ ، ١٨٥ ، ١٨٢ ، ٤٦	بدركوت : ٤٩٥ ، ٤٨٩ ، ٤٨٦
بصرى : ١١٠	بدغيس : ٣٨٤
بطالة : ٦٠١ ، ٥٩٣	بدفتن : ٥٧٢ ، ٥٦٣
بطن عرنة : ١٦٩	بدلي : ٥٠٧
بطن مر : ١٧٢ ، ١٣٢ ، ١٣٠	

بيت العجوز : ٥٩٨	بعلبك : ٨٣
بيانة : ٤٤٦	بغداد : ١٠١ ، ٢٢١ - ٢٣٣ ، ٢٣٩ ،
بيت الله الحرام : ١٤ ، ٥١	٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٦٤٩
بيت لاهية : ١٠٣	بغلان : ٣٩٠
بيت لحم : ٥٧	بقاع البزواء : ١٢٩
بيت المقدس : ٥٧ ، ١٠٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٥	بقشهر : ٢٨٨
بئر أريس : ١٢٦	البيقيع : ٢٣٠
بئر بضاعة : ١٢٦	بقيع الفرق : ١٢٤
بئر الحجر : ١١٢	بكار : ٤٠٢ ، ٣٨٧
بئر ذات العلم : ١٢٨	بليس : ٥٣ ، ٧٢ ، ٢٨٢
بئر رومة : ١٢٦	بلخ : ٧٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ،
بئر زمزم : ١٣٧	٣٨٢
بئر ملاحه : ٢٢٠	بلرة : ٥٠٧
بيروت : ٦٢	بلش : ٦٧٠ ، ٦٧٢
البهلاء : ٦٦٤	بلوذة : ٤٩٧ ، ٤٩٩
بيهق : ٣٨٣	بليالة : ٦٥٥
بيوم قتلوا : ٦٣٨	بلي كسري : ٣٠٦
ت	بنجاله : ٤٢٧ ، ٤٦٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ،
	٦١٠
تاج بورة : ٥٣٨	بنج هير : ٣٩١
تارلا : ٤٠١	بندر سلاوات : ٥٩٥
تازي : ٦٥٧	بهرابج : ٤٩٤
تاسرهلا : ٦٧٥	البهتسا : ٤٧ ، ٢٨٢
تبزير : ٧٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣	بودا : ٧٠٠
تبزين : ٧٤	البور : ٥٧٣
تبوك : ١١١ ، ٦٥٥	بوش : ٤٧ ، ٢٨٢
تدمر : ٦٥٠	بوشنج : ١٠٩
ترمذ : ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ،	بولي : ٣١٤
٤٢٥	بونة : ١٦
تروجة : ٢٩	ببسي مريم : ٢٧١

ج

- الجام : ٣٨٤ ، ٣٨٧
 الجاوة : ٦٤٧
 جبال بدششان : ٣٨٠ ، ٣٩١
 جبال الروس : ٣٤٤
 جبال كامرو : ٦١٢
 جبر كاوان : ٦٠٠
 جبل أبي قبيس : ١٣١ ، ١٤٤
 الجبل الأحمر : ١٤٤
 الجبل الأقرع : ٨٢
 جبل بشاي : ٣٩١
 جبل ثور : ١٤٥
 جبل الجودي : ٢٣٦
 جبل حراء : ١٢٣ ، ١٤٥
 جبل رأس دواير : ٢٨٢
 جبل الرحمة : ١٢٨ ، ١٦٩
 جبل الزان : ١٥
 جبل سرنديب : ٥٩٣ ، ٥٩٨
 جبل الشيطان : ١٢٦
 جبل طارق : ١٨٢
 جبل الطبول : ١٢٨
 جبل الطير : ١٤٤
 جبل عوير : ٢٨٣
 جبل الفتح : ٦٦٥ ، ٦٧٢
 جبل قراجيل : ١٨٤ ، ٤٨٣ ، ٥٣٠
 جبل كسير : ٢٨٠
 جبل لبنان : ٨٢
 جبل لمعان : ٢٦٦
 الجبل المخروق : ١٧٤

تستر : ١٩١ ، ٦٤٩

تمز : ٢٤٩

تغازي : ٦٧٤

تكدا : ٢٩٦

تكريت : ٢٣٤ ، ٣٩٦

التكفار : ٣٣١

تلاديب : ٥٧٣

تلبت : ٥٣١

تلمتي : ٥٧٣

تلمسان : ١٥ ، ٦٥٧

التلنك : ٤٣٨ ، ٤٧٢ ، ٤٨٦ ، ٤٩٦ ، ٥٢٨

التناير : ١٧٥

تلبكتو : ٦٨٠ ، ٦٩٤

تلس : ٦٥٧

التنميم : ١٣١ ، ١٤٣

توات : ٦٩٩

توريز : ١٩١

تونس : ١٧٤ ، ١٢١ ، ٦٥٥

تيرة : ٦٣٣

التيم : ٥٧٣ ، ٥٨٢

ث

الشمالية : ١٧٤

الثنية : ١١١

ثنية الحجون : ١٦٤

ثنية كداء : ١٤٣

ثنية كدى : ١٤٣

- الجليل المقطم : ٣٩
 جبل هندوكوش : ٣٩٠
 جبلة : ٧٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٣
 الجحفة : ١٢٩
 جدة : ٥١ ، ١٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٨١ ، ٦٥٤
 جدية : ٤٨٣
 الحديد : ٢٨٢
 جربة : ٦٥٥
 الجريخ : ٣٩٢
 جرفتن : ٥٦١ ، ٥٧٢
 جرون : ٢٧٣ ، ٢٧٦
 الجزائر : ١٥
 جزائر المهل : ٥٥٧
 الجزرات : ٤٩٧
 جزيرة ابن عمر : ٢٣٦
 جزيرة البرزخ : ٣٣
 جزيرة بيزم : ٥٥٣
 جزيرة الجاوة : ٦١٧
 جزيرة جرية : ٢٢
 الجزيرة الخضراء : ١٨٢
 جزيرة سردانية : ٦٥٦
 جزيرة سقطرة : ١٥٥
 جزيرة سندابور : ٥٤٧ ، ٥٥٣
 جزيرة سواكن : ٢٤٥٠
 جزيرة سيلان : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٥٠٠ ، ٥٨٦ ، ٥٩٣
 جزيرة الطير : ٢٦٦
 جزيرة عثمان : ٥٨٢
 جزيرة قيس : ٢٧٦ ، ٥٩٤
 جزيرة كش : ٥٩٤
- جزيرة ملوك : ٥٩٢
 جزيرة منيسي : ٢٥٧
 جزيرة المهل : ٥٨٢
 جزيرة هرمز : ٤٥٤
 الحلالي : ٥٣٢
 حمكان : ٢٠٦ ، ٦٤٩
 جنادل : ٦٨١
 جناني : ٣٩٦
 جنيبيل : ٥٤١
 جنديري : ٤٣٤ ، ٤٩٦ ، ٥٤٥
 جنوة : ٣٠٥
 الجنيب : ٢٨٢
 جوزة : ٥١١
- ح
- الحاج ترخان : ٣٥٦
 الحاجر : ١٧٤
 حانسي : ٤١٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠١
 حبق : ٦١٤
 الحجاز : ٢٣ ، ٤٧ ، ٥٢٩
 الحجون : ١٤٢
 الحديثة : ٦٥٠
 حربة : ٢٣٤
 حصن أبي بكهر : ٤١٠
 حصن الأكراد : ٦٥
 حصن بفراس : ٧٤
 حصن ذكوان : ٦٧٢
 حصن الشغريكاس : ٧٥
 حصن طواس : ٢٩٢
 حصن العزاب : ١٢٦

الخروبة : ٥٤
الخطا : ٤١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ ، ٦٤٢ ، ٦٣٠ ، ٦٤٢
خليص : ١٢٩ ، ١٧٣
الخليل : ٥٥ ، ٦٥٣ ، ٦٥٥
خننج بال : ٢٧٦ ، ٦٤٩
الخنسا : ٤١ ، ٦١٤ ، ٦٣٨ ، ٦٤٦
خوارزم : ٥٢ ، ١٧٠ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ،
٢٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧
خور بوزنه : ٥٩٧
خور الخيزران : ٢١٤ ، ٥٩٨
خور السمك : ٦٠٠
خورفكان : ٢٧٢
الخورنق : ١٨٢

د

دارا : ٢٣٨
دار الطمع : ٧٠٠
داريا : ٩٩
دبال بور : ٤٣٦
دجلة : ٤١
دلاص : ٤٧
دل دينوة : ٦٠٠
دمشق : ٦٣ ، ٨٤ ، ١١٠ - ٣٦٥ ، ٦٥٠
دمنهور : ٢٩ ، ٦٥٤
دمياط : ٣٣ ، ٦٥٣
دنقلة : ٦٨٠
ده فتن : ٥٦٢ ، ٥٧٢
دهلي : ١٥٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٣٣ ،
٣٦٤ ، ٣٩٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ،
٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٧٩ ، ٤٨٦ ، ٤٩٦

حصن المليقة : ٧٦
حصن فيد : ١٧٤
حصن القدموس : ٧٦
حصن القصير : ٧٥
حصن كالپور : ٤٣١
حصن الكرك : ٨٢ ، ١١١ ، ١٢١
حصن الكهف : ٧٦
حصن المرقب : ٨٢
حصن مسلمة بن عبد الملك : ٣٤٦
حصن مصيايف : ٧٦
حصن معشوق : ٢٣٤
حصن مهتولي : ٣٤٥
حصن المينة : ٧٦
حصن هركاتور : ٦٠٢
حلب : ٦٨ ، ٧٦ ، ١٢٧ ، ٣٩٦ ، ٦٥١
الحلة : ١٠١ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٢٠ ،
٢٢٣ ، ٦٤٩
حلي : ٢٤٦
حماة : ٦٦ ، ٣٦٥ ، ٦٥١
حمص : ٦٥ ، ٦٥١
الحمة : ٦٧٠ ، ٦٧٢
حميثرا : ٢٥ ، ٥٣ ، ٢٨٢
الحويزاء : ٢١٨
الحويزا : ٤٦ ، ٦٤٩

خ

خان بالقي : ٤١ ، ٦٤٢
خراسان : ١٧٩ ، ٢٣١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٤ ،
٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ،
٤٢١ ، ٤٩٥ ، ٧٠٠

ز

- الزاهر : ١٤٤
 زاعة : ٦٨٠
 زاغري : ٦٩٣ ، ٦٨٠
 الزاوة : ٣٨٨ ، ٣٨٣
 الزيداني : ٨٣
 زيلع : ٢٥٢
 زبيد : ٢٤٧
 زرعة : ١١٠
 زرود : ٢٤٠
 زكى : ٢٧٢
 زمالة : ١٧٥
 زمزم : ١٦٣ ، ١٣٠
 زود : ١٧٤
 الزيتون : ٤١ ، ٦٢٧ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦
 ٦٤٦
 الزيدين : ٢١٨
 زيرة : ١١١

س

- ساوة : ١٨٧
 سبتة : ٦٧٢ ، ٦٦٤
 سبرقا : ٢٨٧
 السبع مفارات : ٥٩٨
 سجان : ٣٢٥
 سجستان : ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٣٨٦
 سجلماصة : ٦٧٣ ، ٧٠٠
 السخنة : ٦٥٠
 سدكاران : ٦١١

٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٢٧ ، ٥٤٢

- دور اباد : ١٨١
 دولة آباد : ١٨٠ ، ٤٠٢ ، ٤٤٦ ، ٤٧٢
 ٤٧٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٨ ، ٥٢٨ ،
 ٥٤٠ ، ٥٤٧
 ديار بكر : ٢٣١
 دير الفاروس : ٨٢
 دينور : ٦٠٠

ذ

- ذات حج : ١١١
 ذو طوى : ١٤٣
 ذو الكفل : ١٠١
 ذببة المهمل : ٢١٨ ، ٢٦٤ ، ٦٠٣ ، ٦٠٩

ر

- رابري : ٥٤١
 رامز : ١٩١
 رامين : ٢٣١
 الربوة : ١٠٢
 الرحبة : ٦٥٠
 رحبة مالك بن طوق : ٦٩
 الرملية : ٦٠
 رندة : ٦٦٨ ، ٦٧٢
 الروحاء : ١٢٨
 ريغة : ٢٣
 الري : ٢٣١

السودان : ٦٧٣	السرا : ٤١ ، ١٧٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ،
سوسة : ١٨	٣٥٦ ، ٥٢٤
سونمي : ٢٩٧	سراجوق : ٣٥٨
السويد : ٥٧٣	سرادق : ٣٤٤
سويس : ١٢٠	سرت : ٢٠
سيزوار : ٣٨٣	السرجة : ٢٤٧
سيس : ٧٤	سرخص : ٣٨٣ ، ٣٨٨
سيواس : ٢٩٦	سرستي : ٤١٣ ، ٤٥٨ ، ٥٠١
سيوستان : ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٥٢٩	سرمين : ٦٧ ، ٦٥١
ش	سرنديب : ٢١٣ ، ٥٨٢
الشاليات : ٥٧٢	سرياقص : ٤٣ ، ٤٦
الشام : ٥١ ، ٥٣ ، ١٢٠ ، ١٣١ ،	سفاقس : ١٨ ، ٦٥٥
٢٨٢ ، ٥٣٩	سفالة : ٢٥٧
شبة : ٢٧٢ ، ٦٤٨	سلا : ٦٧٢
شنقار : ٣٢٨	السلطانية : ٧٧ ، ٢٣١
شعب علي : ١٢٨	سلطية : ٣٢٩
الشول : ٢١٧	سمرقند : ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ،
شونكاره : ٤٥٦	٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٧٠٠
شيراز : ٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٣٧٦ ،	سمطرة : ٦١٧ ، ٦٢١ ، ٦٤٧
٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٦٤٩	سمنان : ٣٨٤
ص	سمنود : ٣٦ ، ٦٥٣
صاغر : ٥٥٠	سميرة : ١٧٤
الصالحية : ٥٤	سنجار : ٢٣٧
صحار : ٢٧٢	سندابور : ٢٨٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٧١
صحراء بوشنج : ٣٨٤	السند : ٢٥
صحراء قفجق : ٤١ ، ٤٣ ، ١٥٧	سندمور : ٦٥
صر : ٣٦	سنديلة : ٤٩٢
صرصر : ٦٤٩	سزكاوان : ٦١٢ ، ٦١٥
	السوادة : ٥٤
	سوداق : ٣٣١

ظفار اليمن : ٩٠

ظفر آباد : ٤٨٩

ظفار : ٤٨٥ ، ٥٤٦

ع

عانة : ٦٥٠

عبادان : ١٨٩

عجلون : ٦١ ، ٦٥٢

عدن : ١٥٥ ، ١٥٨ ، ٢٥١

العذيب : ١٧٦

العراق : ٣٠ ، ٧٦ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ،

٤٥٧ ، ٣٨٤

عراق العجم : ١٩١ ، ٣٦٨

عرفة : ٩٨ ، ١٣١ ، ١٦٩

العريش : ٥٤

عسفان : ١٢٩ ، ١٧٣

عسقلان : ٥٩

العسيلة : ١٧٣

العطاس : ١١٣

عقبة اسكندر : ٥٩٨

عقبة أيلة : ١١١

عقبة سويس : ١٢٩

عقبة الشيطان : ١٧٥

عقبة الصوان : ١١١

العقر : ٢٣٤

عكا : ٦١ ، ٢٨٣

العلا : ١١٣ ، ٦٥٥

العلايا : ٢٨٣

علاهور : ٥٤١

عمان : ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٣٢٨ ، ٦٤٩

صعداء : ٢٤٧

صعيد مصر : ٥٣

الصفراء : ١٢٨ ، ١٧٣

صفين : ٩٨

صنعاء : ٢٥١

الصنمين : ١١٠

صنوب : ٣١٨ ، ٣٢١

صهيون : ٧٥

صور : ٦١ ، ٢٦٩

صوماء : ٢٠٢

صيدا : ٦٢

الصين : ٢٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ،

٥٣٠ ، ٥٨٢ ، ٦١٤ ، ٦٢٧

صين كلان : ٦٢٧ ، ٦٣٤

ط

الطائف : ١٣٢ ، ١٥٤

طبرية : ٦٢

طرابلس : ١٩ ، ٦٤ ، ٨٠ ، ٢٨٣

طرابلس افريقية : ٦٦٣

طراز : ٣٧٦

طنجة : ١٤ ، ٢٤١ ، ٦٦٤

طوالسي : ٦٢٥ ، ٦٤٦

طوس : ١٧٩ ، ١٨٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨

طيبة (المدينة) : ١١٣ ، ٦٥٤

طيبي : ٢٦١

ظ

ظفار : ٦٤٨

ظفار الحموض : ٢٥٩

ق

- قابس : ١٩ ، ٦٥٥
 القادسية : ١٧٦
 القارورة : ١٧٣
 قاسيون : ١٠١
 قاشان : ١٨٧ ، ٢٣١
 قاقلة : ٦٢٣
 قالقوت : ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٢ ، ٦٠٩ ، ٦٤٨
 قالي : ٦٠٠
 القاهرة : ٤٧ ، ٦٠ ، ٩٥ ، ٦٥٤
 قائم الوائق : ١٨٢
 القحمة : ٢٤٧
 قراباغ : ٧٧ ، ٢٠٥
 قرافة مصر : ٣٩ ، ٥٣٨
 قراقرم : ٣٧٧ ، ٦٤٤
 القرم : ١٥٧ ، ٣٢١ ، ٣٣١
 القرينات : ٢٧٢ ، ٦٤٨
 قري منسا : ٦٩٣
 قزوين : ٥٦٨
 القسطنطينية : ٦١ ، ٨٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٦٢
 قسطنطينة : ١٦
 قشحب : ٥٣٩
 القصر الكبير : ٢٤١
 قصطمونية : ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٨
 القصير : ٦١ ، ٢٨١
 قطيا : ٥٤
 القطيف : ٢٣١ ، ٢٨٠

المعق : ٧٥

- عوض : ٤٨٩ ، ٤٩٣
 عيذاب : ٢٥ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٢٨٢ ، ٦٥٤
 عين الرصد : ٦٣٦
 عينتاب : ٦٥١

غ

- غرناطة : ١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٨٢ ، ٦٧٠
 غزوة : ٥٤ ، ٢٨٣ ، ٦٥٣ ، ٦٥٥
 غزنة : ٣٧٤ ، ٣٩٢ ، ٤٢١ ، ٤٦٠ ، ٤٩٥
 غسانة : ٢٤٩
 الغلطة : ٣٥١ ، ٣٥٣
 الغور : ٦١

ف

- فارس : ٣٢٨ ، ٤٥٧
 فارسكور : ٣٥ ، ٦٥٣
 فاس : ٢٣٦ ، ٦٥٧ ، ٦٧٣ ، ٧٠٠
 فاكثور : ٥٦٠ ، ٥٧٢ ، ٦٠٨
 فتن : ٦٠٥
 الفرات : ٤١
 فرغانة : ٢٣١ ، ٤٧٢
 فرنسة : ٣٠٥
 الفسطاط : ٤٢
 فندرينا : ٥٦٣ ، ٥٧٢
 فنيكة : ٣١٦ ، ٣٤٦
 فوا : ٢٩
 فوجة : ٣٠٥
 فيروزان : ١٩٩

كاهر : ٦٩٩	قميتمان : ١٣١ ، ١٤٤
كاوية : ٣١٠	قلجند : ٤٨٦
كاوي : ٥٥٢	قل حصار : ٢٨٩
كبان : ٦٠٥	قلهات : ٢٣١ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٥٥١ ، ٦٤٨
كبنوك : ٣١١	
الكثيب الأحمر : ١٠٠	القليب : ١٢٨
الكثيب الأخضر : ١٠٠	القليمة : ٢٠٣
كجرا : ٥٤٥	قم : ١٨٧ ، ٢٣١
كرا : ٤٢٧	قنا : ٥٢ ، ٢٨٢
كرايدو : ٥٧٣	قنجنفو : ٦٣٧ ، ٦٤٦
كربلاء : ٢٢١ ، ٣٦٤	القندهار : ٣٩٢ ، ٥٥٢
الكرج : ٢٣١	قندوس : ٣٩٠
كردي بولي : ٣١٥	قنسرين : ٧٤
كرك نوح : ٦٣	قنوج : ٤٩١ ، ٥٣٩
كرله : ٣٠٩	قهستان : ٣٨٢
كرماش : ٣٩٢	قوص : ٥٢ ، ٥٣ ، ٢٨٢
كرمان : ٢٣١ ، ٤١٩	قوكة : ٥٥٣
كرملة : ٦٠٠	قولية : ٢٩٣
الكسوة : ١١٠	القيارة : ٢٣٤
كشك زر : ٤٨٥ ، ٦٤٩	قيسارية : ٢٩٦
الكفا : ٣٢٢	قيس : ٢٧٨
كلبة : ٢٧٢ ، ٦٤٨	
كلنبو : ٦٠٠	ك
كلوا : ٢٥٧	
كليل : ٢٠٢ ، ٦٤٩	كابرة : ٦٨٠
كمال بور : ٤٨٣	كابل : ٣٩٢
كمش : ٢٩٨	كارزي : ٦٤٩
كنباية : ١٥٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٧٧ ،	كارسخو : ٦٨٠
٤٩٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٠	كازرون : ٢١٧
كنبيل : ٤٩١	كاليور : ٥٣٢ ، ٥٤٢

المائق : ٣٧٤ ، ٣٦٥
 مائقة : ٦٦٩ ، ٦٧٢
 مالي : ٦٨١ ، ٦٧٨ ، ٢٨٤
 مائكبور : ٤٢٨
 ماين : ٢٠٣ ، ٦٤٩
 ميرة : ٦٠٥
 المحصب : ١٤٢
 المحلة الكبيرة : ٣١
 المدينة : ١٧٣ ، ١٧٩ ، ٢٣٠
 مراغة : ٧٧
 مراکش : ٥٣ ، ٦٧٢
 مربلة : ٦٦٨
 مرسى الأبواب : ٢٤٧
 مرسى الحادث : ٢٤٧
 مرسى حاسك : ٢٦٦
 مرسى الكرش : ٣٢١
 مره : ٥٤٠
 مرو : ٣٨٢
 المزة : ١٠٣
 المزدلفة : ١٣١
 المساجد : ١٧٥
 مستغانم : ٦٥٧
 مسراة : ٢٠
 مسقط : ٦٤٨
 مسلاة : ١٩
 المشقوق : ١٧٥
 المشيرب : ١٨٥
 مصر : ٤٧ ، ٥١ ، ١٢٠ ، ١٣١ ،
 ٢٨٢ ، ١٥٦
 مطرني : ٣١١

كنبي كري : ٥٦٨
 كندكل : ٥٧٣
 كنكار : ٥٩٥
 كنلوس : ٦٠٩ ، ٥٨١ ، ٥٧٣
 كوتاهية : ٢٨٩
 كورستان : ٦٤٩ ، ٢٧٧
 الكوفة : ٦٤٩ ، ٢١٨
 كوكو : ٦٨٠ ، ٢٢٥
 كول : ٥٣٨ ، ٥٣٢ ، ٤٧٧
 كولم : ٦٤٨ ، ٦٠٨ ، ٥٦٨ ، ٥٥٧
 كيج : ٣٧٦
 كيش : ٢٣١
 كيلوكري : ٦٢٥

ل

اللاذقية : ٦١ ، ٨٠ ، ٢٨٣
 اللار : ٦٤٩ ، ٢٧٧ ، ٢٠٦
 اللارندة : ٢٩٤
 اللجون : ١١١
 اللكنر : ٤٨٩
 لاهري : ٤٠١ ، ٣٩٩
 لاهور : ٤٨٦ ، ٤٢١
 اللور : ١٩٤ ، ١٩١
 لورة : ١٧٥

م

الماجر : ٣٣١ ، ٣٢٨
 ماجول : ١٩١
 ماردين : ٢٣٨
 مازونة : ٦٥٧

منف : ٤٢	مطرية : ١٢١
منفلوط : ٢٨٢ ، ٥٠	المطيلب : ٥٤
منلوي : ٢٨٢ ، ٤٩	معان : ١١١
منوف : ٣١	المعبر : ٥٥٧ ، ٥٢٨ ، ٤٨٤ ، ٤٣٤
المنية : ٣٥	٦٠١ ، ٥٩١ ، ٥٨٢
منية ابن خصيب : ٢٨٢ ، ٤٨	المرة : ٦٥١ ، ٦٧
منية بني مرشد : ٢٨	المعل : ١٦٤
منية القائد : ٢٨٢ ، ٤٧	مغارة الأصفهاني : ٥٩٨
المنيحة : ٩٩	مغارة بابا طاهر : ٥٩٨
المهل : ٥٧٣	مغارة السبيك : ٥٩٨
الموصل : ٣٩٠ ، ٢٤٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣١ ، ١٧٢	مغارة شيم : ٦٠٠
مولي : ٦٨٠	المغرب : ٢١
المولحة : ٢٣٦	مفلة : ٢٩٢
ميلاس : ٢٩٢	مغنيسية : ٣٠٥
ميمية : ٢٩٤	مغرور : ٢٨٢
ميمين : ٦٤٩ ، ٢٠٦	مقدشو : ٢٥٣
ن	مكة : ١٧٢-١٢٨ ، ١٢٢ ، ١١٨ ، ٢٧
نابلس : ٦٠	٦٥٤ ، ٣٦٨ ، ٢٨٠ ، ٢٤٠ ، ٢٣٠
نبلان : ١٩٩	مكجا : ٣١٠
النحف : ١٧٦	مكران : ٣٧٦ ، ٢٣١
نجلة : ٤٩٦	مكناسة : ٦٧٣
نحرارية : ٦٥٤ ، ٣٠	مل جاوة : ٦٢١
نخشب : ٣٦٩	ملتان : ٣٨٠ ، ٣٧٥ ، ٣٢٨ ، ١٨٠
نلربان : ٥٤٩	٤٩٧ ، ٤٨٢ ، ٣٦ ، ٤٤٢٦ ، ٤٠٣ ، ٣٩٥
نزوا : ٢٧١	مليانة : ١٥
نسترو : ٣٢	المليبار : ٥٥٧ ، ٥٥٥ ، ٥٠٠
نسف : ٣٧٩ ، ٣٧٤	منارة القرون : ١٧٥
نصيين : ٢٣٦	منار مندلي : ٥٩٥
النقرة : ١٧٣	منى : ٢٤٠ ، ١٦٩ ، ١٤٣ ، ١٣١
	منجور : ٥٧٢ ، ٥٦٠ ، ٥٤٣

الحضيب : ١٨٥
 هلافيحان : ١٩٨
 هلدتي : ٥٨٠
 هلدتي : ٥٧٣
 هلي : ٦٠٩
 همدان : ٧٧ ، ٢٣١
 هنج : ٢٠٦
 الهند : ٢٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٣ ،
 ٣٨٤ ، ٤٦٢
 هندخير : ٣٩٠
 هنور : ٥٥٤ ، ٥٧٠ ، ٦٠٨
 هنول : ٥٤٠
 هو : ٥١ ، ٢٨٢
 هيت : ٦٥٠
 الهيشمين : ١٧٥
 هيلو : ٥٣٢
 هيلي : ٥٦١ ، ٥٧٢
 و
 وادي الأراك : ١٧٠
 وادي بلدخ : ١١١
 وادي جهنم : ٥٩
 وادي خسرو اباد : ٤٠٣
 وادي راينغ : ١٢٩
 وادي سلا : ١٨٨ ، ٣٥٠
 وادي السمك : ١٧٣
 وادي العروس : ١٧٣
 وادي العقيق : ١٢٨
 وادي القصارين : ٣٧٧
 وادي الكراع : ١٨٥

نكة : ٢٩٥
 نهر آب حياة : ٦٢٧ ، ٦٣٤
 نهر أبسي : ٣٥٠
 نهر ائل : ٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٦
 نهر اصطقلي : ٣٤٦
 نهر أوصو : ٣٥٨
 نهر بنج آب : ٣٩٣
 نهر الجون : ٤١ ، ٥٤٤ ، ٦١١
 نهر جيحون : ٤١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤
 نهر السرو : ٤١ ، ٥٢٥
 نهر سيحون : ٤١
 نهر شليل : ٦٧٠
 نهر صنصرة : ٦٨١
 نهر الكنك : ٤١ ، ٣٩٥ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ،
 ٤٨٩ ، ٥٢٨ ، ٦١١
 نهر النين : ٣٦ ، ٤٠ ، ٦٨٠
 نهر الوالة : ٤٥٣ ، ٤٩٧
 الثوبة : ٦٨٠
 الثيرب : ١٠٣
 نيسابور : ٣٨٢ ، ٣٨٩
 لينوي : ٢٣٥
 ه
 هجر : ٢٨٠
 هدية : ١١٣
 هراة : ١٧٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٣٦٨ ،
 ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٩
 هرمز : ١٥٧ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٦١ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٦٤٩
 هزار أمروها : ١٨٤ ، ٥٢٥

ورنكل : ٤٧٢ ، ٤٨٤

ي

يزد : ٢٣١

يزدخاص : ٢٠٢ ، ٦٤٩

يزمير : ٣٠٤

يزنيك : ٣٠٩

اليماة : ٢٨٠

اليمن : ١٥٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٣٢٨ ، ٤٥٤

ينجا : ٣١٠

يوفي : ٦٨٠

وادي كرة : ١٨٢

وادي الكروش : ١٧٤

وادي محسر : ١٦٩

وادي المنصورة : ١٨٧

وادي نخلة : ١٣٢ ، ١٤٧

وادي النمل : ٦٠

واسط : ١٩٣

واقصة : ١٧٥

وبكنة : ٣٦٦

الورادة : ٥٤

ورقو : ٢٣١

فهرس الأشخاص

ابن عبد الحميد ٣٣٧
 ابن عدي ٦٧٤
 ابن العميد ٣٤
 ابن قريعات الطنجي ٦٥٧
 ابن قفل ٣٣
 ابن قلم شاه ٢٩٣
 ابن كنز الدين ٦٨٠
 ابن الكولمي ٤٥٤ ، ٤٩٨
 ابن المرتضى ٥٣
 ابن ملجم ٢١٩ ، ٢٧٢
 ابن المؤيد ٨١
 ابن النعمان ٣٥
 أبو إبراهيم إسحاق الجفاني ٦٩٦
 أبو أحمد الجسني ٣٨٦
 أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرقيق الربيعي ١٧
 أبو إسحاق إبراهيم ٦٦٨
 أبو إسحاق ، ملك شيراز ٢٠٢ ، ٢٣١ ،
 ٣٧٦ ، ٤٥٤
 أبو إسحاق بك ابن الدندار بك ، سلطان
 اكريدور ٢٨٨
 أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو ٢٠٧
 أبو إسحاق الساحلي الفرناطي ٢٩٤ ، ٦٨٩
 أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى ٢٤١
 أبو إسحاق الكازروني ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٥٦٤ ،
 ٦٣٣

أ

أصف بن برخياء ٣٥١
 إبراهيم بن أحمد الرفاعي ٢٩٨
 إبراهيم بن أدهم ٦٤ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٢٨٣ ،
 ٣٨٢
 إبراهيم بن رسول الله ١٢٥
 إبراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه ٣١٩
 إبراهيم بن محمود بن سبكتكين ٤٢١
 إبراهيم التتري ٤٩٢
 إبراهيم الجسني ٧٩
 إبراهيم خان ٤٨٠
 إبراهيم المعروف بالخريطة دار ٤٨٨
 إبراهيم شاه بندر ٥٦٤
 إبراهيم شاه ابن الأمير سنينته ٢٣١
 إبراهيم القونوي ٥٠٥ ، ٦٧٢
 ابن بداء ٦٧٧
 ابن تيمية ٧٥
 ابن الخليلي ٢٤٠
 ابن راحة ٢٨
 ابن الزهراء ٩٥
 ابن زيري ٦٧٤
 ابن السوامي ٥٩٤
 ابن عبد الرزاق ٣٢٠
 ابن عبد الحكم ٤٠

أبو الحسن بن رزق الله ١٥٤
 أبو الحسن البيادري ٢٤١
 أبو الحسن الخرقاني ٣٩٠
 أبو الحسن الزيلعي ٢٤٩
 أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر
 الداودي ١٠٩ ، ٢٢٦
 أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري ١٥٣
 أبو الحسن سهل بن مالك الأزدي ١٢٢
 أبو الحسن الشاذلي ٢٥ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٢٨٢
 أبو الحسن العبادي العراقي ٥١٣
 أبو الحسن علي بن أحمد بن المحروق ٦٧٢
 أبو الحسن علي بن سليمان الرياسي ٦٧٢
 أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ١٥٤
 أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد القرطبي ٨٦ ، ٧١
 أبو الحسن علي بن النبيه ٢٢٣
 أبو الحسن اللخني المالكي ١٨
 أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور بن علان
 العرضي ٢١٥
 أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن
 الخلف القطيعي ١٠٨
 أبو الحسن الناميسي ٦٥٦
 أبو حسون زيان بن أمريون العلوي ٦٥٦
 أبو الحسين بن جبير ٨٤ ، ٢٢١
 أبو حفص عمر البكري ٣٦٠
 أبو حفص عمر الفاروق ١١٤
 أبو حفص عمر النسفي ٣٧٩
 أبو حنيفة الإمام ٢٢٦ ، ٣٨٢ ، ٤٠٢
 أبو الدرداء ٩٩
 أبو دلف محمد ٢٧٧
 أبو الربيع سليمان بن داود العسكري ٦٦٨

أبو أيوب الأنصاري ١١٥ ، ١٢٥
 أبو البركات البربري المغربي ٥٧٩
 أبو البركات بن الحجاج ٣٦٨
 أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي
 البلعي ٦٧١
 أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي ٢١٥
 أبو بكر بن عمر ، سلطان مقدشو ٢٥٤
 أبو بكر خان ٤٣٠
 أبو بكر الشيلي ٢٢٦
 أبو بكر الشيرازي ١٥٣
 أبو بكرة ، صاحب رسول الله ١٨٨ ، ٦٤٩
 أبو بكر الصديق ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ، ١٨٧
 أبو بكر الصنوبري ٧٠
 أبو بكر المجبي ٤٨
 أبو بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي ٦٧٠
 أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز ٢٢٦
 أبو بكر بن يعقوب ٦٩١
 أبو تاشفين ١٥
 أبو تمام ، حبيب بن أوس ٢٢٢
 أبو تراب النخشي ٣٦٩
 أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم
 الجذامي ٦٧١
 أبو جعفر المنصور ١٤٢ ، ١٦٤ ، ٢٢٤
 أبو حامد الغزالي ٣٨٨
 أبو الحجاج الأقصري ٥٢ ، ٢٨٢
 أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن
 يوسف بن نصر ٦٧١
 أبو الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري ٦٦٨
 أبو الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف بن
 عبد الحق ٦٥٥

أبو الربيع سليمان العباسي ١٥٦
 أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ٢١٥
 أبو زكريا يحيى بن السراج الرندي ٦٦٥
 أبو زكريا يحيى بن سليمان العسكري ٦٥٦
 أبو زياد بن ودرار ٦٥٧
 أبو زيد عبد الرحمن بن أبي العباس بن خلوف ٢٤١
 أبو زيد عبد الرحمن ٢٧٧
 أبو زيد عبد الرحمن الصوفي ٢٤٨
 أبو سعيد بن أبي يوسف بن عبد الحق ١٤ ،
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٤٥٧
 أبو سعيد بن محمد خدائنده ٧٧
 أبو سعيد بهادرخان ٢٢٧
 أبو سعيد فرج بن قاسم ٦٧١
 أبو سليمان الداراني ٩٩
 أبو الششتري ٢٩٢
 أبو الصبر أيوب الفخار ٢٤١
 أبو الطيب بن أبي عبد الله النفزاوي ١٥
 أبو عبادة البحثري ٧٠
 أبو العباس الأبياني ٢٤٨
 أبو العباس أحمد الأندلسي الوادي آشي ١٤٦
 أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق ١٢٢
 أبو العباس أحمد الرفاعي ١٨٣ ، ٢٩٧
 أبو العباس بن أبي علي البلنسي ٢٤١
 أبو العباس بن عبد الظاهر ٥١
 أبو العباس بن مكّي ٦٥٥
 أبو العباس بن نافوت ٢٤١
 أبو العباس الحجازي ١٠٨
 أبو العباس الخليفة ١٥٦ ، ٤٥٤
 أبو العباس الفساري ١٥٤
 أبو العباس الفاسي ١٢٣

أبو العباس المرسّي ٢٥
 أبو العباس النهاوندي ٢٠٢
 أبو العباس بن يعقوب الأصم ٢١٥
 أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى ٥٩
 أبو عبد الله الأيلي ٦٥٦
 أبو عبد الله بن إبراهيم الشهير بالمكي ١٨٢
 أبو عبد الله بن أبي جعفر بن أبي عبد الله
 الطنجالي ٦٧٠
 أبو عبد الله بن خفيف ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٥٩٥ ،
 ٦٠٠
 أبو عبد الله بن عبد الملك ٦٦٩
 أبو عبد الله بن عطاء الله ٢٤١
 أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري ١٠٩
 أبو عبد الله بن هارون ٦٥٦
 أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك
 الزبيدي ٢١٥
 أبو عبد الله الرازي ٣٢
 أبو عبد الله الزواوي ١٥
 أبو عبد الله الساحلي ٦٧٠
 أبو عبد الله السطّي ٦٥٦
 أبو عبد الله السمرقندي ٦٧٢
 أبو عبد الله الفارسي ٢٤
 أبو عبد الله مالك بن أنس ١١٥ ، ١٢٥
 أبو عبد الله محمد ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٦٢
 أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البيهقي ٦٧١
 أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن
 إبراهيم النفزاوي ١٥
 أبو عبد الله محمد بن أبي تميم ١٩
 أبو عبد الله محمد بن أبي العباس الخزرجي ١٧
 أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني

الكريلاني ١٨٢

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ٣٧ ،

٣٩ ، ٢١٥

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ٣٦٦

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي ١٠٨

أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي المروي ٢٣٨

أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي

الزبيدي ١٥

أبو عبد الله محمد بن حنبل ٢٢٧

أبو عبد الله محمد بن سيد الناس ١٥

أبو عبد الله محمد بن الصباغ ٦٥٦

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ١٤٠ ، ٦٥٤

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن

إبراهيم اللواتي ٩ ، ٦٧١

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي ٦٧٣

أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلسي ٦٦٧

أبو عبد الله محمد بن فرحون ١٢٠

أبو عبد الله محمد بن ميثب الفرناطي ٥٩

أبو عبد الله محمد بن محمد الفرناطي ١٢١

أبو عبد الله المرسي ٢٤١

أبو عبد الله المرشدي ٢٨ ، ٥٣٨

أبو عبد الله المفسر ١٥

أبو عبيدة بن الجراح ٦١ ، ٨٨

أبو علي الزبيدي ٢٤٨

أبو علي عمر بن أبي عبد الله محمد بن المحروق

٦٧٢

أبو علي عمر بن عبد الرليح ٦٥٦

أبو علي عمر بن علي بن قداح الهواري ١٨

أبو عمر بن عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي

٢٢٦

أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبي ٩٣

أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التناقلي ٦٥٦

أبو عمر عثمان بن عفان ١٢٥

أبو عثمان ٤٣ ، ٣٨٩ ، ٦٥٧

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ٣٧٩

أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جمار بن شيعة

الحسيني المدني ١٧٩

أبو الفتح بن وكيع ٣٢

أبو الفتح كشاجم ٧١

أبو الفتيان بن جبوس ٧١

أبو القاسم بن بنون المالكي ٣١

أبو القاسم بن رضوان ٦٨٥

أبو القاسم بن شعبان ٤٠

أبو القاسم الحنيد ٢٠١ ، ٢٢٧

أبو القاسم محمد بن أبي عبد الله بن عاصم ٦٧١

أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني البسي

٦٧١

أبو القاسم محمد بن محمد ١٢٢

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ٣٦٠

أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة ٦٦٨

أبو لعب ١٤٣

أبو المجاهد محمد شاه ٣٩٥

أبو محمد البشري ٦٧٣

أبو محمد بن أبي بكر بن عيسى ٢٦١

أبو محمد بن فرحون ٦٥٤

أبو محمد بن القابلة ٢٤١

أبو محمد بن مسلم ٢٤١

أبو محمد بن نيهان ، سلطان عمان ٢٧٢

أبو محمد الزجندري ٦٧٢

أبو محمد الشروي ١٢٣

أبو يحيى زكرياء ٢٢
 أبو يحيى عبد الرحيم بن نباتة ٧٣
 أبو يزيد البسطامي ٣٩٠
 أبو يعقوب بن عبد الرزاق ٢٤٣
 أبو يعقوب السوسي ١٨
 أبو يعقوب يوسف ٦٣ ، ١٥٤
 أبي بن كعب ٩٨ ، ١١٦
 أتييل بن كيش بن جمار ٢٥٨
 أنير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الفرغاطي ٤٦
 أحمد بن إياس ١٨١ ، ٣٧٥ ، ٤١٤ ، ٤٤٠
 أحمد بن حكامه ٢٤١
 أحمد بن حنبل ١٠١ ، ٢٠٥
 أحمد بن رميثة ٢٤١
 أحمد بن سيرخان ٥٤٢
 أحمد بن صبيح ١٦٢
 أحمد بن العجيل اليماني ٢٤٨
 أحمد بن الملك الناصر ٢٨٠
 أحمد التبريزي ٦٧٢
 أحمد الدينوري ٢٠١
 أحمد الرفاعي ٩٨
 أحمد شنوراة ٥٧٩
 أحمد كوجك ١٨٣
 اختيار الدين أورخان بك ، سلطان برصا ٣٠٨
 أرتنا ، الأمير ٢٣١ ، ٢٩٥
 أرخان بك ٣٠٠
 أردوجا ، الخاتون ٣٣٢ ، ٣٣٦
 أرسلان المعروف بالباز الأشهب ٩٨
 أرغون الدودار ٤٣ ، ٧٢ ، ١٧٠
 أرغون شاه ١٠٠ ، ٣٨٣ ، ٦٥١
 أرون بقا البخاري ٥١٠

أبو محمد الصنعاني ٢٤٨
 أبو محمد عبد الله بن أحمد بن السرخسي ١٠٩ ،
 ٢٢٦
 أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن
 بهرام الدارمي ٢٢٥
 أبو محمد بن عبد الله بن علي الرشاطي ٣٣
 أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقي التوزري
 ١٤٦ ، ٥٨٦
 أبو محمد عبد الله الحسني ٥١
 أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ٣٣
 أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ٦٦٩
 أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي
 البغدادي ٢٢٢
 أبو محمد عبيد الله الحضري ٢٤١
 أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي
 الإشبيلي ١٠٨
 أبو محمد يندكان المسوفي ٦٧٣ ، ٦٧٨
 أبو مدين شعيب بن الحسين ٩٨
 أبو مروان بن مكّي ٦٥٥
 أبو المظفر حسن ، سلطان كلوا ٢٥٨
 أبو المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن
 اللقي الخزاعي ١٠٨
 أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور ٦٧٢
 أبو النجاة ٢٩
 أبو ثواس ٢٣٧
 أبو هاشم عبد الملك الزبيدي ٢٦٢
 أبو الوحش سبّح بن خلف الأسدي ٨٦
 أبو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجري ٢٢٦
 أبو الوليد إسماعيل ٢٤٩
 أبو يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص ١٧

٥٤١ بدر الحبشي
 ٤٤ بدر الدين بن البابه
 ٤٤ بدر الدين بن جماعة
 ٧٤ بدر الدين بن الزهراء
 ٢٩٥ ، ٢٩٣ بدر الدين بن قرمان
 ٤٦ بدر الدين الحسيني
 ٥٤ بدر الدين الحوراني
 ٤٦ بدر الدين عبد الله المنوفي
 ٩٤ بدر الدين علي السخاوي المالكي
 ٥٠٢ ، ٤٠٥ بدر الدين الفصاح
 ٣٣٨ بدر الدين القوامي
 ٥٦١ بدر الدين المعبري
 ٣٧٠ بدر الدين الميمني
 ٢٤٧ بدر الدين النقاش
 ٣٩٢ ، ٣٧٤ برطب ، الأمير
 ٥٢ برهان الدين إبراهيم الإندلسي
 ١٥٣ ، ٨٢ برهان الدين إبراهيم المصري
 ٤١٠ ، ٢٤ برهان الدين الأعرح
 ٤٥٦ برهان الدين بن البركح
 ١٦ برهان الدين ابن بنت الشاذلي
 ١٤ برهان الدين بن الفركاح
 ٥٥ برهان الدين الجعبري
 ٦١٤ ، ٤٥٧ ، ٦١٤ برهان الدين الصاغرجي
 ٤٦ برهان الدين الصفافسي
 ٤٥ برهان الدين عبد الحق
 ٢٥٣ برهان الدين المعجمي الواعظ
 ٦٣٣ برهان الدين الكازروني
 ٢٣٩ برهان الدين الموصللي
 ٣١٩ بروانة ابن السلطان علام الدين الرومي
 ٣٧٤ بشاي أغلي

٥٠٢ أرون التركي
 ٦٩٨ إزار ، سلطان تكدا
 ١٤٨ أسد الدين رميشة
 ٦٠٥ أسد الدين كيخسرو الفارسي
 ١١٥ أسعد بن زرارة
 ٣٩٢ إسماعيل الأفغاني
 أشهب بن عبد العزيز
 ٤٠ أصبغ بن الفرج
 ٦٣٨ أفر الدين
 ٧٧ الأفرم ، أمير حبص
 ٩٩ أم الدرداء
 ١٢٥ أم الزبير بن العوام
 ٥٦ أم سلمة فاطمة بنت الحسين
 ١٨٣ ، ٩٨ أم عبيدة
 ٩٩ أم كلثوم بنت رسول الله
 ٩٩ أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب
 ٩٩ أم مريم
 ٤٩٩ ، ٢١٠ ، ٤٩٩ أمير بخت بن تاج الدين
 ٥١١ ، ٥٠٩ ، ٤٩٩ أمير طومان
 ٦٤٤ أنس بن مالك ١٨٨ ، ٦٤٩
 أوسد الدين السنجاري ٦٣٥
 أوزبك السلطان ٣٥٦ ، ٥٢٥
 أولوخان ٤٣٦
 أويس القرني ٩٨
 ٣٣٧ ، ٣٣٢ أيت كججك

ب

٥٦٠ باسدر ، سلطان فاكور
 ٦٤٣ بشاي ، سلطان الصين والخطا

ت

تاج الدين الأردوي ٦٣٣
 تاج الدين الأصهباني ٦١٧
 تاج الدين بن الكولي ٥٠٠
 تاج الدين بن الكويك ٢٤٠
 تاج الدين الرفاعي ٥٩
 تاج الدين السلطانيوكي ٣١٦
 تاج الدين محمود ٢٠١
 ترابك خاتون ٢١١ ، ٣٦١
 ترك تاج الملك نصرة خان ٤٨٩
 تقيبا الأمير ٣٦٩
 تقي الدين الأخنائي ٤٥
 تقي الدين بن تيمية ٩٥ ، ٥٦ :
 تقي الدين بن دقيق العيد ٤٥
 تقي الدين بن السبكي ٦٥١
 تقي الدين بن السراج ٥١
 تقي الدين بن الصائغ ٦٥٢
 تقي الدين عبد المحسن الواسطي ١٨٣
 تقي الدين المصري ١٥١
 تكفور بن جرجيس ، سلطان القسطنطينية ٣٣٦ -
 ٣٤٩
 تكين الملك ٤٣٨
 تليكتور ٣٢٢
 تيمور الملك ٤٣٨ ، ٤٨٦
 تميم الداري ١١٩
 تنكير خان التتري ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ،
 ٣٩١ ، ٦٢٨ ، ٦٤٤
 التيروري ، سلطان كولم ٥٦٩

بشر الحافي ٢٢٧

بشتك ٤٤
 بغرة الملك ٤٤٧
 بكتنور الساتي ٤٣ ، ٢٨٠
 بكر بن أرغون ١٧٠
 بلال الحبشي ٣١٩
 بلال ديو ٦٠٤
 بنجي التتري ٤٩٢
 به زاد ٤٩٧
 بهاء الدين أبو زكريا الملتاني ١٩١ ، ٥١٣
 بهاء الدين بن سلامة ١٢٠
 بهاء الدين بن عبد العزيز ٥٢
 بهاء الدين بن غانم ٦٥
 بهاء الدين بن عقيل ٤٦
 بهاء الدين بن الفلكي ٤٥٣ ، ٥٢٠
 بهاء الدين الخشي ١٩٣
 بهاء الدين الطبري ٥٢ ، ١٥٠
 بهاء الدين كشت اسب ٤٨١
 بهادر الحجازي ٤٤
 بهادر عبد الله ٨٠
 بهرام جور ٥٠٩ ، ٥٣٩
 بهرام ملك غزنة ٤٦٠
 البهلوان محمد الخويج ١٧٢ ، ٢٤٠
 بهلول الشولي ٢١٧
 بوزن أغلي ٣٧٣
 بيبرس الششكير ١١١
 بيدر الأير ٣٤٦
 بيلون خاتون ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦٧

ث

ثابت الهنائي ٦٤٩

ج

جالنسي ، سلطان قندهار ٥٥٢

جان بك ٣٣٢ ، ٣٣٧

جرجيس الملك ٣٥٣

جعفر بن محمد المسوفي ٢٩٦

جعفر التوائي ٦٩٩

جعفر الصادق ٣٩٠

جلال الأفغاني ٤٧٨

جلال الدين أحسن شاه ٤٨٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦

جلال الدين الأرنؤجاني ٢٨٤

جلال الدين بن صلاح الدين صالح ٢١٨

جلال الدين بن الفقيه ١٧٨

جلال الدين بن الفلكي التوريزي ٢١٠

جلال الدين التبريزي ٦١٢

جلال الدين الرومي ٢٩٤

جلال الدين ، سلطان لار ٢٧٧

جلال الدين السمرقندي ٣٦٠

جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ٣٦٧

جلال الدين الشيرازي ٦٣٩

جلال الدين عيد الحق المصري ٨١

جلال الدين العمادي ٣٦٠

جلال الدين فيروز شاه الخلجي ١٥٥ ، ٤٢٨

جلال الدين القاضي ٤٩٧

جلال الدين الكيجي ٤٠٢ ، ٥٠٩

جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهرري ١٤٠

جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ٩٣

جليبي ، سلطان قل حصار ٢٨٩

جلوخان بن الجوبان ٢٢٩

الجمالي ، الأمير ٢٨ ، ٤٤

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد

الرحمن المزني الكلبي ١١٠

جمال الدين الأسيوطي ١٢١

جمال الدين بن جملة ٩٦

جمال الدين بن السديد ٥٢

جمال الدين بن شجرة ٧٥

جمال الدين بن اللوكي ١٨٦

جمال الدين بن مطهر ٢٠٤

جمال الدين الحويراثي ٤٦ ، ٢١٨

جمال الدين الساي ٣٣

جمال الدين السنجاري ٢٣٩

جمال الدين الشريشي ٦٦

جمال الدين علي بن المنصور ٦٩

جمال الدين المزي ٤٥٦

جمال الدين المسلاقي ٦٥١

جمال الدين محمد بن حسن ٥٥٦

جمال الدين المصري ١٢١

جمال الدين المغربي ١٢٧ ، ٤٦٣ ، ٥٤٧

جمال الدين الهنوري ٥٧٠ ، ٦٠٨

جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزني ١٠٣

جود بن عابر ٢٦٢

جيجا أغا ٣٦١

ح

حاجي بن جلال الدين ٦٠٢

حاجي كارون ٤٤٦ ، ٤٥٧

حبيب العجمي ١٨٨ ، ٦٤٩

خاين خانان ٤٣٥
 خذاوند زاده غياث الدين ٥٠٩ ، ٥١١
 خذاوند زاده قوام الدين ٣٩٣ ، ٤٠٤ ،
 ٤٦٨ ، ٥٠٩
 خديجة أم المؤمنين ١٤٠
 خديجة بنت جلال الدين ٥٨٠
 خديجة بنت خويلد ١٤٢
 خصيب ٤٨
 خضر بن محمد بن آيين ٣٠٠ ، ٣٠٤
 خضر بك بن يونس بك ، سلطان أنطاكية ٢٨٧
 خضر خان ٤٣٠
 خضر العجمي ١٥٣
 خطاب الأفغاني ٥٤١ ، ٥٤٨
 خليل ابن السلطان اليسور ٣٧٦ ، ٣٨٢
 خواجه كافي ٢٠٢
 الخوارزمي ٢٩٣

د

دادا أمير علي ٣١٦
 دانيال العجمي ١٤٠
 داود بن علي ٣٨١
 داود بن قطب ٤٩٢
 داود الطائي ٢٠٢ ، ٢٢٧
 دجلي التري ٤٨٠
 دلشاد بنت دمشق خواجه امرأة أبي سعيد
 ٢٣٠ ، ٦٥٠
 دلشاد الهندي ٣٠ ، ٥٣٨
 الدرطاش بن الجوبان ٢٣٠
 دورخان ، سلطان بلي كسري ٣٠٧
 دنكول ، سلطان قوكة ٥٥٣

حبيب التجار ٧٤
 الحجاج بن يوسف ٣٩٦
 حجة الدين ، أمير البصرة ١٨٥
 الحديبي ملك البجاة ٥٣
 حسام الدين البخاري ٣٣٨
 حسام الدين محمود ١٩١
 حسام الدين المشاطي ٣٦١
 حسام الدين اليافي ٣٦٩ ، ٣٧١
 الحسن الأقصاري ٢٧٤
 الحسن بن أبي الحسن البصري ١٨٨ ، ٢٠٢ ،
 ٦٤٩
 الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٥ ، ١٢٥
 حسن الجرائي ١٨٢
 حسن خواجه بن الدرطاش بن الجوبان ٢٢٩ ،
 ٢٣١
 الحسن بن زيد ١١٨
 الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني ٢١٥
 حسن المغربي المجنون ١٥٨
 الحسين بن علي ٣٩ ، ٦٠ ، ٩١ ، ١٢٤ ، ٢٢١
 حسين بن الأمير غياث الدين الغوري ٢٣١ ،
 ٣٧٦ ، ٣٨٢
 حسين الخراساني ٦٧٢
 حسين السلاط ٥٦٠
 حليلة السعدية ١٨٨ ، ٦٤٩
 حمزة بن عبد المطلب ٥٨ ، ١٢١
 حيار بن مهنا بن عيسى ١٧٤

خ

خالد بن الوليد ٦٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٣١ ، ١٩١
 الخان بن غياث الدين بن بلبن ٤٢٦

زاده الدمشقي ٤٥٦
زاده النهاوندي ٤٧٤
زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور ، ١٦٩ ،
١٧٣

الزبير بن العوام ١٨٧ ، ٥٣٢ ، ٦٤٩
زيد بن أبي نجي ٢٤٥
زيد بن أرقم ٢١٨
زيد بن ثابت ١٣٨ ، ٢١٨
زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الواحد
ابن أحمد المقدسي ١١٠
زين الدين بن الأصيل ٢٤٠
زين الدين بن مخلوف ٤٥
زين الدين بن الواعظ ٢٩
زين الدين الطبري ١٥٢
زين الدين مبارك ٤٣٣
زين الدين المقدسي ٣٦٠
زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي
طالب ١٩٢

س

ساروجة الرومي ٣٤٥
ساروجة الصغير ٣٥٦
ساطي بك بنت السلطان خدابنده ٢٢٩
سالار عود ٤٩٤ ، ٥٢٨
سالم بن عبد الله الهندي ٢٥٢
سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن عمران
الريعي ١٠٨
سراج الدين بن الكوكب ٢٩٤
سراج الدين عمر المصري ١٢٠ ، ٢٤١
سرتين عماد الملك ٣٩٤ ، ٤٤٩

دنيا خاتون ٢٢٨
دوغا ، الترجمان ٦٨١
دولسة ، الأمير ٦١٧

ر

رأي كنبيلة ٤٨١
راهمة البدوية ٥٩
الراشد ٢٢٦
الراضي ٢٢٦
رام دو ، سلطان منجورور ٥٦٠
الربيع بن سليمان المرادي ٢١٥
رجب البرقي ١٥٧ ، ٥٤٠
رجب النهر ملكي ٣٢٦
رشيد الدين الألفي اليمني ٢٤٣
رضية بنت شمس الدين ٤٢٣
رضي الدين يحيى ٣٦٠
ركن الدين بن جلال الدين ٤٢٨
ركن الدين بن شمس الدين بن بهاء الدين بن
زكريا القرشي ٢٥ ، ٣٩٧ ، ٤٢٣ ،
٤٣٦ ، ٤٧٥ ، ٤٨٢

ركن الدين العجمي التوريزي ١٥٧ ، ١٨٨
ركن الدين بن القوبع التونسي ٤٦
روح الدين ٢٠٤
روزجهان القبلي ٢١٤

ز

زاده الأخلاطي ٣٠٤
زاده الأصهباني ٥٥١
زاده الحرباوي ٢٤١
زاده الخراساني ٣٢٢

سري السقطي ٢٠٢ ، ٢٢٧
 سعادة التلنكي ٥٤٦
 سعيد بن أبي وقاص ١٧٦ ، ٢٢٠
 سعد بن عبادة ٩٩
 السعدي ، أمير النحرارية ٣٠
 سعيد البجائي ٨١
 سعيد بن علي الجزولي ٦٩٦
 سعيد المراكشي ١٢٣
 سعيد المكي ٣٩١
 سعيد الهندي ١٥٤
 سفيان الثوري ٩٠
 سكةنة بنت الحسين ٩٩ ، ٢١٩
 سلف الدين يملك ٢٩
 سلمان الفارسي ١٢٦
 سليمان بادشاه ، سلطان قسطنطينية ٣١٧
 سليمان بن عبد الملك ١١٨
 سليمان بن محمد بن آيدين ٣٠٠
 سليمان خان ٤٥٧
 سليمان الشيرازي ٦٥٣
 سليمان الصفدي الشامي ٥٦٦
 سليمان مانايك ٥٨٤ ، ٥٨٧
 سليمان الملياني ٦٥٣
 سنبل الجامدار ٥٣٨
 سنبل الهندي ٣٤٤ ، ٣٤٩
 سهل بن حنظلة ٩٩
 سهل بن عبد الله التستري ١٨٨ ، ٦٤٩
 سهيل بن رافع بن أبي عمر بن عائذ بن النجار ١١٥
 سيف الدولة ٦٩
 سيف الدين الباخري ٣٦٨
 سيف الدين بن عصبة ٣٦٠

سيف الدين تقزدمور ٢٤١
 سيف الدين تنكير ٥٧ ، ٩٦
 سيف الدين الجوبان ١١٠ ، ١٧٠
 سيف الدين الطنطاش ٧٥
 سيف الدين عطيفة ١٤٨
 سيف الدين عمر ٦٤٨
 سيف الدين غدا بن مهنا ١٥٥ ، ٤١٨ ، ٤٦٣
 سيف الدين الكاشف ١٥٧
 سيف الدين يملك ١٥٩ ، ٢٤١

ش

شادي خان ٤٣٠
 شامر بن دارج الخفاجي ١٨٢
 شاه افغان ٤٩٧
 شاه بك ، سلطان كردي بولي ٣١٥
 شاه ينجو ٢٠٧
 شجاع الدين أوركخان بك بن المنتشا ، سلطان
 ميلاس ٢٩٣
 شداد بن عمر ١٦٢
 شديد الدين أبي الوقت عبد الأول بن عيسى
 ابن شعيب بن إبراهيم السجزي الهروي ١٠٩
 شرف الدين الأذري الحوراني ١١٠
 شرف الدين بن محسن ٨٥
 شرف الدين بن العجمي ٧٤
 شرف الدين بن عبد الرحيم ٥٠
 شرف الدين التبريزي ٦٣٣
 شرف الدين الحموي ٧٥
 شرف الدين ، خطيب الفيوم ٩٤
 شرف الدين الخشي ٦٥٣
 شرف الدين الدميري الشافعي ٣١ ، ٤٩

- شمس الدين الذهبي ٤٥٦
شمس الدين السائل ٣٢٣
شمس الدين السمناني ٢١٦ ، ٤٥٧
شمس الدين السنجري ٣٦٠
شمس الدين السندي ١٩٤
شمس الدين الفوشنجي ٥٠٦ ، ٥١٠
شمس الدين ، قاضي القدس ٥٤
شمس الدين القلوي ٣٢
شمس الدين كلاه دوز ٥٥٠
شمس الدين كردن بريدا ٣٧٤
شمس الدين للمش ١٥٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥
شمس الدين محمد الأوهري ١٧٨
شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم
الهكاري ١١٠
شمس الدين محمد بن علي ٢٧٥
شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف
بالرجاء ٢٠٠
شمس الدين محمد الحلبي ١٥٣
شمس الدين محمد الشامي ١٤٠
شمس الدين محمد الشيرازي ٤٠٢
شمس الدين المصري ٣٥٧
شهاب الدين أبي بكر محمد ٧٢
شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله
السهروردي ٢٠١
شهاب الدين الأرمني ٧٥
شهاب الدين أحمد ٥٢ ، ٢٠٠
شهاب الدين أحمد الجامي ٣٨٧ ، ٤٧٢ ، ٥٢٨
شهاب الدين أحمد بن علي ١٥١
شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن محمد
الإسكندري ١١٠
- شرف الدين الزواوي المالكي ٤٦ ، ٩٥
شرف الدين السحاوي ٣١
شرف الدين قاسم بن سنان ١٢٧
شرف الدين ، قاضي البهنسا ٤٨
شرف الدين موسى ١٩٢ ، ٣٢٤
شعيب المغربي ١٤٠
شكروقي ، سلطان سيلان ٥٩٤
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن حسان
القيسي الوادي آشي ٨٥
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي
الأموي ٧٢
شمس الدين بن تاج العارفين ٤٧٦ ، ٥٣٢
شمس الدين بن القفصي ٩٤
شمس الدين بن الرجيجان ٢٨٤
شمس الدين بن عبد الله بن تمام ١١٠
شمس الدين بن عدلان ٤٦
شمس الدين بن ناصر الدين بن غياث الدين
بلين ٤٣٩
شمس الدين ابن بنت تاج الدين بن حناء ٤٦
شمس الدين ابن بنت التنيسي ٢٤
شمس الدين بن النقيب ٦٥
شمس الدين بن النقويش المصري ٦٨١
شمس الدين الأصهباني ٤٦
شمس الدين الأندكافي ٤٥٦
شمس الدين البذخشاني ٥٢٥
شمس الدين البوشنجي ٤٠٥ ، ٤١٣
شمس الدين التبريزي ٤٦٤
شمس الدين الحريري ٤٥
شمس الدين الدمشقي الحنبلي ٣١٥
شمس الدين محمد بن سالم الغزي ٥٩

صدر الدين الحنفي ٤٠٢
 صدر الدين سليمان المالكي ٣٠
 صدر الدين سليمان الفتيكي ٣١٦
 صدر الدين سليمان الكززي ٣٥٧
 صدر الدين الغماري ١١٠
 صدر الدين الكهراني ٤٢٠
 صدر الدين الملتاني ٤٨٣
 صدر الشريعة ، قاضي ألكات ٣٦٦ ، ٣٦٨
 صفى الدين الطبري المكي ٢٥٠
 صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي ٢٣٨ ،
 ٣١٤
 صفية بنت عبد المطلب ١٢٥
 صلاح الدين بن أيوب ٥٧ ، ١١١
 صلاح الدين خليل بن كيكليدي الملاي ٦٥٣
 الصهيوئي الطبيب ٣٥٩

ض

ضياء الدين أبي النجيب السهروردي ٢٠١
 ضياء الدين خداوند زاده ٥٠٢
 ضياء الدين السناني ٤٧٢
 ضياء الملك بن شمس الملك ٤٨٨

ط

الطائع ٢٢٦
 طارق بن زياد ٦٦٥
 طاش خاتون ٢٠٨ ، ٢١٢
 طالش بن الجوبان ٢٢٩
 طاهر بن شرف الملك ٤٩٦
 طشط ، أمير مصر ٤٣

شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد
 المقدسي ١٠٩
 شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم
 ابن حسن بن علي بن بيان الدين ١٠٨
 شهاب الدين بن البرهان ١٥١ ، ١٥٣
 شهاب الدين بن جلال الدين عمر بن صلاح الدين
 صالح البنجالي ٥٨٠
 شهاب الدين بن جهيل ٩٤
 شهاب الدين بن الصباغ ٥٠
 شهاب الدين بن عبد القفار ٥٢
 شهاب الدين بن مسكين ٥٢
 شهاب الدين الحموي ٢٨٥
 شهاب الدين الحنفي ٦٥٤
 شهاب الدين الرومي ٥٢٦
 شهاب الدين الزرندي ١٢٣
 شهاب الدين السايي ٣٤٠
 شهاب الدين الشراشي ٩٧
 شهاب الدين الطبري ٥٩ ، ٦٥٤
 شهاب الدين علي الرجاء ٢٠١
 شهاب الدين قلندر ١٧٢
 شهاب الدين الكازروني ٥١٠ ، ٥٦٤
 شهاب الدين محمد بن سام الغوري ٤٢١
 شهاب الدين النويري ١٥١
 شهر الله ٤٩٠
 شيدا الفقير ٦١١

ص

صارر بك ابن تليكتسور ٣٢٤
 صارم الدين بن الشيباني ٧٤
 صاروخان ، سلطان مغنيسية ٣٠٥

عبد الرحمن البيساني ٨٦
عبد الرحمن ، قاضي مالي ٦٨١
عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ١٢٥
عبد الرحمن بن القاسم ٤٠
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن النجدي ١٠٩
عبد الرحيم القناوي ٥٢ ، ٢٨٢
عبد العزيز الاردويلي ٢١٢ ، ٤٥٦
عبد العزيز المقدشاي ٦٠٩
عبد الله بن أبي بكر بن الفرخان التوزري ٢٨٢
عبد الله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب ١٢٥
عبد الله بن الزبير ١٤٢ ، ١٦٤
عبد الله بن عمر ١١٥ ، ١٤٣ ، ١٦٥
عبد الله بن محمد بن عبد الله ٢٠٢
عبد الله بن محمد الحضرمي ٥٨٠
عبد الله ، قاضي جدة ٢٤٣
عبد الله التويسي ٢٨١
عبد الله الكردي ٢٣٧
عبد الله الكفيف ٩٣
عبد الله محمد بن عبد الرحمن ١٤٧
عبد الله محمد بن يوسف بن إبراهيم الفريزي ١٠٩
عبد الله محمد المهدي ١٣٣
عبد الله الحروي ٤٨٧ ، ٤٩٦
عبد المؤمن بن علي ٦٦٧
عبد الواحد المكناسي ٥٢ ، ٦٨١
عبد الوهاب ٢٩
عبيد الله بن عبد الله بن عمر ١١٨
عتبة الغلام ١٨٨
عثمان بن عفان ٩٠ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٨٦ ، ٦٣٨
عثمان الشيرازي المعروف بشاوش ٥٩٦
عثمان المرتدي ٣٩٨

طنى خاتون ٢٩٦
طنيشمور ، السلطان ٢٣١ ، ٣٨٣
طفيل بن غانم ٢٨٠
طفيل بن منصور بن جبار الحسيني ١٢٤
طلحة بن عبيد الله ١٨٧ ، ٦٤٩
طلحة العبد الوادي ٦٥٣
طوغان الفرغاني ٤٧٨
الطيّار سماعة الجرائي ١٤٠
طيطلي خاتون ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٦١
طيّان الحاجب ٦٤

ظ

الظاهر ٢٢٦
ظهير الدين الزنجاني ٤١٤ ، ٥٣١
ظهير الدين المعجمي ٩٦
ظهير الدين القرلائي ٦٣٧

ع

عائكة بنت الحسين ٢١٩
عامر بن رؤيب ، سلطان حلي ٢٤٧
عامر الشرق ١٦٢
عائشة ، رضي الله عنها ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٦٣
عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحرائي ١١٠
العباس بن عبد المطلب ١١٦ ، ١٢٥
عبد الجليل المغربي ٥٤
عبد الحسن الإسكندري ٨١
عبد الحميد المعجمي ١٢١
عبد الرحمن الاسفرايني ٢١٢
عبد الرحمن أخو عائشة ١٤٣

عجلان أمير مكة ٢٤٤
 عرقلة الدمشقي الكلبي ٨٥
 عز الدين أخى جلبي ٣١٩
 عز الدين بن أحمد الرفاعي ٣٠٤
 عز الدين بن الأشمرين ٣١
 عز الدين بن بدر الدين بن جماعة ٤٥ ، ٤٦٥٢ ، ٦٥٤
 عز الدين بن مسلم ٩٥
 عز الدين البنتاني ٥٣٢ ، ٥٤٥
 عز الدين الدمشقي ٦٥٢
 عز الدين الزبيري ٥٣٢ ، ٥٤٥
 عز الدين فرشتي ٢٩٩
 عز الدين القلانسي ١٠٦
 عز الدين المليحي الشافعي ٣١
 عز الدين منبر ٣٢٩
 عز الدين الواسطي ١٢٠ ، ١٥٣
 عزيز الخمار ٥٢٥
 عضد الدين الشونكاري ٤٥٦
 عطيفة بن أبي نجي ١٤١
 عفيف الدين التوزري ٣٠٦ ، ٣٢٤ ، ٣٦٥
 عفيف الدين الكاساني ٤٧٤
 عقيل بن أبي طالب ١٢٥
 عكاشة بن محسن الأسدي ٣٨١
 علاء الدين ، السلطان ٥٤٠
 علاء الدين المعروف بالأنقر ١١٨
 علاء الدين الأوجي ٥٦٨
 علاء الدين أديجي ٦٠٢
 علاء الدين أرتنا ٢٩٧
 علاء الدين الأمي ٣٢٣
 علاء الدين بن الأثير ١٨٦
 علاء الدين بن البهاء ٨١
 علاء الدين بن غانم ١٠٦
 علاء الدين بن هلال ١٤١ ، ٢٤٠
 علاء الدين الرومي ٢٨٤
 علاء الدين السلطانيوكي ٣٠٩
 علاء الدين طرمشيرين ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٥٨
 علاء الدين علي بن شمس الدين محمد ٢٣٦
 علاء الدين علي بن يوسف بن عبد الله الشافعي ١١٠
 علاء الدين علي المصري ٤٤٧
 علاء الدين القسطنطوني ٢٩١
 علاء الدين القانوني ٩٤ ، ٦٥١
 علاء الدين الكردي ٧٥
 علاء الدين الكرمانلي ٤١٩
 علاء الدين محمد شاه الخلجي ٤٢٩ ، ٤٥٩
 علاء الدين النيلي ٤١٩
 علاء الملك خدائوند زاده ٣٧٦ ، ٣٨٠
 علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين ٣٩٩
 علم الدين بن سالم ٥٤
 علي بك بن السلطان سليمان بادشاه ٣١٥
 علي بن أبي بكر بن عبد الله القلانسي العطار
 البغدادلي ١٠٨
 علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ٤٧ ، ٦٧ ،
 ٧٩ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ،
 ٢٩٣ ، ٣٨٨ ، ٦٤٩
 علي بن أحمد الرفاعي ٢٩٨
 علي بن إدريس المصري ٢٦٦
 علي بن أرزق الأمير ٣٣٦
 علي بن حبيب التنوخي ١٨
 علي بن حجر الأموي ١٢٧

عياض القاضي ١٢٣
عيسى بن حزون المكناسي ١٢٣
عيسى بن علي ٢٦١
عيسى البدوي ٧٦
عيسى البربري ٦٦٥
عيسى بك ، أمير الألوس ٣٣٦
عيسى بن الحسن بن أبي منديل ٦٦٦
عيسى بن طاطا ٦٤٨
عيسى اليميني ٥٧٨ ، ٥٨٣

غ

غازي جلبي ٣١٩
غدا بن مهنا ٤٢٨ ، ٤٩٢
غياث الدين بلبن ١٥٥ ، ٤٢٤
غياث الدين بهادور بورة ٤٢٨ ، ٤٣٩ ، ٤٨٠
غياث الدين تغلق شاه ١٨٠ ، ٤٣٦
غياث الدين الدامغاني ٥٤٥ ، ٦٠٢
غياث الدين محمد بن خواجه رشيد ٢٢٨
غياث الدين محمد حفيد الخليفة المستنصر بالله
العباسي ٣٧٨ ، ٤١٥ ، ٤٥٨

ف

فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي بن
علي بن أبي البدر ٢٢٦
فاطمة بنت الحسين ٥٦
فاطمة بنت رسول الله ١١٤
فتح التكروري ٣٤
فتح الدين بن دقيق العيد ٥٢
فتح الله المعروف بشونويش ٤٦٤

علي بن سهل الصوفي ٢٠٠
علي بن صبيح ١٦٢
علي بن منصور ٣٦٤
علي بن موسى الرضا ١٧٩ ، ٢٢٥
علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد
الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ٣٨٨
علي بن يوسف ١٦٢
علي الحيدري ٤٧٧ ، ٤٩٩
علي الرازي ٥٥
علي الزودي المراكشي ٦٨١
علي شاه بن جلال الدين الكيجي ٢٧٥
علي كلكي ٥٨٠
علي المعلم ٥٧٨
علي الهندي ٦٧٢
عماد الدين الحنفي ٩٣
عماد الدين الحوراني ٩٤
عماد الدين السنائي ٤٥٥
عماد الدين السنائي ٥١٦
عماد الدين الشونكاري ٢٧٥
عماد الدين القيصراني ١٠٥
عماد الدين الكندي ٢٣ ، ٢٩
عماد الدين الملتاني ٤٨٢
عماد الدين النابلسي ٥٩
عماد الملك سرتيز ٣٧٤
عمر بك بن السلطان محمد بن آيدين ٣٠٤ ، ٣٠٠
عمر بن الخطاب ١١٦
عمر بن صلاح الدين صالح البنجاللي ٥٨٠
عمر بن عبد العزيز ٦٧ ، ٩١ ، ١١٧ ، ٣٩٨
عمر الهنوري ٥٨٢
عمرو بن العاص ٣٧ ، ٤٢

قطب الدين أبيك ٤٢١
 قطب بن علاء الدين الخلجي ٤٥٩
 قطب الدين بختيار الكمكي ٤١٩
 قطب الدين تمهت بن طوران شاه ١٥٧ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧١ ، ٢٦١ ، ٢٣١
 قطب الدين حسين ٢٠٠
 قطب الدين حيدر العلوي ٣٨٨ ، ٤٠٣
 قطب الملك ٤٠٤ ، ٤٤٧ ، ٥١١
 قطب الدين النقشواني ٦٥٣
 قطب الدين النيسابوري ٣٨٩
 قطلوخان ٤١٣ ، ٤٣٩ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٤٧
 قطلودمور بن تليكنمور ٢١١ ، ٣٢٤ ،
 ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٥
 قوام الدين بن طابوس ١٧٨
 قوام الدين بن مكي ٦٥
 قوام الدين السبي ٦٣٧
 قوام الدين الطنجي ٢٠٨
 قوصون ٤٤
 قيران ، ملك صفدار ٤٨٦
 قيصر الرومي ٣٩٨

ك

كبك خاتون ٣٣٢ ، ٣٣٥
 كيش بن منصور بن جمار ١٢٤
 كريم الدين ، قاضي ملتان ٤٨٣
 كشلوخان ٤٠٢ ، ٤٣٦ ، ٤٨٢
 كمب الاحبار ٩٨
 كمال الدين الاشعري المصري ٦٢

فخر الدين بن الريفي ٢٣
 فخر الدين بن شهاب الدين الكازروني ٥٧٠
 فخر الدين بن مسكين ٢٩
 فخر الدين عثمان ٥٦٤
 فخر الدين ، سلطان بنجاله ٦١١
 فخر الدين القبطي ٤٤ ، ٩٦
 فخر الدين النويري المالكي ٤٩
 فربا حسين ٦٧٦
 فربا مغا ٦٩٢
 فربا موسى ٦٩٤
 فريد الدين البذاوي ٤١٠
 فضالة بن عبيد ٩٩
 فضل الله الرضوي ٣٦٠
 فيروز ملك ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٧٠ ، ٤٩٢
 فيروز البديخشاني ٥٣٩
 فياض بن مهنا بن عيسى ١٧٤

ق

القادر ٢٢٦
 قازان ملك التتر ٦٩ ، ٥٣٩
 القاهر ٢٢٦
 القائم ٢٢٦
 قبولة الملك ١٥٦ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ،
 ٥١٢ ، ٥١٨
 قثم ، سلطان جنيبيل ٥٤١
 قثم بن العباس بن عبد المطلب ٣٧٨ ، ٤٥٨
 قراسنقور ، الأمير ٧٦
 قرطي ، الأمير ٦٤٠
 قرطية ، والي طرابلس ٨١

مجد الدين القاسم بن عبد الله بن المولى الدمشقي ١١٠
 مجد الدين قاضي شيراز ٤٥٦
 مجد الدين القنوي ٣٠٧
 مجد الدين موسى الحسي ١٨٦
 مجد الدين النابلسي ٦٠
 مجير بن أبي الرجاء ٥٣٢ ، ٦٠٢
 محمد أوزبك ١٧٠ ، ٢٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ،
 ٣٦١
 محمد البطاحي ٣٢٨
 محمد البغدادي ٣٩٨
 محمد بن إبراهيم ١٦٢
 محمد بن آيدن ، سلطان بركي ٣٠٠
 محمد بن أبي سهل النقاش ٥٦
 محمد بن إسماعيل البخاري ٣٦٩
 محمد بن أبي الشرقي الحرباوي ٤٥٨ ، ٤٦١
 محمد بن البرهان ١٥٢
 محمد بن بزم ٥٤٢
 محمد بن جماز ٢٥٨
 محمد بن جمال الدين ٦٠٩
 محمد بن الحجر ١٥
 محمد بن الحسن العسكري ٢٢١
 محمد بن رافع ١١٠
 محمد بن رميثة بن أبي نمي ٢٢١
 محمد بن سعيد السجلماي ٦٩٩
 محمد بن سيرين ١٨٨ ، ٦٤٩
 محمد بن طغرل بن عبد الله بن الفزال الصيرفي ١٠٨
 محمد بن عبد الله بن ينومر ٦٧٧
 محمد بن عبد الله عموية ٢٠١
 محمد بن عبد الله ، قاضي تكدا ٦٩٩
 محمد بن عثمان البغدادي ١٥١

كمال الدين بن البرهان الغزنوي ٤٤١ ، ٤٤٦
 ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١٥
 كمال الدين بن الزمكاني ٧٢
 كمال الدين البجنوري ٥١٣
 كمال الدين عبد الله الأصفهاني ٦٣٣
 كمال الدين عبد الله الغازي ٤٢٠ ، ٥٢٩
 كمال الدين المراغي ٥٩
 الكنار ، سلطان كنكار ٥٩٦
 كويل ، سلطان جرفتن ٥٦٢
 كي خسرو ٤٢٦
 كي قباد ٤٢٦

ل

لقمان السرخسي ٣٨٨
 لؤلؤ دمشق خواجه ٢٢٩

م

المأمون ٤٢
 مالك بن دينار ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٦٤٩
 مالك بن طوق ٦٥٠
 ماه حق ٤٣١
 مبارك خان ٤٤٧ ، ٤٦٩
 مبارك شاه السمرقندي ٥٠٢ ، ٥١٠
 المتقي ٢٢٦
 المتوكل ٢٢٦
 مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداد ٢٠٤
 مجد الدين الأقصرائي ٤٦
 مجد الدين بن حرمي ٤٦

محمد بن علي ٧٤	محبي الدين بن يحيى بن علي العلوي ١١٠
محمد بن عمر ٦٩٥	محبي الدين الطبري ١٤٩
محمد بن فرحان التوزري ٦٠١	المختار بن أبي عبيد ٢٢٠
محمد بن قاسم القرشي ٣٩٧	المخدومة جهان ٤٠٥ ، ٤١٤ ، ٥٠٢
محمد بن النجيب ٤٨٦	مدرك بن فقوص ٦٨٩
محمد بن الفقيه الجزولي ٦٨١	مراد بك ابن ينج بك ٢٩١
محمد بن فهد القرشي ١٥٢	مرذك أغا ٣٩٢
محمد بن واسع ١٨٨ ، ٦٤٩	مروان ١١٧
محمد التوفيري ٥٤٢	المسترشد ٢٢٦
محمد الجرشي ٣٩٢	المستضيء ٢٢٦
محمد خدابنده ٧٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٧	المستظهر ٢٢٦
محمد خواجه الخوارزمي ٣٢٦	المستصم بالله العباسي ٢٢٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٨
محمد الدوري ٣٩٦	المستعين ٢٢٦
محمد شاه بن مظفر ٢٠٩ ، ٢٣١	المستكفي ٢٢٦
محمد شاه بندر ٥٦٨	المستنجد ٢٢٦
محمد شاه ينجر ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٣	المستنصر ٢٢٦
محمد شاه بن غياث الدين تغلق شاه ٤٤١	مسعود آباد ٤١٤
محمد العدني ٢٦٦	مسعود بن المنتصر ١٥
محمد العريان ٥٣٨	مسعود خان ٤٧١
محمد الفيلاي ٦٩٥	مسلم بن عقيل بن أبي طالب ٢١٩
محمد المراكشي ٥٣	مسلم الخولاني ٩٩
محمد المصمودي المغربي ٦١٠	المطيع ٢٢٦
محمد الناقوري ٥٥٥	مظفر ابن الداية ٥٣٢
محمد النيسابوري ٦٠٦	مظفر شاه ٢٠٩
محمد الهروي الكتوال ٤٠٥	مظهر الدين ٣٢٣
محمد الهمداني الصوفي ٤٥٨	معاذ بن جبل ٦١
محمد الوجدي التازي ٦٩٥	معاوية بن أبي سفيان ٩١
محمود بن سبكتكين ٣٩٢	المعتصم ٢٢٦
محمود الخيوقي ٣٦٦	المعتضد ٢٢٦
محمود الكبا ٤١٩	المعتد ٢٢٦

مهنا بن عيسى ٧٦
مودود الجسقي ٣٨٦
موسى بن قرمان ٢٤١
موسى بن نصير ٦٦٥
موسى الكاظم بن جعفر الصادق ٢٢٥
موسى المزرق ١٦٢
موسى النجراتي ٦٨٥
ميناس بك ٢٩٢

ن

ناصر الدين بن شمس الدين ٤٢٣
ناصر الدين بن العديم ٧٣
ناصر الدين بن عين الملك ٥٤٧
ناصر الدين بن غياث بن بلبن ٤٢٦ ، ٦١١
ناصر الدين بن مل ٤٩٩
ناصر الدين بن ناهض ٣٦
ناصر الدين الترمذي ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٥١٤ ، ٥٢٠
ناصر الدين الخوارزمي ٤٤٦ ، ٥٠٩ ، ٥٢٧
ناصر الدين الدرقندي ٢٠٤
ناصر الدين الفاري ٢٥٢
ناصر الدين الكافي الهروي ٥٠٩ ، ٥٢١
ناصر الدين مطهر الأوهري ١٧٨ ، ٤١٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٥٢٧
نجم الدين الأصبهاني ١٥٨
نجم الدين الأصفهاني ١٥٣ ، ٦٥٤
نجم الدين البالسي ٢٤١
نجم الدين الجيلاني ٥٥١
نجم الدين السهرقي ٤٦

المعز ٢٢٦
معروف خواجه ٢٤٠
معروف الكرخي ٢٠٢ ، ٢٢٤
معز الدين بن ناصر الدين بن غياث الدين بلبن ٤١٧ ، ٤٢٦
معين الدين الباخريزي ٥٣٩
مغيث الدين محمد بن عماد الدين السمناني ٥٢٧
المقتدر ٢٢٦
المقتفي ٢٢٦
المكتفي ٢٢٦
الملك الظاهر ٩٦ ، ١٤٤
الملك المغيث ابن الملك الفائز ، سلطان ظفار ٢٦٥
الملك مقبل ٤٩٧ ، ٥٠٠
الملك الناصر ٢١ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١١٩ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ٢٣٠ ، ٢٨٠ ، ٦٤٨ ، ٥٣٩
مشاد الدينوري ٢٠١
المنتصر ٢٢٦
منسى سليمان ، سلطان مالي ٦٨٢
منسى مغا ٦٨٩
منسى موسى ٦٨٩
منصور بن أبي نمي ٢٤٣
منصور بن جمار ١٧٩
منصور بن شكل ١٢٧
منصور بن عمر ١٦٢
منصور بن لبيدة بن أبي نمي ٢٥٨
المنصور قلاوون ٣٧ ، ٨٢ ، ١١٨ ، ٢٣٨
المهدي بن أبي جعفر المنصور ١١٨
المهتدي ٢٢٦

هزبر الدين داود ٢٤٩
 همام الدين ٣٦٠
 هلاجون الأمير ٤٨٦
 هلاون بن تنكيز التتري ٣٩٨
 هود بن عابر ٩٠
 هوشنج بن كمال الدين كرك ٤١٤ ، ٤٨٧

و

الوائق ٢٢٦
 وائلة بنت الأسقع ٩٩
 واحد الدين ٥١
 وجيه الدين البياني ٥٤٥
 وجيه الدين الصنهاجي ٢٤
 وجيه الدين الكاساني ٤٢٢
 الوليد بن عبد الملك بن مروان ٨٨ ، ١١٧
 ونار السامري ٣٩٨

ي

ياقوت الحبشي ٢٥
 يحيى الباخري ٣٦٨
 يحيى بن أحمد الرفاعي ٢٩٨
 يحيى الخراساني ١٩٣
 يحيى السلاوي ٨١
 يخشي خان ، سلطان برغمة ٣٠٦
 يزيد بن معاوية ٢٨٩
 يوسف بن رسول ١٣٩ ، ٢٤٩
 يوسف بن قرمان ، سلطان العلالي ٢٨٤
 يوسف بفرة ٤٤٩ ، ٤٧١
 ينقي بن كبك ٣٧٤
 ينج بك ، سلطان لاذق ٢٩١

نجم الدين الكبرى ٣٦٠
 نصر الله ٤٩٠
 نظام الدين البذاوني ٤١٩ ، ٤٣٩
 نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي ١٧٨
 نظام الدين الكرواني ٥٠٦
 نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروي ٢١٥
 النعمان بن بشير الأنصاري ٦٧
 النعمان بن المنذر ١٨٢
 نعمان الدين الخوارزمي ٣٥٧
 نفطي الأمير ٣٣٥ ، ٣٣٧
 نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن علي بن
 الحسين بن علي ٣٩
 نكيبة الملك ٤٤٧ ، ٤٤٩
 نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة ١٤٨
 نور الإسلام ٣٦٠
 نور الدين بن الزجاج ٣٦٨
 نور الدين السخاوي ٦٥٠
 نور الدين الزيداني ٢١٨
 نور الدين السخاوي ١٠٥
 نور الدين محمود بن زنكي ٩٧
 نور الدين علي ، سلطان اليمن ٢٤١ ، ٢٤٩
 نور الدين الكرمانلي ١٩٤ ، ٣٦٠
 نور الدين الكرلاني ٤١٩

ه

هابيل بن آدم ١٠١
 هاجر ١٣٥
 الهادي ٢٢٦
 هارون الرشيد ١٦٩ ، ٣٨٨
 هبة الله بن الفلكي التبريزي ٥٠٩ ، ٥١١

فهرس عام

٧٠٣	فهرس المواضيع
٧١٢	فهرس الأماكن
٧٢٧	فهرس الأشخاص

